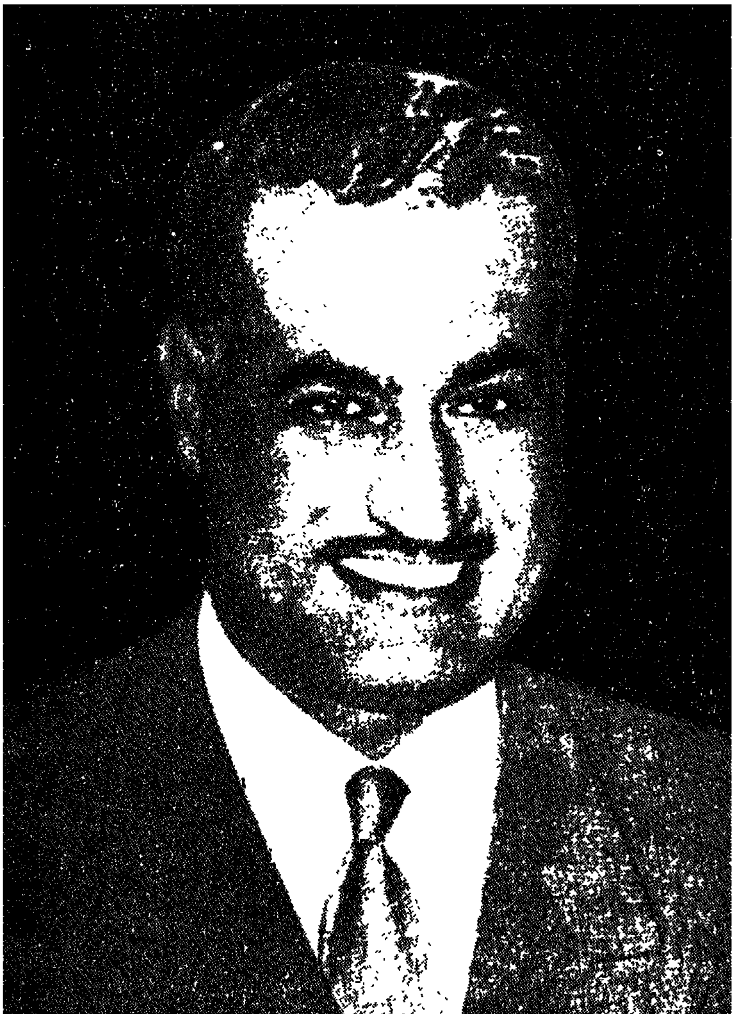
إقليم البحيرة

صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح

محمد محمود زيتون

١٩٦٢

دار المعارف بمصر



الرئيس جمال عبد الناصر

رئيس الجمهورية العربية المتحدة

أصلحت فلم تترك أرضـا   دون العمران ولو شبرا
وقضيت على الاقطاع فما   أبقيت لمحتكر ذكرا

(زيتون)



السيد / كمال الدين حسين
نائب الرئيس ووزير الادارة المحلية



السيد / محمد وجيه أباظه

محافظ البحيرة

تقديم الكتاب

بقلم : السيد / محمد وجيه أباظه
محافظ البحيرة

إنه ليسعدنى حقا أن أقدم بين يدى القارىء هذا الكتاب عن « إقليم البحيرة » الذى اضطلع بتأليفه الأستاذ محمد محمود زيتون ، وبذل فى ذلك جهدا يفوق الطاقة .

وإذا كان هذا الكتاب يهم أولا أبناء البحيرة ، إذ سيقفون - لأول مرة - على تاريخ إقليمهم ، منذ أقدم العصور إلى الآن.. إلا أنه يهم كذلك جميع المواطنين فى مصر والبلاد العربية ، فإن هذا الإقليم ، كان ولا يزال وثيق الصلات بالشرق والغرب ، على نحو فريد . لم يتوفر لأى إقليم آخر . . كما أن له كفاحه المجيد على مر العصور .

وبعد فان هذا الكتاب يعتبر أول انطلاقة اقليمية لبعث تراثنا الثقافى .. الذى تحرص ثورتنا المباركة على ابراز معالمه ، وبهذا تتشرف محافظة البحيرة .. وتعتز بانها بالنسبة لهذا الميدان فى الطليعة.

ومن دواعى الفخر عند أبناء البحيرة أنهم يسيرون فى كل مضمار ، على هدى رائد نهضتنا . وقائد ثورتنا الرئيس جمال عبد الناصر

دمنهور فى ١٣ مارس ١٩٦٢ **محمد وجيه أباظه**



هوريس (اله البحيرة)

منذ آلاف السنين



المؤلف

محمد محمود زيتون

- سكرتير عام الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية .
- مولود بمدينة ادكو - بحيرة فى ٤ مارس سنة ١٩١٦ .
- ليسانس فى الآداب والفلسفة من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ .
- اشتغل بتدريس الفلسفة والانجليزية والفرنسية بإدكو وبغـــداد وملوى وسوهاج ورشيد ودمنهور والاسكندرية .
- حائز على جائزة الدولة سنة ١٩٤٨ فى التأليف المسرحى والشعر والخطابة .
- حائز على جوائز عبد الرحمن شكرى سنة ١٩٣٥ وأحمد أمين سنة ١٩٤٢ وجامعة الثقافة سنة ١٩٤٩ .
- رئيس الشئون الثقافية بمنطقة الاسكندرية التعليمية سنة ١٩٥٩ .
- مدير العلاقات العامة بمحافظة الاسكندرية سنة ١٩٦١ .
- عضو وفد الجمهورية العربية المتحدة فى مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيـــا سنة ١٩٦٢ .

● له بحوث وأشعار فى : الأهرام ، الجهاد ، الأخبار ، روز اليوسف اليومية ، المصرى. المساء . الشعب . الجمهورية . البصير . منبر الشرق الرسالة . الرسالة الجديدة ، نهضة أفريقيا . الكتاب ، الفصول القبس ، الشهر ، الحقائق ، القاهرة ، الوعى الباكستانية ، الأزهر ، الهدى النبوى .

● له أحاديث وتمثيليات فى إذاعة القاهرة والاسكندرية .

مؤلفاته . جرس المدرسة (١٩٣٥) ـ الملك الصياد (١٩٣٥) ـ إدكو (١٩٣٥) وحدة الوادى (١٩٤٧) ـ مينا (١٩٤٨) ـ ميلاد النبى (١٩٤٨ ـ دار النشر للجامعيين) ـ جهاد النبى (١٩٥٢ ـ دار النشر للجامعيين) عند الامتحان (١٩٥٣) ـ الألعاب العربية (١٩٥٦ دار نشر الثقافة بالاسكندرية) ـ حرائق القاهرة فى التاريخ (١٩٦٠ ـ مكتبة وهبة بالقاهرة) سلسلة القصص القومية للاطفال : فارس العرب ، القائد الصغير ، (١٩٦٢ ـ الدار المصرية للطباعة والنشر بالاسكندرية) ـ الادارة المحلية فى مصر من ٥ آلاف سنة إلى اليوم (١٩٦٢ ـ دار المعارف) ـ سيدة النساء (١٩٦٢ الدار القومية للطباعة والنشر) ـ إقليم البحيرة (١٩٦٢ دار المعارف بمصر) .

فاتحة الكتاب

لست أدرى ما الذى دعانى إلى تأليف كتاب عن تاريخ إقليم البحيرة : فهل هو الوفاء لهذا الإقليم الذى نشأت فيه صغيرا وعملت فى مدنه وقراه مدرسا منذ الصبا ؟ أم هل هو حلقة تالية لكتابى عن بلدى (ادكو) الذى وضعته سنة ١٩٣٥ ؟ أم أن تطورا جديدا طرأ على مجتمعنا ، حفزنى إلى إبراز معالم هذا الإقليم ، ليقف أبناء البحيرة على ما كان لهم من أمجاد ؟

الواقع أن هذه كلها حوافز دفعتنى إلى وضع هذا الكتاب ، ولا سيما عندما أخذت الثورة بسياسة الحكم المحلى ، كتطبيق عملى للديمقراطية الصحيحة ، فكان لا بد من الوقوف على تاريخ هـــذا الإقليم العريق ، الذى أصبح لأول مرة من سنة ١٩٦٠ يسمى « محافظة البحيرة »

وإن إقليم البحيرة ليستحق أن يوضع عنه كتاب يكشف عن تاريخه ، منذ أقدم العصور ، ويعرض للأحداث التى طرأت عليه . والحضارات التى دبت فى أرجائه . والمعارك التى جرت فوق سهوله وصحاريه ، وعلى مياهه العذبة والملحة ، كما أن لأعلام هذا الإقليم أماكنهم التى اختاروها لأنفسهم فى مواكب الفكر الإنسانى ، فلهم علينـــا حق جليل لأن نذكرهم ، ونتابع جهودهم ، وننوه بمآثرهم .

وإذا كانت كتب التاريخ إنما تعنى أولا وقبـــل كل شىء بالعموميات فان للخصوصيات دورها الدقيق فى تسيير دفة الزمان ، ولهذا كانت القرى والمدن والأقاليم ضحايا هذا النسيان المتعمد . . من أين إذن نستطيع تجديد تراث لنا نعتز به ونفخر !

الحق أن الكشف عن « معالم » إقليم البحيرة فى الماضى ، إنما هو أشبه بعملية « البحث » بالنسبة لأشلاء متناثرة ، خلف ضباب العصور ، فلا بد من تسليط

الأضواء عليها حتى تتميز ، ثم تجميع بعضها إلى بعض . وتنسيق المتماثل منها فى وحدات ، يطمئن اليها الكاتب والقارىء معاً .

عمل كهذا — من غير شك — يتطلب أشق الجهود وأعنفها ، وأصدق الصبر ، وأشد الاحتمال ، وهذا هو الذى اكتنف تأليفى لهذا الكتاب ؛ فقد سهرت الليالى ؛ وخضت الاوحال . وبذلت الوقت والمال ، واسترخصت الصحة والراحة وجمعت بين المطبوع والمخطوط ؛ العربى وغير العربى ، ودانت لى — بفضل الله وحده — كل الصعاب .. فما تركت مصدرا من مصادر البحث إلا سارعت إليه ؛ مهما كلفنى ذلك . حتى لقد كنت أسافر فى البرد الشديد من الاسكندرية إلى رشيد ودمنهور والقاهره وسوهاج لاستكمال كلمة أو سطر أو صفحة أو قراءة مخطوط ، فأجد لذه ومتعة لابعدها لذه أو متعة ؛ وما يئست يوما وأنا أبحث فى ثنايا كتاب مخطوط من ستين جزءا مثل « تكملة وفيات نقلة » للعثور على ترجمة .

وفضلا عما زخرت به خزائن الكتب العامة من المخطوطات والمطبوعات ، فإن للأصدقاء الأوفياء علي من الفضل مالا أستطيع له شكرا وجزاء ؛ فقد أمدونى بالمراجع والوثائق القيمة التى لديهم وجعلوها تحت تصرفى ، فأفدت من ذلك كل الفائدة ؛ لهذا يحدونى داعى الوفاء لأن أخصهم بالشكر الجزيل .

وبعد فإن أبناء البحيرة سيفخرون كل الفخر بهذه الكنوز الغالية التى كشفتها لهم ؛ بعد أن طال عليها الأمد فاندثرت ، وبحسبهم أنهم سيرون هنا أن إقليمهم هذا كان أول مكان عرف أول ديمقراطية سليمة فى العالم أجمع ، حيث مارس أهله نظام الحكم المحلى منذ خمسة آلاف سنة . وأن أول معركة بين مصر وأوروبا ، قد جرت على سواحل هذا الاقليم ، وأن البطولة قد ألقت بذورها الأولى فيه ، فنمت وترعرعت ، وأن العلماء والأدباء والشعراء والأطباء والفقهاء ورجال السياسة والصحافة ، وشيوخ الأزهر ، والمصلحين الهداة .. كل أولئك قد نشأوا فيه أو تتلمذوا على أعلام من بطون القرى والكفور . . من إقليم البحيرة .

وكان لعرب البحـــيرة ، فى مختلف العصور . أشرف المواقف ، فى اقتحام المعارك ، دفاعا عن الشرف والكرامة ، وإذا كان المغرضون قد حاولوا تشويه

سمعةهؤلاء العرب ـ لما أصابهم منهم ـ فان التاريخ الصحيح ، والوثائق والحقائق ، هى معايير الصدق والكذب فى كل ما نشرو أذيع ، عن هؤلاء العرب الأمجاد . . الذين سنكشف عن بطولاتهم الرائعة فى سبيل الله والوطن والعروبة والاسلام .

لقد أنجبت البحيرة محمد عبده وعبد الكريم سلمان وعلى الجارم وابراهيم اللقانى وعبد الله الادكاوى وعبد القادر حمزه وغير هؤلاء مئات من الأساتذة الجهابذة ، فى جميع الفنون والعلوم والآداب ، خرجوا من الكفور إلى العالم الفسيح ، فذاع صيتهم ، وشاع علمهم فى آسيا وأوروبا وضمت خزائن الكتب فى العالم مؤلفات أبناء البحيرة .. وترجم الكثير منها .

وعلى أرض البحيرة ، تأنقت مدن وقرى ، كان لها فى خلال العصور أمجاد فى الكفاح ، مثل دمنهور ، ورشيد ، والجماد ، وإدكو ، والكريون وكفر الدوار وخربتا ، والرحمانية . وشبراخيت . وغيرها مما سيقف القارىء عليه فى باب الكفاح .

وعلى أرض البحيرة .. انتصرت البحيرة .. بل انتصرت مصر على الأشوريين والليبيين وقراصنة قبرص وصقلية .. وانتصرت على جيوش نابليون وفريزر ، وحملت لواء المقاومة الشعبية فى وجوه الطغاة المعتدين ، فارتدوا على أعقابهم خاسرين .

وبعد : فهذه هى البحيرة .. تقف فى طليعة أقاليم مصر جميعا .. بأمجادها الضخمة فى كل ميدان من ميادين الثقافة .. والحضارة .. والكفاح ..

حظيت منذ أقدم العصور حتى اليوم بزيارات الرحالة والبحارة والمؤرخين والفلاسفة والسلاطين والملوك والرؤساء فوطئت أرضها أقدام هيرودوت واسترابون وديودور ومنيلاوس وباريس وهيلانه والاسكندر وعمرو وقايتباى والغورى وجوهر وسليم الأول وصلاح الدين ونابليون ثم محمد على وذريته لتوطيد الإقطاع . حتى ضرب جمال عبد الناصر بعصاه .. فقضى على الإقطاع المزمن فى إدفينا وفى إدكو منذ احتكرتها امرأة المقوقس .

ولا يسعنى إلا أن أنوه بفضل السيد محمد وجيه أباظه محافظ البحيرة ، وتشجيعه الدائب لى ، حتى فرغت من تأليف الكتاب ، وصدوره فى هذه الصورة

بمناسبة العيـــد العاشر للثورة ، ليكون مساهمة من جانب محافظة البحيرة فى مواكب الزحف المقدس التى يحمل لواءها باعث نهضتنا وقائد ثورتنا الرئيس جمال عبد الناصر .

والأمل بعد ذلك معقود على شباب البحيرة ، لكى ينهض كل منهم - بدافع الوفاء - فيضع كتابا عن قريته أو مدينته يضمنه دقائق تاريخها وتسلسل عائلاتها وكفاح أهلها ومعالم حاضرها ؛ والتنويه بوقائع تمدنها فى ظل الثورة البناءة ، ولعل الوثائق والعقود التى يمتلكها كل منا ، وراثة عن الآباء والأجداد ، هى القواعد الأساسية لتفاصيل كل تاريخ محلى ، كما فعلت بالنسبة لتاريخ بلدى ومسقط رأسى (إدكو) ، ونحن إن فعلنا هذا تحت إشراف رؤساء مجالس المدن والقرى وبتوجيه سديد من السيد المحافظ ، استطعنا فى أقرب فرصة ممكنة أن نحصل على « مكتبة » من هذه المجموعة المؤلفة ، وفى ثبت المراجع التاريخية ما ينير الطريق لكل راغب فى هذا الزحف الثقافى ، وبهذا وحده ، نربط الحاضر المجيد « بالماضى العريق .. ونؤدى للسلف ما نشد به أزر الخالف ، ونبنى للحضارة ما توحيه علينا الحياة الانسانية ، فى معترك لا نصر فيه إلا لكل من سهم بنصيب فى الحضارة والثقافة والكفاح .

الاسكندرية :

٢٧ رمضان سنة ١٣٨١

٤ مارس سنة ١٩٦٢

المؤلف

محمد محمود زيتون

المراجع

أولا : باللغة العربية (× هذه العلامة ترمز إلى المخطوطات)

١	فتوح الشام	: الواقدى	(— ٢٠٧ هـ)
٢	فتوح مصر	: ابن عبد الحكم	(— ٢٥٧ هـ)
٣	فتوح مصر وأعمالها	: ابن إسحق الأموى	
٤	المسالك والممالك	: ابن خرداذبه	(— ٢٦٠ هـ)
٥	المعارف	: ابن قتيبة	(— ٢٧٦ هـ)
٦	فتوح البلدان	: البلاذرى	(— ٢٧٩ هـ)
٧	البلدان	: اليعقوبى	(— ٢٨٠ هـ)
٨	تاريخ اليعقوبى	: اليعقوبى	(— ٢٨٠ هـ)
٩	البلدان	: الهمذانى	(— ٢٨٥ هـ)
١٠	البلدان	: ابن الفقيه	(— ٢٩٠ هـ)
١١	الخراج	: قدامة بن جعفر	(— ٣١٠ هـ)
١٢	مسالك الممالك	: الإصطخرى	(— ٣٤٠ هـ)
١٣	مروج الذهب	: المسعودى	(— ٣٤٦ هـ)
١٤	فضائل مصر المحروسة	: الكندى	(— ٣٥٠ هـ)
١٥	ولاة مصر وقضاتها	: الكندى	(— ٣٥٠ هـ)
١٦	المسالك والممالك	: ابن حوقل	(— ٣٦٧ هـ)
١٧	أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	: المقدسى	(— ٣٨٧ هـ)
١٨	فضائل مصر وأخبارها وخواصها ×	: ابن زولاق	(— ٣٨٧ هـ)
١٩	طبقات الشافعية ×	: أبو عاصم العبادى	(— ٤٥٨ هـ)
٢٠	تاريخ بغداد	: ابن الخطيب البغدادى	(— ٤٦٣ هـ)
٢١	الأعلاق النفيسة ×	: ابن رسته	(القرن الرابع هـ)

٢٢ المغرب فى ذكر بلاد أفريقة والمغرب: البكرى (— ٤٨٧ هـ)

٢٣ معجم ما استعجم : البكرى (— ٤٨٧ هـ)

٢٤ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : الإدريسى (— ٥٦٠ هـ)

٢٥ ألف باء : البلوى (يوسف) (توفى بعد ٥٦٢ هـ)

٢٦ النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية : عمارة اليمنى (— ٥٦٩ هـ)

٢٧ معجم السفر × : السلفى (— ٥٧٦ هـ)

٢٨ الاستبصار فى عجائب الأمصار : مراكشى مجهول من القرن السادس الهجرى

٢٩ أخبار من نواحى مصر : أبو صالح الأرمنى (— ٦٠٥ هـ)

٣٠ قوانين الدواوين × : ابن مماتى (— ٦٠٦ هـ)

٣١ رحلة ابن جبير : ابن جبير (— ٦١٤ هـ)

٣٢ بدائع البدائه : ابن ظافر (— ٦٢٣ هـ)

٣٣ معجم البلدان : ياقوت الحموى (— ٦٢٦ هـ)

٣٤ معجم الأدباء : ياقوت الحموى (— ٦٢٦ هـ)

٣٥ الإفادة والاعتبار : عبد اللطيف البغدادى (— ٦٢٩ هـ)

٣٦ الكامل : ابن الأثير (— ٦٣٠ هـ)

٣٧ تاريخ الفيوم وبلاده : أبو عثمان الصفدى (كتبه سنة ٦٤٢ هـ)

٣٨ مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان : سبط ابن الجوزى (— ٦٥٤ هـ)

٣٩ التكملة لوفيات النقلة × : المنذرى (— ٦٥٦ هـ)

٤٠ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : أبو شامة (— ٦٦٥ هـ)

٤١ ذيل الروضتين : أبو شامة (— ٦٦٥ هـ)

٤٢ أخبار مصر : ابن ميسر (— ٦٧٧ هـ)

٤٣ وفيات الأعيان : ابن خلكان (— ٦٨١ هـ)

٤٤ المغرب فى حلى المغرب : ابن سعيد (— ٦٨٥ هـ)

٤٥ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ابن واصل (— ٦٩٧ هـ)

٤٦ لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العبـــاس المرسى وشيخه أبى الحسن :
ابن عطاء الله السكندرى (— ٧٠٩ هـ)

٤٧ نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر : الدمشقى (- ٧٢٧ ﻫ)
٤٨ المختصر فى تاريخ البشر : أبو الفداء (- ٧٣٢ ﻫ)
٤٩ تاج المفرق بتحلية علماء المشرق : البلوى (أبو البقاء) (- ٧٤٠ ﻫ)
٥٠ مسالك الأبصار : ابن فضل الله العمرى (- ٧٤٩ ﻫ)
٥١ طبقات الشافعية : السبكى (- ٧٥٦ ﻫ)
٥٢ نكت الهميان فى نكت العميان : الصفدى (- ٧٦٤ ﻫ)
٥٣ رحلة ابن بطوطة : ابن بطوطة (- ٧٧٩ ﻫ)
٥٤ الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية فى سنة سبع وستين وسبعماية وعودتها إلى حالتها المرضية : ×
النويرى السكندرى (- ٧٧٥ ﻫ)
٥٥ الديباج المذهب فى علماء المذهب : ابن فرحون (- ٧٩٩ ﻫ)
٥٦ تحفة الأحباب وبغيـة الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات : السخاوى (نور الدين) فرغ منه سنة ٨٠٤ ﻫ
٥٧ الانتصار لواسطة عقد الأمصار : ابن دقماق (- ٨٠٩ ﻫ)
٥٨ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : القلقشندى (- ٨٢١ ﻫ)
٥٩ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : المقريزى (- ٨٤٥ ﻫ)
٦٠ السلوك لمعرفة دول الملوك : » »
٦١ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب : » »
٦٢ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا : » »
٦٣ الطالع السعيد الجامع لنجباء أبناء الصعيد : الإدفوى (- ٨٤٨ ﻫ)
٦٤ خريدة العجائب وفريدة الغرائب : ابن الوردى (- ٨٥٠ ﻫ)
٦٥ رفع الإصر عن قضاة مصر : ابن حجر (- ٨٥٢ ﻫ)
٦٦ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة : » »
٦٧ لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ : ابن فهد (- ٨٧١ ﻫ)
٦٨ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : غرس الدين الظاهرى (- ٨٧٣ ﻫ)

٦٩ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ابن تغرى بردى (- ٨٧٤ هـ)
٧٠ التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية : ابن الجيعان (- ٨٨٥ هـ)
٧١ دستور الإعلام بمعارف الأعلام × : ابن عزم التونسى (- ٨٩١ هـ)
٧٢ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : السخاوى (شمس الدين) (- ٩٠٢ هـ)
٧٣ التبر المسبوك فى ذيل السلوك : «
٧٤ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة : السيوطى (- ٩١١ هـ)
٧٥ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : « «
٧٦ بدائع الزهور فى وقائع الدهور : ابن إياس (- ٩٣٠ هـ)
٧٧ تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب × :
: ابن زنبل الرمال (توفى بعد سنة ٩٦٠ هـ)
٧٨ تاريخ السلطان سليم × : « «
٧٩ الطبقات الكبرى : الشعرانى (- ٩٧٣ هـ)
٨٠ الطبقات السنية فى تراجم الحنفية × : تقى الدين المصرى (- ١٠٠٥ هـ)
٨١ الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية × : المناوى (- ١٠٣١ هـ)
٨٢ نيل الابتهاج بتطريز الديباج : التمبكتى (- ١٠٣٢ هـ)
٨٣ أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول : الإسحاقى
(توفى بعد سنة ١٠٣٣ هـ)
٨٤ نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب : المقرى (- ١٠٤١ هـ)
٨٥ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : ابن العماد (- ١٠٨٩ هـ)
٨٦ هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف : الشربينى (- ١٠٩٨ هـ)
٨٧ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر : المحبى (- ١١١٠ هـ)
٨٨ تاج العروس فى شرح القاموس : المرتضى الزبيدى (- ١٢٠٥ هـ)
٨٩ سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر : المرادى (- ١٢٠٦ هـ)
٩٠ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : الجبرتى (- ١٢٤١ هـ)
٩١ البدر الطالع بمحاسن من بعد التاسع : الشوكانى (- ١٢٥٠ هـ)

٩٢ المختصر الشافى على متن الكافى : محمد الدمنهورى (١٢٨٦ هـ)
٩٣ الخطط التوفيقية : على مبارك (- ١٣١١ هـ)
٩٤ الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة × : البكرى
٩٥ مصر للمصريين : سليم نقاش
٩٦ الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية : شكيب أرسلان
٩٧ كلمات فى سبيل مصر : عمر طوسون
٩٨ الصنائع والمدارس الحربية فى عهد محمد على : »
٩٩ خليج الإسكندرية : »
١٠٠ وادى النطرون : »
١٠١ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان
١٠٢ الأعلام : الزركلى
١٠٣ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : اسماعيل البغدادى
١٠٤ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة
١٠٥ » النساء : »
١٠٦ مصر فى القرن التاسع عشر : إدوار جوان : ترجمة محمد مسعود
١٠٧ القاموس الجغرافى للبلاد المصرية : محمد رمزى
١٠٨ كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر : سليمان رصد
١٠٩ الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة : محمد كامل الفقى
١١٠ أدب البشرى : الدكتور جمال الدين الرمادى .
١١١ مريوط : عبد اللطيف واكد
١١٢ الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهدى الحملة الفرنساوية ومحمد على : ابراهيم زكى
١١٣ تقويم دار العلوم سنة ١٩٤٧ : محمد عبد الجواد
١١٤ الدليل الجغرافى لأسماء المدن والنواحى المصرية : مصلحة المساحة ١٩٤١
١١٥ سكان مديرية البحيرة فى خمسين عاما : الدكتور محمد محمود الصياد
١١٦ تطور ساحل دلتا النيل

١١٧ الحالة الغربية لدلتــا النيل : الدكتور محمد محمود الصياد
١١٨ مصر تحت ظلال الفراعنة : محمد صابر
١١٩ هيرودوت فى مصر : وهيب كامل
١٢٠ ديودور فى مصر : »
١٢١ استرابون فى مصر : »
١٢٢ مصر : دريوتون وفانديه ترجمة عباس بيومى
١٢٣ إيزيس وأوزيريس : تلماك ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة
١٢٤ تاريخ مصر من أقدم العصور : بريستيد ترجمة الدكتور حسن كمال
١٢٥ مصر والشرق الأدنى القديم : الدكتور نجيب ميخائيل
١٢٦ مصر والحيــاة المصرية فى العصور القديمة : إرمان ورانكه : ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر
١٢٧ تاريخ مصر فى عصر البطالمة : الدكتور ابراهيم نصحى
١٢٨ أبو العباس المرسى ومسجده الجامع بالإسكندرية : حسن السندوبى
١٢٩ التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر : محمد عبد المنعم خفاجى
١٣٠ قاموس الأمكنة والبقاع التى يرد ذكرها فى كتب الفتوح : على بهجت
١٣١ إدكو : ماضيها . حاضرها ، مستقبلها : محمد محمود زيتون
١٣٢ على ضفاف بحيرة إدكو : عبد المنصف محمود
١٣٣ » » » مريوط : »
١٣٤ جولات فى بحيرات مصر : »
١٣٥ تاريخ القضاء فى الإسلام : محمود عرنوس
١٣٦ تاريخ الحركة القومية : عبد الرحمن الرافعى
١٣٧ فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ :
١٣٨ تراجم أعيان القرن ١٣ هـ وأوائل ١٤ هـ : أحمد تيمور باشا (- ١٩٤٠)
١٣٩ حقائق الأخبار عن دول البحار : اسماعيل سرهنك (- ١٩٢٥)
١٤٠ الكافى : ميخائيل شاروبيم
١٤١ مصر الخالدة : حسن محمد جوهر

١٤٢ مذكرات عرابى : أحمد عرابى
١٤٣ الوسيط : أحمد السكندرى وزملاؤه
١٤٤ فتح العرب مصر : بتلر : ترجمة محمد فريد أبو حديد
١٤٥ سيرة عمر مكرم : محمد فريد أبو حديد
١٤٦ بناء دولة : مصر محمد على : الدكتور محمد فؤاد شكرى وزميلاه
١٤٧ عبد الله جاك مينو : الدكتور محمد فؤاد شكرى
١٤٨ الحملة الفرنسية وظهور محمد على : «
١٤٩ مصر فى مطلع القرن التاسع عشر : «
١٥٠ سواحل مصر : أحمد العدوى
١٥١ جغرافية مصر : متسنجر باشا (- ١٨٧٥ م) ترجمة يعقوب صبرى
١٥٢ مصر القديمة : سليم حسن (- ١٩٦١ م)
١٥٣ أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى : «
١٥٤ غادة رشيد : على الجارم (- ١٩٤٩ م)
١٥٥ المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى :
الدكتور محمد مصطفى زياده
١٥٦ التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر :
الدكتور جمال الدين الشيال
١٥٧ استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط :
الدكتور على ابراهيم حسن
١٥٨ دراسات عن المؤرخين العرب : المستشرق مارغوليوس ترجمة
الدكتور حسين نصار
١٥٩ مقالات النديم : جمعها محمد منتصر
١٦٠ مذكرات عبد الله نديم السياسية : نشرها الدكتور محمد أحمد خلف الله
١٦١ مصر والجغرافيا : فريدريك بنولا : ترجمة أحمد زكى باشا
١٦٢ مدونة الأمير غانم بن عياض الأشعرى ×
١٦٣ تاريخ الأمة القبطية وكنيستها : للسيدة بتشر وترجمة اسكندر تادرس

١٦٤ خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر : لجنة التاريخ القبطى
١٦٥ صور من تاريخ القبط : جمعية مارمينا
١٦٦ القول الإبريزى للعلامة المقريزى : مرقس جرجس
١٦٧ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١٦٨ « المماليك الجراكسة : « ابراهيم على طرخان
١٦٩ « الأيوبيين « السيد الباز العرينى
١٦٠ العمارة الإسلامية فى مصر : الدكتور كمال الدين سامح
١٧١ متحف الحضارة المصرية : وزارة المعارف سنة ١٩٤٩
١٧٢ أبو قير : ابراهيم الفحام
١٧٣ محمد عبده : الدكتور عثمان أمين
١٧٤ محمد عبده : عباس محمود العقاد
١٧٥ الحركة الفكرية فى مصر : الدكتور عبد اللطيف حمزة
١٧٦ نصيحة الإخوان بتحريم شرب الدخان × : إبراهيم اللقانى (١٠٤١ ﻫ)
١٧٧ أديان العرب فى الجاهلية : محمد نعمان الجارم
١٧٨ دائرة المعارف الإسلامية : مقال عن « البحيرة » كتبه Becher
١٧٩ المآذن المصرية : الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم
١٨٠ تاريخ الحضارة المصرية : نخبة من الأساتذة : وزارة الثقافة والإرشاد القومى
١٨١ الألفاظ المكفرة × : بدر الرشيدى
١٨٢ مجالس الخضرى الرشيدى × : خليل الخضرى الرشيدى (- ١١٨٦ ﻫ)
١٨٣ شرح ابن عقيل × : ابراهيم الجارم (- ١٢٦٥ ﻫ)
١٨٤ حاشية على تقرير الشرشيمى × : « «
١٨٥ شرح على لامية البوصيرى × : عبد الفتاح الجارم (- ١٣٠٠ ﻫ)
١٨٦ رسالة فى المطالعة بالحرام × : «
١٨٧ شرح قصيدة الشيخ محمد صالح الجارم : أحمد الجارم
١٨٨ التحفة الزهرية على الفواكه البدرية × : محمد صالح الجارم (- ١٣٢٨ ﻫ)
١٨٩ تقويم النيل : أمين سامى باشا.

١٩١ تاريخ الأستاذ الإمام : محمد رشيد رضا
١٩٢ ديوان عبد اللطيف الصيرفى : عبد اللطيف الصيرفى (- ١٣٢٢ هـ)
١٩٣ مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر : إلياس زاخوره
١٩٤ ديوسقورس : أرمانيوس البرماوى
١٩٥ اللطائف النورية فى المنح الدمنهورية × : أحمد الدمنهورى (- ١١٩٢ هـ)

ثانيا : باللغات الافرنجية

1. Alex. De Zogheb . L'Egypte Ancienne.
2. Al. Gardiner : Egypt of the Pharaohs . an introduction.
3. Forster : Alexandria.
4. Davis : Alexandria the Golden City.
5. Breccia : Alexandria ad AEgyptum.
6. Brugsch : Histoire de l'Egypte.
7. ,, : Dict. Geographique.
8. W. Budge · The Nile.
9. ,, ,, : The Rosetta Stone.
10. Daressy . Les Grandes Villes de l'Egypte à l'Epoque Copte.
11 Gauthier : Dict. des noms geogr. dans les textes hiérogliphiques
12. ,, : Les Nomes d'Egypte depuis Herodotes jusqu'à la conquète arabe.
13. ,, : Bibliographie des études de geogr. égypt.
14. Ad. Cattawi : Causeries sur les hieroglyphes et deux étapes de l'hist. ancienne de l'Egypte.
15. Viel : Les Campagnes navales de Moh. Ali et d'Ibrahim.

16. Weygand : Hist. militaire de Moh. Ali et de ses fils.
17. Meta Williams . Whence came St. George. ?
18. Griffith : Archaeological Report.
19. Omar Toussoun : Memoires : la Geogr de l'Egypte à l'époque arabe T : I. (La Basse Egypte) 1,3 parties.
20. Amelineau : Geographie de l'Egypte à l'époque Copte.
21. Ah. Chafik : L'Egypte moderne et les influences étrangères.
22. Hanotaux : La Nation Egyptienne.
23. Precis de l'histoire d'Egypte.
24. Faivre : Canopus, Menouthis, Aboukir.
25. De Cosson : Mareotis.
26. Burmester : A guide to the Monasteries of the Wadi' N-Natrun.
27. Pline . L'Histoire Naturelle.
28. Et. Combe : Alexandrie Musulemane.
29. Sheta : Moslem sea powêr.
30. L. Lloyd : Egypt since Cromer.
31. J. Cattawi : Coup d'œil sur la cronologie de la nation égyptienne.
32. Cressaty : L'Egypte d'Aujourd' hui.
33. De Sande e Castro : L'Egypte.
34. Ch. de la Roncière : La Geographie de l'Egypte á travers les ages. [Hanotaux T : 1]
35. Groupe de savants : l'Egypte.
36. Sonnini : Voyage dans la Haute et Basse-Egypte.
37. Bionet : Dict. Geogr. de l'Egypte.
38. : Dict. Geogr. de l'Egypte
39 : An Atlas of Ancient Egypt.
40. : Bulletin de la Société Sultanieh de Geographie.

41 : Bulletin de la societé d'archéologie d'Alexandrie

42. · Annales du service des antiquités de l'Egypte.

43. : Description de l'Egypte.

44. · Greece : (Hachette).

ثالثا : وثائق تاريخية تحت يد المؤلف : نحو ٧٠ وثيقة .

١ ـ منها وثائق المحاكم الشرعية بالاسكندرية ورشيد وإدكو منذ ٣٥٠ سنة.

٢ ـ ووثيقة نفاذ الكلمة لشيخ مشايخ إدكو بختم محمد على ١٢٢٢ هـ .

٣ ـ « منح كوم البصيل لأرسلان أغا بختم محمد على ١٢٥٢ هـ .

٤ ـ « عن مقبرة ومسجد الجد الرابع للإمام الشافعى بإدكو بتاريخ ٧٦٧ هـ .

رابعا · مقالات المؤلف فى الصحف : عن البحيرة .

١ ـ بحيرة إدكو بين الصيادين والملاحين : الأهرام فى ٣ فبراير ١٩٤٩ .

٢ ـ حوريس على عرش البحيرة : « فى ٨ سبتمبر ١٩٥٣ .

٣ ـ يوم النصر فى رشيد : « فى ٣١ مارس ١٩٥٣ .

٤ ـ سد أبو قير خط الدفاع الأول عن مصر : « فى ٨ سبتمبر ١٩٥٣ .

٥ ـ فى ذكرى معركة رشيد : المساء فى ٥ أبريل ١٩٥٨ .

٦ ـ ملاحات إدكو بين ماضيها وحاضرها : البصير فى ١١ أكتوبر ١٩٥٨

٧ ـ بحيرة إدكو ، وإدكو بحيرة : « فى ١٧ « «

٨ ـ الرشايدة يفتكون بالقراصنة والمستعمرين : الجمهورية فى ١٨ سبتمبر ١٩٥٩

٩ ـ عيد الثورة فى بحيرة إدكو : « فى ٢١ « «

١٠ ـ كنوزنا المعطلة فى أعماق بحيراتنا وعلى شواطئنا : الأهرام فى ٣٠ مارس ١٩٦٠ .

خامسا : الدوريات والصحف والمجلات والاطالس الجغرافية والتاريخية :

الوقائع المصرية . الأهرام . الشعب . المساء . الجمهورية . البصير . الحقائق . الهلال . المقتطف . الكتاب . الرسالة . الأخبار . المصور . آخر ساعة .



١

بحيرة البحيرات

طبيعة الإقليم

يأخذ إقليم البحيرة شكل مثلث : ضلعه الأيمن : فرع رشيد ، من الجهة الشرقية ، وضلعه الأيسر : صحراء ليبيا من الجهة الغربية . وضلعه الأعلى : البحر الأبيض المتوسط . ابتداء من مصب النيل عند رشيد ، حتى حدود محافظة الإسكندرية ، من الجهة الشمالية فهو يشغل بصفة عامة المنطقة الواقعة غربى فرع رشيد . ويجمع بذلك بين التربة الخصبة ، التى تكونت على مر العصور من فيضانات النيل ، وبين الأراضى الصحراوية والسهول والكثبان ، أى أنه يجمع بين ثلاثة من مظاهر الطبيعة وهى : النهر والبحر والصحراء ، كما يجمع بين شتى أنواع المعيشة : كالزراعة والصيد البرى والبحرى . والزراعة ، والتجارة ، والملاحة والصناعة ، واستخراج الملح والنطرون .

وتقع (دمنهور) عاصمة الإقليم فى منتصف هذا المثلث الذى تنبسط فى أعلاه من الشمال ثلاث بحيرات هى من الشرق إلى الغرب : بحيرة إدكو . بحيرة أبو قير ، بحيرة مريوط . ولم يبق منها غير الأولى والأخيرة ، وقد جرت عليها أيضا أحداث من الجفاف والتجفيف ، وكان ثمت فرع من النيل يسمى الكانوبى ولكنه اندثر ، وأصبحت هذه الرقعة تتقاسمها الترع والقنوات .

بحيرة البحيرات

و (البحيرة) فى اللغة تصغير (بحرة) ، وهى البقعة الفسيحة من الأرض المنخفضة ، وربما أطلق اسم (البحيرة) على هذا الإقليم بسبب ذلك ، كما يقول

Lane . ولكن القلقشندى [1] يرى — على سبيل الظن — أنها نسبة إلى (بحر أبو قير) ، ويعترض على ذلك Ch. Becher [2] بأن هناك عدة بحيرات لا بحيرة واحدة فى شمال الإقليم ، تجف فى بعض أوقات السنة . وفى رأيى أن هذه البحيرات لم تكن منفصلة بعضها عن بعض ، ولهذا جف بعضها ، وجفف البعض الآخر ، وكثيرا ما كان يخلط المؤرخون والجغرافيون بين بحيرة إدكو وبحيرة أبو قير ، وبحيرة المعدية ، وبحيرة الإسكندرية ، وبحيرة مريوط .. نظرا لهذا الاتصال الوثيق بين هذه المساحات الشاسعة من المياه ، فلا عجب إذا أطلق اسم «البحيرة» على هذه البحيرات ، وما حولها من الأراضى التى كانت تغمرها الميـاه أحيانا ، إذا فاض النيل ، وزاد منسوب الماء فى البحيرات .. فسمى الإقليم كله بالبحيرة.. على أنها بحيرة « البحيرات » ، وسنفرد فى الصحفات التالية فصلا عن بحيرات «البحيرة» ، والفرع الكانوبى . وأشهر الترع التى تشق هذا الإقليم ، وتروى أراضيه .

وليس معنى هذا أن التسمية العربية للإقليم دليل على أنه لم يكن موجودا قبل العرب ، بل سنرى العكس من ذلك فيما يلى من الفصول ، ولكن المدهش حقا أنه كان يطلق اسم « البحيرة » على إحدى مقاطعات غرب الدلتا منذ العصر الصاوى البطلمى ، ويسميهـا المؤرخون « بلاد البحـيرة Pays du Lac. » أو La demeure du lac ، وهو الذى يسميه اليونان (إقلـيم بحيرة مريوط La Mareotide) وهى التى ذكرها (بروكش Brugsch) بالأصل الهيروغليفى (پا — مرتى Pamerti) فى قاموسه وفى مجلة الآثار المصرية وكذلك (لانجلوا Langlois) فى هذه المجلة [3] ويذكر بروكش أيضا (تنترمـو Tntremou) ويترجمها (شافر Schaffer) وبرستيد باسم « مدينـة السمك The fish city) ويقول (جوتييه) : وهى فى الدلتا . ولابد أنها كانت تقع قرب البحر ملاصقة لإحدى البحيرات العديدة فى غرب الدلتا ويرى نافيل Naville أنها قريبة من Papremis اليونانية ومعناها (محل أو معبد السمك) .

---

(١) صبح الأعشى : ج ٣ ص ٢٣٩

(٢) دائرة المعارف الاسلامية

(٣) Gauthier : Dict. T. 3 P. 88

وسيرى القارىء أيضا أن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من بحيرتى مريوط وأبو قير كان يطلق عليها فى التقسيمات الإدارية من عهد العرب « البحيرة » ثم جرى عليها التطور فأصبح الإقليم كله يسمى « البحيرة » .

على أن إقليم البحيرة عريق فى حضارته . أصيل فى مظاهر العمران حتى لقد تحدث « ابن وصيف شاه » [1] عنه ولا سيما الجزء الشمالى منه على نحو يثير العجب . لما كان هناك من عمران ، فيقول [وكانت العمارة ممتدة فى رمال رشيد والإسكندرية إلى برقة ، فكان الرجل يسير فى أرض مصر ، فلا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ولا يسير إلا فى ظلال تستره من حر الشمس ، وقد عمل الملك (صا) بن قبطيم ، فى تلك الصحارى قصورا . وغرس فيها غروسا وساق إليها من النيل أنهارا . فكان يسلك من الجانب الغربى إلى حد الغرب فى عمارة متصلة ، فلما انقرض أولئك القوم ، بقيت آثارهم فى تلك الصحارى ، وخربت تلك المنازل . وباد أهلها ، ولا يزال من دخل تلك الصحارى ، يحكى ما رآه فيها من الآثار والعجائب] .

وإذا رجعنا إلى الوراء نتلمس تاريخ الدلتا المصرية عند أقدم المؤرخين ، لنقف على معالم طبيعتها رأينا (هيرودوت) يزور مصر قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو ٤٤٥ سنة وينزل على الإغريق المستوطنين فى مدنهم بإقليم البحيرة . ويقيم فى (كوم سمعدى) شرقى الإسكندرية ، ويغادرها إلى(نقراطيس) وكانت بالقرب من (كوم جعيف) الحالية ، ثم إلى (ميت رهينة) ، و(المطرية) حتى يركب النيل ، ليستكمل رحلته المشهورة .

ويحدثنا (هيرودوت) عن فروع الدلتا ؛ عند ما ينساب النيل حتى يصل إلى مدينة (كركاسوروس = صيدية) حيث يتفرع إلى ثلاثة فروع : الفرع البيلوزى Pelusiaque (فرع دمياط) شرقا . والفرع الكانوبى Canopique (المندثر وكان يصب عند كانوب شرقى أبو قير) غربا . والفرع السبنيتى S bennytı ، ويمضى مستقيما نحو الشمال ، ليصب فى (بحيرة المنزلة) ثم اندثر ،

---

(١) جواهر البحور

وكان يتفرع منه فرعان آخران هما : الفرع السايسى (نسبة إلى سايس = صا الحجر) والفرع المنديسى .

أين إذن فرع رشيد من الدلتا ؟ يقول هيرودوت : إن الفرع البولبيتينى (فرع رشيد وكان يصب عند بولبيتين Bolbitine = رشيد حاليا) ، لم يكن من الفروع الطبيعية للنيل ، وإنما حفره المصريون بأيديهم كمحاولة لتجفيف المستنقعات .

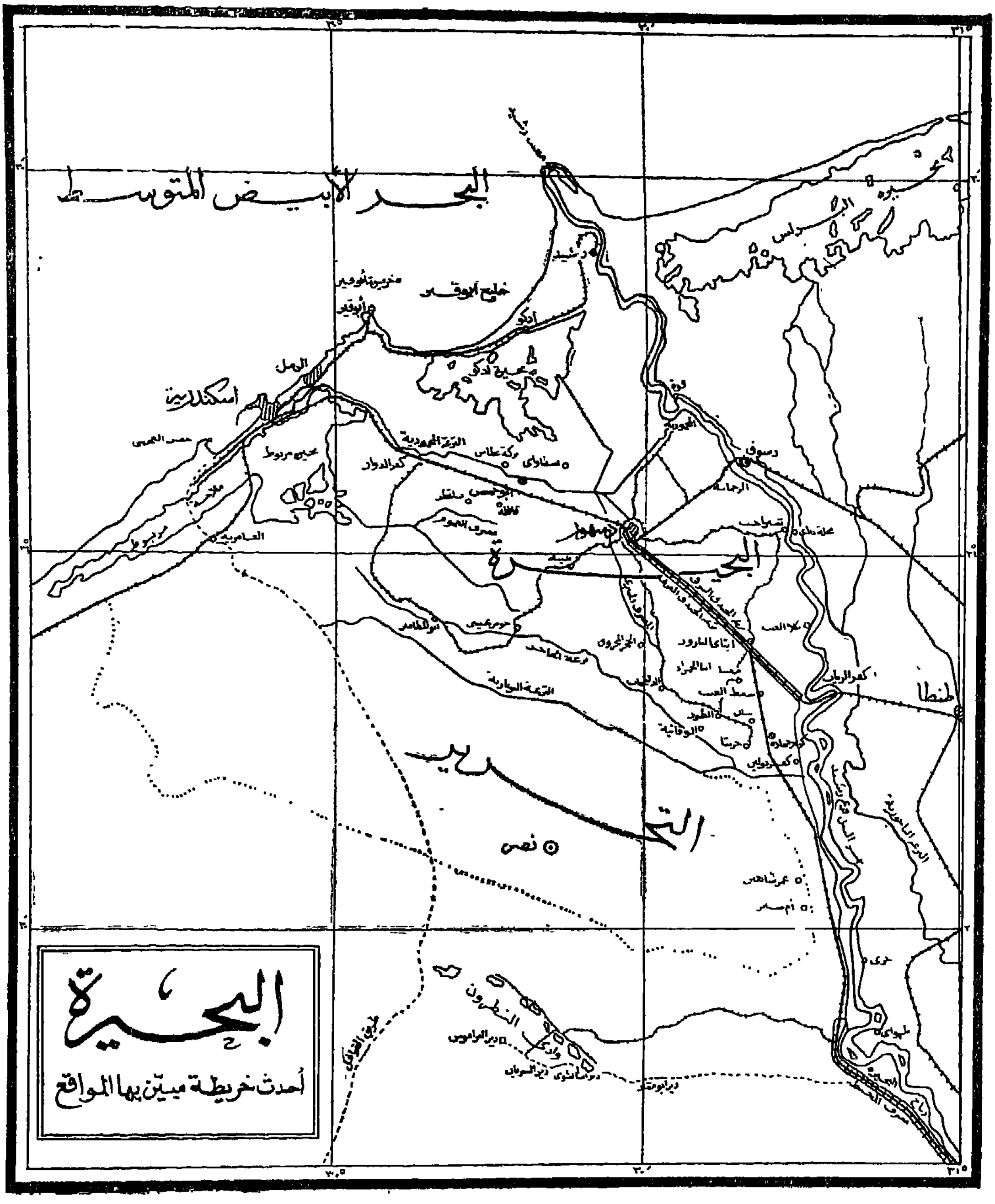
وإذا عرفنا أن (هيرودوت) زار الدلتا ، عندما كان النيل يغمرها بفيضانه فقد سجل بنفسه فى هذه الزيارة أن مياه النيل كانت تغطى الدلتا وسائر البلاد الليبية غربا ، وما كان يسميه اليونانيون (بلاد العرب) شرقا ، وعندئذ تبرز المدن المصرية فوق الماء ، ويتنقل المصريون عبر هذا البحر بالقوارب ، فإذا صعدت فى النهر - كما يقول (هيرودوت) - من (نقراطيس) إلى (منفيس) وجدت نفسك بجوار الأهرامات . وهو غير الطريق المسلوك الذى تمضى فيه مجاورا لرأس الدلتا و(كركاسوروس) . وإذا أبحرت من البحر ، وأقلعت عبر (الفرع الكانوبى) إلى (نقراطيس) مررت فى طريقك إليها بمدينة (أنثيللا) ومدينة (أرخاندروس) .

ولم ينس هيرودوت أن يذكر معامل الفسيخ Tarichees التى كانت منتشرة على سواحل مصر . وخصوصا فى (كانوب) التى اشتهرت بالفسيخ المصنوع من السمك النيلى ، وكانت له شهرته الواسعة فى الأزمنة القديمة كما يقول (لوسيان Lucian)[1] .

وبعد هذه الزيارة بثلاثمائة سنة تقريبا ، زار الدلتا (ديودور Diodore) قادما من جزيرة صقلية . ووصف لنا مصر السفلى كما وجدها : مثلث له ضلعان متطرفان ولكن فروع الدلتا جميعا سبعة منها فى الجهة الغربية اثنان هما : البولبيتينى (فرع رشيد) والهرقلى (الكانوبى) .

---

(١) The Ship P : 15.



البحر الأبيض المتوسط
خليج أبوقير
رشيد
أدكو
بحيرة أدكو
أبوقير
الرمل
اسكندرية
كفر الدوار
دمنهور
البحيرة
بحيرة البرلس
طنطا
نصر
النطرون
البحيرة
أحدث خريطة مبيّن بها المواقع

وشهد (ديودور) بوجود مصبات أخرى غير طبيعية ، على رأس كل منها مدينة ذات أسوار عالية ، لها على كل من جانبي الفرع ميناء ، وتربطهما قناطر ، ومن حولها قلاع وحصون فى عدة جهات .

وزار الدلتا أيضا فى هذا القرن من الزمان (استرابون Strabon) الجغرافى المؤرخ المدقق ، فيأتى وصفه مطابقا لما شاهده (ديودور) ، ويؤكد أن فرعى الدلتا : البيلوزى والكانوبى (الهرقلى) ، يحصران بينهما خمسة مصبات أخرى معروفة ، وعددا آخر من المصبات أقل أهمية عن الأولى ، حتى أصبحت الدلتا كلها صالحة للملاحة - على حد تعبيره - وقد شقت فيها ترع فوق ترع .

وإذ يتحدث (استرابون) عن الإسكندرية بإسهاب ، يعرج على (بحيرة مارية) التى هى (بحيرة ماريوطيس Mareotis) وهى الآن (بحيرة مريوط) ، التى - كما يقول - يملؤها [1] النيل بواسطة قنوات عديدة من أعلا ومن الجوانب ، والبضائع التى تحمل إليها عن طريق هذه القنوات أكثر بكثير مما يرد إليها عن طريق البحر ، حتى أن الميناء الواقع على البحيرة ، كان أغنى من الميناء البحرى ، وأكثر منه حركة ونشاطا .

ويصف لنا (استرابون) أيضا مستنقعات مصر وبحيراتها الشمالية ، ونبات البردى الذى ينتشر فيها ، كما يتحدث عن الطريق الموصل من الاسكندرية عند الباب الشرقى (باب كانوب) إلى مدينة كانوب (أبو قير) ، ويتابع فى دقة بالغة خط سير ترعة الإسكندرية الممتدة من بحيرة مريوط إلى كانوب ، وفى الطريق تقع (شيديا) أى القنطرة وهى الآن (كوم النشو) شرقى (كفر الدوار) وتصل الاسكندرية بضاحيتين هما : (إيلوزيس) قرب (النزهة) حاليا ، و (نيكوبوليس) وهى (الرمل) .

ويذكر (استرابون) بعد (كانوب) إلى الشرق مدينة (هرقليوم) وهى الآن (الطابية الحمراء) أو (الكوم الأحمر) ، وبها معبد (هرقل) ، القائم على مصب الفرع الكانوبى والذى يسمى أيضا (الفرع الهرقلى) وعلى يمينه (متاطعة

---

(١) « الجغرافيا » ف ٧

مينيلايت) وسميت باسم (مينيلاوس) أخى (بطليموس الأول) ، كما سنرى تفصيل ذلك فى وضعه المناسب ، وقد حرص (استرابون) على وصف الكعك الكانوبى والسمك ten·a وأم الخلول tellines وقال إن النوع الذى كان يصاد من النيل أشهى مذاقا من النوع البحرى ، والنوع الصغير - ويسمى الملكى - كان أسهل هضما وأغنى بالمواد الغذائية كما يقول أتنيوس النقراطيسى (١) .

الفرع الكانوبى :

يعتبر أرسطو (٢) المتوفى سنة ٣٢٢ قبل الميلاد أن الفرع الكانوبى وحده هو المجرى الطبيعى من فروع النيل ، وأن ما سواه من عمـــل الأيدى البشرية بقصد تجفيف أراضى الدلتــا .

وقد رأينا من هذه اللفتة التاريخية أقدمية (الفرع الكانوبى) بالنسبة لفرع رشيد ، وإن اختراقه لإقليم البحيرة على هـذا النحو ، ليتطلب منـا الحديث عنه ، بطريقة مبسطة ، وبمنأى عن الجدل الطويل . الذى تورط فيه الباحثون العرب والإفرنج،فى فترات متباينة من العصور،ويعتبر(دى بوا إيميه Du Bois - Aymé) وهو أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر - من أشهر المعنيين بهذا الجانب فى بحثه المشهور الذى رفعه إلى المعهد الفرنسى بمصر فى ٣١ أغسطس سنة ١٨١٣ تحت عنوان « الفروع القديمة للنيل » Les anciennes branches du Nil وكتب متقدمته التاريخية المسيو (فوريبه M. Fourier) فى كتاب « وصف مصر » الجزء الثامن (٣) .

أين يبدأ الفرع الكانوبى وأين ينتهى ؟ وما هى مخلفاته من مدن وترع وموانىء ؟ عنـــد (بطن البقرة) يبـدأ كل من فرعى رشيد ودمياط طريقه إلى أرض الدلتــا ، أما فرع رشيد فيمر (بالرحمانيـة) حتى ينتهى إلى (بحيره أبو قير) التى كانت تقع بين بحيرتى إدكو ومريوط ، وتمتد ترعة كبيره تسمى (ترعة موغارين Mogaryn) ، وهى التى مكنتنا من اكتشاف آثار موقع (الرحمانيـة) على يمين

---

(١) Athenoeus de Naucratis : Banquet of Sages III P. 90

(٢) Meteorologica I.

(٣) Description de l'Egypte : L : 8 P : 58

ترعة الاسكندرية ، وتخترق (بحيرة أبو قير) حتى تصل إلى (المعدية) عند البحر ، غير بعيدة عن آثار (كانوب) القديمة .

ويرى (إيميه) أن تاريخ تكوين (بحيرة أبو قير) يرجع إلى سنة ١٧٧٨ ، نظرا لوقوف السد الحجرى الذى نسميه (سد أبو قير) حائلا بين تدفق مياه البحر نحو مسطح البحيرة ، ويشير إلى ما ذكره (الجنرال رينييه Reynier) فى كتابه « مصر بعد موقعة هليوبوليس » (١) فيما يختص ببحيرة إدكو ، التى - فى نظره - نشأت إثر فيضان سنة ١٨٠١ بسبب فتح (ترعة ديروط) بأمر الجنرال مينو .

ولكن التاريخ لا يسنده فى هذا الزعم ، كما سنرى فى غير هذا الموضع ، ويكفى أن مصدر الخطأ يرجع إلى اعتقاد (إيميه) بأن فتحة بحيرة إدكو (عند بوغاز المعدية) هى فتحة بحيرة أبو قير ، وأن فتحة بحيرة إدكو تقع عند مصب الفرع الكانوبى القديم ، الذى ينتهى عند ترعة أبو قير اعتمادا على ماذكره (لانكريه Lancret) .

وكانت (شيديا) تقع على الفرع الكانوبى ، قرب الترعة الموصلة إلى الاسكندرية ، وقد ظهرت آثار (شيديا) على جزيرة متخلفة عن بحيرة أبو قير.

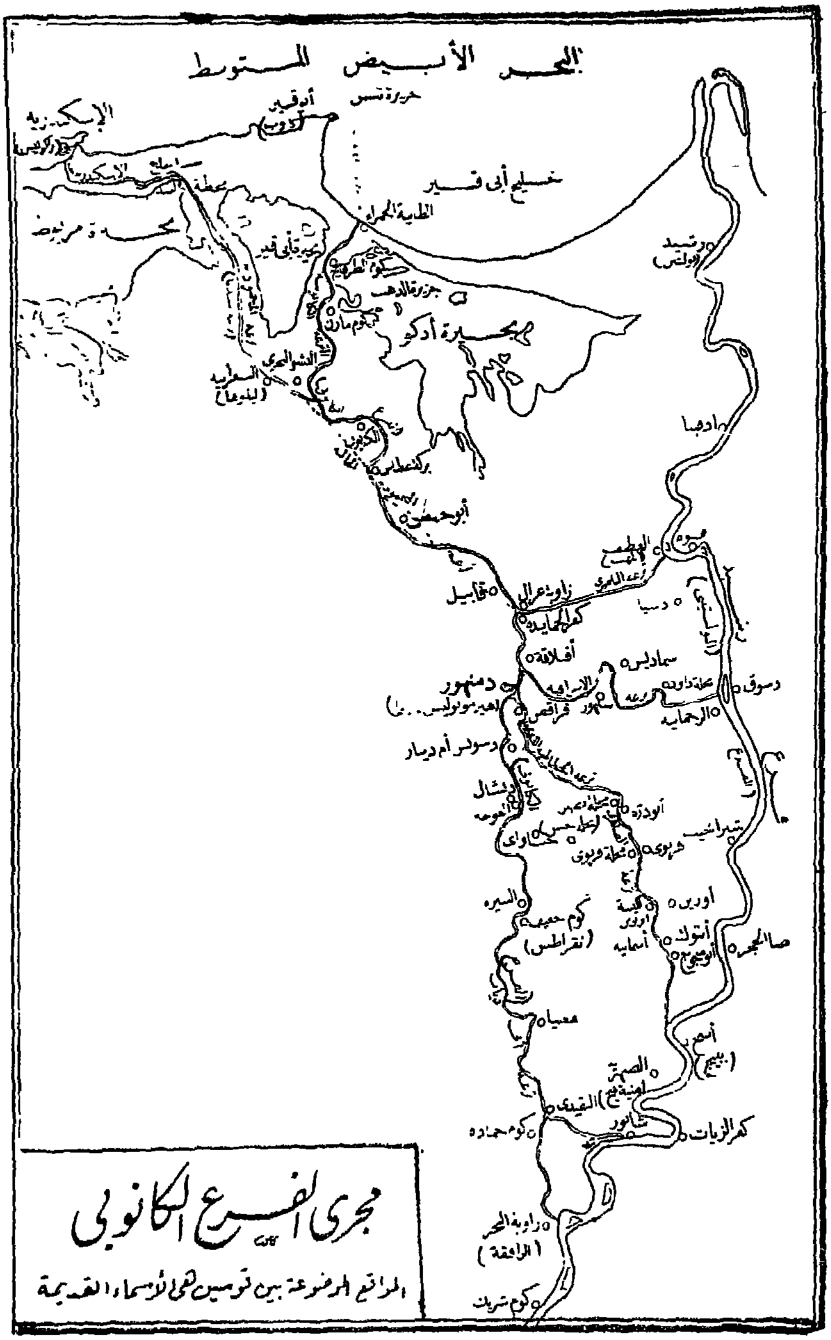
وكان (بلين Pline) قد وضع المصب الكانوبى على مسافة اثنى عشر ميلا شرقى الاسكندرية ، وهى المسافة التى حددها (اميان مارسلان Ammien Marcellin) بين كانوب والاسكندرية ، ابتداء من السور الشرقى للاسكندرية الذى أقامه العرب ، بينما تبلغ المسافة بين هذا السور ومصب بحيرة إدكو ستة عشر ميلا ، وكان الفرع الكانوبى ممتدا فى البحر نحو ميل جنوب رأس (زفيريوم) كما يقول (فيفر Faivre) (٢) .

وقد أطلق (ديودور) و (استرابون) على الفرع الكانوبى اسم (الفرع الهرقلى) كما قلنا وكذلك فعل (بلين) ، والسبب فى ذلك يرجع إلى (هيرودوت)

---

(١) De L'Egypte après la bataille d'Heliopolis

(٢) Canopus, P : 19


البحر الأبيض المتوسط
جزيرة نلسن
أبوقير
خليج أبي قير
الإسكندرية
بحيرة مريوط
الطابية الحمراء
جزيرة الدهب
بحيرة أدكو
رشيد
(بولتين)
إدفينا
الكريون
أبوحمص
قابيل
كفر الحمايدة
أفلاقة
دمنهور
سمادليس
وسوق
الرحمانيه
وسوتير أم دينار
أودزه
أوريى
شبراخيت
أنتوك
صا الحجر
كوم حصين
(نقراطس)
النيرة
محيات
الصبرة
كفر الزيات
كوم حماده
زاوية البحر
(الراهقة)
كوم شريك
مجرى الفرع الكانوبي
المواقع المرضوعة بين قوسين هي الأسماء القديمة

الذى يذكر أنه كان يوجد على شاطىء البحر عند مصب الفرع الكانوبى (معبد هرقل)وهو ملجأ مقدس يأوى إليه العبيد الآبقون ، وكثرت حوله المنازل ، حتى نشأت مدينة (هرقليوم) ، التى تحدث عنها (استرابون (ومكانها الآن (الطابية الحمراء) غربى المعدية .

ويقول (بلين) إن بعضهم أطلق على الفرع الكانوبى (الفرع النقراطيسى) وذلك لوقوع مدينة(نقراطيس Naucratis) على ضفتيه ، أما بطليموس الجغرافى الذى عاش فى منطقة أبو قير فقد سماه (النهر العظيم) وأيضا (أجاثوديمون Agathodemon) ومعناها (العبقرى الطيب) .

على أن (إيميه) قد أشار إلى ملاحظة لها دلالتها ، وهى أن القسم الأخير من مجرى الفرع الكانوبى ، كان شبه متواز مع ساحل البحر ، مما يدعونا نحن إلى التساؤل عن منسوب هذه المنطقة ، وأى جهتيها أعلى من الأخرى : الشرقية أم الغربية؟ وليس الجواب على ذلك بالأمر اليسير ، فليتابع معى القارىء عدة صفحات لنخرج منها بالحقيقة .

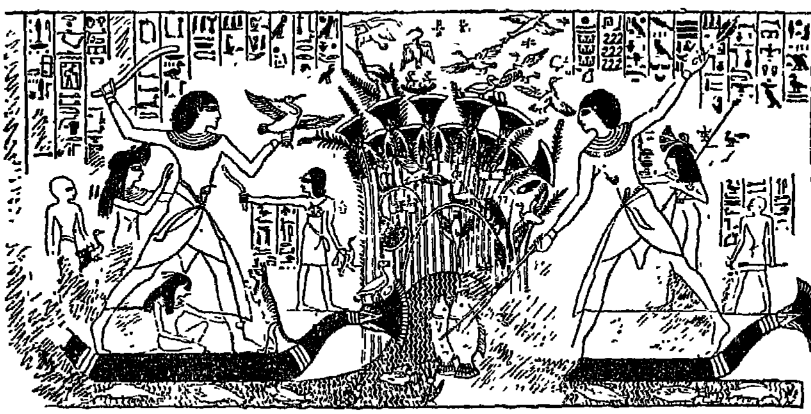
فرع رشيد

يمتد إقليم البحيرة وتتراامى أرجاؤه من الشرق حتى الضفة اليسرى لفرع رشيد، وهو الذى كان يسمى (البولبتينى) وفى رأى (هيرودوت) و (أرسطو) أنه غير طبيعى ، وإنما حفره المصريون ، وهو فى نظر (استرابون) الفرع التالى للفرع الكانوبى مباشرة من الشرق ؛ وقد أجمع (هيرودوت) و (استرابون) و (بطليموس الجغرافى) على أنه كان يسمى نهر (تالى Tali) ، ولكنهم أطلقوا عليه أيضا اسم (الفرع البولبيتينى) نسبة إلى مدينة (بولبتين Bolbitine) التى كانت تقع عند مصبه ، وحلت محلها مدينة (رشيد) وباسمها سمى (فرع رشيد)، وقد كان يبدأ من أصل الكانوبى،وما زال به حتى قضى عليه ، وورث عنه أهميته بعد أن كان يعتمد عليه كل الاعتماد حتى نما ثم تخلى عنه عند (الرحمانية) ولم تكثر انحناءاته من هناك - كما كان الشأن فى الفرع الكانوبى - بل وجد لنفسه مهدا ممهدا، يسر له تدفقه نحو البحر فى المنحدر الحالى .

هذان هما الفرعان اللذان كانا يصلان إقليم البحيرة بماء النيل ، ويتركان على أراضيه من الغرين الخصب طبقات يعلو بعضها بعضاً مع الزمن ، وإذا كان الكانوبى قد اندثر ، فإن مجراه ما يزال قائماً إلى الآن يقوم بعمله منذ آلاف السنين ، وليس فى مصر كلها إقليم قد أنعم الله عليه بفرعين من النيل إلا البحيرة بحيرة الخصب والرخاء .

بحيرات البحيرة

هناك فى شمال إقليم البحيرة تقع ثلاث بحيرات هى من الشرق إلى الغرب : بحيرة إدكو وبحيرة أبو قير ، وبحيرة مريوط ، أما الأولى فقد سميت خطأ (بحيرة الإسكندرية) ، وأما الثانية فقد كانت تسمى أحياناً (بحيرة المعدية) وأحياناً أخرى (بحيرة السد) أو (بحيرة إدكو) والأخيرة كانت أيضاً تسمى (بحيرة مارا)



صيد الطيور والأسماك
فى مستنقعات البحيرة أيام الفراعنة

وقد نشأت هذه البحيرات من عصور سحيقة إذ كانت مستنقعات شاسعة الأرجاء ، تصاد منها الطيور المائيـة والأسماك منذ الأزمنة الفرعونية ، التى وصلتنا معالم حياتها اليومية ، عن طريق الصور والرسوم ، وفيها تظهر القوارب الخفيفة ، وهى تشق الأعشاب المائية النامية ، والصياد يدفع زورقه وسطها

بالمدراة ، والأسماك والطيور من حوله هنا وهناك ، وهذا الذى كان من قديم الزمان ، لا يزال حتى الآن ، على ما كان عليه من الطرق البدائية فى اصطياد خيرات الطبيعة أينما وجدت .

ومن الطبيعى أن تنشأ هذه البحيرات من مياه المستنقعات التى تفيض وتنحسر، مع فيضان النيل وانحساره ؛ ولذا كانت أطراف هذه البحيرات تجف : ويظل الجفاف يزحف حتى يصل الناس عبرها ، بين مختلف المدن والقرى . سيرا على الأقدام أو على ظهور الدواب ، وعلى مر العصور ، ظلت هذه البحيرات متغيرة غير مستقرة ، حتى بدأت سياسة تجفيف بعضها أو كلها لتحويلها إلى مزارع ، منعا من انتشار حمى الملاريا المتسببة من البعوض ، ولسد حاجات المواطنين فى هذا الإقليم . وهم يزدادون بكثرة ملحوظة تتطلب توفير ما يكفل لهم العيش ، قبل أن تنشب الأزمات الاقتصادية أظفارها .

وفى وقتنا الراهن ، لم يعد هناك من (بحيرة إدكو) التى كانت مساحتها نحو ٥٧ ميلا مربعا ، إلا مقدار الثلثين بعد أن جففت الحكومة بعض أجزائها ابتداء من سنة ١٩٤٨ وحولتها إلى مزارع ناجحة ، أما (بحيرة أبو قير) فلم يعد لها وجود الآن ، بعد تدعيم (سد أبو قير) بالحجارة الضخمة عند البحر منذ سنة ١٨١٦ ، كما أن (بحيرة مريوط) قد جف معظمها ، والباقى فى سبيله إلى التجفيف أيضا ، تمشيا مع السياسة الاقتصادية للدولة .

ولقد شغل المؤرخون والجغرافيون والجيولوجيون جميعا ببحث تكوين البحيرات ولا سيما بحيرات (البحيرة) ، وأيها أسبق فى الوجود ، وما طرأ على كل منها من تطورات ، وسنعرض فيما يلى لسلسلة من هذه البحوث ، لما لها من أهمية فى تاريخ البحيرة ، من شتى النواحى العمرانية والسياحية .

ويرى أستاذنا المرحوم أحمد العدوى (١) اعتمادا على آراء علماء الجيولوجيا أن العوامل الجيولوجية كالمد والجزر لها المكانة الأولى فى تكوين البحيرات ،

---

(١) سواحل مصر : مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٥ جزء ١

فضلا عما ذكره (هيوم Hume) (١) من تأثير حركات الهبوط فى الساحل الشمالى ، منذ القرن السادس الميلادى ، وما كان قبلها من حركات ارتفاع ، فى آخر عهد البيلستوسين ، أعقبها ظهور طبقات ، تحف بالساحل فى معظم امتداده .

وفى رأى أستاذنا أن (بحيرة مريوط) قد انفصلت عن البحر ، بسبب هذه الشطوط ، الواقعة بينها وبين خليج أبو قير تلك الشطوط الرملية التى تعهدتها يد الإنسان بالتقوية ، منذ نشأت (ترعة الإسكندرية) مبتدئة من (فرع رشيد) عند (الرحمانية) إلى أن تدخل (الإسكندرية) بمياه الشرب العذبة ، كما أن هناك شطوطا رملية أخرى ، كانت تفصل (خليج أبو قير) عن منطقة (بحيرة أبو قير) التى كانت متصلة بالبحر ، ثم انفصلت عنه فى زمن العرب .

ما هى العوامل إذن التى أبقت على كل من (بحيرة مريوط) و (بحيرة أبو قير) على الرغم من انفصالها عن البحر؟ والجواب على ذلك يتلخص فى سقوط الأمطار فى موسمها ، والرشح فى وقت الفيضان ولا سيما أن المنطقة رملية ، ويندر فيها أن توجد أحجار جيرية ، وأخيرا طغيان ماء البحر عند (سد أبو قير) فى حالة إهمال الاستحكامات التى كانت تقوم بها الحكومات ، لتقوية وصد التيارات البحرية ، نظرا لانخفاض هذه المنطقة التى تحيط به ، عن منسوب سطح البحر ، أما (بحيرة إدكو) فإنها لم تزل متصلة بالبحر ببوغاز المعدية ، مما يدعو إلى الظن بأنها كانت متصلة اتصالا مباشرا بخليج أبو قير ، وفصلتها عنه شطوط رملية وغرينية ، كما أن الفرع الكانوبى كان عاملا من عوامل تكوينها .

على أن بحيرات غرب الدلتا كانت مستودعات لمصارف إقليم البحيرة فى منافذها للبحر ، ويظهر أن نظام الصرف لم يكن معروفا قبل القرن الثامن الهجرى حيث يقول المقريزى عن أحداث سنة ٧٢١ هـ : [لما عمل السلطان الجسور وأنشأ عليها القناطر صار الماء إذا روى بلاد البحيرة يجد ما يمنعه من الخروج إلى البحر فيتراجع ثم خرق من موضع خرقا كالمجراة ، واتسع حتى صار

---

(١) Geology of Egypt

خليجا صغيرا يمر على أراض لم يكن من عادتها أن يعلوها الماء ، فأخبر الأمير ركن الدين القلنجقي كاشف البحيرة السلطان بأن عدة من الأراضي التي في بلاد المتطعين قد شملها الري] (١) .

ويجب ألا ننسى أن الأستاذ العدوي - وهو عالم جغرافي وجيولوجي - قد رجع في بحثه هذا إلى أقوال المؤرخين ومنهم الإدريسي والمقريزي وعلي مبارك وعمر طوسون ، وأخيرا (إتين كومب Etienne Combe) في بحثه التيم المنشور سنة ١٩٣٣ باسم «الإسكندرية الإسلامية : مذكرات عن طبوغرافية المدينة وتاريخها منذ الفتح العربي حتى يومنا هذا » وهو بحث مستفيض له أهميته الكبرى في تتبع نشأة البحيرات المصرية شرقي الاسكندرية وجنوبيها ، من خلال أقوال مؤرخي العرب ، وتقارير الرحالة القادمين ، من الخارج إلى الاسكندرية ، في سلوكهم الطريق منها إلى رشيد ، ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن التاسع عشر ، وما قامت به بعد ذلك الحكومة المصرية من عمليات للصرف والتجفيف والري .

وفي كتابي (إدكو) الذي وضعته سنة ١٩٣٥ ، بحث عن نشأة (بحيرة إدكو) اعتمدت فيه على تطورات المجاري المائية في مختلف العصور ، وكان الضوء كله مسلطا على (بحيرة إدكو) ، ومع شديد اعتزازي بوثاقة النتيجة التي وصلت إليها ، بدراستي المستقلة ، منذ سبعة وعشرين عاما ، إلا أن المراجع الضخمة التي اطلعت عليها فيما بعد ، ومع سعة الإلمام بالمنهج العلمي ، كل ذلك يتطلب مني عرض آخر ما وصلت إليه من النتائج ، بعد غربلة هذه البحوث وتصفيتها . وعرضها في يسر وبسط .

---

(١) السلوك : قسم ١ جزء ٢ ص ٢٣١

بحيرة إدكو

وإذا كان (استرابون) كما رأينا قد تحدث منـــذ أكثر من ألفى سنة عن مستنقعات غرب الدلتا إطلاقا ، وذكر على سبيل التخصيص (بحيرة مريوط) ، فإنما يفهم من ذلك أن سائر البحيرات الواقعة شرقيها كانت موجودة ، ولكنها لم تكن قد تميزت بعد بأسماء ، كما هو الشأن فى بحيرة مريوط .

وتمضى قرابة خمسمائة سنة بعد (استرابون) ، ولا نظفر بشىء قل أو كثر عن تطورات هذه البحيرات حتى يبدأ مؤرخو العرب الأقدمون كتاباتهم عن مصر ، بطريق الرواية ، فيتحدثون عن موضوعنا هذا حديثا يستحق منا النظر سواء بالتقدير أو بالتعديل حتى تستقيم بحوثهم مع الواقع الملموس .

من ذلك مثلا ما رواه (ابن عبد الحكم) وهو كما نعلم مولود بالاسكندرية سنة ١٥٥ هـ وتوفى بالفسطاط سنة ٢١٤ هـ ـ وقيل بعدها ـ على اختلاف الروايات والمهم أنه عاش بعد (استرابون) بنحو سبعة قرون ، وليس قبله عربى نستطيع منه الحصول على ما نرجو .

وقد أخطأ ابن عبد الحكم أولا عندما أطلق اسم (بحيرة الاسكندرية) على (بحيرة إدكو) ، وقد يكون الخطأ ناتجا عن شهرة (الاسكندرية) . بحيث حجبت عنها ما كان يجـــاورها من الأقاليم ، خصوصا وأن الاسكندرية كانت عاصمة مصر الأولى ، منذ أسسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل الميـــلاد ، وظلت كذلك فى عهد البطالمة والرومان ، ولما فتح العرب مصر سنة ٦٤٠ م، لم تعد عاصمة البلاد بعد اختيار الفسطاط لتكون أول عاصمة لمصر الإسلامية وسنرى فى تطور التقسيم الإدارى كيف كانت الإسكندرية تستحوز على ما حولها ، حتى أطلق على هذه المنطقـة كلها (منطقة الإسكندرية) ، التى كانت تمتـــد من الاسكندرية حتى تضم إليها إقليم البحيرة أو على الأقل الجزء الشمالى منه .

من أين استقى (ابن عبـــد الحكم) إذن معلوماته عن (بحيرة إدكو) ؟ وماذا قال عنها ؟ .. يقول ابن عبد الحكم [حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث

ابن سعد] ثم يروى لنا تاريخ (بحيرة إدكو) فيقول : (١)

[كانت بحيرة الاسكندرية (ويقصد بحيرة إدكو) كلها كروما لامرأة المقوقس ، فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم ، فكثر الخمر عليها حتى به ذرعا ، فقالت لا حاجة لى فى الخمر ، أعطونى دنانير ، فقالوا : ليس عندنا ، فأرسلت عليهم الماء فغرقتها ، فصارت بحيرة ، يصاد فيها الحيتان ، حتى استخرجها بنو العباس ، فسدوا جسورها ، وزرعوا فيها] .

وبعد ابن عبد الحكم بثلاثة قرون ، يلقى الإدريسى (المتوفى سنة ٥٦٠ هـ) ضوءا قويا على (البحيرة) التى ذكرها ابن عبد الحكم دون أن يطلع على ما قاله فيقول (٢) عن النيل إنه [ينقسم فى أسفل أرض مصر (الدلتا) إلى أربعة أقسام فثلاثة أقسام منها تصب فى البحر الشامى ، وقسم واحد يصب فى البحيرة الملحة التى تنتهى قرب الإسكندرية ، وبين هذه البحيرة وبين الاسكندرية تسعة أميال ، وهى لا تتصل بالبحر ، بل هى من فيض النيل ، وهى تشغل مساحة محدودة ، وتسير موازية لساحل البحر على مقربة منه] .

وعلى الرغم من أن الإدريسى ذكر هذه « البحيرة الملحة » دون أن يعين اسمها ، فإنه حدد المسافة التى بينها وبين الاسكندرية ، وأوضح بعض معالمها ، واتجاهها ، ثم يستطرد إلى خليج شابور أى (ترعة فزارة) فيقول : [وفمه وابتداء مخرجه من أسفل (بنيج) ويخرج من معظم هذا القسم المتصل برشيد أسفل (سنديون) ، و (سمديس) ، وأسفل (فوه) وفوق رشيد ذراع (= خليج أو ترعة) من النيل فيمر إلى مستقر بحيرة تتصل بقرب الساحل ثم تمر ممتدة مع الغرب ، إلى أن يكون بينها وبين الإسكندرية نحو ستة أميال ..] ثم يقول : [وعلى مقربة من أسفل (سمديس) يخرج ذراع من النيل ليس بالكبير ، يتصل ببحيرة مارة بين غرب وشمال طولها أربعون ميلا فى عرض ميلين أو نحوها ،

---

(١) فتوح مصر : ص ٩

(٢) نزهة المشتاق : الجزء ٣ من الأقليم ٣ ويلاحظ أن معظم هذه البلاد محرفة فصححناها من المراجع الموثوق بها .

وماؤها ليس بعميق ، حتى تأتى ساحل البحر المالح . وتنعطف هذه البحيرة مع الساحل ، وعلى بعد ستة أميال من رشيد ثم ترجع إلى فم ضيق فى أعلى ، سعتها مقدار عشرة أبواع فى طول رمية حجر ، ثم تتصل هذه البحيرة ببحيرة أخرى طولها عشرون ميلا . وسعتها أقل من الأخرى . وماؤها أيضا ليس بعميق ، فيسار فيها إلى أعلاها ، ومن هناك إلى الاسكندرية ستة أميال ، ثم يتحول الناس عن المراكب إلى البر ، فيسيرون على الدواب إلى الإسكندرية] .

هناك إذن بحيرتان ذكرها (الإدريسى) أما الأولى فهى قطعا (بحيرة إدكو) وأما الأخرى التى قال إنها تتصل بها فهى (بحيرة أبو قير) التى تولدت عنها بصفة أساسية وعن رشح النيل والبحر معا . وعن المطر المتساقط .

وقد أخطأ (كومب Combe) فى قراءة النص العربى : (.. يتصل ببحيره مارة) وظن أن هذه البحيرة تسمى (مارة Mara) فى حين أن الإدريسى لا يقصد أنها اسم علم ، بل هى اسم الفاعل من (مر يمر فهى مارة) ، وتورط فى ذلك عبد المصف محمود فى كتابه (١) حتى ظن أن الإدريسى نفسه وأهم فيما يقول ، وهو من الوهم برىء ، وليس فى السياق دليل على أنها بحيرة مريوط التى كانت تسمى Marea . ولأول مرة فى التاريخ ، يتصدى المؤرخ (الدمشقى) المعروف بشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧ ه ، فيـذكر اسم « بحيرة إدكو » صراحة ، إذ يقول (٢) [وبحيرة أتكو بالقرب من اسكندرية ، فيها خليج من النيل يسمى (الحائر) طوله نصف يوم ، وبحيرة بالقرب منها طولها إقلاع يوم ، وعرضها كذلك . ويصاد من هذه وهذه السمك البورى وتحمل إلى سائر الأقاليم] .

وبعد نحو مائة سنة يتحدث القلقشندى (٣) عن البحيرات المصرية . فيحصرها

---

(١) على ضفاف بحيرة ادكو ص ٣٩

(٢) نخبة الدهر ص ١٢١ وقد كتبها هكذا (أتكوا) بينما كتبها (مهرن) الناشر فى الهامش هكذا بالفرنسية Lac d' Atcou en Egypte « بحيرة ادكو بمصر » وأمامها بالعربى (أتكو) P : XIV.

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧

فى أربع نقط ، منها واحدة فقط غربى الدلتا هى (بحيرة إدكو) ولكنه يخطىء فيسميها (بحيرة بو قير) ويقول : [بحيرة بو قير ، بحيرة ماء ملح يخرج من البحر الرومى بين الإسكندرية ورشيد ولها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية يأتيها ماء النيل عند زيادته ، وبها من صيد السمك ما يتحصل منه المال الكثير ، وفيها من أنواع الطير كل غريب ، وبجوانبها الملاحات الكثيرة التى يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها] .

ثم ينوه بما وقع فيه أبو الفداء عند زيارته لمصر سنة ٧١٨ ﻫ وسيره من (فوه) إلى الإسكندرية على الخيل ، ومروره بهذه البحيرة التى ظنها بحيرة (نستروه) أى (بحيرة البرلس) ويستطرد (القلقشندى) قائلا عن (بحيرة إدكو) : [على أن هذه البحيرة قد انقطع مددها من البحر الملح فى زماننا بواسطة غلبة الرمل على أشتومها الموصل إليها الماء من بحر الروم ، نجفت وصارت سبخة طويلة عريضة ، ومات ما كان يصاد منها من السمك البورى ، وما يتحصل منها من الملح المنعقد بسواحلها ، وعاد على الإسكندرية بواسطة ذلك ضرر كبير ، لأنه كان الغالب على أهلها أكل السمك ، ويحصل لهم بالملح رزق كبير] .

وهذا الأشتوم بغلبة الرمل عليه والجفاف والسبخة الطويلة العريضة والسمك والملح ، كل ذلك لا ينطبق إلا على بحيرة واحدة لا غيرها هى بحيرة إدكو .

وإذا تتبعنا أقوال أعلام التاريخ فى هــذا الموضوع ، وجدنا أنفسنا أمام (المقريزى)[1] المتوفى سنة ٨٤٥ ﻫ وهو يتحدث عن (بحيرة إدكو) اعتمادا على ماقاله ابن عبد الحكم أولا ، فيقع مثله فى خطأ التسمية ، وينتهى صاحب « فتوح مصر » عند قوله إن بنى العباس قد استخرجوا السمك من هذه البحيرة ، وسدوا جسورها وزرعوا فيها ، فيكمل (المقريزى) القصة بقوله [ثم صارت بحيرة طولها إقلاع يوم فى عرض يوم ، ويصير إليها الماء من أشتوم فى البحر الرومى ، ويخرج منها إلى بحيرة دونها فى خليج عليه مدينتان إحداهما (الجدية) والأخرى (أتكو) وهى كثيرة المقاثىء والنخل ، وكلها فى الرمل ، ويصب فى هذه البحيرة

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٦٩

خليج من النيـل يسمى (الحافر) . طوله نصف يوم إقلاعاً ، وهو كثير الطير والسمك والعشب ، وكان السمك بوجـود هذه البحيرة فى الإسكندرية غاية فى الكثرة ، يباع بأقل القيم وأبخس الأثمان ، ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة ..]

وحينما تطرق المقريزى إلى المصايد [1] ، قال إن (بحيرة الإسكندرية) وهى طبعا (بحيرة إدكو) — « قد جفت » ، وهى التى كان يدب الموظفون إليها وإلى غيرها من البحيرات والخلجان ، لتحصيل الرسـوم المقرره كدخل للدولة بعد أن أدخلها (أحمـد بن مدبر) — والى مصر سنة ٢٥٤ هـ ـ فى ديوان المصـايد باسم « خراج مضارب الأوتار ومغارس الشبـاك » وقرر على صيادى السمك قـدرا معلوما من المال . فـكان ذلك بداية المظالم التى لحقت مصر .

كما أن السخاوى[2] ذكر فى ترجمته للغويطى قاضى إدكو المتوفى سنة ٨٩٧ هـ أنه كان ضـامنا لبحيرة إدكو بمائتى ألف بعد أن كان الصيد فيها مباحا للجميع . وكان التنافس شديدا على ضمان هذه البحيرة .

وإذ يتحدث ابن تغرى بردى [3] عن « بحيرة إدكو » وهو الذى توفى سنة ٨٧٤ هـ فإنما يتحدث باسم « البحيرة » ويسرد ما قاله ابن عبد الحـكم حتى يذكر ما فعله بنو العباس من سد جسور هـــذه البحيرة وزراعتها ثم يقول [ونمت واستمرت فى زيادة إلى يومنا هذا ، وبقى اسمها عليها لا تعرف إلا بالبحيرة] .

فهـو يبدأ النص هـكذا [والبحيره كان أصلها كرما لامرأة المقـوقس ..] وينتهى بقوله : [لا تعرف إلا بالبحيرة]

ومن هنـا يبدو لنا صراحة ما وصلت إليه بحيره إدكو من الشـهره والسعة حتى أصبح يقال لها « البحيره » بما يفيد أنه لم يـكن بجوارها بحيرات أخـرى ، أو لا يوجد ما يضارعها على الأقل ، خصـوصا إذا استرجعنا تـكملة المقريزى لما قاله ابن عبد الحـكم [ثم صات بحيرة ...]

---

(١) نفس المرجع ص ١٠٧

(٢) الضوء اللامع ج ٥ ص ٢١١ رقم ١٠٢٩

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٤٧

وفى ٨ صفر سنة ١٢٤٧ ﻫ أصدر محمد على أمرا إلى قائمقام البرلس بأن القبطان الأوروبى (ليكوس) فى طريقه إلى إدكو ومعه أربعة من أهلها، بقصد تعليمهم طريقة تجفيف السمك فى مدى شهرين، ولما كانت أسماك إدكو قد سبق أن أعطيت التزاما، ولا بد من وجود الأسماك، فقد صدرت الأوامر بإعطائه الأسماك المطلوبة من أى نوع، مع التنبيه على محافظ رشيد بصرف أجورهم من خزينة المحافظة [1].

ولكى تكتمل الصورة النهائية لبحيرة إدكو، نقتبس من على مبارك، بعد كلامه عن انقطاع الماء عنها فى عهد محمد بن مدبر عامل مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان إذ يقول:

[وبقيت الأراضى كلها سباخا لا نبات فيها، وإلى الآن نشاهد آثار المدن القديمة التى كانت هناك وهى التلال التى بداخل بحيرة إدكو وخارجها][2]

ويعود على مبارك مرة أخرى فيتحدث عن أبو قير[3] فيعيد قصة امرأة المقوقس والبحيرة ويقول: (كانت امرأة المقوقس لها بساتين كلها كرم وتسمى (البحيرة) شرقى الخليج إلى حد رشيد وكان طولها مسافة يوم. وكانت تأخذ بخراجها من الفلاحين خمرا) ويمضى فى ذكر القصة حتى يقول [فأغضبوها فأرسلت إلى عامل تلك الناحية أن يطلق عليهم البحر المالح، فأطلق عليهم البحر، من ناحية بو قير فغرقت تلك الأراضى كلها وجار الماء على تلك الأراضى، فصارت بحيرة يصاد منها السمك وكان يدخل إليها الماء من قبلى بو قير، ويخرج إلى بحيرة دونها من خليج عليه مدينتان.] ثم يذكر (الحافر) و (الجدية) و (إدكو). حتى ينقطع الماء عن هذه البحيرة فى أيام ابن مدبر ويقول [وبقيت الأراضى كلها سباخا لا نبات فيها] ويستطرد قائلا [ويستفاد من كلام المؤرخين أن هذه الأرض كانت تزرع جميعها، وكان بها البساتين النضرة وإلى الآن تشاهد آثار المدن القديمة

---

(١) أمين سامى: تقويم النيل ﺣ ١

(٢) التوفيقية ﺣ ١٠ ص ١٢

(٣) ﺣ ٧ ص ٤٩

التى كانت هناك وهى التلال التى بداخل بحيرة إدكو وخارجها] .

وتوجد مجموعة من الجزر بداخل بحيرة إدكو ، بعضها ممتلىء بالأحراش ، والبعض الآخر حجرى منفر ، وبالقرب من هذه وتلك آثار متآكلة من جدران منازل ، وجذوع أشجار ، وبقايا قصور ، وهياكل عظمية للدواب ، ولهذا لا غرابة إذا عرضنا لهذه الجزر على الترتيب الآتى :

١ ــ **جزر تدل على العمران :** القصور البحرية ، القصور القبلية ، الكنائس ، الذهب الكبيرة ، الذهب الصغيرة ، الفحوم .

٢ ــ **جزر تدل على طيور وحيوانات :** منقار البطة . منقار دياب ، الرفبه ، الدرفيل ، الحمير ، العرسة ، الجمل ، أبو راس ، الجاموسة .

٣ ــ **جزر تدل على أسماء غريبة :** البرتل ، الروعية ، الطويلة ، النقعة ، الفش ، الميت ، حسن ، فجنون ، اللكلوكة . قطارة . القتلى ، زيتون ، صاوه .

وقد لاحظنا منذ خمسة وعشرين عاما ، أن هذه الجزر ، تقع على خط وهمى يحاذى خليج أبو قير ، كما أن الرمال الواقعة بين البحر والبحيرة تضيق تدريجيا من الشرق إلى الغرب حتى يكون الاتصال عند (بوغاز المعدية) ثم تستمر مياه البحيرة حتى أسفل الطابية الحمراء .

ومن هــذا البوغاز يدخل ماء البحر إلى البحيرة ، ويخرج عن طريقه ماء البحيرة إلى البحر ، مما يجعل ماءها بين العذب والملح ، وهو المسمى (الماء الشروب)، وسمكها ــ من أجل ذلك ــ خليط من سمك النيل وسمك البحر .

وهذا البوغاز عميق ، ويبلغ عرضه الآن نحو الخمسين مترا ، وقد أنشئت عليه قنطرتان إحداهما يعبر عليها القطار ، وأخرى بحاذاتها تمر عليها السيارات والعربات ويعتبر هذا البوغاز الحد الشرقى لقرية (المعدية) التى تبعد عن إدكو بأربعة عشر كيلو مترا ، وقد سميت كذلك بسبب وقوعها عند مكان (التعدية) من الغرب إلى الشرق أو بالعكس فى الطريق بين الإسكندرية ورشيد ، وإذا صحت رواية ابن عبد الحكم ، فقد تكون فتحة هذا البوغاز هى المكان الذى قطعته امرأة المقوقس ، فانجرف الماء دافقا فأغرق مزارع الكروم .

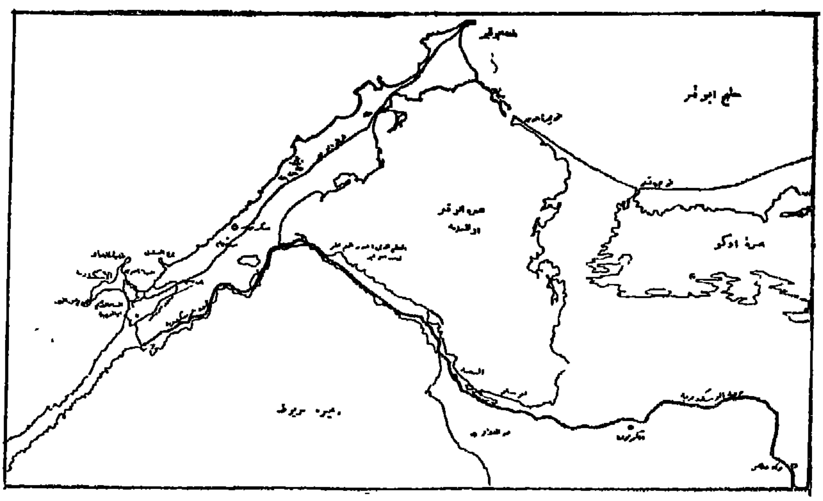
وقد تابع (كومب Et. Combe) انتقالات الأجانب القادمين إلى مصر منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وعرض نماذج من مذكراتهم ، ومن أوصافهم لرحلاتهم ، نفهم أن الواحد منهم كان يغادر الإسكندرية فيترك خرائبها ليمضى فى الرمال عن يمينه وشماله ، وغابات النخيل على اليمين وسباحات المياه على اليسار ولا وسيلة للسفر غير البغال حتى يصل إلى (بوغاز بحيرة إدكو) ، ومن هناك ينتقل إلى الضفة اليمنى على قارب ، أو على ظهر دابته إذا كان الماء ضحلا ، ثم يستأنف السير إلى رشيد مهتديا بعلامات من الحجارة تحميه من أن يضل فى هذه الفيافى الرملية ، مستظلا بالنخيل ، وراويا من مياه الآبار ، فإذا وصل إلى رشيد ، ركب النيل إلى القاهرة .

كان هذا هو الطريق البرى من الإسكندرية إلى رشيد المحاذى للشاطىء الشمالى لبحيرة إدكو ، وطالما وصفه الرحالة والسفراء ، وطالما ذكروا (الخان) أو الاستراحة أو الفندق البدائى الواقع على الضفة الشرقية لبوغاز بحيرة إدكو ، حيث يجد المسافر بعض الراحة ، ويدفع أجر العبور للبدو والصيادين ، وليس ثمت مكان آخر سوى هذا (الخان) الذى كان نواة لقرية (المعدية) . والآن تنحصر مساكنها الكثيرة فى شبه جزيرة ، يحيط الماء بها من جميع الجهات ، وعما قريب تمتد إلى الناحية الغربية حتى تصل إلى (الطابية الحمراء) ، التى تبدو الآن قائمة على تل فى أسفله أطلال (الهرقليوم) .

وباطلاعنا على رحلات المسافرين بين الإسكندرية ورشيد خلال ما يزيد على ستمائة سنة ، نرى الكثير من التحريف فى أسماء المواقع على نحو يثير العجب ، ومع ذلك فإن هذه المنطقة كانت رقعة شاسعة من الرمال ، التى تعلو وتهبط تتخللها غابات من النخيل ، والبحر فى شمالها ، والمستنقعات المترامية الأطراف ، ممتدة طوع إرادة البحر إذا طغى ، والنيل إذا فاض ، والمطر إذا سقط .

بحيرة أبو قير

تبين لنا مما سبق ، أن المستنقعات الواقعة غربى فرع رشيد ، لم تكن ثابتة الضفاف ، تجف وتفيض حسب عوامل الطبيعة ، فضلا عما يحدث فى القشرة الأرضية من ارتفاع هنا وانخفاض هناك ، على إثر الزلازل ، لهذا كانت بحيرة إدكو تترامى أطرافها غربا ، كلما فاضت مياهها ، فتجد لنفسها متسعا فى بحيره دونها هى « بحيرة أبو قير » نظرا لانخفاض منسوب المنطقة الغربيـــة عنها فى المنطقة الشرقية ، وأحيانا كانت مياه هذه المسطحات المائية تجف تدريجيا مع حرارة الشمس ، وانقطاع المـــدد المائى ، فتخلف وراءها بحيرات ، تحيط بها أرض سبخة ، انحسر عنها الماء ، والملح طاف على سطحها .



بحيرة أبو قير
بين بحيرة ادكو وبحيرة مريوط

ومن الطبيعى أن تكون المنطقة الواقعة غربى بحيرة إدكو ، والتى تفصلها عن البحر عند أبو قير تلال من الرمال ، هى المتنفس الوحيد لمياه بحيرة إدكو إذا تدفقت نحوها مياه البحر ومياه النيل ، لهذا تكونت « بحيرة أبو قير » التى أشـــار إليها (الإدريسى) فى القرن السادس الهجرى ، دون أن يذكر اسمها لعدم استقرارها ، حيث قال [.. ثم تتصل هذه البحيرة « ويقصد بحيرة إدكو »

ببحيرة أخرى » ويقصد بحيرة أبو قير ، طولها عشرون ميلا ، وسعتها أقل من الأخرى ، وماؤها ليس بعميق ، فيسار فيها إلى أعلاها ، ومن هناك إلى الإسكندرية ستة أميال ، ثم يتحول الناس عن المراكب إلى البحر ، فيسيرون على الدواب إلى الإسكندرية] ويقدر (جاكوتان Jacotin) مساحة هذه البحيرة بـ ٢٣٣٢٩ فدانا وكذلك كانت فى أواخر القرن الثامن عشر .

وتحدث (القلقشندى) عن «بحيرة أبو قير» ولكنه كان يقصد ـ بهذه التسمية التى ظهرت لأول مرة ، فى كتب المؤرخين العرب ـ بحيرة إدكو لا سواها .

ولعل أقوى العوامل فى تكوين « بحيرة أبو قير » هو انكسار «سد أبو قير» أمام طغيان مياه البحر عند اشتداد العواصف ، فتجرف أمامها كل شيء ، حتى تغمر منطقة تقع بين بحيرتى إدكو ومريوط ، وهى التى كثيرا ما تكون مزروعات يعيش عليها البدو والفلاحون وكثيرا ما كان الرحالة يسمونها « بحيرة السد » وأحيانا « بحيرة المعدية » ، ومنهم من رسمها على خريطته ، ومنهم من أغفلها ؛ لم يرسمها (بول فورلانى Paule Fourlani) سنة ١٥٦٦ ولا (دانفيل D'Anville) سنة ١٧٦٥ ، بينما رسمها (إروين Irwin) سنة ١٧٧٧ و(نيبور Niebuhr) سنة ١٧٨٠ ، وظلت على ظهر الوجود ، حتى جفت سنة ١٧٩١ ، ثم يتحدث (أوليفييه Olivier) سنة ١٧٩٤ عن هذه الناحية فيصف ما كان بها من نباتات بحرية تمتلىء بها صيفا ، ومستنقعات مائية متخلفة عن الفيضان والأمطار شتاء ، ويشير إلى السبب فى ذلك وهو إهمال السد ، وعدم تقويته بالحجارة والأخشاب ، كما يشير إلى زحف هذه البحيرة التى يسميها « بحيرة المعدية » نحو ترعة الإسكندرية ، وتأثيرها فى مائها العذب ، الذى يشرب منه أهل الإسكندرية.

وقد ضرب الإنجليز سد أبو قير سنة ١٨٠٧ بعد هزيمتهم المنكرة فى رشيد ، فحطموه ، وأغرقوا الجهات التى تلى أبو قير من الجنوب ، فامتدت المياه إلى جهات بعيدة ، ثم حصلت «شركة أراضى أبو قير» الإنجليزية على امتياز لتجفيف هذه الأراضى وبيعها ، وعملت على صرف مياهها ، ولم تزل هذه الشركة تمتص دماء الأهلين ، حتى صدر قرار حكومة الثورة بتأميمها ، ووضع ممتلكاتها تحت الحراسة .

سد أبو قير

وهو حاجز غير منيع بين البحر وبين (وادى كاهينوب) أى «وادى الذهب» نظرا لما اشتهر به من الخصب وكثرة الغلال ، فهو أحد منشآت الرومان فى نظر (ويلسون Wilson) ، والمعروف أن هذا السد هو المصب القديم للفرع الكانوبى الذى منه كانت تدخل السفن اليونانية إلى داخل البلاد ، وترسو على (ميناء نقراطيس) على مسافة ٧٠ كيلو مترا من (كانوب) وقد شهد هذا الساحل وقائع تاريخية ومعارك بحرية بالغة الأهمية ، فضلا عن هجمات القراصنة عليه من قبرص وصقلية كما حدث سنة ١٣٦٣ م . وكما جرت معركة أبو قير البحرية سنة ١٧٩٨ بين الإنجليز والفرنسيين ، وفى خلال الصراع الذى استحكم بينهم ، حطم الإنجليز « سد أبو قير » . فأغرقت مياه البحر معظم أراضى مديرية البحيرة حتى بلغت مشارف دمنهور وبرارى مريوط ، وتعطلت المواصلات ، وعملت تركيا على إصلاحه . فما لبث المماليك أن قطعوه فى وجه العثمانيين سنة ١٨٠٣ ، ثم كسره الإنجليز سنة ١٨٠٧ عند ما تقهقرت حملة فريزر بعد انهزامها فى رشيد والحماد ، وبذلك عزلوا الإسكندرية عن إقليم البحيرة ، [وانعدمت نحو مائة وأربعين بلدة] كما يقول إسماعيل سرهنك [١] ، وبادر الوالى محمد على بعد الجلاء بتسخير الملاحين سنة ١٨١٦ فى إصلاحه مما تطلب عدة سنين ، لأن عمق الماء فى داخل خليج أبو قير كان خمسة أمتار فى ناحية الجسر ، وطوله ١٢٤٣ ألفا ومائتين وثلاثة وأربعين مترا كما يقول (لينان دى بلفون) .

واستقدم محمد على المهندس الفرنسى (جاليس Galice) لدراسة وسائل الدفاع عن مصر ، فقرر أن خطوط الدفاع تنحصر فى ثلاثة وهى : الخط الساحلى، وسلسلة البحيرات ، ومصبات هذه البحيرات فى البحر . ومن أجل أهمية هذا السد ، كتبنا مقالا عنوانه « سد أبو قير خط الدفاع الأول عن مصر » (٢) .

---

(١) حقائق الأخبار عن دول البحار

(٢) الأهرام فى ١٩٥٢/٩/٨

ويبدو مما ذكره المؤرخ التركى سليمان عزى سنة ١٧٤٦ ، أن « سد أبو قير » قد تهدم فأغرق زراعات الأرز حتى هددت المياه مشارف الفيوم ، مما أثار اهتمام السلطان محمود الأول فكلف والى مصر راغب باشا بإصلاحه وتلافى أخطاره على الفور ؛ وفى سنة ١٧٧٧ شهد (البارون دى توت Baron de Tott) بأنه كان على أحسن حال ، وأن الأراضى الواطية كانت مزارع متصلة بضواحى الإسكندرية ، وقد تخلفت عن مسطح « بحيرة أبو قير » ويبلغ طولها ميلا ونصف ميل ، إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية ، وكانت من قبل بحيرة تسير فيها القوارب الخفيفة بسهولة ، كما يقول (كومب Combe) [1] الذى عنى عناية فائقة بمتابعة أعمال الحكومات المختلفة لتفادى أخطار السد حتى سنة ١٩٢٤ ، ونستطيع أن نقول إن فريزر سنة ١٨٠٧ قد أمر بكسر السد ، فأغرقت المياه هذه البلاد ، فعادت « بحيرة أبو قير » أكثر اتساعا مما كانت عليه . ولكن لم يرض التاريخ أن يكتب لها « شهادة ميلاد » أخرى ، فقد شهدت سنة ١٨٣٠ وما بعدها من السنوات ، بأن البحيرة لم يعد لها وجود ؛ بل هى فى يومنا هذا مزارع وحدائق تتخللها القصور والمنشآت .

وقد تكلم الجبرتى عن « سد أبو قير » فى عدة مواضع تنحصر بين أحداث سنة ١٢١٥ و سنة ١٢١٨ هجرية ؛ ومما قاله فى تاريخ هذا السد أولا أنه [من السدود العظام المتينة السلطانية ؛ وتتفقده الدول على مر الأيام بالمرمة والعمارة إذا حصل به أدنى خلل ، فلما اختلت الأحوال ، وأهمل غالب الأمور وأسباب العمارات انخرم منه شرم ؛ فسالت المياه المالحة على الأرض والقرى التى بين رشيد والإسكندرية وذلك من نحو ستة عشر عاما (أى منذ سنة ١٢٠٢ هجرية) ؛ فلم يتدارك أمره ، واستمر حاله يزيد ؛ وخرقه يتسع حتى انقطعت الطرق واستمر ذلك إلى واقعة الفرنسيس] .

وفى حوادث ذى القعدة سنة ١٢١٥ هـ يقول فى قطع السد وحصار الإسكندرية : [وأخبر المخبرون أن الإنكليز أطلقوا حبوس المياه المالحة ؛ حتى أغرقت طرق

---

(١) Alex. P : 86

الإسكندرية ، وصارت جميعها لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك إلا من جهة العجمى إلى البرية (الصحراء) ، وأن الإنجليز تترسوا قبالهم من جهة الباب الغربى (غرب الإسكندرية)].

وفى حوادث المحرم سنة ١٢١٦ قال إن الأنجليز [أطلقوا المحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح إلى الجسر المقطوع حتى سالت المياه ، وعمت الأراضى المحيطة بالإسكندرية ، وأغرقت أطيانا كثيرة وبلادا ومزارع وأنهم قصدوا فى الأماكن التى يمكن الفرنسيين النفوذ منها بحيث أنهم قطعوا عليهم الطرق من كل ناحية] .

وفى حوادث جمادى الأولى سنة ١٢١٨ يقول [أمر على باشا (ويقصد الجزايرلى أو الطرابلسى) والى مصر بكسر السد الذى ناحية أبو قير الحاجز على البحر المالح] وبعد أن يوجز تاريخ هذا السد على النحو الذى رأيناه ، يتناول معركة أبو قير البحرية بين الفرنسيين من جانب ، والإنجليز والعثمانيين من جانب آخر فيقول [فلما حضرت الإنجليز والعثمانية شرموه أيضا من الناحية البحرية لأجل قطع الطرق على الفرنسيين فسالت المياه المالحة على الأراضى إلى قريب دمنهور واختلطت بخليج الأشرفية (ترعة المحمودية فيما بعد) وشرقت الأراضى ، وخربت القرى والبلاد وتلفت المزارع وانقطعت الطرق حول الإسكندرية من البر ، وامتنع وصول ماء النيل إلى أهل الإسكندرية ، فلم يصل إليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر فى النقاير ، أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج ، وبعض العيون المستعذبة ، فلما استقر العثمانيون بمصر ، حضر شخص من طرف الدولة (العثمانية) يسمى صالح أفندى ، معين لخصوص السد ، وأحضر معه عدة مراكب ، بها أخشاب وآلات وبذل الهمة والاجتهاد فى سد الجسر . فأقام العمل فى ذلك نحو سنة ونصف ، حتى قارب الإتمام وفرح الناس بذلك غاية الفرح ، واستبشر أهل القرى والنواحى ، فما هو إلا وقد حصلت هذه الحوادث ، وحضر على باشا إلى الثغر ، وخرج الأجناد المصرية ، وحاربوا السيد على باشا القبطان (وهو أخو على باشا الجزايرلى) على برج رشيد فخاف حضورهم إلى الإسكندرية ففتحه ورجع التلف كما كان وذهب ما صنعه صالح أفندى المذكور

فى الفارغ بعد ما صرف عليه أموالا عظيمة ، وأما أهل الإسكندرية فإنهم جلوا عنها] واستطرد الجبرتى فى عواقب هذا الكسر من جلاء أهل الإسكندرية إلى أزمير وقبرص ورودس والأضات ، وانحصرت الطبقة الفقيرة ، واشتد الغلاء ، ومع ذلك أرهق الباشا كاهل الأهلين بالضرائب الباهظة ، وعم الخراب إقليم البحيرة » عن آخره ، على حد تعبيره ، حتى تولى محمد على أمر مصر فكان إصلاحه [السد الأعظم الممتد الموصل إلى الإسكندرية] من [محاسن الأفعال] وقد كان اتسع أمر هذا السد ، وتخرب من مدة سنين ، وزحف منه ماء البحر المالح ، وخربت بسببه القرى والمزارع ، وتعطلت المواصلات ، حتى وصلت المياه المالحة إلى خليج الأشرفية التى تمد الإسكندرية بمياه الشرب ، وتملىء بها صهاريجها وقد كان تعمير الإسكندرية حائزا على العناية بأمر الجسر (السد) فأرسل إليه المباشرين (الموظفين) والعمال من نجارين وبنائين والمسامير والأحجار وآلات الحديد حتى تم إصلاحه .

ويقول الرافعى (١) إن قطع السد أدى إلى طغيان مياه البحر على بطاح مريوط فغمرتها ، وخربت ثلاثين قرية حسب إحصاء (لوبير) أحد مهندسى الحملة الفرنسية ، وعاد الرافعى ثانية للتحدث عما فعله محمد على من إصلاح هذا السد ، ومن ثمت [أخذت بحيرة أبو قير تجف تدريجيا حتى صارت الآن أراضى زراعية] (٢) .

ونرى أن أشهر القرى التى نشأت بعد هذا التجفيف قرية (الطرح) الواقعة غربى الضفة اليسرى للفرع الكانوبى القديم ، ولعل اسمها دليل على نشأتها بعد (طرح) مياه البحر عن هذه البقعة من الأرض الواطية ، أو نسبة إلى ما كان يطرحه البحر عليها من أوشاب وأعشاب .

---

(١) تاريخ الحركة القومية ج ٢

(٢) تاريخ الحركة القومية ج ٣ ص ٥٤٥

ويقول على مبارك (١) بصدد حديثه عن (أبو قير) [وبقربها السد المشهور بسد بو قير ، وهو من البناء المتين المصنوع من الدبش والمونة فوق خوازيق من الخشب الكبير ، وهو من الآثار القديمة ، التى كانت تتعهد صيانتها الملوك ، لوقاية أراضى مديرية البحيرة وبلادها من سطوة ماء المالح ، وهو إلى الآن من الأمور المعتنى بها ، وموكل به مهندس مقيم عنده لملاحظة ما عسى أن يحصل فيه ، وفى كل سنة ينبه الحكومة عما يلزم له من المرمة والأعمال] .

ويظن على مبارك أن قطع امرأة المقوقس للبحر كان هو سد أبو قير ، ويمضى على هذه العقيدة فيقول [إن الأقدمين كانوا لا يزالون يهتمون بحفظ الجسور الواقية لتلك الأراضى من ماء المالح ، والظاهر أن قطع جسر أبو قير لم يكن لذلك السبب ، وإنما الذى يظهر أن تلك الجسور ، لما اعتراها الإهمال بعد ذلك من توالى الفتن والأهوال ، سطا المالح على تلك الأرض وأخربها وشتت أهلها عنها ، والظاهر أيضا أن ذلك إنما حصل بعد انطماس فرع كانوب وتحول النيل إلى جهة رشيد ، ضرورة أن جفاف هذا الفرع وخلوه من ماء النيل، أوجب حرمان هذه الأراضى منه وتلف كرومها ومزارعها وارتحال أكثر أهلها عنها ، ولما أهملت الجسور تسلط عليها المالح وخربت بالمرة] .

ورجع على مبارك إلى « الروضة الزاهرة فى أخبار ملوك مصر الفاخرة » فقال إن البحر الرومى جار على تلك الأراضى ، فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٢٠ هـ . إلى أن انتهى إلى آخر مريوط ، وأغرق بلادا كثيرة ، من بلاد البحيرة ، نحو خمسين قرية ، على ما قيل ، وأخرب خليج الإسكندرية ، وما كان حوله من البساتين والأشجار وارتدم الخليج ، وبقى ثلاث سنين ، لا يجرى فيه النيل ، واشتد الأمر على أهل الإسكندرية ، وفرت منها أناس كثيرون ، إلى بندر رشيد وغيرها ، وكادت تخرب .

---

(١) التوفيقية ج ١٠ ص ١٢

ثم إن الملك الناصر شرع فى سد البحر وأرسل مهندسين ومعارجية وبذل لهم المال وأرسل معهم يلبك البدرى مملوك أبيه ، وهو المباشر فى ذلك إلى أن سدوه أولا بالأخشاب ثم ردموه بالطين الإبليز من طين النيل ، وقيل إن الإبل التى كانت تحمل الطين ستة آلاف ومكث لمتين فى سده مع جهد كبير ، وحصل فى ذلك ألطاف الله تعالى لأنه كاد يهلك الإقليم الغربى .

ومن هذا العرض نرى أن « سد أبو قير » كان يحتل مكانة بالغة الأهمية من حيث الدفاع الساحلى عن مصر ، ومن حيث موقعه فى المنطقة الشمالية من إقليم البحيرة . وأهم من هذا وذاك خطورة هذا السد على مياه ترعة الاسكندرية حتى مطلع القرن التاسع عشر ، كما وقع هذا الخطر فعلا على هذه الترعة التى كانت تسمى (خليج الأشرفية) منذ القرن الثانى عشر الميلادى وما قبله بمئات السنين .

ويجب ألا ننسى أن جواسيس الدول الأجنبية ، كانوا دائما كثيرى التردد على سد أبو قير لتفقد أحواله ، وكتابة تقاريرهم عنه لتتخذ هذه الدول أهبتها لغزو مصر منه ، فقد جلا الفرنسيون عن مصر بعد فشل حملة نابليون ، ومع ذلك كان على (سبا ستيانى) أن يذهب إلى سد أبو قير ، وقد ضمن تقريره إلى نابليون نبذة وافية عن هذا السد ، وأشار عليه بأن غزو مصر لا يكلف أكثر من ٦ آلاف جندى .

كما أن سعيد باشا قد أصدر أمره فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٧١هـ إلى محافظ الاسكندرية بأن الخواجة (ما يخنى) مكلف بتقدير مستوى ماء البحر عند سد أبو قير ، بالنسبة للأراضى المجاورة له حتى رشيد والعطف ، وأمره بتزويد الخواجة المذكور بما يلزمه من الأدوات الهندسية لإتمام هذه العملية .

بحيرة مريوط

كان لا بد من أن يذكر (استرابون) بحيرة مريوط ، وهو يتحدث بإسهاب عن موقع الإسكندرية ، فقد أطلق عليها (بحيرة ماريا Maréa)

أو مريوطيس Mariotis ، وقال انها كانت تستمد ماءها من النيل بواسطة قنوات متعددة تأتيها من أعلاها ومن الجوانب ، وأحصى ثماني جزر في داخلها كما قرر أنها لم تكن صالحة للملاحة لضحولة مائها . فإن ماء النيل ما كان يصل إليها إلا عندما يكون الفيضان عاليا ، وفيما عدا ذلك كانت القنوات الموصلة بين النيل والبحيرة ، تمتلىء بالرمل والطمى ، لهذا أخذت هذه القنوات تندثر تدريجيا ، منذ القرن السابع عشر ، وبالتالى جفت البحيرة كما شهد بذلك (سانديز Sandys) فى يناير سنة ١٦١١ بعد أن كانت شاسعة الأرجاء ، ولم يعد لها منفذ إلى البحر .

هذا وقد قام (أنطونى دى كوسون Anthony de Cosson بدراسة تاريخية للآثار القديمة فى المنطقة الشمالية الغربية لمصر وبحيرة مريوط ، وضمن هذه الدراسة كتابه (مريوط Mareotis) .

والغريب فى هذا الكتاب تلك الخريطة التى يطلق فيها على بحيرة إدكو اسم بحيرة المعدية ، كما أنه لا يحدد بحيرة أبو قير بخطوط بل يكتب عليها فقط « موقع بحيرة أبو قير » . ويحدد بحيرة مريوط الحالية بوضع خطوط واسعة حولها ويسميها [المهد القديم لبحيرة مريوط] . ويجعل نهايتها الشرقية عند ترعة المحمودية حتى كفر الدوار ثم تمضى جنوبا إلى جهة الشرق حتى (كوم تروجه) وكوم بلال وعبد القادر شرقى العامرية .

كما أنه يمد الفرع الكانوبى المندثر من شرق (دمنهور) بقليل حتى الكريون (وشيديا) على يسراه . ثم يمضى شمالا لا غربا ملتصقا بغربى بحيرة إدكو ، فى داخل ساحلها الغربى هذا ، حتى الضفة الغربية لبوغاز المعدية ، وهو منفذ بحيرة إدكو إلى البحر ، ويمضى فى البحر إلى قرب جزيرة نلسون المعروفة بجزيرة غاروه أو جزيرة أبو قير .

أما ترعة المحمودية فتأتى بعد ذلك حتى (الكريون) و (شيديا) و (كفر الدوار) و (البيضا) إلى شرق بحيرة مريوط .

غير أن الحكومة ـ تمشيا مع سياسة التوسع الزراعى لسد حاجة السكان الذين

يزيدون بكثرة ملحوظة ـ عملت على تجفيف جزء كبير من بحـــيرة مريوط ، وحولته إلى مزارع ، وظل الجزء الآخر بركة يصاد منهـا أنواع السمك ، وهى الآن بصدد تجفيفها كاملة ، للتوسع الزراعى وما يستتبعه من مظاهر العمران الاقتصادى ، وفق التخطيط الذى رسمته حكومة الثورة .

ولبحيرة مريوط من الجنوب منافذ للمصارف التى تصب فيهـا ، ولـكنهـا لا تتمتع ببوغاز يوصلها إلى البحر . وكان المفروض أن تـكون ميـاهها عميقـة ولـكن العكس هو الصحيح فانها مترامية الأطراف ، وضحـلة ، وفى الصيف تتبخر ميـاهها ، فتجف هذه الأطراف ، وتصير سبخة واسعة .

ملاحات البحـيرة

ذكر (القلقشندى) كما رأينـا ـ ما كان من انقطـاع الملح عن الإسكندرية والدول الأجنبية . بسبب انفصال (بحيرة إدكو) عن البحر ، وانعـــدام الملاحات التى كانت تستمد وجودها من لمسات مياه البحر للأراضى المنخفضة المنبسطة ، فتركد عليها فترة ثم ما تلبث شمس الصيف أن تتسلط عليها بأشعتها فتتبخر ، وتخلف وراءها قشرة سميكة من الملح ، الذى لا يمكن الاستغناء عنه فى الطعام ، وفى تمليح السمك ، فى بيئة عمل أهلها الصيد .

وإذن فقد كان لهذا الملح شأنه الاقتصادى ، لا فى داخل البلاد وحدها ، بل وفى خارجها منذ أكـثر من خمسمائة سنة ، وقد أحصت وزارة الداخلية فى أول مايو سنة ١٨٧٣ [١] ملاحات مصر فكان أشهرها اثنتى عشرة ملاحة وهى : ملاحات دمياط ورشيد وعزبة الخاجة بفارسكور والبلاسى بالمنزلة والبرلس ، وترنسا والإسكندرية وهوارة وبورسعيد والإسماعيلية والسويس .

ويبدو من هذا الإحصاء أن نصيب البحيرة وحدها محصور فى ملاحة رشيد ، ولـكن الواقع أن ملاحات بحيرات البحيرة كانت ولا تزال حتى يومنا هـــذا

(١) « الـكوكب الدرى فى الاستقراء المصرى »

تدر كميات كبيرة من الملح ، وملاحات إدكو ـ بالأخص ـ تغذى الإسكندرية وما يجاورها من إقليم البحيرة بالملح ، الذى يدخل اليوم فى التركيبات الكيماوية والأسمدة ، أما ملاحات وادى النطرون فستتحدث عنها فيما بعد .

وفى سنة ١٨٨١ أنشأت الحكومة المصرية ٣٢ شونة بالأقاليم لخزن الملح ، وأعدمت عددا كبيرا من الملاحات وزادت عناية رياض باشا بشئون الملح أثناء توليه منصب الوزارة المصرية سنة ١٨٨٨ ، وفى ١٩ يوليه سنة ١٨٩١ أنشئت إدارة الملح برئاسة المستر (هوكر Hocker) وأعطت حق استخراجه لشركة أجنبية سنة ١٨٩٧ ، وقد استخدم عدد كبير من الخفراء لحراسة هذه الملاحات.

ولكن التوسع العمرانى يقضى بإعدام ملاحات إدكو ، لتحويل هذه المساحات الشاسعة ـ التى تشغلها شرقى مدينة إدكو وغربيها ـ إلى مزارع ومنشآت مع الاكتفاء بما تدره ملاحات المكس بالإسكندرية من ملح بلغ حد الجودة والنظافة .

النيل يتغلغل فى البحيرة

يتعين علينا بعد هذا العرض السريع لبحيرات البحيرة ؛ أن نتناول مجارى النيل الأساسية ، التى تخترق إقليم البحيره ، والأطوار التاريخية التى مرت بها ، وأسماء المدن والقرى ، التى تقع على ضفاف هذه الترع ، وقد كان مؤرخو العرب يطلقون اسم « الخلجان » على هذه الترع وأقدم هذه المجارى النيلية كما رأينا « الفرع الكانوبى » ثم « فرع رشيد » وهما اللذان كانا يخترقان الإقليم ، ويصبان فى البحر ، وعلى ضفافهما نشأ العمران ، وازدهرت الحضارة .

وإذا تأملنا خريطة عامة لمجارى النيل فى الدلتا فى زمن العرب(١) وتابعناها ، خرجنا بالحقائق الآتية :

---

(١) Carte Générale des Cours d'eau d'Egypte, époque arabe.

اولا : يتفرع النيل بعد القاهرة إلى فرعين ، الغربى منهما يبدأ من (أم دينار) ، ثم ما يلبث أن يتفرع بعد ذلك إلى فرعين آخرين ، عند (طهوى) : فرع (إبيار) على اليمين وفرع (شابور) على اليسار .

ثانيا : يمضى فرع شابور نحو الشمال ، وعلى ضفته اليسرى نرى (أبو نشابة) أو (رمال السنيم) القديمة ثم (الطرانة) أو (ترنوط) قديما ، ثم (كوم شريك) حتى يصل إلى (زاوية البحر) أو (الرافقة) قديما .

ثالثا : من هذه النقطة يبدأ فرع رشيد الذى يندفع ؛ تاركا على ضفته اليسرى (شابور) ، ثم (الضاهرة) ، وبعدها (منية أبيج) ، وعندها يتفرع فرع آخر هو فرع (فرنوى) ، ويستمر فرع رشيد إلى (الرحمانية) (فالعطف) ثم (فزاره) التى كانت تقع مكان (بلهيب) قديما ومحلها الآن (ديبى) ، وأخيرا (رشيد) حتى يصب فى البحر .

رابعا : نعود إلى (زاوية البحر) ، لنتابع الفرع الذى كان يسمى قديما (الكانوبى) أو ترعة (شابور) ، ويسمى الآن (ترعة أبو دياب) ، وعلى يمينها من الجنوب إلى الشمال (خربتا) على البعد ، و (نبيره) و (دنشال) حتى تصل إلى (دمنهور) و (قرطسا) ، وعند (إفلاقه) تبدأ إلى الشرق ترعة (الأشرفية) ، وبعد (إفلاقه) بقليل ، عند (كفر الحمايده) تبدأ إلى الشرق أيضا ترعة (الناصرية) ، ويمضى (فرع شابور) إلى (برسيق) .

خامسا : يستمر فرع شابور نحو الشمال الغربى باسم ترعة الإسكندرية وعند (الكريون) مجرى مندثر ، يستمر مستقيما نحو الشمال بين بحيرة إدكو وبحيرة أبوقير ، أما من الكريون فتستمر ترعة الإسكندرية فى مجراها بين بحيرة أبوقير وبحيرة مريوط ، فتمر بعيدة عن شاطئها الشرقى ، حتى تصل بعد انحناءة إلى الغرب لتدخل الإسكندرية .

سادسا : يبدأ فرع (فرنوى) أو (الضاهر) من (أبيج) ، ويجرى بين فرع رشيد شرقا وفرع شابور غربا ، وعلى يمينه (فرنوى) ثم (محلة نصر) ثم (سندبيس) ثم (سنباذة) ثم (بلهيب) ، وعندها يلتقى فرع رشيد بفرع شابور ،



النيل وفروعه
في وسط الدلتا وغربيها
(الأماكن التي بين قوسين قديمة واندثرت)

جنوبى (فزارة) بقليل ، ويصبحان فرعا واحدا هو الرشيدى .

سابعا : عند (فزارة) تبدأ ترعة صغيرة وتأخذ مجراها نحو الشمال الغربى حتى تصب عند الزاوية الشمالية الشرقية من بحيرة إدكو .

وتحت أيدينا خريطة أخرى بعنوان (ترعة الأسرى التى تربط بحر يوسف ببحيرة مريوط) . وتتلخص أهم معالمها فيما يلى :

١ — ليس لبحيرة أبو قير وجود فى هذه الخريطة .

٢ — تمتد (ترعة الأسرى) من (بحر يوسف) بالفيوم ، وتحاذى فى سيرها الضفة الغربية للنيـــل حتى (زاوية البحر) ثم تمضى باسم (ترعة الحاجر) إلى الشمال الغربى بانحدار ، وعلى ضفتها اليسرى (دست الأشراف) و (زاوية صقر) حتى تصب فى الساحل الجنوبى لبحيرة مريوط .

٣ — أما الفرع الكانوبى ، فيجرى فى طريقه وكأنه يتحدى الفرع الرشيدى. وعلى ضفته الغربية تقع (كوم حمادة) ، ثم يواصل سيره حتى (جعيف) أو (نتراطيس) على ضفته اليمنى ، ثم يستمر حتى يمر شرقى (دمنهور) ، وينحنى حتى يترك (أبو حمص) على يمينه ، ثم يتعرج حتى يلاصق الشاطىء الغربى لبحيرة إدكو ويمتزج بها حتى يصب فى البحر أمام (جزيرة أبو قير) التى يسميها الإنجليز (جزيرة نلسون) بينما يسميها الصيادون (جزيرة غاروه) .

ويعطينا عمر طوسون [1] خط سـير آخر للفرع الكانوبى بعد (شيديا) فيقول إنه [يسير بمحاذاة جانب ترعة الإدكاوية القديمة المسماة الآن الترعة الكانوبية ، تاركا (كوم مازن) على يمينه ، ثم يسير عندئذ ، متتبعا مرتفع الأرض الصغير الفاصل بحيرة أبو قير عن بحيرة إدكو ، ولا ريب أن هذا المرتفع هو محل الفرع القديم ، الذى كانت ضفافه كما هى الآن مرتفعة بلا شك ارتفاعا قليلا عن سطح الأرض ، بحكم فعل الطمى ، وبعد ذلك يمر بين (كوم الذهب) و (كوم الطرفاية) ويبلغ البحر عند (الكوم الأحمر) الواقع على سكة رشيد

(١) خليج الإسكندرية ص ٧

والمسمى الآن (بالطابية الحمراء) نسبة إلى الحصن الذى بنى فوقه] .

والذى جاء على قلم عمر طوسون إنما يعتبر طورا جديدا للترع الكانوبى فى مجراه الذى نلاحظه نحن على خط سيره فى الخريطة السابقة .

أحواض البحيرة

ولقد عنى (أبو الحسن المخزومى)- الذى كان حيا سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م)- بإقليم البحيرة ، فقسمه إلى ثمانية عشر حوضا . ابتداء من رأس الإقليم عند (كوم شريك) ، وقد جعل أساس التقسيم قائما على انحصار كل حوض بين الترع ، بصرف النظر عن مساحته مهما ضاقت أو إتسعت .

وتتلخص هذه الأحواض فيما يلى :

١ ـ **حوض ١** : يبدأ عند (كوم شريك) أو (القدامى) ، وحده الجنوبى والغربى ابتداء خليج الطيرية ، وحده الشرقى بداية فرع رشيد حتى (طميلاس) ثم بداية (بحر رمسيس) ، وحده الشمالى والغربى (جسر دلنجة) ويضم هذا الحوض البلدان الآتية : كوم شريك . مغنين ، الصواف ، واقد ، الزعفرانى زاوية البحر ، شبرا وسيم ، بواين ، البلاكوس . كوم حمادة .

٢ ـ **حوض ٢** : جنوبه جسر دلنجه ، وغربه خليج الطيرية ، وشرقه بحر رمسيس ، وشماله جسر ، ويضم البلدان الآتية : دست الأشراف ، الحدين (تلبانة الأبراج البيضا) ، خربتا ، القلوات ، تل إبقا ، اليهودية ، درشاى ، أبو صماده ، كوم الحصن ، قمحة ، الدانجات ، طيبه .

٣ ـ **حوض ٣** : بين خليج الطيرية ، وبحر رمسيس ، وفى شمال الحوض السابق ، ويضم : كوم فيرين ، جبارس ، رزافة ، الحجر المحروق (أبو سمر) .

٤ ـ **حوض ٤** : حده الشرقى فرع رشيد ، والغربى بحر رمسيس ، والشمالى جزء من بحر رمسيس من سلامون على فرع رشيد إلى مجراه الرئيسى عند نقيدى .

٥ ـ **حوض ٥** : حده الشرقى بداية ترعة ابن الزلوم عند نقيدى ، والغربى

بحر رمسيس ، وشماله جسر ، ويضم : قادوس (محلة جعفر) زبيده (البيضا) رمسيس ، قليشان .

٦ — **حوض ٦** : فى شمال السابق مباشرة ويضم : معنيه ، صفيه ، دكدوكة .

٧ — **حوض ٧** : فى شمال الحوض نمرة ٣ : حده الغربى ، خليج الطيرية ، والشرقى بحر يوسف ويضم : بحطيط (بهوت) ، تلبانه ، جنبواى ، كوم أبو حمار.

٨ — **حوض ٨** : حده الجنوبى جسر فاصل بينه وبين الحوض السابق من الجهة الشرقية ، والشرقى بحر رمسيس ، والغربى سد سنطيس ويضم : أطلنيش (طلموس) ، سنطيس ، كوم دنشال ، منية عطيه (طرابانبا) ، طاموس ، دسونس أم دنيار ، قراقص.

٩ — **حوض ٩** : فى شمال حوض ٤ ، حده الشرقى فرع رشيد ، والغربى ترعة ابن زلوم ويضم : نقيده ، سلامون ، دمتيوه ، سرسيقة ، ميت يزيد ، شابور ، كنيسة الضاهره (كنيسة مبارك) ، الضهرية .

١٠ — **حوض ١٠** : حده الجنوبى حوض ٩ وحوض ٦ ، والشرقى بداية ترعة الإسكندرية (ترعة الضاهر) ، والغربى بحر رمسيس ، والشمالى جسر صفط ويضم : كوم جعيف وإيتاى البارود ، إمليط ، دميسنا ، حوض فارس (كيمان شراس) ، برقامة ، شبرا النونة ، صفط خالد ، محلة العبيد ، أرمانيه ، كنيسة أورين.

١١ — **حوض ١١** : فى شمال السابق ، ويضم : كوم دنشال ، محلة فرنوى ، طرابانبا .

١٢ — **حوض ١٢** : فى غرب حوض ٨ : حده الشرقى جسر سنطيس ، والغربى جسر نديبة ، ويضم : زهره ، وقرطسا ، ودمنهور .

١٣ — **حوض ١٣** : فى غرب الحوض السابق ويضم : عامرية ، أبو حمار البحرى (النسرين) ، نديبة .

١٤ — **حوض ١٤** : فى غرب السابق ، ويفصله عن حوض ١٥ جسر ملوله ، ويضم : حفص ، محلة كيل ، كوم الزرقا (محلة نمير) .

١٥ — **حوض ١٥** . فى غرب السابق ويضم : كوم تروجه ، الغيتسه (غابة العباس) .

١٦ ــ **حوض ١٦** : حده الجنوبى الحدود الشمالية لكل من أحواض ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، وحده الشمالى جسر ، والشرقى ترعة الإسكندرية ، ويضم : الصفاصيف ، الشقرا ، دير أمس ، كيمان دميس (دنيسة) التى تقع على ترعة محلة الكروم البادئة من جنوب إفلاقة بقليل .

١٧ ــ **حوض ١٧** : وهو أكبر الأحواض جميعـــا ، ويترامى على الضفة الشرقية لترعة الضاهر من بدايتها وهى التى تسمى ترعة الإسكندرية ، ويمتد حتى الحدود الشمالية الأحواض ١٦ ، ١٤ ، ١٥ ، ويترامى إلى الشمال حتى ما وراء ترعة الإسكندرية إلى جنوب بحيرة إدكو إلى البحر ويضم : أبو منجوج ، أبتوك ، أبو درة ، لقانه ، أبو أوليلة ، أبو الشما ، الأشراك ، أبو خـــراش ، بويط ، سماديس ، فيشا ، ياطس ، زرقون البحرية ، محـــلة مسروق ، نقرها ، إفلاقه ، سكنيده ، محلة الشيخ ، مصيل ، دمشويه ، صفط ، الكرداسة ، النخلة البحرية (شبرا النخلة) ، برسيق ، بسنتواى ، قافلة ، بلقطر ، دسونس الحلفاية ، المعلفية ، الكريون ، البسلقون ، بسطره .

١٨ ــ **حوض ١٨** : حده الشرقى فرع رشيد فيما بين محلة المارية والعطف ، ويضم : سمخراط ، دسيا الكنايس ، سناباده ، سرنباى (شرنوبة) .

هذه هى أحواض إقليم البحيرة ، بما يضم كل منها من مدن وقرى ، وقد راعى المخزومى فى هذا التقسيم طبيعة كل حوض ، بحيث لم يجعل ترعة كبيرة تشطره شطرين ، بل كان الأساس هو وحدة الحوض دون أى اعتبار آخر .

هذا وقد ذكر «موتسنجر باشا»[1] فى القرن الماضى أن ترع مديرية البحيرة تبلغ نحو ٥٦ وأشهرها : الخطاطبة والمحمودية وأبو دياب والحاجر العمومية ومصرف الرحمانية وأم الحناش ومنشاة بولين ومحلة كيل ودسونس ، وبرده والإتكاوية .

ترعة الإسكندرية

وهى أهم وأقدم ترعة فى هذا الإقليم ، وهى التى تمد الإسكندرية بالماء العذب من النيل ، كما أنها هى الطريق التجارى منها إلى داخل البلدان المصرية ، وتبدأ من

---

(١) جغرافية مصر ص ٣٢٣

الفرع الـكانوبى ، عند (شيديا) على بعد سبعة وعشرين كيلومترا من الإسكندرية ، وتجرى فيها الآن مياه ترعة المحمودية ، فإنه عنـد (حجر النواتية) تتفرع إلى فرعين : أولهما يتجه إلى (كانوب) فى موازاة سـاحل البحر ، والآخر يتجه إلى الإسكندرية .

وكانت هذه الترعة تحيط بالإسكندرية من الجنوب ، وتصب فى بحيرة مريوط وقد ذكرها (استرابون) فقـال إنها « صالحة للملاحة » ، وفى عهد الامبراطور (أغسطس) كان هناك ترعة ـ أو فرع من ترعة ـ تسير نحو ميناء (كيبوتوس) Kibotos أو Eunostos على شاطىء بحيرة مريوط (١) .

وذكر المسعودى فى (مروج الذهب) أن ماء هذه الترعة قـــد انقطع عن الإسكندرية إلى سنة ٣٣٢ ﻫ لأنها ردمت جميعها ، ثم أدخلت التعديلات على هذه الترعة ، فأصلحت جسورها ، وعمق مجراها ، واتسع ، وكانت كما جاء فى (تقويم البلدان) من أحسن المتنزهات ، والبساتين على جانبيها وطالما تغنى بهـا الشعراء ومنهم شاعر الإسكندرية ظافر الحـــداد الذي شبه كل (روض كمخضر العذار) و (النخل كالغيد الحسان) .

وقد تحدث القلقشندى(٢) عن ترعة الإسكندرية هذه فى القرن التاسع الهجرى فقال إن بدايتها كانت من الضفة الغربية للنيل عند العطف ثم تميل نحو الغرب حتى تتصل بجدران الإسكندرية وكانت فوهتها من قبـل عنـد (الظاهرية) وتمر على دمنهور ثم نقلت هذه الفوهة إلى ما هى عليه الآن ، ويقال إن أرض هذه الترعة كانت مفروشة بالبلاط .

وذكر المقريزى (٣) أن (كليوباتره) هى التى ســـاقت هذه الترعة حتى أدخلتها إلى الإسكندرية ، ويقال إنها جعلت قاعها بالرخام من البداية حتى النهاية ، ولم يزل بها هذا الرخام ، وهى المصدر الذى يمد أهل الإسكندرية بالماء العذب ،

---

(١) Breccia : Alexandria ad EAgyptum P. 78

(٢) صبح الأعشى : ج ٣ ص ٣٠٤

(٣) الخطط ج ١ ص ١٦٩

ويروى أراضى بطن الريف ، وإقليم البحيرة ، وتعيش — على زراعة الأراضى المجاورة بسببها — قبائل كثيرة من العرب ، من أهل مصر حتى المغاربة ، وكان الصيد فى مائها مباحا حتى القرن السادس الهجرى كما ذكر ذلك عالم الإسكندرية أبو بكر الطرطوشى إلى أن منع الوالى صيد السمك .

وقد جاء وصف «ابن وصيف شاه» للجهات الواقعة على ضفتى هذه الترعة دليلا على العمران حيث يقول :

[كان خليج الإسكندرية من الجانبين بساتين وأشجارا وقصورا متصلا بعضها ببعض من الإسكندرية إلى مدينة (الكريون) ، وكان أهل الإسكندرية عند مجىء النيل يطلعون إلى تلك الأماكن ، فيسكنون القصور التى على جانبى الخليج المحدقة بها البساتين شرقا وغربا ، وبها دوالى العنب المعرشة والنخل وأشجار الجميز العظيمة وجميع الأشجار والفواكه ، وفى زمن مجىء النيل تأتى فيه المراكب والزوارق ويقع التنزه أياما عديدة ويزور بعضهم بعضا ، وهى أيام مشهورة عندهم ، وتسافر فيه المراكب إلى الفسطاط وغيرها من البلدان ، ويمكث الماء فيه ستة أشهر ويصطادون منه السمك ، وكان هذا الخليج أعظم خلجان مصر ، وكانت العمارة والبساتين ممتدة من رمال رشيد إلى العقبة مغربا ومقبلا من الإسكندرية إلى الكريون ، وقيل إلى الفيوم ، وكان الرجل يسير فى العمارة فلا يحتاج إلى زاد من كثرة الفواكه والثمار وغالب مسيره تحت ظلال الأشجار] .

أليس فى هذا الوصف أكبر دليل على اتساع العمران فى إقليم البحيرة بسبب ترعة الإسكندرية .

ومن القرى التاريخية المحيطة بهذه الترعه : أرسينوى ، وبرينيس ، وقرية السوريين ، وقرية الأنتيوخيانيين ، وقد كان أمر هذه الترعة أو الخليج - كما كان يسميها العرب - شغل ولاة مصر وقضاتها فى مختلف العصور الإسلامية بالنسبة للإسكندرية كمصدر لماء الشرب ، وبالنسبة للأراضى الواقعة على جانبيها قبل الوصول إلى المدينة ، وهى كثيرا ما تترسب فيها الرمال وكذلك المواد الغرينية ، فكانت تضعف مياهها أو تنعدم ، ومن القضاة والولاة الذين أصلحوها :

(الحارث بن مسكين) سنة ٢٣٩ هـ ، وأحمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ ، وكما ذكر (المسعودى) أن ماءها قد انقطع عن الإسكندرية قبل سنة ٣٣٢ هـ ، كما أنها كانت تسقى بلاد مريوط التى كانت فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة ، وقال (المسبحى) إن الحاكم بأمر الله حفرها سنة ٤٠٤ هـ ، كما نتمل فوهتها وعمرها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٧ هـ ، ومن بعده الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ ثم قلاون سنة ٧١٠ هـ الذى أمر بتشغيل أربعين ألف عامل فى تطهيرها ، وكانت قرية (مشتيار) مبدأ خروجها من النيل ، فزاد العمران حولها وكان فمها من الرحمانية واستمرت حتى الترعة الأصلية فسميت (الخليج الناصرى) حتى سنة ٧٧٠ هـ بسبب انسداد بوغاز بحيرة إدكو عند المدنية فأصلحها برسباى سنة ٨٢٦ هـ ، وكذلك الملك الأشرف فسميت (الأشرفية) وبدأت من (الرحمانية) أيضا ، ثم جعلها محمد على تبدأ عند (العطف) فسميت باسم السلطان محمود العثمانى فعرفت باسم (ترعة المحمودية) وما تزال تعرف به حتى الآن .

ففى سنة ١٨١٧ فكر محمد على — وقد حظيت البحيرة باهتمامه — فى حفر مجرى من المـاء يمتد إلى بركة عميقة تصل إلى الإسكندرية ، انتقل الغلال عليها بالمراكب ، ابتداء من « خليج الأشرفية » عند الرحمانية ، وسخر فيها الباشا مائة ألف فلاح ، جمعهم مشايخ البلاد من القرى تحت إشراف كشاف الأقاليم.

وقد مات فى حفر ترعة المحمودية عدد كبير من الفلاحين من شدة البرد ، والقسوة والتعب ، فكان جزاء هؤلاء الشهداء ، أن أصدر محمد على أمره فى ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٤ هـ إلى (ناظر المحمودية) بمنح المشايخ والعمد الخلع السنية ، ومعاملتهم هم والمأمورين باللطف ، لقاء ما بذلوا من جهد فى « إنجاز حفر المحمودية » (١) .

كما أصدر أمره (٢) فى ٣ ربيع الأول سنة ١٢٥٢ إلى مدير أشغال المحمودية باستئجار عمال لرياح وجسر المحمودية ، مع عدم طلب عمال من مديرية البحيرة،

---

(١) ، (٢) أمين سامى : تقويم النيل ج ٢

ومن الغريب أن الباشا قد حدد أجور العمال فى اليوم — أسوة بما هو متبع مع المستخدمين بمصالح رشيد — كالآتى :

١ — عامل عمره ٢١ سنة فما فوق : أجره اليومى قرشان

٢ — « « من ١٦ « إلى ٢٠ : « « قرش ونصف

٣ — « « « ١٢ « إلى ١٥ : « « قرش واحد

ونظم المهندسون العمل من الرحمانية إلى قرب عمود السوارى بالإسكندرية ، فبلغت المسافة ستا وعشرين ألف قصبة ، ثم قيست المسافة من أول الترعة القديمة التى كانت تسمى (الخليج الناصرى) من بدايتها عند (العطف) أمام (فوة) فكانت المسافة أقل من الأولى بخمسة آلاف قصبة ، فاختيرت البداية من هذا المكان ، وتم حفر الترعة فى منتصف يناير سنة ١٨٢٠ [ثم فتحوا لهـا شرما خلاف فمها المعمول خوفا من غلبة البحر ، فجرى فيها الماء ، واختلط بالمياه المالحة التى نبعت من أرضها ، وعلا المـاء منها على بعض المواطن السبخة] كما يقول الجبرتى ، فهبت عاصفة دفعت ماء البحر فوق الجسر الكبير فاختلط بماء الترعة ، فخرج إليها محمد على ومعه ابراهيم باشا ومحمد بك الدفتردار والكتخدا السابق وطبوزأوغلى ، وتم إصلاحها ففرح الناس ، وسارت المراكب فيها إلى رشيد والإسكندرية ، وفى أغسطس سنة ١٨٢٠ سدوا الشرم وأبقوا من داخله فيها عدة مراكب للمسافرين ، فكانوا ينتقلون منها إلى مراكب البحر ، ومن البحر إلى مراكبها ، فغمرها ماء البحر ، فحدث الضرر لأهل الإسكندرية .

وقال على مبارك إن هذا الخليج (الترعة) كان يحاذى سور الإسكندرية من الجنوب على بعد ثلاثمائة متر ، وفمه الآن شمال شرقى فم ترعة المحمودية بقدر ألف متر وكان فى اختراقه المدينة معقودا غير مكشوف .

وقد حلت محله ترعة المحمودية التى حفرت سنة ١٨٢٠ م فى جميع أجزائها فيما عدا الفم ، فإنه فى الميناء هو وبعض تعديلات هامة ، وكان على الخليج القديم ثلاث قناطر بين (الحضرة) و (الإسكندرية) ولكنها تهدمت عند حفر (المحمودية)

ترعة الادكاوية : وهى التى تسمى الآن الترعة الكانوبية [1] كما يقول عمر طوسون ، وتبدأ من غربى فم ترعة المحمودية وتتجه موازية لها ، وتلتقى بترعة الكريون ، وطولها ٣٦ كيلومترا وتمر بزرقون وبركة غطاس والكريون .

ترعة فزاره : وتبدأ من شمال فزارة بنحو ١٢٠٠ مترا وتتجه بمسافة ثلاثة كيلومترات حتى تصب فى بحيرة إدكو وقد ذكر الإدريسى [2] أنها تبدأ من أسفل (سنديون) و (سمديس) ، وأسفل فوه وفوق رشيد وبينها وبين الإسكندرية ستة أميال ، ومصبها فى بحيرة إدكو ، لتمدها بالماء النيلى لزيادة نمو السمك وتغذيته .

ترعة قواديس : ذكرها المخزومى وكانت من الترع الجارية فى الأطراف الشمالية من إقليم البحيرة ابتداء من ترعة الإسكندرية وتنتهى فى بحيرة إدكو ، وذكرها المقريزى بعده بنحو ٢٥٠ سنة قائلا إنها كانت تروى (شبرا النخلة) و(كوم التلول) ، وحلت محلها الآن (ترعة بسنتواى) الحالية .

الترعة الناصرية : أو الخليج الناصرى ـ ورد ذكرها فى الخطط التوفيقية [3] فتخرج من المحمودية ، جنوب (بركة غطاس) وتتجه غربا حتى تصب فى (ترعة المحمودية) شرق (الكريون) وطولها ستة كيلو مترات ، وهى جزء من مجرى الفرع الكانوبى القديم .

ترعة الكريون : تبدأ من ترعة المحمودية غربى الكريون ، وتجرى لمسافة سبعة كيلو مترات حتى تصب فى بحيرة إدكو وتخترق (دمتيوه) .

ترعة العطف : تخرج من ترعة المحمودية ، لمسافة خمسة كيلو مترات حتى تصب فى بحيرة إدكو ، كما أن مصرف (كفر عزاز) يخرج من ترعة المحمودية أمام أبو حمص ، حتى يصل بعد ثمانية كيلو مترات إلى شرق (كوم تقالة) ويصب فى بحيرة إدكو .

---

(١) خليج الاسكندرية

(٢) نزهة المشتاق : الاقليم ٣ جزء ٣ ويسميها (خليج شابور)

(٣) ج ١٩ ص ٨٩

ترعة العكريشة وترعة كفر سليم : ويخرج أيضا من ترعة المحمودية ترعتان تصبان فى بحيرة أبو قير هما ترعة (العكريشة) وترعة (كفر سليم) .

رياح البحيرة : كما تخرج ترعة رئيسية فى الوقت الحاضر من فرع رشيد عند القناطر الخيرية تسمى (رياح البحيرة) فى المجرى القديم لترعة (الأسرى) ، ثم تنحدر من قرب (كفر الزيات) إلى (إيتاى البارود) إلى (دمنهور) وتسمى (ترعة الخندق الشرقى) ، وتمضى حتى تمد أراضى (النخلة البحرية) بمياه الرى .

الترعة (النوبارية) : تبدأ من زاوية البحر وتحيط بمشارف صحارى محافظة البحيرة من الجنوب والغرب ، وهى التى ستحول بعض القيافى هناك إلى مزارع ، يتسع على أثرها عمران الإقليم ، حتى تتصل بلاده العامرة ، بالجانب الأيسر للطريق الصحراوى الموصل بين القاهرة والإسكندرية ، وبدىء فعلا على عهد الثورة بإنشاء مديرية التحرير ، لتعمير هذه الصحراء بوسائل العلم الحديث .

هذا وقد ورد فى عدد « الوقائع المصرية » الصادر فى ٧ رمضان سنة ١٢٤٦ هـ ما تم من المنشآت ومجارى المياه فى مأموريات البحيرة على النحو التالى :ـ

المأمورية	المساقى	الجسور	الترع
دمنهور	١٤	٣٢١	١٠
النجيلة	—	١١٨	٨٦
شبراخيت	—	٢٩٢	٢٦
الرحمانية	—	٨٩	١٢

الرى والصرف فى إقليم البحيرة

تعتبر البحيرة الآن وحدة قائمة بذاتها من وحدات وزارة الأشغال ، ويشرف على الرى بها (تفتيش رى البحيرة) كما يشرف (تفتيش مشروعات رى غرب الدلتا) على المشروعات ، ودمنهور هى المقر الدائم لهاتين الإدارتين .

وإقليم البحيرة يمتاز عن غيره بالتوسع المستمر فى مشروعاته الزراعية بالزحف إلى الصحراء نحو الغرب والجنوب ، كما حدث فى مديرية التحرير ، ويمتاز أيضا بالعمل

المتواصل على إصلاح المناطق البور ، وتجفيف مساحات كبيرة من البحيرات لتحويلها إلى مزارع ، ويجب أن نضع نصب أعيننا أن هذا الإقليم هو الرابط المتين بين ميناء الإسكندرية وسائر مدن الجمهورية .

وتفتيش رى البحيرة يقوم بعمليات الرى ، ويشرف على الملاحة النهرية ، ويوفر مياه الشرب لمدينة الإسكندرية ، وجميع مدن البحيرة وقراها ، ويوفر المياه للمصانع الواقعة على ضفاف ترعة المحمودية ، كما أنه هو المسئول عن الثروة المائية وتوفير مياه النيل لخفض نسبة الملوحة فى بحيرات البحيرة والمطار البحرى بالإسكندرية على اعتبار أنه مزرعة سمكية ، وأخيرا هو المسئول عن توفير المياه الملحة لشركة الملح والصودا بالمكس غرب الإسكندرية ، لإنتاج الملح .

ومنطقة هذا التفتيش محددة برياح البحيرة جنوبا وفرع رشيد شرقا ، والصحراء الكبرى غربا ، والبحر شمالا ، ومن هذا نرى أنه يمتد إلى جزء من محافظة الجيزة ، بصرف النظر عن التقسيم الإدارى للمحافظات ، ويبلغ زمامه ما يقرب من مليون فدان .

وأهم مصادر الرى فى البحيرة حاليا تنحصر فيما يلى :

١ — **رياح البحيرة** : ويبدأ من النيل أمام قناطر الدلتا ، ويمتد شمالا إلى الخطاطبة ، وبعدها تستمد منه (ترعة التحرير) ماءها ، وتتفرع منه عند (زاوية البحر) ترعة النوبارية ومنها تخرج (ترعة الحاجر) . كما تتفرع منه (ترعة أبو دياب الأعلى) التى تجرى فى الفرع الكانوبى القديم ، ويستأنف الرياح سيره نحو الشمال إلى التوفيقية ، وعندها تتفرع منه (ترعة ساحل مرقص) — كامتداد للرياح يوازى فرع رشيد — ، وترعة الخندق الشرقى ، حتى يصب فى (ترعة المحمودية) ، وهو طريق الملاحة النهرية ، الذى يربط ميناء الإسكندرية بالقاهرة .

٢ — **طلمبات العطف** : تبدأ من إدفينا حيث تتكون بركة من رشح النيل أمام قناطرها الجديدة .

٣ — **روافد الترعة الرشيدية** : وتبدأ أيضا من بركة إدفينا .

٤ — **مصرف المحيط** : ويصب فى رياح البحيرة خلف قنطرة الخطاطبة وهو أساسا مصرف لمحافظة الجيزة .

٥ — **طلمبات مصرف ادكو الجديدة** : وقد أقيمت سنة ١٩٥٨ على مصرف إدكو عند (زرقون) حيث يتقاطع مع ترعة المحمودية ، التى تمدها هذه الطلمبات بمزيد من المياه .

أما عمليات الصرف فى البحيرة فتنقسم إلى قسمين رئيسيين هما :

أولا : **الصرف بالراحة** : ويشمل :

ا — **منطقة مصرف ادكو** الذى يصب فى بحيرة إدكو ومنها إلى البحر عن طريق بوغاز المعدية .

ب — **منطقة مصرف العموم** ، الذى يصب فى بحيرة مريوط التى لا منفذ لها إلى البحر إلا عن طريق طلمبات رفع المياه عند المكس ، ويعتمد فى صرف مياهها أيضا على الطبيعة حيث تتسلط شمس الصيف على المسطحات الضحلة من البحيرة فتتبخر تباعا .

ثانيا : **الصرف الآلى** : وذلك بوضع شبكة من المحطات على الساحل متشعبة من العطف حيث توجد المحطة الرئيسية وتشمل طلمبات رشيد وتصرف فى فرع رشيد ، وطلمبات البوصيلى وتصرف فى بحيرة إدكو ، وطلمبات حلق الجمل وطلمبات زرقون وتصرف فى مصرف إدكو حتى ينتهى إلى بحيرة إدكو ، وطلمبات برسيق وتصرف فى مصرف محيط إدكو الغربى الذى ينتهى إلى بحيرة إدكو ، وطلمبات الطرح وتصرف فى البحر ، وطلمبات تروجة ، وطلمبات الدشودى وتصرف فى مصرف العموم الذى يصرف فى بحيرة مريوط ، وطلمبات القلعة وتصرف فى قناة ملاحية تصب فى مصرف العموم الذى ينتهى إلى بحيرة مريوط .

وهكذا تتم عمليات الرى والصرف فى إقليم البحيرة على أسس هندسية محكمة وهى كما قلنا تشرف على عمليات التوسع الزراعى ، الذى عن طريقه تتحسن

أحوال المعيشة للسكان الذين لديهم من أراضيهم ما يكفيهم ويكفى أضعاف أضعافهم من الأجيال القادمة فضلا عن الوافدين عليهم من الأقاليم المجاورة التى ضاقت بسكانها ولن تجد متسعا لهم غير البحيرة .

البحيرة أول درع للدفاع عن مصر

كان إقليم البحيرة بمثابة القلعة الأولى التى اصطدمت عندها اللامركزية بالمركزية فى عهد الملك مينا ، وكان أول غزو ليبى لمصر يبدأ بالبحيرة ، وكلما كان الدفاع بها قويا ، ارتد الغزاة على أعقابهم ، وكلما هوجمت السواحل المصرية فيما بين رشيد والإسكندرية كانت البحيرة أقوى الدروع الدفاعية عن البلاد كلها وقد زار (ديودور الصقلى) مصر فى القرن الأول الميلادى وحكى أنه [عند كل مصب النيل توجد مدينة على الضفتين تربطها قناطر ، وتحميها الحصون القلاع].

وقال (بلين Pline)(١) و (تاكيتوس Tacitus)(٢) إن كانوب كانت « قلعة Oppidum » .

هذا ويعتبر (دوران فييل)(٣) بحيرات مصر الشمالية حاجزا دفاعيا أهم من أحسن الاستحكامات العسكرية فى القرن العشرين . وأشار إلى أن مصب رشيد أشبه بترعة تقسمها جزيرة رملية صغيرة إلى شقين : الشرقى وتمر منه المراكب الصغيرة ، بينما ينبغى على السفن البحرية الكبرى أن تنقل ركابها وبضائعها على قوارب صغيرة ، ولما كان هذا الساحل معرضا للرياح العاتية ، فقد تركزت الملاحة فى الإسكندرية على أنها أكبر ميناء لمصر بل لهذا الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر ، عنيت مصر بتعزيز هذا الساحل الطويل الممتد من الإسكندرية إلى رشيد ، وهو جزء من خط الدفاع الساحلى ، وأنشئت

---

(١) Natural History V

(٢) Annals II

(٣) D. Viel : Campagnes navales., T : I P : 46 +

على طوله الأبراج والطوابى وزودته الحكومة بالمدافع الضخمة ، نذكر منها الطوابى التى لا تزال تزدان بمدافع قد تراكم عليها الصدأ وهى :

قلعة أبو قير ، وفى شرقيها سد أبو قير وكان معززا بأربعة أبراج لحمايته ، وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من آخر السد إلى الشرق طابية الإشارة ثم طابية المعدية ، وكان ساحل إدكو معززا بتسع طوابى موزعة عليه حتى رشيد على النحو الآتى : هلالية الكلخ على بعد ٢٨٠٠ إلى شرقى بحيرة المعدية ، وطابية المعدية ، وطابية الكلخ ، وهى على مسافة ٢٥٠٠ مترا من شرق الأولى ، وهلالية إدكو ، وطابية إدكو ، وهلالية العلايم ، وطابية العلايم ، وهلالية النفر ، وطابية النفر ، وبين كل طابية وأخرى مسافة أربعة كيلومترات . وكان على بوغاز رشيد من الشرق والغرب طابيتان وبينهما ثمانمائة متر تقريبا ، وهناك فى منتصف المسافة بين رشيد وطابيتى البوغاز ، كانت توجد قلعة قايتباى برشيد ، كما كانت توجد طابية أخرى فى (أبو منضور) وتقع على تل مرتفع فى جنوب رشيد .



٢

بلاد البحيرة
فى مختلف العصور

البحيرة. كوحدة إدارية

قبل أن تكون « البحيرة » وحدة إدارية ، لا بد أن يكون الوضع الجغرافى والتطور التاريخى قد عملا على أن تكون « وحدة طبيعية » وإن خير تعبير عن هذه الوحدة الأخيرة هو أن تقول « إقليم البحيرة » لأن كلمة « إقليم » أى المقلوم بمعنى « المقطوع » مشتقة من القلم وهو القطع ، وقد جاء فى « لسان العرب » أن الإقليم هو القسم ، وقال ابن دريد إنها ليست عربية ، وقيل إنها يونانية ء

حقا لقد انتقلت كلمة (كورة) إلى مصر قبل الفتح الإسلامى ، فعرفنا (كورة البحيرة) فى العصور الإسلامية ، ثم أضيفت إليها - فى العصر الفاطمى - كورة بجاورة فعرفنا (إقليم البحيرة) ، ثم أطلق اسم (أعمال البحيرة) منذ سنة ١٣١٥ م ، فصارت منذ سنة ١٥٢٧ م تسمى (ولاية البحيرة) ، ومن سنة ١٨٣٣ م سميت (مديرية البحيرة) . وأخيرا منذ سنة ١٩٦٠ أصبحت (محافظة البحيرة) .

ومهما يكن من شيء ، فإن التطور هو سنة الوجود ؛ لقد جرت عوامل الطبيعة ، على سنتها ، فامتد هذا الإقليم ونقص ، وارتفع وانخفض ، وتناوله الدهر بيديه : يد خربت وأخرى عمرت ، واختلطت بأرضه مياه النيل ومياه البحر ، وحلت المزارع والمصانع محل المصايد والمراعى ، وزحفت أراضيه على النهر والبحر ، كما زحف النهر والبحر على أراضيه ، وهكذا .

على الرغم من كل ذلك ، فإننا نستطيع القول فى ثقة وثبات بأن « إقليم

البحيرة » ثابت مستقر ؛ لم يكن فى الصعيد فصار فى الدلتا ، أو لم يكن وسط البحر ، فانتقل إلى قلب الصحراء ، ثابت لأنه صامد على مر العصور ، ومستقر لأنه على الدوام واقع فى غرب الدلتا المصرية ، أطلق عليه العرب منذ أربعة عشر قرنا من الزمان اسم « الحوف الغربى » ، وأطلق عليه الفراعنة منذ ٦٤ قرنا إسم (أمنت Ament) وهو إسم إلاهة الغرب (١) وشعاره ريشة نعامة وتسمى قديما Pi neb Amou أى « مدينة صاحبة النخل » كما ورد فى النصوص الهيروغليفية ، وقد عثروا فى أطلالها على نسخة ثالثة من « قرار كانوب » .



وكان إقليم البحيرة قبل سنة ٤٤٠٠ قبل الميلاد أى قبل أن يغزوه الملك مارمر ، مقسما إلى مقاطعتين (٢) ، وكلتاهما فى الغرب .

١ - **المقاطعة الشمالية :** وتعرف بمقاطعة ٣ غرب ، وتقع فى غرب الفرع البولبتينى (فرع رشيد) وتمتد غربا شاملة الأراضى الواقعة ما بين النيل وصحراء ليبيا وتعرف بمقاطعة (أمنت Ament) أو (إيمن الغرب Imen) وعاصمتها الفرعونية (آمو Amu) أو (Imou) أو ننتن هابى Nenten - Hapi) وباليونانية (أبيس Apis) وحاليا (كوم الحصن) ومعبودها (هات هور Hathor) أو (هات هور نوب Hathor Nub) ويتمثل فى صورة صقر .



وكانت عاصمة هذه المقاطعة فى الماضى مزدحمة بالسكان ، وفى العصر البطلمى اشتملت مساحة هذه المقاطعة على عدة مقاطعات : ليبيا ، وأندروبوليت (وعاصمتها أندروبوليس = خربتا) ومريوطيت (وعاصمتها مريوطيس = مريوط) ، وكانت تمتد لمسافة اثنى عشر كيلو مترا إلى الغرب من فرع كانوب أو « النهر الكبير » ، وكانت توجد هناك أيضا (ماريا Maréa) .

---

(١) Alex. Zogheb : L'Egypte ancienne P : 33.

(٢) An Atlas of Ancient Egypt + W. Budge : The Nile .

وطالما تعرضت هذه المنطقة للغارات المتوالية من الغرب من جهة النهر والبحر والصحراء من وادى النطرون .

وذكر بطليموس الجغرافى السكندرى هناك عدة مدن منها : (مونوكامينوم Monocaminun) و (هاليرى Halmyrae) و (تابوزيريس Taposiris) و (كوبى Cobii) و (أنتيفيلى Antiphili) و (هيراكس Hiérax) و (فوموتيس Phomotis) و (بالى Palae) و (ماريا Mariae) و (فيكوس Vicus) وأصبحت كلها أطلالا وخرائب ، وكانت شواطىء البحيرة عامرة بالمدن ومزارع الكروم التى اشتهرت بخمورها .

٢ - **المقاطعة الجنوبية** : وتعرف بمقاطعة ٧ غرب .. وتقع فى شمال المقاطعة السابقة وتسمى بمقاطعة (نفر أمنت Nefer amenti) وعاصمتها الفرعونية (سنتى نفر Senti - Nefer) أو (Per Ha neb Imenti) وفيما بعد سميت باليونانية (ميتيليس Metelis) ثم صار اسمها (مصيل Maçil) بالقرب من العطف ومعبودها (آمن رع Amen - rà) أو (هو Hu) .

والمعروف أن هذه المقاطعة الأخيرة هى التى عرفت فيما بعد باسم عاصمتها فقيل (ميتيليت) وهى التى شن (نارمر) الحرب عليها عندما وقفت فى وجهه وساق منها ستة آلاف أسير ، ينتمون إلى (هوريس) وهو فى صورة صقر كما نشاهد ذلك فى لوحة نارمر (١)

لهذا تنتسب هذه المقاطعة إلى (هوريس) الذى ولد فى (خميس) بين أحراش وسط الدلتا ، وقد قامت معركة بينه وبين فرس النهر فى المستنقعات التى كانت تغمر الدلتا .

وقد اختلف المؤرخون فى عاصمة هذه المقاطعة ، فهل كانت (ميتيليس) أم (أركاندروبوليس Archandropolis) أم (مينيلايس Menelais) التى ذكرها هيرودوت ؟ .

---

(١) Ad. Cattawi : Causeries P. 13. + Alex. Moret : L'Egypte pharaonïque, Hist. de la Nation égyptienne T : 2 P : 70.

أما النقود القديمة ، فقد اشتملت على صورة « فرس النهر » ، وهو الخنزير المائى وعثر عليها فى « تل لوقين » على مسافة ٣٠ كم من الإسكندرية ، ومثلها إلى دمنهـــور .

وفى عصر بطليموس الجغرافى كانت (كانوب) عاصمة لمقاطعة (مينيلايت) حيث غرق (كانوبيس Canopus) قبطان (Ménélas) اليونانى عند عودته من حروب طرواده .

وقد ورد فى قصة هوريس كلمة (Mesenou) أى «حملة الخطاطيف» وهم أهل الإقليم السابع الذى هو إقليم البحيرة حيث نشأهوريس ، وعرف أهل هذا الإقليم بصيد عجول البحر من البحيرات بالخطاطيف ، فصار « الخطاف » رمز البحيرة

ومن ذلك التاريخ السحيق ، والإقليم يتعـــرض من حين إلى حين لتغييرات فى تقسيماته الإدارية ، ونستطيع أن نلخص هـذه التغييرات فى الصفحات الآتية :

إذا تركنا جانبا التقسيم الإدارى العام لمصر فى مختلف العصور ، لنبحث عن التقسيمات الفرعيـة ، وجدنا أن الفراعنة أطلقوا اسم hesep [1] على المقـاطعة وكانت إذ ذاك أكبر من (المركز) وأصغـر من (المديرية) ، ثم أطلق البطالمة على هذه الوحدة الإدارية اسم nomus أى المقاطعة ، وكل مقاطعة كانت تنقسم إلى قرى komus ، واستمر الرومان على هـذا المنوال حتى صـــارت الوحدة الإدارية تسمى (كورة chôra) فى العصر القبطى ، فلما فتح العرب مصر عربوا هذه الكلمة [2] . واحتفظوا بهذا التقسيم ، ثم أطلق على (الكورة) اسم (العمل) ثم (الولاية) ثم (السنجق) ثم (الكشوفية) ثم (الخط) ثم (المديرية) ثم (المحافظة) وهو المعروف الآن ، ولكل وحدة من كل هذه أقسامها ، كما سنرى ذلك فى موضعه .

---

(١) An Atlas of Ancient Egypt. P : 5.

(٢) يقول حمزة الأصفهانى إن هذه الكلمة أصلها فارسى ولكن المؤكد أن العرب أخذوها عن الرومان لا عن الفرس .

ولم يشذ إقليم البحيرة عن هذا التطور . ولكنه تميز عن غيره من الأقاليم برمزه (الخطاف) من العهد الفرعونى ، ومعبوده (هوريس) .

والمعروف أن الكور التى ذكرها (جورج القبرصى) وعددها ٣٣ هى التى ورثها العرب الفاتحون عمن سبقهم فى حكم مصر ، وكان نصيب إقليم البحيرة من هذه الكور : كورة بوابتين (رشيد) ، وكورة هرموبوليس (دمنهور) ، كورة نقراشيا (جعيف) ، كورة شيديا (النصف الشمالى من إقليم البحيرة الحالى) وكورة طرنوتيس (الطرانة) ، وكورة أندرونيكيوس ، كما هو واضح فى الخريطة .



وأطلق المسلمون اسم (الحوف الغربى) ـ أى الجانب الغربى ـ على الإقليم الواقع غربى فرع رشيد بما فيه الإسكندرية ومريوط ، وهو ينطبق على إقليم البحيرة إجمالا ، فيما عدا الزيادة والنقص فى بعض العصور .



وفى القرن الثالث الهجرى وجدنا اختلافا بينا عند مؤرخى العرب مثل الخوارزمى (٢٠٥ هـ) واليعقوبى (٢٨٠ هـ) والهمذانى (٢٨٥ هـ) : فنرى رشيد ونقيزة ثم مصيل ومليدس وقرطسا وخربتا والبدقون والنجوم وإخنا (إدكو) ورشيد ، والبحيرة والشراك وترنوط والحيز .

وقد ذكر (شارل دى لارونسيير) (١) عدد ١٤ أسقفية فى الإقليم الأول لمصر ، فى العصر البيزنطى وكانت تابعة للكنيسة الكاثوليكية بالإسكندرية .

وفيما يلى مقاطعات البحيرة قديما وبين الأقواس مقر أسقفية كل منها : ميتيليس (مصيل) ونقراطيس (النبيرة) وأندروپوليس (خربتا) ومينيلايس (إدكو) ومريوطيس (مريوط) .

وفى القرن الرابع الهجرى نرى ابن خرداذبة (٢) (ـ ٣١٠ هـ) يتحدث عن كور مصر بدون ترتيب ، فيذكر مثلا « كورة الإسكندرية والقلزم » وشتان ما بينهما .

أما كور « الحوف الغربى » التى تعنينا ، فقد ذكر منها : مصيل . المليدس . قرطسا . خربتا . البدقون . النجوم . نقيزة . إخنا ورشيد . البحيرة . الخيس . الشراك . ترنوط .

ويعنى ابن خرداذبه بصفة خاصة بتحديد المسافات بين مدن إقليم البحيره بالأميال ، ولا يضن على القارىء بما يعرف عن كل مدينة من مظاهر العمران ، فقد ذكر مثلا المسافة [من مريوط إلى كوم شريك ٣٠ ميلا ثم إلى كريون ٢٤ ثم إلى الإسكندرية ٢٤ ، ومن سنهور إلى النجوم وهى إقليم بها حمامات وفنادق وأسواق ومن النجوم إلى نسترو‌ه ، ومن البرلس إلى إخنا وهى حصن على شط بحر الملح ، ومن إخنا إلى رشيد ، وكان بها أسواق صالحة وحمام وبها نخيل] .

أما قدامة بن جعفر وقد توفى فى السنة التى توفى فيها ابن خرداذبة فقد تحدث عن أعمال مصر وكورها وذكر (٣) : نقيزة والبدقون وقرطسا وخربتا وترنوط ومصيل والمليدس وإخنو ورشيد ، كما أنه عنى أيضا بالمسافات بالأميال

---

(١) De la Roncière : La Geogr. de l'Egypte. P. 201.

(٢) المسالك والممالك : ص ٨٢ وهو مخطوط ، والتحريف فى الأسماء شائع بكثرة كغيره من المخطوطات .

(٣) الخراج ص ٢٠٨

بين المدن بعضها بعضا (١) : فذكر كوم شريك والرافقة والكريون وذات الحمام فضلا عن الكور والأعمال التي تحدث عنها .

ثم نرى أسماء عربية جديدة تظهر في إقليم البحيرة ولا سيما على لسان المقدسي (٣٧٥ هـ - ٣٨٠ هـ) مثل : جعيفا وشبرا دمنهور وسنهور ومحلة يزيد ومحلة حفص ومحلة زياد ، كما أنه جعل إقليم مصر سبع كور فقط . منها ست كور عامرة [ولها أيضا أعمال واسعة ذات ضياع جليلة . ولا مدينة إلا بمنبر] (٢) وهذه الكور هي : الجفار . الحوف الريف . إسكندرية . مقدونية . الصعيد . الواحات.

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث المسبحي (٤٢٠ هـ) والقضاعي (٤٥٤ هـ). عن كور البحيرة وعاصمة كل كورة . ولكن مما يؤسف له حقا أن الكتابين اللذين ورد فيها ما كتبه هذان المؤرخان غير موجودين ، لولا ما اقتبسه منهما الدمشقي والمقريزي ، مع ما بينهما من اختلاف .

ونذكر هنا كور البحيرة التي ذكرها الدمشقي وعواصمها وعدد نواحيها :

الكورة	العاصمة	عدد النواحي
البذقون (حيز البدقون)	البدقون	٢٥
البرمون (البدقون)	الرمون	٣٧
الشراك	الشراك	١٧
ترنوط (الطرانة)	ترنوط	٠٧
خربتا	خربتا	٥٦
قرطسا	قرطسا	١٨
مصيل	مصيل	٣١
إخنا (إدكو)	إخنا	٣١

(١) الخراج ص ٢٢١

(٢) أحسن التقاسيم : ص ١٩٣

رشيد	فوة	١٤
البحيرة	دمنهور	١٤

أما الكور التى ذكرها المقريزى [١] فتتلخص فيما يلى :

البدقون (٤٣ ناحية) . حيز البدقون (٢٩) ، الشراك (٢٩) ، ترنوط (٨) ، خربتا (٦٢) ، قرطسا (٢٢) ، النجوم (٤٠ قرية سوى المنى) - والمنى جمع منية وهى الفرضة على النيل ، مصيل ومليدس (٤٩) ، إخنو ورشيد (١٧) ، البحيرة (١٧) .

وليكن معلوما أن القضاعى كان آخر من تكلم عن كور مصر فى القرن الخامس الهجرى ، وقد نقل عنه ابن دقماق والقلقشندى والمقريزى ؛ على أن هذه الكور قد طرأ عليها تغيير آخر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى أى أواخر القرن الخامس الهجرى ، حيث ضاق نطاق هذه الكور عما كانت عليه من قبل .

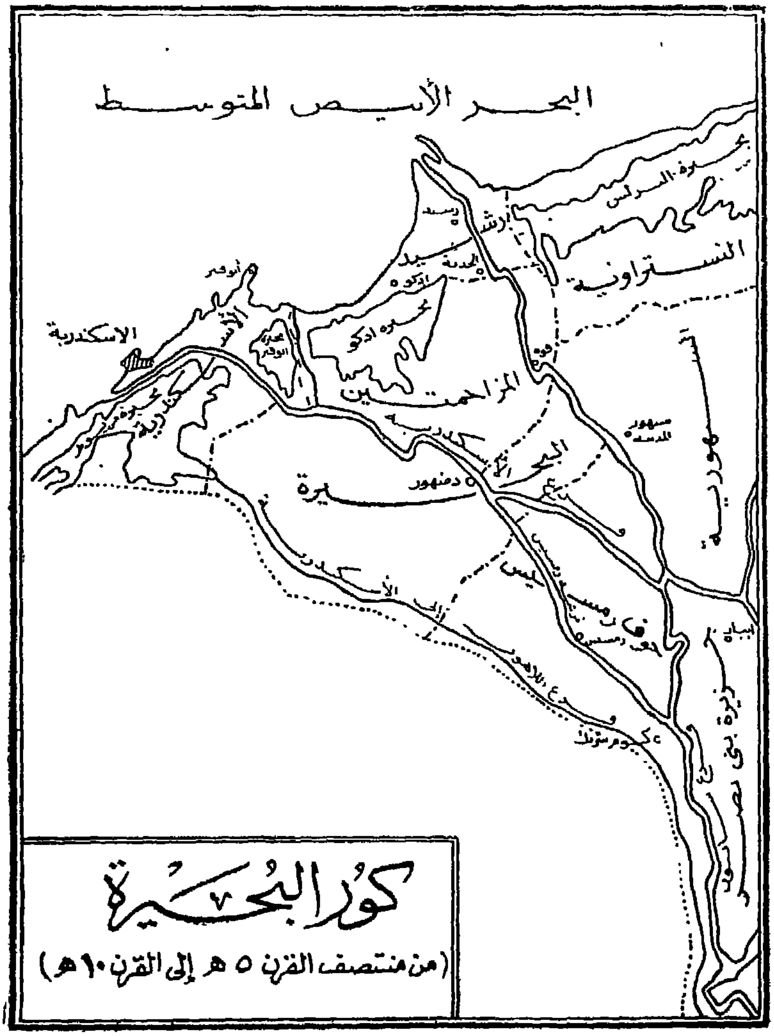
فقد عقد البكرى فصلا من كتابه [٢] للحديث عن كور مصر وقراها فى هذه الفترة من الانتقال ، فأعاد إلى الأذهان ما كان بمصر فى الزمن الأول من الكور (١٥٠) وما كان فى كل كورة من مدينة ويقصد بها أنها عاصمة تلك الكورة ، كما أن بكل كورة ٣٦٥ قرية ، وذكر أيضا أن (بخت نصر) - فى أثناء الغزو الفارسى - قد خرب ٦٨ كورة ، ثم صار المعمور بعد الفرس ٨٥ ثم صارت ٤٠ فقط عندما فتح عمرو بن العاص مصر فى سنة ٢٠ هـ ، وانقسمت مصر كلها إلى ٢٦ عملا ، ذكر منها البكرى فى الوجه البحرى الكور الآتية : النستراوة وفوة والمزاحمتين والبحيرة وحوف رمسيس ، وكورة البقنون (ولعله يقصد البدقون) ، وكورة ترنوط ، وكورة خربتا ، وكورة قرطسا ، وكورة إدكو ورشيد ؛ والبحيرة منها لوبية ومراقية ومنها مدينة الإسكندرية ومريوط وغير ذلك من الحصص .

---

(١) الخطط : جـ ١ ص ٢٨ .

(٢) الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة : الفصل الرابع

هذا ما ذكره البكرى وله أهميته البالغة من حيث عدد الأعمال أو الكور وتعددها على هذا النحو ، وما تشتمل عليه كل منها من القرى والمنى والكفور والحصص ، ومع ذلك قد أغفله عمر طوسون فى الجزء الأول من كتابه La Geographie de l'Egypte لأنه لم يطلع على كتاب البكرى هذا ، إذ لا أثر له فى مراجعه التى اعتمد عليها . ونحن وإن كنا نجهل تاريخ وفاة البكرى ، إلا أن المرجح عندنا أنه عاش بعد المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ لأنه أشار إليه .



كور البحيرة
(من منتصف القرن ٥ هـ إلى القرن ١٠ هـ)

وفى القرن السادس الهجرى تحدث أبو صـــالح الأرمنى (- ٥٥٠ هـ) [١] لأول مرة عن هذه الكور فى طورها الجديد ، طور الذبول والانكماش فقد أصبحت خمس كور فقط هى :

فوة والمزاحمتين (فوة) - النستراوية (نستروه) - رشيد والجديدية وإدكو (رشيد) - البحيرة (دمنهور) - حـــوف رمسيس (رمسيس) وحدد فى كل كورة عدد نواحيها وعدد كفورها .

وهكذا أصبح عدد كور البحيرة خمسة بعد أن كان أحد عشر ، وصار يطلق عليها (أعمالا) [٢] بعد أن كانت (كـــورا) ، واستجد منها (عمل) سمى (البحيرة) وعاصمته دمنهور .

وفى القرن السابع الهجرى يستعمل ابن دقـــماق (الكورة) ويقسمها إلى (أعمال) ، فيذكر كور الحوف الغربى : صا ، شباس ، البتنون . (ولعلها البندقون) الخيس والشراك ، خربتا ، قرطسا ومصيل ، إخنا ورشيد . ويستطرد قائلا : ومن البحيرة : كورة الإسكندرية وكورة مريوط وكورة لوبية ومراقية . [٣] ثم يفرد فصلا بعنوان (الأعمال البحرية) ويقصد بذلك القرى التى توجد فى « البحيرة » بدليل أنه يبدأ بالحديث عن « المدينة » : دمنـــهور قائلا [وهى قاعدة البحيرة ، وبها مقام نائب الوجه البحرى ويطلق عليه (ملك الأمراء)[٤]] ويقصد أن ملك الأمراء وهو نائب السلطان يقيم بدمنهور عاصمة البحيرة ، التى ارتفع شأنها فلم يعد يطلق عليها اسم كورة ، لأنها أصبحت « نيابة » ، ويستطرد ابن دقماق فى الحديث عن عظمة دمنهور فى القرن السابع فيقول : [وأما أعمالها : فنها أبسوم ، وأبلوق وأبو الزرازير ، وأبو السحماء ، وأبو الشقاف ، وأبو الارانب

---

(١) أخبار من نواحى مصر وإقطاعها : طبعة أكسفورد سنة ١٨٩٥ ص ١١

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : مقال (البحيرة) بقلم : Becher

(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصار : جـ ٥ ص ٤٢ +

(٤) ص ١٠١

وأبو الطبول ، وأبو الغزلان البحرية والقبلية ، وأبو حمار ، والكريون وتروجة ، وإتقو (إدكو)] .

وفى هذا الوقت الذى أصبحت فيه البحيرة (نيـــابة) ، كانت الإسكندرية إحدى الكور التابعة لها ، شأنها فى ذلك شأن كورةمريوطوكوره لوبية ومراقية.

غير أننا نشهد فى آخر هذا القرن بداية اصطلاح جديد يطلق على الكورة ، حيث يقول الدمشقى (١) (— ٧٢٧ ه) : [وكورة إخنا (إدكو) من الخطط ، وكورة رشيد ١٤ قرية ، وكانت رشيد القصبة (العاصمة) ، وكورة البحيره وقصبتها دمنهور ، وكورة الإسكندرية] .

وقد جعل الفاطميون الحوف الغربى كورتين : كورة البحيرة (وقاعدتها دمنهور) ، وكورة حوف رمسيس (وقاعدتها مدينة رمسيس) .

حتى إذا طلع القرن الثامن الهجرى ، وجدنا الملك الناصر قلاون فى سنة ٧١٥ ه يأمر بإلغاء حوف رمسيس ويجعل البحيرة كلها إقليما واحد باسم البحيرة وقاعدته دمنهور .

وكان بالبحيرة حتى سنة ٧٧٧ ه (١٣٧٦ م) ٢٢١ بلدا منها ٢١٢ لأصحاب الإقطاع ، وإذ ذاك كانت مساحة إقليم البحيرة ٣٠٩٢٧٧٫٥ فدانا منها ٨٥٠٨٫٥ فدانا رزقة ، وكان هذا الإقليم الثالث فى كثرة بلاده بعد الغربية والشرقية من أقاليم مصر كلها .

فإذا انتقلنا إلى القرن التاسع الهجرى وجدنا القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ ه يتحدث عن إحـــدى عشرة كورة فى الحوف الغربى (٢) هى : صا ، شباس ، البذقون ، الخيس والشراك ، خربتا ، قرطسا ومصيل ، المليدس ، إخنا ورشيد والبحيرة ، ومريوط ، لوبية ومراقية .

ونحن نعـــلم أن القلقشندى نقل هذه الكور عن خطط القضاعى التى كانت

---

(١) نخبة الدهر : ص ٢٣١

(٢) صبح الأعشى : ج ٣ س ٣٨٩

تشتمل على ثلاثة أحياز تندرج تحتها خمس وخمسون كورة دون ترتيب ، غير أن الجديد عند القلقشندى هو الترتيب ، وتبيان ما درس منها وما بقى ، وما أضيف وما نسى أو تغير ، كما أنه حاول أن يصحح بعض الأخطاء فأصاب حينا وأخطأ حينا آخر ، فذكر كورة البجوم (١) (بالباء) وقال إنها [من الأسماء المندرسة ولا يعرف مكان بالديار المصرية اسمه البجوم ، إلا أرض بأسفل عمل البحيرة على القرب من الإسكندرية صارت مستنقعا للمياه المتصرفة عن البحيرة] .

وسنرى المقريزى (٢) الذى توفى بعد القلقشندى (— ٨٤٥ هـ) يقول [وفى الوجه البحرى مدينة النجوم (بالنون) وقــــد غلب على مدينة النجوم الرمال والسباخ ويعرف اليوم منها قرية إدكو على ساحل البحر بين رشيد والإسكندرية]

وينكر القلقشندى وجود بلد باسم (إخنا) بالبحيرة ، وإنما أخنويه من عمل الغربية والعامة تقول (إخنا) ، وهنا أخطأ القلقشندى خطأ فاحشا . وأحيانا نرى السخاوى والقلقشندى يستعملان (الغربية) بمعنى الحوف الغربى .

ويستعمل القلقشندى أيضا (العمل) ، فيجعل غرب فرع رشيــد عملين هما :

١ — **عمل البحيرة :** وهو مما يلى عمل الجيزة من الجهة البحرية ، وهو عمـل واسع كثير القرى ، فسيح الأرضين ، مقر ولايته مدينة دمنهور ، ويدخل فى هذا العمل (حوف رمسيس) و (الكفور الشاسعة) .

٢ — **عمل المزاحمتين :** وهو ما جاور خليج الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر الرومى ، وبعضه بالبر الشرقى من النيل ، وحاضرته (= قصبة = عاصمة) مدينة فوة ، وإنما يكون بها (شاد) خاص ، يتحدث فى كثير من أمور الولاية .

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى يتحـــدث ابن الجيعان فى كتابه المشهور «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» بعد حصر زمامات الأراضى وهو المعروف باسم (الروك الناصرى) فيذكر أعمال البحيرة فيقول : المدينـة وهى دمنهور

---

(١) ص ٣٨٧

(٢) الخطط ج ١ ص ١٠٦

الوحش (١) ومساحتها ١٤٩٢ فدانا ، عبرتها (حصيلتها المقدرة) كذا ، وكانت باسم الأمير صرغتمش الأشرفى ، والآن للديوان المفرد] .

هذا نموذج من الكلام على البلاد المصرية عند ابن الجيعان ، ويمضى فى ذكر أعمال البحيرة فيتحدث عن إتقو (ويقصد إدكو) ومحلة الأمير ، ومحلة عبد الرحمن (الرحمانية) .

على أن الجديد عنده هو أنه يستعمل «الأقاليم» لأول مرة بمعنى الكور أو الأعمال الكبيرة ، فمثلا : إقليم فوه والمزاحمتين ومدينته فوه ومن أعماله إتفينه (إدفينا) ومحلة الأمير، ونطوبس الرمان (مطوبس) ، وإقليم نستراوه مدينته نستراوه ومن أعماله البرلس وبلطيم وثغر رشيد ، كما أن ثغر الإسكندرية المحروس يستقطع فى عهده بلادا كثيرة من إقليم البحيرة مثل (إتكو) ويقصد (إدكو) والجنان والحاقر (منية السعيد + حوض الشريفة + الطويلة) والجدية .

ويسير غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى على هدى ابن الجيعان فيذكر فى كتابه «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» أقاليم الوجه البحرى وعددها سبعة بكل منها ٣٦٠ بلدا وعدة مدن ويقول عن إقليم البحيرة ما يأتى :

[وهو إقليم متسع جدا وبه مدينة دمنهور ، وهى مدينة كبيرة] ، وفى القرن العاشر الهجرى يحدثنا ابن زنبل الرمال فى « تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب » عن إقليم البحيرة : إنه متصل بالإسكندرية وبالقرب منها ، وبه مدينة الإسكندرية الخراب وليس بها ساكن ، وهى عند جبل يقال له (الجبل الأخضر) ، وهو متصل ببلاد المغرب .

وهذا يدل على أن الطاعون والخراب اللذين ضربا أطنابهما على مدينة الإسكندرية فى هذا العهد من حكم الترك ، قد أديا إلى اتساع نطاق إقليم البحيرة حتى شمل الإسكندرية ، فصارت تابعة للبحيرة .

وأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن فتحها السلطان سليم الأول ، ومنذئذ

---

(١) « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ص ١١٦

صار يطلق على الأقاليم (سناجق) وعددها أربعة وعشرون على رأس كل منها سنجق أو بك ، وكانت هذه السناجق متفاوتة الأهمية ، فقد كان سنجق البحيرة أحد السناجق الخمسة الأولى ، أما السناجق الأخرى فقد كان حكامها يسمون (الكشاف) ، وهم بذلك فى المرتبة الثانية .

وآل الأمر بعد الغزو العثمانى ، إلى طائفة المماليك الذين أصبحوا هم الحكام الحقيقيين للبلاد . فلما غزا نابليون مصر ، أبقى على نظام المديريات فأصدر أوامره فى ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٨ بجعل ديوان لكل مديرية ، فأصبح لكل من مديرية البحيرة ومحافظة رشيد ديوان ؛ وكان ممثلو البحيرة ورشيد يحضرون اجتماعات (الديوان العام) بالقاهرة ، وكذلك رؤساء العرب .

وفى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩ أصدر كليبر أمرا بتعديل التقسيم الإدارى فجعل مديريات مصر ثمانية أقاليم : خامسها الإسكندرية ويتبعها كل من البحيرة ورشيد وجعل الإسكندرية عاصمة الاقليم .

ولما أصبح محمد على واليا على مصر منذ سنة ١٨٠٥ قسم البلاد إلى ثلاثة أقاليم رئيسية :

١ — **الاقليم الأول** : من وادى حلفا إلى مديرية المنيا : وهو تحت إدارة ولده إبراهيم باشا .

٢ — **الاقليم الثانى** : من المنيا إلى الجيزة ومعه الفيوم : وهو تحت إدارة أحمد باشا طاهر .

٣ — **الاقليم الثالث** : وهو الإقليم البحرى ويشمل أربع مديريات :

ا — من الجيزة إلى غرب الدلتا : تحت إدارة حسن بك أبو نيشانين .

ب — الغربية : تحت إدارة حفيده عباس الأول .

حـ — الدقهلية : تحت إدارة حسن أفندى القوله لى .

د — الشرقية ووادى الطميلات : تحت إدارة محمد بك كتخدا إبراهيم باشا يكن.

ثم ضمت المديريتان الأخيرتان فصـارتا واحدة تحت إدارة عبد الرحمن بك القبطى الأصل .

وجعل محمد على [1] مديرا على رأس كل مديرية ، وظلت البحـيرة مديرية ورشيد محافظة سنة ١٨١١ ، وهو الذى قسم المديرية إلى مراكز . والمراكز إلى أقسام (أخطاط) وسمى حاكم المركز مأمورا ؛ ورئيس القسم ناظر القسم .

وانقسم كل قسم إلى قرى سميت (النواحى) ، على كل ناحيـة : (شيخ المشايخ) الذى صار يطلق عليه (عمدة) فيما بعد ، ويعاونه مشايخ البلد (لحفظ الأمن) ، والخولى (لمسح الأطيان) ، والصراف (لجمع أموال الميرى) والشاهد (= المأذون) .

وانقسمت مديرية البحيرة [2] إلى قسمين كبيرين هما : النجيلة ودمنهور ، وجعل النجيلة أربعة أخطاط ، وكلا من المراكز الآتية أربعة أيضا : شبراخيت دمنهور ، الرحمانية . الجيزة ، البدرشين .

وقد حصر عمر طوسون [3] أخطاط البحيرة فى عهد محمد على فوجدها خمسة عشر هى : خط بلاد الأرز ، خط بركة غطاس ، خط دمنهـور وقرطسا ، خط حاجر بنى عوبى ، خط خربتا ، خط معنيا ، خط النبيرة ، خط النجيلة . خط نكلا العنب . خط الرحمانية ، خط شابور ، خط شـرنوب . خط شبراريس ، خط سمخراط ، خط الطرانة .

وكان مجموع بلدان البحيرة ٢٣٠ ، وفى عهـد إسماعيل [4] كانت مراكز

(١) مقال « حالنا أمس اليوم » : عبد الله نديم + الحركة القومية : حـ ٣ : الرافعى
(٢) بناء دولة : شكرى وزميلاه ص ٦٢٤
(٣) La Geographie de l'Egypte à l'époque arabe
La Basse - Egypte - T : 1. 3ère partie : l'époque de Moh. Ali .
(٤) « رحلة إسماعيل فى جميع محافظات وعواصم القطر المصرى : إسماعيل محمد مصطفى

البحيرة تسعة فقط هى : دمنهور ، كوم حمـــاده ، الدلنجات ، إيتاى البارود ؛ شبراخيت ، أبو حمص ، كفر الدوار ، مريوط ، رشيـــد . وبلغ سكانها ٨٩٢ ألف نسمة .

وفى الحق أن محمد على وخلفاءه قد كثرت التعديلات على التقسيمات الإدارية فى عهودهم المختلفة ، فمثلا كان محمد على قد أطلق اسم (مأمورية) على المديرية ثم ألغى هذه التسمية سنة ١٨٣٣ وأطلق عليهـــا (مديرية) ، وفى آخر أيام سعيد قسمت مصر إلى أقسام ، وفى سنة ١٨٧١ أطلق إسماعيل اسم (مركز) على كل قسم فى الوجه البحرى ، يحكمه (المأمور) ، وأبقى بعض الأخطاط وجعل اسم (معاون الإدارة) بدلا من (حاكم الخط) ، وفى سنة ١٨٩٠ فصلت المدن عن المراكز التابعة لها ، وأنشىء فى كل مدينة مأمورية مستقلة بحدودها ومفصولة عن قرى المراكز وعليها (مأمور بندر) وذلك تمييزا لها عن (مأمور المركز) [١]

وقد ذكر موتسنجر باشا فى « جغرافية مصر » مراكز مديرية البحيرة ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، فوجدها خمسة فقط هى : النجيلة وشبراخيت والعطف والدلنجات وأبو حمص ، وجميع بلدانها ٢٨١ ، وبها خمســـة مراكز للشرطة ، ومقر ديوان المديرية دمنهور طبعا .

وفى ١١ مارس سنة ١٩١٥ صدر قرار وزارى بتعـديل دوائر الاختصاص الإدارى بمحافظة الإسكندرية وبمديرية البحيرة ، ويقضى هـــذا القرار بفصل مأمورية سيوه عن مديرية البحيرة وتبعيتها لمحافظه الإسكندرية .

ومنذ مطلع القرن العشرين إلى الآن ، ومصلحة المسـاحة تصدر فى سنوات متقاربة كشوفا بإحصاء كل مديرية وما يتبعها من المراكز والمدن والنواحى ، مع التنويه بالمستجد منها ، وتصدر المصلحة جداول بأسماء المراكز وما يتبعهـــا من البلاد مع الإشارة إلى تبعيتها من قبـل إلى مركزها السابق فى حالة إنشاء مراكز جديدة . ففى سنة ١٩٤١ كانت مراكز البحـــيرة عشرة هى : أبو المطامير

(١) القاموس الجغرافى للبلاد المصرية : محمد رمزى ح ١

أبو حمص وإيتاى البارود والدلنجات والمحمودية ودمهور ورشيد وشبراخيت وكفر الدوار وكوم حماده .

ويجب أن نشير إلى أن مركز المحمودية قد أنشيء سنة ١٩٢٩ وأن مركز أبو المطامير قد أنشيء سنة ١٩٣٠ .

وصدر قانون رقم ١٩١ لسنة ١٩٥٥ بإجراء تعديلات فى التقسيم الإدارى لجمهورية مصر ، جاء فى المادة ١٢ منه ما يأتى :—

يفصل من مركز كفر الدوار التابع لمديرية البحيرة نواحى : السيوف قبلى والسيوف بحرى ، والتومبانية الإنجليزية ، والمنشية البحرية ، وغرب نوبار وخورشيد والتوفيقية والمندره قبلى ، والمندره بحرى ، والمعمورة والمحروسة ، وحجر النواتية ، وسيدى بشر ، والصبحية ، وأبو قير ، والمنشية الجديدة ، والدخيلة ، والبيطاش ، والعجمى ، وتضم إلى محافظة الإسكندرية . (١)

ونظرا لازدياد السكان باضطراد فى جميع أرجاء إقليم البحيرة ، مع ازدياد العمران فقد أصبحت هذه المديرية ـ منذ صدر قانون نظام الإدارة المحلية لسنة ١٩٦٠ ـ تسمى « محافظة البحيرة » ، واختفت كلمة « مديرية » هذه من تقسيمات مصر الإدارية ، وأصبحت محافظة البحيرة حتى وقتنا هذا تتكون من بندر دمنهور وأحد عشر مركزا هى : دمنهور وأبو المطامير وأبو حمص وإيتاى البارود والدلنجات والمحمودية وحوش عيسى ورشيد وشبراخيت وكفر الدوار وكوم حماده .. أى أن كوكبا جديدا هو (حوش عيسى) قد طلع فى سماء (البحيرة) .

ولما كان من الصعب أن نحدد تبعية كل بلد من بلاد البحيرة إلى مركزه تبعا لهذا التغير المستمر فى إنشاء مركز بعد مركز ، لهذا رأينا من الأفضل أن نبدأ بمذكرات خاطفة عن أشهر مدن البحيرة ثم نقدم كشفا بالبقية كلها .

---

(١) الوقائع المصرية : عدد ٢٨ فى ٧ ابريل سنة ١٩٥٥ .

البحيرة بين ضباب الأساطير

ت مصر فى عصر ما قبل التاريخ تحكمها سلطات محلية باسم الآلهة المعبودة
ـرت رموزا عليها ، تعرف بالطواطم Totems ، وهى الأصل البدائى
لنظام « المقاطعة » أو « الإمارة » وكان « هوريس »
= « الصقر » الإله المصرى ، صاحب النفوذ الأكبر
فى مصر كلها كما سبق أن ذكرنا فى تطور حضارة
البحيرة :


وريس المنتصر
ست) رمز الشر

وقد أشرنا إلى أسطورة «إيزيس وأوزيريس» وما كان من انتصار (هوريس أو هور Horus-Hor) على (ست Seth) وبذا انتصر الخير على الشر .

كان المصريون يعتقدون منذ القدم أن إله الأرض (جب Geb) هو الذى
مصر قسمين : فكانت الدلتا من نصيب (هوريس) وكان الصعيد من نصيب
) كما أشار إلى ذلك العلامة (ألكساندر Alexandre Moret) فى مجلده القيم الفرعونية «L'Egypte Pharaônique»(١)


ايزيس ترضع ابنها هوريس

وعلى أثر المعركة الدامية بين هوريس وست نزل إله الحكمة (تحوت) من السماء فضمد جراحهما ، وصار هوريس رب الناس. ومعنى ذلك أن عبادة (هور) قد سيطرت على أقاليم الدلتا ، وتركزت


هوريس الظافر

(١) G. Hanotaux : Hist. de la Nation égyptienne T: 2 P: 57

بصفة خاصة فى (مدينة هور = دمنهور) ؛ عاصمة البحيرة ، التى غزاها الملك (نارمر Nàrmer) من الصعيد فحارب أهلها وأخضعهم لسلطانه ، كما هو ظاهر فى (لوحة نارمر) ، وعلى ذلك تكون دمنهور هى أقدم مدينة فى الإقليم .

دمنهور : Damanhoor مدينة النور .. والنصر .. والبحيرة

إذا تأملنا الأساطير القديمة الخاصة بالمعبود (هوريس) ، وجدنا أن مدينة دمنهور بانتسابها إليه ترمز إلى المعانى السامية التى خلعها المصريون عليه ، فهى « مدينة النور » و « مدينة النصر » و « مدينة البحيرة » ، كما يفهم من « كتاب الموتى » والصور والنقوش التى فى المعابد .



هوريس (إله النور)
منتصرا على التمساح
(ابن ست)

نرى (هوريس) - كما فى الرسم - يمثل «إله النور» فى صورة إنسان يقف بكل عظمة على ظهر تمساح مستسلم له ، غير ناظر إليه ، وقد رشقه بحربته ، والتمساح هنا يرمز إلى ابن (ست Set) الشرير ، المسمى (إله الظلام) ، وهكذا انتصر النور على الظلام ، ويرمزون إلى هذا النصر أيضا بالصورة الآتية : وفيها الصقر متغلبا على الغزال .



هوريس (الصقر) منتصرا على
ست (الغزال)

ويكاد يكون نادرا أن نعثر فى الأساطير المصرية القديمة على (هور) بوصفه (إله الماء) ولكننا نرى بعد انهيار عبادة كبار الآلهة الرسميين ، أن الديانة المنزلية قد احتلت المكانة الأولى ، ففى العصر البطلمى ، نرى (هربوقراط Harpocrates) ابن هوريس فى صورة طفل يبتسم ، ومعه أوعية الماء ، أو وهو يصب ما فى الوعاء على

الأرض ، كرمز على دموع « الصقر » المعبود ، باسطا رحمته على الأرض .

وكثيرا ما نرى فى نقوش المعابد القديمة (البقرة) هاتور Hathor وهى ترضع هوريس أو نراها بين الأحراش ، وكان « كأس ليبيا » يقع فى (أمنت Ament) وهى المقاطعة الثالثة غرب وهى التى كانت يوما ما عملكة الدلتا كلها وتسمى (ها - هور Ha - Hor) « بيت هوريس » : الصقر المعبود وسيد أرض الغروب، فصارت زوجته الإلاهة (هات - هور Hat - Hor) معه فى (معبد هوريس)[1]

وأحيانا أخرى نرى صورة (هوريس Heru, Horus) باسم « شمس الصباح »[2] ورأسه رأس صقر ، وباسم « المنتقم لأبيه » من (ست Set) ،



هوريس منتصرا على ست

وفى صورة أخرى وهو يقدم (آنى Ani) إلى أبيه أوزيريس .

وفى غيرها يقدم سيتى الأول إلى أبيه وأمه ، وفى صورة أخرى يضعونه على رأس عدة صور رأسية فيرمزون به إلى القوة إذ نرى العمل تحتـــه ثم تمثال حب الصدق ، وكذلك نراهم يضعونه فى ثلاث مراكب كرموز على أفلاك هوريس : نجمة



هوريس يقدم (آنى) إلى أبيه (أوزيريس)

---

(١) Meta Williams : Whence came St. George ?

(٢) Wallis Budge : The Nile.



هوريس
يقدم سيتي الأول إلى ايزيس وأوزيريس

الجنوب ، ونجمة الشرق ، الصباح والمساء (١) وقد ترجم لوجران Legrain رسما من الأسرة ١٨ بقوله (صاحب التيجان على عرش هوريس إله الأحياء) (٢)

(١) A. Both. Gosse : The Civilization of the Ancient Egyptians.

(٢) Ad. Cattawi : Causeries P : 14

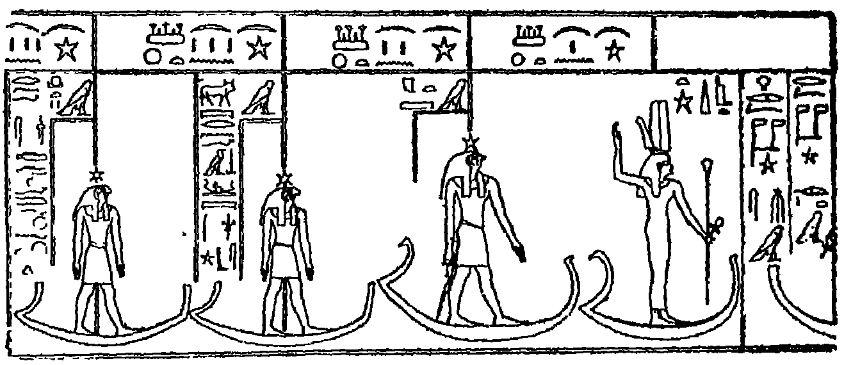


هوريس إله الأحياء
وصاحب التيجان



هوريس إله القوة
والصدق

ومن هذا يتضح لنا أن (هوريس) قد شغل حيزا ضخما فى العبادة المصرية القديمة ، وبالتالى فى حضارتها العريقة وعلى الرغم من مزج العبادة الإغريقية الوافدة بالعبادة المصرية الأصيلة فيما بعد ، فإن آثار (هوريس) ظلت بارزة المعالم عدة قرون ولم يستطع البطالمة أو الرومان طمسها بل أعجبوا بها وأكثروا من تصويرها بشتى التعابير فى مختلف الأماكن ، وتركزت فى المدينة التى حملت اسمه من خمسة وستين قرنا من الزمان على الأقل ، واحتفظت له (دمنهور) بهذه الذكرى .



أفلاك هوريس

هذا وقد تابع العلامة (جوتييه Gauthier)(١) أصل مدينة دمنهور فى النصوص الهيروغليفية وما طرأ عليها فى العصر القبطى ، وما آلت إليه فى العصر

(١) H. Gauthier : Dict. des noms géogr. T : 6 P : 94.

العربى ، فقال إنها فى الأصل dmi-n-hor وقد وجدت فى قائمة بطليموس السادس بإدفو ، كما ذكرها كل من (دوميشين Dümichen)(١) و (بروكش Brugsch)(٢) على أنها (مدينة هوريس La Ville d'Horus) وهى فى الدلتا ومخصصة لعبادة الإله هوريس ، وتكتب هكذا بالهيروغليفية :

 Ṭemâien-Ḥeru. ثم كتبت بالقبطية القديمة هكذا :

ϯⲙⲁⲓⲛϩⲱⲣ

أما اليونان فسموها (هرموبوليس پارفا Hermopolis - Parva) أى (مدينة هرمس الصغرى) لمقارنتها بالكبرى magna التى كانت عاصمة إحدى مقاطعات الصعيد .

وفى نهاية العصر البطلمى كانت عاصمة مقاطعة إضافية تسمى (بحدت Behdit) وهى المقاطعة ١٧ وكانت عاصمتها الفرعونية Behedet Periou n Amen (بيت جزيرة آمون) وعاصمتها اليونانية كانت Diospolis parva وحديثا سميت (تل بلامون Tell - Balamoun) غربية (٣) ، ولكن القبط أعادوا إليها اسمها المصرى القديم ونطقوها (تمنهور Tminhor) ، ومنها سميت فى زمن العرب إلى يومنا هذا (دمنهور Damanhour) .

وقد تتبع (لبسيوس Lepsius) (٤) فى (قائمة أكسفورد) وقوائم الجغرافية القبطية كيف انتقلت دمنهور فى تسميتها من نسبتها إلى هوريس إلى هرمس Hermès فافترض وجود مدينتين متجاورتين إحداها لعبادة Horus-Apollon والأخرى لعبادة Thot - Hermès وهذه الأخيرة غطت على الأولى.

---

(١) Dümichen : Geogr. Inschr. 1 pl : 66.

(٢) Brugsch : Dict. Geogr. P : 521, 1269.

(٣) De la Roncière : La Geogr. de l'Egypte P : 181.

(٤) Lepsius : Scala Geogr. du copte d'Abbassinie 3 P : 52

وذكر (دارسى Daressy)(١) أيضا مدينة (دما هور dmà Hor) أى مدينة هور وقال إنها فى مكان ترنوط أو (كوم أبو بللو) بالقرب من الخطاطبه.

وكانت دمنهور تسمى (هوريس بحـــودتى Horus Behoudti) ويرى (دارسى) أن (قراقص Qarqes) هى تعديل لـكلمة Krikos وهو الاســم اليونانى الآخر للصقر faucon الذى يرمز به إلى (هوريس) .

وكان موقعها غربى الفرع الكانوبى - على حد تعبير استرابون - بين(هيراقون بوليس Hierakôn polis) وبين كانوب عاصمة مقاطعة منيلايت Ménélaite(٢)

أما (أميلينو Amèlineau) (٣) فيرى أن الاسم اليونارومانى قد انتقل كما هو إلى القبطية (إرموكاتون Ermoukaton) .

ولما كانت دمنهور عاصمة المقاطعة ، فقد كان يقيم بها حاكمها وهو النومارك nomarque ويعاونه (القائد strategos) وتحت أيديهما سائر موظفى المقاطعة العاملين على جباية الأموال لحساب البطالمة والرومان والبيزنطيين (٤) .

وكانت دمنهور قنطرة العرب إلى تحطيم دولة الروم فى الإسكندرية عند الفتح الإسلامى . وقد كتب عمرو إلى الخليفة بفتحها مع المدن الأخرى وبعث بالكتاب عامر بن لؤى (٥) .

وفى القرن الثالث الهجرى ، وعلى التحديد فى الخلاف الذى دب بين الأمين

---

(١) Daressy : Annales : 16 P. : 224,226,235,242.

(٢) Henn : Liste des stratèges des Nomes égyptiens à l'époque Gréco - Romaine P : 1.

(٣) Amélineau : Geogr. Egypt. à l'époque copte. P : 115-116.

(٤) V. Chapot : La vie locale. ch : II P : 259 : La Nation Egyptienne.

(٥) الواقدى : فتوح الشام جـ ٢ ص ٩٤

والمأمون فيما بين سنة ١٩٩ هـ و سنة ٢١٠ هـ شهدت دمنهـور معارك دموية يرى القارىء تفاصيلها فى كفاح البحيرة .

وفى سنة ٥٦٥ هـ كانت البحـــيرة إقطاعا للملك الأفضل نجم الدين أيوب أبى صلاح الدين الأيوبى أعطاها له الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى . (١)

وفى سنة ٥٧٨ هـ زارها الرحالة ابن جبير (٢) فقال إنها (بلد مسور فى بسيط من الأرض أفيح ، والقرى فيه يمينا وشمالا لاتحصى كثرة) ثم جاز النيل منها إلى (صا) أى صا الحجر .

وفى القرن السابع الهجرى زارها الرحالة ابن بطـــوطة (٣) فـكانت مدينة كبيرة لأنها على حد تعبيره [أم مدن البحيرة بأسرها] ولقى قاضيها فخر الدين ابن مسكين من فقهاء الشافعية وقد تولى قضاء الإسكندرية .

وذكرها المنذرى (٤) فى القرن الســـابع أيضا فقال إنها : قصبة البحيرة ؛ وإليها تنسب الثياب الدمنهورية .

وفى القرن الثامن الهجرى شرع السلطان الناصر قلاون سنة ٧١٥ هـ فى روك الأراضى المصرية فأخـرج الأمراء إلى المديريات . فـكان على البحيرة والمنوفية بلبان الصرخدى والقلنجقى وابن طرنطاى وبيبرس الجدار (٥) .

وقد شهدت سنة ٧٢١ هـ حوادث هدم الـكنائس بالإسكندرية إذ هـدم منها اثنتان بدمنهور ، وسرت العـــدوى إلى شتى البلاد ، ولـكن ذلك كان من أعمال العـــوام .

وفى سنة ٧٢٣ عزل والى البحيرة اسندمر القلنجقى وتولى بدله عليها بلبان

---

(١) كتاب الروضتين : أبو شامة
(٢) رحلة ابن جبير .
(٣) رحلة ابن بطوطة
(٤) التكملة لوفيات النقلة : جـ ٢٦
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ قسم أول ص ١٤٧

العتريس كما يقول المقريزى فى كتاب (السلوك) (١) .

وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٣٧ ، ه عزل من ولاية البحيرة الغرس خليل صاحب كتاب [زبدة كشف الممالك] والذى أصبح والى الإسكندرية . وحل محله على البحيرة الجمالى عبد الله أخو ظلظية (٢) ، وكانت إقامته كالمعتاد فى ديوان الولاية بدمنهور .

وفى سنة ٧٤٠ ه توفى الأمير ركن الدين بيبرس الركنى المظفرى كاشف البحيرة ووالى الإسكندرية (٣) .

ويذكر ابن حجر (٤) أن اسندمر القلنجقى الذى ولى البحيرة أيام الناصر قلاون ثم صار والى القاهرة قد توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ ه .

ويتحدث عن دمنهور ابن دقماق (٥) فى القرن الثامن فيقول : [وهى مدينة قديمة عامرة ، وبها جوامع ومدارس وحمامات وفنادق وقياسر وغير ذلك ، وهى قاعدة البحيرة ، وبها مقام نائب الوجه البحرى ويطلق عليه « ملك الأمراء » ولها خليج من خليج الإسكندرية .]

ثم يقول : [إن الملك الظاهر برقوق أمر ببناء سور عليها عقب فتنة عربان البحيرة فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة ، وبهـا مزارات] ، ثم استطرد فى ذكر أعمالها أى البلدان التابعة لها ومساحتها وحصيلة كل منها ، لأنها كانت إقطاعا للأجناد ، ويشرف عليها « ديوان الإقطاع » المعروف فى زمن الفاطميين ، وفى عهدهم كانت الولايات أربعا : ولاية قوص ، ولاية الشرقية ، ولاية الغربية ، ولاية الإسكندرية : وكان والى الإسكندرية ـ التى هى أقل رتبة من الغربية ـ

---

(١) حـ ٢ ق ١

(٢) المقريزى : السلوك : حـ ٢ قسم ٢

(٣) المرجع نفسه

(٤) الدرر الكامنة

(٥) الانتصار لواسطة عقد الأمصار : حـ ٥ ص ١٠١

يحكم أيضا على أعمال البحيرة بأجمعها (١) .

أما الأيوبيون فقد استحدثوا ثلاث نيابات سلطنة هي : نيابة الإسكندرية ونيابة الوجه القبلي ونيابة الوجه البحري . وهذه النيابة الأخيرة أنشأها السلطان برقوق ، ويتحدث القلقشندي عن هذه الولاية فيقول (٢) [ونائبها من الأمراء المقدمين ، وهو في رتبة مقدم العسكر بغزة ، ومقر نائبها دمنهور مدينة البحيرة ، وليست على قاعدة النيابات بل هي في الحقيقة ولاية حرب كبيرة ، وقد كان القائم بها قبل ذلك كاشف يطلق عليه « والي الولاة » ، ولم يكن له مقر خاص] .

وبعد أن كان يوجد كاشف للوجه البحري وآخر للوجه القبلي ، طبق الأيوبيون نظام « نيابة السلطنة » على كل منها ، وصار على الوجه البحري كاشف من أمراء الطبلخاناه ، يحكم جميع بلاد الوجه البحري ، ما عدا عمل البحيرة ، لقربه من نائب الوجه البحري ، وكان والي البحيرة يسمى أيضا « والي دمنهور » كما يقول القلقشندي الذي يتحدث في مكان آخر عن نيابة الوجه البحري فيقول : [ومقرها دمنهور البحيرة ، وحكمها على جميع بلاد الوجه البحري ما عدا الإسكندرية ، وليست على قاعدة النيابات في ركوب المواكب وما في معناها ، بل نائبها في الحقيقة (كاشف كبير) وليس فيها من رسوم النيابة ، سوى لبس التشريف ، وكتابة التقليد بما يكاتب به مثل نائبها من النواب ، وقد كان القائم بها في الزمن الأول (يقصد زمن الفاطميين) قبل أن تكون نيابة يعبر عنه (بوالي الولاة)] (٣) .

وفي مكان آخر أيضا — بصدد حديثه عن ولاة الوجهين ومراتبهم — يعتبر ولاية البحيرة ومقر واليها دمنهور من المرتبة الأولى في الطبقة الثالثة من الطبقات الأربع لولاة الأمور من أرباب السيوف ، ثم يقول عن ولاية البحيرة [وربما عطلت ولايتها لكونها مقر النائب] .

---

(١) صبح الأعشى : حـ ٣ ص ٤٩٧

(٢) صبح الأعشى : حـ ٥ ص ٢٥

(٣) نفس المرجع ص ٦٥

وإذا كانت البحيرة قد ظفرت بالمرتبة الأولى من الطبقة الثالثة من حيث نيابة السلطنة ، فإن لها أيضا مكانتها من الطبقة الرابعة وهى طبقة أمراء العربان فى مصر ، فقد تحدث كل من صاحب « التعريف » وصاحب « مسالك الأبصار » عن إمارة العربان فى البحيرة أيام دولة الناصر بن قلاوون ، وقد عقد لواؤها لخالد بن أبى سليمان ، وفائد بن مقدم [وكانا أميرين سيدين جليلين ذوى كرم وإفضال وشجاعة وثبات رأى وإقدام] .

وعندما قسم القلقشندى غرب الدلتا مباشرة إلى عمل البحيرة وعمل المزاحمتين ، قال إن مقر ولاية عمل البحيرة [مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهى مدينة متوسطة ذات مساجد ومدارس وأسواق وحمامات ، وموقعها فى الإقليم الثالث ولم يتحرر لى طولها وعرضها ، غير أنها على نحو مرحلة من الإسكندرية بين الشرق والجنوب] .

ويتناول العمل الثانى بعد ذلك وهو عمل المزاحمتين المجاور لخليج الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر ، وبعضه بالضفة اليمنى للنيل ، وحاضرته مدينة فوة [وهى مدينة متوسطة بالبر الشرقى من فرقة النيل الغربية (يقصد فرع رشيد) يقابلها جزيرة لها تعرف بجزيرة الذهب ، ذات بساتين وأشجار ومنظر رائق ، وليس بها ولاية ، وإنما يكون بها شاد خاص (أى حاكم) يتحدث فى كثير من أمور الولاية وهى فى الحقيقة كالخيم مع قوص] .

هذا والمعروف أن ولاية الإسكندرية قد أصبحت منذ سنة ٧٦٧ هـ نيابة سلطنة بمعنى الكلمة ، ولم يعد يشاركها فى هذه المرتبة سواها من الولايات والنيابات .

وقد تعرضت دمنهور سنة ٧٨١ هـ لثورة شيخ عربان البحيرة بدر بن سلام فبعث إليه برقوق حملة من ثمانية أفراد مقدمين بددوا شمل الثوار ، وعاود بدر ابن سلام ثورته فى العام التالى ، فقدم إليه الشعبانى أمير السلاح على رأس حملة من خمسمائة مملوك فكسروا شوكة الثوار وفر زعيمهم .

وفى القرن التاسع الهجرى ، ورد ذكر « دمنهور الوحش » على لسان ابن الجيعان ، بصدد كلامه عن أعمال البحيرة (١) فقــال [المدينة وهى دمنهور الوحش ومساحتها ١٤٩٢ فدانا ،.. كانت باسم الأمير صرغتمش الأشرفى ، والآن للديوان المفرد] بعد أن اتسع العمران فيها .

والمعروف أن دخل الدولة كان على نوعين رئيسيين :

الأول : ما هو داخل فى الدواوين السلطانية وهو أربعة أصناف :

ا — ما هو جار فى ديوان الوزارة .

ب — « « « الخاص

حـ — « « « المفرد

د — « « « الأملاك

الثانى : ما هو جار فى الإقطاعات : ويشمل معظم بلاد الوجهين البحرى والقبلى المقطعة الأمراء ومماليك السلطان وأجناد الحلقة وعربان البحيرة والشرقية من أرباب الادراك وملتزمى خيل البريد .

ومن الطريف حقا ، هذا النقد الموجه إلى نظام الحكم المحلى فى القرن التاسع من أحد الحكام المحليين وهو غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى الذى تولى أمر البحيرة ثم الإسكندرية ، فيعرض فى كتابه (٢) لإقليم البحيرة قائلا [وهو إقليم متسع جــدا ، وبه مدينة دمنهور وهى مدينة كبيرة] ويستطرد للنظام السابق وهو نظام الكشاف الثلاثة : بالوجه القبلى والوجه البحرى والجيزة ، ثم أصبح للوجه القبلى وحــده ثلاثة كشاف ، وللوجه البحرى كاشفان أحدهما بالشرقية والآخر بالغربيــة ، [وكاشف البحيرة على عادته ، — (أى كما هو لم يتغير) — وليس ذلك من الطرائق (من الأصول) فإنه يصير عدم نفاذ كلمة الكشاف بالأقاليم وتضيع حقوق الرعيــة ، والأصوب ما كانوا عليه أولا فإنهم

---

(١) التحفة السنية : ص ١١٦

(٢) زبدة كشف الممالك : ص ٣٢ و ص ١٢٩

كانوا فى غاية الأبهة ، وربما كان يفرق كل واحـــد من كشاف الوجه القبلى والبحرى فى كل ليلة ألف عليقة] .

وينتقد أيضا نظام الولاية فى عهده فيقول [وأما الولاة الآن صار البعض مضافا لأحد الكشاف والبقية يتولون من الأستاداراه] .

على أية حال ، هذه وجهة نظر أبداها رجل من حـــكام الأقاليم فى عصره مارس الحكم فى دمنهور والإسكندرية ، ولم يكتم رأيه بل جهر به فى كتابه ، وهذا لون طريف يدل على أن الحكام المحليين ، كانوا يشاركون ولاة أمورهم رأيهم الصريح فى اختيار أنظمة الحكم الملائمة .

وقد زار دمنهور سنة ٨٨٢ هـ السلطان قايتباى فى تجواله بإقليم البحيرة مدة أربعين يوما زار خلالها (إدكو) و (تروجة) وعاد مسرورا من نزهته (١) وترجم السخاوى لمحمد بن عبد الله بن محمد بن خليل بن بكتوت الشمسى ، وهو كردى الأصل ، ويعرف بابن بيرم ، كان أسلافه الأكراد ممن قدموا مع صلاح الدين الأيوبى ؛ أما هو فقد كان « ملك الأمراء » بالبحيرة وحج سنة ٨٩٦هـ وأثنى عليه السخاوى (٢) .

وتحدث ابن زنبل الرمال (٣) عن دمنهور فى القرن العاشر الهجرى فقال : [وبإقليم البحيرة مدينة دمنهور وهى كرسى الإقليم وقاعدة الحكم ، وبها بطيخ ليس على وجه الأرض أحلى منه ، وقد عمر (أولاد عامر) بها قصورا وصارت بلدا معمورا ، يسكنها فى زماننا الأمير عيسى بن إسماعيل وهو الحاكم على هذه الأقاليم كلها ، وهو من العدل والكرم ، على جانب عظيم] وباسمه عرفت بلدة « حوش عيسى » كما سنرى فى مكانه .

وزار الزبيدى (٤) مدينة دمنهور فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، فقال

---

(١) بدائع الزهور : ابن إياس .
(٢) الضوء اللامع : ج ٨ ص ١٠٨
(٣) تحفة الملوك
(٤) تاج العروس : ج ٣ ص ٢١١

[دمنهور مدينة كبيرة ببحيرة مصر وقد دخلتها] ولكنه ظن أن (دمنهور الوحش) قرية صغيرة من أعمال مصر ، وأخرى بالشرقية هي (دمنهور الضواحى).

وقد تحدث (سونينى Sonnini) فى رحلته إلى مصر سنة ١٧٧٨ م عن بلدان البحيرة التى زارها ، ومنها دمنهور الشهيرة بتجارة القطن .

وقال كلوت بك إن سكان دمنهور (١) كان يتراوح بين ٨ و ١٠ آلاف نسمة ، وقد كان نابليون أنشأ « ديوان القاهرة » وكان الشيخ الشبراخيتى والشيخ الدمنهورى بالنيابة عن إقليم البحيرة فى هذا الديوان .

وشهدت مدينة دمنهور خاصة وبلدان البحيرة عامة ومنها الطرانة وحوش عيسى أعنف المعارك بين محمد بك الألفى وقوات محمد على ، فقد أقام الألفى معسكره أمام دمنهور وظل ينتظر الإنجليز فى غزوهم الجديد لمصر ، وفى دمنهور أذاع منشورا يخبر أهلها بأنه تقلد ولاية مصر من قبل الباب العالى [فعليكم أن تفتحوا أبواب مدينتكم لتبرهنوا على إخلاصكم وطاعتكم لى] ولكن الدمنهوريين قد فطنوا إلى أكاذيبه فلم يأبهوا به ، حتى يئس ، فرفع الحصار عن المدينة بعد شهرين . [وكان قاضى الإسكندرية وعلماؤها قد أفتوا ـ بناء على طلب قبطان باشا ـ بمروقهم من طاعة الخلافة ، وجهرهم بالعصيان ، فلم يعبأوا بهذه الفتوى] (٢) وثبتوا للحصار حتى انتصروا سنة ١٨٠٦ م ولقى الألفى حتفه فى ٣٠ يناير سنة ١٨٠٧ قبل أن يصل الإنجليز فى حملة فريزر الفاشلة فى مارس سنة ١٨٠٧ ، التى انتصر فيها الشعب بينما كان الوالى محمد على يفكر فى طريقة للفرار ، بعد الخذلان الذى أصابه والحقد على المواطنين الذين كانوا هم الجيش المدافع عن كرامة مصر ، وأخيرا ظهر محمد على فى دمنهور ، ومنها بعث إلى الإنجليز وهم فى الإسكندرية ليتفاوض معهم فى شروط الصلح .

ومما هو جدير بالذكر أن الخراب قد عم جميع بلاد البحيرة وغيرها عقب

---

(١) لمحة عامة إلى مصر ج ١ ص ٤٢٥

(٢) مصر فى القرن التاسع عشر : إدوار جوان ص ٣٥٣

حملة فريزر ، في سنة ١٨٠٨ عجز الملتزمون عن دفع الميرى ، وتعطل الخراج ، وفر الفلاحون من أراضيهم ، فاستولى عليها محمد على ، ووزعها على أتباعه ، وأمر برد الفارين إلى أراضيهم ، وأخذ هو يطوف بأنحـاء البحيرة ما بين رشيد والإسكندرية بحثا عن أفخر الهدايا من البن والأقمشة والأرز الذى نهبه نهبا من بلاد الأرز ، وبعث به إلى الإسكندرية مع إبراهيم أفندى المهردار إلى الباب العالى على سبيل الرشوة .

وقد أنشأ محمد على بدمنهور مصنعا للغزل به مائة دولاب وثمانون مشطا ، كما أنشأ مصنعا لنسج الصوف لإنتاج بطاطين الجنود ، وكانت تنقل من دمنهور إلى مصنع الجوخ ببولاق لكبسها وصباغتها (١) .

وفى القرن الماضى زار دمنهور عدد من السياح الفرنسيين منهم (برون) و (شيرول) و (سونينى) ، وهذا الأخير هو القائل عن دمنهور إنها مدينة كبيرة إلا أن مبانيها غير جيدة لأنها من الطوب الأخضر . وهى محل إقامة البك (حاكم البحيرة) والكاشف ، وهى مركز تجارة القطن الوارد من البلاد المجاورة .

وذكرها على مبارك فى « الخطط التوفيقية » (٢) ، وأعاد ما ذكره الأقدمون من أنها كانت ثمانى بلاد فى الزمن الأول : شبرا + الدمنهورية + قرطسة بلد الحبشى + نقرهة + سكنيدة (وهذه الخمسة لا تزال موجودة إلى الآن) + طموس (اندثرت ومحلها أبو الريش وتبعد عن دمنهور بخمسمائة متر) + الأثلة (وهى التى ذكرها استرابون) + قراقص (وهذه الثلاثة قد اندثرت) .

ويقول على مبارك إن (شـبرا دمنهور) فى غرب السكة الحديد على يسار الذاهب إلى الإسكندرية ، وأما (قرطسا) فتقع فى شرق السكة الحديد فى مقابل (شبرا) و (نقرهة) عند السوق على الشاطىء الغربى لترعة الخطاطبة ، وكذلك (سكنيدة) وقد أصبحتا مدينة واحدة ، بها قصور تشبه قصور الإسكندرية ، وبها

---

(١) عمر طوسون : كلمات فى سبيل مصر ص ١٩٨

(٢) جـ ١١ ص ٢٢

ديوان المديرية بجميع لوازمه ، وبها محكمة كبرى تتبعها محاكم النجيلة وأبو حمص والعطف والدلنجات وشبراخيت .

وذكر على مبارك جوامعها الجامعة وزواياها ، ومتاجرها وتجارها المواطنين والأجانب والأفرنج وكنائسها ، كما عرض لأهم حوادثها منها : ما ذكره الجبرتى سنة ١٢١٣ ﻫ من قتل عرب البحيرة للفرنسيين عند الرحمانية ورشيد ، وما ذكره الدوق دوراجوس الضابط الفرنسى فى إبريل سنة ١٧٩٨ من قتل العرب بالفرنسيس ، وما فعله المغربى المسمى (المهدى) سنة ١٧٩٩ الذى حرض الناس على قتل الفرنسيين ثم ما كان من حصار الألفى لدمنهور سنة ١٢٢١ﻫ .

وعنى صاحب الخطط التوفيقية بمساجد دمنهور وحصرها فيما يلى : جامع الأفلاقى فى حارة باب النصر وهو جامع قديم ، وجامع سيدى محمد الجزيرى ، وهو قديم أيضا ويقع على قنطرة السكة الحديد ، وجامع سيدى أحمد الجيشى فى حارة الحوفى ، وجامع الأفندى بالسوق وقد بناه الشيخ على العادلى ، وجامع سيدى مجاهد الذى بالسوق أيضا ، وجامع سيدى زارع بجوار الورشة ، وجامع الخراشى ، ويقع فى حارة الخراشى ، وجامع النمر بحارة محمد مصلى ، وجامع السوسى ، وجامع أبى عبد الله المغربى الواقع فى نقرهة ، وجامع الشوربجى الذى فى قرطسا ، وجامع ابن مسعود القريب من جامع السوسى ، وجامع الزواوى بالصاغة ، وجامع الحبشى بساحة الغلال .

ولم يذكر (جامع التوبة) الواقع أمام ديوان المديرية (مديرية الأمن الآن) وقد هدم ، وجدد بناؤه وأصبح دليلا على روعة فن العمارة الإسلامية .

ثم ذكر الأضرحة فقال : ضريح أبى الريش ، وضريح محمد الزرقا ، وضريح الخراشى ، وضريح أحمد الجيشى ، وضريح سيدى خضر الأنصارى ، وضريح البشابشة ، وضريح سيدى محمد الخطيب ، وضريح سيدى محمد أبو طاقية ، وضريح الشيخ الكنانى ، كما ذكر كنيستين : إحداهما للإفرنج على قنطرة السكة الحديد ، وكنيسة للأقباط فى قرطسا ، وذكر أيضا حمام الزواوى وحمام الحبشى ،

وكذلك مستشفى دمنهور ، وحديقتها التى فى شمالها ، ومساحتها يومذاك عشرون فدانا ، وقال إن اسماعيل جدد ديوان المديرية وبجواره محل الضبطية (البندر) وأشار أيضا إلى وجود مقابرها فى الجنوب ، وقال إن بها أضرحة لكثيرين منهم أبو العباس الشاطر .

وخص بالذكر من دفن بها من العلماء مثل الشيخ عبد الرحمن الحلبى الدمنهورى الذى تولى قضاءها ، وكان محدثا وشاعرا ولد بحلب سنة ٧٥٩ وتفقه بهـــا ثم بالقاهرة ، ومات فى ٢٠ رمضان سنة ٨٣٨ وترجمه السخاوى فى «الضوء اللامع» وذكر أيضا الشيخ محمد بن على بن عبد الرحمن بن عيسى بن محمد الشمسى الدمنهورى ثم القوى الفخارى (لأنه كان يبيع الفخار) ولد بدمنهور ونشأ بها وتفقه على يد ابن الخلال وكان معلم الصبيان بدمنهور ومات ودفن بها سنة ٨٦٠ تقريبا .

وفى ذيل طبقات الشعرانى أن منها الشيخ ناصر الدين الدمنهورى الذى قام بهدم كنيسة لقانة وكنيسة دمنهور ، ونصره الله على الولاة الذين خالفوه فى هدمه لها . وذكر الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى الذى توفى فى ١٠ رجب سنة ١١٩٢ ودفن بالبستان .

وتحدث (موتسنجر)[١] عن البحيرة فى أواخر القرن التاسع عشر فقال إن سكانها ٢١٩٩٨٧ نسمة وبها ٢٨١ بلدا و ١٨٩ مكتبا : بها ٤٦٠٦ صبيا ، وخمسة مراكز للشرطة ، ثم تحدث بإسهاب عن دمنهور التى كانت سبع مدن ، ولعله نسى مدينة قرطسا : الثامنة ، وقال إنها على تل يبلغ ارتفاعه ستة أمتار ، وذكر بهـــا ٣٥ مسجدا ، ومدرسة للأقباط وأخرى أجنبية ، والتشابه ملحوظ فيما ذكره موتسنجر وعلى مبارك فى معالم المدينة مع اختلاف فى بعض النواحى .

وذكر (أميكى F. Amici) فى كتابه « مصر القديمة والحديثة »[٢] أن أهم المراكز الصناعية فى مديرية البحيرة فى أواخر القرن التاسع عشر هى : دمنهور

---

(١) « جغرافية مصر »

(٢) Amici : L'Egypte Ancienne et moderne.

والبحورية وحوش غاين وإدكو فى نسج الحرير والقطن والصوف والكتان وصناعة الحصر .

وعندما تولى الخديوى توفيق عرش مصر بعد خلع أبيه اسماعيل ونفيه ، بدأ رحلته إلى البلاد فى يناير سنة ١٨٨٠ (١) فوصل دمنهور مساء يوم ١٩ ، واستقبله على المحطة اسماعيل دانش باشا مدير البحيرة وكبار الموظفين والأعيان ، والقاضى والعلماء ومشايخ العربان ، وقنصل فرنسا ، وأطلقت المدافع عند وصول الخديوى وعرض العربان ألعابهم على ظهور الخيل .

وفى اليوم التالى نزل الخديوى إلى المدينة ، والمدير فى صحبته ، وزار ضريح أبى الريش كما استقبل ممثلى السلك الدبلوماسى الأجنبى بالإسكندرية وقد قدموا إلى دمنهور للقائه .

وقد نصب سرادق فخم للخديوى ، استقبل فيه فى الليلة الأولى أعيان البحيرة منهم حسنين أبو حمزة ومحمود بك الصيرفى ومحمود باشا الحبشى ، ثم أقيمت مأدبة للخديوى حضرها نحو خمسة وسبعين من مشايخ البلاد والعمد والضباط والأعيان .

ولبست دمنهور أبهى حللها ، وازدانت الشوارع والأسواق والمنازل بالأنوار الكهربائية ، وفى الليلة الأخيرة ، عملت الصواريخ ، وصلى الخديوى الجمعة بجامع أبى الريش واستقل القطار بعد الصلاة مباشرة عائدا إلى كفر الزيات فى طريقه إلى دسوق ومنها إلى الرحمانية ثم دسوق ثانية ومنها إلى رشيد .

وفى أوائل سنة ١٩٠٧ فكر الأمير حسين كامل فى إنشاء مدرسة زراعية صناعية بدمنهور ، فدعا أعيان المديرية إلى اجتماع بقصره فى جبارس ، حضره ٢٣٢ شخصا ، وتألفت لجان فرعية لجمع الاكتتابات والتبرعات فبلغت ٢٤٩٧٨ جنيها ، وفتحت المدرسة أبوابها فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وقبل بها أولا ١٥٠

---

(١) Voyage de son Altesse le Khédive dans la Haute et la Basse-Egypte : Le Caire 1881 P : 61.

تلميذا بالقسم الصناعى و ١٣ بالقسم الزراعى ، وكان مدير التعليم بمديرية البحيرة يومئذ على بك عمر .

وفى صباح يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩١٠ نزل المستر رونالد جراهام المستشار الداخلى بمدينة دمنهور قادما من الإسكندرية ، وعائدا إلى مصر فاستقبله فى محطتها سعادة أحمد كمال باشا مدير البحيرة ، وجمهور من العمد والأعيان ومشايخ العرب ، ثم ركب إلى زرقون الكائنة على مسيرة أربعة كيلومترات من دمنهور فتعهد أعمال تنقية دودة القطن ، وعاد فعرج فى عودته على عزبة حضرة عزتلو قطب الكاتب بك عمدة دمنهور ، وعاين الجزء الثانى الذى اختارته الجمعية الزراعية منها لتجربة زرع القطن زرعا علميا (١) .

وفى أول مايو سنة ١٩١١ مر الخديوى عباس بدمنهور فى طريقه إلى مصيفه بالإسكندرية ، فقررت اللجنة المختصة بجمع التبرعات إنشاء (الملجأ العباسى) بالبحيرة ، فألحق أولا بالمدرسة الزراعية ، وكان ينزل به التلاميذ الأغراب عن دمنهور .

وفى أغسطس سنة ١٩١٢ تسلم مجلس مديرية البحيرة المدرسة من اللجنة بعد موافقة حسين كامل باشا واستؤجر لها من ضواحى دمنهور حقول للتجارب مساحتها نحو ٤٥ فدانا ، وأطلق عليها اسم (مدرسة الحقول) ، غير أنه فى سنة ١٩١٣ اتفق مجلس المديرية مع مستر ويلز مدير عام التعليم الصناعى والزراعى بمصر على تحويل مدرسة الحقول إلى مدرسة متوسطة بعد أن كانت تقبل ساقطى الشهادة الابتدائية .

وزار الخديوى عباس حلمى الثانى مديرية البحيرة سنة ١٩١٤ فاستقبله مديرها محمد محمود باشا ، وألقى الشاعر أحمد محرم قصيدة بهذه المناسبة ، بالغ فيها حتى قال:

لم يسد أنعمك (الرشيد) ولا رأت (بغداد) عصرا مثل عصرك أزهرا

---

(١) جريدة لأهرام فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩١٠

وأقام محمد باشا الوكيل معالم الزينات بدمنهور ، ونزل الخديوى بقصره ، وافتتح الخديوى رسميا مدرسة الحقول وذلك فى ٤ مايو سنة ١٩١٤ .

ولما اندلعت ثورة سنة ١٩١٩ ، سرت الشعلة الوطنية حتى ألهبت مشاعر أهل دمنهور بالحماسة الدافقة ، فقامت المظاهرات (١) تطوف بشوارعها وميادينها فى ١٢ مارس سنة ١٩١٩ ، وقطعت المواصلات بين الإسكندرية وسائر الأقاليم.

وفى سنة ١٩٢٠ زار السلطان (الملك) فؤاد مدينة دمنهور ، قادما إليها من الإسكندرية بالسيارات ، وقد سبقه الوزراء إلى دمنهور بقطار خاص ، وقد أقام أعيان البحيرة سرادقات ومعالم الزينات على طول الطريق فى كفر الدوار وأبو حمص ، وكان مدير البحيرة يومئذ محمود نصرت باشا ، فزار مدرسة دمنهور الزراعية ومدرستها الصناعية ، ومدرسة البنات ومستشفى الرمد ، ووضع حجر الأساس لمسجد الحبشى بحضور شيخ الأزهر الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى ، وحسين بك الحبشى ، وعلى باشا مهنا ، وعبد الله بك مهنا ، وعبد الحميد بك البنان سكرتير الجمعية التشريعية وصهر آل الحبشى وأحد الملاك بالبحيرة ، وخليفة بك محمود عمدة الرحمانية ، ومحمود بك أبو خطوة ، وخليل بك الديب ، وفتح الله بك محمود ، وصادق بك محمود ، وأحمد بك دبوس ، ورياض بك دبوس ، وغيرهم .

وفى هذا الاحتفال قدم حسين بك الحبشى فنجان القهوة للسلطان فؤاد مرصعا بالماس والياقوت ، وكانت أدوات البناء كلها من الذهب والأحجار الكريمة ، وهكذا نفذ حسين بك الحبشى وصية والده محمود باشا الحبشى .

وزار السلطان بعد ذلك مدرسة الأقباط وتبرع لها بمائتى جنيه وزار مدرسة التعاون الإنسانى التى أسسها سيف الدين بك الكاتب ومحمود باشا الحبشى والحاج محمد نجاتى وحسن بك الحدينى وعيسى بك نوار وأحمد بك غزال والحاج شحاته أبو الحسن والشيخ عبد الوهاب القاضى ، وكان ناظرها الأستاذ أحمد عبد النبى وتبرع لها السلطان بثلاثمائة جنيه ، ثم زار مدرسة المعلمين وتناول الشاى بمتنزه

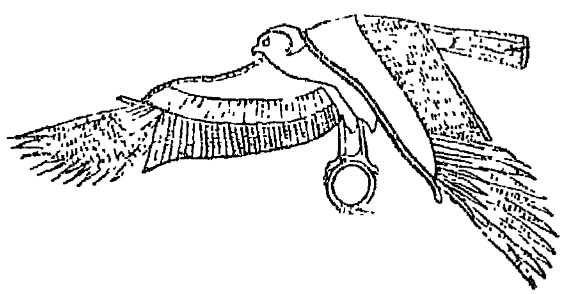
---

(١) Lord Lloyd : Egypt since Cromer T : 1 P : 298.

البلدية ، ووقف الشعراء والخطباء فى السرادق بين يديه يلقون الأشعار والكلمات (١)

وفى الإحصاء الأخير الذى تم فى ليلة ٢١ ديسمبر سنة ١٩٦٠ بلغ سكان بندر دمنهور وحده ١٢٦ ألف نسمة ، بينما بلغ سكان مركز دمنهور ١٥١ ألفا ، وهم الذين كانوا ٢٣٣٥٣ سنة ١٨٨٢ ثم ٥٢٠٠٠ سنة ١٩٢٧ .

ولم يمض قليل وقت حتى صدر قرار رئيس الجمهورية بقانون جديد رقم ١٢٤ لسنة ١٩٦٠ بنظام الإدارة المحلية ولائحته التنفيذية ، وبمقتضاه أصبحت « البحيرة » محافظة ، فألغيت تسميتها القديمة « مديرية البحيرة » وأصبح السيد محمد وجيه أباظه أول محافظ للبحيرة ، وأول رئيس لمجلس المحافظة ، ومقره « دمنهور » عاصمة المحافظه .



حوريس
كما وجد فى عهد الأسرة ١٨

رشيد Rosette

«أرشيد» مجدك فى القديم صحيفة   بيضاء لا لبس ولا إبهام
ملأت مآذنك السماء شوامخا   بين السحاب كأنها أعلام

على الجارم

مدينة قديمة ، ولكن عددا كبيرا من المؤرخين ، ولا سيما الإفرنج أمثال

(١) عبد الحليم المصرى : الرحلة السلطانية وتاريخ السلطنة المصرية قديما وحديثا .

بريشيا وفورستر وبدج يؤكدون أنها عربية لأنها نشأت سنة ٨٧٠ هـ فى خلافة المتوكل على الله العباسى .

والحقيقة أن هذه المدينة أقدم من ذلك بكثير ، فهى ترجع فى تاريخها إلى ما قبل الأسرة الأولى من العصر الفرعونى ، لأن الملك (نارمر Narmer) زحف إليها من الصعيد فى ثورته الأولى من أجل تحقيق الوحـــدة بين الوجه البحرى والوجه القبلى ، فاصطدم بأهل هذه المنطقة ، وهم طائفة من المواطنين يسمون (رخيتو Rekhetou)(١) أى (عامة الناس) ، وهذه الكلمة قريبة من الأصل القبطى لاسم رشيد وهو (رشيت Rachit) فصارت (رشيد) فيما بعد .

ثم إنه فى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، أقام الملك منفتاح استحكاماته على الضفة الغربية لفرع رشيد شمالا ، وذلك لصد هجمات الليبيين والإغريق والصقليين فانتصر المصريون فى أول موقعة حربية بين مصر وأوروبا ، جرت أحداثها على أرض رشيد .

وفى سنة ٦٦٣ ق.م. رست ثلاثون سفينة حربية على ساحل رشيد ، فأصدر بسماتيك الاول أوامره بإقامة معسكر هناك سمى « المعسكر الميليزى » ، لأنه ـ كما قال استرابون — كان يضم الميليزيين من سكان بعض جزر اليونان ، وغيرهم من الجيـــوش المرتزقة ، التى استخدمها بسماتيك فى جيش مصر ، لصد غارات الليبيين من الغرب والأشوريين من الشرق .

وإذا كان كل فرع من فروع الدلتا يسمى باسم المدينة الواقعة عند مصبه ، فإن الفرع البولبتينى (فرع رشيد الحالى) قـــد سمى بذلك نسبة إلى (بولبتين Bolbitine) التى قامت رشيد على أنقاضها أو بجوارها .

فماذا نعرف عن (بولبتين) هذه ؟

ذكرها (هكتاتيوس Hectataeus) و (ديودور Diodorus) وكانت فى أيام اليونان سوقا تجارية رائجة منذالعصرالفرعونى،ولا سيما فى عهد الأسرة٢٦

---

(١) Alex. Moret : L'Egypte Pharaonique : p : 70.

وفى حـــديث (اسطفانوس البيزنطى) عنها فى القرن الخامس قال إنه كان يصنع بها العجلات الحربية التى ذاع صيتها ، كما أن مدينة فى مثل مساحة بولبتين وأهميتها ، لابد أن يـكون بها معبد على الأقل ، ولهذا يؤكـد (شامبليون) أن (حجر رشيد) كان فى أكبر معابد بولبتين (١) .

ويرجح (واليس بدج Wallis Budge) أن بولبتين قـد بدأت تنـدثر ، عقب تأسيس الإسكندرية الواقعة غربى بولبتين بمسافة ٢٥ ميلا (٢) .

هذا هو مبلغ علمنا عن مدينة بولبتين ، كأحد موانى مصر القديمة ، الواقعة فى غرب فرع رشيد ، وقد عرفنا أن (ميناء كانوب) قد بلغ قمـة الشهرة بالنسبـة لهذه الموانى جميعا ، وكان يقع عند مصب الفرع الـكانوبى ، الذى كان يصب قديما عند المـكان المعروف حاليا باسم (الـكوم الأحمر) أو (الطابية الحمراء) ، وبقاياه تبـدو للرائى فى صورة تل من الطين أغلب الظن أنه كان الـكتف اليمنى لقنطـرة على المصب ، ومما زاد من شهرة كانوب وجود (نقراطيس) الميناء النهرى الذى كان يقع على الفرع الـكانوبى المنـدثر ، ثم الإسكنـدرية التى أصبحت من ذيوع الصيت بحيث غطت على ما سواها من الموانى المصرية ، وغير المصرية ، الواقعـة على البحر الابيض ، فقد أصبحت عاصمة مصر ، منـذ العصر البطلمى ، إلى أن فتحها عمرو بن العاص ، وما لبث أن نقل العاصمة منها إلى الفسطاط ، ومع ذلك يرد ذكر رشيد صراحة على ألسنة مؤرخى الفتح الإسلامى لمصر .

فقـد جاء فى فتوح الشام (٣) للواقدى أن عمرا كتب إلى الخليفـة عمر يخبره بفتح مريوط والإسكندرية ورشيـد وفوه ودمنهور والبحيرة (٤) وغيرها من بلاد الوجه البحرى ، وبعث بالـكتـاب عامر بن لؤى ، وقال الواقـدى فى مكان

---

(١) L'Egypte sous les Pharaons : vol : II P. 241

(٢) The Rosetta Stone

(٣) ج ٢ ص ٩٤

(٤) البحيرة هنا مستعملة على أنها إحدى كور اقليم البحيرة الحالى

آخر إن الصحابة — لما فتحت مصر والوجه البحرى — تفرقوا فى الإسكندرية ورشيد وغيرها وكان أكثرهم بوسط البحيرة فى المكان المعروف بالمنزلة ، منهم القعقاع بن عمرو التيمى ، وهاشم بن المرقال ، وميسرة بن مسروق العبسى ، والمسيب بن نجيبة الفزارى .

وقال أيضا ابن أسحق الأموى (١) [وسار المقداد من دمياط إلى الإسكندرية وحدث عمرو بما فتح من دمياط ففرح عمرو وكتب إلى عمر يبشره بفتح الإسكندرية ورشيد وفوه ودمنهور والبحيرة ودمياط وسمنود ، وبعث الكتاب مع عامر بن لؤى] .

وجاء فى « الانسيكلوبيديا الفرنسية الكبرى » (٢) و « القاموس العالمى للتاريخ والجغرافيا » (٣) أن رشيد قد أسسها العرب سنة ٨٧٠ هـ (فى زمن الخليفة المتوكل على الله العباسى) بالقرب من بولبتين Bolbitine ومتيليس Metelis ، وأن خرائب معبد بولبتينوم Bolbitinum كانت فيما يجاورها ، ويقول (بريشيا) [إن هذه المدينة القديمة لا بد أنها كانت ممتدة على ضفة النيل من رشيد إلى مسجد أبو منضور] ويعتمد على آثار المبانى القديمة - التى وجدت أجزاء منها بكتاباتها وأودعت متحف الإسكندرية وتدل على أنها ترجع إلى العصرين البطلمى والرومانى، وأنها ربما كانت من مدينة بولبتين ، ثم يستطرد بريشيا قائلا : [ومن بين هذه الكتابات ، كتابة فى رشيد بالذات تدل على وجود معبد كبير — فى المدينة القديمة — كان مكرسا لعبادة كليوباترة ، ذلك هو الأثر الرائع من الجرانيت الأخضر الذى اكتشف فى معبد مصرى ، واستخدم فى إحدى الكنائس القبطية] ويمضى بريشيا قائلا [إن بقايا الفراعنة كثيرة بها : مثل الأعمدة الجرانيتية ، وقد جمع من رشيد عدد كبير جدا من رءوس الأعمدة الرخامية على النمطين الكورنتى والإيونى ، ولا يزال الكثير منها فى رشيد إلى الآن] (٤)

---

(١) فتوح مصر وأعمالها : ص ٨٣

(٢) La Grande Encyclopedie : T : 28

(٣) Dict. Universel d'Hist. et de Geogr.

(٤) Breccia : Alexandrea ad AEgyptum P. 355,356

أما (فورستر) فيرى أن مدينة رشيد والميناء النهرى بولبتين قد أنشئتا حول هذا الموقع الراهن ، إلى هنا من المصب قليلا . عند جامع أبى منضور [ولا يعرف شيء عن تاريخ بولبتين ، غير أنه لما تأسست الإسكندرية سنة ٣٣١ق.م. انقطعت الحركة عن مصب الفرع البولبتينى للنيل وانتقلت منه إلى الفرع الكانوبى وإلى موانى الإسكندرية ، ونتيجة لذلك اضمحل شأن مدينة بولبتين] (١)

وإذا كانت رشيد قد أنشأها المتوكل سنة ٨٧٠ ﻫ فإن مصب الفرع الكانوبى قد جف تماما فى هذه السنة أو ما يقرب منها ، وبذا انعزلت الإسكندرية عن النظام المائى فى مصر ، [واضطرت الملاحة إلى العودة ثانية إلى الفرع البولبتينى (فرع رشيد) ، وظلت الملاحة فيه ما يقرب من ألف سنة] (٢) .

نعم ، لقد فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٦٤١ م وكانت « رشيد » معروفة بهذا الاسم كما رأينا فى كتابه إلى الخليفة - ولكن « كانوب » بالقرب من أبوقير كانت أهم ميناء على ساحل البحر شرقا وغربا ، حتى بعد تأسيس الإسكندرية بفترة ليست بالقصيرة .

ولما أنشأ المعز لدين الله مدينة « القاهرة » سنة ٩٦٩ م ضعف المركز التجارى للإسكندرية ، وأصبحت رشيد ودمياط تتنافسان فى هذا الميدان ، أما رشيد ، فقد اتسع العمران فيها ، وانتعشت تجارتها واغتنى تجارها ، وكثرت فيها القصور الفخمة ، وامتدت إلى أطرافها ، وازدانت بالحدائق الغناء ، وكثرت أشجار الفاكهة ولا سيما الكروم ، وناطحت مآذنها السماء ، وعمرت مساجدها بالمصلين والقاصدين للاستماع إلى نخبة من العلماء الذين كتبوا مؤلفاتهم بها .

ولكن رشيد قد انحط شأنها بالتدريج ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر حينما اكتشف (فاسكو دا جاما) طريق رأس الرجاء الصالح ؛ وتحولت تجارة مصر إلى جنوب إفريقية ، ومع ذلك كان ثغر رشيد بمثابة أقرب المسالك ما بين دار السلطنة ودار الولاية ، ففى خلال القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، كانت رشيد

---

(١) Forster : Alexandria, A History and a Guide P : 199

(٢) Ibid : P : 200

نقطة هامة للقادم من الإسكندرية فى طريقه إلى القاهرة ، عبر فرع رشيد ، أو النادم مباشرة من البحر إلى القاهرة .

وعاد الاضمحلال يدب بعصاه فى طريقه إلى رشيد ، بعد حفر ترعة المحمودية سنة ١٨١٩ ، فأصبحت الملاحة مباشرة من القاهرة إلى المحمودية فى النيل ، ومنها فى ترعة المحمودية إلى الإسكندرية ، دون أن تظفر رشيد بطائل ، منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا .

هذه لمحة عابرة عن التطور العمرانى لمدينة رشيد ، وفق الظروف المختلفة ونستطيع أن نتابع معالم الحياة العامة فيها منذ الفتح الإسلامى إلى اليوم فيما يلى .

المعروف أن رشيد قد دخلت فى الإسلام على يد عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية عام ٢٠هـ ، وكان حاكم رشيد القبطى يسمى (قزماس) أو (قزمان) فى بعض الروايات وهو الذى عقد صلحا مع عمرو ، وأدى الجزية للمسلمين ، وظلت الكنائس فى رشيد كما هى لمن بقى على دينه من أهلها .

وكان من الطبيعى أن تتقلص ظلال العمران عن رشيد بعد الفتح الإسلامى كنتيجة طبيعية لانتقال العاصمة المصرية من الإسكندرية إلى الفسطاط ومخاوف الفاتحين المسلمين من ركوب البحار وخوض الأنهار .

ومع ذلك استطاب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم سكنى رشيد فعمروها ، وفتحوا قلوب أهلها وقلوب جيرانهم على نور الإسلام ، فأقاموا البيوت ، وزرعوا الأرض وابتنوا المساجد ، وأطلقوا على مقابر المسلمين بها « كوم الأفراح » لأن أولياء الله هم الذين عند الموت « يفرحون » بلقاء ربهم ، وقد دفن بهذا الكوم وفى أرجاء رشيد نخبة من هؤلاء الصحابة الأجلاء ، ممن سنذكرهم فى « أعلام رشيد » وكان أقباط رشيد قد ثاروا سنة ١٣٢ هـ فأرسل إليهم مروان بن محمد حملة فهزمتهم .

وفى القرن الثالث الهجرى ، كانت رشيد [مدينة عامرة آهلة ، لها ميناء يجرى فيه ماء النيل إلى البحر المالح ، وتدخله المراكب من البحر حتى تصير فى

النيل] (١) .

وفى القرن الرابع الهجرى تعرضت رشيد للمعارك البحرية التى جرت بين العباسيين والمغاربة ، ففى سنة ٣٠٦ (٢) أرسل المقتدر بالله العباسى أسطولا من بغداد ، التقى عند رشيد بأسطول المهدى صاحب المغرب . فانتصر العباسيون عند رشيد ، واحترقت مراكب المهدى وفنى الكثير من رجاله ، ووقع الباقون فى الأسر .

وفى هذا القرن كانت رشيد إحدى كور مصر أو عملا من أعمالها (٣) ولكن اضمحل شأنها ، فصارت « إخنا ورشيد » (٤) أى إدكو ورشيد كورة واحدة ، وكان برشيد أسواق صالحة وحمام وبها نخيل كثير ، ولها إيراد واسع ، كما يقول ابن حوقل (٥) ، أما المقدسى (٦) فقد اعتبرها إحدى مدن الإسكندرية .

وكانت رشيد ضيعة يملكها الليث بن سعد ، وتدر عليه خيرا كثيرا ، كما يقول البكرى (٧) .

وفى القرن السادس الهجرى تحدث عن رشيد كاتب مراكشى (٨) مجهول الاسم فقال [وهى مدينة كبيرة على كثيب رمل عظيم إذا هبت الريح الغربية ـ وهى تشتد عندهم ـ ملأت عليهم سككهم وبيوتهم رملا ، فلا يقدرون على التصرف فى أسواقهم ، وهم على ضفة النيل قرب البحر ، ومن أعجب متنزهات

(١) اليعقوبى : البلدان .
(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ص ١٠٣
(٣) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة : ص ٢٤٨
(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك
(٥) المسالك والممالك
(٦) أحسن التقاسيم حـ ١ ص ١٩٣
(٧) « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب »
(٨) فى كتابه « الاستبصار فى عجائب الأمصار » ص ٨٩

الدنيا ضفة النيل من مصر إلى مدينة رشيد هذه ، ولا غلة لثمار الأرض كغلة هذه الناحية] .

وقدم أبو بكر الطرطوشي (١) من لبنان صحبة رجل آخر إلى رشيد حيث بها — على حد قوله — شيئان مباحان : الملح والحطب ، فأقام بها هو وصاحبه . يحملان الحطب والملح على ظهورهما ويبيعانهما فيقتاتان بهما ، حتى قتل العبيدى صاحب مصر جماعة من فقهاء الإسكندرية ولم يعد بها فقيه ، وسمع أهل الإسكندرية بالطرطوشي ، فركب إليه قاضيها ابن الحديد وبعض أعيانها ، وظلوا يبحثون عنه حتى استمالوه فركب معهم ونزل بين ظهرانيهم ونشر العلم بينهم حتى توفى بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ ودفن بها .

ويضم أبو صالح الأرمنى (٢) إدكو والجديدية إلى رشيد ويجعل من هذه النواحى الثلاث إقطاعا واحدا عبرته ثلاثة آلاف دينار .

كما أن البكرى قد أشار إلى رشيد كأحد ثغور مصر ، وإلى الاستحكامات التى بها مادام قد ذكر صراحة « رباط رشيد » والرباطات الأخرى التى على ساحل البحر .

ولقد أسهب الإدريسى الصقلى (٣) فى ذكر المراحل التى يقطعها المسافر من مصر إلى الإسكندرية منحدرا فى فرع رشيد طبعا ، إلى أن وصف الطريق من رشيد إلى الإسكندرية كالآتى :

[وأما النزول إلى رشيد فعلى معظم الخليج (خليج شابور) من سمديس إلى قرية الحافر (منية ابن السعيد).. ويقابلها فى الضفة الشرقية قرية نطوبس الرمان (مطوبس) ، ومن الحافر إلى الجديدية ١٥ ميلا وهى قرية عامرة ، ومن الجديدية إلى رشيد ، ومن رشيد إلى الإسكندرية ٦٠ ميلا وذلك أنك تسير من رشيد فى

---

(١) شكيب أرسلان : الحلل السندسية حـ ٣

(٢) أخبار من نواحى مصر وإقطاعها ص ١١

(٣) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق

الرمال إلى أبو قير ٣٠ ميلا إلى القصرين إلى الإسكندرية ٣٠ ميلا] .

وقد جاء فى (النزهة) عن رشيد أنها مدينة متحضرة بها سوق وتجار وفعلة (عمال) ولها مزارع وغلات وحنطة (قمح) وشعير وبها بقول حسنة كثيرة ، وبها نخيل كثير وأنواع من الفواكه الرطبة ، وبها من الحيتان وضروب السمك من البحر المالح والسمك النيلى كثير .

وفى القرن السابع الهجرى تحدث ياقوت الحموى (١) عن رشيد فقال [بليدة على البحر والنيل قرب الإسكندرية] فهى إذن بلدة صغيرة بعد أن كانت مدينة .

وتعرض ميناء رشيد لكثير من غارات القراصنة من أهل جزر البحر الأبيض ، وقد أشار النويرى السكندرى (٢) إلى المراكب الستة التى هجمت ليلا على أبو قير سنة ٧٦٤ هـ ، حتى حاصرها الصيادون برشيد ، [ونزل اللصوص من ثلاثة مراكب إليها ، ففطن لهم المسلمون . فأتوهم بكثرة فهرب اللصوص ، ولم يجدوا مركبا واحدا من المراكب فسبقهم أحمد الجداوى المعروف بالباشق إلى سقالة المركب ورماها فى البحر ، فألقى اللصوص بأنفسهم فى البحر ليعوموا إلى المركب فغرقوا ، خوفا من المسلمين المهاجمين لثقل الحديد الذى عليهم ، فقذفهم البحر بعد أيام على الساحل ، وكانوا ثمانين رجلا ، وأخذ أهل رشيد سلبهم وأحرقوهم بالنار] .

وذكر أيضا قصة الرشيدى الذى صمد أمام القراصنة عندما رست سفينتهم على «جزيرة رشيد» ، وأسروا منها خمسة وعشرين ، ما بين رجل وامرأة ، وتصادف أن قتل أحد الإفرنج عجلا كان خلف بقرة ، فهجمت عليه حتى قتلته وأخذت بثأر ولدها ، وفطن ثمانية من الرعاة كانوا فى خص مجاور ، أراد الإفرنج أن يأسروهم ، فدفعتهم البقرة عن المسلمين ، حتى قدم أهل الجزيرة بأسلحتهم ،

---

(١) معجم البلدان

(٢) « الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ وعودها إلى حالتها المرضية »

فأجلوا اللصوص عنهم [وبسبب ما حل فى جـــزيرة رشيد طمع القبـارصة فى الإسكندرية] كما يقول النويرى ، أى أن هذا كان من الاسباب المباشرة التى أدت إلى غزوة القبارصة للإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ والتى سميت « وقعة الإسكندرية ».

وزار رشيـد إبراهيم بن محمد بن إيدمر العـلائى الهشير بابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ وصاحب كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وسجل زيارته لرشيد فى هذا الـكتاب حيث قال (١) :

[ثغر رشيد المحروس عبرته ٥ آلاف دينار ، وبلدته عنـد مجمع البحرين ، وبها البرزخ المذكور فى القرآن ؛ وتجاههـــا جزيرة تعرف بالجزيرة الخضراء ، وبالجزيرة المذكورة قبة تعرف بقبة الخضر عليه السلام ، رأيتها فى سنة ٧٧٩ هـ ، ويوجد بهذا المـكان فرس النيل ، وبهـذه المدينة جامـع وحمام ، وأمير مركز ، وبها (كوم الأفراح) به قوم صالحون ، وهـــو مكان مبارك ، وبأعلى الـكوم المذكور منار يرى منه مراكب الفرنج القادمة ، (٢) عمره السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وبأسفله برج عمره الأمير صلاح الدين بن عرام ، على شاطىء النيل ؛ وأوقفه ؛ وجعل به سـلاح أوقفه للمجاهدين ، وبالبرج المذكور كتـاب سبيل به أيتام يقرءون ، وهذه البلدة كثيرة شجر الرمان والنخل ، وأهلها قليلون ، وعامتهم صيادون فى السمك والطير ، وبـكوم الأفراح مسـاجد معروفة بإجابة الدعاء ، وبأسفله على شاطىء النيل مسجد يعرف بمسجد النبى ، وأهل هذه المدينة كلهم مرابطون] .

وليس من المبالغة فى شىء ، إذا قلنا إن هذا الوصف يعتبر أقـدم طبوغرافية لمدينة رشيد فى القرن الثامن الهجرى ، أتحفنا به ابن دقماق قبل غيره من المؤلفين. وظل رباط رشيد قائما للمجاهدين فى سبيل الله حتى القرن التاسع الهجرى فيقول

---

(١) جـ ٥ ص ١١٤

(٢) أشار اليه المقريزى فى أخبار سنة ٦٥٩ هـ فقال فى القسم الثانى من الجزء الأول من « السلوك لمعرفة دول الملوك » عن الظاهر بيبرس « وبنى بثغر رشيد مرقبا لـكشف البحر »

المقريزى (١) [وبمصر عدة من الثغور المعدة للرباط فى سبيل الله : البرلس ورشيد والإسكندرية وذات الحمام والبحيرة وإخنا] وفى مكان آخر (٢) يذكر أعمال الديار المصرية وكورها ، فيقول : كورتا إخنو ورشيد ولهما ١٧ عملا ، وفى كور أسفل الأرض يذكر فى الحوف الغربى : كورتى إخنا والبحيرة ورشيد .

وفى سنة ٧٧٥ ﻫ هجم قراصنة الإفرنج على رشيد (٣) فخرج إليهم الأتابكى منجك فى عسكره ، فصدهم حتى عادوا إلى بلادهم يجررون أذيال الخيبة .

ولما كانت رشيد أحد المنافذ الرئيسية للغـــزاة ، فقد زادت عناية الحكومة المصرية بثغرها طوال القرن الثامن الهجرى ، وكثر قدوم الحكام إليها ليتفقدوا بأنفسهم وسائل الدفاع بها ، وفى الوقت نفسه كثر بها العلماء والفقهاء ، فقد أنشأ فيروز الرومى العرامى برجا برشيد ووقف عليه وقفا ، أما هو فكان كما يقول السخاوى [يحفظ بعض تاريخ ومات بالقاهرة فى حدود سنة ٨٥٠ ﻫ] (٤) ، وفى سنة ٨٨٤ ﻫ أنشأ بها المتوكل على الله برجا أيضا .

والسخاوى المؤرخ قدم إلى رشيد وأخذ عن الجمال الرشيدى ، أحد المسندين المشهورين فى علم الحديث ، وكان السخاوى يطلبه أيضا بأم دينار ودسوق وفوة ، وقد نوه السخاوى فى أماكن متباعدة جدا من كتابه الضخم ببعض معالم رشيد، استطعنا أن نلتقطها منه فى مناسبات عدة منها : أن السلطان قايتباى أنشأ بها برجا فى عام ٨٧٦ ﻫ ، وأقام بها سلسلة حديدية ضخمة زنتهـــا ٢٥٠ قنطارا ، وتم إعدادها تحت إشراف الأمير يشبك الدوادار ، كما أنه بنى سورا حول رشـــيد لحمايتهـــا من الغارات عليها ، وذكر السخاوى وابن إياس أنه أنشأ برج رشيد سنة ٩٠١ ﻫ .

---

(١) الخطط ﺟ ١ ص ٢٨

(٢) الخطط ﺟ ١ ص ٧٢

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور

(٤) الضوء اللامع

وفى ٢ رمضان سنة ٩٢١ ﻫ سار السلطان الغورى من الإسكندرية إلى رشيد فأمر بإنشاء سور على شاطىء البحر وأبراج لحفظ الثغر .

وقد دعا تجار (فلورنسا) إلى زيارة ثغور مصر ، وكان فرع رشيد ـ خاصة ـ محظورا دخوله على الأجانب ، باعتباره أكبر الثغور جميعا . ومن أجل هذا كان عليهم السير برا فيما بين الإسكندرية ورشيد بطريق البر فى ذهابهم إلى القاهرة .

وبعد ذلك بنحو عامين ، قدم السلطان سليم الأول العثمانى بجيوشه لفتح مصر ولما علم الأمير الدوادار بوصول الاسطول العثمانى إلى رشيد والإسكندرية ، عبأ العسكر ، وما لبثت رشيد أن أصبحت أقرب الثغور المصرية من اسطانبول بعد أن فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٤ ﻫ (١٥١٧ م) (١)

أما السلطان سليم الأول العثمانى فقد ركب النيل وزار فوة وغيرها من البلاد ولما أعجب بما فيها من خيرات كان يتمتع بها الجراكسة ، قال : [إن هذا الإقليم لا نظير له فى كثرة الأرزاق والخيرات] ثم انحدر إلى رشيد ، وأحاط بها علما ثم طلع فى البر إلى الإسكندرية (٢) .

وتحدث ابن زنبل الرمال عن رشيد ، وقد عاش مدة بأبوقير ، قال : [رشيد : من ثغور مصر بها « كوم الأفراح » فيها مقابر كثير من الصحابة ، وهى مدينة حصينة بينها وبين أبوقير نحو ثمانية فراسخ فى البر ، وفى مدينة رشيد يعمل السكر ويجلب منها إلى جميع الممالك . وكذلك الأرز والسمك بها كثير ، وأصناف اللحومات والفواكه] (٣) .

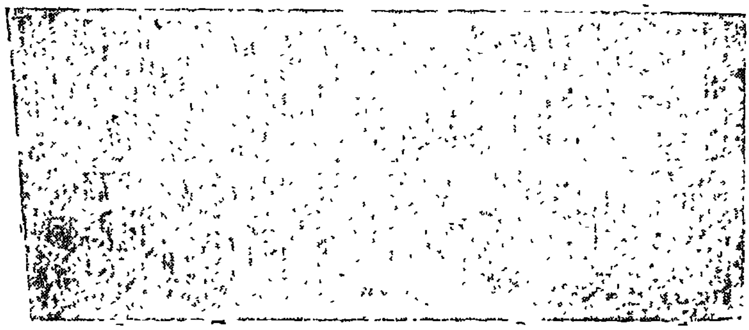
ونستطيع أن نقول إن رشيد قد بلغت أوج حضارتها ابتداء من القرن العاشر الهجرى (١٦ م) أى بعد أن صارت مصر ولاية عثمانية ، فقد أنشأ بها خادم

(١) ابن إياس : بدائع الزهور

(٢) ابن زنبل : تاريخ السلطان سليم : ص ١١٦

(٣) ابن زنبل : تحفة الملوك والرغائب

باشا سليمان العثمانى فى أيام ولايته (٩٣١ — ٩٣٤ ﻫ) قيسارية وفندقا (١) ، وأنشأ بها أيضا داود باشا الوالى العثمانى فى عهده (٩٤٥ - ٩٥٥ ﻫ) فندقا آخر سمى (خان داود باشا) ، وقد اكتشف صالح بك صادق لوحة افتتاح هذا الخان بمكان كنيسة الأروام برشيد .



اللوحة الرخامية التذكارية
لخان داود باشا برشيد سنة ٩٤٨ ﻫ

وهذه اللوحة قطعة من الرخام الأبيض طولها متر وعرضها ٤٥ سنتيمتر ، ومكتوبة بالخط العثمانى فى سطرين ونصها كالآتى :—

[أمر بإنشاء هذا الخان تقربا إلى الملك الديان المقام العالى الأعظمى ملك الأمراء بالديار المصرية مولانا / داود باشا أدام الله علو جنابه وجعل السعادة عنوان كتابه ليصرف ريعه فى وجوه الخيرات وطرق المبرات وذلك بإشارة وصية المختار ذى المفاخر أحمد حاجى وكان فراغه فى سنة ٩٤٨ ﻫ] .

وهذه اللوحة موجودة حاليا بمكتبة بطريركية الروم الاورثوذكس شارع بور سعيد بالإسكندرية ، وقد اطلعت عليها ، وأرى أن على مصلحة الآثار ألا تحرم متحف رشيد من هذا الأثر ، الذى لا يمت إلى بطريركية الروم

(١) الإسحاقى : أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول

الأورثوذكس بأدنى صلة اللهم إلا أنه عثر عليه فى أنقاض كنيستهم برشيد ، أما وقد أنشيء متحف برشيد فهو أولى به .

هذا وقد عقد العلامة (إتين كومب Et. Combe)(١) فصلا ضافيا بمجلة الآثار بالإسكندرية عنوانه : [أثر عربى لفندق (خان) عثمانى فى رشيد]

Inscription Arabe d'un Khan Ottoman à Rosette.

وفى سنة ٩٥٦ هـ أنشأ الوزير سمين على باشا فندقا ثالثا برشيد ، وخانات أخرى فى (فوة) ، كما عمر وكالة كبيرة فى رشيد أيضا (٢) .

وقد عمر بها الوالى العثمانى أحمد باشا حافظ الخادم فى سنة ٩٩٩ هـ وكالة وقهوة وربوعا (٣) كما أنشأ بها محمد باشا السلحدار (سنة ١٠١٦ - سنة ١٠٢٠هـ) الذى صار فيما بعد الوزير الأعظم وكالة أخرى ، نزل بها الشيخ محمد بن عبد الله الحسينى الموسوى الحجازى فى ربيع الأول سنة ١٠٩٣ هـ الموافق مارس سنة ١٦٨٢ م ، وكان من المألوف أن ينزل بها كبار المسافرين ، كما أنه عمر بها بجوار هذه الوكالة عدة حوانيت وقهوة وسوقا للصاغة وغير ذلك ، وأخذ غالب الجزر المقابلة لرشيد (٤) .

وليس أدل على انتعاش رشيد اقتصاديا من ذلك الخبر الذى أورده الإسحاقى عندما دخل الوالى الجديد إبراهيم باشا السلحدار ثغر رشيد فى ١٢ شعبان سنة ١٠٣١ هـ وفى عهده ارتفع غلاء الأسعار ، وضبط بيع الذرة فى دمياط فى مدة ثلاثة شهور فبلغ أكثر من ستين ألف إردب [أما ما بيع برشيد فضعف ما بيع بدمياط فإن رشيد أكثر واردا من دمياط] (٥) .

---

(١) Bulletin de la Société d'Archéologie d'Alexandrie N : 35

(٢) البكرى : الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة

(٣) الإسحاقى : أخبار الأول ص ١٥٧

(٤) الإسحاقى : أخبار الأول ص ١٦٥

(٥) الإسحاقى : أخبار الأول ص ١٧١

ومعنى ذلك أن رشيد فى العصر العثمانى كانت الثغر المصرى الأول ، الذى حظى بالمنشآت العثمانية وأكثرها من المساجد والوكالات والمقاهى والمتاجر .

وكان يوجد برشيد مؤسسات أوروبية لمختلف الدول وذلك فى القرن السادس عشر ، وكان بها قناصل كثيرون يمثلون هذه الدول وأولها البندقية التى أنشأت لرعاياها برشيد فندقا Fondique نظرا لتفوق تجارتها مع رشيد على سائر الدول الأخرى .

ومن ثغر رشيد جرد (برسباى) سنة ١٤٢٦ حملة بحرية يقودها (تغرى بردى) لفتح قبرص ، فعادت غانمة سالمة كما سنرى تفصيل ذلك فى باب الكفاح .

وعندما تحدث (شارل دلا رونسيير)[١] عن البحيرة ، مر سريعا على دمنهور فى حديثه ليسهب فى ذكر رشيد ، المدينة الثانية فى البحيرة ، على حد تعبيره ، فوصف أهلها الكرام ، ووصف حدائقها وأشجارها الكثيفة التى كانت تحيط بها ، وعرج على منازلها الجميلة المتقاربة من النيل ، حيث ترسو السفن ذات الحمولة الثقيلة ، وتحدث أيضا عن مساجدها وشوارعها ،وإضاءتها ليلا بالفوانيس.

وزارها أيضا (ثيفينو Thevenot) سنة١٦٥٥وقال عنها إنها [أجمل مدينة بعد القاهرة] بما اشتهرت به مبانيها ومحالها التجارية من روعة وعظمة .

أما (ماليت Maillet) فقد زارها سنة ١٦٩٢ بوصفه قنصلا لفرنسا ، وأدرك أن البحر لم يكن يبعد عن المدينة بأكثر من نصف فرسخ ، ثم صارت سنة ١٧١٨ تبعد عنه بمسافة تزيد على فرسخ .

ويقول (جيمسل Jemsel)[٢] إنه كان يوجد برشيد فى سنة ١٦٤١ م عدد كبير من الفنادق للتجار ونحو أربعين منها للأجانب وأصحاب القوافل .

وفى خلال القرنين ١٧ ، ١٨ زاد عدد هذه الفنادق والمؤسسات الأوروبية

---

(١) Ch. de la Roncière : La Geogr. P : 250

(٢) Itineraires en Terre Sainte : P : 521

فى رشيـد على نحو ملحوظ [١] كما كان بها سكن خاص للمسيو فارسى Varsy قنصل فرنسا فى رشيد ، وكان هذا السكن يقع عند البوغاز (٢) .

وقد كانت رشيد فى عهد المماليك تقاسى من مظالمهم الفادحة ، ومنها (ديوان البدعة) الذى أنشأه بها مراد بك ، وبالغ فى فرض الضرائب على الغـلال المصدرة إلى الخارج من ميناء رشيد ، ووكل أمره إلى أحد أعوانه وقـــد أفحش فى الظلم حتى أثرى .

ويقول الجبرتى [وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس وطمعهم فى الإقليم المصرى] [٣] .

وكان فى شمال رشيد على بعد فرسخ منها قاعة حصينة تسمى « القاعة المربعة » شهدت المعـــارك التى جرت بين الإنجليز والفرنسيين سنة ١٨٠١ م ، ثم احتلها الفرنسيون وأطلقوا عليها (قلعة جوليان Snt. Julian) تخليدا لذكرى أحـد جنودهم الذى مات هناك ، والمعروف أن (حجر رشيد) قد عثر عليه (بروشار) فى هذه القاعة ، التى يجب ألا يطلق عليها أى اسم آخر غير « قلعة رشيد »

وفى كتاب « وصف مصر » الذى وضعه علمـاء الحملة الفرنسية ، كتب (جولوا Jollois) فصلا ضافيا عن مدينـة رشيد وفنادقها الفـاخرة المبـــانى ووكالاتها التجارية الواسعة (٤) .

وكتب (هرز Herz) فى تقريره عن آثار رشيـد سنة ١٨٩٦ (٥) وكذلك (بارتيكولو Particolo) فى تقريره عن فنار رشيد : Rapport sur l'inspection de Rosette ولـكنهما لم يذكرا غير وكالتين هما بقاياالوكالاتالعديدة .

وقد تحدث Monconys سنة ١٦٤٧م عن الحرية التى كان يتمتع بها التجـار الأجانب برشيـــد أكثر من غيرهم فى الإسكندرية ، وذكر الدور الذى كان

---

(١) Coppin : 1647. Thevenot : 1657 .Binos : 1777

(٢) Thurman : Bonaparte en Egypte p : 49

(٣) تاريخ الجبرتى : سنة ١٢١٥ هـ

(٤) Description de l'Egypte T : 18 - 1 .p : 497 - 554

(٥) Herz : Rapport sur les monuments de Rosette

يؤديه « المقهى » فى هذا الوقت حيث تقدم القهوة والخمور ، وتعرض الألعاب البهلوانية على ضوء الشموع الخافتة[١] .

ووصف لنا (برى Perry) فى كتابه View of the Levant : كيف وصل بأمتعته إلى ميناء رشيد ، وشدة اهتمام أصحاب المراكب بنقل أمتعة الوالى الجديد : على حكيم أوغلى[٢] .

وفيما يلى طائفة من الأحداث والإجراءات التى جرت فى رشيد منذ مطلع القرن الماضى :

— فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٣٤ صار كل من على بك السلانكلى قابجى باشا وخليل أفندى حاكم رشيد ، بأمر محمد على .

— وفى سنة ١٢٤٤ هـ أصدر أمره إلى محافظ رشيد بنقل مائة إردب أرز رشيدى بدون ملح لمخزن الإسكندرية ، وشحنها إلى مرسيليا على سبيل التجربة ، كما أمر بإقامة مصنع للغزل به ١٥٠ دولابا و ١٠٠ مشط لنسج قلوع المراكب ، ومصنع بخارى لتبييض الأرز ، وردت آلاته من انجلترا بإشراف المهندس جالويه ، ومدبغة لدبغ جلود الماعز والعجول البيضاء الصغيرة بإشراف المسيو روس ، مع إرسال المدبوغ أولا بأول إلى ناظر المهمات لعمل قايش العساكر والجربنديات التى تلزمهم ، ومصنع لإنتاج الحديد اللازم للسفن (٣)

— فى ذلك الوقت عاد الجيش من حرب المورة ، فأمر الباشا بتوزيع عدد منهم على رشيد .

— وكتب مطوش بك أميرالاى البحرية إلى الباشا بوجود رمل أسود به أثر حديد عند بوغاز رشيد ، فأمر الباشا محافظ رشيد فى ٩ شعبان سنة ١٢٤٥ بإرسال ثلاثين أو أربعين قنطارا ، لاستخراج الحديد من هذه الرمال ، واستخدام الرمل الباقى فى الدواوين لتجفيف الكتابة ، حيث أن النشاف لم يكن قد اكتشف بعد .

---

(١) Coppin . Bouclier de l'Europe .

(٢) ص ١٠ :

(٣) عمر طوسون : كلمات فى سبيل مصر + أمين سامى : تقويم النيل

— واشتهرت رشيد بصناعة نسيج قلوع السفن ، فأبدى الباشا استحسانه لمحافظ رشيد ، وأخبره بأنه حسب أوامره قد تنبه على مخازل القطن بتوريدها إلى رشيد .

— وكان حول رشيد برية تتربى فيها الخنازير ، وعلم الباشا بذلك فأصدر أمره إلى المحافظ فى ١٠ من ذى الحجة سنة ١٢٤٦ بإرسال ٣٠٠ أقة من شعر الخنازير ، فإن لم توجد هذه الكمية يتعين على أحمد باشا تكليف عمال لصيد الخنازير ، وإرسال المطلوب من شعرها .

—وفى سنة ١٢٤٧ أنشىء محجر صحى برشيد خارج البوغاز حسب تصميم المهندس ستيرزن ، وأشرف على البناء أحمد أفندى ناظر مبانى الإسكندرية ، وصدرت أوامر الباشا بتعريف القناصل بذلك ، خوفا من نقل الأوبئة .

— وقد أشار محافظ رشيد على الباشا بإنشاء طواحين هوائية بجهة البوغاز ، فوافق الباشا على هذا الطلب ، وأصدر الأمر بإرسال نجار (وطواحنجى) وأحجار الطواحين ، وأمره بالإكثار من الطواحين ، على قدر الإمكان ، لماذا ؟ (لتكفى الألايين الموجودين برشيد على الأقل) ، وقد انتشرت هذه الطواحين فعلا على ساحل البحر فيما بين رشيد والإسكندرية ، منذ ذلك التاريخ (١٢٤٧هـ — ١٨٣٢م) ولا تزال بقية منها على التل المرتفع بإدكو المسمى (كوم الطواحين) .

وصدر أمر الباشا إلى المحافظ فى ٢٩ من ذى الحجة سنة ١٢٤٧ بالقبض على مائتى مراكبى رشيدى وإرسالهم فورا للعمل كبحارة فى الأسطول المصرى .

—وفى ١٧ شوال سنة ١٢٦٣ صدرت الأوامر بترقيم مساكن رشيد وأزقتها وحلاتها كسائر المدن الكبرى والعاصمة .

—وأنشئت بها فى العام التالى دائرة لضرب الأرز أوسع من دائرة دمياط تكلفت ٨٣٥٤٨٧ قرشا .

—وفى ٢٧ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢ اعتزم سعيد باشا إرسال العساكر إلى رشيد للإقامة بها ، فأصدر أمره إلى المحافظ بإعداد ثكناتهم ، وفى هذه السنة ألحقت حسابات قلاع رشيد وطوابيها بديوان المحافظة بعد أن كانت ملحقة بسواحل الإسكندرية .

— وأصـــدر سعيد باشا أمره أيضا فى هذه السنة إلى المحافظ بتحديد أسعار المأكولات ، للقضاء على جشع التجار .

— وفى شوال سنة ١٢٧٦ أعفى أهل بندر رشيد من ضريبة الويركو .

— وجاء فى الوقائع المصرية فى عدد ٢ إبريل سنة ١٨٧١ أن مدرسة رشيد الابتدائية قد تم افتتاحها فى ٢٣ مارس سنة ١٨٧٦ (٤ ربيع الأول سنة ١٢٩٣) وكان عدد تلاميذها سبعين ، وكان ناظرها الأستاذ محمود وهبى ، وكان ممن تعلم بها أحمد فتحى باشا وكيل الحقانية وصاحب المؤلفات المشهورة .

وفيما يلى ثبت بأسماء محافظى رشيد :

محافظو رشيد من سنة ١٨١١

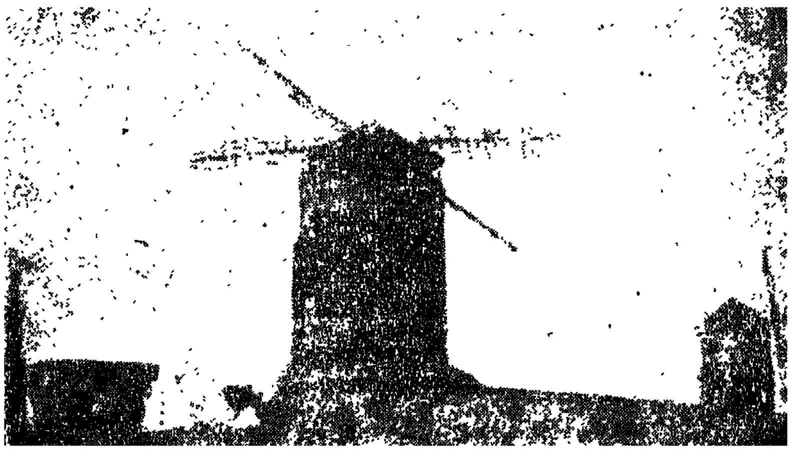
المحافظ	من	إلى
حسين عربكلى بك	٢٦ شعبان ١٢٦٠	٢٣ ربيع الثانى ١٢٦٥
إبراهيم أفندى	٢٤ ربيع الثانى ١٢٦٥	٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٦٦
حسين غالب بك	٢١ جمادى الأولى ١٢٦٦	١٨ ربيع الأول ١٢٦٨
محمد شرين بك	٢٩ ذى الحجة ١٢٧٠	١٠ صفر ١٢٧١
أرسلان أغا	١١ صفر ١٢٧١	١٣ ربيع الأول ١٢٧٧
حسين راغب أفندى	١٤ ربيع أول ١٢٧٧	١٤ شعبان ١٢٧٧
(معاون المحافظة)	١٥ شعبان ١٢٧٧	١١ شوال ١٢٧٧
عمر شرمى أفندى	١٢ شوال ١٢٧٧	١٠ ربيع الآخر ١٢٨٣
محمد توفيق بك	١١ ربيع الآخر ١٢٨٣	٧ رجب ١٢٨٣
إسماعيل قراق بك	٩ رجب ١٢٨٣	٧ شوال ١٢٨٣
إبراهيم أدهم بك	٨ شوال ١٢٨٣	٤ صفر ١٢٨٤
مورلى إسماعيل أفندى	٥ صفر ١٢٨٤	٢١ ربيع الآخر ١٢٨٦
خورشيد فهمى أفندى	٣ ربيع الآخر ١٢٨٦	١٣ جمادى الآخرة ١٢٨٧

[فى رمضان سنة ١٢٨٦ أحيلت المحافظة إلى خسرو باشا قومندان حاميـــة رشيد ، علاوة على مأموريته وصارت تابعة للإدارة العسكرية ، وكان خورشيد باشا لواء ألايات السواحل برشيــــد هو محافظها ، ثم أحيلت المحافظة إلى وزارة

الداخليـة فى ٥ فبراير سنة ١٨٧٩ (١٢٩٦ هـ) ، وقد عين خورشيـد باشا مديرا للبحيرة فى ٥ من ذى القعدة سنة ١٢٩٣ ، وأصبحت محافظة رشيـد تحت إدارته علاوة على مديرية البحيرة] :

محمد صالح شرمى بك	١٢ صفر ١٢٩٦	١٤ رجب ١٢٩٦
شافعى رحمى بك	٨ رمضان ١٢٩٦	١٣ ذى القعدة ١٢٩٦
محمد صالح شرمى بك	١٥ ذى القعدة ١٢٩٦	٦ جمادى الأولى ١٢٩٩
محمد وجيهى	١٠ يناير ١٨٨٨ (١٣٠٧هـ)	

وقد زار الخديوى توفيق مدينة رشيد فى ٢ مايو سنة ١٨٨٠ فأقيمت له الزينات وزار جامع سيدى المحلى ، وكان الاحتفال بمولده قائما يومئذ ، كما أنه زار البوغاز وثكنات العسكر والقصر الذى بناه محمد على ، وقـــد تحول منزل نائب الوالى (الكتخدا) برشيد إلى مدرسة .



طاحونة هواء بإدكو منذ ١٣٠ سنة

هذا وليس أدل على مظاهر العمران فى رشيد من كثرة المنازل والمســـاجد المبنية بالطوب وحده من دورين أو ثلاثة ، مع استعمال الخشب المزخرف ، على نمط شرقى خالص ، وكذلك الرخام والفسيفساء ، ومما لفت نظر المسيو هرز Herz أن الجدران الخارجية لهذه المبانى غير مطلية ، وقد ضمن (هرز) آثار رشيد من

المنازل والمساجد تقريرين رفعها إلى مصلحة الآثار المصرية بعـــد زياراته لمدينة رشيد فى سنتى ١٨٩٥ , ١٨٩٦ ، وفى تقريره الأخير قرر أن هـذه المبانى ترجع إلى سنة ألف هجرية أى سنة ١٥٩١ م ، ومعنى ذلك أنها من العصر العثمانى .

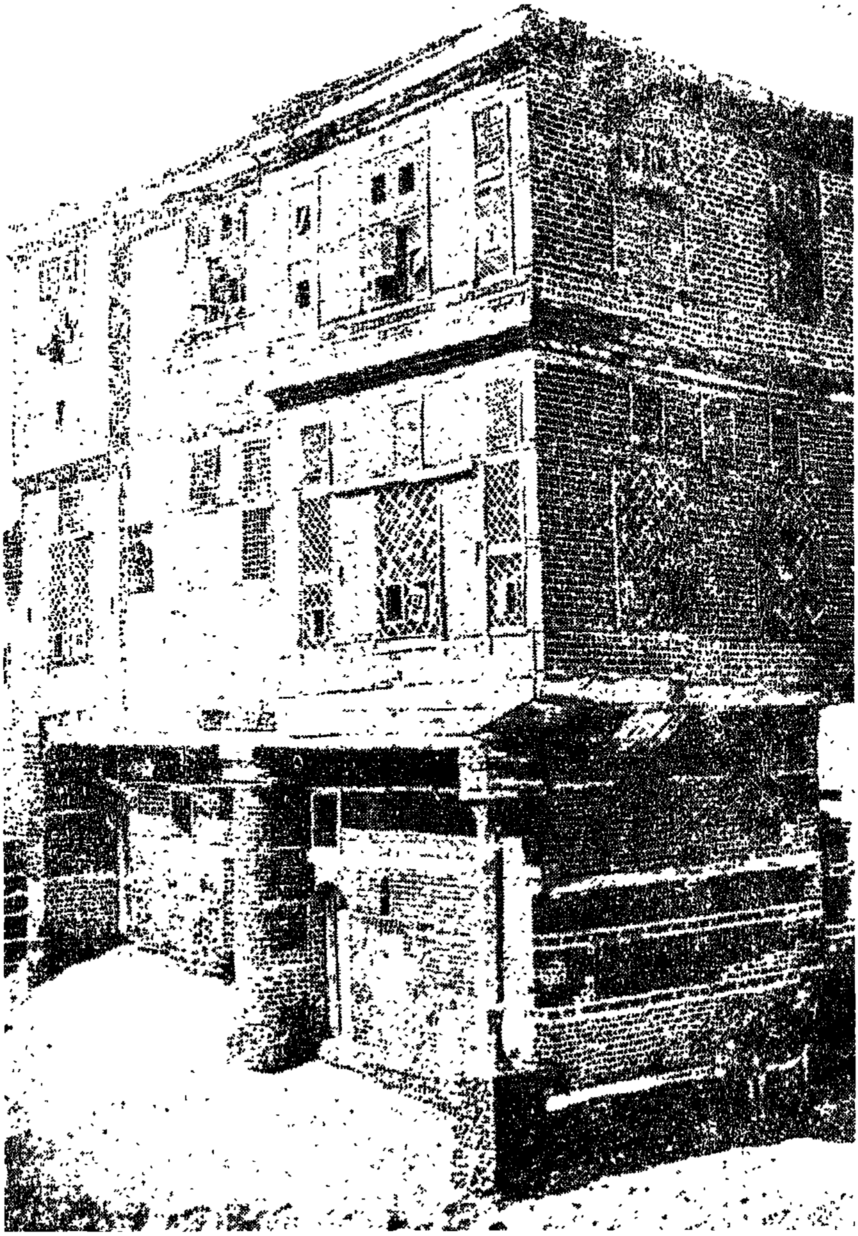
وهذه المساجد الأثرية هى : مسجد الشيخ يوسف تقى بشارع سوق السمك القديم ، وصنع منبره سنة ١١٤٠ هـ ، ومسجد سيـدى النور وقـــد أنشىء سنة ١١٧٨ هـ ، ومسجد صالح أغا دومقسيس الذى أنشـأه سنة ١٦٠٠ م ، ومسجد زغلول ممـلوك السيد هارون الذى كان موجوداً منـذ ٤١٧ سنة ، وبه نحو ٢٤٤ عموداً من الرخام والجرانيت ، والواقع أن هذا المسجد كان مسجدين فضم بعضهما إلى بعض ، ومسجد محمد جلبى ومنبره صنع سنة ١٠٩٢ هـ ومسجد محمـد العبـاسى الذى شيده سنة ١٢٢٤ هـ محمد بك الطبوزاده وجامع سيدى على المحلى وبه ضريحه وقد شيد سنة ١١٣٤ هـ ، وتجـدد بناء الضريح سنة ١٢٦٣ هـ ، وملحقة به مكتبة تضم مخطوطات قديمة ألفها علمـاء رشيد ومعظمهم من آل الجارم أوقفوها على الجامع للانتفاع بها وتبلغ ألفى كتاب ، ومسجد الجندى الذى شيد سنة ١١٢٣ هـ ومسجد عبد الله بن الصامت ـ الذى شيده سنة ١١٤٧ هـ الحاج محمد عبد الرحمن ـ وبه ضريح هذا الصحابى الجليل ،ومسجد أبى منضور ،ويسميه الأهالى (أبو النضر)

وهناك أيضا زاوية الباشا وهى التى أنشأها محمد على فى أوائل القرن الثـالث عشر الهجرى ليصلى فيها عمال مضرب الأرز ، الذى شيده بالقرب منها ، وزاوية الشيخ صماده .

أما المنازل الأثرية (١) التى ترجع فى تاريخها إلى أكثر من مائتى سنة ، حاملة طابع العمارة الشرقية الساحرة فنذكر منها : منزل على الفطايرى وهو أقدم المنازل الأثرية برشيـد وأتقنها صنعة ، ويرجع تاريخه إلى سنة ١٠٣٠ هـ ، ومنزل ورثة صحصح بشارع الأربعين،ومنزل ورثة أحمد أغا بشارع الغباشى ومنزل المايزونى، وهو تابع لوقفى العرابى والجروى ، وقد أنشأه سنة ١١٥٣ هـ الحـاج عبد الرضى البواب المايزونى ، وهنـاك منزل ملاصق لمسجد الجندى أنشىء سنة ١١٣٣ هـ ،

---

(١) تقرير هرز عن آثار رشيد فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٥



منزل أحمد أغا القباشى برشيد
من العصر العثمانى

ومنزل عبد العزيز قاسم الذى أنشىء سنة ١١٢١ هـ ومنزل عبد الحميد محارم الذى أنشىء فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى ، ومنزل كمونة الذى أنشىء سنة ١٢٠٧ هـ على يد السيد أحمد الخضرى ، ومنزل عرب كلى الذى أنشىء فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى ، ومنزل وقف الأتراك (البقرولى) الذى أنشىء سنة ١١٣١ هـ ، ومنزل علوان بك الذى أنشىء فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى ومنزل الجداوى (عثمان فرحات) فى النصف الثانى من ذلك القرن ، ومنزل حبيب غزال الذى أنشىء فى أول القرن الثالث عشر ، ومنزل عثمان أغا البكباشى الأماصيلى وقد أنشىء سنة ١٢٢٣ ، ومن المنازل التى شيدت فى القرن الثانى عشر أيضا : منزل القناديلى ومنزل عصفور ومنزل رمضان ومنزل المناديلى ، ومن منازل القرن الثالث عشر منزل عثمان بك طبق ومنزل التوقاتلى ، ومن آثار رشيد الباقية عن أوائل القرن الماضى (١٣ هـ) طاحونة وقف المحلى .

ومن أهم شوارع رشيد الأثرية : شارع دهليز الملك ، وشارع الشيخ قنديل ، وشارع الحاج يوسف .

هذا ويستطيع القارىء أن يرجع إلى العدد ١١٥ من « الوقائع المصرية » فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٥١ للاطلاع على المزيد من هذه الآثار المسجلة عن رشيد خاصة ، والبحيرة عامة ، بالقرار الوزارى رقم ١٠٣٥٧ فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٥١ .

وقد تتبع (إتين كومب Et. Combe)(١) ما كتبه الرحالة ورجال السلك الدبلوماسى الأجنبى ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى حتى القرن التاسع عشر فى طريقهم من الإسكندرية إلى القاهرة عن طريق رشيد ، وعلى الرغم من الأخطاء التى وقع فيها بعضهم إلا أن أوصافهم هى خير ما تبقى من معالم هذه المنطقة طيلة هذه القرون .

على أن القرن الثامن عشر لم يكد ينقضى حتى كانت رشيد قد غطت على (فوة) ، واتسعت تجارتها ، وبلغ طولها على شاطىء البحر فرسخا ، وعرضها ربع فرسخ كما تحدث بذلك السائح الفرنسى (سافارى Savary) وغيره من

---

(١) Alexandrie Musulmane

السياح . كما أن رشيد بلغت حظا من الشهرة أيام الحملة الفرنسية ، وتزوج منها (مينو) .

وأفاض الجبرتى فى وصف المعارك الدامية التى جرت على أرض رشيد وبرج مغيزل بين البرديسى والعثمانيين فى ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٢١٨ ، كما شهد العالم كله ببسالة أهل رشيد فى دحر الإنجليز سنة ١٢٢٢ هـ (= سنة ١٨٠٧ م) حتى عاد (فريزر) بحملته الفاشلة أضحوكة العالم .

وعلى الرغم من هذا النصر المبين ، قلب الوالى محمد على ظهر المجن لأهل رشيد والحماد وما حولها ، وكان تنكيله بأهالى رشيد والحماد وإدكو لا يقل شناعة عن المذابح التى دبرها لخصومه .

وكان القدر بالمرصاد لهذا الطاغيه الذى مكن جنوده من حرمات الأبطال فتمد فتك الطاعون بابنه طوسون فلم يمهله غير قليل حتى وصل إلى الجيزة جثة هامدة ، بعد أن لقى حتفه فى قصر برنبال حيث قضى ليلة يستمع إلى المطربين ، ويشاهد الراقصات ويستمتع بالغوانى .

وقد زارت الكاتبة الانجليزية (ماى E. May) رشيد سنة ١٧٩٨ فكتبت عنها الخطاب السابع فى كتابها (رسائل من الشرق Letters from the East) قالت [إن رشيد حتما هى أجمل مكان على الإطلاق ، تحيط بها غابات من أشجار الليمون والبرتقال . . وأهم مايميزها مظهرها الأنيق النظيف الذى يخلب ألباب الإنجليز ، فإنه نادرا مايقابل الإنسان مثل هذا المنظر الذى يذكرنا بما كنا نستمتع به فى وطننا ، فالأراضى المنبسطة حولها مشوقة للغاية ، بمنظرها الجديد خصوصا عندما نفكر أنها الأرض التى كانت فى يوم من الأيام مرتعا لبنى إسرائيل ، هنا تعود بى الذكرى إلى القصة الرائعة الفريدة قصة يوسف وإخوته .

وعندما أنظر إلى هذه الشواطىء ـ حيث وجد يعقوب فيها ملجأ لشيخوخته وحيث ركع أبناؤه القادمون أمام أخيهم الأصغر ـ أحس كأننى فى حلم ناعم جميل ، من به على وجودى فى هذه البقعة من الأرض] (١) .

Letter : 7 — 27 August 1797

ويبدو أن الكاتبة الانجليزية قد سحرتها طبيعة رشيد الفاتنة حتى أفلتت منها أخيلتها ، فلم تحترم حرمة التاريخ الجيد ، وإلا فماذا أتى بيوسف الصديق وأبيه يعقوب إلى رشيد ؟ ثم ما شأن بنى إسرائيل بها ؟

ووصف على مبارك(١) مدينة رشيد وصفا مسهبا فأعطانا صورة واضحة عن مظاهر العمران والنشاط الاقتصادى بها فى القرن الماضى ؛ حتى أصبحت تشتمل على ٢٣٠٠ سكن ، وأشار إلى قصورها المشرفة على النيل ومزارعها الخصبة ، ووجود ٢٥ جامع و١٠ زوايا وأكثرها بمآذن عالية منها : الجامع الكبير ويقصد (جامع زغلول) الذى هو بمثابة الأزهر الشريف ، وجامع المحلى ، وقال إن بها نحو ٦٠٠ محل تجارى ، وأكثر من ٣٠ فندق و ٥ حمامات و١٣ معصرة و٥٢ طاحون تديره الخيل ،وطاحون بخارى و ١٠ مخابز و٣ كنائس للأقباط والأروام واليهود ودير للإفرنج ، وشوادر خشب نحو ١٨ ، و١٠ مضارب للأرز ومعامل للدجاج والرخام والورق وآلات الموسيقى وغيرها ، وبها عدد كبير من الصيادين ، وميناؤها مزدحم بالمراكب على الدوام ، وتحفها الحدائق والبساتين ، وتوجد ملاحة رشيد المشهورة ، وفى شمالها على مسافة فرسخ قلعة حصينة ، ركبت المدافع على أبراجها ، ويقصد بها طبعا قلعة جوليان .

وفى جنوب المدينة تل مرتفع كشف بعض الأهالى فى أطلاله عن عشرين عمودا ، وقيل إنه مكان مدينة بولبتين القديمة وقرر D'Anville [أن مدينة بولبتين كانت على بعد قليل من رشيد . فلعل الأعمدة التى وجدت هناك من آثار تلك المدينة التى تكلم عنها استرابون وأنيني البيزنطى] .

على أن معظم أعمدة مساجد رشيد منتزعة من مختلف المبانى الأثرية ، قديمها وحديثها ، فإذا دخلت جامع المحلى مثلا وألقيت نظرة على أعمدته ، وجدتها تجمع بين الأنماط البطلمية والرومانية والقبطية والعثمانية ، كما أن لوحة افتتاح خان داود قد وجدت فى كنيسة الروم الأرثوذكس برشيد .

وفى سنة ١٨٥٦ أنشىء برشيد مكتب للبريد ، هذا وبعد أن كان الطريقان البرى

---

(١) الخطط التوفيقية : ح ١١ ص ٧٥

والنهرى محفوفين بالأخطـــار فيما بين الإسكندرية من جهة ورشيد والقاهرة من جهة أخرى ، فقد مد الطريق الحديدى (١) مابين سيدى جابرورشيد سنة ١٨٧٦ وبلغ طوله أكثر من ٤٣ ميلا ، وفى سنة ١٨٨٠ زارها الخديوى توفيق وحضر مولد المحلى وصلى بجـــامعه وزار قبره ، وزار البوغاز ، وإذ ذاك كانت رشيد فى أفول واضمحلال .

وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ لم تعد رشيد « محافظة » فقـــد أصبحت أحد المراكز ابتداء من أول ينـاير سنـة ١٨٩٦ ، وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل كان معقودا على إنشـاء الطريق الحديدى لإنعاشها وإعادة البهجة إليها ، فلم تبلغها الأقدار آمالهـا .

ويقول (موتسنجر) (٢) إنه كان يوجد برشيد مدرسة يتعلم الشبـان فيهـا القرآن والـكتـابة والنحو والحسـاب والرسم والخط واللغتين التركية والفرنسية ، كما أن سـكان رشيد فى سنة ١٨١٩ كانوا بين ٩ آلاف و٢٠ ألفـا (٣) ، وجاء فى البحث الخاص برشيد فى دائرة المعارف الكبرى (٤) أنهـا مدينة فى غاية النشـاط لولا أنهـا فقدت كثيرا من أهميتهـا منذ ازدهرت الإسكندرية ، وهى أكبر سوق للأرز فى مصر كلهـا ويبلغ عدد سكانهـا ٢٠ ألفا ، وبهـا أعمـدة من الفن الإغريقى ، وشيدت بهـا مساجد ومنازل ، ولـكن لا أثر بهـا الآن أو كتـابة عن العصور القديمة ، غير أن حجر رشيد قد اكتشف بهـا سنة ١٧٩٩ .

وكتب كلوت بك عن رشيد بحثا مستفيضا (٥) ، وعرض لصعوبة الوصـول إليهـا وقبل إنشاء الخط الحديدى برا وبحرا ، وأشاد بانتعاشها التجارى بعـد أن اضمحل شأن الإسكندرية ، ولمـا شقت ترعة المحمودية هجرها تجارها ، وفى سنة ١٨٣٤ كان سكانها ١٥ ألفـا ولـكنهم أخـذوا فى النقصـان ، وذكر كلـوت بك

---

(١) مصر والجغرافيا : فريدريك بنولا : ص ١٠٠ و ص ١٠٤

(٢) جغرافية مصر : ص ٢٨٥

(٣) Bouillet : Dict. universel d'Hist. et de Geographie.

(٤) La Crande Encyclopédie : act. Rosette. T 28

(٥) لمحة عامة إلى مصر جـ ١ ص ٤٢٢

مضارب الأرز بها والحدائق الجميلة ، كما أشار إلى ضريح أبى منضور وزاويته التى فى جنوب رشيد .

ولرشيد وجمال مناظرها أصداء فى نفوس الشعراء ؛ فوصفها شاعر قبطى من أبناء رشيد فى القرن السابع عشر فقال :

هذى (رشيد) وكم حوت من روضة غنا ، وقصر فى الرياض مشيد
من لم يقل بصفاء بهجة نيلها وبهائها تلقاه غير رشيد

ووصف عبد الواحد الرشيدى فى بيتين من الشعر كثرة أمطارها مع الخروج عن حد الأدب ، أما الرحالة الموسوى فقال :

فياحسن هاتيك الديار وتربها فكم قد حوت حسنا يجل عن العد
وفى شاطىء النيل المقدس نزهة تجدد ماقد فات من سالف العهد
ومن مرج البحرين أى عجائب تلوح وتبدو من قريب ومن بعد

وللمرحوم الأستاذ على الجارم أشعاره الرائعة فى وصف رشيد ، منها هذان البيتان اللذان صدرنا بهما هذه النبذة عنها ، كما أن للمرحوم فتحى الجارم أزجالا وأشعارا صادقة التعبير عن جمال رشيد .

ويجب ألا ننسى أن لأحداث رشيد فى خلال التاريخ أصداءها التى أوحت إلى على الجارم بكتابة القصة الرائعة (غادة رشيد) ، وإلى الرئيس جمال عبد الناصر وهو طالب بالتعليم الثانوى بقصته (فى سبيل الحرية) .

ولما أنشىء مجلس مديرية البحيرة سنة ١٨٨٣ ، كان يمثل رشيد فيه عضوان هما : محمد بك عجوة ، والشيخ مصطفى المنياوى ، ومنذ السنوات الأولى من القرن العشرين ، بدأت الصحف تتابع أخبار رشيد ، كما جاء فى « الأهرام » بتاريخ ٢٢ إبريل سنة ١٩١١ بمناسبة زيارة مدير البحيرة لها ، حيث عرض عليه مأمور المركز خليل بك حافظ إنشاء مدرسة لتعليم الأحداث ، فسر المدير بالمشروع وسمح له بعقد اجتماع لأعيان رشيد بمنزله ، فتبرعوا بمبلغ ١٦٩ جنيها وظل الاكتتاب مفتوحا حتى أنشئت المدرسة .

وقامت الثورة فى يوليو سنة ١٩٥٢ ، ولم تكد تأتى ذكرى حملة فريزر فى العام التالى حتى احتفلت إدكو ورشيد بانتصارها على الإنجليز ، وحضر عن

رجال الثورة السادة : عبد اللطيف البغدادى وأنور السادات وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم ، وفى السرادق الذى أقيم برشيد رفع الستار عن النصب التذكارى لهذه المناسبة .

وفى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٩ حضر السيد جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية إلى رشيد وقد لبست فى هذا اليوم أبهى حللها ، وازدحمت أشد الازدحام بالوافدين عليها ، والمدعوين إليها حيث شهد الرئيس عرضا عسكريا رائعا بحضور المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، ثم تناول الغداء ، وبعد الظهر وزع الجوائز المالية على الفائزين من كتاب مصر بتكملة القصة التى كتبها عن رشيد وهى « فى سبيل الحرية » .

وبمناسبة هذه الزيارة التاريخية ، كتبت عن رشيد بحثا ضافيا عن كفاح رشيد فى مختلف العصور بجريدة « الجمهورية » فى ذلك اليوم ، ومنذئذ بدأت رشيد تحتل مكانتها من اهتمام السيد الرئيس ، فقد افتتح « متحف رشيد القومى » ، وأصبح يوم انتصار أهل رشيد على الإنجليز سنة ١٨٠٧ من الأعياد القومية .

وفى ذلك اليوم وقف السيد جمال عبد الناصر فألقى خطبة وطنية فى ذكرى انتصار أهل رشيد منذ ١٥٠ سنه : استهلها بقوله :

[أيها الأخوة المواطنون :

يسعدنى أن أشترك معكم اليوم فى الاحتفال بهذه الذكرى المجيدة فى تاريخ بلدكم رشيد ، هذا البلد الذى صمم على أن ينتصر فانتصر ، والذى لم ترهبه القوات المسلحة لأكبر الأمبراطوريات فى ذلك الوقت ، والذى أراد لنفسه الحياة فحقق لنفسه الحياة .

. إن احتفالنا اليوم له معنى كبير ، هذا الاحتفال إن دل على شىء فإنما يدل على أننا وجدنا أنفسنا ، وعرفنا طريقنا لأن معركة رشيد التى انتصر فيها شعب رشيد على الإنجليز فى سنة ١٨٠٧ حدثت منذ ١٥٠ سنة .

وكانت هذه المعركة باقية على مر السنين ، وعلى مر الأيام ، ولكننا كنا نهمل تاريخنا ، نهمل الصفحات المجيدة من تاريخنا ، نهمل الصفحات الرائعة التى تمثل بطولة شعبنا ، ونتركها للإهمال ليتراكم عليها الغبار .

وكنا بهذا نفسى حقيقتنا ، وننسى نفسية شعبنا ، اليوم حين نحتفل بذكرى هذا الانتصار فإننا نعتز أيضا بأننا استطعنا أن نحرر أنفسنا ، ثم استطعنا أن نعرف أنفسنا ثم استطعنا أن نرفع راية النصر فى ذكرى نصرنا فى المعارك السابقة من تاريخنا] .

وعرض الرئيس لتحالف الاستعمار وعملائه فى الماضى لبث الضعف فى نفوسنا ثم قال [اليوم أيها الأخوة المواطنون حينما تحررنا من السيطرة المعتدية من الخارج ومن السيطرة المستغلة من الداخل ، فإننا نعيد اكتشاف أنفسنا ، ونعيد اكتشاف تاريخنا ثم نحتفل بأمجادنا ونحتفل بانتصاراتنا .]

واستطرد الرئيس إلى النزاع الذى كان قائما بين المماليك ومحمد على مما أدى إلى تدخل الإنجليز فى شئون مصر التى صممت على الاستقلال ، فأقبلوا فى قوة قليلة العدد ظنا منهم أن الخلاف القائم فى الداخل لا يكلفهم الجهد الكبير فى الاستيلاء على مصر ، ولم يكن برشيد يومئذ من السلاح بقدر ما بأيدى جنود الإنجليز ، ومع ذلك قام أهلها بدون استعانة بالحكام دفاعا عن حقهم فى الحرية والاستقلال [وقام شعب رشيد وانتصر شعب رشيد وانهزمت الامبراطورية] .

وأعاد الرئيس بهذا الصدد إلى الأذهان ذكرى انتصارنا على الصليبيين منذ ٧٠٠ سنة فى (دمياط) ، فهزمنا لويس ملك فرنسا ، بفضل الإيمان ، ومن بعد ذلك انتصر صلاح الدين عليهم فى سوريا ، [وكانت هذه الانتصارات قائمة على مر السنين وعلى مر الأيام ولكننا كنا نتجاهلها ونتناساها ، ولم يكن الذين انهزموا أمامنا قد تجاهلوا أو نسوا هذه الهزيمة] حتى دخل الجنرال اللنبى القدس فى الحرب العالمية الأولى فقال [اليوم انتهت الحروب الصليبية] غير ناس ما أصيب به قومه من هزيمة منذ ٧٠٠ سنة كما أن الجنرال جورو الفرنسى عندما دخل دمشق ذهب إلى قبر صلاح الدين وقال له : [ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين] .

وأفاض رئيس الجمهورية فى خطبته المليئة بعبر الماضى ، والدافعة إلى التعبئة فى الحاضر من أجل المستقبل ، وظل سيادته يتدفق حماسة ، ويملأ النفوس شعورا بالنجاح والنصر على الاستعمار والصهيونية ، بعد أن أخذنا طريقنا السليم نحو [القومية العربية والسعى لإقامة المجتمع الاشتراكى التعاونى الديمقراطى الذى ترفرف عليه راية العدالة على الجميع والله يوفقكم والسلام عليكم ورحمة الله] .

إدكو Edqou - Edkou

مديمة قديمة لها تاريخ عريق ، وتقع بين رشيد والاسكندرية وهى إلى رشيد أقرب ، بينها وبين البحر نحو ألفى متر وهى على الشاطىء الشمالى لبحيرة إدكو.

ذكرها (جوتييه) (١) فقال إن أصلها القبطى : تكوبى Thkobi أو Tekebi) وفى مكان آخر يقول إن أصلها الهيروغليفى (تاج Tag) وهذا أيضا رأى شامبليون الذى قال إنها مدينة مصرية كان بها معبد الإلاهة (حتحور Hathor) ويقرب (بروكش Brugsch) (٢) بينها وبين (إدقو Edqou) الحديثة التى فى الشمال الغربى للدلتا ، أما (أميلينو) (٣) فيقول إن اسمها القديم الوارد فى كشف الأسقفيات باسم (إتكو) Tkôou ويرى أنها كانت تابعة لمقاطعة قديمة (تباشور Thebaschour) التى هى الآن (دفشو) .

ففى إقليم مصر الأول ذكر (رونسيير Roncière) أربع عشرة أسقفية كاثوليكية تتبع كنيسة الإسكندرية وكانت (منيلايس Ménelais) عاصمة إحدى هذه المقاطعات التى مقر أسقفيتها إدكو Edkou (٤) .

ويضعها سليم حسن (٥) باسم (إدكو) أو (تاجو) على الساحل الشمالى لبحيرة إدكو فى المقاطع « السابعة غرب » . التى سماها اليونانيون (ميتيليت Metelite) وهى — أى إدكو — من البلاد المصرية القديمة التى ظهرت بلفظها فى العربية مع التحريف ، ومعناها القديم (التل المرتفع) .

وذكرها (استرابون) باسم (أجنو Agnou) وهى من بلاد السواحل المصرية التى وردت فى كتاب (جورج القبرصى) ، وجاءت هكذا فى المخطوطات الاولى لابن عبد الحكم وابن حوقل . فلما طبعت هذه المخطوطات وردت هكذا (إخنو) ثم (إخنا) .

---

(١) H. Gauthier : Dict. des noms geogr· T: 4 P: 66., T:6 P: 37.

(٢) Dict. geogr,

(٣) Geographie,

(٤) Geogr. de l'Egypte : p : 201

(٥) أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى .

واختلف الكثيرون فى موقع (إخنا) ، كما اختلفوا هل هى (إدكو) حقا أما استرابون فيضع (أجنوكيراس Agnûcéras) بين مصبى الفرعين البولبتينى والسبنيتى ، أى بين رشيد والبرلس ، أما جورج القبرصى فيضعها عند مصب أحد الفروع القديمة للدلتا ، وقد حرفت فى قائمته فصارت (أجنا) ، وأوردها فى القرن الثالث الهجرى كل من الواقدى وابن عبد الحكم باسم (إخنا) ، ثم اليعقوبى الذى وضعها (١) على الساحل بين رشيد والاسكندرية باسم (مدينة إخنو) ثم يعود فى حديثه عن كور أسفل الأرض (٢) فيقول : إخنا ورشيد وقرطسا وخربتا وترنوط ومصيل ومليدس . وكلها فى الحوف الغربى كما نعلم .

وعلى هذا الرأى (ألفرد بتلر) إذ وضعها فى الحوف الغربى ، وقال إن (مدينة إخنا) (٣) ليست بعيدة عن الإسكندرية ، وقد حاصرها عمرو ، فلما تقدم حاكمها (طلما) ليتعرف ما على الواحد منهم من الجزية ، أشار عمرو إلى كنيسة قريبة بها وقال : [لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ، ما أخبرتك بما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثر علينا ، كثرنا عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم] فخرج طلما مغضبا إلى (الرملة) ولكن الله هزمهم ووقع هو فى الأسر ، ولما مثل بين يدى عمرو قالوا له : اقتله ، فرفض عمرو وقال : [لا بل أطلقه لينطلق فيجيئنا بجيش آخر] .

ومما يؤكد أن (إخنا) فعلا فى الحوف الغربى أن (بتلر) يقول إن عمرو بن العاص سار من الكريون نحو الشرق على ساحل النهر حتى وصل إليها ، وبعد استسلامها تقدم نحو رشيد ، فاصطلح مع صاحبها (قزمان) ، ثم مضى إلى البرلس فاصطلح مع حاكمها (حنا) ، وبعدها فتح العرب دمياط ، وبهذا استولى العرب على على جميع منافذ النيل ، وسيطروا على مصر السفلى .

ويذكر ابن خرداذبه كورة واحدة باسم « كورة إخنا ورشيد » (٤) ،

---

(١) البلدان : ح ٢
(٢) تاريخ اليعقوبى : ح ١ ص ١٠٣
(٣) فتح العرب لمصر .
(٤) المسالك والممالك .

وذلك فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، غير أنه فى مكان آخر يقــول [ومن البرلس إلى إخنا وهى حصن على شط بحر الملح - ومن إخنا إلى رشيد ٣٠ سقسا] كما أن قدامة بن جعفر (١) فى حديثه عن أعمال مصر وكورها فى أسفل الأرض ذكرها متجاورة وجعل إخنو مع رشيد .

أما ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى فقد ذكرها باسم (أجنا) أو (إخنا) ووضعها على الساحل بين رشيد والبرلس ، كما أن فراس المرادى جمع ثغور مصر شرق الأسكندرية فقال :

رشيد و (إخنا) والبرلس كلها ودمياط والأشتوم تقوى يغالبه

وفى القرن السادس الهجرى ، أورد أبو صالح الأرمنى ثلاث نواح فى آن واحد هى رشيد الجديدة وإدكو) فى (النستراوية) لا فى (البحيرة) ولا فى (فوة والمزاحمتين) . (٢)

وفى القرن السابع الهجرى ذكر ياقوت (٣) إخنا وأدفو وأتفو وأتكو . وقال إن إختا ويقال إخنو ؛ وفى بعض نسخ (فتوح مصر) بالجيم ، وعرف أن أهل مصر لا يعرفونها إلا بالخاء وأعاد ما كان قد أورده القضاعى عن موقعها فى كور الحوف الغربى إذ قال [كورتا إخنا ورشيد والبحيرة وجميع ذلك قرب الأسكندرية] ثم قال [وأخبار الفتوح تدل على أنها مدينة قديمة ذات عمل منفرد وملك مستبد ، وفى زمن الفتح كان صاحبها (طلما) الذى كان عنده كتاب من عمرو بالصلح على بلده]

وقال أيضا إن أدفو قرية بالصعيد وأخرى قرية فى كورة البحيرة ويقال أتفو ثم عاد فقال : اتكو : بليدة قديمة من نواحى مصر قرب رشيد .

وفى القرن الثامن الهجرى اعتبر الدمشقى (٤) كلا من إخنا ورشيد كورة مستقلة بينما تحدث عن (بحيرة أتكوا) وكتبت هكذا فى ص ١٢١ ، وكتبها

---

(١) الخراج وصنعة الكتابة : ص ٢٤٨ .

(٢) أخبار من نواحى مصر ص ١١ .

(٣) معجم البلدان : حـ ١ ص ١٠٣ ، ص ١٥٣ ، ص ١٥٦ .

(٤) نخبة الدهر ص ٢٣١ .

الناشر مهرن فى الهامش Lac d'Atcou وأمامها بالعربى (أتكو) بدون ألف ويذكر ابن دقماق (١) (إخنا) و (رشيد) على أن كلا منها كورة مستقلة ثم يذكر (أتقوا) هكذا فى صفحة ١٠٢ وبعد ذلك (أتكو) صفحة ١١٣ ، كما أن القلقشندى (٢) يتحدث عن كورة إخنا ورشيد والبحيرة باعتبارها إحدى كور الحوف الغربى ، ثم يقول [أما إخنا فمن الأسماء التى جهلت ، ولا يعرف بالبحيرة بلد اسمها إخنا وإنما أخنويه من عمل الغربية ، والعامة تقول إخنا] على أن القلقشندى (٣) لم يورد اسم (إدكو) مطلقا فى مؤلفه الضخم حتى إنه أخطأ فأطلق اسم (بحيرة بوقير) ويقصد (بحيرة إدكو) ، غير أنه يقول بصدد كور بطن الريف [كوره البجوم (بالباء) وهى من الأسماء المندرسة أيضا ، ولا يعرف مكان بالديار المصرية اسمه (البجوم) إلا أرض بأسفل عمل البحيره على القرب من الإسكندرية ، صارت مستنقعا للمياه المتصرفة عن البحيره] (٤)

واتفق ابن فهد والسخاوى على أنها [بلدة قرب الإسكندرية من الغربية] أى فى الحوف الغربى .

على أن المقريزى (٥) فى القرن التاسع الهجرى قد عد إخنا ثغرا مصريا للرباط فى سبيل الله وعاد فى مكان آخر فتحدث عن (كورة النجوم) وقراها ، ثم كورتى (إخنو) و (رشيد) فى الحوف الغربى ، وفى مجمل كور أسفل الأرض ذكر كورتى : إخنا والبحيره .

وفى سنة ٨٨٢ هـ زار السلطان قايتباى إدكو فى نزهته التى قضى فيها أربعين يوما زار خلالها دمنهور والإسكندرية وتروجة ودسوق (٦) .

أما ابن الجيعان المتوفى سنة ٨٨٥ هـ فقد ذكر (إتقو) (٧) من أعمال البحيره

---

(١) الانتصار جـ ٥ .
(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٨٧
(٣) نفس المرجع جـ ٤ ص ٣٠٧
(٤) نفس المرجع جـ ٣ ص ٣٨٧
(٥) الخطط : جـ ١ ص ٢٨ و ص ٧٣ .
(٦) ابن إياس : بدائع الزهور
(٧) التحفة السنية : ص ١١٨

فقال : [مساحتها ٥٥٠ فدانا ، عبرتها (متحصلها) كانت ١٥٠٠ دينار ، والآن بحق النصف ، كانت باسم الأمير: أقتمر عبد الغنى ، والآن للديوان المفرد] ثم ذكر من أعمال البحيرة أيضا أرضا [تعرف بالنجوم عبرتها ألفا دينار وقف أولاد الربعى] ولكنه عاد فى الحديث عن ثغر الإسكندرية (١) فذكر من أعمــــاله (إتكو) وعبرتها كانت ١٣ ألف دينار واستقرت الآن ١٢٨٣٠ ، كانت باسم الأمــــير بشتاك الأشرفى والآن للديوان الشريف السلطانى .

وعلى الرغم من اختفاء اسم (إخنا) تدريجيا بعـــد المقريزى إلا أن السخاوى (٢) قد قال صراحة : [إخنا بلدة قرب اسكندرية] ونسب إليها البهاء محمد الإخنائى وولده البدر محمد ، وكذلك أحمد بن التاج ، ثم الشمس محمد ، وهم طبعا من أعيان القرن التاسع الهجرى .

وفيما يلى يرى القارىء وثيقة يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٩٨ ﻫ أى منذ ٢٨٣ سنة ، وقد اخترت أن أنوه بأعلاها الذى ينص على أن السيد يوسف الحنفى كان يتولى القضاء بإدكو وأنه جلس بمحكمة ثغر إدكو بحضور محمد محمد قاسم وهو من طائفة مستحفظان (كاتم أسرار) قلعة مصر ، وبحضور على عبد الله كونه وعلى محمد زيتون : وكلاهما من طائفة الحصــــار المرابطة بثغر الإسكندرية زمن السلطان الأشرف ، وحضور غيرهم ممن ورد ذكرهم فى الوثيقة من أعيان إدكو ، وفصل القاضى فى المشكلة حتى أصدر حكمه [وجرى ذلك وحرر ، كما وقع وسطر ، وبه شهد فى ٥ ربيع الأول سنة ١٠٩٨ ﻫ] ويلاحظ القارىء أن عبد الله المؤذن الإدكاوى من الموقعين على « محضر الجلسة » وسنتناول ترجمته فى باب « أعلام إدكو » .

ومن هذه الوثيقة يتبين لنا أسماء عـــدد كبير من أهل إدكو ممن لاتزال ذريتهم إلى اليوم يحمـــلون لقب العائلة ، وما كان لهم من أدوار فى الوظائف ولاسيما المرابطة فى العصر العثمانى ، أيام أن آلت الدولة إلى أيدى المماليك ، ومع ذلك كان قضاة الشرع الحنيف يقومون بالفصل فى جميع المشاكل التى تنشب بين

---

(١) التحفة السنية : ص ١٢٨

(٢) الضوء اللامع : جـ ١١

الأهلين ، وكان هـؤلاء القضاة يتولون مناصبهم باسم قاضى القضاة ، وتعتبر هـذه الوثيقة نموذجا لقضية عرضت للقاضى ، فأصدر فيها حكمه بما يوجبه الشرع فى بلد مثل إدكو كان منذ نحو ٣٠٠ سنة ثغرا من الثغور ، وبه محكمة شرعية ، واليوم يسعى أبناء إدكو إلى رشيد والإسكندرية ودمنهور للتقاضى ، وقد بلغوا اليوم خمسين ألف نسمة ، وتعددت مشاكلهم .

كما أن المقريزى وضع النقط فوق الحروف فقال صراحة : [وفى الوجـه البحرى مدينة النجوم ، وقد غلب على مدينة النجوم ، الرمال والسباخ ، ويعرف اليوم منها اليوم قرية إدكو على ساحل البحر بين رشيد والاسكندرية] (١)

ونص البكرى (٢) صراحة على وجود « كورة إدكو ورشيد » التى عدد قراها ٢٧ ، ويؤكد عمر طوسون (٣) أن إخنا هى إدكو ، غير أن أصحاب التراجم قد ذكروا لنا بعض الأعـلام باسم الإدكاوى والبعض الآخر باسم الإخنائى ، ولهذا آثرنا الفصل بينهما فى الفصل الذى خصصناه للأعلام .

وفى أواخر القرن الماضى يتحدث على مبارك(٤) عن إدكو بإسهاب يقرب كثيرا مما كتبه موتسنجر (٥) ، فهى قرية كبيرة من مديرية البحـيرة بقسم دمنهور ، وكانت تابعة لمحافظة الإسكندرية تارة ، ولمحافظة رشيد تارة ولمأمورية بلاد الأرز تارة أخرى ، وقدرت المسـافة بينها وبين رشيد بساعتين وأربع ساعات عند موتسنجر ، وبينها وبين الإسكندرية نحو ست ساعات ، وبها جوامع وطواحين هواء ومعمل فسيخ ودكاكين وأنوال لنسج الحرير الإسكندرانى والملس والملايات من القطن والكتان ، وبها أشجار كروم ونحو سبعين ألف نخلة ويزرع بها البطيخ وأنواع القثاء ، وأهلها يصيدون السمك من بحيرتها ويزرعون

---

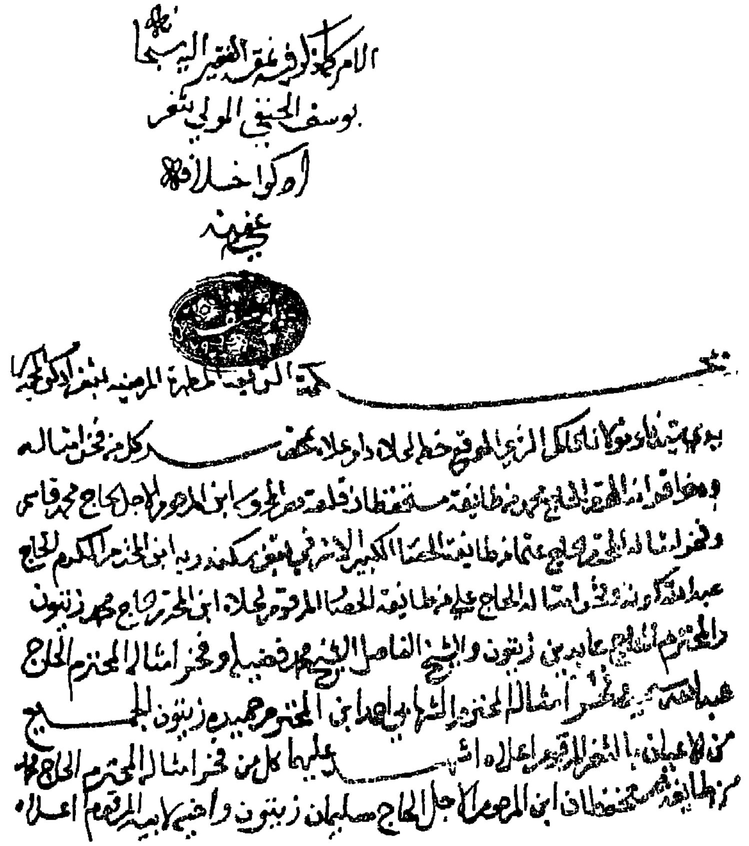
(١) الخطط : حـ ١ ص ١٠٦

(٢) الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة .

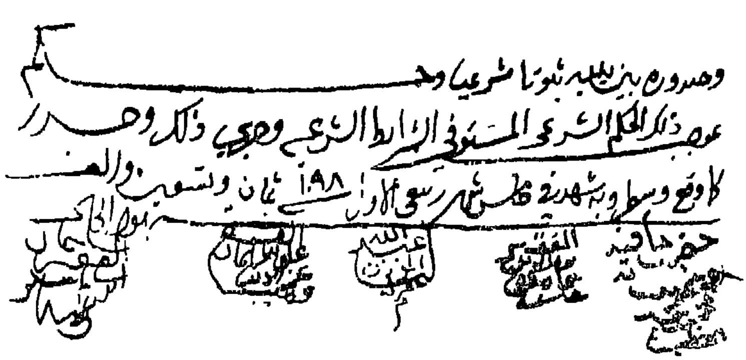
(٣) La Geogr. de L'Egypte à l'époque arabe T : 1. lére Partie P. 24.

(٤) الخطط التوفيقية حـ ٨ ص ٥٠

(٥) جغرافية مصر .


الامر كما ذكر فيه نمقه الفقير اليه سبحانه
يوسف الحنفي المولى بثغر
ادكو خلافه
عفي عنه

الجزء الأعلى من الوثيقة التاريخية الصادرة من المحـكمة الشرعية بإدكو


وصدور ذلك لديه ثبوتا شرعيا وحكم
بموجب ذلك الحكم الشرعي المستوفي الشرائط الشرعية ... ذلك وحرر
... ربيع الاول ١٠٩٨ ثمان وتسعين والف

الجزء الأخير من الوثيقة وتاريخها ٥ ربيع الأول سنة ١٠٩٨ هـ ،
وعليها توقيع عبد الله المؤذن (الإدكاوى)

رمالها ويتجرون فى فاكهتها وبلحها ، ويشربون من حفائر فى الرمل لبعدها عن النيل ومنهم مراكبية وقد استولت الرمال على أرضها ، ومن عوائد أهلها ألا تخرج النساء إلا ليلا متحجبات ، ومن مظاهر نشاط رجالها ألا يعود أحدهم إلى منزله إلا ومعه شيء وإلا وضع حجرا أو ترابا فى مقطفه أنفة من أن يرى فى حالة كسل أو بطالة ، وهى منشأ لجماعة من العلماء ، عرفنا بعضهم ؛ ولا نزال نجهل الآخرين مع كثرة مساجدهم وقبابهم بها .

هناك مثلا مسجد داود ، وقد أخبرنى الشيخ حسن المسلمى أنه هو خلف بن محمد بن مسلم بن داود بن مسلم الأكبر بن سليم أبى مسلم الهمدانى العراقى بن أبى يعقوب يوسف الهمذانى الذى يرجع فى أصله إلى جعفر الصادق .

ولكن من أين لنا هــذا وما مولده وما وفاته وأين ولد ونشأ وأين مات ودفن ؟ ..

هناك أيضا قباب السادات العراقية التى بنى ملاصقا لها من الشمال مباشرة المسجد المعروف بهم : فمن هم السادات العراقية هؤلاء ؟

قال السخاوى صاحب « تحفة الأحباب » فى حديثه عن على الجبرتى [وابتنى فى سنة ٨٧٨ ﻫ بإدكو جامعا ودفن به الشيخ عبد الرءوف والشيخ عبد القادر من مشايخ الطريقة القادرية] أى أنهما من ذرية السيد عبد القادر الجيلانى المدفون ببغداد ، وكان الشيخ على الجبرتى هذا أحد علماء الأزهر الشافعية، وأحد المذكرين على الطريقة القادرية التى أخذها عن الشيخ نفل القادرى ببغــداد وكان يسكن الأزهر وتوفى سنة ٨٩٩ ﻫ ودفن بحوش سيدى عيسى .

ثم إن هناك جامع الجبرتى على كوم الطواحين فى شمال إدكو ، وهو غير جامع العراقية الذى يقع منه فى الجنوب الغربى .

وفى ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٠ نشرت جريدة الأهرام أن وفدا من شعبــة الإسكندرية المشتغلة بجمع الإعانات للأسطول العثمانى قد انتقل إلى إدكو ،وكان يوم جمعة ، فخطب الخطبــة المنبرية فى جامع سيدى إبراهيم (بن عمر) وتبرع المصلون بمبلغ ٣٥٠ قرشا ، وتأسس بإدكو فرع للشعبة .

وتعتبر إدكو أول مدينة فى البحيرة حظيت بعناية كثير من المؤلفين عنها

ولا سيما بعد أن وضعت كتابى « إدكو : ماضيها ، حاضرها ، مستقبلها » سنة ١٩٣٥ فقد وضع اللواء عبد المنصف محمود (باشا) مدير عام مصلحة خفر السواحل الأسبق كتابه « على ضفاف بحيرة إدكو » ثم وضع الأستاذ محمد محمود محمد رسالة عن « الخدمات الاجتماعية والاقتصادية اسكان إدكو » سنة ١٩٤٨ ، كما تقدم الأستاذ بشرى لبيب كيرلس برسالة عنوانها « الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية لإقليم بحيرة إدكو » لنيل درجة الماجستير من جامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وقد نشرت عدة أبحاث عن إدكو فى الصحف والمجلات أشرت إليها فى مراجع الكتاب .

وقد اشتهرت إدكو بصيد « أم الخلول » من البحر ، وهى حيوان يتكون من داخل المحار الصغير الذى يشبه اللؤلؤ ، وله سرعة الحركة فى ثنايا الرمل على الشاطىء ، وإذا حاول الإنسان فتح محارتيه استصعب عليه ، ولكنهم يضعون أم الخلول فى الملح والخل والليمون ويتركونها يوما أو أكثر حتى يسهل فتحها ثم يأكلونها ، وقد حاول الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى أن يعلل تسميتها فقال [وكنيت بأم الخلول لتواتر الملح والخل والليمون عليها عند الأكل](١) غير أن السبب الحقيقى هو أنها تتخلل رمال الشاطىء وتندس فيها على مسافة عدة أمتار فى البحر وعلى عمق ما لايزيد على شبر تحت القاع الرملى .

وقد وصف إدكو المستر فورستر Forster فى كتابه (الإسكندرية Alexandria)(٢) عام ١٩٣٨ م وأشار إلى عدم وجود فندق أو ملهى بها ، ووصف منازلها المبنية من الطوب الأحمر تعلوها أحطاب النخل، وأبوابها المتوسطة من أعلاها على النمط الإيطالى ولفت نظره طواحين الهواء المقامة على التل لمعروف عندهم بكوم الطواحين ، ولكل طاحونة ثمانية أشرعة ، وشرب أهلها من آبار فى الرمال ، وبها مصانع نسج الحرير المستورد من الصين أو فرنسا أو سوريا ، ويسميها الأهالى (العلى) لأنهم يخصصون الحجرات العليا لذلك

---

(١) هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ص ١٦٢

(٢) ص ١٧٣

ويصعدون إليها بسلالم من خارج المنزل ، والأنوال ساذجة ، غير أن الأنسجة متينة تدل على مهارة الصناع .

على أن مياه الشرب النقية لم تدخل بيوت إدكو إلا منذ سنة ١٩٢٧ عقب مد الطريق الزراعى من الإسكندرية إلى رشيد مارا بها ، بعدة سنوات ثم أنشىء بها مجلس قروى ثم تحول إلى مجلس محلى ثم إلى مجلس بلدى .

وكان من المألوف فى صيف كل عام أن يستقل الملك فؤاد قطارا ملكيا من الإسكندرية إلى إدفينا ليتفقد مزارعه الملكية بها ، وكان القطار يتوقف قليلا عند محطة إدكو حيث يتقدم أعيان إدكو وفى مقدمتهم مدير البحيرة لتحية الملك ، وظل هذا حتى عام ١٩٣٤ ، وكان الطريق يحاط بالحراسة الشديدة قبل الذهاب وبعد الإياب بأيام ، وفى خلال ذلك تقام الزينات وتنتعش إدكو اقتصاديا ويتهافت الضباط والجنود والخفراء على أكل السمك والفسيخ مما اشتهرت به إدكو .

وفى سنوات الحرب العالمية الثانية ، وبحكم معاهدة سنة ١٩٣٦ مع الإنجليز ، سمحت حكومة مصر للإنجليز باتخاذ المساحات الواقعة ما بين إدكو والمعدية مطارات للإنجليز . فلقى الأهلون من ذلك كل الأذى من شن الغارات الجوية عليهم ومن دهسهم بسياراتهم وهم يقودونها مخمورين أو مستهترين ، ومن تدخل جنود الهنود فى حرية الجزارين فى ذبح ما أحله لنا الإسلام ، ولهذا تكونت فرق الفدائيين للفتك بالإنجليز وهم فى خيامهم يغطون فى نومهم ، أو سلب ذخائرهم .

وقد زار إدكو كثير من رؤساء الوزارات والوزراء السابقين منهم إسماعيل صدقى ، ومصطفى النحاس ومكرم عبيد ومحمود فهمى النقراشى ، وعبد الفتاح يحيى ، ولكن الثورة قد أولتها عنايتها عندما زارها السادة عبد اللطيف البغدادى وأنور السادات وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم يوم ٣١ مارس سنة ١٩٥٣ بمناسبة إحياء ذكرى انتصار أهالى إدكو ورشيد على الإنجليز فى حملة فريزر سنة ١٨٠٧ فأقيم سرادق عظيم ، قلت فيه كلمة إدكو لرجال الثورة ، وألقى فى الحفل السيد عبد اللطيف البغدادى كلمة الثورة وفى هذه الصورة تذكار لهذه الزيارة الكريمة .

ثم حظيت إدكو بزيارة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية مرتين ، وخطب فى أهلها مرتين ، كانت الأولى فى ٢٨ يوليو سنة ١٩٥٩ ، والأخرى فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩ لتوزيع أراضى بحيرة إدكو التى جففت، على الأهلين



رجال الثورة فى إدكو

السادة :

حسن ابراهيم

وأنور السادات

وعبد اللطيف البغدادى

وكمال الدين حسين

احتفالا بيوم النصر فى رشيد وإدكو

لزراعتها ، وقد شهدت هذا الحفل الكريم واستمعت إلى الخطبة الرائعة التى ارتجلها السيد الرئيس ، كما أقام السيد وزير الإصلاح الزراعى مأدبة غداء للسيد الرئيس ونوابه ووزرائه وضيوفه فى سرادق كبير .

وفى الخطبة التى ألقاها السيد الرئيس أعاد إلى الأذهان ما حققته الثورة للشعب من مكاسب فى القضاء على الاستعمار والإقطاع والحزبية من أجل بناء المجتمع الثورى الجديد فى ظل المحبة والتعاون والوعى والإيمان ثم قال سيادته

[وإننا اليوم أيها الأخوة المواطنون بعد سبع سنوات نشعر أننا قد قطعنا المرحلة التى كنا نهدم فيها آثار الماضى البغيض ونجحنا فى الخروج من هذه المرحلة بوحدة وطننا ووحدة شعبنا تجمعنا جميعا راية الإخاء والمحبة .



كلمة إدكو أمام رجال الثورة يلقيها المؤلف

وعلينا أن نتجه إلى المستقبل بعزم وتصميم وإيمان لنعمل ، حتى نعوض ما فاتنا ثم نعمل لنرفع من مستوى معيشتنا ولن يمكن بأى حال من الأحوال أن نرفع من مستوى معيشتنا إلا إذا عملنا العمل المستمر ، إلا إذا عرقنا

عرقا مستمرا ، وإننا لا يمكن بأى حال من الأحوال أن نرفع من دخلنا إلا إذا عملنا عملا مستمرا ..] .



كلمة السيد عبد اللطيف البغدادى فى إدكو

وقد انتهزت هذه الفرصة وقدمت كتابى « إدكو » إلى السيد الرئيس فتلقاه سيادته بيده الكريمة ، وحظيت بشكر منه ، كما أنى سجلت مشاعرى عن هذه الزيارة فى القصيدة الآتية :

أقبلت وفى يدك البشرى ... ورجعت تسوق لنا الخيرا
وحللت .. فعمتنا الأفراح ... فشكرا لك شكرا شكرا
وثغور النـاس لك ابتسمت ... ولغيرك ما أبدت بشرا
أنت المأمول لنجدتنـا ... ياقائد نهضتنا الكبرى
ألقى التاريخ صحائفه ... ومضى يكتب عنا سطرا
(إدكو) لما أن شرفها ... (عبد الناصر) زادت قدرا

إدكو .. غيرت معالمها ... فانقلبت تربتها تبرا
وأمرت فسقت البحر لها ... بالخير .. فلم يعص الأمرا
ونزلت .. يرافقك الإصلاح ... فجئت بخيرات تترى
والأرض بلقياك اخضرت ... والثغر تبسم وافترا
ومشيت على الحطب المصفر ... فأضحى أغصانا خضرا
حطمت القمقم ياعملاق ... فمنذا علمك السحرا

ياصاحب ثورتنا العذراء ... رددت لنا (إدكو) بكرا
و (بحيرة إدكو) من فرح ... بقدومك نشوى أو سكرى
ظلت لزيارتك الأولى ... تهفو .. وزيارتك الأخرى
والصيادون بك انتعشوا ... بدلت تعاستهم يسرا
ومددت إلى الفلاح يدا ... ردته من عبد حرا
والبحر هنا .. والنيل هناك ... و (إدكو) بينهما حيرى
دعني أحكى لك عن بلدى ... ولقد أوتيت به خبرا
هذى الأسطورة من زمن ... تروى للعبرة والذكرى
ضاق الشيطان بنا ذرعا ... وعيينا نحن به صدرا
فأتى إدكاويا كهلا ... زاد على المائتين عشرا
قال له : افتل لى حبلا ... من رمل أجعله ذخرا
فأجاب : إذن سنسر وأنا ... أفتل .. وكفانى عذرا
وانخذل الشيطان المكار ... وزاد الإدكاوى مكرا

إن الشيطان هو الإقطــاع استفحل فينـا واستشرى
وقضينـا الدهر نحــاربه ونزفنـا فى الحرب العمـرا
لم نعرف لقنـوط معنى وقهرنا بالأمـل الفقـرا
السخرة هـدت أعظمنا وشربنـا العلقم والمـرا
قد كان لنـا فى زمن الروم حـدائق نزرعهـا قسرا
وكـروم الوادى أعطـوها لامرأة (مقوقسهـم) حكـرا
بعثوا عرق الفـلاح إلى (روما) لاذهبـا بل خمرا
وعجزنا عن دفع الأموال لحـكام قد فجروا فجـرا
فأمالوا البحر عـلى الوادى فاجتـاح الكرمة والقصرا
وابن السلطـان على الإيوان ينافس قيصـر أو كسرى
أوقع بمشايخنـا (مينو) و (فريزر) أفناهم غـدرا
طلبوا الحـرية فانتفضـوا والثورة أنت بهـا أدرى
والأرناؤط هنـا اتخـذوا مصـرا لمآربهم جسـرا
ولـكم ضقنـا بقراصنـة لم يدعوا بحـرا أو برا
وأعـز الله كنـانتنـا فارتدوا قتـلى أو أسـرى
هم عبدوا (هبلا) و (العزى) و (مناة الثالثة الأخرى)
ياموسى .. فرعـون تمـادى فاضرب بعصـاك لنـا البحرا

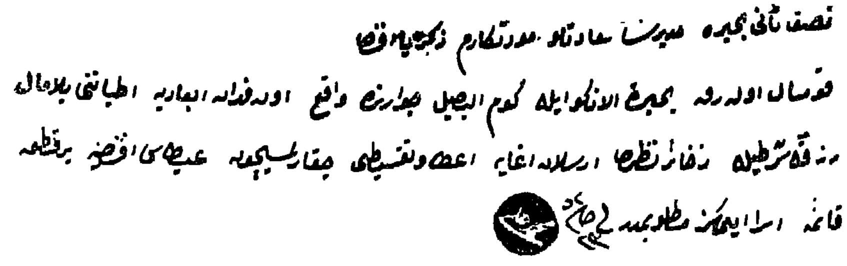
دعـنى بفعـالك أتغـنى للدنيـا نثرا أو شعرا
أو لست زعـيم عروبتنا ومحقق وحـدتنـا الـكبرى
أو لست محرر (إفريقيا) ومحطم طغيـان (إنجلترا)
أو لست عـدو الاستعمار حفرت لمصـرعه قـبرا
(باريس) و (تل أبيب) و (لندن) عادت لم تقهر مصـرا
وزحفت زمانا ومـكانا وقهرت مصـاعبنـا قهرا
أصلحت فـلم تترك أرضـا دون العمـران ولو شـبرا
وقضيت على الإقطاع .. فما أبقيت لمحتـكر ذكـرا
فجرت الصخـرة فانبثقت بالمـاء وعمـرت الصحـرا

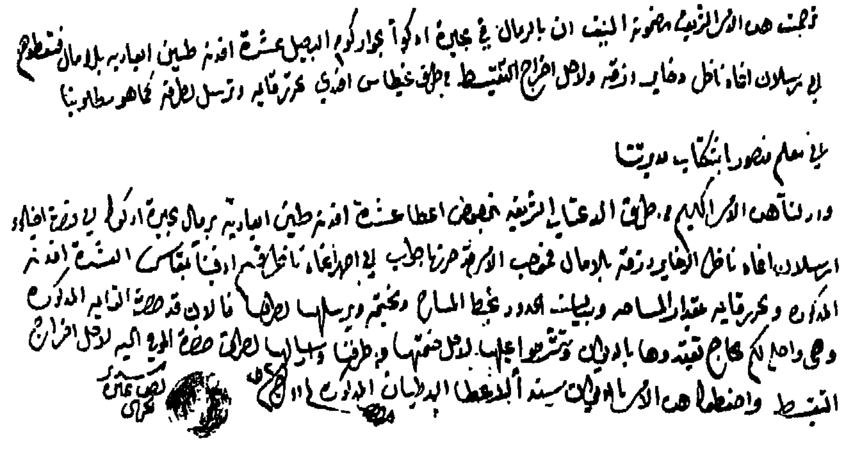
ونشــرت بذور الثــورة من أقصى (باندونج) إلى (أكرا)
ماملت إلى دول الأحـلاف الـكبرى منهــا والصغـرى
وبعثت العزة فى الأحـــرار فولى الغــاصب مضطـرا
وانتفض الشعب . فما أحنى رأســا للبـــاغى أو ظهرا
أعلنت سياستك الوضـاءة للدنيـا جهرا .. لا سـرا
وأتى أسطـول المنتفعـين فـلم ينطـح إلا صخـرا
جاءوا بشيـاطـين حمــر فافتقـدوا المخـلب والظفـرا
لما وطئوا أرض الأحرار رأوهـــا تتلظى جمــرا
والبيعـــة بدمانا كتبــت وعليهـــا لانبغى أجـــرا
وكفـــــانا أنك قائدنا تـكسبنـا العزة والنصـرا
أبقـاك الله لنـــا ذخـرا يامن أطلعت لنا الفجرا
فامنن بالنـور عــلى بلدى يجـــزيك الله به خــــيرا

وشتـان بين عهدين : عهـد الثورة حيث يأتى قائدها بنفسه إلى إدكو ليوزع بيـده على أهلها سندات تمليك أراضى البحيرة بعد تجفيفها ، وبين عهـد الإقطاع الذى أقامه محمد على منذ ١٣٠ سنة ، حيث يمر فى طريقه إلى رشيـد ، فيرى تلك الأرض الواقعـة شرقى الـكوم الأحمر (الطابية الحمراء) و (طابيـة الإشارة) تلك الأرض المعروفة قديما (بـكوم البصيل) فيصدر أمره بضمها إلى (أبعادياته) ثم يمنحها رزقه لأحـد أغاواته وهو أرسلان أغا ناظر ذخائر الإسكندرية سنة ١٢٥٢ هـ ويتولى أرسلان عدة مناصب فيصبح محافظا على رشيد وتمضى عشرات السنوات ، وهو لا يدرى كيف يضع يده على هذه الأرض ، وهذه صورة من الأمر الذى أصدره محمد على بالتركية وتحته ختمه ثم ترجمته بالعربية المتركة .

وتنص الترجمة العربية الركيكة لهذا الأمر على ما يأتى :

[ترجمت (ترجمة) هذا الآمر الشريف مضمونه أن بالرمال فى بحيرة إدكو ، بجوار (كوم البصيل) عشرة أفدنة طين أبعادية بلا مال (أى معفاة من الضريبة) فتعطوهم إلى رسلان أغا ناظر ذخائر رزقة (= هبة) ولأجل إخراج التقسيط من طرف غيطاس أفندى تحرر قائمة وترسل لطرفه كما هو مطلوبنا] .



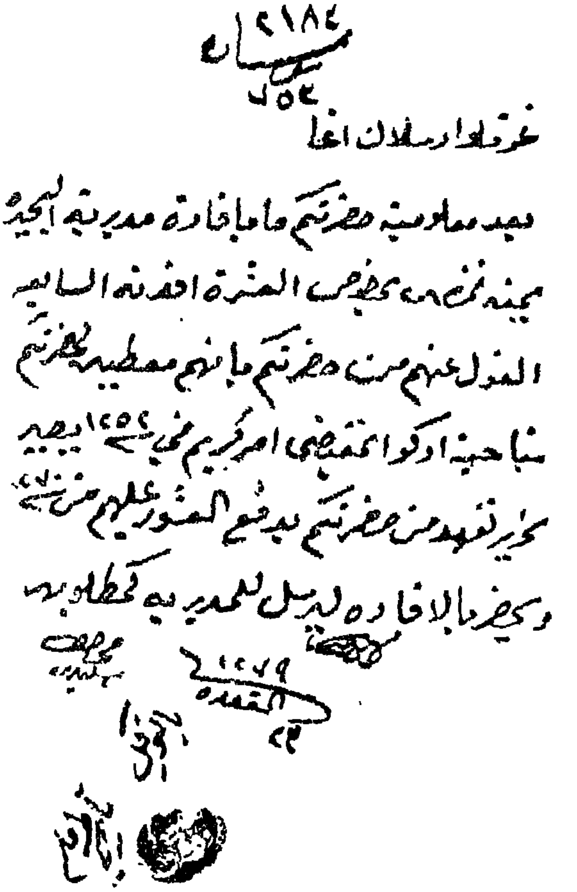


نص الأمر التركى الذى وقع عليه محمد على بختمه فى ١٢٥٢ بمنحه عشرة أفدنة لأرسلان أغا، ثم ترجمته العربية ، ثم مكاتبة مدير نصف البحيرة بحرى إلى المعلم منصور باشكاتب المديرية لاتخاذ اللازم .

وقام بدوره مدير نصف البحيرة البحرى كما هو ظاهر من الكتابة المجاورة لختمه فى الخطاب السفلى فكتب إلى باشكاتب المديرية ، لكى يقوم أحمد أغا ناظر قسم (مركز) إدفينا بقياس (الرزقة الممنوحة لأرسلان أغا ، وإجراء ما يلزم تمهيدا لإخراج التقسيط) .

وتمضى سبع وعشرون سنة وأرسلان أغا يتقلب فى المناصب ، وتستمر المكاتبات بينه وبين الحكومة لتمكنه من استلام الأفدنة ، حتى يتسلم من محافظ الإسكندرية كتابا فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ ؛ بأن يتعهد بدفع العشور من

سنة ١٢٧٠ هـ ، مع أن الأرض لا تزال رملية غير منزرعة ، ولم يتسلمها حتى ذلك التاريخ .



مكاتبة من محافظ الإسكندرية إلى عزتلو أورسلان أغا فى ٢٣ القعدة سنة ١٢٧٩

نعم شتان بين الأبعاديات التى استأثر بهـا محمد على ، وبين الأرض التى يأتى جمال عبد الناصر ليوزعها على الشعب ، لا على الأغاوات والأ لاضيش .

وجاء السلاطين والملوك إلى البحيرة للصيد والنزهة ، ويجىء جمال عبد الناصر فيقضى على الإقطاع المزمن ، ويصبح المصرى سيدا فى أرضه ، بعد أن كان عبدا للملتزم ، أو (فلاح قرارى) كما كانوا يسمونه .

نقراطيس Naukratis

مدينة يونانية قديمة يتكون اسمها من كلمتين : نافس (= ملاح) + كراتوس (= السيطرة) وينطقان معا (ناف كراتوس) أى مكان السيطرة على الملاحة ، ونقراطيس كانت ميناء نيليا له السيطرة على الفرع الكانوبى ، فكانت التجارة المصرية تمر به فى طريقها إلى بلدان البحر الأبيض ، وقال إرمان إن نقراطيس معناها « مدينة الميناء » .

أورد ذكرها هيرودوت واسترابون وقال جوتييه إن اسمها المصرى القديم (نوكارت Naukart) والرومانى نوكراتيس Naucratis ، وذكرها أمليىنو باسم (Naukratis) وقال إنها وردت فى كشف الأسقفيات باسم (أنوكراشيا Anaukrateia) ، واندثرت هذه المدينة ، وقامت على أطلالها كوم جعيف التى أطلق عليها العرب فيما بعد (نقراش) ، وقد ذكرها ابن مماتى فى أعمال حوف رمسيس . وذكرها ابن الجيعان من أعمال البحيرة .

ويرجع تاريخ (نقراطيس) إلى أبسماتيك الأول أمير سايس ، ومؤسس الأسرة ٢٦ المصرية سنة ٦٥١ ق.م ، حيث كان وادى النيل مهددا بخطر الأشوريين ، فاستعان بالملطيين واليونانيين من سكان جزر بحر إيجه ، فجاءوا إلى مصر عن طريق كانوب ، وأقام لهم معسكرا عند (ماريا Marea) قرب كانوب ، وآخر عند (دفنه Daphine) قرب السويس ، وبهذا اتخذ الحيطة لصد هجمات الأشوريين من الشرق ، وهجمات الليبيين من الغرب .

وكان ميناء نقراطيس مصريا خالصا فيما قبل سنة ٦٧٠ ق م ، وكان السكان يقطنون بيوتا من الطوب ، ولهم حامية مصرية ، وحقولها ومزارعها منتشرة حولها ، وكانت تابعة لمقاطعة سايت التى قاعدتها (سايس) ، وكان بها مقر التجار القادمين من ملطية ، فصارت فى عهد أمازيس المركز الوحيد لتجارة الإغريق مع مصر ، لهذا أسهموا فى عمرانها ، والتصقت مساكنهم بمساكن المصريين ، وأنشأوا معابدهم بجوار المعابد المصرية ، فكان معبد (زوس) للإيجيين ، ومعبد (أبولو) للميليزيين ، ومعبد (هيرا) لأهل ساموس كما سمح أمازيس للإيونيين بإقامة هيكل (الهلينيون Hellenion) وهم الذين كان لهم الإشراف على سوق المدينة

وأقام الميليزيون سورا على الميناء فيما بين ٦٢٤ و ٥٨٥ ق.م ، ومعبدا كبيرا لأفروديت ، وكانت الشوارع عريضة وأرجاء المدينة واسعة .

واندمجت هذه العناصر جميعا بعضها فى بعض ، وصارت إدارة المدينة بيد الجميع دون تفرقة،وكان مجلس أعيان نقراطيس يسمى (تيموخوا Timouchoi) وفى زمن بطليموس الرابع كان (الكومون Comon) المندوب المالى بالمدينة .

وقد وصف (هرمياس) أحد معاصرى أفلاطون المآدب التى كانت تقام بدار (البريتانيون) فيما قبل البطالمة ، وسادت هذه النظم طويلا ، ونقراطيس متمتعة باستقلالها ؛ ولها مراسم خاصة تمنحها كهنتها ، فباسم نقراطيس ، منح كاهن المدينة وحارس عقودها ، وهو المنوط به معبد الإلاهة (أثينا) تشريفة .

واحتفظت نقراطيس بحضارتها وثقافتها الوافدتين من بلاد الإغريق ، فأنجبت عددا كبيرا من الأدباء فى عهد اليونان والرومان ، ولكن العنصر المصرى قد بدأت الغيرة تدب فى صدره ، كلما رأى العنصر الأجنبي يزداد نفوذا ، وتدارك (أمازيس) ذلك بأن قصر الملاحة النيلية فى الدلتا على الفرع الكانوبى ، وصادر كل من يخالف ذلك ، وبهذا زاد نجم نقراطيس تألقا ، إذ أخذ رجال الأعمال يفدون عليها من بلاد اليونان ، وازدهرت بها صناعات شتى : الزجاج والفخار والتماثيل ، ووصف هيرودوت فتيات نقراطيس وهن رائحات غاديات فى المدينة وقد شهد ذلك بنفسه حوالى سنة ٤٤٨ ق.م ، وكانت (دوريخا) عشيقة (كراكسوس) قد سمعت بفاتنات نقراطيس فسارعت بزيارتها ، وكذلك (رودوبيس) الفاتنة ، قدمت خصيصا من (تراقيا) لهذا الغرض ، أما الإغريق فقد وجدوا فى ملاهى نقراطيس مرتعا خصبا .

وظلت نقراطيس مركز إشعاع للحضارة المصرية الممتزجة بالحضارة الإغريقية على الرغم من غزو قمبيز لمصر سنة ٥٧٥ ق.م ، فقد فتحت سايس له أبوابها ، ولكنه ما لبث أن قلب للمصريين ظهر المجن .

وعند ما أسس (نقطانب الأول) الأسرة الثلاثين (٣٧٨ - ٣٦٠ ق.م) فرض غرامة مالية على نقراطيس تأديبا لها على موقف أثينا واليونانيين منه وجنوده المرتزقة الذين انضموا إلى الفرس مما عاد على مصر بالكارثة الفادحة ،

ولما تولى نقطانب الثانى أمر مصر أغدق على كهنة سايس فخصص لهم العشر من الضرائب التى كانت تجبى من نقراطيس .

ولما فتح الإسكندر الأكبر المقدونى أرض الفراعنة سنة ٣٣٢ ق.م ، وجد فى نقراطيس أكبر ميناء تجارى يربط بين الحضارتين ، وعلى الرغم من سيادة الطابع الإغريقى فيها ، وشهرتها الثقافية والتجارية ، إلا أنه مر بها عبر الفرع الكانوبى ، فى طريقه إلى (راقوده) قرية الصيادين والرعاة حيث الآن (كوم الشقافة) فلم يجد خيرا منها مكانا لتأسيس مدينة جديدة تحمل اسمه وتجمع بين الشرق والغرب ، وسماها الإسكندرية .

ومنذئذ أفل نجم نقراطيس ، ولما جف الكانوبى اندثرت معالم حضارتها ، ولم تعد غير أطلال وأكوام ، فسميت تل نقراش وكوم جعيف ، وظلت البعثات الأثرية تعمل لاكتشاف ماضيها ففى سنة ١٨٨٥ م اكتشف جاردنر Gardner جبانتها بالقرب من شمال تل نقراش ، ولا تزال بقاياها بالقرب من قرية نبيرة .

وذكر جورج القبرصى كورة نقراشيا Naucrateia كإحدى كور الدلتا البالغ عددها ثلاثا وثلاثين كورة قبيل الفتح الإسلامى ، ويتبين لنا ذلك جليا فى الخريطة التى بها التقسيم الإدارى لغرب الدلتا ، نقلا عن معلوماته .

هرقليوم Heracleium

تقع هذه المدينة القديمة فيما بين أبو قير والمعدية ، على ساحل البحر ، ونرجح أنها اليوم أطلال نطلق عليها اسم (الطابية الحمراء) التى تمثل لنا بقايا العمران فى الميناء الشرقى لفرع كانوب المندثر .

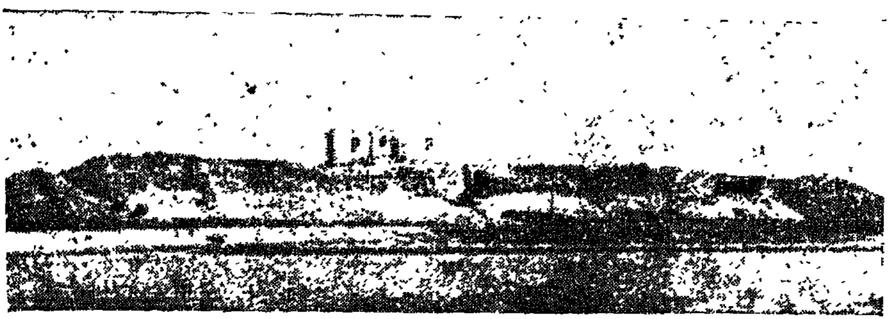
وقد أقيم فى هذا المكان معبد لهرقل سمى (الهرقليوم Heracleium) ، كان يحج إليه المصريون القدامى ، وكثرت حوله المبانى فأصبحت مدينة عامرة ، وسمى فرع النيل لشهرتها بالهرقلى .

وفى أثناء الحرب بين أسبرطة وطروادة ، ركب باريس Paris ملك طرواده وهيلانه Helen التى اختطفها من زوجها منيلاوس زورقها ، فألقت به الرياح على شاطىء البحر أمام مدينة هرقل ، فلم يجدا لهما مأوى غير المعبد القائم يومئذ

على الشاطىء القريب من الفرع الكانوبى ، ولكن (تونيس Thonis) الحاكم المكلف بحراسة مصب النيل عند كانوب ، قد أرسلها أسيرين إلى ممفيس : . ليرى الملك المصرى (بروتيوس Proteus) فيهما مايراه .

وفى الصورة التالية صورة لبقايا هذا المعبد القائم الآن أطلالا فى أحضان (الطابية الحمراء) أو (الكوم الأحمر) ، وهو تل قديم ، من المرجح أنه القلعة القديمة التى كانت على الضفة اليمنى للفرع الكانوبى .

وفى أعلى التل كما يبدو فى الصورة مبنى حديث يقيم به حراس « سد أبو قير » كما تبدو أيضا فى غربه مياه متخلفة عن المطر والرشح ، يمتلىء بها المجرى القديم للفرع الكانوبى المندثر .



بقايامعبد الهرقليوم

وعلى ذلك نستطيع أن نحدد تاريخ هذا المعبد بما قبل القرن الثانى عشر قبل الميلاد ولهذا ورد ذكره على لسان هيرودوت وهو الذى زار مصر مبتدئا من مصب الفرع الكانوبى ، وقد أطلق عليه استرابون (الفرع الهرقلى) وذكر قيام تلك المدينة من حوله بل قريبة كل القرب منه ، وعلى ضفته الغربية على وجه التحديد .

أما هرقل ، فقد روى أنه جاء مصر ، فسخر منه المصريون ، وساقوه فى كرنفال ساخر إلى معبد آمون ، ليقدموه قربانا له ، فتظاهر بالخضوع لمشيئتهم ، حتى إذا وصلوا به إلى المذبح ، أمعن فى الكهنة تقتيلا وتذبيحا ، فأفنى عددا كبيرا منهم ؛ فآمن المصريون بألوهيته ، وأقاموا له هذا المعبد ، ثم خلطوا فيما بعد

بين عبادته وعبادة الإله (خنسو) ثم (آمون) .

وكان لمعبد الهرقليوم قدسية كبرى عند المصريين ، فما كان يحل لسيد أن يطارد عبدا له أوى إلى رحاب هذا المعبد ، فما كان أكثر العبيد الهاربين من أسيادهم . . فى رحاب هرقل . .

غير أن هوميروس فى الإلياذة ، قد ذكر أن الربان (كانوبيس Canopus) قاد سفينة (منيلاوس) ملك أسبرطة فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد بعد حروب طرواده ، فألقت مراسيها على هذا الشاطىء فقد جاء ليسترد هيلانه زوجته الحسناء التى اختطفها خصمه (باريس) فتلقاه (تونيس) بالبشر والترحاب ، وأبلغ ملك مصر بذلك ، فدعاه إلى ممفيس ، وكان قد احتجز بها باريس وهيلانه . فلما حضر ، تسلم زوجته وانصرف .

وكان أسرى حروب طرواده ، قد احتموا بقدسية معبد هرقليوم ، فأكرم الكهنة المصريون وفادتهم ، فجددوا مبانى هذا المعبد اعترافا منهم بفضل الكهنة عليهم . . ولهذا أخطأ بعض المؤرخين فقالوا إن هؤلاء الأسرى هم الذين أقاموه .

وكانت تماثيل (ايزيس) أم (هوريس) ، وربة البحار . ، أكثر التماثيل ذيوعا فى هذا المعبد .

وتقول الأسطورة إن (كانوبيس) ربان سفينة (منيلاوس) قد عضه ثعبان ، فكانت لدغته السامة سببا فى وفاته ، فدفن بين أطباق هذه الرمال ومن هنا سميت هذه الأرض باسمه ، فهل معنى ذلك أن الفرع الكانوبى سمى باسم ميناء كانوب ، التى تنسب إلى هذا الربان .

نحن إذن فى حيرة : أى القسميتين أسبق من الأخرى (الفرع الكانوبى) أم (الفرع الهرقلى) ؟ إن الذى نفهمه من الأسطورة على هذا النحو . . أن معبد هرقل سبق فى الوجود مدينة هرقل ، وهى بدورها أسبق من كانوب .

كانوب Canopus

كان (كانوبيس Canopus) ربان سفينة (منيلاوس) أول من دفن فى الرمال الواقعة غربى (الهرقليوم) ، وأخذت المبانى تظهر حول قبره بالتدريج ، حتى سميت هذه المدينة باسمه .

غير أن خطيبا من أهل القرن الثانى الميلادى ، لم يعترف بأن هذه المدينة ترجع فى تسميتها إلى كانوبيس الربان .. وقال بل هى مدينة مصرية قديمة ، وجدت قبل أن يرسو عليها كانوبيس بسفينته ، بقرون طويلة .. فهى تنسب إلى « كاهينوب » أى أرض الذهب ، وصار اسمها بالقبطية (كاهى نوب Kahi-noub) وقال هذا الخطيب مفاخرا بأن المصريين أعرف بتاريخ بلادهم من هوميروس وهكتاتيوس .

هذا الخطيب هو (إيليوس أريستيديس AElius Aristides) وقد نقل قصتة هذه التسمية المصرية من أحد مشاهير الكهنة فى كانوب نفسها .

هذا وقد حاول كل من (سويداس Suidas) و (سيدرينوس Cedrenus) و (روفينوس Rufinus) فى بحوث أسطورية لهم عن كانوب .. أن يثبتوا أنها نسبة إلى الإله المصرى القديم Canopus ، حتى لقد أطلق المصريون على رءوس الخزفيات الجنائزية اسم (الخزفيات الكانوبية) ، واستخدموها فى حفظ رفات الموتى أثناء عملية التحنيط .

وفى العصر الفرعونى ، لم تكن كانوب ذات أهمية ، لبعدها عن منفيس ، ومع ذلك عثر فيها على تمثال رمسيس الثانى وبنته ، وقد سيطرت هذه المدينة على الفرع الكانوبى من جهة البحر ، كما سيطرت على الميناء النهرى (نقراطيس) .

ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد كانت كانوب تتمتع بشهرة زائدة ، فقد ورد ذكرها على ألسنة الكثيرين منهم Hécatée de Milet و Scylax, Eschyle وفى جوار كانوب كان يوجد معبد هرقليوم الذى تحدثنا عنه ومعبد أفروديت الذى أقامه أمير البحار Callicratès ، ومعبد سيرابيس الذى تحدث عنه استرابون وزارها هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد ولما أنشئت الإسكندرية فى القرن الرابع قبل الميلاد ، كانت كانوب إحدى ضواحيها ، وزارها الإسكندر ، فصارت فى حدود «منطقة الإسكندرية» بعد العنف الذى استعمله (كليمانس Cleomenses) مندوب الإسكندر ، مع تجارها حتى رشوه ليتركهم وشأنهم ، فقد عز عليهم أن يهجروا كانوب الغنية بأسواقها ليفتحوا أسواقا جديدة فى المدينة الجديدة « الإسكندرية » .

وبدأت كانوب فى الانحدار مع البطالمة ، على الرغم من المعابد التى أقيمت بها

للملكة أرسينوى زوجة بطليموس الثانى فى القرن الثالث قبل الميلاد .

وقد استجار (كليومونس) ملك أسبرطة ببطليموس الثالث ليعينه على استرداد ممتلكاته ، فمات ، وخلفه بطليموس الرابع محب أبيه سنة ٢٢٢ ق.م. ولم يخف لنجدته ، فندد به ملك اسبرطه ووصفه بالعازف على المزامير مع الشبان فسجنه بالإسكندرية .

وفى ذات يوم ، ذهب بطليموس إلى كانوب ، فحرض كليمونوس المساجين على الثورة ، فخرجوا والسيوف فى أيديهم ؛ ولكن أحدا لم ينضم إليه ، ثم عمد إلى قلعة الإسكندرية فحطم أبوابها وأخرج مساجينها ، وأعطاهم الأسلحة ، ولكن كبار الحراس بالقلعة أخمدوا هذا التمرد ، وعاد بطليموس الثالث من كانوب إلى الإسكندرية ، فأمر بصلب كليمونوس وذبح زوجته سنة ٢٢٠ ق.م.

وتغنى شاعر الإسكندرية اليونانى (كاليماخوس Callimachus) بتمثال قدمته (سيلينا Selenaea) إلى (معبد الزفيريوم) القريب من كانوب ، والذى قدمت إليه الملكة (بيرينيس Berenice) زوجة بطليموس الثالث خصلة من شعرها وفاء بالنذر التى قطعته على نفسها إذا عاد زوجها سالما من أشور .

وقد وجد بكانوب معبد أوزيريس تمجيدا لوالد هوريس ، الذى قتله أخوه الغدار (نست) ، والمعروف أن بطليموس الثالث وزوجته تلك هما اللذان شيدا هذا المعبد .

وفى سنة ٢٣٨ ق.م. أصدر الكهنة قرار كانوب المشهور ، بعد اجتماعهم فى هذا المعبد الذى أصبح أكبر معابد المدينة ، وفيه اعتراف منهم بألوهية (بيرينيس) الفتاة التى ماتت فى ريعان شبابها ، وكانت تتسمى باسم أمها ، وقرر الكهنة أنه فى يوم ٢٩ كيهك من كل سنة ، تتحرك سفينة أوزيريس من معبد الهرقليوم إلى معبد بيرينيس ، وذلك أحد الطقوس التى حددها القرار .

وأقيم فى كانوب أيضا معبد (سارابيس) ، أخذ يحج إليه أهل الإسكندرية طلبا للشفاء من الأمراض ، وقد وصف (استرابون) هؤلاء الوافدين على كانوب من الإسكندرية عبر الترعة ، وهم يرقصون ويطربون ، حتى يصلوا إلى كانوب ، فيقضون الأيام والليالى فى عبث ومجون ، ويقدم لهم الكانوبيون ، الفطائر والسمك وأم الخلول النيلية ، ويبيعون لهم الملابس القبرصية الرائعة ، ويستمتعون

بالجو المنعش ، والنسيم العليل ، وعلى إحدى اللوحات كتبت عبارة Deliciae Canopi أى « ملذات كانوب » .

وزار كانوب مؤرخ صقلية المشهور (ديودور) فى القرن الأول الميلادى ، فرأى قناطرها على ضفتى الكانوبى والحصون والمساكن هنا وهناك ، ومظاهر الحضارة البطلمية تسرى فيها بالروعة والجلال .

ولما شهد عام ٣٠ قبل الميلاد انهيار البطالمة على أيدى الرومان ، نظروا إلى كانوب البطلمية نظرة اشمئزاز حتى نسبوا إليها كليوباترة المستهجنة الأصل حتى قالوا « كانوب مدينة كليوباترة » ، وحتى قال أوغسطس قبل موقعة أكتيوم : [لقد اقتنصت كليوباترة الفاجرة راقص الصاجات فى كانوب] يعنى أنطونيوس ، وصوروها وهى تطارد النسور بها ، أى كبار القواد الرومانيين ، وقال (أوفيد) إنها حاولت عبثا جعل روما إحدى ضحايا كانوب . وعابوا على أهل كانوب عاداتهم ، واشمأز الحاكم الرومانى (كايوس بالبلوس Caius Balbillus) عندما زار كانوب سنة ٥٥ م . فرأى معركة دامية أخذ فيها تماسيح النهر يمزقون درافيل البحر إربا إربا .

وأصبح الكتاب وعلى رأسهم (فرجيل Virgil) يتحدث عن الكانوبيين على أنهم هم المصريون ، ولما زارها الامبراطور (هادريان Hadrian) فى القرن الثانى للميلاد ، أعجب بتماثيلها وحدائقها وقصورها ذات الأبهاء التى من دورين والبوابات الرائعة ، فأمر بتخصيص ركن من حديقة قصره على نهر التيبر بروما وسماه « كانوب » ملأه بتماثيل كانوب .. الرائعة .

ولما ذاعت التعاليم المسيحية فى مصر ، أخذت (كانوب) نصيبها ، فاستشهد بها سنة ٣١٢ م فى مذبحة (الامبراطور ديوقلتيان) الراهب(كير) وزميله (يوحنا) ، ورفاقهما ، وصارت كانوب مأوى الصالحين من دعاة المسيحية والهاربين من الاضطهاد الرومانى ، وأقيمت بها الكنائس ، على أنقاض المعابد التى شيدها البطالمة ، ومنذ سنة ٤٥٧ م صار بطريرك الإسكندرية الملكانى يقيم فى كانوب .

ترى .. هل كانوب هذه هى حقيقة (أبوقير) ، أم أن هناك مدينة أخرى ،

تقع شرقى كانوب بنحو ميلين هى التى قامت على أنقاضها (أبوقير) ؟ ماهى إذن هذه المدينة القديمة ، وكيف تولدت عنها أبو قير ؟

مينوتيس هل هى أبو قير ؟

قلنا إن (كانوب) قد نسبت إلى (كانوبيس) قائد سفينة (منيلاوس) ، ونقول أيضا إن زوجته كانت تسمى (إيمونيتيس Eumenouthis) وقد أطلق اسمها على مدينة تجاور كانوب ، وتقع على مسافة ميلين إلى الشرق منها ، وقيل إنهما دفنا معا فى قبر واحد على تل قريب من الساحل ، وصار أهل هذه المنطقة يقدسونهما .

وقد حرف اسم المدينة فصار (مينوتيس Menouthis) . وقيل (تونيس Thonis) باسم حاكم الميناء الكانوبى الذى استقبل باريس وهيلانة ، بعد أن ألقت الأمواج زورقهما على الشاطىء .

على أن (استرابون) لم يذكر شيئا عن (مينوتيس) . . حتى إذا انتقلنا إلى القرن الثانى للميلاد ، وجدنا تماثيل (ايزيس) يقدمها الناس إلى معابد مينوتيس ، إلى جانب تمثال الصدق الذى اشتهرت به ، وكثر التردد عليها فى فى القرن الرابع من الرجال والنساء على السواء ، وظل معبد إيزيس قائما بها حتى حطمه البطريرك (تيوفيلوس) وشيد على أنقاضه كنيسته ، ومع ذلك لم ينقطع سيل الوافدين على مينوتيس لزيارة ايزيس ، فى القرن الخامس ، وكان رفات (كير) و (يوحنا) قد نقلا من الإسكندرية فى ٢٨ يونية سنة ٤١٤ م ودفنا فى (مينوتيس) . وبنيت لهما كنيسة ، صار يحج اليها المسيحيون حتى القرن السابع طلبا للشفاء ببركتها ، ويقول (سوفرون) إن هذه الكنيسة كانت قريبة من الساحل وفى مكان منخفض ، صارت الأمواج والرمال تعبث بمبناها زمنا ، وصار أهل الإسكندرية يرون أبراجها العالية على البعد . .

ولما توالت الأيام ، وزحفت الأمواج ، والسحبت الرمال ، لم يبق إلا ذلك المكان الذى فى شمال مينوتيس حيث دفن (الأب كير) . . Apa Kyr لهذ أطلق على بقايا هذه المدينة ، التى زالت معالمها باسم (أبو كير . . أبو قير) التى كانت تابعة لإقليم البحيرة ، ثم صارت ضاحية من ضواحى الإسكندرية منذ سنتين .

وقد كانت أبو قير هدفا لغارات القراصنة من صقلية وقبرص ، كما حدث فى ٢٧ شعبان سنة ٧٦٤ هـ عندما أسروا من البساتين والقصور ٦٦ مسلما ومسلمة وأثاث البيوت وفروا إلى صيدا . فافتداهم المسلمون ، وردوهم إلى أبو قير كما كانوا .

ولما كانت أبو قير متطرفة عن الطريق البرى بين الإسكندرية ورشيد وهما المرحلة الأولى للسفر من الإسكندرية إلى القاهرة ، فقد أهمل شأنها فى العصور الإسلامية ، ولم نسمع عنها شيئا اللهم إلا ذلك الشيخ (الأبوقيرى) الذى ذكره السخاوى فى القرن التاسع الهجرى ، وزيارة ابن زنبل الرمال لها الذى يقول عنها [قلعة حصينة ، دخلتها فى ربيع الأول سنة ٩٥١ هـ وكان دزدا ويقال له الأمير على فأنزلنى عنده وفرجنى على ما بها من الابراج والمدافع فرأيتها قلعة أعظم من مدينة وأكثر عددا] .

ولعل اندثار الفرع الكانوبى فى القرن التاسع الميلادى هو السبب فى فقدان أبو قير مكانتها التجارية والعمرانية ، ولكن المواقع الحربية التى جرت وقائعها على مياه شواطئها ، وبين طيات رمالها قد جعلت أبو قير تدخل التاريخ عن طريق المعركة البحرية التى حدثت بها فى أول أغسطس سنة ١٧٩٨ حيث انتصر نلسون على أسطول نابليون ثم تلتها معركة برية بها فى ٢٥ يولية سنة ١٧٩٩ ، انتصر فيها الفرنسيون على العثمانيين ، ثم احتلها الإنجليز فى مارس سنة ١٨٠١ ، وقتل حسين باشا القبطان بالمماليك فى أكتوبر من هذه السنة . . وبدأت الأنظار تهتم بأبوقير طوال القرن التاسع عشر : بتحصين قلاعها ، التى تحولت أحيانا إلى سجون .

وبالاختصار لقد لعبت أبوقير دورا هاما فى الكفاح . . قبل أن تنفصل عن البحيرة لتنضم إلى الإسكندرية ، فتجدد شبابها ، ودب العمران إلى أرجائها فأصبحت أهم مصطاف ومشتى . . على ساحل البحر الأبيض على الإطلاق .

وقد حظيت أبوقير بشرف عظيم من لفتات أمير الشعراء أحمد شوقى ، حينما استوحى رمالها ونخيلها فقال قصيدته المشهورة فى وصف النخيل .

وفى الحق أن يد الثورة ، قد لمست أبو قير . . فأحالتها إلى شىء آخر . .

يفخر به كل مصرى وعربى ، الشباب والشيوخ فى ذلك سواء . .

وعنى المؤلفون أخيرا بالكتابة عنها فوضع عنها إبراهيم الفحام كتابه « أبو قير » . وكذلك وضعت بطريركية الأقباط الأورثوذكس كتابها (أبو قير) وكتب عنها (فيفر Faivre) كتابه .

Canopus, Menouthis, Aboukir.

واشتهر فى عالم الجغرافيا (سد أبو قير) و (بحيرة أبو قير) وقد خصصنا لهما بحثين فى باب (بحيرة البحيرات) .

وتحدث عنها (فورستر Forster) فى كتابه عن (الإسكندرية) ، كما أن الحجرة السابعة من المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية قد اشتملت على عدد وافر من الآثار التى عثروا عليها فى أبو قير منها قلعة (ســـابا) التى ترجع إلى سنة ١٣٠٠ ق٠ م٠

وتحدث عنها أيضا على مبارك فى الجزء العاشر من الخطط التوفيقية تحت عنوان (بوقير) . وكذلك إسماعيل باشا سرهنك ، وكلوت بك فى الجزء الأول من « لمحة عامة إلى مصر » .

الكريون Kériôun

مدينة قديمة ذكرها كل من أماينو وجوتييه ، واسمها المصرى القديم (كيرو Khereu) والرومانى (كيريس أو كيرون أو كريون Kheris, Khairon, Kherouon) واللاتينى (كيريوم Choereum) والقبطى (كيرى Kherey) أو (كريون Kériôun) وهو اسمها العربى الحالى ، وكان استرابون قد ذكر أنها (أكابريون كومه) أى أنها قديمة وعلى يمين النيل بالنسبة للمسافة بين شيديا إلى منفيس .

ورد ذكرها فى الفتح الإسلامى ، حيث كان بها آخر حصن رومانى قبل الإسكندرية فى زحف عمرو بن العاص عليها سنة ٢٠ هـ — ٦٤١ م ، وعلى الرغم من صمود تيودور أمام العرب اعتمادا على المدد الوارد عليه من (سنطيس) و (خيس) و (سخا) و (بلهيب) إلا أن المسلمين انتصروا على الروم .

وعندما سقطت الكريون أمام عمــرو بن العاص ، انكشف الطريق له إلى الإسكندرية ، وكان انتصــاره على الروم فى الكريون حاسما ، وعنــدئذ حث المسلمين على دخول الإسكندرية قائلا : سيروا على بركة الله .

وقد ورد ذكر (الكريون) فى شعر كثير عزة حيث قال .

لعمرى لقد رعتم غداة سـويقة ببينكويا (عز) حق جزوع
ومرت سراعا عـيرها وكأنهـا دوافع بالكريون ذات قلوع
وحاجة نفس قد قضيت وحاجة تركت وأمر قد أصبت بديع

واعتبر ابن السكيت هذه الترعة نهرا فقال : [الكريون نهر بمصر يأخذ من النيل] ، ولذلك شبه كثير عزة العير بالسفن ذات القلوع ، وورد ذكرها أيضا فى شعر عبد الله بن قيس الرقيات فى مدحة لعبد العزيز بن مروان فى خروجه إلى الإسكندرية مع الأشراف والشعراء وذلك سنة ٨١ هـ .

لحى من أميـة ليس فى أخـلاقهم رفق
غدوا من مدرج (الكريون) حيث سفينهم حزق
فلما أن عـلون النيل والرايات تختفـق
رأيت الجـوهر الحكمى والديبـاج يأتلق
سـفائن غير مغرقة إلى حـلوان تستبق
محـل قد نحل به الذيذ عيشـه غـدق
يحـل به ابن ليـلى والندى والحلم والصـدق
أحب إلى من قـوم إذا ما أصبحوا نعقـوا

ولما قدم مروان بن محمد إلى مصر سنة ١٣٢ هـ ، وكانت الدعوة إلى العباسيين قد شاع أمرها ، أرسل الكوثر بن الأسود الغنوى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى إلى الأسود ابن نافع بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الذى دعا للعباسيين بالإسكندرية وفى ذى القعدة شهدت (الكريون) لقاء داميـا بين الفريقين ، قتل فيه عيسى ابن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، وانكشف الطريق إلى الإسكندرية أمام الكوثر فدخلها واستشهد عبد الأعلى بن المجرس مولى مراد ورأس الموالى .

وفى سنة ٢٥٢ هـ شـق جابر بن الوليـد عصـا الطاعة على المعـتز بالإسكندرية فبعث والى الإسكندرية محمد بن عبيـد الله بن يزيد بن مزيد الشيبانى جيشا من ثلثمائة رجل بقيادة نصر الطحاوى ، فنزلوا الـكريون ، وكان جابر قـد تركها إلى (صا) فرجع نصر إلى (جنبويه) ونزل بها ، وهناك قدم جابر فصدهم ، حتى استنجد نصر بمدد من الإسكندرية ، وأخـذ ينتظر بالـكريون حتى وافاه بها برد بن عبد الله وأبو الدواء ، ومضوا إلى دسونس ، والتقوا بجـابر فانهزم نصر وبرد وانتصر جابر ، وعاد جيش الإسكندرية مشتت الشمل وتحصن بأسـوار المدينـة .

وقـد ورد ذكر الـكريون فى فتوح مصر للواقدى وفتوح مصر لابن عبـد الحـكم وابن خرداذبه ووصفها ابن حوقل فى القرن الثالث الهجرى فقـال إنها مدينة عظيمة جميلة على ضفتى ترعة الإسكندرية وبها جامع وفنادق وكروم تصدر أعنابها إلى ما حولها ، وكان التجـار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط صيفا ، فى وقف الفيضان،وكانت مقر حاكم كورة الـكريون وتحت إمرته فرسان ومشاة .

ومن أشهر رجالهـا فى القرن السابع الهجرى أبو رزين الـكريونى الذى سيرد فى أعـلام الـكريون ، غير أنها فى هـذا القرن كانت [قرية مشهورة بقرب ثغر الإسكندرية] كما يقول المنذرى فى كتابه (١) ، وفى القرن الثـامن الهجرى ذكر ابن دقماق : ملاحات الـكريون (٢) .

وورد ذكر الـكريون فى فتوح البلدان للبلاذرى وفى معجم البلدان لياقوت وقوانين الدواوين لابن مماتى والخطط المقريزية وتحفة الإرشاد وفى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وفى التحفة السنية لابن الجيعـان حيث كانت فى القرن التاسع الهجرى من عمل البحيرة ومساحتها ٣١٦٠ فدانا وبها رزق ، وأقطعت باسم برد بك التاجى ثم باسم الديوان السلطانى وذكرها على مبـارك فى خططه وهى الآن بالقرب من قرية (معمل الزجاج) بـكفر الدوار .

---

(١) المنذرى : التـكملة لوفيات النقلة : الجزء ٢ ٤٢

(٢) الانتصار لواسطة عقد الامصار

الطرانة : ترنوط ـ تيرنوتيس

ذكرها جوتييه فى قاموسه وقال إن أصلها المصرى (بيرانوط Per Rannout) وسميت فى العصر الرومانى (تيرينوتيس Térénouthis)، وقال (أملينو) إن اسمها القبطى (تيرنوط Ternout) وكتبها العرب (ترنوط) و (الطرانة) وذكرها جورج القبرصى كقسم إدارى فى التقسيمات الكبرى لمصر قبل الفتح الإسلامى كأبرشية مصرية .

ولما فتح عمرو بن العاص حصن بابليون فى ٩ إبريل سنة ٦٤١ م سار بخيله يريد الإسكندرية فالتحم مع الروم فى الطرانة التى تؤدى إلى أديرة القبط فى ليبيا وفيها انتصر عمرو على الروم انتصارا رائعا ، ومضى بعدها إلى (نيقيوس) أو شبشير فسلمت فى ١٣ مايو ومضى المسلمون فى الفتح من بلد إلى بلد ومن نصر إلى نصر (١) .

وكان بها فى القرن الثالث الهجرى كنيسة باسم العذراء مريم ، وجامع بمئذنة فضلا عن الكنائس الكثيرة ، ولكنها خربت ، وصارت قرية بعد أن كانت مدينة ، وفى الغرب تل مرتفع فوقه مقام الشيخ أبى عبد الله .

وذكرها ابن خرداذبه فى كور مصر فى القرن الثالث الهجرى ، وذكرها قدامة فى أعمال مصر وكورها وكذلك اليعقوبى ، وذكرها الإدريسى أيضا وقد وصفها ابن حوقل فقال : إن بها جامعا فى جانبها البحرى ، وبيعا كثيرة للنصارى وأسواقا عامرة وحمامات ، وكان لها عامل يقوم بشئونها وله عسكر تحت يده ، ولها غلات كثيرة ، وفى الجنوب مخزن النطرون الوارد إليها من وادى النطرون وأغلب معاش أهلها من استخراج النطرون ونقله وكذلك البردى والحلفاء (السمار).

وقال ياقوت : إنها قرية على النيل وإن أكثر فاكهة الإسكندرية منها وقال [لا تطول الأعمار كما تطول بترنوط وفرغانة] وكان لها ميناء نهرى ، وعندها يعبر المسافرون النيل فى طريقهم إلى الإسكندرية ، وبالطرانة عربان كثيرة لا يضبط عددهم ، كما أشار إلى ذلك غرس الدين خليل فى « زبدة كشف الممالك وبيان

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر

الطرق والمسالك » فى القرن التاسع الهجرى .

وقد أفاض أبو عبيد الله البكرى فى كتابه « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب» فى وصف ترنوط فقال إنها جامعة على النيل ، بها أسواق ومسجدجامع وكنيسة خراب كثير خربته كتامة إذ كانوا هنالك مع أبى القاسم بن عبيد الله الشيعى ، وبها معاصر سكر ، وقصور فى صحراء الرمل ، محكمة البناء منجدة الجدر أكثرها على أزاج معقودة يسكنها الرهبان ، وبها آبار عذبة ، كما توسع البكرى فى وصف القبو العظيم الذى فى آخر بنيانها والتماثيل الرخامية التى لأبومينا وصور الأنبياء التى فى كنائسها ، والمساجد التى حولها أشجار الفاكهة ولا سيما اللوز والخروب والكروم التى تحمل أعنابها إلى مصر ، ومن الطرانة يخرج الطريق إلى أديرة قديمة بالجبل : بالبراموش والسريان وبشاى ومقار ، وعند هذا الجبل تتفرع الطرق إلى الفيوم وسيوه والإسكندرية ومريوط ، ويقول موتسنجر باشا إن سعيد باشا كان ينزل فى قصره الخاص الذى بناه بها .

تروجة Trougah

بلدة قديمة قريبة من الأسكندرية لها تاريخها الهيروغليفى[١] عند (دارسى) الذىقال إنأصلها (هاتابآست Hat-ab ast)أو(هاتابمنت .Hat-ab-ment) وقال إنها تروجة Trougi أو Trougah وبالقبطية تروجى أى La Tharange de la Devise des chemins de Babyloine وعلى أى حال فهى فى الرمال ، وكان الرهبان يقيمون بها فى القرن الرابع الميلادى [٢] . ولكن لم يرد ذكرها فى الكتب العربية إلا منذ القرن الرابع الهجرى ، حيث كتب المقريزى [٣] أنه فى شهر صفرسنة ٣٥٨ هـ ، عزل شاور عن (قوص) فحشد الجند وسار عبرالواحات إلى تروجة فجمع الناس حوله ومضى حتى وصل القاهرة ، ففر رزيك ، واستقر شاور فى الوزارة .

(١) Gauthier : Dict. des noms Geog. T : 4 P : 47. +
Daressy : Annales services ant. 9 : 224.

(٢) عمر طوسون : وادى النطرون

(٣) اتعاظ الحنفا

وفى جمادى الآخرة من هذا العام أيضا سارت جيوش المعز لدين الله الفاطمى نحو الإسكندرية ، بقيادة جوهر ، الذى التقى فى تروجة بأعيان مصر — وعلى رأسهم جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى — يشترطون عليه الأمان فكتبه لهم بخطه بها فى شعبان من ذلك العام ، ثم سار بالعسكر إلى الجيزة (١) .

وفى سنه ١١٨ ﻫ نزل الروم على تروجة وحاصروها ثم انصرفوا عنها ثم أقبلت سفن الروم ثانية وأسروا نعيم بن العجلان وعبد العزيز بن مروان .

وفى سنة ٢٥٣ ﻫ كان جابر بن الوليد مقيما بتروجة بينما أقام يزيد بن عبد الله بالشراك وقد عقد له مزاحم بن خاقان ليقاتل جابر ، وكان اللقاء عند تروجة فهرب جابر ووقع رجاله أسرى ، واستمر جابر إلى (نهيا) والفيوم ثم وقع أسيرا وأرسله مزاحم إلى العراق .

وفى سنة ٣٠٦ ﻫ دب النزاع بين المظفر بن ذكا بالاسكندرية وبين مغاربة البحيرة ، وكانوا فى تروجة فخرج إليهم المظفر ، وواقعهم ثم عاد من حيث جاء .

وفى سنة ٣٢٤ ﻫ التقى جيش الأمير محمد بن طغج وعلى رأسه يعيش الكتامى بالمغاربة فيما بين تروجة وأبلوق فى ٥ جمادى الأولى فانهزم المغاربة وأمعن الترك فيهم قتلا وفتكا وأسرا ، وقتل يعيش ودخل ابن طغج الإسكندرية .

وفى القرن السابع الهجرى (٢) كانت تروجة ،قصد السلاطين للصيد ، ومحط انتقالهم عبر الصحراء إلى الإسكندرية ، ففى ٦ شوال سنة ٦٦١ ﻫ أقام بها السلطان الظاهر بيبرس عدة أيام ثم دخل الصحراء للصيد وبعد مدة وجيزة غادرها إلى الإسكندرية .

وفى سنة ٦٦٨ ﻫ نزل بها أيضا وصاد الغزلان والنعام وخلع بغلطاقا (قباء صغيرا) على كل جندى صاد غزالا ؛ ومنح حصانا مسرجا ملجما لكل من صاد نعامة .

وفى سنة ٦٧٣ ﻫ نزل بها السلطان الأشرف خليل للصيد فقتله بها الأمير بيدرا.

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ﺣ ٢

(٢) المقريزى : السلوك قسم ٣ ﺣ ١ + النورى : نهاية الأرب

وفى القرن الثامن الهجرى مر بها ابن بطوطة (١) ووصفها بأنها قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ، وأشاد بمكارم أخلاق أهلها ، وصحب قاضيها صفى الدين وخطيبها فخر الدين ، وناظرها زين الدين الذى أضافه وكذلك عبد الوهاب العابد الفاضل الذى نزل عنده ، ومدح مبارك المسمى زين الدين أحد الفضلاء من أهلها .

وذكرها أيضا ابن دقماق (٢) تحت عنوان « الأعمال البحرية » ويقصد بها إقليم البحيرة وكان يتبعها عدة كفور ، ثم وردت عند ابن الجيعان فى القرن التاسع الهجرى على أنها مع كفورها لم تمسح وكانت عبرتها (حصيلتها) اثنين وسبعين ألف دينار كانت للديوان الخاص ثم صارت للديوان المفرد ، وقال ابن خلكان إن أكثر زراعة أهلها الكراويا .

واشتهر عدد كبير من أهلها فى هذا القرن بالعلم والتجارة وسائر الصناعات ومنهم من نزح إلى الإسكندرية والقاهرة والهند ، كما سنجد ذلك فى أعلام تروجة.

وكان لعربان تروجة شأن أى شأن فى موقفهم إزاء الصراع الدامى بين المماليك ، ففى سنة ٩٠٢ ﻫ (٣) سار إلى الإسكندرية قانصوه الشامى ومصرباى لقتل الأتابكى تمراز وقانى بك قرا وكان بالسجن ، فخذلها نائب الإسكندرية ، وخرج عليهما عربان تروجة وقبضوا عليهما ، وقتلوا مصرباى وعلقوا رأسه على باب الإسكندرية.

هذا وقد ذكرها محمد رمزى فى البلاد المندرسة ، وقد اندثرت معالمها ، ومكانها اليوم (كوم تروجه) بناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير (٤) ، وذكرها أيضا عمر طوسون فى كتابه الفرنسى عن جغرافية مصر فى زمن العرب (مصر السفلى).

مصيل Maçil

مدينة قديمة كانت عاصمة لكورة مصيل أورد ذكرها مؤلفو العرب : ابن خرداذبه واليعقوبى والهمذانى وقدامة والمسبحى والدمشقى والفضاعى وابن

(١) ابن بطوطة : الرحلة .

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ﺟ ٥

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور .

(٤) القاموس الجغرافى : القسم الأول ص ١٩٠

دقماق والمخزومى والمقريزى والقلقشندى ، ووردت فى تحفة الإرشاد باسم « محلة مصيل » كعمل من أعمال البحيرة ، واعتبرها رمزى من البلاد المندثرة . ولا تزال أطلالها تعرف باسم « كوم المدينة » التابعة لبسنتواى بمركز أبو حمص ، ويقول عمر طوسون : إنها كانت تشغل المكان بين ترعة الإسكندرية وفرع رشيد أمام فوة ، وقديماً كانت تشغل الجزء الشمالى الشرقى من قسم هرموپوليس حسب التقسيم الإدارى عند جورج القبرصى ، أى فى مكان ميتيليس قديماً .

أما ياقوت فيقول : إنها قرية تنسب إلى كورة مصيل ، وجاء فى تحفة الإرشاد : محلتا الشيخ ومصيل ، ومكانها بعد أن اندثرت (كوم الأحمر) على مسافة سبعة كيلو مترات جنوب غرب (العطف) .

وقد ورد ذكرها فى حوادث الفتح الإسلامى ، إذ كان أهلها من القبط ممن أعانوا الروم على المسلمين فسباهم عمرو وأرسلهم أسرى إلى الخليفة عمر فردهم وعفا عنهم .

وعندما تكلم القلقشندى — وهو فى ذلك يعتمد على القضاعى — عن كور الحوف الغربى جمع قرطسا ومصيل فى كورة واحدة ، وقال : قرطسا قرية من عمل البحيرة بينما قال عن مصيل : من الأسماء التى جهلت .

وقد أجمع علماء الآثار على أن (مصيل) هى الاسم الحديث لمدينة (ميتيليس) عاصمة المقاطعة اليونانية القديمة (ميتيلايت) المسماة مقاطعة رقم ٧ غرب ، وقد تحدثنا عن ذلك بتفصيل من قبل .

كوم شريك

مدينة إسلامية لم يظهر اسمها إلا فى حوادث الفتح الإسلامى سنة ٢٠ هـ ، وهى باسم الكوم الذى لجأ إليه شريك بن عبد يغوث بن جزء المرادى من صحابة رسول الله ، وكان على مقدمة جيش عمرو بن العاص فى فتح الإسكندرية ، فإنه عندما انحاز شريك بأصحابه إلى هذا التل (الكوم) واقع الروم حتى أدركه مالك بن ناعمة الصدفى ، فلم يتمكن الروم من تضييق الخناق عليه ، وبذلك سمى هذا الموضع باسم (كوم شريك) .

وحدد ابن خرداذبه (١) المسافة بين كوم شريك ومريوط بثلاثين ميلا ، ومنها إلى ترنوط (الطرانة) باثنين وعشرين ميلا ووافقها على ذلك قدامة ابن جعفر (٢) .

وفى سنة ٤٤٣ هـ شهدت كوم شريك موقعة بين بنى قرة والطالحيين ، وبين عسكر المستنصر ، على إثرها فر العربان إلى برقة وأقاموا بها (٣) .

وورد ذكرها فى «التحفة السنية» إذ كانت فى القرن التاسع الهجرى إقطاعا باسم أيدمر من صديق ثم آلت إلى الديوان المفرد ، وكانت من أعمال البحيرة وأشار إليها المقريزى .

ووضعها على مبارك على نهر أنيس ، وقال إنها كانت من حوف رمسيس (٤) فصارت تابعة لمركز النجيلة ، واعتبرها محمد رمزى فى البلاد القديمة من مركز كوم حمادة (٥) .

بلهيب Pelhip

(= فزارة = منية الزناطرة)

وردت فى « فتوح مصر » وذكرها أملينو وكاترمير وابن حوقل وابن مماتى : مدينة مصرية قديمة ، صالحها عمرو بن العاص فى الفتح الإسلامى وقرر عليها الخراج بعد أن ثار أهلها ضده ، وقد بعث عمر بالثوار من أهلها إلى الخليفة عمر فردهم وسامحهم ، وإليها ينتسب أبو المهاجر عبد الرحمن البلهيبى من أصحاب النبى عليه السلام ، ثار ببلهيب فى ولاية عمرو ، وجعله معاوية من رؤساء تجيب ، وقدم على معاوية وأخبره بفتح (خربتا) ، فبنى له معاوية دارا وسط قبيلة بنى العجم فى حارة البلهيبى ، وأمر بأن يكتب عليها [هذه الدار ملك لعبد الرحمن رئيس

---

(١) المسالك والممالك

(٢) الخراج وصنعة الكتابة : ص ٢٢١

(٣) ابن ميسر

(٤) التوفيقية حـ ١٥

(٥) القاموس الجغرافى : حـ ٢ ص ٣٣٩

تجيب] ومنحه معاوية سيفا توارثه من بعده الأولاد والأحفـــاد ، ولما ولى مصر عبد الله بن الحبحاب ، قال للبهليبي : [سأجعلك عاملا عندى ورئيسا لبهليب] فرد عليه قائلا : [سأكون وأقربائى خدما لك ، وسأقيم العدل والمساواة بين الناس] ، وثار أقباطها سنة ١٥٦ هـ .

وفى القرن الرابع الهجرى كان بها جامع وحمام وأسواق ، ولها حاكم وصاحب معونة .وكانت نزهة أهل الإسكندرية فى فصل الربيع ( ) .

ودب الخراب إلى بلهيب فقامت على أطلالها (منيـة الزناطرة) إذ نزل بها جماعة من (بنى زنطر) واستوطنوها فسميت باسمهم ، ثم نزل بها بعد خرابها جماعة من فزارة قيس هم بنو فزارة بن ذبيان فسميت (فزارة) ، وبهـا عشائر بنى شمخ وظالم ومرة ومازن وشكم وسعـــد ولوذان ، وعرفت بذلك فى العصر العثمانى . وكان يرويها بحرياطس ، كما يقول ابن مماتى .

ومكانها الآن العطف أو ديروط أو شمال ديروط ، وينسب إليهـا أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن على الفزارى الســـكندرى (٢) الذى صنف كتابا فى أسماء البلدان والأماكن والجبال والمياه ، ومات بأصبهان سنة ٥٦١ هـ . ومعنى ذلك أنه نشأ بفزارة ، وعاش بالإسكندرية وتوفى بأصبهان .

وفى فزارة جامع به ضريح الشيخ موسى كساب الشافعى ، وضريح آخر يقال إنه ضريح الشيخ على بدير الفزارى (٣) .

خربتـا Kherbeta

هذه المدينة قديمة ذكرها جوتييه تحت اسم (ماب Mâb) (٤) وأرجعها إلى قائمة العام الثالث من حكم الملك أمازيس وتسمى (مدينة الثلاثين) ، وقال إنهـا (تماخيربت Tamakhirpet) المدينة المصرية القديمة ، وقال إنها ربمـا كانت فى مكان (أندروبوليس Andropolis) اليونانيـة الرومانيـة التى ذكرتهـا القوائم

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك
(٢) السيوطى : بغية الوعاة
(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية حـ ١٤
(٤) Gauthier : Dict. T : 3 P : 15

القبطية باسم (خربتا Kherbeta) وهى (مكان الثلاثين) أو (مابيت Mâbit) التى وردت فى « كتاب الموتى » فى الفصلين ١١٥ و ١١٧ .

ووردت فى (مباهج الفكر) تحت اسم (زماخير) وهو اسمها القبطى كإحدى نواحى حوف رمسيس واسمها العبرى (أرواط Arouat) ، ولكنها وردت باسم (خربتا) فى الروك الصلاحى سنة ٥٧٢ هـ ، وهذا هو اسمها العربى الذى ورد فى الكتب العربية منذ الفتح الإسلامى ، وهى تبعد عن الإسكندرية بتسعين كيلومترا (١) .

وروى ابن عبد الحكم (٢) [وكان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التى تعرف اليوم بـ (خربة وردان)] لأن أهل (الخربة) قد اختطفوا وردان مولى عمرو بن العاص أثناء توجهه لقتال الروم فى نقيوس ، وظل عمرو يتفقده حتى وجده مخبوءا فى بعض دورهم ، فأمر بإخراجهم منها .

وفى رواية عبد الملك بن مسلمة أن أهل الخربة كانوا جميعا رهبانا فغدروا ببعض مشاة عمرو وقتلوهم بعد وصول عمرو إلى الكريون ، فبعث إليهم وردان فقتلهم وخربها ، فهى خراب إلى اليوم .

وفى رواية ابن عبد الحكم أن أهل الخربة كانوا أهل توثب وخبث وقد أمر عمرو بإحضار جراب من ترابها ، ثم دعاهم ولم يستجيبوا له ، وفعل ذلك مرارا وهو يفرش تراب أرضهم تحت مصلاه ويقعد عليه . حتى قال أخيرا : هذه بلدة لا تصلح إلا أن توطأ ، فأمر بتخريبها .

وفى أول يوم من رمضان سنة ٣٦ هـ شهدت خربتا معركة بين حزب عثمان وحزب على ؛ فبعث ابن أبى حذيفة المتزعم لحزب عثمان بجيش عليه قيس بن حرمل اللخمى وفيه ابن الجشا البلوى لقتال العائدين من الحجاز بعد قتلهم عثمان ، ودارت رحى القتال عند خربتا فقتل قيس وابن الجشا وعدد من أنصارها .

ولما ولى أمر مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ودخلها سنة ٣٧ هـ عمل على استمالة الخارجين من أهل خربتا على الخليفة على بن أبى طالب ، وبعث

(١) رمزى : القاموس الجغرافى : ج ٢ ص ٣٣٤
(٢) فتوح مصر : ص ٢٣٨

إليهم أعطياتهم ، وأكرم الوافدين إليه من أهلها . وكان بها يومئذ عشرة آلاف كتب عنهم قيس إلى على يقول: إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ ، وذلك ردا منه على كتاب منه بقتالهم ، وأثبتت الأيام بعد نظر قيس وحسن سياسته فى إطفاء الفتنة التى امتد لهيبها من خربتا ؛ ولما قدم محمد بن أبى بكر واليا على مصر بدلا من قيس بن سعد ، أراد أن يقاتل أهل خربتا ، فقتلوه .

وفى عصر الخليفة المأمون العباسى ، ثارت بلاد الدلتا أعرابا وأقباطا سنة ٢١٦ﻫ وذلك فى ولاية عيسى بن منصور ، وقدم « الأفشين » من برقة فحارب أهل (إشليم) ولكن بنى مدلج حاصروهم فى حصن الإسكندرية ، ولكن الأفشين التقى فى طريقه إلى الإسكندرية بطائفة من بنى مدلج من خربتا فانتصر عليهم ، ثم عاودوا الكرة عليه بمحلة الخلفاء فهزمهم وأسرهم ، وهناك عند قرطسا ضرب أعناقهم ودخل الإسكندرية ظافرا بعد أن فر معاوية بن حديج زعيمهم وبحر بن على اللخمى وابن عقاب اللخمى .

وفى القرنين الثالث والرابع للهجرة كانت خربتا إحدى كور مصر السفلى ، كما ورد على لسان اليعقوبى والهمذانى وابن خرداذبه وقدامة والمقدسى ، وظلت كذلك فى القرن الخامس الهجرى ، حيث كانت عاصمة الكورة .

ويرجح عمر طوسون أنها كانت تشغل الجزء الشمالى من قسم (أندرونيكيو) عند جورج القبرصى أى مركز كوم حمادة .

وذكرها ياقوت وضبطها اعتمادا على ابن عبد الحكم والحازمى والقضاعى ونصر وقال أخيرا إنها [الآن خراب لا يعرف] . وكانت خربتا بعد ذلك من أعمال حوف رمسيس ، كما ورد فى قوانين ابن مماتى وتحفة الإرشاد . أما ابن الجيعان فقد جعلها فى القرن التاسع الهجرى من أعمال البحيرة ، حيث كانت إقطاعا لأرغون شاه الأشرفى ثم للديوان السلطانى المفرد .

كفر مستنان

يؤكد رمزى فى قاموسه أن أصلها (الاحياز) ، وقد وردت فى التحفة السنية من كفور لقانة ، ووردت فى الانتصار ، واستمر اسمها يرد فى تربيع سنة ٩٣٣ﻫ

ودفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩ هـ وفى تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ ، وتنسب إلى رجل عربى استوطن قرية الأحياز فى أواخر أيام دولة المماليك ، فتميد زمامها باسمه فى ربيع سنة ٩٣٣ هـ .

غير أن السخاوى أورد فى « الضوء اللامع » شخصيتين باسم المستنانى هما عبد العزيز وولده محمد وهما من علماء القرن التاسع الهجرى وقال : [مستنان قبيلة من المغرب] (١) .

وعلى أى حال فإن هذا الكفر من البلدان القديمة من مركز شبراخيت ، ويعتبر من مواطن المغاربة .

درشابة

وهى قرية قديمة ، اسمها القبطى ترشيبى Tarschébi وذكر أملينو فى (الجغرافيا) أنها كانت من قسم دنطو ، وتابعة لأسقفية مصيل ، وتقع على فرع رشيد فى متابل دسوق بالقرب من أطلال دنطو فى مكان عزبة الكوم الكبير بالقرب من مصيل ، وكانت دنطو قسما يشتمل على قرى كثيرة منها درشابة حتى سنة ١٨٠٠ ويجمعها إقليم فوة والمزاحمتين .

ورد ذكرها فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد ، وكانت من أعمال البحيرة فى التحفة السنية حيث كانت إقطاعا باسم طاز العثمانى ثم باسم خاير بك من حديد .

ويقول رمزى إنها كانت تابعة لمركز شبراخيت ، ثم ألحقت بمركز المحمودية عند إنشائه سنة ١٩٢٨ .

وقد أوردنا فى باب الأعلام عددا من الذين اشتهروا خلال العصور الإسلامية من أبناء درشابة : العلماء والشهداء .

البسلقون

مدينة مصرية ذكرها جوتييه (٢) فى قاموسه ، وأصلها (هسلقون Ha-slakhoun)

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع : ج ٤ انظر عبد العزيز المستنانى

(٢) Gauthier : Dict. T 6 P : 149

والآن اسمها (بسلقون Paslakoun) وذكرها (دارسى Daressy)[1] فقال إنها هى البسلقون التى تبعد أربعة كيلومترات من جنوب (تل لوقين) وفى البسلقون وضع القرار المقدس للمقاطعة السابعة لمصر السفلى ، والمعروف أن (لوقين) تبعد ٣٢ كيلومترا عن الإسكندرية .

وقد ورد ذكرها فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد وفى الانتصار وفى التحفة السنية حيث كان إقطاعا باسم أيدمر من صديق، ثم باسم قجماس الإسحاقى أمير أخور باعتبارها من أعمال البحيرة ، وهى الآن تابعة لمركز كفر الدوار .

وينسب إليها عدد من العلماء ذكرناهم فى باب الأعلام .

إشليم

بلدة قديمة تغير اسمها حتى سميت إشليمة ، ذكرها الكندى فى كتابه[2] فى ولاية عيسى بن منصور عندما ثار العرب والقبط فى الدلتا المصرية فى سنة ٢١٦ھ ، وأخرجوا العمال العباسيين من بلاد الوجه البحرى لسوء سلوكهم ، فقدم الأفشين من برقة ، وكان فى إشليم مكان اجتماع الثوار من أهل (تنو) و(تمى) بزعامة ابن عبدوس الفهرى وهو من ولد عقبة بن نافع ، ودارت رحى القتال فى إشليم ، فانتصر العباسيون ووقع الثوار أسرى فى أيديهم ثم قتلوهم ، وعاد عيسى بن منصور إلى الفسطاط ومضى الأفشين إلى الحوف الغربى وشتت شمل الثوار ، ولكن ما لبث بنو مدلج أن حصروه فى حصن الإسكندرية فواقعهم فى خربتا حتى قضى عليهم ، وتمكن من دخول الإسكندرية فى ذى الحجة من سنة ٢١٦ ھ .

وقد ذكر السخاوى بعض أهل العلم من أهلها فى القرن التاسع الهجرى ، على أن ابن الجيعان قد ذكرها هكذا (إشليمه) وكانت إقطاعا (٣) باسم يلبغا المنجكى ثم باسم تانى بك الجمالى فى القرن التاسع الهجرى ، وكانت إذ ذاك من أعمال البحيرة .

---

(١) Revue de l'Egypte T : 2 P : 25

(٢) ولاة مصر : ص ٢١٤

(٣) التحفة السنية

وادى النطرون

هذا الوادى قديم الصلة بإقليم البحيرة منذ العصر الفرعونى ، فقد كان سكانه وهم فى الأصل ليبيون فى نزاع دائم مع المصريين . وكثيرا ما كانوا يشنون الغارة على الدلتا ولاسيما الجزء الغربى من إقليم البحيرة ، ففى سنة ١١٧٠ ق. م. انتصر عليهم رمسيس الثالث أول ملوك الأسرة العشرين .

وفى زمن الفراعنة ، كان وادى النطرون كورة قائمة بذاتها وقسما إداريا مستقلا ، وكان فى عهد البطالمة Sekhet Hemam أى « حقل الملح » أما استرابون فقال إنه كان يسمى « إقليم النطرون » وهناك سادت عبادة (سارابيس Sarapis) وذكر بطليموس الجغرافى فى القرن الثانى الميلادى منطقة من لوبية المصرية فى جنوب بحيرة مريوط تسمى (منطقة ستياكا Scythiaca Regio) وقال سان جيروم — وهو من أهل القرن الرابع الميلادى — إنه كانت توجد فى هذه المنطقة مدينة (نترى Nitrie) أى مدينة النطرون ، وكانوا يخزنون بها النطرون الذى يستخرجونه من البحيرات ليشحنوه إلى الطرانة ؛ وقد أطلق القبط والعرب على وادى النطرون عدة أسماء منها : برية الإسقيط ، وبرية شيهات ، ووادى الرهبان ، ووادى الملوك ، وميزان القلوب ، ووادى هبيب (نسبة إلى هبيب ابن مغفل الغفارى من الصحابة) .

وفى القرن التاسع الهجرى ، كان وادى هبيب تابعا للبحيرة ، كما ورد ذلك فى « التحفة السنية » غير أن القلقشندى قال إن بركة النطرون غربى عمل البحيرة ، وفى زمن المماليك ، تنازل مراد بك عن وضع يده على هذه المنطقة إلى تاجر البندقية (روستى Rossetti) وقنصل ألمانيا فى نظير مبلغ اتفق معها على دفعه .

وقد لجأ إلى وادى النطرون عدد كبير من المسيحيين فرارا من مظالم الرومان وأقاموا به نحو مائة دير لم يبق منها إلا سبعة ، ولما فتح عمرو بن العاص مصر ، قدم نحو سبعين ألف راهب لمقابلته بالطرانة يسألونه الأمان ، فأمنهم ، وأعطاهم محصول الوجه البحرى وقد بلغ فى إحدى السنين أكثر من خمسة آلاف إردب ، وأخذ عدد الرهبان ينقص تدريجيا تبعا لغزوات المغاربة ، كما ورد ذكر وادى النطرون على ألسنة المقريزى وابن فضل الله العمرى والبكرى ، وزاره من

السلاطين الناصر قلاون ، وقايتباى ، وهناك كنيسة تضم رفات تسعة وأربعين راهبا قتلهم المغاربة ، وبناها لهم إبراهيم الجوهرى وبها مقصورة مكاريوس الإسكندرانى ومكاريوس أسقف إدكو .

حوف رمسيس

الحوف هو الجانب ، ورمسيس هى المدينة التى كانت قاعدة لهذا الحوف الذى كان يشمل جميع البلاد الواقعة جنوب إقليم البحيرة الحالى ، فسمى حوف رمسيس نسبة إلى قاعدة هذا الجزء من الإقليم ، وتشغل حالياً إحدى قرى مركز إيتاى البارود .

وكان يطلق على النواحى المجاورة للصحراء من حوف رمسيس اسم « الكفور الشاسعة من حوف رمسيس » أى البعيدة النائية منه ، ويظهر أنها كانت مشوبة عند العرب بالخرافات والأساطير ، فأطلقوا على جهاتها أسماء الوحوش والحيوانات الكاسرة .

وكان حوف رمسيس من الأقسام الإدارية الكبيرة فى الوجه البحرى ، وقد أنشىء فى أوائل حكم الفاطميين ، واشتمل على أكثر من مائة ناحية إدارية ، ثم ألغى هذا الحوف فى الروك الناصرى سنة ٧١٥ﻫ وبالتالى ألغيت كفوره الشاسعة ولم يعد يحسب فى الأعمال المصرية ، وأحيلت بلاده إلى « أعمال البحيرة » التى انضم إليها تبعا لذلك منطقة كوم حمادة والدلنجات والأجزاء الجنوبية من مركز إيتاى البارود ودمنهور وأبو المطامير .

وكان العرب قد أطلقوا على البلاد الواقعة على جانبى فرع رشيد اسم الحوف الغربى ، وكان يشتمل على إحدى عشرة كورة هى التى ذكرناها من قبل ، وهى حاليا كفر الزيات ودسوق وفوه على الجانب الشرقى ، وبلاد مديرية البحيرة بأكملها وبلاد لوبيا .

وجاء فى التحفة السنية أنها كانت إقطاعا فى القرن التاسع الهجرى لصرغتمش الأشرفى ثم للديوان المفرد .

الرحمانية

بلدة عربية ذكرها ابن مماتى وياقوت وابن الجيعان والسلفى والزبيدى وصاحب تحفة الإرشاد وكانت تسمى (محلة عبد الرحمن) وينسب إليها فيقال : الرحمانى. ولم يرد ذكرها فى الكتب قبل القرن السابع الهجرى ، فقد أورد السخاوى فى « الضوء اللامع » بعض علمائها منهم: محمد بن على الشمسى الرحمانى الفقيه القاضى بدمنهور وديروط والمتوفى سنة ٨٠٢ هـ [١] ، وينسب إليها أيضا داود الرحمانى من ذرية سيدى نفيس دفين الرحمانية ، ولداود هذا شهرة فى العلماء الذين تولوا الإقراء والإفتاء والتدريس بالأزهر وله مؤلفات فى شتى العلوم الدينية وتوفى سنة ١٠٧٨ هـ ودفن بتربة المجاورين [٢] .

وفى القرن التاسع الهجرى كانت (محلة عبد الرحمن) إقطاعا باسم قراجا ثم قرقماس الأشرفى ، وكذلك باسم قطلتمر العلائى الخاسكى ثم قانى بك من شاد بك [٣] .

وهى فى القرن الثامن عشر مدينة صغيرة على النيل بالقرب من أطلال مدينة (سايس = صا) وبالقرب من (نقراطيس) (٤) ، وذكرها على مبارك [٥] وأشار إلى زعم القائلين بأنها فى محل نقراطيس ، وهى لاتزال إلى الآن تابعة لمركز شبراخيت ، وقال موتسنجر إنها شمال غربى (مرقص) وبها جزيرة اشتهرت بالبصل الرحمانى ، وبها محالج و قيسارية ومعمل دجاج وأضرحة ، وقد زارها الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩١٤ فى أثناء رحلته للوجه البحرى ، وزار بها أحمد باشا محمود عميد آل محمود الذين لاتزال منهم بقية صالحة من وجهاء الرحمانية وأعيانها .

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع : جـ ٨ ص ١٥٨

(٢) المحبى : خلاصة الأثر : جـ ٢ ص ١٤٠

(٣) ابن الجيعان : التحفة السنية .

(٤) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر جـ ١ ص ٤٢٦ .

(٥) الخطط التوفيقية : جـ ١٥

ونظرا لموقع الرحمانية على النيل ، فقد حدثت على ضفافها ، وفى سهولها وقائع هامة أسهبنا فى ذكرها فى كفاح البحيرة ، كما أن نابليون قد اعتزم أن يجعلها عاصمة لمصر .

أبو حمص

لايوجد لدينا أى مرجع عن سبب هذه التسمية ، غير أن السيد أحمد خيرى ذكر لى أن رجلا صيادا هو «أبو حمص» كان يسكن فى كوخ بين كفر الدوار ودمنهور ، فلما مد الخط الحديدى ، بين الإسكندرية ودمنهور ، اختاروا مكان هذا الكوخ ليجعلوه محطة ، فلم يجدوا اسما يطلقونه عليها إلا « أبو حمص ».

غير أنها تقع على أطلال مدينة قديمة هى (شابرياس Chabrias) التى ذكرها (استرابون) فى الطريق من الإسكندرية إلى منف بعد (شيديا) واسمها القديم (قريةشابريا Chabriu Cômé) ووصل بعدها استرابون إلى (هرموبوليس) أى دمنهور .

وعرفها العرب باسم (شبرابار) وقد وصف المقريزى [١] موقعها وذكر ترعتها التى بين ترعة محلةالكروم (القروى) وترعة قافلة ، وذكرها ياقوت(٢) فى كورة البحيرة ، ووردت فى كتاب ابن الجيعان (٣) فى أعمالها حيث قال : (شبرىبار) باسم عمر بن أرغون شـاه ثم على بك الظاهرى وقانصوه والشرفى يونس وعند ابن مماتى [٤] ثم حرفت إلى (شنبار) .

وكانت أبو حمص على العموم عزبة صغيرة ثم مركزا إداريا سنة ١٨٧١ مقره دمنهور لخلوه من أماكن تصلح للإدارات الحكومية ، ومساكن للموظفين ، وكانت دمنهور نفسها تابعة لهذا المركز ، وفى سنة ١٨٨١ استقر ديوان المركز بأبو حمص .

---

(١) الخطط حـ ١ ص ١٧١

(٢) المشترك .

(٣) التحفة السنية

(٤) قوانين الدواوين

بقية بلدان البحيرة

أبلوق : كانت تابعة لثغر الاسكندرية ووردت فى « التحفةالسنية » أبلوق أبلوت ، وكانت فى القرن ٩ هـ وقفا للجامع العمرى بالاسكندرية وصارت ، ولاية البحيرة حسب دليل سنة ١٢٢٤ هـ ثم نقلت إلى الاسكندرية ، وفى سنة ١٢٢٨ هـ سميت كفر سليم .

أبو الخاوى : (بلخاوى) ذكرها ابن الجيعان فى القرن ٩ هـ باسم أصحاب لإقطاعات والأوقاف والرزق .

أبو خراشة : ذكرها ابن الجيعان وكانت باسم محمد بن نزلار ثم باسم تغرى دى الطيارى

أبو الأرانب : هى الآن عزبة كوم الأرانب ، شمال شرق البرنوجى كز دمنهور ، وكانت خرابا فى القرن التاسع الهجرى .

أبو السحا : وردت فى التحفة السنية باسم الأمير منجك ثم الأمير جهاس الإسحاقى .

أبو الشقاق : وردت فى التحفه السنية باسم المقطعين والعربان .

أبو الزرازير : مكانها الآن تل قديم بهذا الاسم قرب زاوية حمور ، وكانت ، (الكفور الشاسعة) ثم من (أعمال البحيرة) . وفى القرن التاسع جرى كانت للمقطعين والعربان .

أبو صماده : ذكرها ابن الجيعان فى القرن ٩ هـ ملكا باسم الأشرف بان ثم إقطاعا للأمير تمراز الشمسى .

أبو الضروع : كانت من أعمال حوف رمسيس ، وتسمى (أم الضروع) د المقريزى ، وهى قرية بعد جبارس .

البهى : كانت فى القرن ٩ هـ باسم المقطعين . ذكرها ابن الجيعان .

أبو الغزلان : الآن عزبة تحتل التل المسمى أم الغزلان ، وكانت فى القرن سع الهجرى بحرية وقبلية ، أماالبحرية فكانت : مقطعة لحسن بن صرغتمش ثم اقجا الحسنى ورباط السيدأحمد البدوى ، وأما القبلية فكانت : للمقطعين .

التميميات والنمـيريات : كانت فى القرن ٩ هـ باسم المقطعين والديوان .

أبو زريق : الآن عزبة بمركز إيتاى البارود .

أبو يحيى : ذكرها ابن الجيعان فى القرن ٩ باسم المقطعين .

أبيس Apis : وهى قديمة وتقع فى المقاطعة السـابعة غرب ، وتتبع حاليـا محافظة الإسكندرية ، وذكرها ابن الجيعان باسم (أبييس) وقال إنها كانت باسم الأمير خليل بن عرام ، والديوان المفرد ، والأمير يلبغا ، والأمـير خاير بك من حـــديد .

أتاربشيش Atharbéchis : ذكرها هـــيرودوت وهى الآن كوم أبو بللو بأراضى الطرانة ، وذكر ابن الجيعـان (اتريس) وكانت باسم العربان .

اتقو : أوردها ابن الجيعان فى القرن ٩ هـ باسم الأمير أقتمر عبـد الغنى ثم الديوان المفرد فى إقليم البحيرة ، ثم ذكرها فى نواحى ثغر الإسكندرية تحت اسم (إتـكو) باسم الأمير بشتاك الأشرفى ثم باسم الديوان السلطانى ، وهى الآن (إدكو) وقد أفردنا لها فصلا خاصا .

أرسـاج : أو كوم البركة تابعة لـكوم إشو مركز كفر الدوار ، وربما هى أرمياخ ، ولـكنها وردت فى « التحفة السنية » فى القرن ٩ هـ (أرساج) وتعرف ببركة قرطيطة وكانت إقطـــاعا لخليل بن عرام ثم للديون المفرد ، وكانت أيضا للمقطعين ثم لديوان الذخيرة .

أرسيس : أو أرشيس أو ارشنيس ، وحرفت إلى كوم الرصـاص بأراضى زاوية صقر .

أرما : بين الإسكندرية والحمام والآن أم سراية غربى الدخيلة .

الشراك : ذكرها الـكندى فى أحداث سنة ٢٥٣ هـ نزل بها يزيد بن عبـد الله وقد عقد له والى مصر مزاحم بن خاقان اقتتال جابر بن الوليـــد ، وذكرها ابن الجيعان إقطاعا لبعض العربان وأوقافا ورزقا لغيرهم ، وكانت باسم الأمير تمربای الحسنى ثم أزبك الاتابكى ، وقد وضع اليعقوبى كورة الشراك عـلى فرع نستروه مع سائر الـكور التى ذكرها ، وتقع على الضفة اليسرى فى مكان الأشراك الحالية

ويقول عمر طوسون إنها تحتـــل الجنوب الشرقى من قسم هرموبوليس عند جورج القبرصى .

أكانتون : بناحية النقيدى والآن محلها كوم الحصن بأبيوقا .

الأثـلة : أضيفت إلى قراقص ، وهى قديمة .

الأصلاب : وردت فى التحفة السنية إقطاعا باسم أحمـد بن يلبغـا اليحيـاوى وسودون جركس ومحمد بن بيرم بن كوحوى ثم المقطعين .

أمرى : كانت فى القرن التاسع الهجرى باسم المقطعين والعربان وللعلدار .

إمليط : ذكرها ابن الجيعان مع ظهر التمســـاح ، وكانت باسم أرغون شاه الاشرفى ثم للـديوان .

الأحياز : مستنان بشبراخيت من كفور اقانة وكانت باسم المقطعين ثم إقطاعا باسم خير بك المحمدى (انظر كفر مستنان) .

أفـلاقه : كانت فى القرن ٩ هـ باسم يلبغـا المنجكى ثم باسم الديوان وكانت أيضا لمغلطاى وأزبك اليوسفى .

أورين : كانت باسم طاز العثمانى ثم أصحـاب الرزق والإقطـاع من الأمراء والعربان ، كما ورد فى التحفة السنية .

البدقون : وذكرت بالذال أيضا ، وردت عنـــد ابن خرداذبه واليعقوبى والـكندى وياقوت ، وكانت كورة ، وورد ذكرها كثيرا فى الفتح الإسلامى .

بـــريم : ذكرها ابن الجيعان إقطـاعا باسم الديون .

بسطرا : وردت فى التحفة السنية إقطاعا باسم المقطعين والعربان والطيبغا الصفوى .

برقامـــه : كانت باسم المقطعين والعربان فى القرن ٩ هـ .

البسرير : وحرفت إلى البسرين ثم البســـاتين بمركز دمنهور ، وكانت فى القرن ٩ هـ إقطـاعا للعربان ثم وقفـــا لسودون الأشرفى ، كما ورد ذكرها فى التحفة السنية .

بيشـاى : ذكرها ابن الجيعـان لمتـولى مصر ثم للعربان وأصحـاب الرزق والإقطاعات .

التميميات : وردت فى التحفة مع النمريات ، بناحية بطورس مركز أبو حمص

بيت لامــه : ذكرها ابن الجيعــان ملـكا للمكتمر ثم للقطعين وأصحـاب الرزق وكانت خرابا فى القرن ٩ هـ .

بيـــج : ذكرها ياقوت على النيل شرق البحيرة ، بنى فيها الأمير بزكوج الناصرى فى عصر صلاح الدين معاصر للقصب .

جبـارس : كانت فى القرن ٩ هـ إقطـاعا لأرغون العزى ثم للديوان المفـرد ثم للقطعين .

الجـلمون : وردت فى التحفة ومحلهـا كوم أبو مجنـة بمركز أبو حمص ، وفى القرن ٩ هـ كانت إقطاعا باسم العربان ووقفا لخجا سودون السيفى نوروز .

الجنـان : ذكرها ابن دقماق ، وذكرت باسم تل الجنـان فى خريطة الحملة الفرنسيـــة .

الحـافر : منية السعيد بالمحمودية . ورد اسمها فى وقف الغورى سنة ٩١١هـ

الحجر المحروق : ذكرها ابن الجيعان باسم مختـار الحســـامى ثم الديوان وأرغون شاه والأمراء والمماليك السلطانية فى القرن ٩ هـ .

حـوض اليهودى : مجاور لخربتا ، وكان فى القرن التـاسع الهجرى للعربان والمقطعين ثم صار هذا الحوض خرابا .

خفـــج : وردت فى التحفة السنية باسم خفج محمد بن أبى الشقاف ، مع أم اللبن وأبو الشقـاق .

خنـيزة : (خرنيزة) كانت باسم جركس الأحمدى ثم طيبغا ثم اسنبغـا الطيارى ثم للعربان .

الخيـس : كانت كورة ذكرهـــا ابن خرداذبه وابن عبـــد الحـكم والقلقشندى عن القضاعى ، وكانت هى والشراك كورة واحدة ، والآن أم حكيم بشبراخيت ، وأصلها سوخيت Sokhit ثم حرفت ، واسمهـا القبطى (اسختيـا Esketia) أوردها إملينو فى كشف الأسقفيات بين نقراطيس وفيشـــا بلخة .

وقال جوتييه إن.سوخيت معناها مدينة الحقل وكانت جزءا من قسم نقراشيا فى تقسيم جورج القبرصى ، وكانت الخيس إحدى كور إقليم البحيرة .

دميسنا : كانت فى القرن ٩ ه للمقطعين والعربان خارجا عن ساحل العنب وبها جزء صغير للمقطعين .

الرفيقة : وردت فى (أحسن التقاسيم) بين كوم شريك والإسكندرية .

دمشلى : كانت فى القرن ٩ ه إقطاعا لإينال اليوسفى ثم لديوان المفرد .

الراهب : ذكرها ابن الجيعان باسم أصحاب الإقطاعات والرزق .

السابى : والآن كوم السابى بشبراخيت ، وخربت فى العهد العثمانى وأنشأ أهلها قرية بجوارها سموها كفر السابى ، ذكرها ابن الجيعان فى القرن ٩ه وقال إنها كانت إقطاعا لعلى بن قشتمر المنصورى ، ثم للديوان .

العمرية : من حوف رمسيس وكانت وقفا للسادة الأشراف ثم للعربان ومن معهم .

العمريات : ذكرها ابن الجيعان باسم العربان ثم وقفا للمكتمر العلائى .

العورا والقسطالة : كانت باسم المقطعين ثم باسم الأمير خشقدم مقدم المماليك

الفاطس : (الفاطر) ذكرها ابن الجيعان من حقوق فيشة بلخا وكانت رزقة لفاطمة بنت محمد ومن معها .

القاعة : وردت فى (تحفة الإرشاد) منية طراد .

القهوقية : كانت فى القرن ٩ ه باسم المقطعين وأصحاب الأملاك والرزق

الكوم الأحمر : أو الطابية الحمراء : على ضفتى الفرع الكانوبى المندثر عند ساحل البحر ، مكان معبد « هرقليوم » المندثر ، بين الطرح والمعدية ؛ ووردت فى القرن ٩ ه باسم المقطعين ثم باسم متولى الغربية ، وكانت خرابا فى عصر ابن الجيعان .

الليونة : قديمة من ضواحى الإسكندرية ، ذكرها ابن مماتى وابن دقماق .

اللقانة : أصلها (نقانة) واسمها القديم بالقبطى(لاكان Lakan) وذكر جوتييه باسم راكام Rakaâm ، وذكرها ابن مماتى وابن الجيعان والزبيدى

وغيرهم ، وكانت فى القرن ٩ ﻫ باسم (نقانة المرسا) من نواحى بروجة باسم الخاص ثم ديوان المفرد ثم باسم لقانة إقطاعا لمارلباى الظاهرى ثم لأزبك محمد ططخ الأتابكى .

الناصرية : نسبة إلى الملك الناصر قلاون ، ووردت فى « النجوم الزاهرة » . فقد أنشئت بعد حفر خليج الإسكندرية سنة ٧١٠ ﻫ على هذا الخليج ، وفى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى سميت « كفر نكلا » لأن بعض الأهالى من نكلا العنب عمروها

النقيدى التراز : (البزاز — البزار) وكانت باسم المقطعين والعربان .

النجوم : كورة قديمة ، ذكرها ابن خرداذبه واليعقوبى والقضاعى والمقريزى والقلقشندى ، اندثرت ولم يبق منها غير إدكو ، وذكرها أيضا ابن الجيعان فقال : أرض تعرف بالنجوم عبرتها ألفا دينار ، وقف أولاد الربعى .

إيلوزيس Eleusis : ذكرها استرابون ، وكانت تقع على ترعة كانوب قبل تفرعها إلى فرع كانوب وشيديا ، مكانها الآن حديقة النزهة وذكرها على مبارك (بيلوزة) و (إيلزى) ، كانت فى مقاطعة البحيرة ، والآن فى الإسكندرية .

برج مغيزل : ذكرها السلفى فى « معجم السفر » والسخاوى فى « الضوء اللامع » وتقع بين البصيلى ورشيد ، وينسب إليها فيقال (البرجى) .

بردجان : كانت من أعمال البحيرة والآن من نواحى الإسكندرية بين الكريون والخيار والتين ، وأقطعت للعربان .

برشوط : الآن « كفر مساعد » بإيتاى البارود ، وكانت فى القرن ٩ ﻫ باسم المقطعين ، ووقفا لقراقجا الحسنى ثم إقطاعا للعربان .

بوقليوط : وردت فى « تحفة الإرشاد » فى الكفور الشاسعة من أعمال حوف رمسيس ؛ محلها عزبة كوم قليط بناحية (ديرأمس) أبوحمص .

إدفينا : قديما تفينه وإتفينا ، وردت فى إقليم فوة والمزاحمتين باسم (إتفينه) وقفا للأشرف شعبان بن حسن فى « التحفة السنية » وقوانين الدواوين ، وكانت

قسما إداريا سنة ١٨٢٦ ، ثم نقل إلى العطف سنة ٨٤٣ ثم ألحقت بمركز رشيد سنة ١٨٩٦ ، وذكر على مبارك أن بها حديقة والدة عباس ، وقصراً كبيراً .

تلبانة : ا — « تلبانة الأبراج » ذكرها ياقوت والمقريزى وهى من حوف رمسيس ، مندثرة ، ومكانها القديم تابع الآن لدست الأشراف حيث عزبة سيدى سراج .

ب — « تلبانة البحرية » وردت فى « تحفة الإرشاد » من الكفور الشاسعة وهى غير معروف مكانها الآن .

حـ — « تلبانة البحرية » وهى تلبانة عدى بمركز إيتاى البارود ، وهى التى ذكرها ابن الجيعان ، وكانت باسم المقطعين .

تلمسا : ا — تلمسا الصغرى مكانها الآن تل بكرج جنوب غرب « قافلة » بأبو حمص ، وكانت باسم العربان فى القرن ٩ هـ .

ب — تلمسا الكبرى مكانها كوم القناطر بزمام قافلة وكانت باسم العربان المقطعين فى القرن ٩ هـ وصارت باسم طيدمر البالسى ثم باسم ديوان المفرد والمقطعين .

حلق الجمل : هى الآن عزبة ، وبها محطة صرف .

حوض الدكاوى : لعله حوض الإدكاوى ، وهو كما ورد فى تاريخ ١٢٢٨ هـ « غيط من حيط » وهو غير حوض الدكوية الذى ذكره رمزى ووضعه بناحية أجهور الكبرى مركز قليوب »

حوض الفرس : ورد فى « تحفة الإرشاد » على أنه فى حوف رمسيس ، وفى « مباهج الفكر » على أنه فى البحيرة .

خالى الجنى : ذكرها الزبيدى بالقرب من رشيد ، هى الآن « القنى » على الضفة اليمنى لفرع رشيد ومقابلة لرشيد ، وكانت القنى فى العصر العثمانى فى القرن ١٠ هـ ، وقفا على أعمال البر فى عهد السلطان سليمان .

دبست : وردت فى « تحفة الإرشاد » من قرى حوف رمسيس ، وفى « الانتصار » و « قوانين الدواوين » من أعمال البحيرة ، من أراضى الجدية حاليا

دبيسة : من كفور تروجة كما جاء فى « التحفة » ، ولكن المقريزى جعلها من كفور محلة الكروم (= القروى) بناحية زاوية نعيم بأبوحمص ، ذكرها ابن الجيعان فى القرن ٩ هـ فقال [إنهـــا كانت لبلوط الصرغتمشى ثم صارت للديوان المفرد]

درشا ودرشو : كما جاءت فى « التحفة » هى الآن زاوية أبوشوشة بالدلنجات وكانت فى القرن ٩ هـ للمقطعين .

دسيو : كان بها رزق فى القرن ٩ هـ ثم صارت إقطاعا لموسى بن ديدار بن قزمان ثم بهادر الجمالى ثم سودون جركس .

دقرص : وردت فى « التحفة » محلها كوم الشوكة بدمنهور .

دلنجة : من حوف رمسيس كما جاء فى تحفة الإرشاد » ومن أعمال البحيرة كما ذكر صاحب « الانتصار » ؛ والآن كوم دلنجة غرب الدلنجات ، وكانت فى القرن ٩ هـ باسم المقطعين والعربان .

دمشـــويه : وردت فى « التحفة » و « المقريزية » و « تاج العروس » وفى دليل سنة ١٢٢٤ هـ ويرى رمزى أنها حاليـــا « زاوية غزال » بدمنهور ، تغير اسمها فى العهد العثمانى ، وكانت فى القرن ٩ هـ وقفا للأمير يونس العـــلائى وغيره من المقطعين .

ديبى : قديما ديبه Db أو Dbi ذكرها جوتييه فى قاموسه ، وورد ذكرها فى قوانين الدواوين والتحفة السنية والخطط التوفيقيـــة وتاريخ سنة ١٢٢٨ هـ وكانت من أعمال فوة والمزاحمتين ثم من ولاية البحيرة ، ذكرهـا ابن الجيعـان فقال ديبى وهى ديبة والسواقى المعروفة بيشا (بشاى) .

دير الزجاج : غرب الإسكندرية . ويرى (أملينو) أنها دير الهانطون .

ديمتمويه وسرسيقه : (دمتيزة) كانت فى القرن ٩ هـ إقطاعا باسم قرابغـا الأحمدى ثم إينال الحسنى .

ششت : كانت لسودون جركس ثم لديوان المفرد .

سندبلس : ذكرها ابن حوقل وياقوت ، الآن سماديس أو سمديس بالمحمودية.

سواقى غرلو الجوكندار : وردت فى التحفة السنية باسم محمد بن قطلوبغا الذهبى ثم باسم المقطعين .

سوخيت : Sokhit ذكرها « جوتييه » وهى الخيس بالقرب من شبراخيت ، وسماها العرب « أم حكيم » غرب الأشراك .

شبرى بار : كانت فى القرن ٩ ه باسم عمر بن أرغون شاه ثم على بك الظاهرى ثم قانصوه ويونس .

شبرى النخلة وحوض القضابة وكفر حريز : وكانت باسم صربغا الناصرى ثم الديوان المفرد .

شارنباره : الآن الجرادات بأبو حمص .

شبرى نونه : كانت باسم حمزة بن سنقر المحمدى ثم تغرى برمش السيفى ثم يشبك من أزدمر .

شبرى وسيم : كانت للمقطعين فى القرن ٩ ه .

شديا : Schèdia ذكرها « جوتييه » ، والآن تل النشو بكفر الدوار .

شقرا : وردت فى « التحفة » بالفاء و « الخطط المقريزية » محل تل كوم البارود بحوف رمسيس قديما ، وردت فى القرن ٩ ه باسم المقطعين والعربان .

شقراسه : وردت فى « تحفة الإرشاد » بالكفور الشاسعة من حوف رمسيس

شنشا : وردت فى « التحفة » بالكفور الشاسعة من حوف رمسيس وكانت باسم المقطعين والعربان فى القرن ٩ ه .

شنشير : وردت فى « التحفة » وكانت قديما « سنسيج » بولاية البحيرة ، شملتها « محلة بشر » الآن ، وجزؤها الغربى يسمى الآن « حارة سنسيج » وكانت فى القرن ٩ ه باسم محمد بن طقتمر النظامى ثم لديوان المفرد .

صفط اليمن : وردت فى تاريخ سنة ١٢٢٨ ه بخط شبراخيت ، والآن توزع زمامها على زمزم والمناشله والكفر الجديد بشبراخيت .

راكام : Rakaâm ذكرها (جوتييه) وخلط (بروكش) بينها وبين لقانة ، أما الأولى فهى علقام بمركز إيتاى البارود ، وقد ذكر ابن الجيعان (علقام) باسم المقدمين وأصحاب الرزق فى القرن ٩ ه .

شابور : اسمها المصرى سابور ، ذكرها الإدريسى ، ثم ابن الجيعان فقال: إنها فى القرن ٩ هـ كانت لمثقال الجمالى الأشرفى ثم لتانى بك الجمالى .

صبخيت : Sabkhit chmat ذكرها « جوتييه » و « إملينو » و هى الآن شبراخيت ، واسمها المصرى القديم Sabkhit .

سدرشا : وردت فى « تحفة الإرشاد » و « التحفة السنية » و « تاج العروس» وكتاب وقف الغورى » وسميت كفر سدرشه وهى الآن كفر شبراخيت ، وكانت فى القرن ٩ هـ باسم أحمد بن محمد بن لاجين ثم صارت للمقطعين ورزقا .

سفط الملوك : وردت فى « تحفة الإرشاد » و « التحفة السنية » و « قوانين الدواوين والانتصار » سماها المقريزى « سفط أبى زينة » باسم الشيخ المدفون بها ووردت فى تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ باسم « صفط الملوك والأحكام » وكانت فى القرن ٩ هـ وقفا للسيفى منجك ، وفى عهد الثورة أطلق عليها « سفط الحرية » .

سمرو : ذكرها المقريزى ، والآن عزبة كوم الصبيبة بزاوية صقر مركز أبو المطامير .

سنبا : ذكرها الزبيدى وهى سنباده بالمحمودية ، كانت فى القرن ٩ هـ للمقطعين ثم للملك الأشرف قايتباى .

سنطيس : أصلها سلطيس ، ذكرها الواقدى إذ أرسل أهلها مددا للروم فى موقعة الكريون ، وانهزم فيها الروم أمام (شريك) ، وذكر ابن عبد الحكم أن من أهلها : عمران بن عبد الرحمن بن جعفر بن ربيعة ، وأم عون بن خارجة الخرشى العدوى ، وأم عبد الرحمن بن معاوية بن معاوية بن حديج وهم الأسرى الذين عملوا فى خدمة مروان بن الحكم ، ومنها أيضا أبان وعمه عراض وكانت فى القرن ٩ هـ باسم الأشرف شعبان وإخوته ثم للديوان ، وذكرها على مبارك فى الجزء ١٢ من خططه .

صفيطة : وردت فى تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ بخط شابور ، وذكرها الزبيدى باسم « سفط السلمون » بالكفور الشاسعة .

طخيخ : ذكرها ابن الجيعان باسم المقطعين والعربان .

طرانة برنـــوج : بولاية البحيرة وردت بدفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩ ه والآن ملاحـة الطـرانة جنوب البرنوجى بدمنهور وذكر ابن الجيعـان الطرانة إقطاعا باسم مختار الحسامى ثم عـلى باى المحمدى ثم الديوان ، كما ذكر أيضـا فى مكان آخر (برنوج) باسم المقطعين والعربان .

طرهونة : الآن عزبة الطرهونى بالأقبعين .

طلموس : ذكرها ابن الجيعـان إقطـاعا لأبغـائورشيخو ثم للديوان المفرد والمقطعين .

طلمسوس : أو طلمشوش وهى حاليـا سحالى ، وبالقـرب من (القروى) حوض مجاور لسحالى اسمه طلمشوش ، ووردت فى التحفة السنية إقطـاعا باسم نصر البالسى ثم لاجين الظاهرى

طمـــط : ذكرها ابن ممـاتى .

طملاس : ذكرها ابن الجيعان إقطـاعا باسم مغلطاى البـــدرى ، ثم لديوان الدولة .

طوخ دجانة : وردت فى « مباهج الفـكر » و « قوانين الدواوين » و « تاج العروس » و « التحفة » حيث ذكرت كإقطاع لأبى بـكر بن طاز ثم المقطعـين ، ثم باسم حاج بن مغلطاى ثم للديوان المفرد والأمير يونس النوروزى .

طيبـــه : وردت فى التحفة السنية باسم العربان ثم الديوان المفرد .

قـلاوة بنى عبيـــد : ذكرهـا المقريزى ، كانت فى حوف رمسيس ثم الآن ضمت إلى القلاوة بـكوم حمادة.

قلمـــين : وردت فى « مباهج الفـكر » و « تحفةالإرشاد » من أعمال البحيرة

قليعة بدران : وردت فى التحفة محرفة ، والآن عزبة كوم بدران بزرقون.

كرفسـه : (كرفيه ، كرقة) وردت فى « تحفـة الإرشـــاد » و « قوانين الدواوين » و « التحفـة السنيـة » كانت من ضواحى الإسكندرية ، وكانت من أعمـال البحيرة ، وكانت إقطاعا للعربان فى القرن ٩ ه.

كســـا : وردت فى « فتوح مصر » و « الانتصـار » كان الروم يسمونهـا (شيديا) والآن « كوم النشو » بالنشو البحرى .

كوم التلول : ذكرها المقريزى . الآن عزبة كوم الطيار بنقرها .

كوم الطبول : وردت فى « التحفــة » بزاوية حمور بالدلنجـــات ، وكانت باسم العريان .

[كوم الشاه] ، [كوم الضبع] ، [كوم العقبـان] ، [كوم الغيلان] ، [كوم البقر] ، [كوم الحور] ، [كوم البصـــل] ، [كوم الولائد] ، [كوم عز الملك] ، كلها أماكن عربية من الكفور الشاسعة بحوف رمسيس ، وردت فى « تحفة الإرشاد » و « التحفة السنية » و « قوانين ابن مماتى » .

محلة الأمير : وردت فى « تحفة الإرشاد » و « التحفـة السنيـة » و « قوانين الدواوين » من أعمال البحيرة وكانت من أعمال فوه والمزاحمتين ، وقال ابن الجيعان إنها كانت باسم الشريف أمير المدينة المنورة فى القرن ٩ هـ ، وكانت ملكا لشيخو .

[محلة الخلفاء] ، [محلة الكنيسة] ، [محلة حسن] (بين فرنوى وإمرى) ، [محلة ديا] ، [محلة زيال] ، [محلة مارية] ، [محلة مرقة] ، [محلة مسروق] ، [محلة خروف] ، [محلة نصر] ، [محلة نمير] ، [محلة مصيل] ، كلها فى البحيرة ذكرها مع التفاوت : ياقوت والمقريزى والزبيدى ، وابن الجيعان ، وابن دقماق ، وغيرهم ، بعضها فى الكفور الشاسعة ومعظمها فى ولاية البحيرة .

منية الجبالى : وردت فى « تحفة الإرشاد » بالكفور الشاسعة .

منية الزجاج : ذكرها ياقوت ، كانت على خليج الإسكندرية ، وكان يوجد بها دير للأرثوذكس فى القرن الخامس الميلادى ، وقتل به مكاريوس أسقف إدكو ، وبها قبر عتبة بن أبى سفيان مات بالإسكندرية فى ولايته على مصر سنة ٧٤ هـ ودفن بها ، ودخلت فى حدود الإسكندرية ، وتسمى الآن « معمل القزاز » .

منية القرآن : ذكرها على مبارك ، شمال كفر محلة داود وشرق سنهور ، والآن بكفر الشراقوه تابعة لمنية بنى موسى بدمنهور .

هات إست : « Hat Ist = قصر إيزيس » ذكرها (جوتييه) و (برش)

و (بروكش) ، وهى الآن دست (دست الأشراف) بكوم حمادة .

هات شات + هات شاو : « قصر الرمال » قال « جوتييه » هى قلعه شيدها الملك (منفطة) على حدود ليبيا لصد هجمات البدو ، والآن « درشاى » على حدود صحراء ليبيا بالدلنجات .

ياطس : ورد هذا الاسم فى « التحفة » والآن مكانهـا عزبة كوم ياطس بناحية بويط بالمحمودية ، وكانت فى القرن ٩ هـ باسم المقطعين .

الأبقعين : (أصلها الأبيقع) بخط حاجر بنى عونة ، كانت فى القرن التاسع الهجرى للمقطعين ثم للديوان المفرد ثم للأمير طشتمر الصلاحى ثم للذخيرة .

القرينين : كانت تابعة لأبو حمص ثم ضمت إلى الكوم الأخضر .

النمرية : وكانت النميريات والتميميات ثم صارت تابعة لأبو حمص .

كفر الواق : (وأصلها قبر روق) تابعة لأبو حمص .

أبو المطامير : كانت تابعة لأبو حمص ثم صارت مركزاً سنة ١٩٣٠ .

البوطة : عربية معناها البيت المبنى بالطوب .

الرزيمات : وهم جماعة من العرب نزلوا بها فنسبت إليهم .

الغيتة : نسبة إلى ذرية الشيخ غيث الدين الذين استوطنوها .

[الكردود] ، [كوم حفين] ، [المهدية] ، [النجيلى] ، [أولاد الشيخ] ، [الياسينية] ، [حرارة] ، [زاوية سالم] ، [زاوية صقر] ، [كوم الحنش] .

حوش عيسى : نسبة إلى شيخ العرب الأمير عيسى بن إسماعيل أمير بنى عونة ، ومن كبار أعيان القرن العاشر الهجرى وصارت مركزا فى آخر تقسيم إدارى .

منشاة ثروت : أنشأها عبد الخالق باشا ثروت المتوفى سنة ١٩٢٨ .

منشاة جناكليس : « نستور جناكليس » تاجر الدخان اليونانى بمصر .

منشاة خياط باشا : « خليل خياط باشا » من كبار تجار الإسكندرية .

الصخرة : بلدة قديمة ذكرها المقريزى ، والآن هى كوم الصخرة ، ووردت فى تربيع سنة ٩٣٣ هـ ودفتر مقاطمات سنة ١٠٧٩ وتاريع سنه ١٢٢٨ هـ .

القروى : كانت قديما تسمى «محلة الكروم» وتنسب إلى الشيخ محمد القروى المدفون بها وله مقام ، ورد اسمها فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية .

النخلة البحرية : قديما (أبو الغزلان البحرية) ذكرها صاحب التحفة ووردت فى تربيع سنة ٩٣٣ باسم « النخلة » ، وفى سنة ١٨٨٤ وردت باسم « النخلة البحرية » .

برسيق : قديما (أبرشيق) ذكرها ابن حوقل بين قرنفيل (قابيل) والكريون وذكر أنه كان بها جامع وبيع للنصارى وأسواق وقال إنها كورة كبيرة ، ووردت فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية وكانت فى القرن ٩ ﻫ باسم يلبغا المحمدى ثم باسم المقطعين وقد جددت الحكومة المصرية مساكنها سنة ١٩٤٠ على إثر ما أصابها من الدمار على يد جحافل النمل الأبيض .

بركة غطاس : قديما (بركة فضال) ذكرها ابن دقماق ، وقال عنها موتسنجر : بها حديقة ومكتب وجامع وطاحونة هواء .

بسنتاواى : قديما (بسنتويه) ذكرها ابن مماتى وابن دقماق ، أما ابن الجيعان فقد ذكر (باجيه بسنتوه) وقال إنها إقطاع باسم مبارك الطازى ثم وقف الملك الظاهر جقمق على الحرمين ثم صارت باسم المقطعين .

بطورس : ذكرها (إملينو) و (ابن مماتى) و (ابن الجيعان) ، تنسب إلى القسيس اليونانى باتلاس (بطورس) الذى لقى قسيسا آخر اسمه مقنار عند جبل برنوج ، وكانت فى حوف رمسيس ثم من عمل البحيرة ، ووردت فى التحفة السنية إقطاعا باسم أرغون الأشرفى ثم باسم الديوان .

بلقطر : قديمة وردت فى تحفة الإرشاد والتحفة السنية والانتصار ومعجم البلدان وقوانين الدواوين ، اشتهرت بصنع عباءات من الصوف لا يعمل مثلها فى الدنيا ، كما يقول ابن دقماق ، وكانت فى القرن ٩ ﻫ باسم الأمير على بن الأشرف شعبان ثم لديوان الدولة ، كما كانت للأمير جانى بك المحمدى التاجر .

دسونس الحلفاية : قديما دسونس المقاريضى التى ذكرها ابن الجيعان فى

القرن ٩ هـ وكانت لجامكية البازدارية ثم لخاير بك العلائى ، ويفصل المقريزى بين ناحيتين : دسونس والحلفاية ثم صارتا بلدا واحدا ، وردت فى تحفة الإرشاد ، والتحفة السنية والانتصار .

دير أمس : قديمة وردت فى التحفة السنية بكسر الهمزة ؟ وكانت للمقطعين ثم صارت وقفا لمدرسة السيفى أيتمش البجاسى فى القرن التاسع الهجرى .

زاوية نعيم : قديما (دبيسة) من كفور تروجة ، وهى عند المقريزى من كفور محلة الكروم ، وقيل أصلها (دست) أيضا واندثرت ومكانها الآن عزبة كوم دميسة ، وأشهر توابعها فى القرن الحادى عشر الهجرى « زاوية نعيم » نسبة إلى الشيخ نعيم عبد السلام الأسمر المغربى من زليطش بطرابلس الغرب ، وله جامع ومقام بها .

سحالى : (طلشوش) قديما ، وتنسب إلى عمدتها سنة ١٢٤٥ هـ الشيخ محمد إبراهيم سحالى ، وذكرها ابن مماتى وابن دقماق وابن الجيعان .

كفر حصام : قديما (قبر عصام) ، أو كفر عصام من أعمال حوف رمسيس ثم البحيرة ، ورد ذكرها فى ابن مماتى وتحفة الإرشاد والتحفة السنية ، وتواريع سنة ١٢٢٨ هـ و سنة ٢٤٥ هـ وكانت فى القرن ٩ هـ إقطاعا لعبد الله ابن محمد بن طرغيه .

قاولة : كانت وقفا للأشرف قايتباى كما ذكر ابن الجيعان فى «التحفة السنية»

كفر عزاز : قديما (الراهب) ، وضمت إلى برسيق ، وجاء ذكرها فى (التحفة) .

كوم البصل : قديما (كوم الولائد) ذكرها المقريزى ، وهى من قرى مركز أبو حمص ، وقد ألغى اسم (كوم البصل) نهائيا ، وأصبحت تسمى (قرية الشهيد جواد حسنى) شهيد بور سعيد سنة ١٩٥٦ ، لأنها قرية والده السيد على زين العابدين وقد أقام السيد وجيه أباظه نصباً تذكاريا فى نادى هذه القرية بحضور مندوبين عن المجلس الأعلى لرعاية الشباب ، بمناسبة عيد النصر سنة ١٩٦٦ ، ومن ثمت أصبح يطلق عليها هذا الاسم الجديد ، تخليدا لذكرى شهدائنا الأبرار من أبناء البحيرة .

كوم القناطر : قديما (تلسا الكبرى) ورد ذكرها فى (التحفة) و (الانتصار) والخطط المقريزية وتاريخ ١٢٢٨ ﻫ .

محلة كيل : وردت فى بعض الكتب هكذا « محلة كيك » و « محلة كبيل » ، ذكرها ابن مماتى وابن دقماق وابن الجيعان وغيرهم .

أبو الخزر : (أبو الخضر) كما وردت فى جدول سنة ١٨٨٠ م ، وفصلت من بستاواى فى تاريخ سنة ١٢٥١ ﻫ .

[الجرادات] ، [الجسرن] ، [الحرفة] ، [الدراوية] ، [الرزقة] ، [الزينى] (أنشأها قناوى الزينى من الإسكندرية سنة ١٩٢٥) ، [الغابة] ، [منشأة دميسنا] (تكونت سنة ١٨٩٢) .

روضة خيرى باشا : كانت تسمى (كوم المجاير) لكثرة الجير فى تلالها، وقد أنشأها سنة ١٩٢٠ أحمد خيرى باشا مدير البحيرة ، وأسس بها ولده السيد العلامة أحمد خيرى مكتبة تضم أكثر من ٢٢ ألف مجلد فى شتى العلوم واللغات ، مخطوطة ومطبوعة ، وله على الكثير منها تعليقات قيمة ، وقد زرتها وأعجبت بنوادر المؤلفات فيها .

إتياى البارود : ذكرها أملينو وابن مماتى والزبيدى ، وذكرها ابن الجيعان فى القرن التاسع الهجرى باسم (أتييه ومنيتها) وكانت للمقطعين والعربان ثم للديوان المفرد ، واسمها القبطى (إيتى Eiti) وتحولت إلى (إتييه) فى حوف رمسيس ، ثم البحيرة ، وأنشىء بها معمل للبارود فى العصر العثمانى فسميت بالتركى (إتييه باروت) ثم برزت فى تاريخ سنة ١٢٢٨ باسم (إتياى البارود) وصارت مركزا للدلتجات سنة ١٨٨٤ ثم سمى مركز إتياى البارود سنة ١٨٩٦ .

أرمنية : أو أرمانيه ، وبالقبطى (أرمونيم) ، منها اشترى أحد القسس قمحا للتدليس باخوم فى وقت اضطهاد المسيحية بالإسكندرية ، ورد ذكرها فى قوانين ابن مماتى وتحفة الإرشاد والتحفة السنية ، وكانت فى القرن التاسع الهجرى إقطاعا لخليل بن عرام ثم الديوان المفرد .

البهسى : بلدة قديمة وردت فى قوانين ابن مماتى وتحفة الإرشاد فى حوف رمسيس ، وفى التحفة من أعمال البحيرة ، وصححها المقريزى هكذا : البهوط ، وهى غير (بهوت) وذكرها ابن الجيعان ، وكانت للمقطعين فى القرن ٩ هـ .

الضهرية : قديما (الظاهرية : محلة ببيج) ذكرها ابن حوقل وابن مماتى فى قرى حوف رمسيس ، وفى « الروك الحسامى » باسم منية ببيج ، وفى تحفة الإرشاد ، فى حوف رمسيس ، وفى « الروك الناصرى » الظاهرية وسميت باسم الظاهر بيبرس بمناسبة حفره خليج الإسكندرية سنة ٦٦٢ هـ ابتداء من « منية ببيج » وفى تاريخ سنة ١٢٢٨ الظهرية ، والآن الكريون . وذكرها ابن الجيعان وهى (منية ببيج) وكانت باسم المقطعين فى القرن ٩ هـ ، وكانت فى العصر العثمانى من الموقوفات على تكية السلطان مراد بالمدينة المنورة .

العوامر : قديما (العمريات) ورد ذكرها فى « التحفة » و « الانتصار » وفى « دفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩ هـ » وفى « تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ » وكانت باسم « العميريات » ثم « كفر العوامر » ومن سنة ١٢٧٣ هـ « العوامر » .

النبيرة : وردت عند ابن مماتى من أعمال حوف رمسيس ، وفى «التحفة السنية» من البحيرة ، وذكرها المقريزى باسم النبيرية ، وكانت فى القرن التاسع الهجرى للأوقاف الحكمية ثم لطشتمر الصلاحى ثم لبرسباى المحمودى .

برقامة : وردت عند ابن مماتى من أعمال حوف رمسيس ، وفى « التحفة» من أعمال البحيرة ، وذكرها الزبيدى وجوتييه Rakaàm وقال بروكش : إنها علقام بكوم حمادة .

جنبواى : أصلها القديم (جنبويه) وينطقها العامة جبواى وجنبيه ذكرها الكندى فى أحداث سنة ٢٥٢ هـ باسم جنبويه وقال إنها من كورة البدقون وذكرها صاحب تحفة الإرشاد والتحفة وذكرها ابن مماتى . وينسب إليها فيقال الجنبيهى ، وقال عنها ابن الجيعان فى القرن ٩ هـ إنها كانت للمقطعين ثم للديوان المفرد .

خمارة : وردت باسم « الخمارتين » عند ابن مماتى وتحفة الإرشاد من أعمال حوف رمسيس ، وباسم « الخمارة » فى الروك الناصرى ، وأيضا حوض خمارة وخمارة دكدوكة وذكرها صاحب « التحفة » ثم انفصلتا سنة ١٢٢٤ ، وفى سنة ١٢٢٨ خمارة فقط ، وفى دليل سنة ١٢٢٤ دكدوكة وتعرف بدقدوقه ، وكانت فى القرن ٩ هـ تسمى (خمارة دكدوكة) وكانت للوقف الصالحى ثم للمقطعين والعربان ، وذكرها ابن الجيعان فى مكان آخر باسم (الخمارة) وكانت ملكا لدمرداش المحمدى .

شبرا النونة : ذكرها أملينو باسم تيجيفرونيه Tidjephroné ذكرت فى المشترك وتحفة الإرشاد والتحفة وغيرها ، كانت من أعمال حوف رمسيس ثم البحيرة .

ششت الأنعام : ذكرها ابن مماتى : ششت من حوف رمسيس ثم ذكرها ابن الجيعان من البحيرة .

شنديد : قديمة ، وردت فى تحفة الإرشاد ، وفى التحفة السنية بهذا الاسم وكذلك (شندويد) وكانت لطنبغا الصفوى .

صافية : (صيفية) كانت فى حوف رمسيس ثم فى البحيرة ، وذكرها ابن مماتى وابن الجيعان وابن دقماق . ووردت فى تاريخ سنة ١٢٢٨ صفية .

صفط خالد : سفط القرعة بشبراخيت . ووردت فى « المشترك » و « قوانين الدواوين » و « تحفة الإرشاد » و « التحفة السنية » و « الخطط التوفيقية » .

ظهر التمساح : ذكرت مع « إمليط » فى « التحفة السنية » .

قادوس : قديما « محلة جعفر » من حوف رمسيس ثم البحيرة . وبها جامع وفيه عمود عليه تاريخ ٦٤٧ هـ وردت فى قوانين ابن مماتى و « تحفة الإرشاد » و « التحفة السنية » .

قليشان : كانت فى حوف رمسيس ثم صارت فى البحيرة ، وكانت فى القرن ٩ هـ وقفا للأشراف العثمانيين .

كفر مساعد : قديما برشوط ، كانت فى حوف رمسيس ثم البحيرة ، ووردت فى « مباهج الفكر » و « تحفة الإرشاد » ودليل سنة ١٢٢٤ هـ .

كنيسة الضهرية : قديما (كنيسة مبارك) وقيل (كنيسة منازل) كانت فى حوف رمسيس ، ووردت فى « تحفة الإرشاد » و « التحفة السنية » و «الانتصار» و « دليل سنة ١٢٢٤ هـ » .

محلة عبيد : قرية قديمة ، وردت فى « القوانين » و « تحفة الإرشاد » و« التحفة السنية » ثم سميت «منية بنى منصور » فى القرن ٩ هـ وكانت للمقطعين ثم للعربان وكانت تمنح رزقة ، وسميت أيضا منية محلة عبيد .

معنيا : قديما (محلة معن) كانت فى حوف رمسيس ، وفى « التحفة » معنية، كانت باسم المقطعين والعربان فى القرن ٩ هـ.

نكلا العنب : ذكرها املينو باسم (أكيلا Aqèla) ووضعها بالقرب من صا الحجر ، ويرى رمزى أن أكيلا هى نكلا ، ثم سميت محلة نكلا ، وفى العهد العثمانى عرفت باسم « نكلا العنب » ذكرها ابن مماتى وابن دقماق وابن الجيعان ووردت فى تحفة الإرشاد ، أما كفر نكلا فقد عمره حوالى سنة ١٢٠٠ هـ جماعة من نكلا العنب بعد اندثار الناصرية التى نشأت على الخليج الناصرى سنة ٧١٠ هـ باسم الناصر قلاون وعمرها المقداد بن شماس وأولاده ، ثم ضمت إلى سنباده بعد خرابها .

[إبراك حمام] ، [الإبراهيمية] ، [التوفيقية] ، [الحوتة] ، [الخوالد] ، [الدرملية] ، [الروقة] ، [الشعيرة] ، [العيون] ، [جبارس] ، [زبيدة] ، [أبو زريق] ، [كفر العسكرى] ، [كفر أبو مندور] ، [كفر الحاجة] ، [كفر الحناوى] ، [كفر الستا] ، [كفر الشيخ مخلوف] ، [كفر الغابة] ، [كفر خليفة] ، (من كفر خليفة الناقورى) ، [كفر عسكر شنديد] ، [كفر عسكر صقط] ، [كفر عوانة] ، [كفور السوالم] ، [منشاة الصيرفى] ، [وأثريات فاضل باشا] .

كل هذه البلاد فصلت فى تواريخ متفاوتة ما بين سنة ٩٢٣ هـ و سنة ١٢٧٣هـ

وصارت لها وحدة ، وكلها فى مركز إتياى البارود .

الدلنجات : قاعدة مركز الدلنجات منذ سنة ١٨٧١ ، اسمها القديم « الاسم الطيب » كما فى « التحفة السنية » و « الانتصار » وتقع شرقى قرية دلنجة وكانت فى حوف رمسيس ثم أصبحت من أعمال البحيرة ، وكانت إقطاعا لمتولى البحيرة ثم صارت خرابا فى القرن ٩ هـ ثم أعطيت للمقطعين ، ووردت فى دفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩ هـ باسم « دلنجا عافية » ، وأصابها الخراب فى العصر العثمانى ، فانتقل أهلها إلى قرية « الاسم الطيب » فصارتا بلدا واحدا سمى « الدلنجات » ، ولما أنشىء مركز الدلنجات كانت قاعدة له سنة ١٨٧١ ثم نقل ديوان المركز سنة ١٨٨٤ إلى إيتاى البارود لوقوعها على محطة السكة الحديد ، وفى سنة ١٨٩٦ أنشىء مركز إيتاى البارود ، وفى سنة ١٩٠٦ صارت الدلنجات مركزا للمرة الثانية .

المخايض : وردت فى التحفة السنية إقطاعا باسم المقطعين والعربان وأصحاب الرزق .

المحيللات : وردت بها أيضا إقطاعا باسم يونس الصلاحى ثم باسم أحمد بن عبد الغفار ثم باسم أصحاب الرزق .

المرج : ذكرها ابن الجيعان فى كفور انانة ، إقطاعا باسم مثقال الجمالى الأشرفى ثم للمقطعين .

المسين : كانت فى حوف رمسيس ثم البحيرة ، ذكرها ابن مماتى وابن الجيعان وهو الذى قال إنها كانت إقطاعا لأيدمر من صديق ثم لشادى بك المحمدى ثم للمقطعين ثم كانت رزقا وفيها وقف للأزهر الشريف .

المعيصرة : ذكرها ابن الجيعان باسم المقطعين ثم أصحاب الرزق .

جزائر عيسى : بلد قديم ورد فى « التحفة السنية » .

رزافة : أصلها (ورزافة) ذكرها المقريزى (منية ورزافة) وفى «الانتصار» و « التحفة » ورزافة فقط .

زاوية أبو شوشة : أصلها « شقراء » من حوف رمسيس ، وردت فى « تحفة الإرشاد » و « الخطط المقريزية » .

قبور الأمراء أصلها (نبتيت) ومعناها قبر المرأة . من الكفور الشاسعة ، ثم صارت فى البحيرة ، ذكرت فى « تحفة الإرشاد » .

قمحة : وردت فى « التحفة السنية » من الكفور الشاسعة وكانت باسم العربان والمدرسة السنقرية .

كوم زمران : أصلها (طوخ دخايه) من حوف رمسيس ، مجاورة لزمران النخل .

الوفائية : قديما (اليهودية) فى حوف رمسيس ، وتغير اسمها سنة ١٩٢٤ بناء على اقتراح الشيخ سليمان عصفور ، عضو مجلس النواب وفاء من المسلمين أهل هذه البلدة .

[أبو سعيفة] ، [أبو مسعود] ، [البستان] ، [الخليلية] (نسبة إلى خليل باشا خياط التاجر بالإسكندرية) ، [العلامية] ، [واليوسفية] (أنشأها أحمد يوسف المزارع) ، [زاوية حمور] ، [زاوية مسلم] ، [زمران النخل] ، [أحمد أغا وانلى] . [الطيرية] (كانت فى القرن ٩ هـ باسم العربان المقطعين) [القاسى مطرود] ، [المنشاوى اللحلاح] ، [حنا حنا] ، [سعدداود] ، [عبد الله المقرحى] [يوسف حمزة] ، [الحيمر] ، [أبو وافية] (باسم محمود أبو وافية من عربان السذنا) ، [بشارة] .

هذه زوايا وكفور وعزب ومناشي ، فصلت فى تواريخ متفاوتة عن غيرها ما بين سنة ٩٣٣ هـ و سنة ١٣٥٤ هـ .

الكوم الأخضر . ذكرها ابن الجيعان إقطاعا باسم حسن بن صرغتمش ثم باسم المنطعين وأصحاب الوقف .

المحمية : ذكرها أيضا إقطاعا باسم جاهين المحمدى ثم رزقا متفرقة .

العطف : ذكرها ابن الجيعان فى القرن ٩ هـ وكانت باسم طنبغا العزى ثم باسم جانى بك العلائى كما ذكرها ياقوت وكتب عنها فى « معجم البلدان » و « المشترك » ، وصارت قسما إداريا سنة ١٨٤٣ باسم قسم العطف ، ثم مركزا إداريا سنة ١٨٧١ ، ولما ألغيت محافظة رشيد سنة ١٨٩٥ نقل المركز من

العطف إلى رشيد ابتداء من سنة ١٨٩٦ . وقد ذكرها ابن الجيعان من أعمال فوة والمزاحمتين ، ولما أنشأ محمد على قناطر فم ترعة المحمودية نسبة إلى السلطان العثمانى محمود ، أطلق عليها اسم «المحمودية» ثم صارت مركزا إداريا سنة ١٩٢٨ .

بويط : قديما (بيويط) ، وردت فى معجم البلدان وقوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية ، ودفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩ هـ ودليل سنة ١٢٢٤ هـ وتاريخ سنة ١٢٢٨ ومنذ سنة ١٩٢٨ ألحقت بالمحمودية ، وأصلها القديم (ياطس) ثم صارت (الخزان) سنة ١٢٧٥ هـ وفى القرن ٩ هـ ذكرها ابن الجيعان مع جزيرة مالك وكانت المقطعين .

دسيا الكنايس : أصلها (دسيو) ووردت (دبسيو) و (ديسو) و (ديسوه) وكانت تابعة لرشيد سنة ١٩٢٨ ، وذكرها ابن مماتى وابن الجيعان والمقريزى ، والزبيدى ، وفى تحفة الإرشاد والكشاف .

دنشين : (دنشال) ذكرها ابن الجيعان باسم المقطعين .

ديروط : كانت تابعة لثغر الإسكندرية ثم لرشيد ، وردت فى «التحفة السنية»

سرنباى : ووردت سرنبى وسرنى وسربى وسرنبويه وشيرنويه ، وسرنبايه ، وينطقها العامة سرنبيه ، ذكرها الإدريسى والمقريزى . ووردت فى دفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩ هـ .

سلمون : وردت فى التحفة السنية باسم المقطعين والعربان .

سماديس : أصلها سمديس ، ووردت سندبيس وسنباذه وسناباداه وسنابادہ وسمديسه وسمدية ، ذكرها الإدريسى وابن حوقل وياقوت وابن مماتى أما ابن الجيعان فذكرها إقطاعا للعربان ، اشتهرت بكثرة بائعى الخمور وبيع النصارى وكثرة الخنازير ، وكانت تابعة لدمنهور حتى سنة ١٩٢٨ ، وكانت بين فيشه (فيشه بلخه) وبلهيب (فزارة) وقد هجرها أهلها سنة ١٢٤٠ هـ لكثرة الرشح والسباخ بها فسكنها جماعة من الرحمانية وسموها كفر الرحمانية .

سمخراط : كانت تابعة لشبراخيت حتى سنة ١٩٢٨ ، وقد ذكرت فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد ، وفى التحفة السنية كانت باسم المقطعين والعربان.

سيدى عقبة : فصلت سنة ١٩٠٣ من توابع عزبة خالد مرعى ، وألحقت برشيد حتى سنة ١٩٢٨ ، ثم فصلت عنها سنة ١٩٤٠ ، وهى بالقرب من مكان تكيللو أو دكلوبه بالقبطية Tkyllô أو Dakloubâ ويضعها إملينو فى أسقفية مصيل ، وقد ولد بها صمويل القلمونى ، ويقال إنها نسبة إلى عقبة بن عامر الجهنى الصحابى الذى قدم إليه أبو ذر الغفارى يطلب حديثا ، ولكننا نعلم أن عقبة هذا مدفون بالمقطم .

فيشا بلخه : قديما (إفستو Iphestou) ذكرها إملينو وابن حوقل وابن مماتى وابن الجيعان وابن دقماق وياقوت ، وتقع بين محلة أبى خراش وسنباذه ، وكانت تابعة لمركز دمنهور حتى سنة ١٩٢٨ ، ثم فصلت سنة ١٩٤٠ من الخزان وورد اسمها : فيشا ، وفيشه بلخاوية ، وفيشا بلخا ، وقال ابن حوقل عنها فى القرن الرابع الهجرى : ضيعة بها منبر (جامع) ولها بادية لا بأس بها ، ووردت فى التحفة السنية : فيشه بلخاية وكانت فى القرن ٩ هـ إقطاعا للأمراء والعربان.

منية الشيخ : قرية الشيخ ، فى شمال فيشا بلخه وشرق زرقون ، وردت فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية ووقف الغورى ، وفى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى نزل بها جماعة من (أريمون) بمركز كفر الشيخ ، وعمروها فسميت منشأة أريمون ، وظلت تابعة لمركز دمنهور حتى سنة ١٩٢٨ ، ثم مركز المحمودية ، وقال ابن الجيعان إنها كانت باسم يلبغا الناصرى والمقطعين فى القرن ٩ هـ .

منية السعيد : قديما الحافر ، ورد ذكرها فى نزهة المشتاق والانتصار والتحفة السنية ، وهى بين سماديس والجدية ، وفى القرن السابع الهجرى سميت « منية السعيد » وكانت تشتمل على الجنان والحافر ، وكانت حدود ثغر الإسكندرية تشتمل عليها ثم ألحقت بمركز رشيد حتى سنة ١٩٢٨ .

مرجنا ومرسنا : كانت فى القرن ٩ هـ باسم العربان والمقطعين وأصحاب الرزق ، وذكرها ابن الجيعان فى التحفة السنية .

أبو حمار : كانت فى القرن التاسع الهجرى إقطاعا لطشتمر العلائى ثم لسودون

العلائى ، ثم وردت باسم : أبو حمار الكبير ، وبو الحمير ، وبو حمير .

[البساتين] (قديما البسرين) ، [الشوكة] (قديما دقرص أو دقرس) [إفلاقه] ، [البرنوجى] (أصلا برنوج) كانت فى القرن ٩ ه للمقطعين ثم رزقه للعربان) ، [الصفاصيف] (قديما الصفصافة ، الصياصف ، الصفاصف ، الصفاصفه ، الصياصيف) ، [العمرية] (أصلا العميرة) ، [الخايض] ، [بسطرة] (بسطرا ، بيطرا ، بطرا) (حفص) (محلة حفص) ، (سنطيس) (سلطيس)، (طاموس) « جزء من دمنهور الحالية ومكانها أبو الريش ، وكانت فى القرن ٩ ه للمقطعين ووردت أيضا تحت اسم طابوس » .

هذه البلاد قديمة ، وأسماؤها تدل على عروبتها ، وكلها كانت من الكفور الشاسعة من حوف رمسيس ، وذكرها مع التفاوت كل من ابن مماتى وابن الجيعان والمقريزى والمقدسى ، وهى تابعة لمركز دمنهور .

شبرا دمنهور : شبرا النخلة ، كفر حريز ، حوض القضابة ، شبرا الدمنهورية ، وقد أنشئت سنة ١٢٧٣ من زمام دمنهور كاه وكفر حريز (أبو الحريز) وحوض القضابة ، وأصلها ميفامونيس Mephamonis وبالقبطى ميبامون وبالعربى أبو مينا ثم شبرو أبو مينا ، ذكر ابن حوقل جامعها وكثرة غلاتها وكثرة أهلها، وفى العصر الفاطمى سميت شبرا نخلة ثم شبراى النخلة ثم شبرا والدمنهورية ثم شبرا الدمنهورية ثم شبرا دمنهور ، وعليها الآن المساكن الغربية من دمنهور .

دسونس أم دينار : وأصلها دسونس بودينار وكانت أيضا باسم (أبو دينار) وسميت بأم دينار التى أضيفت إليها سنة ١٢٢٨ ه ، ذكرت فى «تحفة الإرشاد» وفى « التحفة السنية » كانت وقفا على برج ثغر الإسكندرية ، وهى غير (دسونس المقاريضى) .

زرقون : أصلها منية زرقون ، تقسمها ترعة المحمودية قسمين،وورد ذكرها فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية ، وكانت فى القرن ٩ ه للمقطعين والعربان .

زهرة . قديما من أعمال حوف رمسيس ، ذكرها ابن مماتى وابن الجيعان وهى بحرية وقبلية والأولى هى الأصلية .

سكنيده : قديمة أصلها اسكنيده ، ضمت إلى دمنهور سنة ١٩٣٥ وعليها حاليا مساكن دمنهور الشمالية . ورد اسمها فى قوانين الدواوين و تحفة الإرشاد والانتصار

سنهور : قديما سنبور الصغرى (سنهور المدينة : مركز دسوق) وسنهور طلوت ، وسنهور طلبوس ، ذكرها المقدسى وابن الجيعان وورد ذكرها فى تاريخ سنة ١٢٠٨ ﻫ ، وكانت فى القرن ٩ ﻫ للمقطعين والعربان .

شرنوب : وردت فى « قوانين الدواوين » و « تحفة الإرشاد » و « التحفة السنية » و « تاج العروس » ، وكانت فى القرن ٩ ﻫ للمقطعين .

طرابنبا : أصلها طرنبه ، ووردت فى تحفة الإرشاد طبرنيه ، وذكرها ابن مماتى وابن الجيعان الذى قال إنها - فى القرن ٩ ﻫ - كانت باسم نصر البالسى ثم باسم لاجين الظاهرى .

قابيل : وردت قبيل وقرنفيل بين شبرو أبو مينا (شبرا الدمنهورية) وأبرشيق (برسيق) قال جوتييه إنها (كابان Kaban) ، وقال : سبيجلبرج إن قابل فى شمال دمنهور بقليل وتقع على ترعة الإسكندرية ، وقال ابن حوقل : قرنفيل ضيعة بها جامع وعمارة آهلة ، وبرسمها ضياع تعرف بالجابرية ، وذكرها ابن مماتى أيضا وابن الجيعان الذى قال إنها - فى القرن ٩ ﻫ - كانت للمقطعين ثم باسم لاجين الظاهرى .

قراقص : وردت فى تحفة الإرشاد وقوانين الدواوين والانتصار والتحفة السنية والخطط التوفيقية وذكرها ابن الجيعان باسم قراقش وكانت - فى القرن ٩ ﻫ - باسم صربغا الناصرى ثم تمراز الشمسى رأس نوبة .

قرطسا : (قرطا) هى الآن الشمال الشرقى من مدينة دمنهور كانت قسم هرموبوليس فى تقسيم جورج القبرصى ، ثم كانت كورة وبلدة كبيرة بها حمام وجامع وفيها كروم وفواكه ولها ضياع كثيرة كتبها إملينو هكذا : (قرنطسا Qarnatsa) وذكرها ابن خرداذبه وابن حوقل وياقوت وابن مماتى ، وكانت فى القرن ٩ ﻫ باسم المقطعين .

(نديبه) ، (نشرها) ، (العوجا) . (السلانكلى) (أنشأها محمود بك السلانكلى ويسميها ورثته سلانكلا باسم بلدهم الأصلى ببلاد الترك) ، وكانت

فى القرن ٩ هـ باسم المتمطعين وأرباب الرزق .

البصيلى : بعد إدكو فى الطريق إلى رشيد ولعلها المصيلى نسبة إلى مصيل ، لم تعرف فى التاريخ .

الجدية : أصلها الجديدية ، وتغير اسمها فى القرن السابع الهجرى ، يقابلها برنبـال على الضفة اليمنى للنيل ، قال الإدريسى ، إنها قرية عامرة ، وقال ابن الجيعان إنها (فى القرن ٩ هـ) من أعمال ثغر الإسكندرية ، وذكرها ابن دقماق تتبع رشيد سنة ١٨٩٦ بعد أن كانت تابعة للعطف ، وينسب إليها فيقال: الجداوى.

مليدس : كورة قديمة كانت تشغل جنوب غرب قسم شيديا عند جورج القبرصى، ويقول عمر طوسون إنها ميتليس القديمة ومكانها الآن فوه ، ويعود فيرى أنها فى مكان الأكوام الواقعة فى شمال العطف .

الحماد : أصلها منية بنى حماد ، كانت من أعمال البحيرة ، وكانت فى القرن ٩ هـ باسم محلة حماد وباسم جانم المحمودى وذكرها ابن الجيعـان فى إقليم فوه والمزاحمتين .

وعرفت فى العصر العثمانى باسم الحماد بولاية فوه والمزاحمتين ، وكانت تابعة للعطف ، وعرفت بانتصارها الباهر على حملة فريزر فى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٧ م.

الشماسمة : سكنها فى مطلع القرن الثامن الهجرى المقداد بن شماس وأولاده فى زمن النـاصر محمد بن قلاون فسميت بهم ، كانت تابعـة للعطف والآن تتبع الحماد .

المعدية : سميت بذلك لأنها تقع على الضفة اليسرى لبوغاز بحيرة إدكو ، وكانت هنـاك استراحة أو خان على الضفة اليمنى يبيت فيه المسافرون من الإسكندرية إلى رشيـد فى طريقهم إلى القـاهرة بالنيـل ، حيث كان العربان والصيادون بمواشيهم ينقلون أمتعة المسافرين ، وقد وصف الرحالة هـذا الخـان وصعوبات العبور وجشع العربان منـذ القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان هنـاك محطة لنقل المهمات الحربيـة فى حملة فريزر سنة ١٨٠٧ وتسمى (قيروان سراى) ، وانفصلت المعدية عن إدكو فى ٣ يونيو سنة ١٩٤٤ .

منشية ديبونو : كانت فى زمام إدكو منذ أنشأها الخواجا ديبونو أحد كبار التجار الطليان بالإسكندرية .

أبتوك : قديما محلة بتوك ووردت : محلة مبتوك ومحلة تبوك وبتوك ، وردت فى قوانين الدواوين والانتصار وتحفة الإرشاد والتحفة السنية والكشاف وكانت فى القرن ٩ هـ باسم محلة بتوك إقطاعا للمقطعين .

أبو السحا : بوسحا ، ذكرها ابن مماتى .

أبو خراش : أصلها محلة أبو خراشة ، كانت ـ كما يقول ابن حوقل ـ بين فرنوه (فرنوى) وفيشه (فيشا بلخه) وكانت مدينة كثيرة الأسواق وبها حاكم وصاحب معونة فى عسكر صالح ، وبها جامع وحمام ولها كورة ذات غلال كثيرة .

أبو درة : بودرة ـ بوردة ـ ورد ذكرها فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية ، وفى القرن ٩ هـ كانت باسم الأمير جان تمر الصالحى ثم للديوان الشريف المفرد ، ثم للمقطعين .

أبو منجوج : بومنجوج ـ ذكرها ابن الجيعان فى القرن ٩ هـ وقال إنها كانت باسم الأمير أحمد بن الملك ثم باسم الأمير تمراز ، وكانت أيضا باسم الأمير تليغا ثم للأمير لاجين .

أبو يحي : بو يحي ، كفر أبو يحي ، ذكرها الزبيدى .

أسمانيه : اسبنيه ـ أسمنية ؛ وردت فى قوانين الدواوين والتحفة السنية فقال ابن الجيعان ـ فى القرن ٩ هـ ـ إنها كانت باسم طشتمر الدوادار ثم رزقة لإسماعيل ابن فارس المحمدى وكانت أيضا باسم متولى البحيرة .

الأشراك : أصلها الشراك ـ كانت كورة ، ذكرها ابن خرداذبه وابن دقماق وغيرهما .

الأصلاب : وحدة مالية فى الروك الناصرى سنة ٧١٥ هـ .

المعيصرة : المعيصرة من كفور نقانه (لقانه) ذكرت فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية وجدول سنة ١٨٨٠ م

إمرى : أصلها مياميريس Miamyris بالقرب من نقراطيس وردت فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية .

أورين : ذكر جوتييه اسمها المصرى Hourn أو الرومانى Orine ، وردها دارسى إلى أورين شبراخيت ، وردت فى معجم البلدان والمشترك وقوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية ، أما كنيسة أورين المجاورة لها فأصلها كنيسة عبد الملك وتعرف بكنيسة النحل لكثرته بها .

جزيرة نكلا : أصلها جزيرة محلة نكلا ، وقال ابن الجيعان هى : أم طراد وابن طراد .

شبراخيت : قال جوتييه هى فى الأصل Khet خيت ، ونسبها بدج إلى نقراطيس وسبخيت شمات Sabkhit chmat وابن مماتى وياقوت . وصارت مركزا منذ سنة ١٨٢٦ ، وكان ابن الجيعان ذكرها هكذا (شبرى خيت) وقال إنها فى القرن ٩ هـ كانت لخليل بن قرطاى الأشرفى ، ثم ملكا لخوند شقرا بنت الملك فرج برقوق .

شبراريس : شبراويش وشبرى ريش : وردت فى التحفة السنية وتحفة الإرشاد ، وكانت فى القرن ٩ هـ للمقطعين ثم للعربان .

فرنوى : فرنوه ، وضعها ابن حوقل بين ببيج (أبيج) ومحلة أبو خراشه (أبو خراش) وقال هى مدينة كثيرة البادية (عربها كثيرون) وبها جامع وعليها حاكم وفيها بيع عداد (متعبدات النصارى) وفيها سوق صغيرة ، وفى القرن ٩ هـ كانت باسم المقطعين ثم رزقا بناء على ما ورد فى « التحفة السنية » .

كفر مستنان : قديما الأحياز وكفر ميت سنان وكفر متسنان ، ومستنان رجل عربى استوطن الأحياز فى أواخر دولة المماليك وعرفت باسمه فى تربيع سنة ٩٣٣ هـ وهى من كفور لقانه ووردت فى التحفة السنية وفى تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ .

(محلة بشر) ، (محلة ثابت) (وكانت فى القرن ٩ هـ باسم تغرى بردى الطيارى) (محلة داود) ، وكانت فى القرن ٩ هـ باسم جمال الدين بن بلكتمر الحاجب ثم

للديوان المفرد ، [محلة صا] (نسبة إلى صا الحجر ، وكانت باسم حاجى بك ابن شادى) ، [محلة فرنوى] ، [محلة قيس] (وكانت فى القرن ٩ هـ ملكا للعزى عبد العزيز بن أخى أمير المؤمنين) ، [محلة مرقص] ، [محلة كيل] (كيك ، وكانت باسم طنبغا العزى) ، [محلة مارية] (وكانت باسم قطلقتمر العلائى ثم قانى بك اليوسفى فى القرن ٩ هـ) ، [منية سلامة] ، [الأبرقجى] ، (محلة نصر ومحلة مسروق) (وكانتا فى القرن ٩ هـ باسم عامل الإسكندرية ثم وقفا للجمالى ناظر الخواص الشريفة ، والأخيرة مكانها عزبة سليم باشا طوبجيان بجوار محلة نصر) ، (الربدان) ، (المناشلة) ، (زمزم) ، (عزبة إبراهيم أغا) ، (عزبة الجوخدار) ، (عزبة الشماشرجى) (نسبة إلى مصطفى الشماشرجى واليوم تعرف باسم عزبة قرداحى) ، (عزبة حسن قبودان) ، (عزبة حسين الديب) ، (عزبة سعادة) ، (عزبة صقر) ، (عزبة الصناديدى) ، (عزبة حماده) (نسبة إلى خليل حمدى حماده باشا مدير الاوقاف وصاحب العزبة) و (محلة حسن) و (محلة حفص) و (محلة جعفر) .

هذه كلها من بلاد مركز شبراخيت .

البسلقون : وردت فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والتحفة السنية والانتصار ، وتتبع كفر الدوار ، وفى القرن ٩ هـ كانت إقطاعا لايدمر محمد صديق ثم لقجماس الإسحاقى أميرا خور .

البيضا : ذكرت فى قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد والمشترك .

التمامة : استوطنها ذرية الشيخ عبيد التمامى ، وذكرها ابن مماتى وابن الجيعان وابن دقماق ووردت فى تحفة الإرشاد ومباهج الفكر وجدول سنة ١٨٨٠ م .

الكنايس : وتسمى الوزيرية ، والبيضاوى ومعها قرية برك الصيادين ، وتتبع الكريون وتقع على الشاطىء الجنوبى الغربى لبحيرة إدكو .

النشو البحرى : نشأت على أطلال شيديا ، ذكرها استرابون على الفرع الكانوبى وكان بها جمرك ، وفصلت عن الكريون سنة ١٢٢٨ هـ ، ولعلها نسبة إلى النشو الحاكم الطاغية ، الذى كان ناظر الخاص للسلطان الناصر قلاون واسمه

شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله . وقد انتهى أمره بالقتل والمصادرة .
وتوسع المقريزى فى سيرته فى كتاب « السلوك » فى سنة ٧٤٠ ﻫ وما حولها .

وكانت كورة مليدس تشغل الجنوب الغربى من قسم شيديا عند جورج القبرصى .

كوم البركة : قامت على أطلال أرساج ، وفى الروك الناصرى تسمى بركة قرطيطة ، وضمت إلى البسلقون سنة ١٢٢٨ ثم إلى كفر الدوار سنة ١٨٩٢ وفى سنة ١٩٣٩ سميت كوم البركة وهى فى زمام البسلقون وكوم إشو

لوقين : ذكرها أملينو وعلى مبارك ، وحدثت موقعة بها بين الروم والمسلمين وأحاط بها الماء فصارت كالجزيرة وسميت جزيرة لوقين ، ووردت فى التحفة السنية إقطاعا باسم محمد بن طلبغا شاد الخاص ثم للديوان السلطانى .

الصير : قرية الصير، ذكرها ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى فى الطريق بين دمنهور والإسكندرية على ساحل بحيرة إدكو ، وكانت مع الوزيرية فصارت تسمى الكنايس ، ووردت سنة ١٢٢٤ مع الوزيرية باسم قرية الصيادين بولاية البحيرة ، وضمت إلى كفر سليم سنة ١٢٢٨ ﻫ وسميت « برك الصيادين » ثم فصلت باسم « بركة الصيادين » سنة ١٩٣٠ ، وفى سنة ١٩٣١ سميت منشاة بسيونى نسبة إلى الشيخ بسيونى حجاج عميد عائلة بسيونى ومالك أغلب أراضى الناحية ، وفصلت سنة ١٩٢٣ من كوم الطرفاية .

الطرح : بين محطتى الطابية والمعدية على طريق المعمورة رشيد ، وربما سميت بذلك لكثرة ما كان يطرحه البحر على هذه الجهة نظرا لانخفاضها عن منسوبه حيث تلى منطقة سد أبوقير إلى الغرب مباشرة .

العرقوب : عرقوب الوايلى فى زمام كوم إشو .

العكريشة : فصلت من توابع الكريون سنة ١٩٢٣ باسم العكريشة ودفشو ، وفى تاريخ سنة ١٢٢٨ سميت باسم العكريش العجوز وفى تاريخ سنة ١٢٦٠ باسم العكريشة .

المعمورة : كانت تسمى (الخرابة) ، لكثرة كثبانها الرملية وكهوف

الدئاب والثعالب بها ، ثم عمرت ، فأنشىء بها قصر المعمورة ، وفصلت من أبوقير، وعندها يتفرع الخط الحديدى : الإسكندرية ـ أبوقير ، فيمتد إلى رشيد .

سيدى غازى : أو المغازى . صاحب المقام ، وكانت فى زمام البسلقون .

كفر الدوار : عندما مد الخط الحديدى بين الإسكندرية والقاهرة ، وأريد تسمية المحطات ، لم يوجد فى مكانها غير (دوار) صغير لأحد الفلاحين ؛ فوق كفر قديم ، فسميت كفر الدوار ، فصلت عن البسلقون سنة ٢٥١ وصارت مركزا سنة ١٨٩٣ ، ثم بندر كفر الدوار سنة ١٩٢٧ ، .وعندها انتصر عرابى على الإنجليز سنة ١٨٨٢ .

كنج عثمان : فصلت من البيضا ، وسميت باسم كنج عثمان بك ناظر المدرسة البحرية فى زمن محمد على ، وقد جعل عرابى مقر قيادته بها فى سنة ١٨٨٢ .

كوم الطرفايه : قامت على تل قديم ، وفصلت سنة ١٩٠٠ من القشو البحرى.

صيرة : باسم الخواجه أرتينو سرا الإيطالى أحـــد أعيان الإسكندرية ، وحرفت إلى صيرة ، وهو الذى أنشأ لنفسه عزبة بها وفصلت سنة ١٢٥١ من توابع الكريون .

خورشيد : باسم محمد باشا خورشيد مدير السكة الحديدية فى عهد إسماعيل ، فصلت من توابع البيضا سنة ١٩٣١ :

معمل الزجاج : (قرب الإسكندرية حيث كان يصنع الزجاج الذى اشتهرت به) ومنشاة الحلبـاوى ، ومنشاة بولين ، ومنشاة عامر (نسبـة إلى الشيخ سليمان عامر من كبار الملاك بها) ومنشاة يونس (نسبة إلى الشيخ سعـــد يونس من تجار دمنهور) ، بردلة (كفر قديم كان تابعا للبسلقون وفصل منه سنة١٢٤٩هـ).

كوم حماده : قديما « منية أسامى » ، كما جاء فى المقريزى ، وتغيرت التسمية فى العهـد العثمانى ، وكانت تابعـة لمركز النجيـلة ، حتى صار مركزا سنة ١٩٠٢ ، وأكثر البلاد التابعة له من حوف رمسيس مثل :

(أبسوم Abusam) كما ذكرها إملينو وذكر ابن الجيعـان أنهـا كانت فى القرن ٩ هـ للمقطعين وأبو الخاوى (أصلها البلخاوى) (وأبو نشابة) (أصلا

أبو يحنس) كانت فى القرن ٩ ه باسم الأمير مبارك الطازى ثم للديوان المفرد (وأبيوقا) (أبيوقه) كانت باسم العربان فى القرن ٩ ه (والبلاكوش) (أو البلكوش أو اللبكوش وكانت فى القرن ٩ ه لجركتمر الأشرفى ثم للمقطعين ، وكان بها أملاك وأوقاف) .

(الحدين) (جمعت مع الجميزى فى القرن ٩ ه كانت للعربان) ، (الزعفرانى) (كانت للعربان والمقطعين فى القرن ٩ ه) ، (الصواف) (وكانت فى القرن ٩ ه من الأملاك الشريفة ثم وقفا على الجامع الأزهر ثم جانى بك) ، (الطود) (توفوت Touphôut) كما ذكرها إمليتو على الفرع الكانوبى بين شطنوف والإسكندرية وكان بها حاكم وملعب) ، (الطيرية) ، (القلاوات) (قلاوة بنى عبيد ، وقلاوة ميسنا) ، (النجيلة) (التى مر بها الغورى سنة ٩٢٠ ه فى طريقه إلى الإسكندرية ، وكانت مركزا إداريا من سنة ١٨٢٦ حتى نقل منها إلى كوم حماده سنة ١٩٠٢) ، (النقيدى) (محلة نقيده التى ذكرها ابن حوقل بين شابور ودنشال ، (بريم) ، (بولين) (وأصلها بوليم ثم بولين الفوايد وهم عرب الفوايد الذين استوطنوها وردت فى التحفة السنية إقطاعا لتبيغا الاشرفى ثم تغرى بردى الشمسى) ، (بيبان) أو (بابايون Bâbâouin) كما ذكرها إمليتو وذكرها ابن الجيعان باسم (بيبان وأم البيض إقطاعا للأمير على بن الأشرف شعبان ثم للديوان المفرد) ، (تلبقا) (تل + بقا وكانت ملكا للأشرف شعبان ثم صارت للمقطعين فى القرن ٩ ه) ، (دست الأشراف) أو (هات إست Hat Ist) ، كما يقول جوتييه أى قصر إيزيس ، وأصلها القبطى تسيت Tsyte ثم أضيفت إليها كلمة « الأشراف » فى العهد العثمانى لأنها كانت فى القرن ٩ ه وتسمى (دست ودبس) وقفا للأشراف العثمانيين ثم باسم العربان والمقطعين ، وكان بها أملاك وأوقاف ، (دمتيوه) وأصلها Damatiou كما يقول جوتييه ، (دمشلى) (وأصلها دمشيل) ، (زاوية البحر) (وأصلها الرافقة (واقد) وسميت فى القرن ٩ ه(محلة بنى واقد) وكانت باسم مغلطاى ثم أزبك اليوسفى ثم صارت للمقطعين والعربان (زاوية مبارك) ، (سرسيقه) ، (سلامون) ، (شابور) التى قال ابن حوقل عن كثرة عبيدها والمجندين فيها ،

وخيولها وفى القرن ٩ هـ كانت لمثقال الجمالى الأشرفى ثم تانى بك الجمالى) ، (شبرا وسيم) وأصلها القبطى جبروميناسين Djebro Ménésine والعربى (شبرا منسينا) وقد ورد ذكرها فى تاريخ بطارقة الإسكندرية . (صفط العنب) (وأصلها صفط قليشان) ، (وعلقام) وسميت بكوم علقام وكوم علقماء ، ولها ذكر فى حديث رويفع وكانت للمتطعين فى القرن ٩ هـ) (كفر غانم) (وأصلها مسجد غانم كانت فى القرن ٩ هـ للمقطعين ثم رزقة باسم أولاد محمد بن موسى بن خضر) ، (مغنين) (وأصلها منية مغنين وكانت فى القرن ٩ هـ للمقطعين ثم الديوان المفرد) ، (ميت يزيد) (وأصلها منية يزيد) ، (تتا) ، (محلة أحمد) .



٣
البحيرة فى موكب الحضارة

هوريس على عرش البحيرة : (١)

تبدأ الحضارة المصرية بأسطورة « إيزيس » و « أوزوريس » التى نبتت فى « طيبة » وترعرعت فى « دمنهور » ، ثم نال كل إقليم فى مصر نصيبه منها على مر السنين والأيام .

فقد زعموا منذ عهد سحيق جدا ، أن (نوت) إله السماء تزوج ، من (جب) إلاهة الأرض ، فأنجبا أربعة هم : (إيزيس) و (أوزيريس) و (ست) و (نفتيس) ، ولما نما عود (إيزيس) الجميلة ، تزوجها أخوها (أوزيريس) ، بعد غرام جمع بين قلبيهما ، وتربع (أوزيريس) على عرش مصر ؛ فنشر العلم ، وأقام العدل ، وغرس الحضارة فى ربوعها ، كما علم أهلها الزراعة والصناعة ، فأحبوه ، مما أثار حقد أخيه (ست) الشرير ، فدبر مؤامرة لقتله والتخلص منه ، ليخلو له عرش مصر .

أقام (ست) مأدبة كبيرة ، ودعا إليها (أوزيريس) ، وبعد قليل ، انقض عليه سبعة من أعوانه ، فسمروا عليه صندوقا يطابق جسمه ، كانوا قد أعدوه له . وألقوا به فى النيل .

وحزنت (إيزيس) أشد الحزن ، وخرجت هائمة على وجهها ، تجرى على ضفاف النيل ، بحثا عن الصندوق ، حتى بلغت مستنقعات الدلتا ، المليئة بالأحراش ، ولكن التيار كان قد دفع الصندوق إلى (ببلوس) ، الذى هو الآن ميناء (جبيل) بساحل الشام ، واستقر فى أسفل شجرة عاتية ، أخذت تنمو

---

(١) راجع مقالنا بهذا العنوان فى الأهرام فى ١٤ يوليو سنة ١٩٥٠ .

حوله ، وظلت تحتضنه ، حتى صار فى جوفها ، ولم يعد يراه أو يعلم به أحد .

ولقد لفتت ضخامة الشجرة نظر أمير (ببلوس) ، فأمر بقطع جذعها ، وجعل منه عمودا لبهو كبير فى قصره ، واحتالت (إيزيس) حتى دخلت قصر الأمير ، لتعمل وصيفة لابنه ، وظلت طول مدة إقامتها بالقصر ، ترقب العمود وقد ألهمتها الآلهة أنه ينطوى على صندوق أوزيريس ، فلما التمست العودة إلى مصر ، حقق الأمير لها أمنيتها ، فأمر بشق العمود ، لتستخرج منه الصندوق .

وعادت (إيزيس) بكنزها الثمين ، إلى مصر الطيبة ، وبينما هى تخترق بزورقها مستنقعات غرب الدلتا ، جاءها المخاض ، فوضعت مولودها (هوريس) فى (خميس) بالغرب من (بوطو) وسط الدلتا ، وتركته فى رعاية الآلهة ، ومضت هى بالصندوق إلى (طيبة) ، وأخفته فى كوخ على الضفة ، حتى عثر علية (ست) مصادفة ، أثناء تجواله فى نزهة للصيد وسرعان ما رفع الغطاء ، واستخرج جثة (أوزيريس) ، فمزقها أربعة عشر قطعة ، وذهب ليخفى كل قطعة منها فى جهة نائية ، حتى لا تعثر عليه (إيزيس) ، لتزداد آلامها ، وتشتد أحزانها .

ولم يهدأ بال (إيزيس) ، فأخذت تجوب البلاد ، تجمع أشلاء (أوزيريس) وتدفنها حيث تجدها ، ومضت إلى (بوطو) ، لتنعم بلقاء ولدها (هوريس) ، وكان قد كبر وترعرع ، فراحت تحرضه على الثأر من قاتل أبيه ، حتى دارت رحى القتال بينهما ، فانتصر (هوريس) على (ست) ، وساقه إلى أمه أسيرا ، ولكنها وجدت نفسها ، وقد سكت عنها الغيظ ، ورف على قلبها نسيم من الرقة والحنان ، نحو أخيها ، ففكت قيوده ، وعفت عنه .

أما (هوريس) فقد استشاط سخطا على أمه ، وألقى بتاجها على الأرض فاستعاضت عنه تاجا آخر ، يعلوه رأس البقرة (هاتور) ، وانتصر الخير على الشر ، وجلس (هوريس) على عرش المملكة ، وكان آخر من حكم مصر من الآلهة [١] ، ورمزوا إليه بالصقر Horus وجعلوه ، إله الشمس ، الماثل فى قرص

(١) ديودور الصقلى : ك ٢ ف ٤٤

الشمس المجنح ، رمزا على القوة والنور والنشاط ، وكان من الأسماء التى عرفت بها مصر قديما (هوريس أوديبو Odebaw) أى شواطىء الإله هوريس يعنى شواطىء النيل ، كما سميت المقاطعات المصرية (سبات هـــور) أى مقاطعات الإله هوريس (١) .

ومن ثمت أقام المصريون معابد للإله (هوريس) ، وجعلوا باسمه فى غرب الدلتا (مدينة هوريس) وسموها بلغتهم (دى - من - هـور) : التى هى الآن (دمنهور) عاصمة البحيرة ، كما أن (كانوب) اشتهرت بمعبد (إيزيس) إلاهة الجمال فى الديانة المصرية القديمة ، وتعددت المعابد على طـــول الشاطىء مزدانة بتماثيل إيزيس ، التى وجدت فى ضاحية (مينوتيس) فى القرن الثامن قبل الميلاد، وهى التى حدد علماء الآثار موقعها عند (طابية الرمل) ، وحددها بعضهم (٢) قريبا من (المنتزه) ، وتقع الآن أبوقير على أطلالها .

ولما كانت (كانوب) أقرب ميناء لمصر بالنسبة لبلاد اليونان ، ومنهـــا بدأت الحضارة المصرية تأخذ طريقها إلى الإغريق ، فقـــد انتقلت منها هـذه الأسطورة الرائعـة (إيزيس وأوزيريس) ، واستقرت فى أدب (هوميروس) وزخرف حواشيها (تلماخوس) بعد أن استبدل بالأســـماء المصرية أسماء يونانية ، فصارت إيزيس أفروديت ، وانقلب هوريس إلى أبولو .

وقيل إن (كانوبيس) — الذى باسمـه سميت (كانوب) — كان ربان زورق (إيزيس) (٣) فى عودتها من (ببلوس) ومعها صندوق (أوزيريس) .

وتضمنت « حروب طروادة » فى تفاصيلها — كما جاء فى « الإليـاذة » — أن (باريس) خطف (هيلانة) من زوجها (منيـلاوس) فاستقل سفينة إلى كانوب ، فألقى القبض عليـه (تونيس) حاكم مدينـة (هرقليوم) وأرسلهـا إلى (منفيس) ، وحضر (منيلاوس) بدعوة من ملك مصر ليتسلم زوجته .

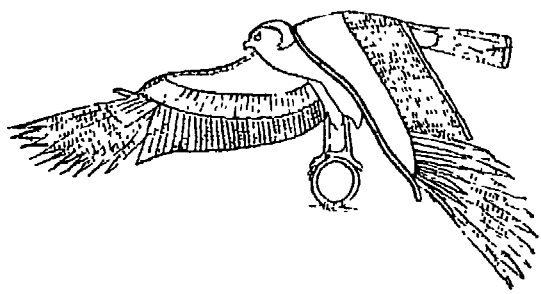
---

(١) أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى
(٢) Alex. ad AEgyptum
(٣) مصر فى القرن ١٩ : ص ٣٣

وقد ألقى الأستاذ (فلابر) محاضرة قيمة بالجمعية الجغرافية بالقاهرة عن (حروب طروادة وط يق الفينيقيين) ، وشرح هـذه القصة بتفاصيل وقائعها ، ونشرت بجلة المقتطف[1] ملخصا لهذه المحاضرة .

ومما يحكى عن مصر ، وقد كانت كعبة قصاد العـلم من فلاسفة اليونان ، أن أحدهم قدم إليها قبيل الاولمبياد الخامس والتسعين أى سنة ٣٩٢ ق م ، وأخذ يجول فى أرجائهـا بحثا عن كنوز الفلسفة ، حتى عثر عـلى رواق توصل إليه تحت الارض وقرأ عليه العبارة الآتية :

[كل ابن أنثى إذا سار غير هياب ولا وجل فى هـذا المعهد المقدس ، فاضت عليه الأنوار ، وطهره الهواء والماء ، ووقف على دفائن الأسرار الفلسفية للإلاهة « إيزيس »] [2] .



(١) عدد يناير سنة ١٨٩٢

(٢) مصر فى القرن ١٩ ص ١٦

تطور الحضارة فى إقليم البحيرة

فى بدء تكوين الأسرات الفرعونية ، كان المصريون خليطا من الجنس الحامى المسمى (الجنس الأسمر) ، والجنس السامى ، وظهر جنسان آخران بعد الأسرة الثانية هما جنس الجيزة ، ثم العنصر الليبي فى غرب الدلتا ، واتحدت العناصر الأربعة مع الزمن ، وبعد أن كان المصريون فى العصر الحجرى القديم صيادين ، تدرجوا فى الاقتراب بعد ذلك من الوادى واشتغلوا بالزراعة ، وتم لهم الاستقرار فنشأت القرى والمدن .

وكان لكل مدينة شعارها ، واستمرت هذه الشعارات فى عهد الأسرات ، فانقسم المجتمع إلى عشائر ، لكل عشيرة طوطمها الذى اتخذته إلها لها ولجيران المدينة ، فنشأت المقاطعات .

أما أهل الدلتا فاختاروا (الصقر) معبودا لهم ، وسموه (هوريس الصباح) و (هوريس السماء) وجعلوا الشمس والقمر عينيه اللتين بهما يرى .

واختار أهل الصعيد كلب الصيد معبودا لهم ، وجعلوه حاميا لهم من الظلام والشر ، وسموه (ست : إله الظلام) ، وبهذا أصبح (هوريس) إله النور والخير فى الدلتا ، و (ست) إله الظلام والشر فى الصعيد ، وقرنوا اختلاف مظاهر الطبيعة فى السماء والأرض ، والشمال والجنوب بمعارك بين هوريس وست ، وانتصر هوريس المتقدم فى حضارته على ست المتخلف عن ركبها .

ومنذ أواخر الأسرة الخامسة انقضى عهد الآلهة الحاكمين ، فتأسست الملكية الفرعونية وانقسمت الدلتا إلى شرق وغرب . فى الغرب — حيث إقليم البحيرة — زحف الليبيون نحو الوادى فزرعوا الأرض ، ورعوا الماشية ، وصادوا السمك والطير والحيوان من المستنقعات والصحارى ، واتجروا مع من حولهم ، وتسلحوا للدفاع عن أنفسهم .

وسمى غرب الدلتا باسم (أمنت) ورمزوا له بريشة نعام ، اتخذ منها الليبيون حلية لهم ، وظلت الريشة رمزا على الغرب ، وباسم (ربة الغرب) اتحدت مقاطعات غرب الدلتا ٣ و ٥ و ٧ ، ورمزوا لها بامرأة تحمل الريشة فوق

رأسها ، وجعلوها تقود المحاربين ، كما دل على ذلك رسم من عهد أحد ملوك طيبة.

واتحدت الإمارات فى غرب الدلتا ، وما لبث هذا الاتحاد أن سرى إلى شرقها ، وصار هوريس ملك البلاد بعد أبيه أوزيريس .

أما هوريس فقد ولدته أمة إيزيس فى (خميس) بالقرب من (بوطو) ، فلما كبر وانتقم من عمه (ست) قاتل أبيه ؛ سمى (نج أت ف) أى المنتقم لابيه، وكثر أتباعه وصارت علامة الغرب شعارهم ، واتخذوا من (صا) أو (سايس) عاصمة لاتحاد غرب الدلتا ، وصار الإله المحلى (هوريس) إله الشمال والجنوب جميعا ، وسمى أنصاره (أتباع هوريس) .

ومنذ سنة ٥٥٠٠ ق.م ، برز النظام الإدارى فى المدن والقرى فى الدلتا ولا سيما فى عاصمتها (بوطو) ، وانتعشت الزراعة على ضفاف الفروع السبعة للنيل ، وراجت التجارة مع آسيا ، وازدهرت الحضارة ، ثم شهدت سنة ٣٤٥٠ ق.م ، انقضاء حكومة الإله هوريس إلى الأبد ، وابتداء حكم الفراعنة ، ولم يكد يمضى ربع قرن على هذا التاريخ حتى قام عهد جديد ، وهو عهد نارمر ، فرعون مصر الأول .

الديمقراطية الأولى

تعلمت اليونان من مصر — أول ما تعلمت — أصول العلم والفلسفة ، فعلمتها أوروبا ، وكانت جزيرة كريت ، وبلاد الهند ، كما يقول إدوار جوان [١] ، تتنافسان فى تطبيق القوانين الفرعونية على سكانها .

وكانت مصر فى فجر حضارتها تنقسم إلى إمارات صغيرة مستقلة ، وأخذت هذه الإمارات المتميزة بشاراتها Totems تلتئم فيما بينها تدريجيا ، حتى تكونت منها مملكتان عظيمتان : إحداها فى الوجه البحرى ، والأخرى فى الوجه القبلى ، لهذا كانت مصر تسمى « أرض القطرين » (٢) منذ سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد أى من نحو ستة آلاف سنة ، وهو أقدم تاريخ معروف إلى الآن على ظهر الارض .

---

(١) مصر فى القرن ١٩ ص ٢٥

(٢) تاريخ مصر : برستيد : ف ٢

والمعلوم أن الوجه البحرى ، كان أسرع فى طريق الحضارة والتطور من الوجه القبلى . إذ تكونت بالدلتا عدة أحلاف سياسية ، ضمت إليها عد ا من المقاطعات أو الإمارات ، منها الحلف الغربى ، الذى كان يضم بعض المقاطعات الواقعة فى غرب الدلتا ، حيث يقع الآن « إقليم البحيرة » ، ومنها أيضا حلف الإله (عشرتى) ومقره (أبو صير) بالقرب من سمتود . وجاء حلف الإله (أوزيريس) ليخلف هذا الحلف الأخير فى مقاطعاته ، واتسع نطاقه حتى شمل معظم مقاطعات الدلتا ، ومنها أيضا حلف الإله (هوريس) ، وغيره من سائر الأحلاف التى جمعت شمل أراضى الدلتا ، فى حلف واحد ، مقره مدينة (بوطو) .

ومن الطبيعى أن تزحف موجة الحضارة نحو البداوة ، والتقدم نحو التخلف ، والنشاط نحو الركود ، ومدنية الدلتا نحو جمود الصعيد ، فقد كان (هوريس) يتربع على عرش الشمال ، بينما يتربع (ست) على عرش الجنوب ، وكانت (بوطو) أعظم مدن الدلتا فى عصور ما قبل الأسرات المصرية . وكانت عبادة (هوريس) تنتشر بسرعة فى أرجاء الصعيد ، وتنتقل فى ركابها تجارة الشمال ومدنيته ، فكان ذلك تمهيدا لنشوب الحرب بين الحزبين الكبيرين (هوريس) و (ست) .

أما إقليم البحيرة فكان وقتئذ يتمتع بنظام جمهورى ديمقراطى ممتاز ، لم يسبقه إلى ذلك أى إقليم آخر فى مصر ولا فى العالم أجمع .

والدليل على ذلك ، تنطق به « لوحة نارمر » المشهورة بوجهيها ، ونارمر هذا هو الملك (مينا) الصعيدى الذى زحف بجيشه نحو الشمال سنة ٣٤٠٠ ق.م. ليوحد مصر تحت تاج واحد ، فكان بهذا أول ملوك مصر المتحدة ، ومؤسس « الدولة القديمة » فى تاريخ بلادنا ، ورأس الأسرة الأولى ، التى نقلت عاصمتها من (طينة) إلى (منفيس) ودامت هذه الأسرة حتى سنة ٢٤٧٥ ق.م.

سجل الملك مينا فى لوحته هذه ، انتصاره على الحكم الذاتى . وقضاءه على أول حكومة ديمقراطية عرفها التاريخ ، فى المقاطعة التى تقع حاليا فى الشمال الشرقى من إقليم البحيرة ، تلك المقاطعة التى عرفت فى العصر اليونانى باسم (ميتيليت Metelite) وعاصمتها (ميتليس Metelis) ، بالقرب من رشيد إلى

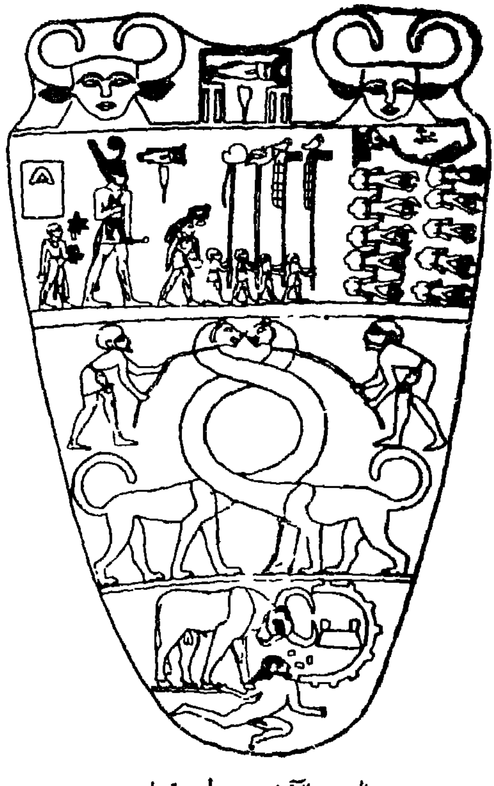
الجنوب ، وفى الوجه الأول لهذه اللوحة يظهر نارمر ، وهـو فى قامته المديدة ممسكا بيده اليمنى عصاه ، وبيده اليسرى ناصية (حاكم البحيرة) كما هو مكتوب باللغة المصرية القديمة إلى اليمين ، حتى لاذ بالفرار من كان أقل منه درجة فى حكم البحيرة (كما هو ظاهر فى أسفل الصورة) ومن خلفه بدوى يقدم للملك حذاءه .



الوجه الأول من لوحة نارمر

وتبدو صورة الصقر (هوريس) وهو شعار إقليم البحيرة ، وباسمه يتكلم حاكم البحيرة (كما يظهر من الغصن الواصل بين مخلب هوريس وفم الحاكم ، الذى رأسه مرسوم دون الإله المعبود) وقد حمل حاكم البحيرة على عاتقه — كما هو فى الصورة — أعباء الحكم فى هذا الإقليم الذى ترمز إليه نباتات البردى وهو رمز الدلتا لأنه ينمو بصفة خاصة فى أرجاء البحيرة ، وفى الرسم ستة نباتات إشارة إلى الانتصار على ستة آلاف من أهل البحيرة .

أما الوجة الآخر، فتظهر فى أعلاه صورة نارمر وقد دخل (المدينة) ، وأزال من فوق جدرانها ، شعار المقاطعة وهو (الخطاف) ، وبعد أن كان شأن (هوريس) عاليا . وشعاراته سائدة ، خمدت أنفاس الحكام العشره الذين كانوا يمثلون أهل المدينة فى مجلسها المحلى . فقد قضى عليهم نارمر أو مينا ، ولم يعودوا يرون الحياه ، كما هو فى اثنين من أعلى الصورة ، وما يتبقى منهـا إنما يرمز إلى النصر الحاسم ، الذى كان حليف صاحب التاجين وموحد الوجهين .



الوجه الآخر من لوحة نارمر

وهكذا ثبت أن ممثلى إقليم البحيرة ، أو على الأقل المقاطعة الشمالية الشرقية منه ، ورقمها ٧ فى التقسيم الإدارى القديم ، قد حملوا شعلة أول ثورة مصرية فى التاريخ ، حفاظا على النظام الديمقراطى الذى ارتضوه ، ودفاعا عن « مجلس الأعيان » ، المشكل من عشرة أعيان ، هم ممثلو المقاطعة ، الذين كانوا يرفعون الشعارات القومية الموروثة عن (هوريس) .

هى إذن ثورة الديمقراطية على الدكتاتورية ، ثورة اللامركزية على المركزية ، ثورة الاستقلال على التبعية ، ثورة الجمهورية على الملكية ، ثورة الشعب ، من أجل حريته ، وديمقراطيته .

وبالإضافة إلى (لوحة نارمر) ، تصف لنا تعاليم الملك (خيتى) ، حياة الديمقراطية التى كان يتمتع بها أهل الدلتا قاطبة ، غير أن لوحة نارمر ، تعتبر أقدم وثيقة تؤكد لنا رسوخ (الحكم المحلى) فى (إقليم البحيرة) ، مهد الديمقراطية الأولى فى مصر ، بل فى العالم كله .

ولقد سرت عدوى هذه الثورة إلى المدن المجاورة فى الدلتا فانتشرت الثورات تباعا - كما يشير إلى ذلك (حجر بلرم) ، ولكن ملوك الأسرة الثالثة ، أخمدوها بالبطش والجبروت ، وقضوا نهائيا على (مجالس الأعيان) ، وأصبح حكام المدن من الموظفين الذين يعينهم الملك ، ومهمتهم - كما يدل على ذلك اللقب الحكومى (عزمر) - الإشراف على حفر الترع ، ومراقبة الفيضان وهو العمل الذى كان يشغل أهل الدلتا ، لتوسيع رقعة التجارة ، مع داخل البلاد وخارجها.

سكان البحيرة وأصولهم الأولى

فى ليلة ٢١ سبتمبر سنة ١٩٦٠ ، تمت عملية آخر إحصاء دقيق للجمهورية التى بلغ عدد سكانها ٢٦٫٠٨٠٠٠٠ ستة وعشرين مليونا وثمانين ألف نسمة ، وقد حرص المسئولون عن عملية الإحصاء ، على تبيان عدد الذكور والإناث والحضر والريف ، فظهرت النتيجة الآتية :

سكان البحيرة بالآلاف

	ذكور	إناث	الجملة
الحضر	١٥٥	١٥٢	٢٠٧ر٠
الريف	٦٧٧	٦٩٨	١ر٣٧٥
الجملة	٨٣٢	٨٥٠	١ر٦٨٢

وتنقسم محافظة البحيرة ، إلى أحد عشر مركزا ، وبندر واحــد هو بندر دمنهور ، وفيما يلى توزيع السكان على هذه الوحدات بالآلاف :

بنـدر دمنهور ٢٦ ، مركز دمنهور ١٥١ ، مركز أبو المطـامير ٨٠ ، مركز أبو حمص ١٥٤ ،مركز إيتاى البارود ١٦١ ،مركز الدلنجات ١٠٤ ،مركز المحمودية ١١٤ ، مركز حوش عيسى ٦٣ ، مركز رشيـد ١١٩ ، مركز شبراخيت ١٣٦ ، مركز كفر الدوار ٢٥٥ ، مركز كوم حماده ٢١٩ .

ومن الملاحظ أن الذكور فى هذا الإحصاء لا يزيدون على الإناث إلا بنسبة ضئيلة جدا ، وهى ثمانية عشر ألفا فقط ، كما أن الأغلبيـة الساحقة لأهل الريف بنسبة مليون وثلثمائة وخمسة وسبعين ألفا ، إلى ثلاثة آلاف وسبعة فقط .

ومن المـلاحظ أيضـا أن مركز كفر الدوار هو أكثر المراكز ازدحاما بالسكان ، نظرا لوجود المصانع الكبرى ، أما مركز حوش عيسى فهو أقلها جميعا فى النسبة العددية .

وإذا رجعنـا إلى إحصاء مصر سنة ١٩١٧(١) وجـدنا أن السكان قد بلغوا ١٢٧١٨٠٠٠ نسمة عدا العربان الذين كان عددهم ٣٣ ألف نسمة .

فى هــذا الإحصاء كان سكان البحيرة ٨٩٢٢٤٦ نسمـة منهم ٢٠٩١ من الأجانب ونسبـة المسلمين ٨٩١ فى الألف ، والمسيحيين ١٤ فى الألف ، بينما كان الأجانب بنسبة ٢ فى المائة .

ونلاحظ أن البحيرة كان ترتيبها الرابع فى كثرة عدد السكان بعـد الدقهلية وأسيوط والشرقية مباشرة ، أما دمنهور فـكان عـدد سكانهـا ٤٧٨٦٧ وترتيبها الرابع أيضا بعد طنطا وأسيوط والمنصورة .

وسكان إقليم البحيرة قد تجمعوا فيه وانصهروا فى بوتقـة التاريخ ، وترجع

---

(١) L'Egypte : ch. : 7 P : 371

مقال حنين بك حنين مراقب الإحصاء (بالفرنسية)

أصولهم بصفة عامة إلى ثلاث قارات : إفريقيا وآسيا وأوروبا فضلا عن جزر البحر الأبيض المتوسط ، وهم لم يستقروا فى هذا الإقليم ، إلا بعد موجات متتابعة من المد والجزر ، فى الحرب والسلم على السواء .

ولا شك أن إقليم البحيرة كان قليل السكان جدا إلى حد الندرة لكثرة المستنقعات فى أرجائه ، فلما بدأت هذه المستنقعات تجف أو تجفف ، بفعل الطبيعة أو بفعل الإنسان ، بدأت تفد عليه جموع المهاجرين ، من داخل البلاد : من المناطق القريبة والبعيدة أى من الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا وكذلك من الصحارى المجاورة لها من جهة الغرب ، ثم تلت ذلك طبعا أو تخللته غزوات أجنبية من آسيا : الهكسوس والعرب والتتار . ومن جزر اليونان ، ومن أوروبا .

وسكان مصر فى العصر الحديث بصفة إجمالية يتكونون من عشرة عناصر كما يقول (كارل بيديكر Karl Baedeker) (١) وهم : الفلاحون . القبط . البدو . سكان البنادر من العرب . النوبيون . السودانيون . الأتراك . الشوام . الأرمن واليهود . الأوروبيون ، فضلا عن بقايا سلالات العناصر الأولى من عصر الأسرات وما قبلها .

ويندرج تحت البدو الرحل : القادمون إلى مصر من جزيرة العرب وسوريا وشمال إفريقية من البربر ، والأحباش والنوبيين ، وعندما تحدث (بيديكر) عن بدو الشمال ، خص منهم بالذكر قبيلة أولاد على وقال إنهم قد ورثوا أصل القبائل الصحراوية فى الشجاعة والاستقلال .

وإنه ليكاد يكون من المستحيل أن نجد الآن صفات مميزة لسكان البحيرة ، سواء فى طول القامة أو السحنة أو لون العينين والبشرة ، أو ملامح الوجه ، أو الخصال الموروثة ، أو اللهجة ، بل على العكس من ذلك تماما ، نراهم أخلاطا متنافرة من شتى الأجناس والقبائل والألوان والخصال ، ولكننا نستطيع أن نزعم بأن هذه الأخلاط قد امتزجت كلها فأصبح «العنصر العربى» هو الغالب على أهل البحيرة .

---

(١) Egypt and the Sudan : ed : 7. 1914

ولا شك فى أن النواة الأولى لسكان هذا الإقليم كانت من سكان الدلتا ، الذين كانوا فى كفاح مستمر مع فيضانات النيل عندما كان يغمر الأرض ، ويغرق ما عليها من منشآت .

وتلا ذلك عنصر جديد وإن كان موغلا فى القدم ، ذلك هو العنصر الليبى ، وما يجاوره من عنصر البربر ، وأعقبه فى الزحف على الإقليم ، عنصر الصعيد عند توحيد القطرين على يد الملك نارمر وما لبث العنصر النوبى والحبشى أن أخذ طريقه إلى هناك ، وتلاه الهكسوس وهم رعاة قدوا من جزيرة العرب ، وتوغلوا فى جميع الأقاليم المصرية ، وتعرضت مصر بعد ذلك للغزوات الأجنبية فى الحرب والسلم من الفرس واليونان والرومان والعرب والترك والسلاجقة والشراكسة والألبانيين ، والفرنسيين والإنجليز ، من مختلف الملل والنحل ، ومن شتى الأجناس والألوان ، وكان للاستقرار فى ربوع الإقليم ـ طالت مدته أو قصرت ـ أثره فى خلق مجتمع ينفرد دون غيره بظروفه وملابساته ، وقد كان فى مختلف العصور مركز جاذبية قوية ، لتجمعات الشعوب فيه ، من جميع النواحى وعن طريق البحر والنيل وعبر الصحارى والوديان ، على ظهور المراكب والدواب وبالقطارات والسيارات ، وسيرا على الأقدام فى غالب الأحيان .

ليبيون ويونانيون

كان إقليم البحيرة منذ أزمنة بعيدة ، هدفا للهجوم من الصحراء الليبية ، نظرا لما كان يتمتع به أهله من النعيم ، والليبيون فيما نعلم ينتسبون كالمصريين إلى الجنس الحامى ، وقد اشتد بأسهم ، وقويت شوكتهم ، حتى أصبحوا يشكلون خطرا على مصر ، ولهذا كانوا يتخذون من مشارف الإقليم على حدود الصحراء مواقع للهجوم عليه ، كلما واتتهم الفرصة ، وقد جرد ملوك مصر عليهم حملات متوالية ؛ كانت تردهم على أعقابهم أحيانا ، وتنهزم أمامهم أحيانا أخرى ، كما فعل (سيتى الأول) ، وحدث فى أواخر عصر الأسرة التاسعة عشرة أن صد هجماتهم (منفتاح) وسارع بإقامة الاستحكامات على الضفاف الغربية للفرع

البولبتيني (فرع رشيد) وحشد الجنود لصد غارات الليبيين ، واليونانيين والصقليين و لى الرغم من كبر سنه ، فقد لقنهم درسا قاسيا ، إذ انتصر على المغيرين ، فى أول وقعة جرت فى التاريخ ، اشتبك فيها المصريون مع الشعوب الأوروبية وكان النصر الحاسم لإقليم البحيرة ، على يد (منفتاح) الذى سجل انتصاراته على جدران معبد الكرنك ، كما انتصر عليهم رمسيس الثالث .

ومع ذلك لم تزل فلول الليبيين تتسرب إلى البحيرة وتتوغل فى أراضى الدلتا وتستقر فيها ، وتستولى على شئونها . فصار منهم ملوك الدلتا (١) الذين اتخذوا (بوبسطيس) قرب (الزقازيق) عاصمة ملكهم ، وقد تتابعت أيضا على الدلتا جماعات من شعوب جزر وسواحل البحر وهم : (الشرذن) (والشكلش) ، واتخذ منهم المصريون جنودا مرتزقة ، وقال (إرمان) إنهم من الشرذن والليبيين (٢) فتكونت منهم طبقة محاربة وقوى نفوذ قوادهم فى شئون الدولة ، ومن هذا كله . اكتملت عناصر القوة للأسرتين ٢٢ و ٢٣ اللتين حكم ملوكها بمصر ، وهم ليبيون لحما ودما .

وكانت مقاطعة (سايس) الواقعة غربى الدلتا يحكمها الأمير (تف نخت) ، وقد تمكن من ضم مقاطعات الصعيد إلى نفوذه سنة ٧٣٠ ق.م. ، وخلفه ابنه الملك (باك إن رنف) مؤسس الأسرة ٢٤ وفى خلال ست سنوات ، كانت الدلتا كلها تدين له بالطاعة ، ثم جاءت الأسرة ٢٥ ، وكان ملوكهم من أصل حبشى .

غير أن (تف نخت) أمير (سايس) أو (صا) الذى حمل لواء الاستقلال ، قد صادفته عوامل النجاح فى حركة التحرير التى قام بها وظل صاحب السلطان إلى سنة ٧٢٠ ق.م. ومركزه وطيد فى (صا) ، حتى جاءت الأسرة الصاوية وهى ٢٦ ومؤسسها بسماتيك الأول سنة ٦٦٣ ق.م. الذى ما إن علم بوجود ثلاثين سفينة ، ألقت مراسيها على ساحل (بولبتين = رشيد) ونزل منها جنود جاءوا من جزر اليونان ، لغزو مصر حتى أسرع بإقامة معسكر هناك ، وهو المعسكر

---

(١) تاريخ مصر : شارف

(٢) مصر والحياة المصريه : ص ٣٧

(الميليزى) الذى سمى بذلك ، لأن الغزاة كانوا ـ كما يقول استرابون ـ من الميليزيين وهم سكان بعض الجزر اليونانية ، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم ، فزاد مجد (صا) تألقا وارتفاعا ، وتركزت السلطة فيها ، وقوى إلى جوارها شأن (بوطو) و (أتريب) و (بوبسطيس) .

وتولى (نيخاو) أو (نيقوس) سنة ٦٠٩ ق.م. بعد أبيه ، حتى سنة ٥٩٣ ق.م. ، حيث آل الملك إلى ابنه بسماتيك الثانى ، وهو الذى استعان بجنود مرتزقة من اليونانيين ، وسمح لهم ولتجارهم بالاستقرار فى مصر وأقطعهم المناطق الواسعة ، يبغى بذلك وقف النفوذ الليبى والأشورى حتى لا يتغلغل فى مصر .

وقدم حوالى سنة ٥٩٠ ق.م. من (ملطية) وهى مدينة يونانية فى غربى آسيا الصغرى ، جماعات استقرت فى غرب الدلتا ، وشيدت (نقراطيس) ، على الفرع الكانوبى ، غير بعيدة عن (صا) العاصمة ، ومن ثم نشأت المدن الإغريقية ، فى إقليم البحيرة ، إلى جانب المدن المصرية ، وامتزجت الحضارتان العريقتان المصرية والإغريقية لأول مرة فى التاريخ ، فى بوتقة إقليم البحيرة ، فى (بوطو) و (صا) و (دمنهور) و (كانوب) و (بولبيتين = رشيد) ، و (نقراطيس) ، وأخيرا فى (الإسكندرية) البنت البكر لإقليم البحيرة .

ولما غزا (قمبيز) مصر ، جعل (صا) عاصمة البلاد ، وما لبث الفرس أن انهزموا أمام قوات الإسكندر الأكبر المقدونى مؤسس الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق.م. بعد أن قصد إليها من منفيس إلى كانوب عبر الفرع الكانوبى .

اليونان والرومان

قلنا إن مصر كانت منذ عصور ما قبل الأسرات ، إمارات مستقلة ، لكل إمارة جميع مظاهر الاستقلال والوحدة الإدارية ، والسياسية والدينية ، وعلى الرغم من الحركة الخطيرة التى قام بها الملك مينا ، نحو « الوحدة المصرية » فإن كل وحدة أو مقاطعة ، لم تفقد استقلالها على الفور ، كما يتبادر إلى الذهن ، بل على الأقل مضى زمن طويل قبل فقدان هذا الاستقلال . ولا شك أن

فترات الغزو الأجنبي للبلاد ، قد أوجدت قلاقل مستمرة ، اتسمت بها السنون الأخيرة من عهد الاضمحلال .

ونستطيع أن نلقى بعض الأضواء ، على التقسيم الإدارى لإقليم البحيرة فى ، الفترة المحصورة بين الفتح المقدونى على يد الإسكندر الأكبر ، وبين العصر الرومانى ، وتبلغ هـذه الفترة نحو ثلثمائة سنة ، كانت مصر فيها مقسمة إلى مقاطعات ، لكل مقاطعة حدود تقريبية ، ولها عاصمتها ، وغالبا ما كانت المقاطعة تنسب إلى المدينة ، التى هى قاعدة لها كما أن كل مدينة كانت تنتهى بكلمة polis مثل هليوبوليس ، وتنتهى المقاطعة بمقطع ite ، ولهذا سنرى من الآن الفرق واضحا بين Métélis وهو اسم المدينة و Mételite وهو اسم مقاطعتها .

ويجب أن ننبه إلى أن (دمنهور) قد بلغت أوج العظمة ، حتى أوشكت أن تحجب ما عداها من مدن الدلتا جميعا ولهذا قرر (ويلكين Wilcken) أنها كانت عاصمة الدلتا ، لأنها (مدينة هوريس) ذات الأصل المصرى العريق .

وكذلك يقرر (شامبليون)الذى يعيد إلى الأذهان التسمية البيزنطية لدمنهور وهى (هرموبوليس پارفا Hermopolis parva) نسبة إلى إله الحكمة هرمس Hermès (تحوت Thot) ، والمعروف أن معظم المدن المصرية قد اتسمت بالطابع الإغريقى فى ظلال مصر المتأغرقة ، وتغيرت أسماؤها تبعا لذلك ، فإذا كان (هوريس Horus) يقابله فى اليونانية (أپوللو Apollo) ، فقد تغير اسم (دمنهور) من Dmi-n-hr إلى (أپولينوپوليس Apollinopolis) أى مدينة أپوللو ، غير أن هذا الاسم أطلق أيضا على (إدفو) فلزم التمييز بينهما ، فسميت دمنهور (مدينة أپوللو الكبرى parva) أما (استرابون) ، وهو الذى زار مصر عام ٢٤ ق.م. فيعتبر (صا) عاصمة الدلتا .

ومهما يكن من شيء فإن إقليم البحيرة كان يشتمل على عـدة مقاطعات Nomes لكل منها عاصمتها ، وقد تضاربت أقوال المؤرخين وعلماء الآثار ، بشأن حدود هذه المقاطعات ، وتداخل بعضها فى بعض ، أو انفصال بعضها عن بعض ، خصوصا فى عهد البطالمة والرومان من بعدهم .

ولن يفوتنا ـ قبل كل شيء ـ أن نشير إلى أسماء المدن التى ذكرها (استرابون) [1] فى إقليم البحيرة ، منذ القرن الأول قبل الميلاد وهى : (كانوبيس = أبوقير) و (شيديا = كوم النشو) و (هرقليوم = الطابية الحمراء) و (سايس) صا = (صا الحجر) و (شابرياس = أبو حمص) و (هرموبوليس = دمنهور) و (جيناكوبوليس = كوم فيرين) و (مومفيس = كوم أبوبللو) و (نقراطيس = كوم جعيف) .

والمعروف عن الرومان أنهم زادوا مقاطعات أخرى على المقاطعات البطلمية السابقة فأنشأوا فى الشمال الغربى للدلتا مقاطعة فتينتو Phthenetu وكاباسيت Cabasites وميتليت Metelites ومريوطيت Mareotite .

١ـ مقاطعة إيمنتى Imenti [2]

وهى مقاطعة مصرية قديمة ، وتقع على الفرع الكانوبى ، وتشتمل على الأراضى الواقعة شمال منطقة مريوط ، فى الوقت الحاضر ، وكان الجغرافيون اليونان والرومان يعتبرونها مقاطعة ليبية ، وكان معبودها (هوريس) ، الذى انتقلت عبادته على مر الزمن ، قبل العصر التاريخى ، فى شتى البلاد ، ثم كان معبودها فى العهد التاريخى ، الإلاهة (حتحور) أو (هاتور) أى (أم هوريس) وعاصمتها (مومنفيس Momenphis) مكان (كوم الحصن) ، التى تقع جنوبى دمنهور بمسافة ثلاثين كيومترا . (وكوم الحصن) بالمصرية القديمة كان يسمى (آمو) أى شجرة آمو ، وهى الشجرة التى تسكنها إلاهة الغابات (آمو) ، ومعنى ذلك أنها كانت معبودة مدينة كوم الحصن ، بعد أن كان (هوريس) معبوداً فى مدينة (دمنهور) التى كانت تسمى أيضا (بحدت) . وكان ذلك فيما قبل التاريخ ، حيث كانت (دمنهور) هى (مدينة الإله هوريس) عاصمة المقاطعة ، ثم انتقلت هذه العاصمة إلى (كوم الحصن) .

---

(١) الجغرافيا : ١٥ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣

(٢) انظر صفحة ٧٩ وقد وقع خطأ مطبعى على أنها المقاطعة الشمالية والصحيح أنها المقاطعة الجنوبية . رجاء تصحيح الخطأ .

ومن معبودات هذه المقاطعة أيضا - كما ورد فى قائمة سنوسرت - الإله (حابى) وكانت العاصمة (حتيت) ، التى كانت تسمى فى العهد الإغريقى وما قبله بمقاطعة (أبيس) أى العجل أبيس ، أما حابى فهو ابن هوريس ، وقيل إنه اسم آخر للعجل أبيس ، وجاء فى قاموس براين أن (حتيت) معناها إلهة برأس بقرة .

على أن (بحدت) هى تلك المدينة التى بنيت فى أواخر أيام البطالمة لتكون مدينة ملحقة بدمنهور . ومن البلدان القديمة التى كانت تشتمل عليها هذه المقاطعة :

١ - نقراطيس Naucratis : نقراش : كوم جعيف . ٢ - مريوطيس Mareotis : مريوط . ٣ - أورين (حورن) . ٤ - عاقام (راكام) . ٥ - قابيل (كابان) . ٦ - دمنهور (تيم - ن - هور) .

٢ — مقاطعة خاسيت

مقاطعة مصرية قديمة ، نسبة إلى (سخا) أى أنها مقاطعة الصحراء ، وعاصمتها (بوطو) أو (إبطو) المعروفة الآن حيث (تل الفراعين) ، بالقرب من (دسوق) إن لم تكن هى . ومن البلدان القديمة فيها :

١ - خبيت (كوم الخبيزة) وحرفها اليونانيون إلى (خميس) ، التى تربى فيها (هوريس) طفلا .

٢ - بوطو : وفيها بحثت (إيزيس) عن جثمان (أوزيريس) .

٣ - كاحسب : (شباس الشهداء) .

٤ - ام : (كوم الأمان) ، وقد وصلت إليها (إيزيس) من (خبيت) بحثا عن ولدها (هوريس) .

٣ — مقاطعة ميتيليت Métélite [1]

وتسمى بالمصرية القديمة (رع إيمنتى) أو (نفر إيمنتى) وتشغل المثلث

---

(١) الفارس ٨٠ وقد وقع خطأ مطبعى على أنها المقاطعة الجنوبية والصحيح أنها الشمالية

المحصور بين دمنهور ، وطريق السكة الحديدية دمنهور - الإسكندرية وفرع رشيد والبحيرة أى أنها تقع فى منطقة بحيرة إدكو جميعها، كما يقول (هومل Hommel)[١] سنة ١٩٢٦ وعاصمتها اليونانية (Mételis) أما عاصمتها الفرعونية فهى (سنتى نفر) و (بر - نب إيمنت) ومعناها (دار الإله هوريس) وهو رب المغرب وقد كان (بلين Pline) أول من ذكرها فى المؤرخين وفسر (بروكش Brugche) تسميتها اليونانية (Mételis) بمعنى (بلد الأجانب) ، إشارة إلى الهليفيين المهاجرين إلى شمال غرب الدلتا ، على الضفة الغربية ، للفرع الكانوبى ، على مقربة من البحر ، وقد سماها العرب (مصيل Maçil) ، ويعتقد (سرهنك) أنها فى مكان مدينة (رشيد) ، ويرى (هنرى هن Henri Henne) أنها (قرطسا Kartassa) التى فى جنوب دمنهور ، ويقول (اسطفانوس البيزنطى) إنها لم تكن بعيدة عن الإسكندرية ، ويرى (فلندرز بترى Fl. Petrie) أنها هى إما (كوم الملاشا Malasha) أو (كوم الماراسكا Maraska) وهما من الأكوام الواقعة فى شرق بحيرة إدكو ، ويقول (داريسى Daressy) إنها عند (كوم النجيل) على الضفة اليمنى لفرع رشيد ، ويرى (جوتييه Gauthier) أنها على الضفة اليسرى لهذا الفرع ، قريبة جدا من العطف، وقد احترقت سنة ٦٠٠ م ولم يعد لها وجود . ومحلها الآن (مصيل) .

وأهم مدن هذه المقاطعة : (رع قد) = (راقوده Rhacotis) مكان الإسكندرية قبلا ، و (إدكو) أو (تاج) أو (إدقو) و (قارباتى) أو (كرباتى) على البحر بالقرب من بحيرة إدكو .

٤ — مقاطعة نقراطيت Naucratite

ورد ذكرها على ورق البردى ، وذكرها (استرابون) و (بلين) وكانت المستعمرة الميليزية القديمة أيام بساتيك الثانى فى القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت جزءا من مقاطعة (سايت Saite) ، ثم أصبحت مستقلة بذاتها ، ولا سيما فى الطقوس الدينية ، وعاصمتها (نقراطيس Naucratis) ، التى كانت على الضفة

---

(١) Ethnologie

الشرقية ، للفرع الكانوبى ، فى رأى (بترى) أو فى رأى بطليموس الجغرافى على الغربية من الفرع البوابتينى (فرع رشيد) عند (كوم جعيف) ، حاليـــا بين (النبيرة) و (نقراش) ، وكانت قبلا من بلدان مقاطعة (إيمنتى) ، وقـــد وجدت بها آثار بالغة الأهمية ، ومنها لوحة من الجرانيت الأســـود ، تعبر عن تتويج الملك فى (صا) والقرابين المقدمة لمعبد الإلاهة (نيت) .

وقد كان لمدينة (نقراطيس) أثر كبير فى تاريخ الحضارة المصرية ، وامتزاجها بالحضارة الإغريقية ، ولهذا شغلت الباحثين ، مثل (فلندرز بترى) الذى وضع كتابا عنها ، وكذلك كتب كثير غيره مقـالات مستفيضة ، منهم Von Bissing فى العـــــدد ٣٩ من مجـــلة « جمعيـــة الآثار بالإسكندرية » سنة ١٩٥١ Edgar, Gjerstadt, Griffith, Scharf, Breasted, Bouillet, Hogarth, كما أن الباحثين المصريين فى تاريخ مصر القديم ، لم يغفلوا ذكرهـــا بل أسهبوا فى ذلك ، ومنهم الدكتور إبراهـــيم نصحى والدكتور نجيب ميخائيـــل، وقد أفردنا لهذه المدينة فصلا خاصا فى موضعه من الكتاب .

٥ ــ مقاطعة مينيلايت Ménélaite

وينسبونهـــا إلى (مينيـلاوس Ménélaos) وهو أخو بطليموس الأول ، ومعنى ذلك أنها ترجع إلى العصر البطلمى ، وكانت هـــذه المقاطعة مع مقاطعة الإسكندرية تتمتعان بنظام خاص ، ولا سيا فى النواحى المالية والضرائبية وفى القرن الرابع كان أسقف الإسكندرية يقيم فى (شيديا) وكان يحمل لقب (أسقف شيديا ومينيلايت) ، كما أن (التمساح) كان الرمز الإقليمى لهـذه المقاطعـة كما يقـول (هن Henne) ، وعاصمتها (مينيـلاوس Ménélais) بالقـرب من (كانوب) ، ويحدد (هن Henne) هذه المقاطعة داخل المثلث الآتى : (إيلوزيس ـ شيـديا ـــ كانوب) ، ويتفق (بريشيـا Breccia) و (جوتييـه Gauthier) و (هرمان كيز Hermann Kees) و (داريسى Daressy) عـــلى أن (هرموبوليس = دمنهور) كانت عاصمة لمقاطعة (مينيلايت) وأن (مينيلايس) كانت عاصمتها التى صارت فيما بعد (مقاطعة دمنهور) .

أما (تل لوقين) الواقعة فى الجنوب الغربى من (الكريون) بمسافة ٣٥ كم ، وتبعد عن الإسكندرية بـ ٣٢ كم ، فقد حلت محل (مينيلايس) القديمة ، ويرى (دارسى Daressy) فى بحثه المنشور سنة ١٨٩٤ (بمجلة علم الآثار Revue archeolog.) أن (إدكو) قد تكون هى مركز المقاطعة ، ولكنه عاد فراجع نفسه سنة ١٩٢٩ فكتب بحثا فى (مجلة مصر القديمة Revue de l'Egypte ancienne) ميز فيه بين (كانوبوس Kanôbos) البطل الوارد ذكره فى (الأوديسا) لهوميروس وبين (مينيلاوس) ، أخى بطليموس الأول ، وقد كشف فى هذا البحث عن معلومات جديدة ، رجع فيها إلى بطليموس الجغرافى ، الذى قال إن (كانوب) كانت عاصمة مقاطعة (مينيلايت) ، ورجع أيضا إلى (استرابون) ، الذى حدد المقاطعة فى المنطقة الواقعة جنوب الفرع الكانوبى ، بين كانوب ومقاطعة مريوطيت ، وقد ضاقت مساحتها بعد أن اقتطعت منها مقاطعة جديدة باسم (ميتيليت Métélite) .

٦ ـ مقاطعة جينوكوپوليس Gynécopolice

ذكرها (استرابون) بعد (هرموپوليس = دمنهور) ، وبعد نحو قرن من الزمان ذكرها (بلين) بين (ميتيليت) و (مينيلايت) ، وفى القرن الثانى ، ورد ذكرها فى الأماكن التى كانت تعبد فيها (إيزيس) ، واسم المقاطعة هو اسم العاصمة ومعناها (مدينة النساء) ، ويقول (إدجار) إنها مكان (كوم الحصن) ، وهى مقر عبادة (هاتور) إلاهة الأشجار ، ويرى (دارسى) أنها فى مكان (أندروپوليس Andropolis) التى هى (كوم الحصن) ، ولكنه يضع (جينوكوپوليس) على مسافة ١٥ أو ٢٠ كيلومترا إلى الشمال الغربى من (كوم فيرين Kom Ferin) ، أما (سيلاريوس Cellarius) فلا يفرق بين (أندروپوليس) و (جينوكوپوليس) ، بل يعتبرها مدينة واحدة : أولاها سبقت الأخرى فى التاريخ ومعنى الأولى (مدينة الرجال) ، والأخرى (مدينة النساء) ، ويرى (هومل Hommel) سنة ١٩٢٦ أن هذه المقاطعة هى هى مقاطعة (ايمنتى) .

وهذه المقاطعة ملاصقة لمقاطعة (مومفيت Momemphite) التى انفصلت عنها فى بداية الحكم الرومانى ، مع بقاء حاكم واحد يتولى شئونها معا .

٧ ـ مقاطعة مومفيت Momemphite

وضعها (استرابون) على الضفة الغربية للفرع الكانوبى بين جينوكوپوليت فى الشمال الغربى ، وبين مقاطعة وادى النطرون Titriôte جنوبا ، وكان أهلها يعبدون (أفروديت) ، ولهذا ذكر (ديودور) وادى أفروديت الذهبى ، قرب عاصمة المقاطعة ، وهى (مومفيس Momemphis) المجاورة لعدة مدن هى : (ماريا) و (أبيس) و (أفروديتوپوليس) وكلها حول (كوم أبو بللو) مركز كوم حمادة ، بينما يرى (كيز Kees) أن مكانها قريب من (أندروپوليس) ، التى هى (خربتا) القريبة فعلا من (كوم أبو بللو) المسمى (تيرينوتيس Térénouthis) التى هى ترنوط أو الطرانة .

٨ ـ مقاطعة أندروپوليت Andropolite

ذكرها بطليموس الجغرافى لأول مرة ، وكانت فى العصر المسيحى مقرا لأسقفية (خربتا) التى كانت من قبل تسمى (أندروپوليس) ، حيث انتصر (أمازيس) على عدوه كما يقول (داريسى) ، وهى مدينة رومانية صارت عاصمة لهذه المقاطعة ، ويقول (جريفيث Griffith) إنها هى جينوكوپوليس القائمة الآن أطلالها فى (كوم الحصن) .

٩ ـ مقاطعة مريوطيس Maréotis

جعلها (بلين) بجوار غرب الفرع الكانوبى متاخمة للمنطقة الليبية ، وعبر عنها باسم (منطقة regio) لا باسم (مقاطعة nomus) ، وقد ذكرها (ديودور) و (استرابون) و (بطليموس) ، وكانت عاصمتها فى الشمال الشرقى من (العامرية) الحالية ، على شبه جزيرة ممتدة نحو الساحل الجنوبى لبحيرة مريوط فى (كوم إدريس) بالقرب من (مرغب) كما يقول (بريشيا) ،

فهى إذن كانت تقع فى الجنوب الغربى من بحيرة مريوط ، وتلتقى بالبحر من الناحية الغربية .

وكانت (ماريا Maréa) ذات أهمية بالغة فقد كانت مجاورة لليبيا ، وعندها جرت عدة معارك ، كما أنها كانت مركزا تجاريا كبيرا ، ومنها كان يصدر النبيذ المريوطى والنبيذ الأبيض إلى روما ، وكانا موضع تقدير خاص عند الرومان .

١٠ ـ مقاطعة بيرينيس Bérenice

وعاصمتها (بسيناموزيس Psenamôsis) ، ويرجع تاريخ هذه المقاطعة إلى القرن الثالث فقط أى منذ نهاية العصر البطلمى ، ويحددها (بريشيا) بالمنطقة التى حول بحيرة إدكو أى أنها مكان (مقاطعة ميتيليت) ، وكانت هذه المقاطعة شاسعة الأرجاء ، وتشتمل على أبرشيتين : إحداهما العاصمة القريبة من (شيديا) والأخرى على ضفاف بحيرة إدكو فى مكان يسمى (أليكزارخوس Alexarchos) ، وفى نهاية العصر الرومانى ، كان لهذه المقاطعة شهرتها فى الخصوبة والنماء ، ففى الجنوب ـ كما يقول (بريشيا) ـ كان يجتمع كبار الزراع من اليونانيين فى العاصمة على هيئة جمعية مكونة من ٢٩ عضوا فى دار Oikos وملحق بها ميدان gymnase خاص بهم أيضا ، على قطعة من الأرض ، منحهم إياها (باريس Paris) ، ليقيموا باسمه كل عام عيدا فى موسم جنى العنب ، وهذا هو المعروف الآن عن أهل منطقة (كوم تمالة) وأهل بحيرة إدكو ، التى على إحدى ضفافها ، أو إحدى جزرها ، كانت تقام مثل هذه الأعياد

وقد تولدت هذه المقاطعة عن مينيلايت التى كانت تمتد من شرق الفرع الكانوبى .

١١ ـ منطقة الإسكندرية Alexandriae regio

تكلم عنها (جوتييه Gauthier) فى كتابه (مقاطعات مصر Les Nomes d'Egypte) باعتبارها منطقة regio ، وتكلم عنها (هن Henne) فى مقال له نشر سنة ١٩٢٨ على أنها (كورة الإسكندرية Alexandreon chôra) فأعاد

إلى الأذهان المصطلح العربى الذى حل محل « المقاطعة » وهو (الكورة) .

والحديث هنا عن الإسكندرية كإقليم يكشف لنا عن تاريخ التقسيم الإدارى للبحيرة ، وتطور مقاطعاتها ، فإن « منطقة » الإسكندرية ، منذ زمن أغسطس ، كانت أوسع نطاقا من « مدينة » الإسكندرية ، ولكنها فى العصر البطلمى كانت مقاطعة لهـــا وضع خاص ، يدبر شئونهـا حاكم عام stratége ، ومقره فى (دمنهور = » parva = « Hermopolis) .

أما فى العصر المسيحى فكانت أكثر من مدينة أو منطقة ، إذ كان معظم المؤرخين يقولون (قطر الإسكندرية pays) أو بلاد الإسكندرانيين ، وكانت عاصمتها (دمنهور) ، تقع فى وسط المساحة التابعة لها والممتدة من الشرق إلى الغرب ، من حدود كانوب حتى مقاطعة (كابازيت Cabasite) = (شبناس الشهداء) ، وتترامى جنوبا حتى تنتهى إلى الضفة الشمالية لترعة الإسكندرية ، وكان (فرس البحر) أو الخنزير المائى رمز الإسكندرية .

ويجب ألا ننسى أن منطقة الإسكندرية نشأت معاصرة لمقاطعة (مينيلايت) الواقعة فى شرقيها ملاصقة لها ، وكان مصيرهما واحدا ، ولكنها كانت تمتاز عليها بوجود أبرشيات بها .

ويجب ألا ننسى أيضا أن منطقة الإسكندرية كانت بهذا الوضع قسما دينيا أكثر منه أى شىء آخر ، فقد كان الأسقف السابق - بعد عزله - يقيم بها ، ومع ذلك فإن التقسيم الذى وجدناه ، إنما يعنى الجانبين الإدارى والدينى معا ، فليس ثمت فارق كبير بين regio و patria ، بل إن بينهما تشابها قريبا ، خصوصا إذا عرفنا أن الإسكندرية ، بسبب وضعها الجغرافى الخاص ، كانت متاخمة لمصر كما هو المفهوم من كتاب (بريشيا Breccia) المعروف (الإسكندرية المتاخمة لمصر Alexandria ad AEgyptum) .

هذه هى المقاطعات التى كانت معروفة فى إقليم البحيرة فى خلال ثلاثة قرون قبل الفتح الإسلامى ، حيث كان هذا الإقليم يموج بالحضارة الإنسانية أكثر من أى إقليم آخر فى مصر : تجارة خارجية ، اتصالات ثقافية ، صناعات وفنون ، ديانات وعبادات ، إدارات محلية ، حكومات منظمة ، عادات وتقاليد ، وأخيرا

تراث عريق وتطور اجتماعى ، وتلك هى مظاهر المدنية ، ومشاهد الحضارة فى إقليم البحيرة ، كما رأينا فى بحوث المنقبين ، الذين عثروا على مختلف الآثار ، فكشفوا بذلك الغطاء عن عراقة هذه المنطقة ، التى سارت ردحا طويلا فى ركب الحضارة .

آثار البحيرة

كانت **سايس** أو (صا الحجر) الواقعة على الفرع الكانوبى مدينة تجارية هامة ، ثم صارت على يد (تفنخت) أول ملوك الأسرة ٢٤ عاصمة مصر ، ولا يزال علماء الآثار يعثرون على مخلفات هذا العصر وما بعده .

أما **كوم الحصن** فقد عثروا بها على جزء من أسفل بوابة (١) ، وعليه نقش يرجع تاريخه إلى (شيشنق الثالث) وهو يحلف اليمين لإله ملك الوجهين (وسرماعت رع ستين رع) ، واهب الحياة مثل (رع) ، وعلى اليمين صور الإلهة ، تقف خلف (آمون) قاعدا ، وأمام (آمون) الإلاهة (مرى) وعلى رأسها بعض النباتات ، وغدائر شعرها مسترسلة على ظهرها ، وفى النهاية صورة الملك وهو يجرى والعجل فى يده ، وعلى اليسار منظر مومياء لإيزيس وأوزيريس ، ويستدل الباحثون من وجود قسم من المقاطعة باسم (حقل آمون) على أن (آمون) كان أحد آلهة المقاطعة .

وفى **نقراطيس** وجدت آثار للإله (**هوريس**) : فقد عثروا على لوحة من الجرانيت الأسود تشير إلى تتويج الملك فى (صا) والقرابين المهداه لمعبد الإلاهة (**نيت**) ، وقد استدل (ماسبيرو) من خطوطها على صلة كاتب اللوحة بالإغريق الذين كانوا يقطنون نقراطيس ، بينما يرى (بيل Piehl) أن هذه الكتابة مصرية خالصة ، لا تشوبها شائبة من لغات أخرى ، ويرى سليم حسن (٢) أنها تدل على بداية اتصال مصر بالثقافة الإغريقية ، خصوصا عندما قوبلت بالترحاب فى بلاط

(١) مصر القديمة ج ٩

(٢) مصر القديمة ج ١٣

فرعون ، وقـد ذكر (ديودور) ما كان من إعجاب بسماتيـك الأول ، بهـذه الثقافة ، فأمر أن يتثقف بها أولاده

وقـد عثر الأثريون على لوحة فى نقراطيس ، تمثل رجلا وامرأة واقفين ، يتحدث إليهما عن شجاعة وأنه من سلالة فيلونيد Philonides والكلام الذى تحت الصورة أكثر تعمقا من لغة هوميروس ، ويردها (جوجيه Jouguet) إلى القرن الأول المسيحى ، ويقول ويس Wace (١) إن هذه اللغة تشبه اللغة التى كانت شـــائعة فى الإسكندرية وهى لغـــة شعرائها الإغريق مثـل : (كاليماخوس) و (أبوللونيوس) و (تيوكريتوس) وهى مثل اللوحات التى اكتشفت بالشاطبى بالإسكندرية ، وفى إبريل سنة ١٩٥٠ اكتشف دريتون مقبرة اليونانيين بنقراطيس

وفى دمنهور عثروا أيضا على ناووس من الجرانيت الأسود للإلاهة (نيت)، وهو مودع الآن بالمتحف المصرى ، وسقف هذا الناووس مقبب ومزين من الأمام بقرص الشمس المجنح ، وعليه نقش (بحدتى) رب السماء وواهب الحياة ، وعلى عارضتى بابه من اليمين نقش كتب عليه : (حور رع) قوى الساعد ، ملك الوجه القبلى والوجـــه البحرى (خبر ـ كا ـ رع) بن رع نخت نبف ، محبوب القوى الساعـد ، ملك الوجـه القبلى والوجـه البحرى ، (خبر ـ كا ـ رع) بن (رع) (نخت نبف) محبوب (نيت) إلاهة (آست خت) .

و(آست خت) هى (كوم العزلة) وهى قرية صغيرة الآن فى النخلة البحرية مركز أبو حمص ، وهى المشهورة كما يقول (داريسى) بعبادة أوزيريس الشمال فاتح الطرق ، وإن كانت فى هـذا المتن منسوبة إلى الإلاهة (نيت) .

وفى **رشيد** عثروا على قطعة حجرية منزوعة من بين عمودين مزينة بكورنيش، مرسوم عليـه صف من الصقور ، وصورة الملك (نقطانيب الأول) راكعـا يقـدم القربان للإله ، وهذا الحجر طوله أربعـة أقدام فى عرض قدمين ونصف قدم ، وقد عثر عليه فى خرائب مدينة رشيد ، وأهداه جورج الثالث ملك انجلترا للمتحف البريطانى سنة ١٧٦٦ م .

---

(١) Bulletin d'Arch. d'Alex. : N : 35 A Grave Stele from Naucratis.

حجر رشيد

وفى أغسطس سنة ١٧٩٩ بينما كان (بوشار Bouchard) أحد جنود الحملة الفرنسية مكلفا بالعمل فى قلعة بشمال رشيد ، عثر على حجر مبنى فى جدار قديم ،كان لا بد من هدمه لوضع أساس (قلعة سان جوليان) ، وسرعان ما علم قنصل الإسكندرية المستر هاريس Harris أن الجنرال (مينو) قد أمر باستحضاره إلى منزله بالإسكندرية ، بعد أن نظفوه واعتنوا به ، كيلا يصيبه أى خدش ، وعلم الدكتور (برش Birch) ، وهو الذى قال [إن الحجر - على ما يظهر - كان مقاما بمعبد (توم) أو (تومومس) Tomos أو Tum « الشمس الغاربة » وذلك فى عهد نقطانب فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد]، ونقل الحجر إلى القاهرة ، وألقى عليه نابليون نظرة إعجاب ، وسرعان ما أذيع خبره فى العالم ، ثم نقل إلى لندن فى فبراير سنة ١٨٠٢ ، وبدأ علماء الآثار فى العالم كله يفسرون نقوشه ، ومن ثمت عرف باسم « حجر رشيد » .

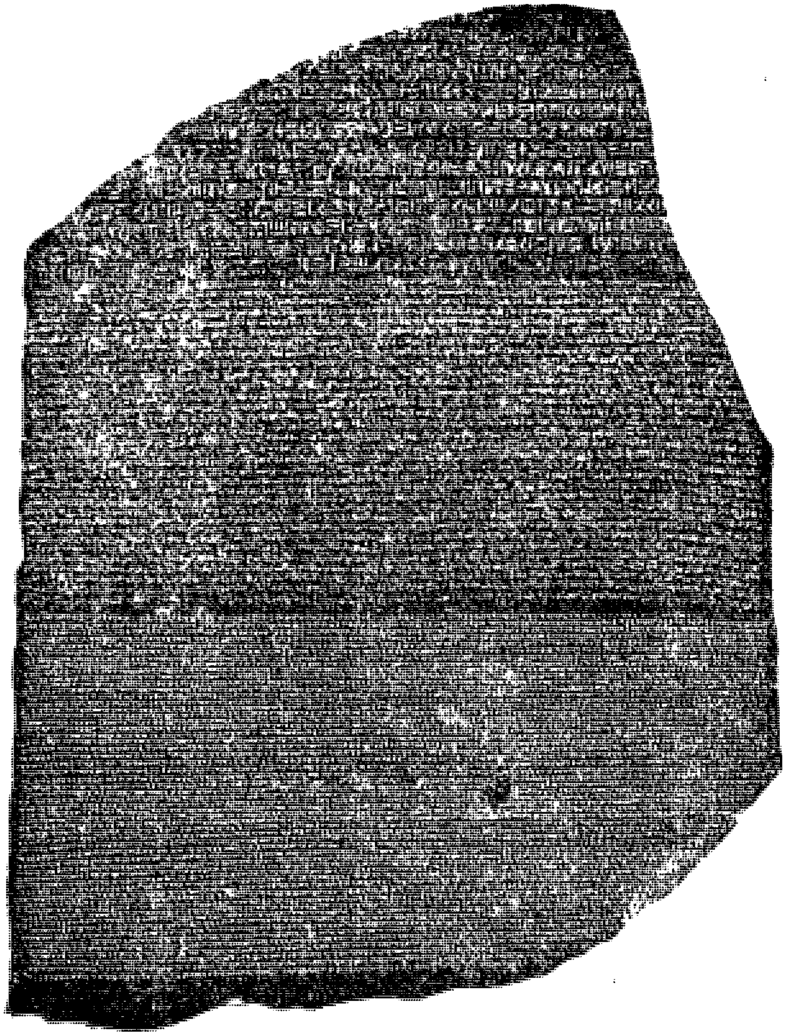
وقد وجد بحالته التى نراها فى الصورة ، وطوله ١١٥ سم وعرضه ٧٣ سم ، وسمكه ٢٨ سم ، وقمته العليا وزواياه من اليمين والشمال ومن أسفل كلها ضاعت ، ويرجح علماء الآثار أنه كان مستديرا فى أعلاه على نحو ما هو معروف عن (حجر كانوب) فى عصر البطالمة .

ويقال إنه كان يمثل قرص الشمس المجنح رمز هوريس ، ومن تحته اثنتان من الأفاعى ، إحداهما متوجة بتاج الوجه القبلى والأخرى بتاج الوجه البحرى والأرجح أن ارتفاعه كان فى الأصل ما بين خمسة أو ستة أقدام ، وأنه كان قائما على قاعدة مرتفعة قريبا من تمثال الملك فى الهيكل .

ولما اكتشفت اللوحة المماثلة لحجر رشيد بمعبد فيلة أمكن استكمال الناقص، والوقوف على النص الكامل عن طريق المقارنة بينهما .

هذا الحجر من البازلت الأسود الصلب مكتوب بثلاث لغات هى من أعلى إلى أسفل : الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، ويرجع تاريخه إلى ما يقابل

٢٧ مارس سنة ١٩٦ ق.م. فى أيام الملك بطليموس الخامس إبيفانس الذى حكم مصر فيما بين ٢٠٣ و ١٨١ ق.م.



حجر رشيد

والمعروف أن المصريين فى ثورتهم خربوا المعابد وحطموها ، وثار كهنة الدلتا على بطليموس فيلوپاتور ، وتوالت الثورات مما شل حركة البطالمة فى البحر وعطل حركة التجارة ، وزادت الثورة اشتعالا فى عهد بطليموس الخامس إبيفانس ، وانهزم البطالمة فى (پانيون) ، ولما أراد وضع حد لهذه القلاقل ،

عفا عن المصريين والجنود ، ومنحهم المعابد وألغى الضرائب . وتنازل عن ديون الحكومة لدى الأهالى ، وأفرج عن المساجين ورد إلى الثوار ممتلكاتهم المصادرة.

من أجل هذه الأعمال الجليلة شهد معبد بتاح وأبيس بممفيس اجتماعا ضم كهنة مصر شمالها وجنوبها فى العام التاسع من حكم بطليموس الخامس لتمجيد أعماله ، سائلين الله له القوة والنصر والحياة والصحة ، وقرروا أن يسجلوا لحامى مصر أفضاله هذه بإقامة تمثال له يوضع مع كل إله محلى فى كل معبد ، وأن تقدم له الصلوات ثلاث مرات فى اليوم ، ويحتفل بعيد ميلاده وعيد جلوسه كل شهر ، واتفقوا على أن ينقش هذا القرار باللغات الثلاث على حجر من البازلت وتعمل له صورة على حجر صلب ومعه صورة الملك فى كل المعابد التى من الدرجة الأولى حتى الثالثة .

وكان فى معابد الوجهين البحرى والقبلى نسخ عديدة من هذا القرار ، ولكن لم يبق منها إلا « حجر رشيد » أو (الكتابة الرشيدية) ، كما وجدت نسخة أخرى له عند (النبيرة) ، ويرى (بدج W. Budge) (١) أن الكهنة اكتفوا بنسخ صورة منه فى مدن الدلتا القريبة من الإسكندرية عاصمة البطالمة ، ومنها مدينة (بولبتين Bolbitine) التى اندثرت وقامت (رشيد) على أنقاضها ؛ وربما يكون هذا الحجر فى وقت ما قد نقل من معبد فى هذه المدينة إلى المكان الذى فيه عثر عليه (بوشار) ، ولا سيما معبد كليوباتره .

وهكذا حفظت رشيد هذا الحجر العريق ، الذى كشف عن حقائق لم تكن معروفة من قبل وهى اللغات المصرية القديمة بمقارنتها باللغة اليونانية ، وكذلك أعطى المؤرخين ثروة لم يكونوا يحلمون بها من قبل ، بالحصول على معلومات عن خامس ملوك البطالمة فى مصر بعد أدق ترجمة له قام بها (بروكش Brugsch) سنة ١٨٤٨ .

وبالقرب من رشيد أيضا ، وعلى التحديد فى **تل ابو منصور** (٢) عثر علماء

---

(١) The Rosetta Stone

(٢) دكتور نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٢٢٩

الآثار على كتابة ترجع إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد ، وفيها كلام عن خمسة رؤساء وكاتب مجلس محلى ، واستنتج من ذلك العلماء أنها إشارة إلى نظام الحكم المحلى بالإسكندرية فى هذه الفترة من عهد البطالمة (١) .

وهناك فى **ادكو** بعض الحجارة التى على خرزات الآبار ، وتحوى خطوطا مسمارية ، كما وجد حجر صغير عليه خطوط يونانية نقل إلى إدكو من الكنائس وقد فسره المختصون بأنه يشير إلى صوامع الغلال وهو الآن بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية منذ سنة ١٩٣٦ وهذه هى الكتابة التى على هـذا الحجر وقد نقلتها بخط يدى :

ΑΣΙΑΕΩΣ ΠΡΟΞΤΑΕΑΤΩΣ
ΤΑΣΙΕ .. ΑΣΧΡΗΜΑΤΟ
ΘΗΚΑΣ ΩΜΗΠΡΑCΜΑ
ΜΟΧΟΤΑΧΕ

خطوط يونانيه على حجر عثر عليه المؤلف
بإدكو نقل إليها من الكنائس

حكومة البحيرة

إذا رجعنا إلى عصر ماقبل التاريخ ، وجدنا أن إقليم البحيرة كان أول إقليم وصلتنا عنه أخبار ثابتة ، فيما يتعلق بنظام الحكم السائد ، فقد دلت لوحة نارمر ، على أن الجزء الشمالى من هذا الإقليم كان يتمتع بنظام الحكم المحلى ، وهو أروع ماوصلت إليه الديمقراطية الصحيحة من نظم الحكم ، وكان تفسير علماء الآثار لهذه اللوحة التاريخيـة أن « العشرة الكبار » هم الذين كانوا يتولون شئون هذه المقاطعة ، فلما قدم (نارمر) من (منف) لتوحيد الدلتا والصعيد ، اصطدم بهذا النظام ، وتغلب عليه .

Annales : II 1900 + Schubart, arch. V (١)

وفى عصور الفراعنة حيث انقسمت مصر إلى أمارات ومقاطعات ، لكل منها رمزها وجميع مظاهر استقلالها ، لم تشذ البحيرة عن هذا الوضع ، وتقلبت فى فترات مختلفة بين المركزية واللامركزية ، محتفظة مع ذلك بوحدتها الطبيعية مع تغيرات طفيفة .

وإذا انتقلنا إلى عصر البطالمة ، وجدنا أن البحيرة كانت أول درع تتق به الإسكندرية — وهى عاصمة امبراطوريتهم — جميع الغارات ، التى كان يشنها على مصر الأشوريون والليبيون والأحباش وغيرهم ، أما حكومة البحيرة ، فكانت تتمثل فى إدارة تلك المقاطعات التى ذكرناها ، وهى التى استمرت فى عصر الرومان ، ولكل منها حاكمها العام وقائدها العسكرى ، وسائر الموظفين الذين كانت أعمالهم الكبرى تنحصر فى الإشراف على تجفيف المستنقعات ، وأعمال الرى والصرف ، وجباية الأموال من الملتزمين

وانتقلت حكومة البحيرة إلى أيدى العمال المسلمين ، الذين كان يعينهم الخلفاء من العاصمة الإسلامية ، ويتقيدون بأوامرهم وسياستهم العامة .

ومنذ العصر العثمانى ، حظى ثغر رشيد باهتمام السلاطين العثمانيين والولاة المبعوثين من قبلهم لحكم مصر ، فأنشأوا برشيد الوكالات والمقاهى والمتاجر أما البحيرة إطلاقا ، فقد أوقف السلاطين من قراها عددا كبيرا على أعمال البر ، ففى سنة ٩٢٦ ﻫ اختار السلطان سليمان من قرى البحيرة : مطوبس الرمان ، ومنية المرشد ، وشمشيرة ، وعزبة عمرو ، والقنى ، كما أن السلطان مراد أنشأ تكية بالمدينة المنورة وقف عليها محصولات نكلا والضاهرية [١]

وضج أهل مصر بالشكوى من ظلم العثمانيين فلما قدم محمد باشا خسرو الوالى الجديد إلى رشيد سنة ١٠١٦ ﻫ ، تراكمت عليه الشكاوى خاصة من أهل الإسكندرية ورشيد ، ووقفوا له فى الطريق يشكون حتى وصل مصر وهو يكتم فى صدره أمرا ، وما لبث أن استدعى (كوسى على) كاشف البحيرة ورمى عنقه وولى مكانه كاشفا آخر [٢] .

---

(١) الإسحاقى : أخبار الأول : ص ١٤٥ ، ص ١٤٦

(٢) المرجع السابق

وأعاد الفرنسيون النظر فى التقسيم الإدارى لمصر وجعلوا الإسكندرية لأول مرة عاصمة إقليم أو قسم يشمل الإسكندرية ورشيد والبحيرة وذلك ليضمنوا السيطرة العسكرية الكاملة على هذه المنطقة الثائرة .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر والبحيرة عرضة للحروب الدامية بين الذئاب المتصارعة من أجل التهامها ، فلم تستقر بها الأمور ، وكان الوالى يعين ويعزل فى فترات متلاحقة ، فلما أصبحت مصر ولاية يديرها محمد على وذريته من بعده ، ولى على البحيرة الأغوات والمباشرين من أقاربه ، ومنحهم البحيرة ومعظمها أبعاديات له .

ومن ثنايا المعلومات التى ضمنها (سونينى Sonnini) رحلته (١) فيما يختص بالبحيرة ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، نستطيع أن نحظى ببعض معالم حضارة الإقليم ، فقد وصف ماصادفه فى البلدان من مظاهر المعيشة ، وتحدث عن أنواع السمك والطير والحيوان مما لقيه هناك ، والأسواق الرائجة فى القرى وأشار إلى أن الأوروبيين كانوا يجدون فى رشيد من المتاعب أقل مما يلقونه فى غيرها ، وذكر أيضا الآثار الإغريقية التى وجدها بالقرب من أبو قير فى إحدى قباب المسلمين ، ووصف لنا بدقة موكب رؤية هلال رمضان فى رشيد وطريقة تجفيف الأرز بها ، وأسهب فى ذكر حدائقها ، وعادات أهلها ، وجمال موقعها ، واعتدال مناخها ، واسترعى انتباهه بها الطراز الذى بنيت عليه منازلها فوصفها ، ولم يفته الحديث عن أصل تسميتها ، وتحدث عن رمضان وتقاليد الرشايدة فى سهراتهم ، حتى غادر رشيد إلى الإسكندرية ، ومنها استقل سفينته إلى أوروبا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٧٧٨ .

وعلى أية حال ، كانت رحلة سونينى هذه ، واهتمامه بدقائق الأمور ، فرصة نقف منها على مدن البحيرة وقراها فى دمنهور ورشيد وأبو منضور وبيسان وشابور وصفط والنجيلة وكوم شريك والمعدية وقراقص والكريون .

وبالنظر فى نصيب « البحيرة » من ميزانية الدولة سنة ١٢٣٣ هـ ، نرى ما يأتى

---

(١) Voyage dans la Haute et Basse Egypte : 3 tomes

أولا : أن إيرادات البحيرة بلغت ١٠١٥٢ كيسا و ٣١١ قرشا و ٣٨ باره ، عن الأطيان الآتية :

ا — مال الأطيان : وقدرها ١٩٥٦٧٨ فدانا و ٩ قراريط .

وهي موزعة كالآتي :

١ — نحو ١٨٢	ألف فدان	فلاحة
٢ — نحو ٥٢٧٣	فــداناً	أوسية
٣ — نحو ٨٤٠	«	رزق

ب — مال الأواسي : وقد بلغ ٢٤٢ كيساً و ١٦٤ قرشــا و ٤ بارة عن ٤٥٢٤ فداناً و ١٧ قيراطاً .

ثانياً : أن إيراد شونة الميرى برشيد بلغ ٣ أكياس و ٢٩ قرشا و ٣٠ بارة .

وبعد أربع سنوات بلغت إيرادات البحيرة :

١ — ١٠٦٢٧ كيساً خراج أطيان قدرها ١٥١٩٨٣ فداناً .

٢ — ٢٤٤ كيساً مال نخيل .

٣ — ٢٦٥ كيساً مال أواسي قدرها ٣٧٧٠ فداناً .

وفى سنة ١٢٣٩ هـ نبه محمد على مأمورى المديريات إلى قلة المحاصيل الزراعية ، وظهر أن البحيرة لم تنتج شيئاً من السمسم والعصفر والنيــلة ، بينما أنتجت ٩٤٧٣ إردبا من الحمص و ٢٨٨١ إردبا من بزر الكتان و ٢٤ إردبا من القرطم و ٥٤١ قنطاراً من الدخان و ٢٥ قنطارا من القطن و ١٨٠ قنطاراً من الكتان.

وتبين من جدول المحاصيل أن البحيرة كانت أقل الأقاليم البحرية ـ بعد الجيزة ـ إنتاجا للقطن ، بينما كانت أكثرها جميعاً فى إنتاج الحمص .

ليس ببعيد إذن على محمد على ـ وهو فى حاجة إلى المال ـ أن يجعل نصيب البحيرة منه سنه ١٢٥٠ هـ : ٤ آلاف كيس ، ألزم المدير بتحصيلها فى مدى شهرين ، وإخباره بمن يتأخر من النظار .

ولم تكن البحيرة المصدر الوحيد لمحمد على فى ابتزاز الأموال ، بل اتخذ من عسكرها جيشاً يبعث به فى حروبه الخارجية لإرضاء مولاه ، ففى ١٦ محرم سنة ١٢٥٠ هـ استدعى مائتى جندى من الفرسان المقيمين بدمنهور مع محمد الدالى باشا ليحلوا محل العساكر الذين كانوا فى الأقاليم الوسطى ، وأرسلهم فى الحروب الوهابية .

وفى هذه السنة كثر سطو اللصوص على الممتلـــكات فى المديرية ، وفتكهم بالأرواح ، وعلم الباشا فكتب إلى مدير البحيرة فى ٨ محرم يقول له [وبذلك قد وسخت البكوية ، فإما أن تزيل هؤلاء اللصوص من الوجـــود ، أو أنا أزيلك وأبقيهم ، فأى الأمرين تختار فدلنى عاجلا] .

واشتهرت البحيرة إذ ذاك بصناعة الطرابيش من صوف الأغنـــام ، وقد أعجب بها الباشا أيما إعجاب فوافق على الاستمرار فى صنعها بدون خلطها بالصوف الإفرنجى .

ولما خشى أن يفلت الزمام من أيدى المديرين فى الأقاليم ، أمر فى ٢٢ شوال سنة ١٢٥٢ بتعيين أحد رجال القانون فى رشيد ودمنهور ، وفى ذى القعدة فتحت مدارس بالنجيلة وشبراخيت .

واستورد محمد على قطعانا من غنم المارينوس لتربيتها بدمنهور وإمداد المصانع بالأصواف ، ولكنه عاد فعدل عن إقامة الحظائر بدمنهور لقلة المياه بها ، وذلك بعد أن كانت البحيرة تقوم بصنع الملابس الصوفية اللازمة للجيش منذ بداية القرن التاسع عشر .

ففى ١٢٤٣ هـ أصدر محمد على أمره إلى مأمور نظام نصف البحيرة بصنع عشرة آلاف حرام صوف بإقليم البحيرة لكسوة العساكر البحرية وإرسالها على سبيل السرعة .

وفى عصر سعيد باشا ، كانت موارد البحيرة ، لا تنفق على مصالحها والباشا لا يعلم جهات صرف المتحصل منها ، فقد ورد فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٧٥ الأمر العالى من سراى القبارى بالإسكندرية إلى مدير البحيرة يقول :

[عرضت إلينا مكاتبة من محافظ اسكندرية رقيم غاية رجب سنة ١٢٧٥ نمر ١٠٧ بخصوص النقدية اللازمة للصرف بالمحافظة ، ومن حيث لم علم لدينا كيفية الجارى فى تحصيلات مديريتكم ، وجارى إرسالها لأى جهة وأى جهة ، فيقتضى بوصول أمرنا هذا إليكم تحرروا كشف بأصل تقسيط السنة ببيان قسطة ، والمستحصل منه لغاية الآن ، وبيان جهات إرساله والباقى ، وتبادروا بإرسال المخصص إرساله إلى المحافظة كما هو مطلوبنا] .

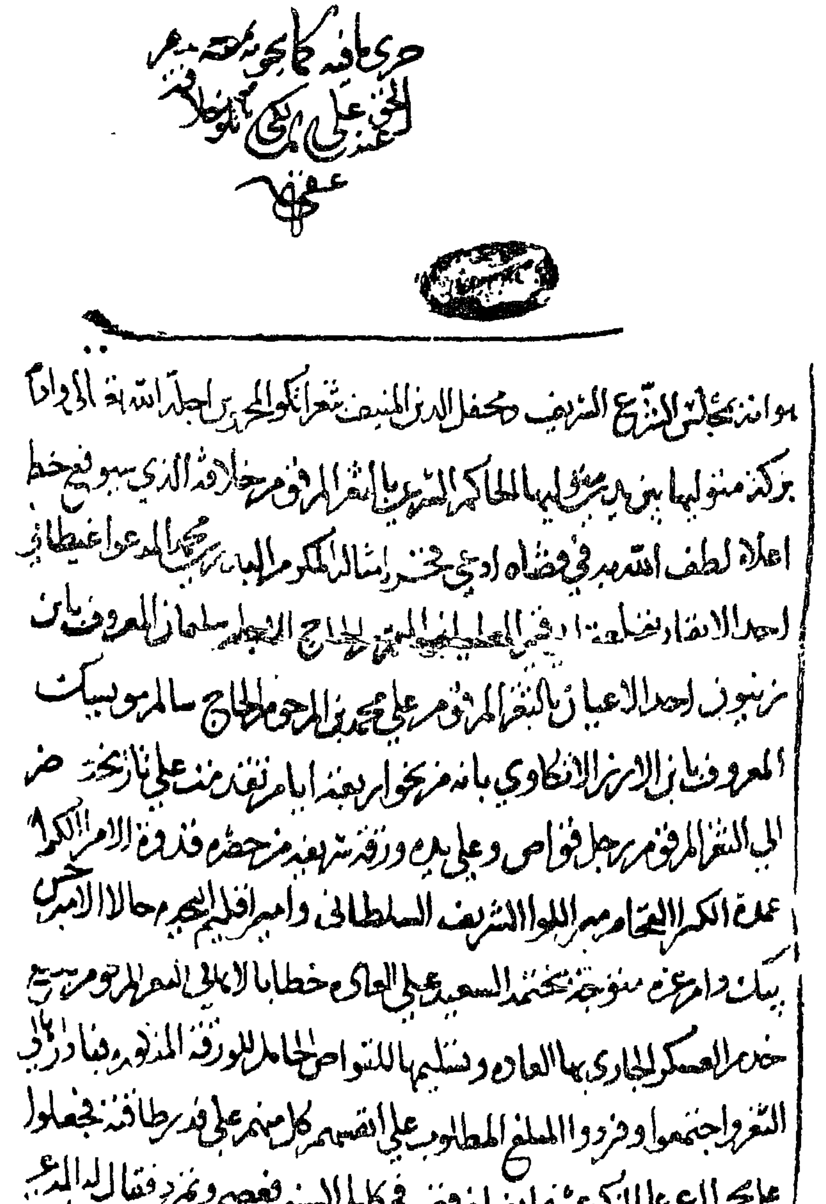
وبعد أن كانت البحيرة نصفين ، صارت منذ أول المحرم سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣) مديرية لها ديوان مقره دمنهور ، ومنها يتولى (المدير) مهام منصبه تعاونه جميع الأجهزة من حيث الشرطة والتعليم والثقافة والرى والصرف ، كما أقيمت المحاكم فى دمنهور وفى المراكز .

وفى ٣ من ذى القعدة سنة ١٢٨١ أصدر الخديوى إسماعيل أمره لمجلس الأحكام بتعيين المفتين فى الأقاليم ، فكان الشيخ عبد الله النابلسى مفتى مديرية البحيرة ، وكان مرتبه فى الوظيفة الجديدة ١٥٠٠ قرشا بعد أن كان ١٢٥٠ قرشا.

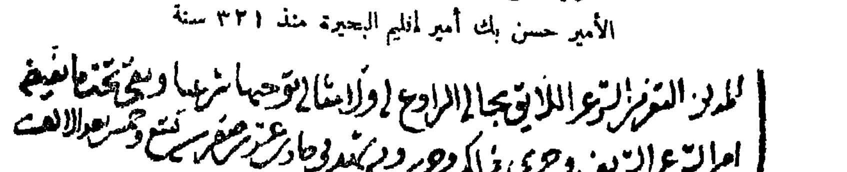
على أن الوثائق التى تحت يدى ، تشير إلى أن المحاكم الشرعية كانت منتشرة فى جميع أرجاء القرى فى البحيرة منذ أكثر من ثلثمائة وخمسين سنة ، وكان القاضى الذى يتولى الحكم يتعين من قبل قاضى القضاة ، ويجلس فى مجلس الحكم ويفصل فى جميع المنازعات التى تنشب بين الأهالى والمماليك مدنية وشرعية وجنائية ، وكان يتحرر محضر لكل ما يجرى فى الجلسة ويوقع عليه القاضى والشهود .

والوثيقة التالية صادرة من محكمة إدكو فى ١١ صفر سنة ١٠٥٩ هـ وأهم ما ورد فيها بعض معالم الحياة فى العصر العثمانى ، حيث كان يوجد بقلعة أبوقير بعض المكلفين بالحراسة منهم محمد غيطانى ، وأن سليمان بن زيتون قد ادعى على سالم مويسك المعروف بابن الأرز الإدكاوى بأن أمير إقليم البحيرة وهو أمير اللواء حسن بك أرسل قواصا إلى إدكو يأمر أهلها ، بجمع الأموال من بينهم ليدفعها أجرا لحراس قلعة أبوقير ، فتمرد بعض أهالى إدكو ، وانتهى الأمر إلى القضاء بين يدى متولى أمرها الشرعى عبد الحق على المالكى المذهب ، فاتخذ كل ما يوجبه الشرع من تبيان الحق من الباطل ، حتى أصدر حكمه [اللايق بحاله ، الرادع له ولأمثاله] فى تاريخه .

ونخلص من هذا إلى أن حاكم « إقليم البحيرة » منذ أكثر من ثلثمائة سنة كان أحد أمراء المماليك وهو أمير اللواء حسن بك ، وأنه كان يفرض على أهالى القرى أن يدفعوا أجور المرابطين بالثغور ومنها أبو قير ، وأن الأهالى كانوا لا يعيرون هذه الأوامر التفاتا ، وكانوا يتمردون على أمراء المماليك فى جرأة وشجاعة .



وثيقة من محكمة ادكو تشير الى مير اللواء
الأمير حسن بك أمير اقليم البحيرة منذ ٣٢١ سنة



الجزء الأسفل من الوثيقه وتاريخها
١١ صفر سنة ١٠٥٩ هـ

وشد ما كان حرص الاحتلال الإنجليزى على حكم البلاد بيد من حديد ، فنشأ منذ سنة ١٨٨٣ نظام مجالس المديريات ، فكان مجلس مديرية البحيرة يتولى أمر التعليم فى المديرية ، ويضم بين أعضائه عددا من الأعيان ذوى الأملاك ولم يكن القانون يخول لهم سلطات فعالة ، وكان مجلس مديرية البحيرة فى المبنى الذى تحتله الآن محافظة البحيرة .

ورأت الثورة بثاقب نظرها أن نظام مجالس المديريات لم يكن إلا أثرا من آثار الاحتلال ، وأبقت عليه الحكومات المتعاقبة فى العهد البائد ، كما رأت أنه لا يؤدى المهمة التى تدفع بالإقليم ـ أى إقليم ـ نحو الديمقراطية الصحيحة ، فاستبدلت به الثورة نظاما أكثر إيجابية هو نظام « مجالس المحافظات » .

حاكم البحيرة

ليس من السهل أن نجد ثبتا وافيا بأسماء من حكموا البحيرة منذ أقدم العصور إلى اليوم ، فالمراجع لا تسعفنا إلا بقدر ، ومع ذلك ، استطعنا أن نجمع فيما يلى ما أمكن جمعه من أسمائهم :

ففى القرن السابع الهجرى ، كانت دمنهور مقر نائب الوجه البحرى ويطلق عليه [ملك الأمراء] [١] ، وهذه بداية الاستقرار لأن نيابة الوجه البحرى كانت قبل ذلك ، أى فى عهد الفاطميين ، بيد كاشف يسمى [والى الولاة] ولم يكن له مقر خاص ، فلما آل الأمر إلى الأيوبيين جعلوها [ولاية حرب كبيرة] [٢] وجعلوا نائبها بمثابة [كاشف كبير] وصارت دمنهور له مقرا .

وإذ ذاك كان إقليم البحيرة على النحو التالى :

ا ـ **عمل البحيرة** : ويشتمل على حوف رمسيس والكفور الشاسعة وحاكمه وال من الولاة .

ب ـ **عمل المزاحمتين** : ويتحدث بشأنه شاد ، وفى القرن الثامن الهجرى ، وفى عصر قلاوون بالذات يحدثنا المقريزى عن كاشف البحيرة الأمير ركن الدين القلنجقى سنة ٧٢١ هـ كما سبق أن ذكرنا فى صفحة ٤٢ من

(١) ابن دقاق : الانتصار : ص ١٠١

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى .

الكتاب ثم نرى والى البحيرة اسندمر القلنجقى الذى نقل من ولاية البحيرة إلى ولاية القاهرة سنة ٧٢٣ هـ ، ويخلفه على البحيرة الأمير بلبان العتريس ثم غرس الدين خليل الظاهرى الذى نقل فى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٧٣٧ هـ. نائب السلطنة بالإسكندرية ، ويخلفه على البحيرة الجمالى عبد الله ، ونسمع أيضا أن الأمير ركن الدين بيبرس الركنى المظفرى كان كاشف البحيرة ، ثم والى الإسكندريه حتى توفى سنة ٧٤٠ هـ ، وفى سنة ٨٥٧ هـ كان كاشف البحيرة قشم المحمودى الناصرى ، ولما قتله عرب البحيرة خلفه حسن الدنكرى ، وفى سنة ٨٧١ هـ كان خشقدم كاشف البحيرة ثم عزل ، وجاء بعده محمد الصغير ، وفى سنة ٨٧٩ هـ يكون الكاشف هو خشقدم الزينى الذى أعدمه السلطان قايتباى توسيطا ، وفى سنة ٨٩٠ هـ عزل كاشف البحيرة أمير سلاح قراكز التمرازى ، وخلفه الأمير كرتباى الأحمر أحد أقارب السلطان ، وفى سنة ٩٢٨ هـ كان حاكم البحيرة الأمير تمراز الشمسى السيفى الأتابكى .

ونسمع أيضا بابن بيرم ملك الأمراء بالبحيرة وهو محمد بن عبد الله بن محمد ابن خليل بن بكتوت بن بيرم بن بكتوت الشمسى وهو كردى الأصل قدم أجداده مع صلاح الدين الأيوبى .

وفى سنة ١٠١٦ هـ كان كوسى باشا كاشف البحيرة وقد شكا من ظلمه أهل الإسكندرية ورشيد للوالى الجديد محمد خسرو باشا ، فضرب عنقه وعين بدله كاشفا آخر .

وظل أمر الولاة والكشاف على هذه الفوضى فى زمن العثمانيين ، حتى تذكر لنا الوثيقة المؤرخة سنة ١٠٥٩ هـ أن الأمير حسن بك أمير إقليم البحيرة .

وانقسمت البحيرة إلى نصفين على كل منهما مدير [مدير نصف البحيرة بحرى] و [مدير نصف البحيرة قبلى] وذلك حتى سنة ١٢٤٩ هـ حيث صار للبحيرة كلها مدير يسمى « مدير البحيرة » ، واستمر هذا الوضع حتى صارت جميع المديريات محافظات سنة ١٩٦٠ ، فصار حاكم البحيرة يسمى « محافظ البحيرة ».

وكان مدير البحيرة ـ يتولى مهام منصبه بناء على أمر صادر من محمد على ثم الذين خلفوه ، ويلاحظ أن مدة المدير كانت غير كافية للتعرف على أحوال

المديرية ، لهذا تقاربت مدد التولية والنقل على نحو ظاهر .

وفيما يلى مثال من أمر التولية الصادر من سعيد باشا لمحمد المرعشلى بك مدير البحيرة .

[فى ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٣ إرادة لمحمد المرعشلى بك ، قد استحسنا وقررنا بتعديل مأموريتكم الحالية بمديرية البحيرة ، فعندما تحيطون علما بذلك يجب أن تبادروا بالسفر إلى مأموريتكم ، وأن تباشروا أعمالها بالدقة والعناية اللازمة كما هو مأمول ومنتظر منكم ، فلذلك أصدرنا أمرنا هذا وأرسلناه إليكم] ، وكان مرتب المدير ألفى قرش فى الشهر (١) .

وهذا بيان بمديرى البحيرة من عهد محمد على إلى اليوم .

حاكم البحيرة		من	الى
حسن بك الشماشرجى	:	كان حاكم البحيرة سنة ١٢٣٥ وقد فتح سيوه على رأس قوة من البحيرة .	
رستم أفندى	:	أول مدير للبحيرة	- سنة ١٢٤٩ ﻫ
أمير اللواء عبد الله بك	:	قبل ٢٦ شعبان سنة ١٢٦٠	- آخر رمضان ١٢٦١
محمد سعيد أفندى	:	أول شعبان سنة ١٢٦١	- ١٢٦٣
حسن بك	:	١٢٦٣	-
الأميرالاى إسماعيل بك	:	٢٩ شوال سنة ١٢٦٤	- ٢٧ شوال سنة ١٢٦٥
محمد فاضل بك	:	٢٨ شوال سنة ١٢٦٥	- ١١ شوال سنة ١٢٦٦
إبراهيم بك	:	١٢ شوال سنة ١٢٦٦	- ٢٠ ربيع الثانى ١٢٦٧
أحمد بك	:	٢١ ربيع الثانى سنة ١٢٦٧	- ١٨ رجب ١٢٦٨
رستم بك	:	١٩ رجب سنة ١٢٦٨	- ١٢ محرم ١٢٦٩
عارف بك	:	١٣ محرم سنة ١٢٦٩	- ٤ صفر ١٢٧٠
حسن أغا	:	٥ صفر سنة ١٢٧٠	- آخر ربيع الأول ١٢٧٠
جعفر أغا	:	أول ربيع الثانى سنة ١٢٧٠	- ٦ القعدة ١٢٧٠
محمد عرفان بك	:	٧ القعدة سنة ١٢٧٠	- ٢ محرم ١٢٧٢

(١) حسب الأمر الصادر بذلك الى مفتشى عموم الأقاليم فى ٧ رجب سنة ١٢٨٣ ﻫ .

إسماعيل بك	: ٣ محرم سنة ١٢٧٢	- ٢٥ محرم ١٢٧٢
يعقوب بك	: ٣٠ محرم سنة ١٢٧٢	- ٢١ جمادى الثانية ١٢٧٢
السيد أباظة بك	: ٢٥ جمادى الثانية ١٢٧٢	- ٥ محرم ١٢٧٥
محمد راشد بك	: ٦ محرم سنة ١٢٧٥	- ٢٩ رجب ١٢٧٩
على شكرى باشا	: ٣٠ رجب سنة ١٢٧٩	- ٢٠ رمضان ١٢٧٩
أحمد صادق بك	: ٢١ رمضان سنة ١٢٧٩	- ١٦ محرم ١٢٨٠
محمد شاكر بك	: ١٧ محرم سنة ١٢٨٠	- ٧ ربيع الثانى ١٢٨٠
جعفر بك	: ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠	- ٤ شوال ١٢٨٠
حسن سرى بك	: ٥ شوال سنة ١٢٨٠	- ٤ شوال ١٢٨٢
محمد توفيق بك	: ٣ شوال سنة ١٢٨٢	- ١٠ ربيع الأول ١٢٨٣
محمد مرعشلى بك	: ١١ ربيع الأول ١٢٨٣	- ٧ رجب ١٢٨٣
يوسف صدقى بك	: ٨ رجب سنة ١٢٨٣	- ١٨ جمادى الأولى ١٢٨٤
صالح شرمى بك	: ١٩ جمادى الأولى ١٢٨٤	- ٢٦ الحجة ١٢٨٤
إسماعيل بك	: ٢٧ رجب سنة ١٢٨٤	- ٧ صفر ١٢٨٥
مراد بك	: ٨ صفر سنة ١٢٨٥	- ١٣ شوال ١٢٨٥
إسماعيل دانش بك	: ١٤ شوال سنة ١٢٨٥	- ٣ جمادى الآخرة ١٢٨٦
محمد توفيق بك	: ٤ جمادى الآخرة ١٢٨٦	- أول رمضان ١٢٨٦
محمد الصيرفى بك	: ٢ رمضان سنة ١٢٨٦	- ٥ شوال ١٢٨٦
أحمد الشريف بك	: ٦ شوال سنة ١٢٨٦	- ٢٥ جماد آخر ١٢٩٠
محمد شاكر باشا	: ٢٦ جمادى الآخرة ١٢٩٠	- ٤ رجب ١٢٩٠
على حيدر باشا	: ٥ رجب سنة ١٢٩٠	- ٦ شعبان ١٢٩٠
محمد شاكر باشا	: ٧ شعبان سنة ١٢٩٠	- ٥ رمضان ١٢٩٠
أحمد الجوخ دار باشا	: ٦ رمضان سنة ١٢٩٠	- ٢٦ شوال ١٢٩٠
مصطفى مراد بك	: ٢٧ شوال سنة ١٢٩٠	- ١١ صفر ١٢٩١
داود بك	: ١٢ صفر سنة ١٢٩٠	- ١١ شعبان ١٢٩١
يعقوب بك	: ١٢ شعبان سنة ١٢٩١	- ٧ الحجة ١٢٩١

إدريس بك	: ٨ الحجة سنة ١٢٩١	- ١٦ صفر ١٢٩٢
محمد صيرفى بك	: ١٧ صفر سنة ١٢٩٢	- ٩ شعبان ١٢٩٢
يعقوب صبرى باشا	: ١٠ شعبان سنة ١٢٩٢	- ٢ شوال ١٢٩٣
يعقوب فهمى باشا	: ٤ شوال سنة ١٢٩٢	- آخر صفر ١٢٩٣
يعقوب صبرى باشا	: أول ربيع أول سنة ١٢٩٣	- آخر جماد أول ١٢٩٣
طه بك	: أول جمادى الآخرة ١٢٩٣	- ٢١ رجب ١٢٩٣
أحمد رأفت باشا	: ٢٢ رجب سنة ١٢٩٣	- ١٦ رمضان ١٢٩٣
محمد صيرفى بك	: ١٧ رمضان ١٢٩٣	- ٣ القعدة ١٢٩٣ (١)
محمد خورشيد باشا	: ٤ القعدة سنة ١٢٩٣	- ٦ شوال ١٢٩٤
يعقوب صبرى باشا	: ٧ شوال سنة ١٢٩٤	- ١٠ جماد آخر ٢٩٦
درمللى حسين باشا	: ١١ جمادى الآخرة ٢٩٦	- ١٩ رمضان ١٢٩٦
خالد باشا	: ٢٠ رمضان سنة ١٢٩٦	- ١٨ القعدة ١٢٩٦
إسماعيل دانش باشا	: ١٩ القعدة سنة ٢٩٦	- ١١ جماد آخر ١٢٩٧
عثمان حلمى بك		١٥ صفر سنة ١٣٠٥
عبد الرحمن سامى بك	: ١٥ صفر سنة ١٣٠٥ (٨٨٨)	

محمد محمود باشا : (١٩١٤ +) إبراهيم حليم بك : (١٩١٧ +) محمد علام بك : (١٩٢٠) محمود نصرت باشا : (١٩٢٢) سالم محمد بك (١٩٢٣) بدرخان على بك : (١٩٢٤) محمود شيرين بك : (١٩٢٥) محمود صادق يونس بك : (١٩٢٥) محمود زكى بك : (١٩٢٦) محمد رفعت بك : (١٩٢٦ +) محمد نيازى بك : (١٩٢٩) عبد السلام الشاذلى بك : (١٩٢٩) إسماعيل أحمد بك : (١٩٣٠) عبد السلام الشاذلى باشا : (١٩٣٠) بيومى على نصار بك : (١٩٣٣) أحمد محمود عزمى بك : (١٩٣٦) محمود عثمان غزالى بك : (١٩٣٦ +) إبراهيم رشدى قمحة بك : (١٩٣٨ +) سالم حسن مباشر بك : (١٩٣٨ +) محمد توفيق رضوان بك : (١٩٣٨ +) محمود حسيب بك : (١٩٤٠ +) محمد عزيز أباظه

(١) كان محمود بك طبوز ذاده وكيل المديرية ، وحل محله محمد بك حمودة عمدة برمه .

بك : (١٩٤١) (وكان وكيلا للمديرية ١٩٣٥) محمد نديم بك : (١٩٤١+) أحمد محمد الحفناوى بك : (١٩٤٢) على عبد الهادى بك : (١٩٤٢) محمد عزيز أباظه بك : (١٩٤٢) أحمد محمد الحفناوى بك (١٩٤٣) محمد كامل الطرابلسى بك : (١٩٤٤) صابر طنطاوى بك : (١٩٤٥ +) على حلمى بك : (١٩٤٧ +) عبد الحليم منظور الدالى بك : (١٩٤٩) محمد خيرى عثمان بك : (١٩٥٠ +) اللواء مصطفى المتولى : (١٩٥٢) اللواء عبد المجيد أحمد : (١٩٥٢) عبد الحميد عارف بك : (١٩٥٣) اللواء عبد الرءوف عاصم : (١٩٥٤ +) اللواء محمد لبيب : (١٩٥٦) اللواء منير محمد صالح : (١٩٥٩) .

وهو آخر مدير للبحيرة وقد نقل فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠ مديرا للأمن بمحافظة المنوفية .

البحيرة والحياة النيابية

وفى ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) اجتمع « مجلس الشورى » بالقاهرة برئاسة ابراهيم باشا بن محمد على ، وكان يتشكل من مأمورى الأقاليم والعلماء ومشايخ البلاد (العمد) ، وحضره عن البحيرة :

١ - دفترى مصر محمد خسرو بك مأمور الجيزة والمنوفية والبحيرة .

٢ - رستم أفندى مأمور نصف البحيرة ، عن مأمورى الأقاليم .

٣ - الشيخ دسوقى خيرالله عمدة دمنهور .

٤ - الشيخ محمد عمدة الرحمانية .

٥ - الشيخ مصطفى عمدة النجيلة .

وطلب دفتردار بك أفندى من مجلس المشورة قسمة مأمورية نصف البحيرة إلى أربعة أقسام وتعيين ثلاثة كتاب لكل قسم وناظر . فوافق المجلس[1] .

وعند افتتاح مجلس شورى النواب فى ١٧ رجب سنة ١٢٨٣ هـ بالقلعة ، كان

---

(١) الوقائع المصرية فى ٥ صفر سنة ١٢٤٦

ممثلو البحيرة فيه العمد الآتيــة أسماؤهم على اعتبار أن كل قسم بالمديرية يمثله شيخ أو اثنــان :

١ ـ الشيخ محمد الصيرفى عمدة قليشان عن قسم النجيلة .

٢ ـ الشيخ حسنين حمزة عمدة البريجات .

٣ ـ الشيخ أحمد أبو دبوس عمدة نكلا العنب عن قسم شبراخيت .

٤ ـ الحاج على عمار عمدة بيبان عن قسم دمنهور .

٥ ـ الشيخ محمد الوكيل عمدة سمخراط عن مأمورية الأرز .

وفى سنة ١٢٨٦ كان المنتخبون من مديرية البحيرة :

١ ـ الشيخ حسين أمين عمدة شابور .

٢ ـ الشيخ على مهنا عمدة كفر سلامون .

٣ ـ الشيخ أحمد على محمود عمدة الرحمانية .

٤ ـ الشيخ عبد الله ناصر عمدة محلة بشر .

٥ ـ الشيخ محمد الأنصارى عمدة إدفينا .

وفى سنة ١٢٩٠ صدر الأمر بتشكيل « مجلس خصوصى » فى كل محافظة وكل مديرية ، ويتــكون من أربعة يرأسهم المحافظ أو المدير وهم :

وكيل المحافظة (أو المديرية) ، أحد العلماء العاملين ، عمدة التجار فى المحافظة أو عمدة منتخب فى المديرية ، أحد أعيان المحافظة أو المديرية .

وعلى ذلك كان لرشيــد مجلس خصوصى باعتبارها محافظــة ، وآخر للبحيرة باعتبارها مديرية ، ومقره دمنهور ، على أن هذه المجالس عموما كانت صورية ، وامتــدت حتى تحولت إلى مجالس المديريات سنة ١٨٨٣ فى ظــل الاحتــــلال الإنجليزى ، وظل هذا النظام على حاله معبرا عن مصالح الإقطاع ، حتى استبدلت به حكومه الثورة سنة ١٩٦٠ نظام الإدارة المحلية .

وصارت حكومة البحيرة ممثلة فى « مجلس محافظة البحيرة » ويرأسه المحافظ ، وهو بحكم القانون يتولى جميع سلطات الوزراء بالنسبة للمصالح التابعة لهم الواقعة فى دائرة المحافظة ، وينوب عن المحافظ فى غيابه مدير الأمن ، وهـــذا المنصب يعادل وظيفة « مدير البحيرة » فى النظام السابق .

ومجلس محافظة البحيرة مجلس نيابى تنفيذى ، قراراته نافذة فى الحدود التى رسمها القانون ، ويتكون من :

أولا : أعضاء بحكم وظائفهم : ويمثلون الوزارات التى لها مصالح بالبحيرة وهؤلاء هم : اللواء محمود الشافعى (وكيل المجلس ومدير الأمن) والاستاذ على أحمد المغربى (مدير عام التربية والتعليم) ، والسيد أحمد رفعت أحمد (مدير الشئون الاجتماعية) ، الدكتور عبد الرازق عبد السلام (مدير المنطقة الطبية) ، المهندس عبد العزيز الشريف (مدير الإسكان والمرافق) ، المهندس محمد لبيب محمود (مراقب الإصلاح الزراعى) ، السيد محمد اسماعيل عرفة (مدير بنك التسليف الزراعى والتعاونى) ، المهندس محمود عبد الله خليل (مفتش الرى) ، السيد محمد صديق حلمى (مدير منطقة العمل) ، والسيد مفتش الطرق والنقل البرى ، والسيد عبد القادر قريطم (مراقب التموين) ، والسيد شكرى توفيق صبحى (المراقب المالى) والمهندس محمود الحناوى (مدير منطقة الزراعة) .

ثانيا : أعضاء منتخبين : ويمثلون الاتحاد القومى ، وهم السادة :

بندر دمنهور : إبراهيم أحمد آدم ، محمد عبد الغنى غبينه ، ومحمد فريد إسماعيل التمتامى ، وزكى نصر الشامى .

مركز دمنهور : محمد سعيد حسين الحبشى ، وسعيد أحمد شعبان العيسوى ، ومحمد عبد المنعم حنفى مكرم ، وعبد الحميد إسماعيل نوار .

مركز شبراخيت : محمد محمد على الخولى ، ومحمد كمال إبراهيم عيد ، وصبحى محمد عبد العاطى خليفة ، ومحمد عبد المنعم حمدى الديب .

مركز كوم حماده : مصطفى كمال محمد أبو رية ، وعبد الصمد على مبروك الجيار ، وعثمان إبراهيم عثمان جبريل ، محمد مهدى مبروك هندى ،

مركز كفر الدوار : عبد المقصود حسن على الزربة ، وعباس زيدان عبد السلام ، وعبد الحميد عبد الواحد عرمش ، وعوض عبد الحليم إبراهيم بسيونى .

مركز الدلنجات حسين عبد الله درويش ، ومحمود الشافعى أبو وافية ، ومبروك أحمد خلف الله ، وحلمى ثروت رشوان .

مركز حوش عيسى عبد الهادى مبروك قريطم ، ومحمد عبد العزيز عكاشة ،

وعبد المالك عبد الوهاب صقر ، ومحمد أحمد أبو السعد .

مركز المحمودية محمد محروس العتال ، ومحمد السيد عبد العال ، وعبد الحميد محمد غنيم ، وسعد عبد الحميد المنياوى .

مركز رشيد : عبد العزيز ابراهيم زايد ، وأحمد فتح الله يونس خاطر ، ومحمد عبد اللطيف عواد ، وحافظ محمد عجوه .

مركز ابو المطامير : بركات عبد الملك مقاوى ، محمد سيد أحمد الحلوجى ، وعلى عبد الجواد زيدان ، وعبد العزيز عبد الواحد خلاف .

مركز اتياى البارود : محمد على القونى ، ومحمد عبد السلام الصيرفى ، وحسن كامل طايل دبوس ، ومحمد جاد شنيش .

مركز ابو حمص : جرجس يونان جرجس ، وتوفيق متولى رجب ، وغازى داود رمضان ، وعبد الحليم يوسف عيسى .

ثالثا أعضاء مختارين وهم السادة :

أحمد محمد الوكيل ، ومحمد فخرى مهنا ، وأنور محمد حماد ، وعلى محمود ضفدع ، وعبد الرءوف محمد أبو خطوة .

واقتضى تطبيق نظام الإدارة المحلية تقسيم المحافظة إلى مدن وقرى ، ولكل مدينة مجلس ، ولكل قرية كبيرة أو مجموعة من القرى الصغيرة مجلس أيضا ، وفيما يلى هذه المجالس ورؤساؤها :

رؤساء مجالس المدن

(إدكو) لبيب حبشى عبد السيد ، (كوم حماده) شوقى على سليمان ، (دمنهور) يوسف لطفى الهمشرى ، (حوش عيسى) يوسف محمد قريطم ، (أبو المطامير) ابراهيم قنديل العوضى ، (أبو حمص) محمد راشد الحنفى ، (رشيد) عبد الكريم رشوان حمادى ، (الدلنجات) عبد العزيز لبيب هندى ، (شبراخيت) محمود إسماعيل أبو شلوع ، (المحمودية) عبد المنعم الغنام ، (إتياى البارود) محمد عاطف أحمد ، (كفر الدوار) أحمد محمد السيد .

رؤساء المجالس القروية

(سيدى غازى) عبد العزيز محمد مبارك ، (منشاة بولين) السيد هيبة بسيونى ، (شبرنوب) ، السيد عبد الرحمن قرقوره ، (صفط الحرية) (صفط الملوك سابقا) إسماعيل أحمد أبو الفضل ، (نكلا العنب) أحمد طايل دبوس ، (الطود) جلال على السيد شعب ، (البريجات) أحمد محمود خليل حمزة ، (محلة الأمير) عبده محمد مصطفى عجوه ، (كوم زمران) محمد الشافعى أبو وافية ، (الوفائية) أحمد محمد عبد الحكيم عصفور ، (محلة بشر) أحمد أحمد أحمد محمود ، (الشهيد جواد حسنى) (كوم البصل) السعيد يوسف عيسى ، (عزب دفشو) عبد الحليم على محمد بركة ، (محلة فرنوى) عبد الله محمد خالد ، (الضهرية) كمال الدين محمد عسران ، (قليشان) أحمد حامد حلمى الصيرفى ، (دست الأشراف) كامل مصطفى على عاشور ، (طيبه) كمال عبد الحميد عياد ، (المسين) حلمى عبد الرءوف الجالى أبو ورك (الرحمانية) محمد طاعت على محمود ، (النجيلة) أحمد محمد ابراهيم يونس ، (كوم القناطر) عبد الحميد عبد الله حمد ، (كوم شريك) حازم عبد العزيز الصوفانى ، (منشاة دميسنا) إدريس عبد الرحمن مخيون ، (الكوم الأخضر) عبد المنعم ابراهيم خليل ، (زاوية غزال) أحمد محمد شعبان العيسوى ، (أرمانية) السيد مصطفى مرعى ماضى ، (شنشت الانعام) عبد العزيز عرفات ، (النبيرة) محمود محمد عوض القونى ، (كفر داود) سيف النصر عثمان باظه ، (شابور) حسين رياض إسماعيل ، (رزافة) عبد الرءوف محمود محمد الشريف ، (الكفر الجديد) جاب الله محمد عبد الله الساخى .

والمعروف أن مجالس المدن وتعيين رؤسائها يكون بقرار من السيد رئيس الجمهورية أما مجالس القرى فيصدر بها قرار السيد وزير الإدارة المحلية، وهذه المجالس جميعا تحت إشراف محافظ البحيرة .

أبناء البحيرة فى مجلس الأمة

وفى مجلس الأمة الأخير كان من أبناء البحيرة ٢٥ نائبا عن ٢٥ دائرة على

التالى : السادة : محمود عبد اللطيف الجيار (الخطاطبة) ، محمد حامد محمود (شبراخيت) ، محمد عيسى نوار (حفص) ، محمد على قاسم (إدكو) ، أحمد صلاح الدين على بسيونى (كفر الدوار) ، بخاطره محمد حموده (البيضا) ، حسن ابراهيم عامر ومحمد ابراهيم فهمى السيد (إتياى البارود) ، حسين فهمى حسين (كوم حماده) ، زكى زيدان عبد السلام وطناشى ديمترى راندوبلو (أبو المطامير) ، عبد العزيز عبد الرحمن مخيون (أبو حمص) ، عبد المنعم الميقاتى (رشيد) ، عبد الواحد عمار (الطود) ، عطية أبو بكر حتيتة ومحمد عبد المالك قريطم (حوش عيسى) ، محمد عبد الرحمن قرقوره (سنهور) ، محمد عبد العزيز فتحى (دسونس الحلفايه) ، محمد فتحى الشرقاوى (نكلا العنب) ، محمد لطيف محمد (الدلنجات) ، محمد محمود الصيرفى (قليشان) ، محمود على محمد الوكيل (بندر دمنهور)، مصيلحى ابراهيم عبد الله (مركز دمنهور)، محمد محمود العتال (المحمودية) ، ممدوح حلمى صالح (شبراريس) .

هذا وقد سبق انتخاب رؤساء الاتحاد القومى لاثنى عشر مركزا فى محافظة البحيرة ، توصلوا إلى مجلس الأمة ، نيابة عن هذه المراكز .

النشاط الصناعى

لايقل النشاط الصناعى فى البحيرة أهمية عن النشاط الزراعى ، وقد أوتيت البحيرة من الإمكانيات الطبيعية ما جعلها فى مقدمة المناطق الصناعية فى العالم ، نظرا لقربها من ميناء الإسكندرية ، والاتصال به بالنيل والسيارات والسكة الحديدية ، وكذلك كثرة المواد الخام المحلية .

وقد عرفنا قديما مصانع الفسيخ التى شهدها الرحالة فى القرن الأول الميلادى فى كانوب ، كما كانت المصانع فى دمنهور ورشيد فى مطلع القرن التاسع عشر تنتج ملابس الجيش ومهماته ، وانتشرت فى إدكو صناعة النسيج من الصوف والحرير .

والآن تزداد مصانع شركة مصر للغزل والنسج الرفيع بكفر الدوار كل يوم تألقا فى انتاج ونسج أجود القطنيات ، وقد أنشىء هذا المصنع سنة ١٩٣٨ ، وكذلك أنشى سنة ١٩٤٦ مصنع شركة مصر للحرير الصناعى بكفر الدوار أيضا

وفى البيضا أنشىء مصنع شركة صباغى البيضا سنة ١٩٣٨ لصبغ وتجهيز القطن المنسوج ، وكان فى رشيد مصنع لصناعة خوص الطرابيش ، فيما قبل الثورة ، ولكنه تعطل إلى الأبد بعد أن اندثر غطاء الرأس الذى يرمز إلى الاحتلال العثمانى لمصر التى تحررت على يد جيش مصر الباسل فى ثورته المباركة سنة ١٩٥٢ ، وفى سنة ١٩٣٢ أنشىء مصنع بدمنهور لإنتاج الكبريت وفى سنة ١٩٤٢ أنشىء بكفر الدوار مصنع سلفاجو لتجفيف البصل ، وفى حوش عيسى قامت شركة طرانات البحيرة لاستخلاص الصودا من النطرون ، لصناعة الصابون ، هذا عدا صناعة حلج القطن التى اشتهرت بها دمنهور ، وصناعة تبييض الأرز فى رشيد وإدكو (أخيرا) ، والسجاجيد بدمنهور أخيرا فى عهد الثورة على أساس من التعاون الاشتراكى بعد القضاء على الإقطاع والاحتكار .

ولا تزال الثورة تعنى بالصناعة فى إقليم البحيرة وفق تخطيط منظم ، حسب دراسات عميقة يراد بها زيادة الإنتاج ومصلحة العامل ، ومراعاة قرب مصادر المواد الخام من المصانع ، وما يتبع ذلك من تسويق داخلى وخارجى ، وقريبا جدا سنرى مصانع تجفيف السمك والأطعمة المحفوظة والورق وغير ذلك .

الإقطاع والالتزام فى البحيرة

عرفت البحيرة الإقطاع فى عهد الإمارات الفرعونية ، أيام كان فرعون يسمح للأمراء بإدارة (الإمارة) حيث يسخر الفلاحين والعمال فى إقامة المعابد وإنشاء الطرق وبناء السدود وحفر القنوات ، والعمل فى المستنقعات .

فبعد أن كانت الأرض قبل عصور التاريخ ملكا للقبيلة ممثلة فى رئيسها ، أصبحت ملكا لفرعون يديرها لحسابه الأمير المولى من قبله ، حتى منح ملوك الأسرة الثامنة عشرة بعض الإقطاعات للمحاربين ، أما فى الأسرة التاسعة عشرة فى عهد رمسيس الثانى فقد وزعت الأرض بين فرعون والكهنة والمحاربين ، وفى ظل الأسرة التاسعة والعشرين ، أعاد الملك نفريت Népherites النظر فى القوانين السابقة التى شرعها بوخوريس Bocchoris وما جرى عليها من تعديلات ، وانتهى إلى سن قرار يقضى بالملكية للفرد لا للأسرة .

ولما آل الأمر إلى البطالمة ، لم تعــد للمحاربين إقطاعات ، بل أحيلت إلى الدولة ، ويتولى حكام المقاطعات إدارتها وفق النظــام الإدارى الدقيق الذى وضعوه ، ضمانا للسيطرة الكاملة على محصولات البلاد للدولة . بينما الفلاحون فيها أجراء مسخرون ، أو مزارعون يؤدون أبهظ الضرائب .

وسار الرومان على نهج البطالمة ، منــذ سنة ٣٠ ق.م. وصارت مصر كلها « مزرعة قمح لتموين روما » ، وكان إقليم البحيرة مخزن الغلال الواردة من هنا ومن هنالك ، وعبر خليج الإسكندرية عند (الكريون) تنقل الغــلال إلى الإسكندرية ومنها إلى روما .

ومن أسوأ ما سنه الرومان من تشريعات نظام « التماس الحماية Patronage » وبمقتضاه كان للمصريين أن يلتمسوا حماية ذوى النفوذ المقربين إلى القصر ، فرارا من مظالم ذوى الأملاك الذين أثقلوا كواهل الفلاحين بالسخرة والضرائب، وعجز الملاك بدورهم عن أداء ما عليهم للحكومة ، نهجروا ممتلكاتهم ، فاستولى عليها « أصحاب الحماية » فى ظل القانون الذى وضعه قسطنطين ، بل أعفاهم من الضرائب ، فضج الجباة بالشكوى .

وقد عرفنا عن ابن عبد الحكم ، كيف كانت المنطقة الشمالية من إقليم البحيرة إقطاعا لامرأة المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وكانت تسخر المصريين فى زراعتها كروما . وكانوا يؤدون الضريبة لها عينية لا نقدية ، فلما كثرت خمور المعصرة ولم تجد وسيلة للانتفاع بها ، طالبتهم بالضريبة نقدا ، فعجزوا ، فأمرت رجالها الشداد الغلاظ ، فشقوا البحر ، وأغرقت مياهه أراضيهم ومساكنهم ، فكانت نشأة « بحيرة إدكو » الحالية .

وعلى يد عمرو بن العاص ، كان القضاء المبرم على جميع هــذه المساخر من الإقطاع والالتزام ، عملا بقوله تعالى « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » فصارت مصر كأى مصر ملكا لكافة المسلمين فى أى بقعة من الكرة الأرضية ، وخليفة المسلمين يبعث إليها بعامل يتولى خراجها، على أسس من العدالة الاجتماعية المحلية ، والتكافل الإسلامى الشامل .

وفى ظل شريعة الإسلام ، أصبحت الأرض لمن يزرعها بشرط إذن الحاكم ، وأداء الخراج والعشور للصالح العـام ، ولم يعرف عن عمر أنه أقطع أحدا شيئا من أرض مصر إلا ألف فدان لابن سندر بمنيـة الإصبغ . وجاء بنو أميـة وبنو العبـاس فأقطعوا أراضى مصر خواصهم ، فكان الخراج ينفق على الجنود وما يلزم من التـكاليف ، ويحمل الباقى إلى بيت المـــال وأنشأ الفاطميون « ديوان الإقطاع » ، حتى آلت الإقطاعات كلهـــا للدولة الأيوبية ، فأقطعت للسلطان والأمراء والجنود .

وقام هذا النظام على فلسفة جديدة أساسها أن صاحب الإقطاع سيعنى لا محالة بعمارة قريته ، وبذا يعم العمران أرجاء البلاد ، وتم ذلك فعلا ، غير أن الأمراء استأثروا بخيرات مصر دون الأجناد ، نظرا لفوضى التوزيع فقـــد كان يخص السلطان وحاشيته عشرة قراريط والباقى لأمراء والأجناد .

أما الجراكســة فكانوا يتوارثون الإقطاعات كابرا عن كابر ، حتى انتزعها السلطان سليم الأول من أيديهم ، ووزعها بين جنوده والموالين له من المماليك ، فمنهم من أعطيت له بحق الانتفاع فقط ، ومنهم من أعطيت له ملكا خالصا (رقبة ومنفعـة) كما يقولون وكانت هـذه الأرض تسمى (رزقة) أى يرتزق صاحبها من غلتها .

وزاد نفـوذ المماليك ، وصـاروا يعطون الأراضى لمن يلتزم بدفع ضريبتهـا (عبرتها) مقـدما عن سنة أو أكثر بالمزايدة ، أو باتفـاق مع ديوان الرزنامة ، وذلك بموجب عقـد تلزيم يسمى (التقسيط) ، فأصبح الملتزم هو السيـد الآمر النـاهى فى رقاب الفلاحين ، يسومهم سوء العذاب ، حتى يفوا بالتزاماتهم ، وإلا أعطيت الأرض لغيرهم ، وصودرت أملاكهم وإذا كان الملتزم من المقربين ، منحه (شيخ البلد) أى رئيس المماليك أرضا أخرى بلا ضريبة يسخر فيها الفلاحين لزراعتها ، نظير ما ينشئه بهـــا من مدارس وجوامع وحمامات ، وما ينفقه على الأجناد من طعام وشراب ومبيت . فسميت هـــذه الأراضى [بالأواسى] ومفردها (وسية) .

ومنـذ ولى محمد على أمر مصر وقضى على دولة المماليك ، آلت أراضى مصر

كلها إلى يده وحده ، وميز بين الأراضي البور والأراضي المنزرعة ، أما الأرض البور المعفاة من الضريبة فسميت [أبعادية] ، لأن الباشا (أبعدها) من السجلات وبلغت سنة ١٢٥١ هـ نحو ٢٠٠ ألف فـدان ، ومنحها الأغوات وأصحاب المعاشات من رجال الإدارة والحربية وأعيان البلاد ليزرعوها، عونا لهم على الحياة وكان الأمر يصدر منه إلى الرزنامجى (مصلحة الأملاك) لاستخراج التقسيط اللازم ومسح الأرض وتسليمها للمشمول بالرعاية (رزقة بلا مال) .

وأبطل محمد على (الالتزام) شكلا فقد طلب عقود الالتزام وأحرقها ، وحتى لا يثور عليه الملتزمون ، ترك لهم الانتفاع بأطيـان (الأواسى) بلا ضريبة ليستغلوها مدى حياتهم مع منحهم (الفائض) أى المرتب السنوى المقرر لهم .

أما مشايخ البلاد فقد منحهم الباشا ما يسمى (مسموح المشايخ) أو (مسموح المصطبة) وهى الأراضي التى يزرعونها وينتفعون بها مقابل ما يؤدونه للحكومة من خدمات ونظير إيوائهم الاغاوات (المحافظين والمديرين والمأمورين) والمباشرين (الموظفين) والجنود عند مرورهم بالقرى ، وكان لشيخ المشايخ فى القرية أى العمدة أن يسخر الفلاحين فى أرضه ، وإلا عومل بأقسى العقوبة .

وصارت الأراضي الأخرى أى المنزرعة تسمى (أراضى خراجية) ، يعطى للفلاح أو القادر على زراعتها ما بين ثلاثة أفدنة وخمسة ويدفع ما عليها من الخراج سنويا ، ومقدما لعدة سنوات عند الاقتضاء حسب الأوامر المشددة الصادرة من الباشا لمديرى الأقاليم .

وعرفت الأراضي الممتازة الواسعة الأرجاء التى كانت تمنح لأفراد أسرة محمد على ، وخاصة الخاصة من الأقارب (بالجفالك) ، وصارت الجفالك والأبعاديات فى عهد سعيد باشا تسمى (بالأراضى العشورية) . وسرى عليها ما كان يسرى على الأراضي الخراجية ، لانتفاعها مثلها بما تنشئه الحكومة من قنـاطر وجسور وترع ومصارف .

وفيما بين سنة ١٨١٣ و سنة ١٨١٥ قسمت أراضى مصر إلى (أحواض) محدودة ، وعين محمد على عدد الفلاحين الذين يقومون بزراعة كل حوض ، ولكن الفلاحين عجزوا عن أداء الضرائب الباهظة التى فرضها عليهم ، فكان يأمر

بمصادرة مواشيهم وأقواتهم ، بلا رحمة ، مما هيـــأ للباشا فرصة الاستيلاء على الاراضى وجعلها ملكا له . فتركها الفلاحون ، غير عابئين بما عليها من محصولات لانهم يعلمون حق العلم أنهم حصدوها ، ولكن الباشا سيستولى عليها .

وظلت أسرة محمد على من سنة ١٨٠٥ حتى سنة ١٩٥٢ ، وهى تؤكد الإقطاع فى مصر عامة ، والبحيرة خاصة ، على نحو ظاهر ، نظرا لاتساع مساحتها ، وإمكان تحويل مستنقعاتها إلى تفاتيش عرفت (بأملاك الخاصة) ، وكثيرا ما كان ناظر الخاصة يطرد الفلاحين من أكواخهم ، لأن الأنظار الملكية يجب ألا تقع على مناظر كهذه فى طريق حضرة صاحب الجلالة الملك ، وسرعان ما يصدر الأمر الملكى بشراء هذه الأراضى قسرا وبأبخس الأثمان .

وكان الأمراء وهم أفراد الأسرة المالكة والباشوات يملكون هم والأجانب إقليم البحيرة ، فيما عدا المستنقعات والبحيرات والملاحات والرمال وأقل القليل من الاراضى الزراعيـة . ومع ذلك امتـدت أيدى فؤاد وفاروق إلى كل ذلك ، حتى قامت الثورة فى يوليو سنة ١٩٥٢ .

وفيما يلى مظاهر حية ، مضحكة مبكية فى آن واحـد عن الإقطاع فى البحيرة فى مدى المائة والخمسين عاما التى سبقت الثورة ، من واقع الوثائق ، وأصـــدق حقائق التاريخ .

فى ١٣ شوال سنة ١٢٤٦ أصدر محمد على أمرا إلى دفتردار بك بإنعـامه على السيدة خيرة بنت عبده من دمنهور ، ومرضعة ولديه الأميرين سعيد وعبد الحليم بساقية ، ومقدار ما يمكن ريه منهـا من الأراضى المجاورة لهـــا ، وباستخراج التقسيط من الرزنامة ليكون ذلك ملكا لها .

وفى سنة ١٢٥٢هـ منح محمد على أرسلان أغا ناظر ذخائر الإسكندرية عشرة أفدنة من أراضى إدكو كما رأينا ذلك من قبل .

وفى ١ رمضان سنة ١٢٧٥ أصـــدر سعيد باشا أمره إلى مدير البحيرة ، بتسليم ٣٠١ فدان لزوجة والده محمد على من ناحية تلبانة ، وهذا هو نص الأمر [إن إيكنجى قادن حرم جنت مكان المرحوم والدنا تلتمس بإعراضها هـذا الإحسان عليها بالثلثمائة فدان وواحـــد وكسور الجارى زراعتهم على ذمتها من

متروك ناحية (تلبانة) بالإيجار ، وقد سمحت إرادتنا بربط العشور عليهم ابتداء من سنة ١٢٧٦ ويفضلوا معها لتنتفع منهم بالزراعة وتسدد عشورهم ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم للاجرى بموجبه] .

وفى هذا الوقت ، فطن الأجانب إلى ضعف أسرة محمد على ، وانغماس أفرادها فى الملذات ، فسمحوا للأجانب أفرادا وشركات بامتلاك الأراضى الشاسعة بالبحيرة ، والتزام الصيد فى بحيراتها مثل الخواجه انجليطو ، ولا تزال بعض الجهات فى إقليم البحيرة تسمى بأصحابها الأجانب قديما مثل (منشاة ديبونو) شرق إدكو ، وشركة أراضى المعدية ، وقومبانية أراضى أبوقير الإنجليزية التى تكونت سنة ١٨٠١ عقب كسر سد أبوقير لتجفيف أراضى البحيرة ، وبيعها للمصريين وهى أملاكهم التى سبق أن أغرقها الغزاة ، وأراضى جناكليس وكازوليا وغيرها من اليونانيين مثل ديمترى زربينى وجورج تلينى وإيلى شماع وإيلى إيحيوز وجربوعه وبركليس .

وكان الأجانب مولعين باقتناء أراضى البحيرة ولو كانت بورا أو رمالا ، ويبدو أن القناصل كانوا يشجعونهم على ذلك ، فمثلا اشترى ألبرتو سفاريزى الإيطالى الجنسية ستين فدانا من أراضى البور بأبو حمص سنة ١٩٠٤ ، واشترى ترياندوفولو جورجى تريانداس التاجر الإنجليزى بالإسكندرية أربعة أفدنة من رمال إدكو فى مثل هذا التاريخ .

ومع ذلك كانوا يتوقفون عن دفع الضرائب المقررة غير عابئين بالمكاتبات المتبادلة بين مديرية البحيرة ومحافظة الإسكندرية وقنصلياتها ، بل كانوا يضربون عرض الحائط بالأوامر العالية الصادرة من سعيد باشا إلى مدير البحيرة (٢١ محرم ١٢٧٧) بوجوب التحصيل منهم [أسوة بأرباب الأطيان الخراجية والعشورية كما أن ذلك من الأصول البلدية] .

وقد أحصت حكومة الثورة الأطيان الزراعية التى يملكها الأجانب فى مصر فبلغت ١٤١١٥١ فدانا يملكها ٢٦١٤ أجنبيا منها ٧١٩٦٥ فدانا بالبحيرة يملكها ٦٠٥ من الأجانب ، وهى أكبر نسبة فى جميع المحافظات على الإطلاق (١) .

(١) راجع الأهرام فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٦١

وفى سنة ١٢٩٣ ﻫ أنعم الخديوى إسماعيل على دولتلو عصمتلو والدته بأبعادية عشورية بالبحيرة منها ٣٩٠ فدانا بناحية حفص و ٦٣ فدانا بناحيـــة زمران النخل، وإلى جانب ذلك منحها فى نفس السنة ٣٥٨ فدانا وكسور بناحية (معنية) المخلفة عن الست هداية ومعتوقة المرحوم عباس باشا ، بسائر ما بهـا من المواشى والمبـانى والأدوات والفلاحين ، مع صدور الأوامر الخديوية العاجـــلة بتسليم الابعادية إلى دائرتها وتحرير الحجة والتقسيط ، فأصبحت والدة إسماعيل تملك فى سنة واحـدة بمجرد صـدور أمر الخديوى ٧١١ فدانا بالبحيرة وحدها ، خلاف ١٧٠ فدانا بالجيزة ، وغير ذلك فى غير الجيزة والبحيرة .

هذا بينما تعطف جناب الخديوى فى أول ربيع الثانى سنة ١٢٨٨ على الشيخ سرور الزواوى العـالم الدمنهورى بأبعـادية خمسين فـدانا من أطيـان الميرى المتروك والمستبعدات « لأجل سعة معاشه » .

وفى إحصـاء سنة ١٢٩٣ ﻫ (١٨٧٦ م) كان بالبحيرة وحدها ١٠٢١ فدانا من أمـلاك الحـكومة ، ومع الإقطاعات الـكبرى الممنوحـة للمحظوظين ، فرض إسماعيل باشا ـ عند اشتـداد الضائقة المـالية ـ تحصيل ٤٢٤٣١٢ ليرة استرلينية من البحيرة وهو نصيبها فى سداد أصل الدين العمومى وفوائده ، وقـد بلغت جملته نحو ٦ر٥ مليون ليرة (١) ، واضطر الخديوى إلى تعيين مأمـور ماليـة على كل مديرية لهذا الغرض فـكان مأمور مالية البحيرة محمد رشيد بك ثم محمد الصيرفى بك . ومن مظاهر السخرة فى عهد إسماعيل أنه كان يفرض على كل عمدة قرية إرسال عدد من الفلاحين كل سنة إلى حديقة إدفينا لتسخيرهم فى تقليم أشجارها ، وتلقيح نخيلها ، وتعهدها بالسقى حتى تثمر ، والعمل على إنزال البلح منهـا عنـد نضجه ، وقـد أخبرنى جدى رحمه الله أن إدكو كان نصيبها أربعـة رجال فى هذه السخرة ، التى أمر عباس باشا بإلغائها .

والمعروف أن دوائر إسماعيل الزراعية كانت أولا ١٥ ألف فدان ثم اتسعت فصـارت ٩٥٠ ألف فدان أى ما يسـاوى ⅕ المنزرع من أراضى مصر ، وعنى

---

(١) الوقائع المصرية : ٩ مايو سنة ١٨٧٦

بإصلاح مزارعه دون غيرها ، وهو أول من أباح للأجانب حق تملك الأراضى، كما أعطى المحظوظين مئات الأفدنة إحسانا منه على العربجية والسفرجية والحلاقين والطباخين من رجال القصر .

وفيما يلى إشارة خاطفة إلى الحدائق التى يملكها الإقطاعيون من أسرة محمد على والباشوات والأجانب والشركات الاحتكارية التى استغلت هذه الأراضى فى زراعة الموالح والكروم والنخيل والفواكه الأخرى والزيتون .

بالفدان	الجهة	المالك
٠٠٥٥	كفر الدوار	الخاصة الملكية
٠٠٤٥	»	دائرة عمر طوسون
٠٠٨٤	»	دائرة على ماهر باشا
٠٠٧٦	»	دائرة زكى الأبراشى باشا
٠١١٥	الطرح	الشركة الإنجليزية
٠١٠٣	كفر الدوار	دائرة على أمين يحيى باشا
٠١٢٩	»	دائرة درانيت باشا
٠٠٥٠	العامرية	الخاصة الملكية
٠١٨٣	كفر الدوار	دائرة السلطان حسين كامل
٠٠٤٥	»	على فرغلى بك
٠٠٩٢	إدفينا	الخاصة الملكية
٠٠٩٧	أبو حمص	دائرة إسماعيل صدقى باشا
٠١٢٥	الدلنجات	الأوقاف الملكية
٠٠٢٥	إيتاى البارود	» »
٢٠٣٧	أبو المطامير	جنا كايس
٠٢٩٠	»	ميشيل باسيلينى
٠٠٧١	»	أحمد علوبه بك
٠٠٧٠	»	محمود علوبه بك

٠٠٦٢	أبو المطامير	محمد حسن القبانى بك
٠١٠٤	»	الأميرة شويكار
٠١١٢	»	شركة توحيد الأراضى

وتقدر أطيان الأوقاف الملكية عموما فى البحيرة بعشرين ألف فدان ، كما أن
لحمودية ١٤ ألف فدان كان يملكها محمد المغـــازى باشا ، وكانت الأميرتان
رية وسميحة حسين كامل تملـكان ٥ آلاف فـدان فى جبارس ، وقـد استولى
يها « الإصلاح الزراعى » جميعها ووزعها على الفلاحين حسب القانون ، للقضاء
لى الإقطاع ، والتقريب بين الطبقات ، وتحقيق العدالة الاجتماعية .

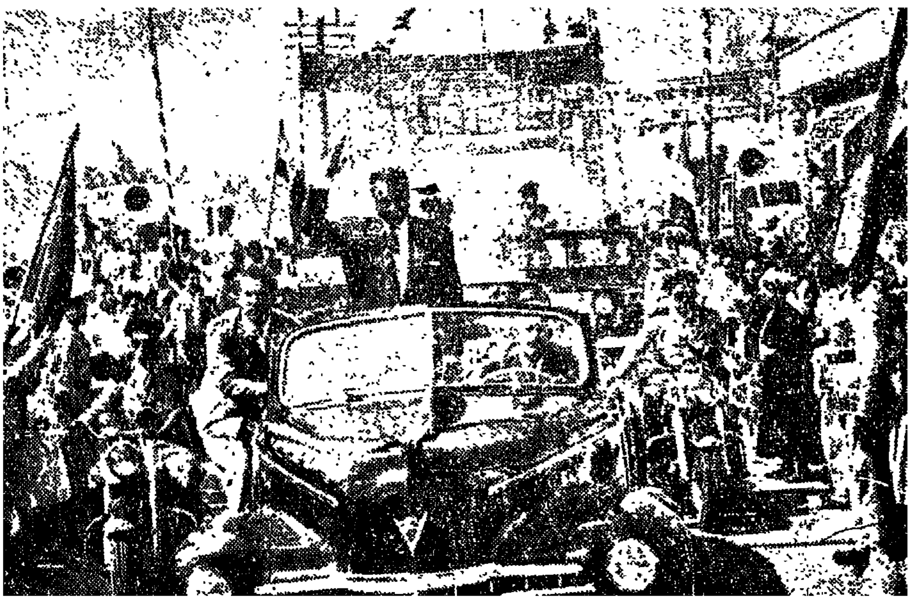
وفى الحق أن الإقطاع فى إقليم البحيرة قـد بلغ مداه فى عهد الملك فؤاد ومن
ده الملك الخليع فاروق : أما فؤاد فـكان له تفتيش إدفينا الذى زادت مساحته
رغام الملاك المجاورين على بيع الأراضى الملاصقة للخاصة الملكية ، وأضيفت
يه تفـاتيش سميت بأسماء أفراد الأسرة المالـكة مثـل : النازليـــة والفؤادية
الفاروقية والفوزية والفائزة والفائقة والفوقية والفتحية ، وقد أنشئت كلها فيما



فاروق والحاشية بعد صيد البط من بحيرة إدكو سنة ١٩٣٦
وبعدها أمر بتجفيفها لضم أراضيها الى ممتلـكاته بإدفينا

بين سنة ١٩٢٣ و سنة ١٩٢٦ ، وكان فؤاد يستقل قطارا ملكيا فى صيف كل عام من الإسكندرية إلى أدفينا ، وكانت تقام له الزينات ، وتتخذ أدق الإجراءات لحراسة الطريق خوفا على حياته ، حتى يصل إلى قصر إدفينا ، ليتفقد شئون التفتيش .

أما فاروق فإنه عند ما تولى الملك بعد أبيه سنة ١٩٣٦ نفخ الشيطان فى منخريه ، وغره شبابه ، فكان يرتاد بحيرة إدكو لصيد الطيور مستقلا قاربا بخاريا ، وأغرته الحاشية بتجفيف الجزء الشرقى من البحيرة لزراعته وضمه إلى تفتيش إدفينا ، فصادف ذلك هوى فى نفسه ، وبدأ التجفيف ، ولكن شاءت الأقدار أن يطول أمد هذا الإصلاح ، حتى استعجلته حكومة الثورة .



الرئيس جمال عبد الناصر يحيى أهل البحيرة فى طريقه إلى ادكو وادفينا لتوزيع الأراضى على الفلاحين فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩

وفى ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٣ قرر مجلس قيادة الثورة مصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على ، التى آلت إليهم بالوراثة أو المصاهرة أو القرابة ، وردها إلى

الشعب ، وتلا ذلك قانون « الإصلاح الزراعى » فعادت الأرض إلى أصحابها الأصليين ، وهم الفلاحون الذين ذاقوا المر أشكالا وألوانا من الاستعمار والالتزام والسخرة والسيطرة والاحتكار والاستغلال والإقطاع ، ومضى الرئيس جمال عبد الناصر إلى إدكو وإدفينا ، فى ٢١ سبتمبر سنه ١٩٥٩ ووزع الارض على



فلاح من إدكو يتسلم عقد تمليك الأرض
من الرئيس جمال عبد الناصر

الفلاحين الذين أصبحوا ملاكا لها بعد أن كانوا فيها عبيدا للدخلاء والأجانب والملوك والباشوات ، فانقضى الإقطاع المزمن إلى غير رجعة ، فى ظل الحكم الجمهورى ، لبناء المجتمع الاشتراكى .

طرق المواصلات فى البحيرة

رأينا فيما مضى كيف كانت البحيرة ضحية الفيضانات من جهة النيل وغارات البحر من جهة أخرى ، فكانت المستنقعات تغمرها فترة طويلة من السنة ، يتعذر

فيها الانتقال من جهة إلى أخرى ، فكانت القوارب الشراعية خير وسيلة لذلك .

فلما أمكن التغلب على إصلاح الجسور ، استخدمت دواب الحمل أيسر الطرق نسبيا فى الانتقال من مكان إلى آخر ، وأمكن مع ذلك تعبيد الطرق على النحو البدائى المعروف ، إلى جانب استخدام قوارب شراعية للسفر والنقل فى فروع النيل والبحيرات .

ومع تطور الزمن ، صار الانتقال من الإسكندرية أو رشيد إلى القاهرة من الصعوبة بمكان ، فقد تحدث (إتين كومب Et. Combe) عن هذا فى مدى القرون المنحصرة بين الرابع عشر والثامن عشر سواء عبر إقليم البحيرة أو عبر بحيرات البحيرة إلى رشيد ومنها فى النيل إلى القاهرة .

حتى كان مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فى ٢٠ القعدة سنة ١٢٦٧ (١٨٥٠ م) بدأ عباس حلمى الثانى فى اتخاذ ما يلزم نحو إنشاء خط حديدى بين الإسكندرية والقاهرة ، فكان من الطبيعى أن يخترق إقليم البحيرة ، مما يؤدى حتما إلى بعث حضارة جديدة فى هذا الإقليم ، وبدىء بتحديد ثلاثة مراكز أحدها فى الإسكندرية والآخر فى القاهرة والأخير فى وسط الطريق ، ومهمة هذه المراكز ترتيب الأمور اللازمة للمشروع .

وتعاقدت حكومة مصر مع (استيفنسون) الإنجليزى مخترع أول قاطرة، وفى سنة ١٨٥٤ انتهى العمل من مد سبعين ميلا من القبارى إلى دمنهور ومن دمنهور إلى كفر الزيات فى مدى سنتين ، وكان الخط مفردا بحيث لا يمكن تسيير غير قطار واحد على طول الطريق ، ثم ازدوج الخط لأول مرة سنة ١٨٦٤ ما بين القبارى ودمنهور ، وفى السنة التالية ازدوج من دمنهور إلى كفر الزيات ، وفى سنة ١٨٧٢ مد الطريق الحديدى من إيتاى البارود إلى بشتيل ومنها إلى بولاق التكرور .

وهكذا ظلت خطوات الخط الحديدى تتوالى حتى تم ربط الإسكندرية بالقاهرة عن طريق دمنهور ، فانتعش اقتصاد البحيرة ، وزاد انتعاشا وعمرانا بإنشاء الطريق الآخر ما بين الإسكندرية ورشيد منذ سنة ١٨٧٥ بعد أن بدأ أولا من الإسكندرية إلى أبوقير .

وظلت الخطوط الحديدية الفرعية تربط قرى البحيرة بدمنهور وسائر المراكز

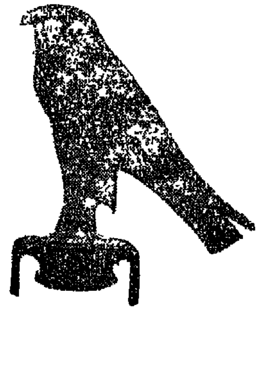
وسميت (خط الدلتا) ، حتى عبدت الطرق الزراعية منذ نهاية القرن التاسع عشر . فسيرت عليها السيارات ، التى أخذت فى التطور السريع ، حتى أصبح إقليم البحيرة أشبه بشبكة مواصلات نهرية وبحرية وحديدية وزراعية مما زاد فى عمرانها . وزاد من خيراتها ، ومكن من استتباب الأمن فيها .

والمدارس

وفى عهد الجراكسة ـ كما ذكر ابن دقماق ـ كان بدمنهور عدة مدارس ، وبرشيد مكتب للأيتام ، ومع ذلك كان بعض مأمورى الأقسام (المراكز) فى عهد محمد على أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، ثم صدر قرار بعد ذلك بعزلهم وإبدالهم بغيرهم ، حتى أصدر إسماعيل باشا أمرا فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٦٧ بإنشاء مدرسة فى كل مديرية لتعليم الأحداث القراءة والكتابة وجميع العلوم ، وفى سنة ١٢٥٣ هـ أنشىء مكتب بدمنهور وآخر بالرحمانية سنة ١٢٥٣ هـ .

ثم أنشئت مدرسة دمنهور الصناعية سنة ١٩٠٦ ومدرسة الزراعة سنة ١٩١٢ ، ومدرسة الفنون الطرزية التى انفصلت عن المدرسة الابتدائية للبنات سنة ١٩٤٤ ثم مدرسة التربية النسوية سنة ١٩٣٨ وفى سنة ١٩٤٧ أنشىء مركز ثقافى كان يسمى « الجامعة الشعبية » والآن يطلق عليها « قصر الثقافة » .

وكان يوجد بدمنهور حتى سنة ١٩٤٧ كلية الزراعة التابعة لجامعة الإسكندرية وقد احتلت مبنى مدرسة دمنهور الثانوية ، ثم نقلت إلى الإسكندرية لتكون مع سائر الكليات الأخرى .



عرب البحيرة
فى مختلف العصور

عرب مصر

لم تكن هجرات العرب من الجزيرة العربية إلى مصر فى عصور ما قبل الإسلام لتنقطع على مر السنين، أما حركة الهكسوس - وهى عربية فى جوهرها - فقد تركت آثارها فى مصر عامة، والوجه البحرى خاصة.

وكان جيش المسلمين الأول القادم إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ١٨هـ (= ٦٣٩ م) خليطا من القبائل العربيه، وأظهرها (لخم) و (جذام)، وما لبث الخليفة عمر أن سماهم (القبائل المصرية)، ومن ثمت صارت القبائل الأخرى تفد على مصر تباعا، وبدون انقطاع لتعميرها، فقد كان أكثر كورها خاليا من العمران، كما كتب بذلك عبد الله بن الحبحاب إلى هشام بن عبد الملك.

هذا وقد ذكر الواقدى (١) أن الصحابة - لما فتحت مصر والوجه البحرى - تفرقوا فى الإسكندرية ورشيد وغيرها، وكان أكثرهم بوسط البحيرة فى المكان المعروف بالمنزلة مثل: القعقاع بن عمرو التيمى، وهاشم بن المرقال، وميسرة ابن مسروق العبسى، والمسيب بن نجيبة الفزارى.

وبالرجوع إلى « مدونة الأمير غانم » نرى أن أمراء المسلمين الفاتحين، قد استقروا فى البحيرة، وكان من بين الصحابة الأمير غانم بن عياض الاشعرى وهو من أمراء جيش عمرو بن العاص، الذى جعل له الإمارة على (البهنسا)

---

(١) فتوح الشام

و (مصر = الفسطاط) و (دهشور) و (الجيزة) ، ودفن بالبرلس بعد وفاته .

وأمه أسماء بنت سفان بنت حاتم الطائى ، وخاله عدى بن حاتم ، وكان من الأشاعرة الذين استقروا بمصر عدد كبير سكنوا البحيرة ، كما سنرى بعد قليل .

ومن وفود العرب سنة ٦٣ هـ ، جماعة قدمت بصحبة عبد الرحمن بن جحدم والى مصر من قبل عبد الله بن الزبير ، وتبعتها قبـــائل (جذام) و (عك) و (بلى) و (قيس) ، وتلتهـا بطون وبطون ، استقرت كلهـا فى جميع أرجاء مصر ، واختلطت بالمصريين اختلاطا سريعا ، كتب له التاريخ أن يدوم أربعة عشر قرنا من الزمان .

غير أن المقريزى (١) يذكر أنه لم يكن بمصر حتى سنة ١٠٩ هـ من قبائل العرب غير (فهم) و (عدوان) وقد نزل العرب بأرياف مصر واستوطنوها وتكسبوا بزراعة أراضيها ، وتزوج القبط بعد إسلامهم بالعربيات المسلمات .

ويبدو أن صلاح الدين الأيوبى قد أحسن معاملة عرب مصر ، فقرر لهـــم سنة ٥٧٧ هـ فى ميزانيـة الدولة مبلغـــاً كبيراً من المال وذلك بعـد أن انحلت الإقطاعات فى أيام من سبقوه عن [العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة] وغيرهم من الفقهاء والقضاة والصوفية كما تحدث عن ذلك المقريزى فى « السلوك » ، وظلت الموجات العربية تتدفق على مصر من شمال إفريقية ولا سيما فى القرن الثامن عشر ، وتساهم فى أحداثهـا ، وامتزجت بذلك العنـــاصر العربية فجعلت مصر ملتقى العروبة قديما وحديثاً .

عرب البحيرة

قلنا إن عدداً كبيرا من أمراء الإسلام الأولين قد استقروا فى مصر فى مطلع الفتح ، ومنهم الأشاعرة ، وقد استقر منهم فى البحـــيرة عدد كبير توزعوا فى أرجائها نذكر منهم : الأمير جبير وقد سكن (محلة الأمير) وعلى الجبرتى وعبادة ابن الصامت الذى استقر بالبهنسا مدة.

ومن ذرية الأمـــير غانم : عـلى بن خضر الذى سكن (دبى) ، وسيـدى

(١) الخطط : جـ ١ ص ٨٠

غانم وقد سكن (محلة بشر) ، وسيدى محمد أبو الريش الذى استقر فى (رشيد) ، أما الأمير عيسى بن زهير — وهو أول أحفاد الأمير عيسى الكبير — فقد تزوج امرأة من البرلس اسمها (طاوس) فولدت له ولدا أسمته (عيسى) أيضاً ، ويتضح ذلك من هذا الجزء الذى ننقل إلى اليسار صورته الشمسية من المدونة المذكورة .

ولما قدم (بنو هلال) من غزة إلى مصر ، تصدى لهم الأمير عيسى بتجريدة عدتها أكثر من مائة فارس من أهله وأقاربه ، فانهزم بنو هلال رراعهم ما عليه خصومهم من شجاعة نادرة ، ولما عرفوا أنهم من ذرية الأمير غانم بعثوا فارساً من الزحلان إلى الأمير عيسى فقبل يده ، واصطلح الطرفان ، إذ تبين لكل منهما أنهم بنو رجل واحد ، وأكرمهم الأمير عيسى ، ثم ودعهم ، وبعد ذلك جلا (بنو هلال) عن أرض البرلس إلى (الزحلان) و (زغبة) وأهدوا إلى عيسى إحدى بناتهم المسماة عزيزة الزغبية ، فتزوجها بالبرلس ، وودعهم حتى أوصلهم إلى (تروجة) من أرض البحيرة ، ثم عاد إلى البرلس .

ويقول أحد أولاد غانم مفاخرا بحسبه ونسبه :

(لغانم) راية من عهد الأكابر … على الرايات ترمى كل غادر
طليق الباع هشام الأعادى … إذا طالت وطالت فى الحوافر
أمير القوم من أب وعم … وخال و (الأمارة) و (النواصر)
ملك (أرض البحيرة) مع (تروجة) … وفى (الجيزة) له فيها أشاير

وقد حرص اليعقوبى على أن يذكر لنا فى القرن الثالث الهجرى منازل الطريق إلى المغرب ، وعندما تحدث عن (الرمادة) قال : [وهى أول منازل البربر (المغاربة) ويسكنها قوم من (مزاتة)، وغيرهم من العجم ، وبها قوم من العرب من (بلى) و (جهينة) و (بنى مدلج) وأخلاط] .

ولعل فيما ذكره اليعقوبى إشارة إلى اختلاط المغاربة بالعرب على حدود إقليم البحيرة، وسنرى فى ثنايا فصول الكتاب ما كان لهذه القبائل من كفاح على مر الزمان، كما أن هذه القبائل أصبحت مصرية تنتسب إلى البحيرة بعد أن استقرت سلالاتها فى

أهله السادة الكرام فمنهم القاضي عياض بن موسى بن عياض الاشوبي رضي الله عنه ومنهم
سيدي ابي الحسن الاشوبي رضي الله عنه امام التحقيق وعين اعيان الطريق ومنهم سيدي
ابو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه المرشد الى الله والى حضرته والداعي الى
جناب الله وجنته ومنهم سيدي مرزوق بن عياض الاشوبي رضي الله عنه قتل بالبهنسا
ودفن بها ومنهم ولده سيدي محمد الخشوعي بالبرلس رضي الله عنه ومنهم الامير جبير بمحلة
الامير رضي الله عنه ومنهم الامير عباس بن مرجاش السلمي بمدينة مليج رضي الله عنه
ومنهم سيدي محمد بن العوني ساكن باب المعلى رضي الله عنه ومنهم سيدي علي الجرتي بمصر
وولده سيدي سالم رضي الله عنهما ومنهم سيدي عبادة بن الصامت بمدينة البهنسا
رضي الله عنه ومن ذريته سيدي علي بن خضر بديبي رضي الله عنه ومنهم سيدي غانم
بمحلة بشر رضي الله عنه ومنهم سيدي محمد ابو الريش بناحية رشيد رضي الله عنه ومنهم
سيدي علي ابو ازبيده بالبرلس الان مجاور بسكن اولاد الامير غانم رضي الله عنهم فهذا

جزء من مدونة الأمير غانم ويبدو منه أسماء بلاد البحيرة التى سكنها أولاده

هذا الإقليم واتخذت منازلها فيه ؛ وكان الأشاعرة من ذرية الأمير غانم فى الطليعة منذ الفتح الإسلامى، ثم توالت الوفود، فاستقرت به (بنو قرة) فى القرن الرابع الهجرى حتى قدم الثائر الأموى (أبو ركوة) من الأندلس، واستعان بعرب برقة والبحيرة وانضم اليه بنو قرة، ولكنه منى بالفشل سنة ٣٩٧ هـ، وقبض عليه الفاطميون، وتشتت شمل بنى قرة ثم عادوا إلى البحيرة واستولوا عليها وعلى الإسكندرية، واشتبك معهم الفاطميون سنة ٤٤٢ هـ فانتصر بنو قرة، فعظم الأمر على الخليفة المستنصر بالله الذى لم ير بدا من استقدام جموع من (كلب) و (سنبس) لكسر شوكة بنى قرة .

أما سنبس فهى تنتسب إلى (سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل) ، وأصلها من (طى) المعروفة بالجود الزائد، والفروسية والشجاعة، وكلها فضائل ورثها أهل البحيرة على مر الأجيال، وعلى اختلاف أفخاذها وعشائرها .

وكانت (سنبس) تنزل أصلا بأرض فلسطين على مقربة من غزة، حيث ارتفعت رايتها، وزاد نفوذها، واشتدت وطأتها على الولاة، فبعث إليهم أبو محمد الحسن اليازورى سنة ٤٤٢ هـ وهو وزير المستنصر الفاطمى يستقدمهم إلى مصر، فخفوا إليه بخيلهم ورجلهم حتى انتصروا على (بنى قرة) بعد قتال عنيف سنة ٤٤٣ هـ وأقطعهم « البحيرة » التى كانت يومئذ منازل (بنى قرة) وقد جلوا إلى الصعيد واستقروا هناك فى إحدى قرى أسيوط وتسمى باسمهم إلى اليوم، وبذلك علا شأن (سنبس) ، وأوطأهم الوزير أرضهم وديارهم، ومكن لهم حتى اتسعت رقعتهم، وظل الخلفاء والوزراء الفاطميون وراءهم بالتأييد .

وتمضى الأيام والسنون، وتزداد (سنبس) بعروبتها الأصيلة اعتصاما واستمساكا، وليس أدل على ذلك من حوادث عام ٦٥١ هـ عندما أعلن عز الدين أيبك التركانى نفسه ملكا على مصر، فأبت (سنبس) أن تبايعه بالملك لأنه مملوك سبق أن مسه الرق، ليس فى شريعة الإسلام، ولا فى عرف العرب أن يتحكم العبد الرقيق فى أمة من السادة الأحرار، واجتمعت كلمة سنبس مع سائر القبائل الأخرى، على إقامة الشريف حصن الدين مجد العرب ثعلب الجعفرى ملكا

على مصر ، ودارت رحى القتال فى (ديروط) ، فضوا إلى سخـا (غربية) حيث احتشدت جموع (سنبس) وأحلافهم من (لواتة) التى سكنت البحيرة وفتك بهم الترك فتكا ذريعاً وذلت (سنبس) وقلت ، وتشتت شملها فى بلاد إقليم الغربية (أى غرب الدلتا) ، ولكنها ظلت قائمة فى مصر ، عند قدوم الغز صحبة (أسد الدين شيركوه) .

وكان من (جذام) و (لخم) بالإسكندرية عـدد كثير عرفوا بالشجاعة والإقدام ، وسجلت لهم الأيام مفاخرهم وأمجـادهم ؛ كما أنه كان من (لواتة) طوائف بالجيزة والمنوفية والبحيرة ، ونزل أيضاً عوف بن سليم بن منصـور ابن عكرمة بالفيوم والبحيرة وبرقة ، وكان بالغربية والبحـيرة طوائف من (مزاتة) و (زناتة) وهما من البربر (المغاربة) (١) ، وكانت منازل (هوارة) فى زمن الفاطميين بالبحيرة وانتشروا هناك من الإسكندرية إلى برقة حتى سنة ٧٨ ه حيث أنزلهم الظاهر برقوق الصعيد الأعلى .

ومن الأفخاذ والعشائر التى تنسب إلى سنبس — كما يقول المقريزى (٢) — بنو لبيد ، وعمرو ، وعدى ، وأبان ، وجرم ، ومحصب ، وقنـه ، وإلى قنه هذه ينتسب معالى بن فريج مقدم سنبس بالبحيرة وقـد اشتهر بالمروءة والكرم والشجاعة . وقتل بالقاهرة .

ومنهم أيضاً (الخزاعلة) الذين تفرعت عنهم (بنو رميـح) وقد سكنوا ناحية (درشـا) بالبحـيرة وتعرف اليوم باسم (زاوية أبو شوشة) التـابعة للدلنجات ، وكانت لسنبس أحلاف كثيرون منهم عذرة ومدلج ، وكان يجاورهم أعيـان الفاطميين فى خلافة الفائز ووزارة الصالح .

وقد ظل العرب فى مصر منذ الفتح إلى عهد السلطان النـاصر محمد بن قلاون على الأقل وهم يكافحون فى سبيل البقاء ، وقد اعتبر القلقشندى أمراء العرب فى مصر فى الطبقة الرابعة والأخيرة من « ولاة الأمور » ، وكان خالد بن أبى سليمان

---

(١) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب : السويدى .

(٢) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب .

وفائد بن مقـدم فى مقدمة أمراء البحـيرة فى عهد قلاون كما يقـول القلقشندى (١) ، وهما كما يقول ابن فضل الله العمرى (٢) أميران سيدان جليلان ذوا كرم وأفضال وشجاعة وثبات رأى وإقدام ، وقد التقى القلقشندى فى الإسكندرية بأمير عرب برقة بعد سنة ٧٨٠ فوجد « آثار الخير ظاهرة عليه » .

وقدمت من طرابلس الغرب فى أزمنة متتابعة قبائل عربية هى : المغاربة ، وأبو كريم ، ومحارب ، كما يقول لطفى السيد (٣) والمغاربة هم عرب ابن وافى ، وطرهونة عرب أبى كريم ، والمحارب وبنو سلام .

و (أولاد على) من (العقاقرة) نسبة إلى جدهم (عقار) ويسمون أيضا (الزيانبة) وهم فرع من (الجعافرة) لأنهم (أولاد على) بن عبد الله بن (جعفر) ابن أبى طالب وأمه (زينب) بنت الإمام على كرم الله وجهه . وعلى ذلك ينتمى (أولاد على) إلى (قريش) ، وقد وفد العقاقرة على مصر جماعات جماعات منذ مائتى سنة ، كما قدم (الجوازى) فى القرن الماضى وظلت قبـائل (سليم) فى (الجبل الأخضر) حتى حروب الطليان الأخيرة .

وقد قامت الحملة الفرنسية بإجراء إحصاء عن العرب فى مصر فكانوا : ١٣٠ ألفاً ، كان منهم فى البحيرة وحدها قبائل أولاد على وآخرين ، وفى تعداد مصر سنة ١٨٨٢ تبين أن بها ٧٥ قبيلة عربية هى : أولاد على وشيخها علوان محمود وتقيم بالبحيرة ، ولها فروع فى طرابلس والشمال الغربى من مصر منها قبيلتان : الجميعات والأزد بالدلتا ، وسمالوس بالصعيد (٤) .

وتنقسم بنو عقار (العقاقرة) إلى قبيلتين هما الحرابى وأولاد عـلى وهذه تعتبر أكبر القبائل العربية فى مصر ومقرها البحيرة ، وقد وفدت بعد بنى سلام فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، وقد ذكر نعوم شقـير (٥) أنهم كانوا

(١) صبح الأعشى : جـ ٣ ص ٦٧ .
(٢) مسالك الأبصار .
(٣) قبائل العرب فى مصر .
(٤) Description de l'Egypte : T : 18 P : 59 +
(٥) « تاريخ سينا » ص ٢٦٣ .

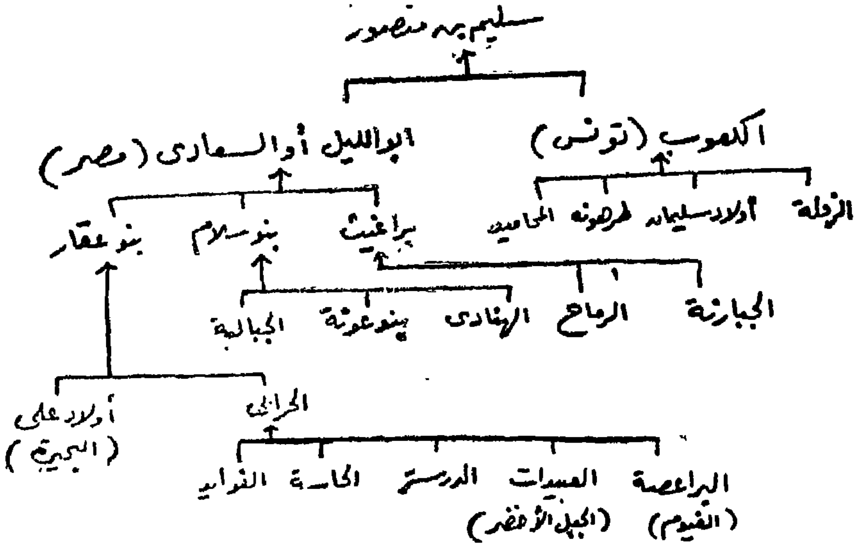
يقدمون كل سنة نحو ٤٥ جملا للمحمل مناوبة مع العرب الآخرين .

وكان (أولاد على) منتشرين فى البحيرة والدقهلية والغربية والمنوفية ، بينما كان (الهنادى) فى الشرقية والقليوبية والمنوفية وبنى سويف والفيوم .

كانت قبائل عرب البحيرة إذن هى: أولاد على والبهجة وبنو عونة والجوابيس (الجوابيص)(١) والجميعات والهوارة ، واللزد (الأزد) والنجمعة والثمامة ، وبنو هلال الذين باسمهم إلى اليوم قرية (بنى هلال) التابعة لمركز دمنهور ، وهم بطن من بنى عامر بن صعصعة .

وقد جاء فى « نشرة قانون العربان » الرسمية المؤرخة ٧ يناير سنة ١٩٠٦ أن فى مديرية البحـــيرة : أولاد على ، وفروعهـا (أولاد على الأحمر ، وأولاد خروف ، والسننا ، والسناقرة وعمدتهم عمر بن خير الله الدجن) ، والجميعات ، وسمالوس ، والدمينات ، والقوابيص ، والتمايم ، وهوارة ، والربايع ، واللزد .

وأغلب الظن أن القبائل العربيـة المتأخرة أى الإفريقية تنتسب إلى سليم بن منصور حسب الجدول الآتى :



---

(١) لعلها القوابيص نسبة إلى بنى قبيصة ، فجرى عليها تحريف فى النطق

ومن هذا يتبين أن (أولاد على) كانوا بالوجه البحرى فقط وفى تعداد سنة ١٩٢٤ بلغ عددهم ١٩٣٤٤ نفسا .

وهم جميعاً قبائل رحالة ، برع أفرادهم فى إرشاد السالكين فى الصحارى إلى ارتيادها بأمان ، والواحد منهم مرتفع القامة ، وأعضاؤه غير مستديرة ، والأغلب عليهم نحافة الجسم ، ولون البشرة أبيض لوحته الشمس ، والمرأة بارعة الجمال متناسقة الأعضاء ، مع الشجاعة والمروءة والحياء ، وهم يفخرون بصراحة أنسابهم ، وسلامة أصولهم من الشوائب . ويندر أن تنعقد المصاهرة بينهم وبين غيرهم ، اللهم إلا فى السنين الأخيرة وعلى نطاق ضيق جدا ، كما أنهم يتعلمون من آبائهم وأجدادهم سلسلة أصولهم ويعلمونها لأبنائهم وأحفادهم لاستكمال فروعهم ، ويحرصون على تذكر مواقفهم المجيدة ، وما قيل فيها على ألسنة البدو من شعرائهم بما يشبه الملاحم والأساطير ، والمتعلمون منهم فى العصر الحاضر يكتبونها ويتلونها على غيرهم ، على سبيل العزة والفخار ، كما سنرى ذلك فى موضعه .

ويشهد التاريخ أن عرب البحيرة ولا سيما فى (خربتا) قد كانوا أهلا لاحترام الولاة ، ففى سنة ٣٧ هـ سماهم قيس بن سعد فى كتابه إلى الخليفة على بن أبى طالب « أسود العرب » وكان منهم الزعماء الذين سنتحدث عنهم فى غير هذا المكان .

وفى عصر بنى أمية ، لقى عرب مصر عامة ، من الأذى ما جعلهم يذودون عن حياضهم ، حتى تصير مصر ولاية لبنى العباس ، فيأنف العرب أن يحكمهم ولاة من الأتراك ، وكان لبنى مدلج فى البحيرة وما حولها مواقف باسلة فى هذا الصراع .

وفى أواخر القرن الثامن الهجرى أذن السلطان الظاهر برقوق لطوائف من (هوارة) بالقدوم إلى مصر من (سرت) و (طرابلس) فنزلت جماعة بالبحيرة ، ونزلت أخرى بالصعيد ، أما فرع البحيرة فقد انتشر انتشارا واسعا فى أرجاء

الإقليم ، وفيما بين الإسكندرية غربا ، والعقبة شرقا ، كما يقول المقريزى والقلقشندى (١) .

وفى آخر القرن الثامن الهجرى هجمت (زناتة) وحلفاؤها من عرب البحيرة ، فأجلت (هوارة) عن منازلها إلى (جرجا) وما حولها ، وهناك اشتد بأسهم وارتفعت رايتهم .

ويجب أن ننبه إلى بطون (هوارة) لنعرف مدى اتساع نفوذها فى الشمال والجنوب وهذه البطون هى : أبو محمد وأولاد مأمن وبندار والعرايا والشللة وشحوم وأولاد مومنين والزابع والروكة والبركية والبهاليل والأصابغة والدناجلة والمواسية والبلازر والصوامع والسدادرة والزيانبة والخيافشة والطردة والأهلة وأزلتين وأسلين وبنو قمير والتيبة والتبايعة والغنايم وفزارة والعبابدة والأساورة والغليان السبعة .

وفى هذا القرن أيضا كانت الإمرة على عرب البحيرة فى أيام الناصر محمد بن قلاون لفايد بن مقدم وخالد بن أبى سليمان وهما من أمراء العرب وسادتهم كرما وشجاعة ، ويكفى أنهما من (فائد) وهى فرع أصيل من بنى سليم التى جاءت إلى مصر سنة ١٠٩ ه فى ولاية الوليد بن رفاعة .

ومن فروع بنى سليم هذه انتشر العرب من الإسكندرية إلى برقة وأشهرهم بنو هبيب الذين نسب إليهم (وادى هبيب) المعروف الآن بوادى النطرون ، ومن الإسكندرية إلى العقبة الكبيرة وأشهرهم فائد وخفاجة وهوارة وسماك ولبيد وسلام وفزارة ومحارب وقطاب والزعاقية وبشر والجواشنة والبعاجنة والقبايص (القوابيص) وأولاد سلمان والقصاص والعلاونة (بنو علوان) ، ومن أولاد مقدم المنتشرين فى هذه الجهات بطنان : أولاد التركية وأولاد فائد مقدم سلام .

وإذا تركنا للقلقشندى الحديث عن قوة نفوذ عرب الهوارة بعد نزوحهم من البحيرة إلى البهنسا وديروط وجرجا وإخميم وأسوان ، وما صار لهم هناك من

---

(١) البيان والإعراب + صبح الأعشى

إمارة ، فلنرجع إلى ما يضارعها فى البحيرة فى الدولة الناصرية القلاونيـة حيث علا شأن خالد بن سليمان وفائد بن مقدم وقد أفاض ابن فضل الله العمرى فى وصف فضائلها على نحو يدعو إلى مطالعة ما ورد فى كتابه « مسالك الأبصار » .

فى العصر التركى

وبالرجوع إلى (ابن إياس) مؤرخ القرن العاشر الهجرى للوقوف على مظاهر النشاط العربى فى مصر منـــذ بدأت شمس القرن السابع فى الغروب نرى أن الصور التى رسمها صاحب « بدائع الزهور » عن عرب مصر عامة ، غير واضحة المعـــالم ، ولكنها تتمشى مع ما عرف عنهم من النخوة والشهامة وغيرهما من صفات البداوة التى ذكرها ابن خلدون (فى المقدمة) .

فلنرجع قليلا إلى ما قبل ذلك لنربط الأحداث بعضها بعضا : ففى أواخر القرن السادس الهجرى ، نرى اختلاطا بين عرب البحيرة وبين عرب ليبيا الذين يسميهم المقريزى (عربان الغرب) ففى أحـــداث سنة ٥٩٢ هـ هبط عرب المغرب إلى البحيرة ، سعيا وراء العيش ، فقد كان أهل المغرب يشكون مجاعة طاحنة ، فلم يجدوا متنفسا لهم إلا البحيرة التى كانت عامرة بالخيرات .

غير أن أهم الأحداث فى تاريخ عرب البحيرة هو ما جرى سنة ٦٥١ هـ فقد اتخذ العرب موقفا كانت له خطورته بالنسبة للأتراك ، وفى هذه السنة ثار العرب فى الصعيد والوجه البحرى ، وقال الأمير الشريف حصن الدين ثعلب : « نحن أصحاب البلاد » ، ودعا إلى منع الأجناد الأكراد من جباية الخراج بعد أن أنف عرب مصر من خدمة الترك وقالوا : إنما هم عبيـد للخوارج ، وكتبوا إلى صاحب دمشق الملك الناصر يستحثونه على القدوم إلى مصر .

يومئذ كان العرب من الكثرة والوفرة بحيث أخذوا يلتفون حول حصن الدين فى (ديروط) قادمين من أقصى الصعيد وأطراف بلاد البحيرة (١) والجيزة والفيوم ، وكانوا اثنى عشر ألف فارس ، والمشاة لا يحصون عددا ، فأرسل إليهم

---

(١) السلوك : المقريزى

المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى جمدار فى خمسة آلاف فارس ، وقامت معركة عند (ذروة) من أعمال (المرتاحية) ، وتفانى العرب دفاعا عن حصن الدين ، ومات منهم أربعمائة ، ولكنهم لم يصمدوا أمام الترك الذين عادوا بالغنائم إلى (بلبيس) وعبروا إلى عرب (سنبس) و (لواتة) فى سخا وسنهور ، وسجن حصن الدين بالإسكندرية ، وزيدت القطيعة (الغرامة) على العرب ، وعوملوا بالقسوة حتى ذلوا وقلوا .

وإنا لنرى (البحيرة) منذ نشأت دولة الأتراك (٦٤٨ ﻫ) نزهة ملوكهم وسلاطينهم :

ففى سنة ٦٦١ ﻫ أقام السلطان الظاهر بيبرس فى (تروجة) ثم توغل فى الصحراء ، وضرب حلقة فوقع فيها صيد كثير ، وفى نفس السنة بعد عودته من الإسكندرية إلى القاهرة نزل ثانية بتروجة وأمر عربانها بالسباق بين يديه ، فاجتمع من (عرب تروجة) وحدها ألف فارس وانضم إليهم فرسان السلطان . وقد عين لهم مسافة السباق ، ووقف يشرف بنفسه من فوق تل مرتفع ، وأعد الجوائز السخية من ثياب وأموال .

وفى العام التالى ، أدركه عيد النحر وهو فى (تروجة) وقد ضرب الحلقة برسم الصيد ، وهناك علم بأمر قطاع الطرق من عرب هوارة وعرب سليم ، فألزمهم بعمارة البلاد ، وجعل سيف الدين عطا الله بن عزار شيخا على عرب برقة وألزمه بالتزام أمور الدين فى جباية الزكاة والعشور .

وتوجه إلى البحيرة الملك الأشرف خليل ، وقد سبقه (ابن السلعوس) لإعداد اللازم ، وضرب خيامه بالحمامات الواقعة غربى (تروجة) وأقام بها مدة حتى أبدى رغبته فى التوغل فى الصحراء للصيد منفردا وهناك قتله أمراؤه فى ١٥ محرم سنة ٦٩٣ ﻫ وأقاموا بعده الأمير (بيدرا) نائب السلطنة ، وحمل والى (تروجة) الأمير أيدمر الفخرى جثة الملك على ظهر جمل ليدفن بالقاهرة .

ولما سمع أنصار الأشرف بهذه الفاجعة أرادوا الانتقام من (بيدرا) ، الذى التقى بجمعهم عند (الطرانة) فانتصروا عليه ، فرجع (بيدرا) بعرب الجيزة من (الطرانة) إلى البحيرة .

وفى سنة ٦٩٩ هـ بعث السلطان قلاوون حملة قوامها عشرون أميرا – على رأسهم الأمير بيبرس المنصورى أمير دوادار كبير – لكسر شوكة الطائفتين العربيتين بالبحيرة : جابر ومرديس ، والتحم القتال فى (تروجة) ونال العرب من هذه الحملة أذى كبير ، فقد تشتت شملهم ونهبت جمالهم وأغنامهم ، وسبيت نساؤهم ، وأسرت أولادهم .

وتمضى السنون تباعا طوال القرن الثامن الهجرى ، وطابع الحكم التركى يتميز بالمؤامرات والغلاء والطاعون ، ويطمع الأجنبى فى غزو مصر كما حدث سنة ٧٦٧ هـ حيث غزا أسطول القبارصة ثغر الإسكندرية ، فيهب عرب البحيرة للدفاع عنها بالمهج والأرواح ، ومما قاله شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة فى هذه الواقعة يرثى الإسكندرية :

أتاها من الإفرنج سبعون مركبا وضاقت بها العربان فى البر والبحر

ومع ذلك لا تلقى البحيرة – وهى متنزه السلاطين والملوك – أى اهتمام ، فإذا فاض النيل ، صارت أراضيها بركا ومستنقعات ومخاضات ، هكذا وجدها السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧١ هـ فى طريقه إلى الإسكندرية .

أما (دمنهور) عاصمة البحيرة فقد تعرضت سنة ٧٨١ هـ لغارة شنعاء من خمسة آلاف رجل يتزعمهم بدر بن سلام ، نهبوا أسواقها وبيوتها ، وخربوا عدة بلاد أخرى ، فبعث الأتابكى برقوق – وهو يومئذ الوصى على السلطان القاصر – ثمانية من الأمراء المقدمين هم : آلان الشعبانى أمير السلاح ، والطنبغا الجوبانى أمير المجلس ، وأيتمش البجاسى رأس نوبة النوب ، ومأمون القلمطاوى وبلاط الصرغتمشى ، وبهادر الجمالى ، ونزلار العمرى الناصرى وهم من المقدمين ، ومعهم ١٠ أمراء طبلخانات ، و ١٢ أمير عشرة ، ونحو ٤٠٠ من المماليك السلطانية .

وضرب العساكر خيامهم بالبحيرة ، وأعد للعرب كمين بالليل ، فلما هجموا على الخيام وجدوها خاوية على عروشها ، فانقض عليهم الأتراك بالسيوف ، فقتلوا نحو ألف ، وكان عدد الأسرى أكثر من ذلك ، وغنموا من المواشى ما لا يعد ولا يحصى ، ولاذ بدر بن سلام بالفرار إلى الجبال فى جنح الظلام ، وساق

العساكر أمامهم جموع الأسرى والغنائم إلى القاهرة .

وفى هذه الوقعة يقول الشاعر البدوى خلف الغبارى .

جا دمنهور عرب خدو	سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم	هو اللى للجميع حشد
البحيرة من الفتن	سعدها زال واختفى
وبقى فرحها حزن	وقد تكدر الصفا
جا ابن سلام معو رجال	كل حد شهوتو رغيف
ذا على رقبتو تفال	وذا فى رقبتو شليف
وذا لو درع سيسبان	وذالودرع خوص وليف
والقسى قسى من نخيل	وخرائطهم الجعب
وصواريهم الجريد	وخودهم قصع خشب
جا بنى شىء بلا أساس	هدت الترك ما بنى
وتروجة المعمره	خربت حين لها دنا
قلعوا أبوابها الجميع	والسكفات من العنب
يسكو بدر يعتبوه	وعليه يوقع العتب
بدر تبت يدا أباه	لصلاح النسا فسد
كم مليحه أتت وفى	جيدها حبل من مسد
وقال لى شخص من (حنين)	(بدر) فى ذا الذى قصد

فى هذا الشعر البدوى الساذج إزاحة للستار التاريخى الذى حجب عنا معالم الحياة فى هذا العصر ، وما كان يستعمله البدو من أسلحة فطرية ، وما كان مع الترك من الحديد والفولاذ ، كما يتبين لنا من هذا الشعر مظهر العمران فى (تروجه) وما كان بها من مساكن وكروم ، وفى الشعر أيضا إشارة إلى اعتزاز بدر بن سلام بكثرة رجاله فلم تغن عنه شيئاً ، كما حدث للمسلمين من النصر فى غزوة (بدر) على قلتهم ، ومن الهزيمة فى غزوة (حنين) على كثرتهم .

ولم يهدأ مع ذلك لعرب البحيرة بال ، فتجمعت قبائلهم وقررت الانتقام

للشرف العربى المثلوم ، وبدأوا يستردون منازلهم ، فبعث إليهم السلطان حملة من ٥٠٠ مملوك ، وعلى رأسهم أمير السلاح آلان الشعبانى ، فانتصر عرب البحيرة وقتلوا عددا كبيرا من المماليك ، وسمع السلطان بما جرى ، وتواترت الأنباء فى القاهرة ، فأوفد نيابة عنه حاكم الأسكندرية — وهو نائب سلطان — فخرج إليهم بعدد كبير من العرب ، فهزموهم وطاردوهم فى الصحراء حتى وصلوا إلى برقة .

ولم يكتف عرب البحيره بهذا النصر وما قبله ، بل مضوا يستردون الأسلاب فبعث إليهم السلطان سنة ٧٨٣ ﻫ الأتابكى برقوق على رأس حملة من خمسمائة مملوك ، عليهم ستة أمراء مقدمين ، ولكن الدائرة فى هذه المرة دارت على عرب البحيرة ، إذ بلغت خسارتهم نحو تسعة آلاف رأس من الإبل والغنم والماعز ، ساقها الترك بين أيديهم إلى القاهرة .

وغربت شمس سنة ٧٨٤ ﻫ على صفحة دولة الأتراك ، وبدأت دولة الجراكسة ، وعرب البحيرة هم العرب ، على الرغم من هذا السور الذى أمر السلطان الظاهر برقوق بإقامته حول دمنهور لصد غارات العرب عليها .

وفى سنة ٨٠٣ ﻫ تواترت الأخبار بما يجرى فى الشام على يد تيمورلنك ، فأسرع الناصر برقوق بجمع فرسان العرب المصريين فوفد إليه من عرب البحيرة ستة آلاف فارس ومعهم كاشف البحيرة ، كما وفد من عرب الشرقية ٢٥٠٠ ومن بنى وائل ١٥٠٠ ومن جبل نابلس ٥٠٠٠ ، وبهذا كان فرسان عرب البحيرة أكثرهم عددا .

شعر عرب البحيرة أنهم لم ينالوا حقهم كاملا منذ حدثت (موقعة دمنهور سنة ٧٨١ ﻫ) ، على الرغم من تلبيتهم نداء السلطان كلما حزب الأمر ، وهم الأكثرون عددا ، فثارت ثائرتهم سنة ٨٠٤ﻫ ، وما لبث الناصر أن جرد عليهم(١)

---

(١) بكتمر الركنى أمير سلاح والمقر السعدى إبراهيم بن عراب أمير مجلس ، والمقر السيفى يشبك الشعبانى أمير دوادار ، وسودون الماردينى ويلبغا الناصرى ، وإينال باى ابن قجماس وسودون بن على باى وقطلوبغا الكركى والآن اليحياوى وإينال العلائى نائب حلب .

حملة من ٤٠٠ مملوك يتقدمهم ١٠ من الأمراء مقدمى عشرة المذكورين و ١٤ أمير طبلخانه ، و١٤ أمير عشرة ، وطاردوا عرب البحـــيرة إلى برقة بعد نهب أموالهم .

أما الأمراء الذين أوفدهم السلطان إلى الشام فقـــد خرجوا عن طاعته سنة ٨٠٦ هـ وسمع بذلك العرب فى مصر ، ممـــا شجع عرب الشرقية والغربية على الوقوف صفاً واحدا مع إخوانهم عرب البحـيرة ، والأخذ بثأرهم من السلطان وأمرائه ومماليـكه .

ولا ندرى لماذا أغفل المؤرخون ذكر تحركات العـــرب المصريين من سنة ٨٥٧ هـ فلا نظفر إلا بلمحة خاطفة عن بعض القبـــائل العربية فى البحيرة عند المقريزى (١) ، فى حديثه عن خليـــج الإسكندرية فيقول [ويشرب من خليج الإسكندرية وما يفيض منه أهل الباطن (ويقصد بطن الريف) وأهل البحيرة فى فجاج وأودية ، فيكون ذلك الماء صلة وهم قبيل من : (دنانة) و (الرمحانة) و(بنى يزان) وقبائل البربر (المغاربة) ويزرعون عليه فيستوفى منهم الخراج].

ومن هذه العبارة وحدها نفهم وجود قبائل عربية هذه أســـماؤها تقطن أطراف البحيرة المتصلة بقبائل العرب الليبية اعتمادا على ترعة الإسكندرية .

ويقول ابن إياس عن حوادث سنة ٨٥٧ هـ إن عرب البحـــيرة قتلوا غدرا كاشف البحيرة قشم المحمودى الناصرى، وخلفه فى كشف البحيرة حسن الدنكرى، ثم يعود ابن إياس فيحدثنا عن خروج حملة البحـــيرة سنة ٨٥٨ هـ يتقدمها باش العسكر جانم الأشرفى ، وبرسباى البجاسى ، وجماعة من الجنود ، لماذا ؟ « لأجل عرب البيد » .

ونستطيع أن ندرك من ثنايا هذه العبارة المقتضبة أن العرب فى مصر عامـة ـ وفى البحيرة خاصة ـ كانوا لا يزالون يناصبون الأتراك العداء ، حتى بعث إليهم السلطان الجديد خشقدم سنة ٨٦٩ هـ حملة يتقدمها خمسة أمـــراء مقدمين منهم الأمير قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير جانى بك قلقسير .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ١٧١ .

وانتهز عرب البحيرة كثرة الثغرات المفتوحة على السلطان ، فثاروا ضده وأيدهم عرب الشرقية والغربية والصعيد سنة ٨٧١ هـ ، واستولوا على بلاد المقطعين من الأمراء ، وأشعلوا النار فى الجرون ، فعزل السلطان كاشف البحيرة خشقدم ، وعين فى مكانه محمد الصغير ، كما تقرب إلى شيخ العرب صقر وجعله شيخ عربان البحيرة .

ولكن السلطان كان عاجزا — مع ذلك — عن مواجهة الموقف الدقيق ، فأفلت منه الزمام ، وقويت شوكة عرب البحيرة ، وقد تلاحقت النكبات من بين يديه ومن خلفه إذ تفشى الطاعون فى البلاد ، وثارت عليه الشرقية والصعيد ، ثم إن (سوار) قد ألحق الهزيمة المنكرة بعسكره سنة ٨٧٣ هـ مما اضطره إلى خفض نفقات العسكر ، كما فعل بالأتابكى أزبك باش عسكر البحيرة ، الذى تمرد على السفر إليها ، لكسر عربان لبيد الثائرين ، مما دعا الأمير يشبك ، إلى طلب النجدة سنة ٨٧٥ هـ ، فخرج إليها أزبك وهو غير مستريح البال ولكنه صد هجماتهم ، وظل على هذا النحو سنتين كاملتين ، ثارت خلالها عرب بنى وائل وبنى حرام ، وزحفت على القاهرة . وتبعهم عرب البحيرة ، ولكن أزبك تغلب عليهم وساقهم فى الحديد إلى القاهرة وأودعهم سجن (المقشرة) .

وصمم السلطان قايتباى على أن ينتقم من عرب البحيرة أشد انتقام ، وبلغ منه السعار مبلغه ، حينما أمر سنة ٨٧٩ هـ بتوسيط (١) كاشف البحيرة خشقدم الزينى والكاتب ابن الطواب لمجرد تأخرها فى سداد المال المستحق عليها ، كما أمر بسجن سليمان بن عيسى أمير عرب هوارة حتى مات فى سجنه سنة ٨٨١ هـ ، وكان كلما ثارت ثائرة العرب فى الشرقية أو الغربية أو البحيرة أو الصعيد ، نكل السلطان بزعيم الثوار أشد التنكيل ، كما فعل بهوارة الصعيد وزعيمهم يونس بن عمر سنة ٨٨٢ هـ الذى قتله وحز رأسه ، وكما شنق قاسم بن بيبرس بن بقر شيخ عرب الشرقية سنة ٨٨٥ هـ ، وهو من خيار بنى بقر ، كما يقول ابن إياس ، وكما توفى محمد بن عجلان بن بقر سنة ٨٨٦ هـ مما جرى عليه من الشدائد والمحن ، وكما

(١) التوسيط : ضرب الشخص من وسطه بالسيف حتى ينقسم قسمين .

بعث ابن الزرازيرى الكاشف برأس محمد بن عامر وغيره من عرب الهوارة وشيوخهم سنة ٨٩٠ هـ ، للطواف بها فى شوارع القاهرة .

فى هذه الحقبة العصيبة ، كانت البحيرة على فوهة بركان ، لهذا عزل كاشفها أمير سلاح قراكز مملوك تمراز ، وجعل مكانه أحد أقربائه المقربين وهو الأمير كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر ، ويومئذ كان شيخ عرب البحيرة محمد الجويلى المعروف بشدة بأسه ، وصلابة عوده ، وقد بعث إليه السلطان بحملة من ٢٠٠ مملوك يرأسهم باش العسكر قرقاس المعلم أحد الأمراء العشراوات ، وأسباى المبشر وأزبك قفص ، ومامای ، ودارت رحى القتال بين الفريقين ، ولكن الترك لم يظفروا من هذا العربى ومن معه بأدنى طائل .

وإذ ذاك اشتد ضغط العثمانيين على الشام ، وأحس السلطان بالخطر يقترب من مصر ، فكلف كرتباى الأحمر بجمع ما يقدر عليه من فرسان البحيرة ، وعرض على كل فارس ٣١ دينارا ، ولكن جذوة الخصومة ما تزال فى اشتعال خلال عامى ٨٩١ و ٨٩٢ هـ فى هذه المنطقة الحساسة وكذلك فى الشرقية والغربية ، وقد حاول السلطان من سنة ٨٩٣ حتى سنة ٨٩٥ هـ أن يجمع من فرسان العرب المصريين حملة يصد بها آل عثمان بلا جدوى ، ويغتنم المماليك الجلبان هذه الفرصة فيطالبون بحقوقهم ، فيجمعهم ويهددهم (بالنزول عن الدكة والسفر إلى مكة) . وما يزال يتلطف بهم ، ويتودد إليهم ، حتى ينصرفوا بما أغدق عليهم ، ثم يرسل حملة فى سنة ٨٩٨ هـ إلى البحيرة ، وعلى رأسها الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النوب ومعه عدة وافرة من الأمراء العشراوات والجنود ، بينما يحصد الطاعون أرواح الشعب حصدا ، ويتربص جماعة من العرب عند (تروجة) لاثنين من أمراء السلطان بعث بهما من القاهرة لقتل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا بالإسكندرية فيقبض عليهما العرب — ولا يقتلونهما — بل يبعثون بهما إلى الإسكندرية ليكون السجن مأواهما سنة ٩٠٢ هـ وتأتى السنة التالية وطابعها [الغلاء والفناء والمصادرات وجور السلطان فى حق الناس وأذى المماليك فى حق الرعية] كما يقول ابن إياس .

وتبلغ الحمية حدها عند اثنين من أبطال العرب، فى البحيرة هما الجويلى ومرعى سنة ٩٠٤ ، فقد عقدا العزم وأقسما ألا يمكنا أرباب الدولة من خراج الغربية

والبحيرة ، فقذف الله الرعب فى قلب السلطان ، وخشى سوء العاقبة ، إذا هو قابل هذا التحدى بحملة من حملاته ، فكظم غيظه .

وثار عرب عجالة سنة ٩٠٤ هـ على كاشف البحيرة ، وزحفت جموعهم حتى بلغوا (الوراق) قرب (شبرا) ، واتجهوا من خلف (الجبل الأحمر) نحو بحر (بلامة) قبالة (طرا) ثم (المعيصرة) . ونزلوا بها ، فأرسل السلطان من يصد هجماتهم ، فكان النصر لعرب (عجالة) الذين أمعنوا فى الترك تقتيلا وتذبيحا ، ومضوا إلى الصعيد غانمين ، فلما جاء المدد من قبل السلطان ، وجدوا أرض المعركة تغطيها الدماء والأشلاء ، فعادوا مغمومين ، وكان اليوم عيد الفطر ، الذى انقلب فى القاهرة مأتماً ، والسبب فى هذه الوقعة هو [أن الترك استخفوا بالعرب فأكمنوا لهم أكمنة فخرجت الترك وخرج العرب من ورائهم فانكسروا وقتل منهم من قتل] (١) .

وتوجه طومان باى الدوادار الكبير إلى (عجالة) بالصعيد ، فقبض على نحو ٣٠٠ منهم ما بين رجل وامرأة وصبي ، جاء بهم أسرى إلى القاهرة وهم فى حالة يرثى لها ، فقد كان الرجال فى الحديد ، والنساء والصبيان فى الحبال ، ورءوس الشهداء معلقة فى رقاب النساء ، وكان اليوم عيد المحمل ، فكانت الفرجة فرجتين ، وأمر السلطان بتسميرهم على الجمال والطواف بهم فى شوارع القاهرة ، وعلقوا كل عشرة منهم على باب من أبوابها ، وصارت العامة ترجمهم بالحجارة .

ونهض العرب فى الشرقية والغربية سنة ٩٠٨ هـ حتى أوشكوا أن يتملكوا البلاد من أيدى المقطعين ، فتوجهت حملة سلطانية إلى الشرقية ، فباءت بالخيبة والفشل ، وتوجهت أخرى إلى البحيرة ، يقودها أزبك المكحل ، أحد المقدمين ودولات باى قرموط ، ففعلت بعرب البحيرة ما لا يدور بخلد إنسان ، إذ بلغت الوحشية بالأتراك إلى درجة أنهم كانوا يقطعون رءوس شباب العرب ويرسلونها إلى القاهرة على الجمال ، فى شلف التبن ، وكان طراباى ينشر العربان بالمنشار من رءوسهم إلى أقدامهم ، ويسلخ الكثير منهم ، وزاد عدد القتلى من العرب على الألفين .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور .

ومع هذا كله ، لم يهدأ للعرب بال ، ولم يشبع سعار الأتراك ، حتى جاء عام ٩١٨ هـ فتحالفت سبع طوائف من عرب البحيرة ، على الأخذ بالثأر ، وانضم إليهم عرب (عجالة) وغيرهم ، وحاصروا البلاد ، وكان فيهم شيخ العرب الجويلى ، فوقع السلطان بين نارين : العرب من جانب ، وإسماعيل شاه الصفوى من جانب آخر ، وصدرت الأوامر للعسكر بالإقامة بالبحيرة إلى ما بعد وفاء النيل سنة ٩٢٠ هـ مع أن طومان باى قد عاد من البحيرة ، وترك بها الوزير يوسف البدرى ، فتمد كانت البلاد فى أشد حالات الفوضى والاضطراب ، سواء فى ذلك الدواوين أو المدائن والقرى منذ لقى الجويلى حتفه ، مما شجع عرب (عجالة) على الزحف إلى (البدرشين) قرب الجيزة ، والنزول بها ، فباغتهم طومان باى ، الذى أسر منهم نحو ١٦٠ ، وقد اعتزم السلطان على تسميرهم على أبواب القاهرة ، لولا أن خوفه الأمراء من ذلك ، وإلا نهبت (عجالة) إقليم الجيزة .

ودقت أجراس الخطر على أبواب القاهرة ، وكان الخراب يعم البلاد ، والطاعون يفتك بالعباد ، ومع ذلك يبدأ السلطان الغورى رحلته إلى الإسكندرية ورشيد عبر البحيرة ، فى شهر ذى القعدة من عام ٩٢٠ هـ فيكون خط سيره هكذا : المنية (أى بولاق) والمنصورية والنجيلة حيث قضى ليلتين وأحضر له الصيادون تمساحا فأمر بتوسيطه ثم وصل لى ثغر رشيد ومن هناك إلى الإسكندرية فى موكب حافل ، وتقبل التقادم من الكشاف والمشايخ ثم عاد إلى دمنهور والنجيلة ثم الطرانة فالمنصورية فالمنية ثم كان الاستقبال الرسمى بالريدانية .

وفى العام التالى زار رشيد ودمياط والإسكندرية ليتفقد بنفسه الابراج استعدادا للقاء العثمانيين ، وقد أمر ببناء سور على رشيد من البحر ، وهو يعلم أنها مفتاح الهجوم على مصر ، قبل غيرها من الثغور ، ولجأ بعد ذلك إلى استئلاف قلوب المماليك ولا سيما العاطلين منهم ، فوزعهم على البحيرة والطرانة ، ليكونوا مع الكشاف فى صد غارات العرب ، وحفظ البلاد من أعداء السلطان وكان الأمير قانصوه أبو سنه ، متولى المماليك العاطلين المبعوثين إلى البحيرة .

وصار طومان باى سلطانا على مصر بعـــد الغورى ، وكان الأمير طقطباى حاجب الحجاب والمتحدث فى كشوفية البحيرة قد اعتزم السفر إليها ، فأنكر عليه الأمراء ذلك ، فانصرف عن عزمه .

العصر العثمانى

واقتربت ساعة الغزو العثمانى لمصر ، فجمع السلطان فرسان العرب المصريين وشجعانهم من (عجالة) و (محارب) و (هوارة) ، ولكن الأمراء خوفوه من عاقبة الأمر ، ونصحوه بالاستعانة بالعنصر المغربى دون العرب ، فصرف العرب ومد يده إلى المغاربة فأبوا أن يكونوا معه فى محاربة العثمانيين لأنهم مسلمون مثلهم ، وليس فى الإسلام أن يشهر المسلم سلاحه فى وجه أخيه المسلم .

وانهزم طومان باى فى (مرج دابق) وفـــر من وجه السلطان سليم ، حتى وصل إلى (تروجه) فأواه صديقه القديم حسن بن مرعى وأخوه شكر بضيعة (البوطة) ثم غدرا به وسلماه للسلطان سليم ، وهو فى ملابس عرب الهوارة .

وتقدم سليم فى ألف فارس إلى الإسكندرية ، وكان قد أرسل جيشا عن طريق البر ، بقيادة يونس باشا إلى تروجه ليلتقى به هناك ، وأقام سليم بالإسكندرية ، ثلاثة أيام ، تلقى فيها تقادم العرب وهداياهم .

وإذ ذاك وردت الأخبار ، بمحاصرة العرب لحسن بن مرعى والجويلى ، ولا بد أن يكون العرب قد أنكروا عليهما غدرهما بطومان باى ، فأسرع سليم بتجريد حمـــلة قوامها ألف جندى ، لحماية الخونة ، من فتكات عرب البحيرة ، ووصل حسن بن مرعى إلى القاهرة سالما . غير أن السلامة لم تدم ، فقد نال جزاء خيانته من السلطان ، بأن سجنه فى برج القلعة هو وابن صقر وابن أخى الجويلى ، ولكنه برد الحديد وفر من السجن ، ولم يطل به الاختفاء ، فقد أرسل أخاه (شكر) سنة ٩٢٤ ﻫ يطلب الأمان من السلطان ، فأمنه ، وأرسل حملة إلى البحيرة على رأسها أميرآخور يعنى (رئيس الاصطبلات) أخو ملك الأمراء ومعهم جماعة من الانكشارية والرماة بعشر عجلات ، يحملون الخلعة والأمان لابن مرعى ، بينما طرد عرب الغربية (أى الحوف الغربى) إسماعيل بن الجويلى

من أرض (البساط) بالقرب من (تروجة) وملكوها ، ودخل ابن مرعى القاهرة وعلى رأسه منديل الأمان ، وخلعة ملك الأمراء ، تشيعه لعنات العرب فى كل جيل .

ومنذ سنة ٩٢٥ هـ والنزاع فى مصر على قدم وساق ، بين الانكشارية والأصباهية ، وحاكم مصر هو «ملك الأمراء خاير بك بلباى» الذى باسم السلطان سليم شاه وابنه من بعده سليمان شاه ، صار يعزل القضاة كما يشاء ويفعل بالعرب ما تقشعر منه الأبدان .

ويبدو أن الميدان قد انتقل من البحيرة إلى الشرقية والغربية . فإن المعارك الطاحنة التى كانت تجتاح إقليم البحيرة قد انتقلت إلى الشرقية ، أما عرب البحيرة فلم نسمع عنهم شيئا على ألسنة المؤرخين ، فإن ابن إياس خلال السنوات الواقعة بين سنة ٩٢٥ و سنة ٩٢٨ هـ لا يأتى بخبر عنهم اللهم إلا ما بعث به السلطان سليمان من قفطان حرير مخمل إلى شيخ العرب إسماعيل بن أخى الجويلى شيخ عرب البحيرة ومعه مرسوم خاص سنة ٩٢٨ هـ . كما بعث بستة قفاطين أخرى الى سائر مشايخ عرب الأقاليم ، وما كان ذلك إلا توددا منه ، وكاشف البحيرة يومئذ الأمير تمراز الشمسى السيفى الاتابكى الذى توفى سنة ٩٢٨ وقال عنه ابن إياس [وكان لا بأس به] .

ولما ذهب ملك الأمراء إلى البحيرة بقصد النزهة فى ٢٢ صفر سنة ٩٢٨ نزل بالنجيلة للصيد . حيث وافاه أعيان البلاد وكبار موظفيها ، وعاد من النجيلة إلى قليوب وبات بها ضيفا على شيخ العرب ابن أبى الشوارب ، وتقرب إليه الناس بالهدايا والمآدب ولا سيما من العرب ، كما فعلوا أيضا بنائب السلطان الأمير سنان بك .

وفى ربيع الثانى من هذه السنة انقض عرب عجالة على (البساط)ونهبوها ولكن إسماعيل بن أخى الجويلى هزمهم وصدهم واستولى على كل ما كان معهم وأرسل كل ذلك هدية إلى ملك الأمراء فشكره .

ويطلع القرن الثانى عشر ، وتمضى السنوات تباعا حتى يكون المماليك حزبين: قاسمية وفقارية ، فما يأتى عام ١١٤٢ هـ حتى يكون بعضهم قد قضى على البعض

الآخر ، وعندئذ يولى المماليك وجوههم شطر العرب المصريين ، حيث الحبايبة فى الوجه البحرى بقيـــادة سويلم بن حبيب ، والهوارة فى الصعيد بزعامة همام ، وما يزال على بك الكبير بهم هو وتلميذه محمد بك أبو الذهب ، حتى يتخلص من هؤلاء وهؤلاء سنة ١١٨٣ هـ ، ويصبح سيد الوجهين ، وشيخ البلد ، ولكنه لم يكد يجنى ثمار هذه السياسة ، حتى لقى حتفه سنة ١١٨٧ هـ : غدر به تلميذه ، ليخلو الجو له .

ماذا كان موقف عرب البحيرة من هذا الصراع الدامى ؟ كان عرب الهنادى بالبحيرة أحلافا للحبايبة لم يتخلوا عنهم ، وكانوا ينزلونهم منازلهم بالبحيرة ، كلما جرد المماليك حملاتهم عليهم ، ولم يتخلوا عنهم فى هذه المحن ، لأنهم عرفوا عن العثمانيين الغدر والخيانة ولا سيما بالحبايبة ، فقد ورد سنة ١١٣٥ هـ فرمان يبيح لجميع العرب فى مصر الاستقرار فى أماكنهم فيما عـــدا سويلم بن حبيب وإخوته ومن يلوذ بهم ، لأنهم كانوا ـ بحق ـ شوكة فى ظهر الحكومة العثمانية ، التى تتمثل سياستها الملتوية فى الخطاب الرسمى الذى افتتح به عهده ، أحد ولاتهم وهو على باشا حكيم أوغلى سنة ١١٥٣ هـ ، يوم عمل له أول ديوان ، بقراميدان ، وأذاع على الناس مرسوم التولية ، ثم قال [أنا لم آت إلى مصر لأجل إثارة فتن بين الأمراء وإغراء ناس على ناس ، وإنما أتيت لأعطى كل ذى حق حقه ، وحضرة السلطان أعطانى المقاطعات ، وأنا أنعمت بهـــا عليكم فلا تتعبونى فى خلاص المال والغلال] .

وكان سويلم بن حبيب قوى الشكيمة واسع الثراء من ضيـاع ودور ، وكان مقره القليوبية ، وقد بلغت به الجرأة حتى أنه كان يفرض على السفن التى تعبر النيل من بولاق إلى رشيد ودمياط أتاوة ، إلى أن حاربه على بك الكبير فى البحيرة ، وقضى على نفوذه سنة ١١٨٣ هـ .

واتخـــذ (كومب) من ذهاب عربان البحيرة إلى الإسكندرية لاستقبال الغازى حسن باشا سنة ١٢٠٠ هـ دليلا على سيرهم فى ركاب العثمانيين حتى أصدر فرمانا لصالحهم .

ومهما يكن من شىء فإن عرب البحيرة كانوا يسالمون من يسالمهم، ويحاربون

من يحاربهم ، ولا يقبلون من العثمانيين أو المماليك ما يمس كرامتهم ، ويجرح تقاليدهم الموروثة .

ولقد حاول المماليك إشعال نيران الفتنة بين العرب بعضهم بعضا ، كما حدث سنة ١١٩٩ هـ لعرب البحيرة ، واستنجد فريق منهم بإبراهيم بك على خصومهم ، فأرسل معهم مراد بك إلى البحيرة ، وما لبث أن ارتشى من فريق على فريق وخان أمانة التوفيق بين المتنازعين ، وفى جنح الظلام انقض على المستنجدين به فى منازلهم ، وفتك بهم ، وعاد بالغنيمة ، والرشوة ، مع العار ، إلى القاهرة .

وفى هذا الوقت كانت (رشيد) تغلى مراجلها من مظالم المماليك . فبعث إبراهيم بك ومراد بك إليها لاشين بك ومصطفى بك السلحدار للمحافظة على الأمن ، ولتوثيق العلاقات بعرب الهنادى ، ولاصطحاب أحمد باشا الجداوى الوالى الجديد إلى القلعة ليتولى مهام منصبه ، وعند ما رست به السفينة على الإسكندرية ، ذهب إليه مشايخ عرب الهنادى والبحيرة ، ولا سيما أهل دمنهور ، فكساهم ومنحهم الأموال .

ولا شك فى أنهم قد شكوا للباشا الجديد ما يعانونه من المظالم ، لأنه ـ وقد وصل إلى رشيد ـ بعث فى ١٦ رمضان سنة ١٢٠٠ هـ إلى مشايخ البلاد وأعيانها ومشايخ العرب يدعوهم لمقابلته فى رشيد للنظر فى أمر هذين الذئبين المسعورين إبراهيم بك ومراد بك .

أما المماليك فقد خافوا سوء المنقلب ، إذا هم واجهوا الباشا الجديد ولكن مشايخ العرب مضوا إليه سراعا ، فالتقوا ببعض المماليك فى (فوه) فشتتوا شملهم ، وفر الزعيمان الكبيران إلى أسيوط ، بينما تقدم عرب الهنادى فيما بين رشيد والجيزة ، وقتلوا فى يوم واحد من المماليك فى (النجيلة) نحو ٣٠٠ ، وسرت العدوى إلى عرب الشرق والجزيرة ، واستطاع ابراهيم بك أن يستميل إلى جانبه بعض العرب فى الجهات القريبة من القاهرة ، فكان منهم نفر من عرب البحيرة والصعيد والجيزة والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم .

وعلى الجملة فإن البدو فى مصر عامة خلال العصر العثمانى قد تحامل عليهم

المؤرخون الأجانب ومنهم (إتين كومب Et. Combe)[1] وصوروهم فى صفحات التاريخ على أنهم عناصر الفوضى فى البلاد ، وقطاع الطرق على حجاج بيت الله . وأنهم كانوا فى صف العثمانيين كلما تحركت قواتهم ، وهذا ليس من الحقيقة فى شىء .

مع الفرنسيين

وكان القدر على موعد مع أهل البحيرة ، الذين سجلت لهم أشرف المواقف عند قدوم الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣ هـ ، حينما بعث أهل الإسكندرية إلى كاشف البحيرة ليجمع العرب ويأتى بهم للدفاع عن الثغر . الذى كان حاكمه الحقيقى السيد محمد كريم ، وهو المعروف عند أهل البحيرة عامة ـ والعرب خاصة ـ بالشهامة والأمانة .

لبى كاشف البحيرة نداء الوطنية ، واستجاب له العرب الأمجاد من أهلها ، وخفوا رجالة وخيالة ، واستشهد منهم من استشهد ، وزحف نابليون على أشلائهم المبرورة ، بجيوشه المسعورة نحو دمنهور ورشيد وفوه والرحمانية وكان إبراهيم بك ، قد حشد لهم العرب القريبين من القاهرة ، كما حشد لهم مراد بك عرب البحيرة والجيزة والصعيد وأولاد على والهنادى وغيرهم ، حتى وصل الفرنسيون إلى (أم دينار) فى ٧ صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ هـ) .

أدرك نابليون أن العرب قد تركوا جراحهم جانبا ليفرغوا له ، واجتمعت كلمتهم على النضال ، واسترخصوا الأرواح فى سبيل دفع غوائل هذا الكافر الأفاق ، الذى أمعن فيهم تقتيلا وتذبيحا فى الشرقية والمنوفية وغيرها ، أما فى دمنهور ، فقد بذل العرب الذين كانوا بها أرواحهم ، وهجموا على جنود نابليون وأخذوا يتعقبونهم فى الرحمانية ورشيد ، وتصادف أن ظهر أحد المغاربة ؛ فأخذ يحث الناس على جهاد الكفار ، والتف حوله أهل البحيرة . وزحف بهم على مخيمات الفرنسيين بدمنهور ، ولم تستطع مدافعهم أن تقف فى وجوه المناضلين ،

---

(١) Précis de l'Histoire d'Egypte. T : 3. P : 77 +

الذين ظل المغربى يمضى بهم شرقا وغربا ، ويذيع الفرنسيون منشورهم فى ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ (= ١١٢٤ هـ) فى أرجاء الدلتـــا بالتشنيع على (الغز = الأتراك) والعربان ، بقصد الانفضاض من حولهم ، فما يزيد هذا المنشور وأمثاله ثورة عرب البحيرة إلا اشتعالا .

وكأن النيل فى فيضان ذلك العام قد شارك العرب فى ثورتهم على الغزاة الآثمين ، فلم يجد بوفائه ، ولذا رحل أهل البحيرة إلى المنوفية والغربية ، فاستحسن رحيل عرب البحيرة [لأنه بقى لهم فى الحى نخيل] كما يقول الجبرتى .

ولقـد تجلى موقف عرب البحيرة حقـــا ، إزاء الفرنسيين فى زحفهم من الإسكندرية إلى القـاهرة ، على النحو الذى ذكره (إدوار جوان)[1] حين تحدث عن المفاجأة التى صدمت الغزاة قبل وصولهم إلى الرحمانية ، فقـــد كان العرب يتربصون للجنود المتخلفين ، فينفردون بهم ، ويستذلونهم ، ثم ينـكلون بهم ، ولا يتركونهم إلا طعمة للذباب الأزرق ، والـكلاب المسعورة . ومنهم (الجنرال ميرور) الذى وجـــد مذبوحا على مقربة من باب المعسكر ، كما وقع (دينانو) مساعد أركان حرب الحملة أسيرا فى قبضة العرب . فأرسل نابليون مبلغا كبيرا من المـال ليفتـديه ، ولـكنه لقى مصرعه على يد شيخ القبيلة الذى لم يفلح المال فى إغرائه ، وكذلك قتل العرب ضابطا كبيرا كان قـــد أرسله نابليون إلى الأميرال الفرنسى ، وقد حزن عليه نابليون أشد الحزن ولـكنه كظم غيظه .

وهنـــاك أمام قرية (شـــبراريس) تربص المماليك والعـــرب آلافا مؤلفة للفرنسيين ، ولـكن المدافع الثقيلة كانت تحصدهم حصدا ، وهم لا يبالون .

ومع هـذا لم يسلم التـاريخ من المغالطات ، ولم ينج المؤرخون من التلبيس ، حتى الجبرتى الذى قال إن عرب الهنـــادى كانوا يحملون الميرة إلى الفرنسيين المحصورين بالإسكندرية سنة ١٢١٦ هـ .

ولـكن ميخائيل شاروبيم[2] فى نقله هذه العبارة عن الجبرتى أعطاها صورة من عنده هو ، فعبر عنها بما يفيد تهريب المؤن من طريق مجهول إلى الفرنسيين ، أثناء

(١) مصر فى القرن التاسع عشر

(٢) الـكافى : جـ ٣

حصار الإنجليز لهم بالإسكندرية ، مما يوحى إلى القارىء بأن العرب - والهنادى هم المقصودون طبعا دون أن يذكرهم - كانوا صنائع الفرنسيين ، ولكن يكفى أن يكون هذا الإيحاء من لدن شاروبيم ، ويكفى أن يقول كاوت بك (١) إن نابليون قد عزم على كبح جماح ما بين ٢٠ ألفا و ٣٠ ألفا منهم وسماهم اللصوص المعتصمين بالصحراء .

ومهما يكن من شيء فإن عرب البحيرة قد ذاقوا المر فى خضم هذه الأحداث الدامية ، فتاقت نفوسهم إلى الهدوء بعد القلاقل ، فكتبوا إلى السلطان العثمانى برغبتهم فى الاستقرار معلنين الطاعة والولاء فأصدر فرمانا فى شعبان سنة ١٢١٥هـ (١٨٠١م) [... إلى نائب البحيرة، والمشايخ من عربان الهنادى والأفراد والجميعات والبهجة وبنى عونة .. أنكم أنهيتم إلى ديواننا الهمايونى أنكم من قديم الزمان ، منازلكم أبا عن جد ، فى فيافى البحيرة وفدافدها ، وأنكم تحت قدم الطاعة والمحافظة للرعايا والطرقات الواقعة بناحية البحيرة .. والتمستم استقراركم فى منازلكم القديمة كما كنتم .. فحيث أنه جرت العادة أن قبائل العربان فى الديار المصرية كل قبيلة لها منزلة مخصوصة بهم لا ينازعهم فيها غيرهم ، ومنزلة البحيرة من قديم الزمان منزلكم، فبحسب التماسكم .. قد أقررناكم فى منازلكم .. بالشروط التى تعهدتم بها وقبلتموها فى حضور صدرنا الأعظم..والحذر ثم الحذر من المخالفة].

ولكن الأحداث الجارية لم تكن لتعزل عرب مصر عامة وعرب البحيرة خاصة عن ميادينها ، وقد كان ثمت جانبان يتنازعان البلاد هما المصرلية والعربان كما يسميهم الجبرتى ، فإلى أى الفريقين ينحاز عرب البحيرة ؟

مع الألفى

إنهم فى هذه الفترة ينضوون تحت لواء المصرلية وهم الأمراء المماليك وزعيمهم حينذاك محمد بك الألفى ، وقد جمع حوله الحويطات والعايد والهنادى ، ولندع الجبرتى مؤرخ العصر يحدثنا عن هذه الظاهرة ، حيث يقول عن الألفى [ومن

---

(١) لمحة عامة إلى مصر ج ٢

عجيب أمره .. امتثال جميع قبائل العربان الكائنين بالقطر المصرى لأمره ، وتسخيرهم وطاعتهم له ، لا يخالفونه فى شىء ، وكان له معهم سياسة غريبة ، ومعرفة بأحوالهم وطبائعهم ، فكأنما هو مربى فيهم أو ابن خليفتهم ، أو صاحب رسالتهم ، يقومون ويقعدون لأمره ، مع أنه يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ومواشيهم ، ويحبسهم ويطلقهم ويقتل منهم ، ومع ذلك لا ينفرون منه .. وقد تزوج كثيرا من بناتهم [1] فالتى تعجبه يبقيها .. والتى لا توافق مزاجه يسرحها إلى أهلها ، ولم يبق فى عصمته غير واحدة ـ وهى التى أعجبته ـ فمات عنها .. فلما بلغ العرب موته .. اجتمعت بنات العرب وصرن يندبنه بكلام عجيب ، تناقلته أرباب المغانى .. والعجب منه .. أنه لما كان ينزل .. فى كل سنة إلى شرقية بلبيس ويتحكم فى عربانها ويسومهم سوء العذاب .. ويتحاون على البعض منهم بالبعض الآخر .. ويمنعهم من التسلط على فلاحى البلاد ..] .

وأعجب من هذا كله أن أولاد على والهنادى وعرب الشرقية جميعا ، قد انصرفوا ، بعد موته مباشرة سنة ١٨٠٧ م عن خلفائه المماليك واتخذوا لأنفسهم سياسة أخرى .

ولا شك أن زواج الألفى من بنات العرب ، كان إحدى وسائله إلى الهدف السياسى الذى كان يتوق إلى تحقيقه ، ولكن يجب أن نضيف إلى هذا أن العرب كانوا ولا يزالون يعتقدون بمبدأ (الكفاءة) وبموجبه يكون غير العرب ـ من أتراك ومماليك وفلاحين ـ غير أكفاء لبناتهم ، ومع ذلك تزوج الألفى منهم وهم يعلمون أنه كان عبدا رقيقا اشتراه سيده مراد بك بألف إردب من القمح ، ولذلك سمى الألفى ، وكذلك تزوج أحمد باشا الجزار البشناقى كاشف البحيرة الذى مات سنة ١٨٠٤ من عرب الهنادى بالبحيرة ، واشترك من قبل فى الحملات على الهنادى والجبايبة .

---

(١) يبالغ المحوار جوان ليقول « وكان من عادته وهو فى البحيرة أن يتزوج كل يوم جمعة بفتاة عربية جميلة » .

وكان عرب الهنادى ذوى حمية وأنفة ، حتى لقد هموا بقتل (أبو طويلة) شيخ العايد ، حينما قدم احتجاجا على مصاحبة (هبود العرب) للمماليك فى نهبهم لمحاصيل الشرقية ، وأوشكت هذه الكلمة (هبود = صعاليك) أن تقدح زناد الحرب بين عرب البحيرة وعرب الشرقية سنة ١٨٠٤ .

هذا ، وقد كان (بالرحمانية) جماعة من عرب (القوابيص) وهم كما يقول الجبرتى [طائفة مرابطون ليس يقع منهم أذية ولا ضرر لأحد مطلقا] ومع ذلك انقض عليهم عسكر العثمانيين فى يونيه سنة ١٨٠٦ م ونهبوا منهم الشىء الكثير ، عندما اصطف العثمانيون فى واجهة الألفى بك بعساكره الذين تحركوا من (الرحمانية) و (مرقص) إلى ميدان القتال فى (النجيلة) ، و (أولاد على) منتشرون فى البحيرة ، فتم له النصر ، ولكن شيئا واحدا يجب أن نضعه نصب أعيننا : هو أن جميع العرب المصريين فى مطلع القرن التاسع عشر ، كانوا حلفاء للمماليك ، خاضعين لأميرهم محمد بك الألفى .

وتولى شاهين بك المرادى من بعده زمام المماليك ، ولكن العرب انفضوا من حوله ، فور وفاة الألفى ، كما يقول الجبرتى وأن رجلا من العرب قد توجه إلى محمد على ليزف إليه خبر وفاته ، وفى هذا وحده ما ينفى قول إدوار جوان بأن شاهين بك قد احتفظ بمواقعه فى البحيرة وكان معه من العرب ثمانية آلاف.

ولا ينكر أحد - حتى إدوار جوان - أن عرب مصر كانوا فى صف المماليك فى ولاية محمد باشا خسرو سنة ١٨٠٢ ، والإنجليز يومئذ مرابطون بالبلاد ، فكان مع المماليك ٢٥٠٠ من فرسان العرب ، ومثلهم من العبايدة ، و ٢٥٠٠ من عرب أولاد على ، وقائدهم جميعا مراد بك .

مع محمد على

كان عدد عربان مصر جميعا منذ الحملة الفرنسية إلى عهد محمد على نحو ١٠٠ ألف ، موزعين على ٦ قبائل ، كان منهم محاربون أكثرهم من الفرسان نحو ٢٠ ألفا ، وطالما وقعوا فى حروب مع الفلاحين ، وطالما قطعوا الطرق ، فعمد محمد على إلى مهادنتهم ثم استعمل معهم القوة ، وأرغمهم على أن يقيم مشايخهم بالقاهره

كرهائن وأجرى عليهم الأرزاق وأقطعهم البلاد الشاسعة وأعفاهم من ضرائبها فاندمجوا فى المجتمع ، ثم أمر بتجنيدهم مبتدئا برؤساء العشائر واستأجرهم على ذلك بشرط أن يحضر كل واحد ومعه فرسه وبندقيته ، وأشركهم فى حروبه فعلا (١).

ولقد كان من تدبير الشيخ عبد الله الشرقاوى والسيد عمر مكرم تنظيم مظاهرات القاهرة ، فرحا بانتخاب محمد على واليا على مصر سنة ١٨٠٥ ، واستقدم السيد عمر جمعا كبيرا من قبائل العرب فى الشرق والغرب لا لهذا الغرض ، بل ليستعين بهم محمد على فى حصار القلعة ، فصعد بالعساكر والعرب ، وغيرهم إلى المقطم ، فأنزلوا الوالى المعزول من القلعة توطيدا لمركز محمد على .

فهل حفظ محمد على للعرب هذا الجميل ، ورد إليهم ما كانوا قد افتقدوه عند المماليك أو الأمراء المصرلية كما يسميهم الجبرتى ؟ أم تراه قد نسى انطلاق الأربعة آلاف من عرب البحيرة والفلاحين نحو (الحماد) لصد حملة فريزر على رشيد سنة ١٨٠٧ م .

إن خمسة عشر عاما قضاها العرب المصريون ، ولا سيما عرب البحيرة وفيها ذاقوا المر أشكالا وألوانا من يد الوالى الغادر الذى سعى بينهم بالوقيعة حتى ضرب بعضهم وجوه بعض ، ونكل هو بهم جميعا ، كما تفصح عن ذلك الصفحات التالية :

ففى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٠٤ جاء الخبر إلى محمد على بأن طائفة من عرب أولاد على نزلوا قرب الأهرام فى طريقهم إلى الصعيد . فركب إليهم الباشا فوجدهم قد مروا ، ولكنه وجد قبيلة القوابيص فى نجوعهم وهم جماعة مرابطون من خيار العرب لم يعهد منهم ضرر ولا أذى ، فقتل منهم جماعة ونهب نجعهم وجمالهم وأغنامهم وأسر بعضهم ، وساقهم إلى مصر وباع الأغنام والماعز قهرا للجزارين ، وبيعت الجمال بالرميلة .

وحل عام ١٨٠٨ ، وأولاد على بمنازلهم بالبحيرة ، حيث الاستقرار والعيش الطيب ، ولكن عرب الهنادى والجهنة ذهبوا إلى محمد على ، وأفصحوا له عن

---

(١) الرافعى : الحركة القومية ج ٣ ص ٦١١

ولائهم وطلبوا منه أن يعيدهم إلى منازلهم بالبحيرة ، التي استقر بها أولاد على ، فبعث محمد على معهم شاهين بك الألفى وخشدا شينه (مماليكه) إلى (دمنهور) ، وطردوا أولاد على ، الذين تحركوا إلى (حوش ابن عيسى) ، ودارت رحى القتال ، فانهزم العرب ، ووقع منهم فى الأسر أربعون ، وتركوا أموالهم من الأغنام والجمال ولاذوا بالفرار إلى الفيوم .

وقد شهدت أقلام المؤرخين أن هذا العام كان خرابا فى جميع الأراضى المصرية ، ولكن أولاد على لم يلبثوا غير ستة أشهر ، حتى عادوا فى أكتوبر إلى إقليم البحيرة ، وشاركوا الفلاحين فى الزراعة ، كما كان يفعل الهنادى والجهنة ، وكان الصلح قد تم بين المماليك من أتباع الألفى وبين محمد على ، فتوسط زعيمهم شاهين بك فى الصلح بين الهنادى والجهنة وبين الباشا ، نظرا لصلة المصاهرة ، التى كانت تربطهم بأستاذه الألفى ، ونزل معهم فعلا إلى البحيرة ، وأباح لهم عمرانها كما كانوا قبلا ، وطرد بهم أولاد على ليتمكنوا من البحيرة .

وعرف أولاد على الطريق إلى الباشا فعرضوا عليه ـ بواسطة أحد رجال الدولة ـ مائة ألف ريال ، نظير عودتهم إلى البحيرة ، وطرد الهنادى منها ، فقبل الباشا هذا العرض السخى ، وعلم الهنادى ، فسرعان ما أعلنوها حربا على أولاد على ، وضيقوا عليهم الخناق ، وامتنع أولاد على عن دفع ما سبق أن ارتبطوا به من أموال الدولة ، وحشدوا جموعهم (بحوش ابن عيسى) ، فجرد عليهم محمد على حملة يقودها عمر بك الألفى ، وانضم إليهم الهنادى ، ولكن النصر كان حليف أولاد على ، فقد لقى على أيديهم أكثر من مائة من الدلاة (جنود محمد على) مصرعهم ، ومثل هذا العدد من العثمانيين ونحو خمسة عشر من المماليك .

وبعث محمد على مددا بقيادة نعمان بك إلى الفيوم لمطاردة العرب النازحين إليها من البحيرة ، كما أن محو بك الكبير كاشف البحيرة لم يدخر وسعا فى التنكيل بأهلها ، وألقى القبض على نقيب الأشراف بدمنهور يومذاك وهو السيد حسين ، وأهانه أشد الإهانة ، وصادر أمواله وممتلكاته (١) .

---

(١) ولقد انتقم الله من محو بك الكبير إذ نفاه محمد على إلى أبوقير وصادر أملاكه ، وأنعم ببيته الذى كان بحارة عابدين على محو بك الصغير الأورفلى بما كان فى هذا البيت من الجوارى والخيول والجمال والخيام والأمتعة .

وعاد شاهين بك الألفى إل القاهرة بعد أن تأكد من ارتحال أولاد على عن البحيرة ، ولكنه ما لبث أن خرج فى حملة أخرى فى ٣ فبراير سنة ١٨٠٩ إلى البحيرة ، لأن أولاد على ما زالوا حريصين على منازلهم بالبحيرة ، يفتدونها بأرواحهم ، وفى ٢٦ مايو سنة ١٨١٠ حضر إلى الباشا وفد من مشايخ أولاد على ، ولعلهم كانوا ثمانية لأنه ألبسهم ثمانية شيلان كشميرية ، وأنعم عليهم بمائة وخمسين كيسا .

أما عرب الهنادى فقد انحازوا إلى أمير المماليك يومئذ ، وهو شاهين بك الذى كانت له الكلمة النافذة على طوائف العرب والفلاحين ، كما كان المتحكم فى معظم بلاد البر الغربى والفيوم .

وعمد محمد على إلى الفت فى عضد المماليك ، للخلاص من زعيمهم ، حتى إذا ضرب الراعى تفرقت الخراف ، وقد نجحت مؤامرة محمد على فعلا ، ودب الفشل بين المماليك ، وانفضوا من حول شاهين بك ، طمعا فى الأمانى المعسولة ، التى وعدهم بها محمد على ، وما لبث العرب بدورهم أن خلعوا أنفسهم من المماليك جميعا ، وبهذا مهد محمد على لمذبحة المماليك الكبرى بالقلعة فى ٢ مارس سنة ١٨١١ ، وبعث إلى كشاف الأقاليم (المديرين) لذبحهم أينما وجدوهم ، وهم الذين بعث بهم لتحصيل الأموال باسمه من الأهلين ظلما وعدوانا ، فكان كل يوم تطلع فيه الشمس على القاهرة ، يستقبل رؤس القتلى من المماليك الذين بعث بهم الكشاف .

ثم أدار محمد على وجهه شطر أولاد على بالبحيرة ، فاستقدمهم إلى القاهرة ، ولما مثلوا بين يديه فى ٨ إبريل سنة ١٨١١ فرض عليهم الأموال الباهظة فصبروا ، ثم خلع عليهم الخلع السنية فشكروا ، ثم استبقاهم وأرسل العساكر تنهب نجوعهم ، وتسبى نساءهم ، وتأسر أولادهم ، وتستولى على مواشيهم ، فماذا يفعلون ؟

كظم أولاد على غيظهم ، حتى زحفوا كالأسود الغضاب ، فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨١٢ على الفيوم ، فتصدى لهم حسن أغا الشماشرجى ولكنه وجد نفسه بمن معه أقل من العرب قوة وعددا ، فأسرع الى القاهرة مستنجدا بالباشا ، الذى أمده بحملة كبيرة ، يقودها نائبه (كتخدا بك) ولم يكتف بهذا ، بل لجأ إلى أساليبه المعروفة بالخديعة والدسيسة ، فاستدرجهم حتى قدم إليه كبارهم فأخذ

بعضهم رهائن ، وأنعم على البعض الآخر ثم عين لهم جهات معلومة يسكنونها ولا يجاوزونها بشروط .

وفى سنة ١٨١٣ قرر الباشا غرامة مالية كبيرة على عرب الفوايد بالجيزة ، فأعلنوا التمرد والعصيان ، ولكنه أصدر تعليماته إلى كاشف البحيرة بنهب أموالهم وسبي نسائهم وأولادهم ففعل ، ولم يكن أعيان الصعيد والهوارة أقل نصيبا من التعذيب على يد إبراهيم باشا .

واندلعت الثورة فى ٢ أغسطس سنة ١٨١٥ فى القاهرة ، وطافت المظاهرات بالشوارع هدفها اغتيال الباشا ونهب داره ، وفقد الباشا كل ثقة فى كشاف الأقاليم ، فأرسل أولاده إبراهيم وطوسون وإسماعيل ومعهم فرق الجيش للمحافظة على الأمن .

أما أولاد على فكانوا فريقين سنة ١٨١٧ : فريق مع الباشا وفريق ضده ، وهؤلاء قد انحدروا إلى سيوة ، فجرد عليهم حملة يقودها حسن بك الشماشرجى ، فهزمهم فى بادىء الأمر ، ثم انتصروا عليه ثانية ، وعاد إلى مصر ، فأمده الباشا بعساكر ، وضم إليهم الفريق الآخر من أولاد على ، فانقضوا عليهم ، حتى فتكوا بهم . ورجع حسن بك بمن معه من مشايخ أولاد على المنتصرين ، وبما معه من الغنائم ، فلما مثلوا بين يدى الباشا ، أمر بحبسهم ورد الغنائم إلى الفيوم ، وكان عدد الأغنام أكثر من ١٦ ألف رأس ، والجمال نحو ٨ آلاف ، ولما جىء بهم أطلق سراحهم .

وجرد حملة أخرى فى ١٥ مارس سنة ١٨٢٠ كلف حاكم البحيرة حسن بك الشماشرجى بقيادتها ، وحشد جنوده بها مع طائفة من العرب ، هجم بهم على سيوه من الجنوب ، فاستولى عليها . وعاد فى ١٦ إبريل ، وغنم من أهلها مبلغا كبيرا من المال ، فضلا عن الغرامة التى ألزمهم بها للدولة كل عام ، أما ابراهيم باشا فقد رجع من الفيوم ، ومعه أربعة من كبار العرب بها ، فضرب أعناقهم فى اليوم التالى : اثنان بالرميلة ، والآخران بباب زويلة .

هذا وقد أشار عبد الرحمن الرافعى إلى ميزانية مصر سنة ١٨٣٣ وقال إنها بلغت ٢ مليون جنيه تقريبا ، كان منها ٢٥ ألف جنية أجورا للعربان وحدهم ،

وهذا دليل على أهمية العرب فى هذا الوقت .

ويبدو أن محمد على ـ بمكره ودهائه ـ قد اتخذ خطة للقضاء على عرب البحيرة من حيث لا يشعرون ، ففى سنة ١٨٣٢ أصدر أمره بتشتيت شمل مشايخ عربان الجميعات وأولاد على وكذلك مشايخ عربان الهنادى بالشرقية بخيولهم ، وطلب فى نفس السنة من مأمور دمنهور إرسال ثلثمائة من عربان أولاد علـى مددا لإبرهيم باشا فى حرب الشام .

ولما تمرد عربان غزة سنة ١٨٣٤ لم يجد بدا من كسر شوكتهم بالاستعانة عليهم بأحمد المقرحى شيخ عربان أولاد على والشيخ هنداوى شيخ الجميعات لتجهيز ٢٥٠ من كل قبيلة من العربان فى مدى يومين ، بقصد [محو عربان غزة] كما نص أمر الباشا إلى مدير الأقاليم الوسطى ووعـدهم بمنح كل واحد منهم خمسمائة قرش (بقشيش) ، وأن الباشا [ممنون جدا من مشايخ عربان أولاد على والجميعات من استجابتهم للذهاب مع عربان القبائل بدون مصاريف على الحكومة] واكتفى بأن تصرف لهم الذخائر من المديريات التابعين لهـا . وأمر بترحيلهم فورا إلى غزة رأسا لا إلى القاهرة

مع خلفاء الباشا

كانت حروب محمد على وسيلته الكبرى إلى تحقيق المجد الذى كان يصبو إليه ، وكان العرب فى مصر عنصرا جوهريا فى كسب الانتصارات التى أحرزها وكان قد عرض عليهم الانتظام فى الجيش .

وفى الحرب الوهابية اشترك عرب الهـوارة وأولاد على وفى فتح السودان كان فى جيش إسماعيل عدد كبير من العرب ، وفى حملة إبراهيم إلى عكا مضى عباس حلمى بن طوسون ، بمدد معظمه من العرب والهوارة ، وكان عبـاس الأول يحب النزول على الهنادى بالشرقية ، وطالما استخدمهم فى قتال عرب أولاد على بالبحيرة ، الذين كان لهم ميل نحو عمه سعيد ، وهو الذى شرد عرب المنيا ، عندما دعاهم إلى الانخراط فى الجندية ، فعصوا أمره وقالوا : [نحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد على إلى هذا الحين فلا يصح إدخال أولادنا فى مصـاف العسكر وإذهاب ما بين أيدينا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد] .

واتبع عباس حلمى الثانى مع عربان مصر خطة جديدة ، حتى لا يكونوا شوكة فى حلقه ، فأمر فى سنة ١٨٥٠ بالإنعام عليهم بالأراضى ، وحتم عليهم أن يشتغلوا بزراعتها ، بدون الاستعانة فى ذلك بالفلاحين ، حتى لا يفكروا فى [ارتكاب الجرائم] ، والترجمة الصحيحة لارتكاب الجرائم هنا هى أن يضعوا السلاح ، فيأمن عباس جانبهم ، ومع ذلك كان لهم فى سائر الجهات سيطرة شاملة ، ونفوذ قوى ، فعاثوا بالفساد فى البلاد .

أما سعيد باشا فقد أمر مدير الغربية بعدم السماح لقبائل العربان بالانتقال من مناطقهم إلى مناطق القبائل الأخرى ، وخص بالذكر عربان أولاد على بمديرية البحيرة .

وعلم سعيد بفرار عمر المصرى زعيم العربان إلى الغرب، فجن جنونه ، وتوالت أوامره إلى أقاليم الصعيد ومديرياته . بإبقاء ألف نفر فقط من الجميعات والقوابيص وأولاد على ، وتعيين شيخ على الباقين منهم ، وتكليفهم بمباشرة الزراعة بالجهات المقيمين بها ، وكان تارة يوزع الأسلحة عليهم وتارة أخرى يجمعها منهم ويسلح بها غيرهم ضدهم ، وسلط مدافعه عليهم حتى أفنى منهم الخلق الكثير ، وأمر يعقوب بك مدير بنى سويف فشتت شملهم ، فنزحوا إلى الشام والحجاز ، وأما من نجا بنفسه منهم فقد اختفى فى قرى مصر ، وتزيا بزى العامة والفلاحين ، وعدل عن لهجته ، [وكان الفقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالمتهم فتغير الحال ، والتجأ كبارهم إلى أصغر بيوت الفلاحين] كما يقول صاحب الكافى (١)

أما إسماعيل فقد جردهم أولا من السلاح ، وأمرهم بالاستقرار فى الأقاليم الشمالية وزراعتها ثم أدخلهم فى الجيش ، واشتركوا فى غزو الحبشة ، ولما تولى البارودى رياسة الوزارة ، التمس منه العرب أن يعيد إليهم امتيازاتهم ، التى منحت لهم ، بفرمانات محمد على ، فى نظير خفارة الحدود ، وصد الأعادى فى إغارتهم عليها . فقال لهم : [إن الحكومات السابقة ، قد فصلت فى هذا الأمر ، فلا داعى لتجديد النظر فيه ، ولكنهم صمموا على الامتناع عن التجنيد والسخرة ،

---

(١) حـ ٣ ص ١١٢ .

(ما دامت البادية بادية ونحـــن حارسوها)] ، ولـكن البارودى تلطف معهم وصرفهم برفق .

ومما لا جدال فيه أن عرب البحيرة ، قد انضموا إلى الحـــركة العرابية ، واشتركوا فى معركة كفر الدوار ، حتى كان الصر حليف عـرابى ، فلا عجب إذا صرح كاوت بك عن حقده الدفين ، للعرب المصريين ، حين اقترح (١) إبادتهم نهائياً من البلاد الواقعة تحت سيطرة فرنسا ، على النحو الذى فعله نابليون بهم فى مصر ، وقد حصرهم فى أيام الحملة الفرنسية فى ستين قبيلة : بها مائة ألف نفس، منهم نحو عشرين ألف فارس ، وقد شبههم كاوت بك بالقوزاق فى الجيش ، وحدد دورهم فى الحروب التى اشتركوا فيها بالاستطلاع عند الزحف ومطاردة العدو عند هزيمته والقيام بمناوشته ، [وهم خير من يصلح لهذا] ، على حد تعبيره (٢) ، كما شهد لأولاد على بأنهم أدرى من غيرهم بأسرار صحراء ليبيا ، وكل سائر القبائل أدرى بصحاريها .

الملاحم العربية فى البحيرة

قلنا فى مطلع هذا الفصل إن عرب البحيرة يحفظون ملاحمهم ويتندرون بها ، ومن عجب أنها سجل خالد لتاريخ ما أهمله التاريخ ، فيما بين أيدينا من الـكتب والمراجع ، ومع ذلك يبدو لنا صدقها وأصالتها ، وعـدم الاصطناع فى روايتها ، وفيما يلى يطالع القارىء إحدى هذه الملاحم كما رواهـــا لى الشيخ طاهر الدجن حفيد المرحوم خير الله الدجن شيخ أولاد على ، المقيم الآن قريبا من إدفينا .

كانت قبيلة (الجميعات) مرابطة فى (أبو حمص) ، وكانت قبيلة (الهنادى) صاحبة نفوذ وجبروت فى هذه المنطقة وما حولها · لدرجة أن الهنداوى كان يربط فرسه على باب أية خيمة من بيوت الجميعات ، لتـكون هـــذه إشارة إلى صاحبها بالخروج منها فى الحال ، ليدخل الهنداوى ويبقى ما شاء له أن يبقى ، دون أن يعترضه أحد فيما يرمى إليه .

---

(١) لمحة عامة إلى مصر ﺟ ٢ .

(٢) ﺟ ١ ص ١٧٨ .

لم تستطع الجميعات الوقوف فى وجوه هؤلاء الطغاة . وفى ذات يوم ركب (البقوشى) شيخ الجميعات ، ومضى بفرسه إلى (برقة) ، حتى نزل ضيفاً على (أولاد على) بمنازلهم (بالساقية الحمراء) عند (الجبل الأخضر) ، وكان معه فى هذه السفرة . أحد أتباعه ، كما أنه كان قد وضع فى مخلاة فرسه ثمانياً وأربعين كرة ، نصفها من الذهب والنصف الآخر من الفضة .

ولقى البقوشى عند أولاد على حق الضيافة ، وأقام بينهم عدة أشهر ، وهو المعزز المكرم ، ورآهم يلعبون (السيجة) على الرمال ، بقطع من بعر الجمال ، فأنكر عليهم ذلك ، وأخبرهم أن قطع السيجة عند أفراد قبيلته وسائر القبائل العربية فى مصر من الذهب والفضة ، لا من الأبعار ، وسرعان ما أمر تابعه فأخرجها من المخلاة ، فبهتوا وأخذت منهم الدهشة كل مأخذ .

ظلت هذه الواقعة عالقة فى أذهان أولاد على ، وتناقلتها ألسنتهم ، وتاقت نفوسهم إلى مصر هذه ، وطاروا إليها على أجنحة من اللهفة والخيال ، إلى حيث الجنة والنعيم ، وما لبثوا أن زوجوه إحدى بناتهم ، وعاد بها إلى (أبو حمص) ، فلزمت خباءها لا تبرحه ، كما هى عادة العرب من الحجاب .

وعلم أحد الهنادى بأمر البقوشى وزوجته التى جاء بها من الغرب ، فأبى إلا أن يقتحم عليه منزله ، وكانت الزوجة ترى وتسمع ، من حيث لا يراها أحد ، وداخلها العجب من خنوع زوجها على هذا النحو ، وأنكرت عليه هذا الهوان ، إذا هو اعترض سبيل هذا المتعجرف ، فأخلى له الطريق إلى حرمة الشرف ، ودخل الهنداوى .

وتظاهرت الزوجة بإحضار ماء من بئر قريبة ، وأخذت تستصرخ وتستغيث وقد شقت ثوبها ، وحلت غدائر شعرها ، وهاج الجيران وماجوا .

عندئذ كان ثلاثة من أصهار البقوشى قد وصلوا من بلادهم لزيارة أختهم ، ففاجأهم هذا المنظر الفاجع الذى رأوا فيه أختهم ، واستخبروها فأخبرتهم ، فظل أحدهم معها عند البئر ، ومضى الآخران إلى الخباء ، فوجدوا الهنداوى وهو فى حالة ذعر ، فعاجله أحدهما بضربة من سيفه فأرداه قتيلا ، وركبا راجعين بأختهما إلى برقة .

وروت المرأة لقومها ما عليه الجميعات والهنادى ، وكان حديثها عن خيرات إقليم البحيرة مطابقاً لما كان قد ذكره البقوشى فى رحلته الاولى إلى قومها ، وجاءت الطوائف من أولاد على تنزح من الضبعة ومريوط إلى أبو حمص ، وأدرك الهنادى ما وراء هذه الوفود من خطر على مراكزهم ، وداخلهم الشك فى أمر البقوشى ، فمضوا إليه يستوضحونه الامر ، وصارحوه علانية ، بأنه قد دبر معهم استقدام هذه الجموع إلى أبو حمص ، وأن وراء هذه الحركة خطرا عليهم ، فأقسم لهم أنه ما جمعهم إلا ليكونوا معهم لا عليهم ، فصدقوه فى سذاجة وبلاهة وتركوا البقوشى ومضوا من حيث أتوا ، ولكنهم رأوا أن عدد الوافدين يزداد يوما بعد يوم ، فهالهم الأمر .

وتنازع أولاد على والجميعات ، على فيافى البحيرة ، حول مركز كوم حمادة ، وقامت بينهما حرب طاحنة ، انتصر فيها أولاد على ، وفر الهنادى إلى وسط الدلتا وشرقيها ، وقام أمراء المماليك بالتوفيق بين الطرفين ، وتم الصلح على أساس أن تكون منازل أولاد على فى الغرب من فرع رشيد ، ومنازل الهنادى فى الشرق ، وعلى أن من كان من الهنادى غربا فهو من أولاد على ، ومن كان من أولاد على شرقا فهو من الهنادى ، وبذا حقنت الدماء .

وقد انضم إلى جيش إبراهيم باشا خمسة وعشرون ألفا من أولاد على بزعامة شيخ العرب خير الله الدجن الكبير ، وكان النصر حليف إبراهيم ، فقوى نفوذ أولاد على وعاشوا فى رفاهية سابغة ، وكذلك اشترك أخو خير الله فى حملة طوسون ابن محمد على إلى السودان ، واستشهد هناك .

ولكن عباس حلمى الأول خشى من ازدياد نفوذ أولاد على بعد هذه الانتصارات التى حققوها ، نصمم على كسر شوكتهم ، وأخذ يحرض عليهم (الصفافة) وهم ثمانى قبائل مرابطة بالفيوم ، ومنها طوائف (الباسل) و (الملوم) و (شديد) و (السعدى) وغيرهم ، وأمدهم بالسلاح ، وزحفوا على أولاد على بالبحيرة ، وكانوا على علم بهذه المؤامرة .

وكان على (الصفافى) أن تجمع معها (الجميعات) فى أبو حمص و (العفينات) فى الجيزة ، ولكنها خشيت بأس الحكومة ، فتخلت قبيلة الصفافى عن أولاد على ،

وظلت على الحياد ، تتربص بالفريق المغلوب . لتنقض عليه ، وغاية ماتشتهيه أن تتخلص نهائيا من الهنادى وأولاد على أجمعين .

وذهب خيرالله الدجن ، على رأس أربعين من مشايخ عرب أولاد على ، إلى عباس وأنهى إليه ما تواتر من أنباء المؤامرة التى يدبرها مع الصفاقى ضد أولاد على ، فأنكر فى بادىء الأمر ، ثم ما لبث أن اعترف بعدم رضاه عن سلوكهم ، ولكنه الآن عفا عنهم ، ووعدهم بألا يكون مؤيدا لأحد الطرفين على الآخر ، ولكن خير الله طلب منه أن يأمر الصفاقى بوقف الحشود ، بعد ما تبين له أن الأسلحة التى معهم إنما أمدتهم بها الحكومة ، فاستجاب عباس ، وتصاغر أمام هيبة زعيم أولاد على .

ولم يكد خير الله يدير وجهه ، حتى لقى على باب القصر رحيم البطران ، الذى بدأ يتودد إلى خير الله ويتملقه ، ويبدى له ولاءه لأولاد على ، وهنأ خير الله على سياسته الناجحة ، فرد عليه خير الله بهذه القصيدة :

يامرحبا شيخ (العفينات)	(رحيم) كثير الدباره
وبالك تصدق منامات	حلم ليل يظهر نهاره
نجعك وسبيب (الجميعات)	كما غاب من الكيس باره
إحنا مثلنا فى القرينات	كالموسكو فى النصاره
إحنا لاهت فيه جفلات	يرن ملاعب صغاره
وما نعلمو فيه من مات	على الحول جالنا خباره

فهو بهذا الشعر البدوى يرحب برحيم ويصفه بكثرة التدبير ، ويندد بما كانت قد سولت له نفسه من أحلام كشفتها الحقائق ، ويقول له إن نجعه وخيول الجميعات لا قيمة لها : فهم كأصغر عملة (باره) ضاعت من كيس مال . وهم كالموسكوفيين القياصرة بالنسبة للمسيحيين ، أما أولاد على فهم لا يخافون من هذه الجموع ، وهم لكثرة عددهم فيما بين المغرب والمشرق ، إذا مات منهم واحد ، لا يعلمون خبر وفاته إلا بعد مضى سنة .

وعاد رحيم البطران إلى نجوعه بالجيزة ، وعلت كلمة أولاد على ، وحسنت سيرتهم فى الناس ، وكانوا لذلك يفخرون بأنهم « أهل زناد وبرهان » : الزناد

لأنهم أهـــل منعة وقوة وسلاح ، والبرهان على شرف النسب والحسب ، بينما غيرهم لا زناد له ولا برهان .

ودقت الطبول ، وقامت هنداوية تقول مفاخرة بأخوالها أولاد على ، وقد أفطروا فى رمضان استعدادا للحرب :

قرضنا مع رمضـــان وشى ما قضينـاه (لعلى)
معانا ثمانى صفــوف عليك نور يا (خالى على)

ومعنى ذلك أن قبيـلة الصفانى كانت ثمانيـة صفوف مرابطة بالفيوم استعدادا للقتال مع أولاد على .

وفى غضون هذه الخصومات بدت مظاهر الفخر والهجاء ، فكانوا يقولون :

الـكذب عند (الهداهيد) منهم خدوه (الفواخر)
والخبص عند (الجميعات) هل شاربا بومناخر

والبيت الثانى يشير إلى الفسق الذى يتهمون به قبيـلة الجميعات حتى ظهرت آثاره على مناخرهم الضخمة ، وهم الذين استقروا بأبو حمص .

ولا تزال بأبو حمص إلى الآن بقية صالحة مستنيرة من عرب البحيرة ولا سيما عائلات المصرى ومخيون والزيات وعيسى وشطور ، وهم جميعا لهم من الأعمال الجيدة مالا يتسع له المجال هنا ، وأولاد على فرعان :

١ ـ أولاد على الأبيض : ومنهم أولاد الدجن ، وأولاد السناقرة ، وأولاد خروف ، ومنهم المقرحى ،وأولاد منصور وعلى رأسهم قبيلة كاشيك بأبو المطامير.

٢ ـ أولاد على الأحمر : ومنهم الحرابى وأبو رقيق بالدلنجات وعلى رأسهم قبيلة القنيشات .

ومن أولاد على أيضا : الزغيبات والعزايم ، كما أن من المرابطين لأولاد على بأبو حمص قبائل : الجميعـات وشيخهم البقوشى ، والـكميلات والسنة والموالك وهم مرابطون بيض من ذوى البرهان (الشرف) وكذلك السمالوسى والأمنفـة والقطعانى والهوارة .

وفى ٢١ مايو سنة ١٨٦٧ أباح الأمر العالى للعرب المصريين الانتفاع بزراعة بعض الأراضى البور الحكومية ، على مياه الأمطار للارتزاق منها ، وحرم عليهم

التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو التنازل عن حق الانتفاع الشخصى بها إلى الغير إلا إذا تملكوها بموجب عقد رسمى .

وفى سنة ١٩٢٤ ألغى مجلس الشورى امتيازاتهم التى كانوا يتمتعون بها من عهد محمد على وهى : الإعفاء من الجندية ، ومن القيد فى سجلات المواليد ، ومن الضرائب ، ومن الاحتكام إلى قانون الدولة ، فتوجه سليمان بن خير الله الدجن إلى سعد زغلول رئيس الوزراء وألقى الخطبة الآتية بين يديه :

أيها الأمير ، قصدتك وفود العرب ، تنسل من كل حدب ، لما نالها فى هذا الزمان الطلب ، وهم من سليم بن منصور وتغلب بن وائل ، ومن بنى هاشم الفطاحل ، ومنهم من بدو أفريقيا ، ليعرضوا ظلامتهم نثرا وشعرا ، أما الشعر عندنا فطريقان : طريق الهوى وهو ترقيق وتنميق ، وطريق الغيظ وهو هذا نسوق معانيه فى خشونة قوافيه ، كما نسوق الفنق (الإبل) الغضاب ، نضربها لتصعد الصعاب ، وتنحدر برؤوسها إلى الهضاب ، فاسمع وما إخالك إلا سامع، لما نفهمه فيك أنك أكبر مقارع ، غير هياب فى ظلمات المعامع :

ياعيس إن شط المزار وأبرقت	فى وجهك القفراء والخضراء
وتعثرت طرقاتها وتعثلت	وجرت عليها طمة الإعفاء
ميلى إلى (سعد) العلا وجنابه	تجدين منه ذروة وحماء
رجل عصامى لايناظر فضله	لاتدخره الحجة الجوفاء
واذكرية بفضله وبحزمه	وبأننا لانألف الضيماء
قولى له يا (سعد) إن حماتنا	طالبون منك توضحا وجلاء
هل ترضى يا(سعد)وأنت عميدنا	أن نستذل وتدخل السفراء
ما حالهم جلسوا على أتخاتهم	حتى تناجوا نحونا وتراءوا
هل أكملوا ما كان ينقص مصرنا	لم يبق غير الامتياز فداء
ماذا ترى فى عصبة قد أجمعوا	فى نفسهم حقدا لنا وعداء
نحن يعيرنا (البلاغ)[1] بأننا	قوم على جهل بها وغباء

(١) يقصد صحيفة (البلاغ) التى كان يصدرها عبد القادر حمزه ، وكانت قد عيرت العرب بالجهل بحرب التل الكبير سنة ١٨٨١ م

هل نجهل الحرب التى هى فخرنا ... هل ننسى خدعتها وعظم دهاء
للحرب مجد قد ورثنـــا علها ... من جد يتـــلو جد والآباء
(للتل) لارحنا ولا كنـاسها ... بل كان ماسموهـو (النظماء)
بل فاسأل (النظماء) عندهزومهم ... فى ليـلة ظلمـاء قـل دهماء
لاشىء أزعجهم سوى خلواتها ... والريح تضربهم بذى الوهمـاء
بل كان فى (كنجى) مرابض جيشنا ... هل فيه منفذ تدخل الأعداء
نحن (العلايا) بجدنا متسلسلا ... يبنى إلى (العقـار) فيه بنـاء
أبقى الزمان عوائدا مألوفة ... الضعف يتوى إذ يحك صداء
انظر إلى (شارل) و(تاشفين) ثووا ... فى الشرق و الغرب الجميع سواء
ثلث عروشهم وانثنت بملوكها ... والبغى أنزلهـــا إلى البرحاء
فى (الشام) لما حوصرت أجنادنا ... ودعانا (إبراهيم) للهيجـــاء
قمنا على الجرد القوارح نبتلى ... أغوارها وجبـــالها الوعراء
كم كان فى (السودان) مناضيغم ... لولانا مافتحت ولا صحراء .

وهـذا الشعر شبه المنظوم على ما فيه من عيوب النظم واللغة والقافية ، إنمـا ينم عن عدة أمور لها دلالتها على ما كان لأولاد على (العلايا) من أمجاد ، وهم الذين جدودهم (العقاقرة) ـ نسبة إلى (العقـار) ـ كانت لهم مساهمة فعالة فى حرب الانجليز فى كفر الدوار سنة ١٨٨٢ فى صفوف عرابى ، وفى (كنجى مريوط) ، وهم لم يشتركوا فى (موقعة التل الكبير) التى انهزم فيها العرابيون ومع ذلك انساقت « صحيفة البلاغ » وراء صنائع الخديوى توفيق وعمـلاء الاستعمار للتشنيع على العرب المصريين ، واتهامهم بالخيانة ، وهم من ذلك ـ كما تشهد وقائع التاريخ ـ أبرياء منهـا براءة الذئب من دم (ابن يعقـوب) وهم يفخرون باشتراكهم فى حروب الشـام والسودان ، فكتب لهم النصر ، وهم غير نظـاميين (نظماء) ومع ذلك انتصروا بما توارثوه عن الأجداد من فنون الحرب المسماة (حرب العصابات) ، وتدل هذه المنظومة أيضا على اهتمامهم بتاريخ العرب فى الغرب وحوادث الحرب بين شارل وابن تاشفين .

وابتليت مصر بالاحتلال الانجيزى سنة ١٨٨٢ ، فكان لابد للسلطة الحاكمة

من أن تضع فى حسابها مشكلة العرب فى مصر، لهذا جاء فى تقرير (لورد دوفرين) إلى (لورد جرانفيل) فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ أن قبائل البدو فى مصر نحو أربعين ألف نفس وأنهم قادرون على حمل السلاح ،وأكد التقرير أنهم محتفظون بصفاتهم الحربية ، وأن الحكومة المصرية كانت تحسب لهم ألف حساب ، وقد رأينا أساليب محمد على وخلفائه فى التخلص منهم ، حتى لايكونوا شوكة فى ظهره وظهورهم،وأما الكثيرون منهم فقد طحنتهم الحروب الدامية والذين تبقوا بعدهم، شغلوا بالزراعة وصاهروا الفلاحين ، واندمجوا فيهم بعد عزلة طويلة الأمد ، وخضعوا لسلطة الحكومة ، وفقدوا امتيازاتهم الأولى (١) ، ومع ذلك احتفظوا ولا يزالون يحتفظون بصفات البدو ، من الاعتزاز بالنفس ، والذود عن الكرامة ، والتمسك بأهداب الفضيلة ، والمسارعة إلى إغاثة الملهوف ، وبذل النفس والنفيس .. فى سبيل الخير والحق معا ، وكانت خاتمة المطاف من جهادهم على اختلاف الدول الحاكمة كما يقول المثل « آخر خدمة الغز علقة » .



(١) مذكراتى فى نصف قرن : ج ١ ص ٢٣٣ : أحمد باشا شفيق

٥

كفاح البحيرة

معارك وانتصارات

أرض الثورات

كان إقليم البحيرة ـ منذ آلاف السنين ـ مهد الثورات على اختلاف أنواعها : ثورات على قوى الطبيعة ، ثورات على الغزاة والقراصنة ، ثورات على الظلم والفقر ، ومنذ عرف التاريخ هذا الإقليم ، شهدت البشرية ثورة النيل فى فيضانه على الأرض ، بما عليها ومن عليها ، وثورة البحر على الأرض بما عليها من عليها ، وأهل الإقليم ، بين ثورة النيل وثورة البحر ، فى صراع عنيف من أجل البقاء ، وإلا انقرضت سلالاتهم منذ أقدم العصور .

ومن الطبيعى إذن أن يعلن أهل البحيرة أول ثورة لهم على النيل وعلى البحر ، أما على النيل ، فذلك يوم صنعوا الزوارق لينتقلوا بها وسط الأحراش والأعشاب بحثا عن القوت من نبات أو سمك أو حيوان ، ويوم حفروا فرع رشيد لتصفية مياه الفيضان ، فى مجرى مساعد للفرع الكانوبى الأصيل ، وأما على البحر فذلك يوم أقاموا سدا من الحجارة والتراب فى وجهه ، حتى لا يغمر الأرض المنخفضة ، ويوم أقاموا القناطر على ضفتى النهر وحصنوها بما استطاعوا من قوة ورباط ، وثاروا أيضا على الصحراء الكبرى المترامية الأطراف ، فتصيدوا وحوشها ، وزحفوا على قفارها فوصلوا إليها الماء ليزرعوها ، وإلى أحراش المستنقعات ، فاجتثوها .

حقا إنه صراع عريق بين أهل البحيرة وبين النيل والبحر والبحيرة والوحش والصحراء ، صراع مرير طال أمده ، حتى كتب التاريخ لهم النصر والبقاء فى البحيرة .

وثار أهل البحيرة أيضا على الهواء فى البر والبحر والبحيرات جميعا ، فقد أقاموا طواحين الهواء على التلال العالية ، وركبوا عليها أجنحة لتدور فتطحن الغلال ، وانتصروا على الرياح ، فركبوا للزوارق أشرعة تمتلىء بالهواء لتدفعهم إلى حيث يريدون فى البحر والبحيرات .. كلها ثورات عاشتها البحيرة .. أرض الثورات .

أول ثورة على الملكية

لولا « لوحة نارمر » لضاعت معالم حياة إقليم البحيرة قبل عصر الأسرات ، فقد كشفت لنا هذه اللوحة ، عن أول ثورة فى العالم ، لا فى مصر وحدها ، أول ثورة شعبية على النظام الملكى ، ثورة الديمقراطية على الدكتاتورية ، ثورة أول نظام نيابى . على نظام الحكم المطلق ، ثورة الاستغلال على التبعية ، ثورة الحكم المحلى على الحكم الشامل ، ثورة اللامركزية فى المقاطعة ، على المركزية فى الدولة ثورة الحرية على الاستبداد .

ذلك أن الملك (مينا) منذ خمسة آلاف سنة ، تقدم بجيشه من (طينه) بالصعيد نحو الشمال ، لتوحيد الوجهين القبلى والبحرى ، وضمها تحت تاج واحد ، غير أن سكان إقليم البحيرة ، أعلنوا الثورة فى وجهه ، ولم يقبلوا الانضواء تحت لوائه ، فهو (صعيدى) وهم (بحاروة) ، ثم هو ملك وهم شعب ، شعب يتمثل فى (مجلس العشرة الكبار) ، لقد أعلنوها ثورة على الملكية ، أول ثورة قامت بها مقاطعة ميتليت Metelite الواقعة فى الجزء الشمالى من إقليم البحيرة ، وهو أسرع أجزاء الإقليم نحو الحضارة ، حيث كان المهد الأول للديمقراطية الأولى فى العالم .

لقد سجل الملك مينا أو (نارمر) انتصاره على (العشرة الكبار) ، ولكن كفى البحيرة فخرا أنها كانت أول إقليم فى العالم رفع لواء الثورة ، باسم الشعب ، إن مقاطعة ميتليت التى عاصمتها ميتليس بطلمية فى تسميتها ، وهذا لا يمنع من أنها أقدم من العصر البطلمى بكثير .

دماء.. على «الكانوبى»

وشهد الفرع الكانوبى قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام بنحـــو ١٦٠ سنة فصلا رائعا من «الثورة المصرية» الخالصة على الحكم البطلمى ، الذى ضج منه المصريون،وضاقوا به ذرعا،وحمل لواء الزعامة شاب مصرى هو (ديونيسيوس بيتوزارابيس Dionisius Petosarapis)وبدأت الثورة من الإسكندرية ،وهى يومئذ عاصمة مصر ، والمعسكر الأول لجيوش البطالمة ، تلك الجيوش المتجمعة من عناصر شتى : يونانية ومرتزقة . ومالبث زعيم الثورة أن تقهقر إلى (إيلوزيس Eulosis) مكانها الآن (المنـــدرة) شرق اسكندرية ، وهناك انضم إلى صفوفه أربعة آلاف من الثوار.ومع ذلك لم يستطع الصمود فى وجه البطالمة،ولاذ بالفرار نحو الشرق ، فاضطر هـــو ورجاله إلى عبور الفرع الكانوبى سباحة ، وشوهد (ديونيسيوس) عارى الجسد ، وقد انفض من حوله أتباعه ، وقتل معظمهم . وسارهو بفلول جيشه نحو الصعيد، لكى يلهب نار الحماسة فى المصريين،ويحرضهم على حكم البطالمة الأجانب الذين تولوا زمام أمورهم ، وهم الذين لايرتضون بغير «السيادة الكاملة» بديلا .

ومن حق التاريخ أن يسجل هذه المعركة التى تعتبر بحق إحـــدى حركات المقاومة المصرية فى عهد البطالمة (١) شهد إقليم البحيرة أحداثها ووقائعها .

البحيرة .. مقبرة الرومان

استهل القرن السابع الميلادى، والدولة الرومانية كالشمس آخذة فى الغروب، وبلغ الامبراطور (هرقل الأكبر) من العمر أرذله،فألقى بزمام الحكم إلى ولده الصغير ، وكان يسمى (هرقل) أيضا ، وجعل (نيكتاس) نائبا عنه .

وكانت مصر منذ سنة ٦٠٢ م فى قبضة القائد الرومانى (فوكاس) . وقدصمم (نيكتاس) على أن ينتزعها من يده ، فجرد حملة أخذت طريقها فى الهجوم عـــلى الإسكندرية ، من جهة الغرب بمحاذاة الساحل ، وقبل أن يصلها ، مر (بمريوط) الغنية بخيراتهـــا ، واستمال إليه حاكمها ، وهو يومئذ موظف تابع لحـــاكم إقليم الاسكندرية .

---

(١) حركات المقاومة الوطنيه فى مصر البطالمة : الدكتور محمد عواد حسين .

وفى نفس الوقت قدم جيش الامبراطور من (بيزنطة) إلى الاسكندرية ومنوف وأتريب (بنها) ، وكذلك تحرك جيش من سوريا باستدعاء الامبراطور. الذى أمر (بنوسوس) بالزحف منها على مصر .

كان جيش (نيكتاس) قاب قوسين أو أدنى من غـرب الاسكندرية ، واستسلمت له المدن المجاورة لهـا مثـل (كبسين) وسقط فى يديه حصن (كرسونيسوس) .

وما لبث أن بعث بعض رجاله ، للتحريض على الثورة ضد (فوكاس) ، فى المنطقة التى على جانبي (ترعة الثعبان) ، ووقعت الواقعة ، ودخل (نيكتاس) من (باب القمر) وهو الباب الغربى للمدينة ، وفر حاكمها ، وعمت الفوضى أرجاء الوجـه البحرى فسقطت (نقيوس) وهى الآن (شبشير) (١) و (منوف) وتمردت (أتريب) و (سبنتيس) التى تعرف اليوم باسم (سمنود) .

أما (بونوسوس) فقد أرسل جيشين ، ركبـا السفن من البحر ، عبر فرعى الدلتا ، حتى وصل إلى (أتريب) وركب منها إلى (منوف)، وانتصر على خصمه فى (نقيوس) ، وصـار الوجه البحرى ، فى قبضة يده . غير أن الثوار سارعوا إلى الاسكندرية ، رافعين علم الثورة على الحكم البيزنطى، وكان بها يومئذ (نيكتاس) على استعداد للقاء عدوه ، فسار إليه (بونوسوس) برا حتى نزل (مومفيس) التى هى (شبرا دمنهور) ، ومنهـا إلى (دمكاروني) أى مدينـة (الكريون) ، فلما بلغ الجانب الشرقى من الاسكندرية ،نزل بجيشه تحت أسوارها الحصينة .

وخرج (نيكتاس) للقائه من (باب أون) أى باب الشمس وهـو الباب الشرقى من أبواب (المدينة الكبرى) كما كانت تسمى فى هذا الوقت ، وتقدمت الجيوش الامبراطورية نحو المدينة ، فبادرتها المجانيق من فوق الاسوار ، وتمزق جيش (بونوسوس) وارتد إلى (الكريون) عبر الترعة ، حتى وصل إلى الفرع الغربى للنيل ؛ حتى بلغ (نيقيوس) حيث استرد أنفاسه ، ثم سلك ترعة أخرى تسمى(ترعة الروجاشات) إلى(مريوط) ثم(ترعة الثعبان) التى فى غرب الاسكندرية

---

(١) وتقع على الصفة اليسري للنيل قريبا من التحـام (ترعة فرعون) بالنيل وهى التى تربط فرعى الدلتا بين أتريب ومنوف .

فأمر (نيكتاس) بهدم القنطرة التى عند (دفاشير) بالقرب من مريوط ، ولكن (بونوسوس) سار فى البر إلى (دفاشير) وأمعن فى أهلها قتلا وذبحا ، ثم عاد أدراجه إلى (نقيوس) ليحتمى بها .

وسار (نيكتاس) إلى (مريوط) وسيطر عليها وعلى الإقليم كله ،كما سيطر على ضفتى فرع النيل الغربى بما على جانبية من المدن والقرى ، ومضى إلى (نقيوس) تحت ستار من الظلام ، وهجم على (بونوسوس) فى عقر داره ، حتى مزق شمله، ولاذ بالفرار إلى (أتريب) ثم (سايس) ، وظل هائما على وجهه حتى وصل إلى فلسطين ، وبهذا وطد (بونوسوس) لهرقل فى مصر، بعد هذه الوقعة الحاسمة التى تعرف فى (ديوان بسكال) باسم « ثورة أفريقا و الإسكندرية » ، تلك الثورة التى بدأت تزحف من ساحل شمال أفريقية على الإسكندرية . ودامت حوادثها بضعة أسابيع من نوفمبر سنة ٦٠٩ ميلادية ، ويرجع الفضل فى سرد تفاصيلها إلى (حنا النقيوسى) .

ومن ذلك الوقت ، أقام (نيكتاس) بالإسكندرية نائبا عن (هرقل) فى حكم مصر ، وفى عهده لقى أقباط مصر ما كانوا ينشدونه من حرية العبادة ، وبناء الكنائس والأديرة ، لقاء ما قدموه لنيكتاس من عون ، فى حربه الطاحنة، التى جرت وقائعها على أرض البحيرة .

البحيرة . . وشاهين الفارسى

زحفت جيوش الفرس على الشام ، وأمعنت فيها فسادا ، ومن هناك سار القائد الفارسى (شاهين) إلى مصر فى خريف سنة ٦١٦ م ، وسلك الطريق الذى اتبعه من قبله قمبيز والإسكندر ومر بالعريش والفرما ومنفيس حتى وصل إلى (نقيوس) . ومن ثمت سار فى (الفرع البولبيتينى) وهو فرع رشيد حتى استولى على الاسكندرية ، ومصر كلها وليبيا إلى حدود إثيوبيا .

وتحت أسوار الاسكندرية ، توقفت جيوش (شاهين)،وعاث الفرس فسادا فى أديرة الأقباط ومكتباتها الكائنة شرقى المدينة وغربيها ، واستولى الفرس على الترعة التى تخترق المدينة وتصلها بالبحر ـ بحيلة ماكرة ـ وبهذا تمكنوا من امتلاك مفاتيح

الإسكندرية ، وبعث بها شاهين إلى كسرى فى أول عام ٦١٨ م ، وظل الفرس يحكمون البلاد ، حتى شغلتهم عنها حروبهم مع الروم فى الشرق . فاضطروا إلى الجلاء سنة ٦٢٧ م

وعمل الأقباط على استعادة سيطرة الرومان على مصر ، وصار (قيرس) بطريرك الإسكندرية سنة ٦٣١ م ، وهو الذى سماه العرب فيما بعد (المقوقس) عظيم القبط من قبل الروم .

وقد اقترن حكمه بالإقطاع والاستبداد ، ولقى المصريون منه كل أذى ، وقد أفرد (ألفرد بتلر A. Butler) عدة صفحات من كتابه (فتح العرب لمصر) للتدليل على فضائح حكمه ومظاهر ظلمه ، فإذا صح ذلك ، استطعنا أن نصدق بسهولة ما رواه ابن عبد الحكم عن امرأة المقوقس التى كانت تملك منطقة الكروم التى أمرت بكسر البحر لإغراقها على المزارعين حتى صارت (بحيرة إدكو) .

ولما كان العام التاسع عشر للهجرة (سنة ٦٤٠ م) مضى عمرو بن العاص إلى فتح مصر ، وقد سلك الطريق الذى سار فيه الرومان والفرس من قبله ، وكانت البحيرة فى جميع هذه الحوادث ميدان المعركة الفاصلة ، وعلى أرضها ارتفعت ألوية النصر منذ أربعة عشر قرنا ، إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله ، فإن (موقعة الكريون) كما سنرى فى الصفحات التالية ستسجل انتصار المبادىء الإسلامية ، واندحار المجادلات البيزنطية ، وسيكون للبحيرة دور جليل فى التاريخ الإسلامى العام ، ولا سيما فى « الفتنة الكبرى » بين الإمام على الخليفة الرابع للمسلمين ، وبين الأمويين ، المطالبين بدم سلفه الشهيد عثمان الخليفة الثالث.

البحيرة قنطرة الاسلام (١)

كان يوم ٩ إبريل سنة ٦٤١ م (عام ٢٠ هـ) بداية انطلاقة هائلة للمسلمين نحو الهدف الذى قادهم من أجله عمرو بن العاص إلى مصر ، ففى هذا اليوم انتهى

---

(١) اعتمادنا فى هذا الفصل على مصادر الفتح الإسلامى لمصر مجتمعة فى أقوال ومؤلفات البلاذرى والواقدى وابن عبد الحكم والكندى والمقريزى وياقوت وكاترمير وبتلر وعكوش.

الحصار الذى ضرب به على (حصن باب ليون) لمدة سبعة أشهر ، وبعدها ركب عمرو بخيله عبر الصحراء يريد الإسكندرية ، والتحم مع الروم فى (ترنوط) التى تسمى الآن (الطرانة) فانتصر عليهم ، ومضى إلى مدينة (نقيوس) التى عرفنا أهميتها فى الأحداث السابقة ، فى وقائع (نيكتاس) و (شاهين) ، وكان بها حصن منيع ، وأقام بها عمرو بضعة أيام حتى سلمت يوم ١٣ مايو ، وتشتت شمل السفن الرومانية ،وتقهقر القائد الرومانى (تيودور) بجيشه إلى الإسكندرية، ثم عبر النيل إلى الضفة الغربية ، ومن هناك بعث (شريك بن سمى) ليقضى على فلول الجيش الرومانى المهزوم .

وفى هذا الوقت ، كان إقليم البحيرة كثير الترع ، متعدد القنوات والمستنقعات فركب عمرو بخيله ليتفادى كل مكان دهس .

وكان (شريك) قد سبق ، وسرعان ما أدركته إمدادات ، بعث بها إليه عمرو مع (مالك بن ناعمة الصدفى) وكان يعرف بصاحب الفرس الأشقر المسمى (أشقر صدف) لأنه كان فرسا لا يجارى ، وأدركه الروم عند قرية تقع فى شمال (الطيرية) بين (إمبابة) و (إيتاى البارود) ، فاعتصم بكوم هناك فأحاط به العدو فى حركة التفاف ناجحة ، ولكن سرعان ما انقض (مالك) عليهم بفرسه من أعلى الكوم ، وأسرع الروم من خلفه فلم يدركوه ، ونجا منهم بأعجوبة ، على كثرة ما لديهم من العدد والعدة ، وسمى هذا المكان (كوم شريك) باسم (شريك) الفارس المغوار ، الذى أسرع إلى معسكر القائد العام عمرو بن العاص ليخبره بما جرى فى (كوم شريك) .

وسار عمرو بمحاذاة الترعة التى تلى الصحراء فى اتجاه الشمال الغربى ، حتى وصل الى (الدلنجات) ، ومضى فى طريقه حتى اعترضته حامية الروم عند (سنطيس) أو (سلطيس) وهى فى جنوب (دمنهور) بسبعة كيلو مترات ، وهناك درات المعركة ، وانتصر المسلمون ، ولاذ الروم بالفرار ، واستمر عمرو فى زحفه نحو (دمنهور) فبدد بها شمل العدو ، واتجه إلى الأسكندرية ، وكانت ترعة الأسكندرية يومئذ قد نضب ماؤها ، فعبرها دون مشقة ، وقطع مسافة عشرين ميلا ، حتى بلغ (حصن الكريون) ، وكان الروم قد تحصنوا به ، وآووا

إلى ظله ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وكأنهم يتساءلون : ماذا يحدث إذا سقط (حصن الكريون) فى أيدى العرب ؟

٥

تقع (الكريون) على الضفة اليمنى من ترعة الأسكندرية واشتهرت فى العصر الرومانى بوجود محطة لنقل الغلال عندها من إقليم البحيرة إلى الإسكندرية ، عبر ترعتها وكانت أيضا تهيمن على هذه الترعة ، باعتبارها الشريان الأصلى للحياة الاقتصادية بالنسبة للاسكندرية . وفضلا عن هذا كله ، كانت آخر معقل للرومان من السلسلة الطويلة الممتدة من الحصون والقلاع مابين (باب ليون) و (الإسكندرية) .

وكان الرومان قد أسرعوا بترميمات حصون الكريون ، ومع ذلك كانت أقل مناعة من حصون (نقيوس) و (باب ليون) ، ولم يجد (تيودور) القائد الرومانى بدآ من الاعتصام بها من زحف المسلمين نحوهم ، وهناك توالت الإمدادات من (بيزنطة) ، كما بعث الأقباط بالمعونة من (خيس) و (سخا) و (بلهيب) التى هى (دبى) و (سنطيس) .

وعند (الكريون) دارت رحى القتال ، وحمى الوطيس ، بضعة عشر يوما ، وصمد جيش المسلمين ، بقيادة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد أيده أبوه بحامل اللواء (وردان) ، ويومئذ كان المسلمون اثنى عشر ألفا ، يواجهون حامية من الروم ، لا يقل عددها عن خمسين ألفا .

وأصيب عبد الله بجراح خطيرة ، فطلب من (وردان) مولى أبيه أن يتقهقر قليلا إلى الوراء ، فعرف (وردان) أنه يستبقى الحياة فسأله مستنكراً ، وأجابه مشجعاً ، حيث قال : الروح تريد ؟ الروح أمامك وليس خلفك .

وعلم عمرو بالخبر : فأرسل يسأل عن ابنه ، غير أن عبد الله - إزاء الإيمان بالموت فى سبيل الله — أظهر الشجاعة فى رده على أبيه ، مستشهداً بقول (ابن الإطنابه) :

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك تحمدى أو تستريحى

فقال عمرو : إنه ابنى حقا .

وأقبل (وردان) على القتال ، ومعه عبد الله متكئا على جراحه ، حتى صار فى الشهداء .

تأخر عمرو فى فتح الإسكندرية ، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يؤنبه على هذا التأخير ، وعقد اللواء لعبادة بن الصامت ، وصلى عمرو بالمسلمين صلاة الخوف ، ثم قام بهم إلى ساحة الخلود ، بين (الطرانة) و (الكريون) ، وخطب فيهم وقال : [سيروا على بركة الله ، فمن ركز منكم رمحاً فى دار ، فهى له ولبنى أبيه من بعده] والتحم الفريقان ، حتى فتح الله عليه (الكريون) ، ولم تعد أمامه عقبة فى الاستيلاء على (المدينة الكبرى) . . الإسكندرية .

تقهقر الروم إلى الأسكندرية . . ونزل المسلمون ما بين (حلوة) و (قصر فارس) شرقا ، وإلى ماوراء ذلك ، وكان الأقباط يناصرون الروم ، ويمدونهم بالمؤنة ، فأقاموا شهرين ، حتى تحول عمرو منها إلى (المقس) ، فخرجت عليه الخيول من ناحية البحيرة ، متسترة بالحصن وجرى القتال عنده عنيفا ، حتى قتل فى (كنيسة الذهب) اثنا عشر رجلا من المسلمين .

المسلمون الآن عند (الكريون) لا يبرحونها : فقد خلا لهم الطريق بعدها إلى الأسكندرية ، فمضى إليها عمرو بين بساتين الكروم وأشجار النخيل والكنائس والأديرة المنتشرة بأرباضها ، حتى وصل إلى أسوارها فحاصرها حتى سلمت مفاتيحها فى نوفمبر سنة ٦٤١ م ، وأبرم عمرو عقد الصلح مع (المقوقس) كبير الأقباط ، والحاكم العام باسم الروم فى الأسكندرية ، وجعل (وردان) واليا عليها ، ثم سار عمرو من (الكريون) نحو الشرق ، على ضفاف النيل فى (الحوف الغربى) وهو الاسم الذى أطلقه العرب على إقليم البحيرة ، حتى وصل إلى (إخنا : إدكو حاليا) وهى غير بعيدة عن الأسكندرية ، فضرب الحصار حولها حتى اضطر حاكمها (طلما) إلى التسليم بعد وقوع عدد كبير من أهلها فى أسر المسلمين ، فأرسلهم عمرو إلى الخليفة ، وعرض الإسلام عليهم فأسلموا ، وأقبل (طلما) متوسلا إلى عمرو أن يخفف الجزية فأشار إلى كنيسة مجاورة وقال : [لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم] وتم الصلح ، كما تم

مع (قزماس) أو قزمان حاكم رشيد و (حنــا) حاكم البرلس ، حتى وصل المسلمون إلى دمياط ، وبهذا تم استيلاؤهم عـلى منافذ النيل على البحر . . بحر الروم ، الذى سيصبح بعد هـذه الموقعة بحيرة إســلامية ، ومن ثم فقدت الإسكندرية مكانتها كعاصمة لمصر بعد أن وقع اختيار عمرو على (الفسطاط) فجعلها العاصمة .

وكانت (سنطيس) و (مصيل) و (بلهيب) قد أعانت الروم على الفاتحين فصدر أمر الخليفة ـ بعد أن علم بذلك ـ بجعل هذه القرى ذمــة للمسلمين ، وضرب الخراج على أهلها .

وفى عام ٢٥ للهجرة ، أرسل هرقل جيشا من القسطنطينية (بيزنطة) يقوده (مانويل الخصى) بغية استرداد مصر من أيدى المسلمين ، وعاث الروم فسادا فى القرى المجاورة للاسكندرية من إقليم البحيرة ، وعنـدما خف جيش عمرو لصد هـذه الحمـلة الفاشلة عن الإسكندرية ، أمر بتخريب القرية التى اختطفت (وردان) ، وأخرج أهلها منها ، وقيل إنهم قتلوا المشاة من جيش عمرو بعد وصوله إلى (الكريون) ، فبعث إليهم (وردان) فأمعن فيهم تقتيــلا ، وفى بيوتهم تخريبا ، لهذا سميت (خربة وردان) .

وتفرق الصحابة بعد الفتح فى الإسكندرية وأمسوس ودمياط ورشيد وبلبيس وأرسل عمرو كتـابا الى الخليفـة يحمله عامر بن لؤى يخـبره بفتح « مريوط والإسكندرية ودمياط وفوه والمحلة ودمـيرة وسمنود وجرجا ودمنهور وإبيـار والبحيرة » (١)

وعرفت الأماكن التى اختطها المسلمون بأسمائهم فكانت (لخم) بالاسكندرية (وخزاعة) بأبو قير(٢)ووادى هبيب (وادى النطرون) باسم هبيب بن مغفل(٣) وانطوى آخر عـلم للرومان فى مصر ، بل فى الشرق كلـه ، ولم يـكتب له أن

---

(١) فتوح الشام : الواقدى جـ ٢ ص ٩٥

(٢) الإلمام : النويرى السكندرى

(٣) أخبار من نواحى مصر : أبو صالح الأرمنى

وروت المرأة لقومها ما عليه الجميعات والهنادى ، وكان حديثها عن خيرات إقليم البحيرة مطابقاً لما كان قد ذكره البقوشى فى رحلته الاولى إلى قومها ، وجاءت الطوائف من أولاد على تنزح من الضبعة ومريوط إلى أبو حمص ، وأدرك الهنادى ما وراء هذه الوفود من خطر على مراكزهم ، وداخلهم الشك فى أمر البقوشى ، فمضوا إليه يستوضحونه الأمر ، وصارحوه علانية ، بأنه قد دبر معهم استقدام هذه الجموع إلى أبو حمص ، وأن وراء هذه الحركة خطرا عليهم ، فأقسم لهم أنه ما جمعهم إلا ليكونوا معهم لا عليهم ، فصدقوه فى سذاجة وبلاهة وتركوا البقوشى ومضوا من حيث أتوا ، ولكنهم رأوا أن عدد الوافدين يزداد يوما بعد يوم ، فهالهم الأمر .

وتنازع أولاد على والجميعات ، على فيافى البحيرة ، حول مركز كوم حمادة ، وقامت بينهما حرب طاحنة ، انتصر فيها أولاد على ، وفر الهنادى إلى وسط الدلتا وشرقيها ، وقام أمراء المماليك بالتوفيق بين الطرفين ، وتم الصلح على أساس أن تكون منازل أولاد على فى الغرب من فرع رشيد ، ومنازل الهنادى فى الشرق ، وعلى أن من كان من الهنادى غربا فهو من أولاد على ، ومن كان من أولاد على شرقا فهو من الهنادى ، وبذا حقنت الدماء .

وقد انضم إلى جيش إبراهيم باشا خمسة وعشرون ألفا من أولاد على بزعامة شيخ العرب خير الله الدجن الكبير ، وكان النصر حليف إبراهيم ، فقوى نفوذ أولاد على وعاشوا فى رفاهية سابغة ، وكذلك اشترك أخو خير الله فى حملة طوسون ابن محمد على إلى السودان ، واستشهد هناك .

ولكن عباس حلمى الأول خشى من ازدياد نفوذ أولاد على بعد هذه الانتصارات التى حققوها ، فصمم على كسر شوكتهم ، وأخذ يحرض عليهم (الصفافة) وهم ثمانى قبائل مرابطة بالفيوم ، ومنها طوائف (الباسل) و (الملوم) و (شديد) و (السعدى) وغيرهم ، وأمدهم بالسلاح ، وزحفوا على أولاد على بالبحيرة ، وكانوا على علم بهذه المؤامرة .

وكان على (الصفافى) أن تجمع معها (الجميعات) فى أبو حمص و (العفينات) فى الجيزة ، ولكنها خشيت بأس الحكومة ، فتخلت قبيلة الصفافى عن أولاد على ،

وظلت على الحياد ، تتربص بالفريق المغلوب . لتنقض عليه ، وغاية ماتشتهيه أن تتخلص نهائيا من الهنادى وأولاد على أجمعين .

وذهب خيرالله الدجن ، على رأس أربعين من مشايخ عرب أولاد على ، إلى عباس وأنهى إليه ما تواتر من أنباء المؤامرة التى يدبرها مع الصفافى ضد أولاد على ، فأنكر فى بادىء الأمر ، ثم ما لبث أن اعترف بعدم رضاه عن سلوكهم ، ولكنه الآن عفا عنهم ، ووعدهم بألا يكون مؤيدا لأحد الطرفين على الآخر ، ولكن خير الله طلب منه أن يأمر الصفافى بوقف الحشود ، بعد ما تبين له أن الأسلحة التى معهم إنما أمدتهم بها الحكومة ، فاستجاب عباس ، وتصاغر أمام هيبة زعيم أولاد على .

ولم يكد خير الله يدير وجهه ، حتى لقى على باب القصر رحيم البطران ، الذى بدأ يتودد إلى خير الله ويتملقه ، ويبدى له ولاءه لأولاد على ، وهنأ خير الله على سياسته الناجحة ، فرد عليه خير الله بهذه القصيدة :

يامرحبا شيخ (العفينات)	(رحيم) كثير الدباره
وبالك تصدق منامات	حلم ليل يظهر نهاره
نجعك وسيب (الجميعات)	كما غاب من الكيس باره
إحنا مثلنا فى القرينات	كالموسكو فى النصاره
إحنا لاهت فيه جفلات	يرنن ملاعب صغاره
وما نعلمو فيه من مات	على الحول جالنا خباره

فهو بهذا الشعر البدوى يرحب برحيم ويصفه بكثرة التدبير ، ويندد بما كانت قد سولت له نفسه من أحلام كشفتها الحقائق ، ويقول له إن نجعه وخيول الجميعات لا قيمة لها ، فهم كأصغر عملة (باره) ضاعت من كيس مال . وهم كالموسكوفيين القياصرة بالنسبة للمسيحيين ، أما أولاد على فهم لا يخافون من هذه الجموع ، وهم لكثرة عددهم فيما بين المغرب والمشرق ، إذا مات منهم واحد ، لا يعلمون خبر وفاته إلا بعد مضى سنة .

وعاد رحيم البطران إلى نجوعه بالجيزة ، وعلت كلمة أولاد على ، وحسنت سيرتهم فى الناس ، وكانوا لذلك يفخرون بأنهم « أهل زناد وبرهان » : الزناد

لأنهم أهـــل منعة وقوة وسلاح ، والبرهان على شرف النسب والحسب ، بينما غيرهم لا زناد له ولا برهان .

ودقت الطبول ، وقامت هنداوية تقول مفاخرة بأخوالها أولاد على ، وقد أفطروا فى رمضان استعدادا للحرب :

قرضنا مع رمضـــان — وشى ما قضيناه (لعلى)
معانا ثمانى صفـــوف — عليك نور يا (خالى على)

ومعنى ذلك أن قبيلة الصفافى كانت ثمانية صفوف مرابطة بالفيوم استعدادا للقتال مع أولاد على .

وفى غضون هذه الخصومات بدت مظاهر الفخر والهجاء ، فكانوا يقولون :

الكذب عند (الهداهيد) — متهم خدوه (الفواخر)
والخبص عند (الجميعات) — هل شاربا بومناخر

والبيت الثانى يشير إلى الفسق الذى يتهمون به قبيلة الجميعات حتى ظهرت آثاره على مناخرهم الضخمة ، وهم الذين استقروا بأبو حمص .

ولا تزال بأبو حمص إلى الآن بقية صالحة مستنيرة من عرب البحيرة ولا سيما عائلات المصرى ومخيون والزيات وعيسى وشطور ، وهم جميعا لهم من الأعمال المجيدة مالا يتسع له المجال هنا ، وأولاد على فرعان :

١ ـ أولاد على الأبيض : ومنهم أولاد الدجن ، وأولاد السناقرة ، وأولاد خروف ، ومنهم المقرحى ،وأولاد منصور وعلى رأسهم قبيلة كاشيك بأبو المطامير.

٢ ـ أولاد على الأحمر : ومنهم الحرابى وأبو رقيق بالدلنجات وعلى رأسهم قبيلة التنيشات .

ومن أولاد على أيضا : الزغبيات والعزايم ، كما أن من المرابطين لأولاد على بأبو حمص قبائل : الجميعات وشيخهم البقوشى ، والكميلات والسننة والموالك وهم مرابطون بيض من ذوى البرهان (الشرف) وكذلك السمالوسى والأمنفة والقطعانى والهوارة .

وفى ٢١ مايو سنة ١٨٦٧ أباح الأمر العالى للعرب المصريين الانتفاع بزراعة بعض الأراضى البور الحكومية ، على مياه الأمطار للارتزاق منها ، وحرم عليهم

التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو التنازل عن حق الانتفاع الشخصي بها إلى الغير إلا إذا تملكوها بموجب عقد رسمي .

وفي سنة ١٩٢٤ ألغى مجلس الشورى امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها من عهد محمد علي وهي : الإعفاء من الجندية ، ومن القيد في سجلات المواليد ، ومن الضرائب ، ومن الاحتكام إلى قانون الدولة ، فتوجه سليمان بن خير الله الدجن إلى سعد زغلول رئيس الوزراء وألقى الخطبة الآتية بين يديه :

أيها الأمير ، قصدتك وفود العرب ، تنسل من كل حدب ، لما نالها في هذا الزمان الطلب ، وهم من سليم بن منصور وتغلب بن وائل ، ومن بني هاشم الفطاحل ، ومنهم من بدو أفريقيا ، ليعرضوا ظلامتهم نثرا وشعرا ، أما الشعر عندنا فطريقان : طريق الهوى وهو ترقيق وتنميق ، وطريق الغيظ وهو هذا نسوق معانيه في خشونة قوافيه ، كما نسوق الفنق (الإبل) الغضاب ، نضربها لتصعد الصعاب ، وتنحدر برؤوسها إلى الهضاب ، فاسمع وما إخالك إلا سامع ، لما نفهمه فيك أنك أكبر مقارع ، غير هياب في ظلمات المعامع :

ياعيس إن شط المزار وأبرقت	في وجهك القفراء والخضراء
وتعثرت طرقاتها وتعثلت	وجرت عليها طمة الإعفاء
ميلي إلى (سعد) العلا وجنابه	تجدين منه ذروة وحماء
رجل عصامي لايناظر فضله	لاتدخره الحجة الجوفاء
واذكريه بفضله وبحزمه	وبأننا لانألف الضيماء
قولي له يا (سعد) إن حماتنا	طالبون منك توضحا وجلاء
هل ترضى يا(سعد) وأنت عميدنا	أن نستذل وتدخل السفراء
ما حالهم جلسوا على أتخاتهم	حتى تناجوا نحونا وتراءوا
هل أكلوا ما كان ينقص مصرنا	لم يبق غير الامتياز فداء
ماذا ترى في عصبة قد أجمعوا	في نفسهم حقدا لنا وعداء
نحن يعيرنا (البلاغ)(١) بأننا	قوم على جهل بها وغباء

(١) يقصد صحيفة (البلاغ) التي كان يصدرها عبد القادر حمزه ، وكانت قد عيرت العرب بالجهل بحرب التل الكبير سنة ١٨٨١ م

هل نجهل الحرب التى هى فخرنا ... هل ننسى خدعتها وعظم دهاء
للحرب مجد قد ورثنـــا علمها ... من جد يتـــلو جد والآباء
(للتل) لارحنا ولا كنـا بها ... بل كان ماسموهـو (النظماء)
بل فاسأل (النظماء) عندهزومهم ... فى ليـلة ظلـاء قـل دهماء
لاشىء أزعجهم سـوى خلواتها ... والريح تضربهم بذى الوهماء
بل كان فى (كنجى) مرابض جيشنا ... هل فيه منفذ تدخل الأعداء
نحن (العلايا) مجدنا متسلسلا ... ينمى إلى (العقـار) فيه بناء
أبقى الزمان عوائدا مألوفة ... الضعف يقوى إذ يحك صداه
انظر إلى (شارل) و (تاشفين) ثووا ... فى الشرق و الغرب الجميع سواء
ثلث عروشهم وانثنت بملوكها ... والبغى أنزلهـــا إلى البرحاء
فى (الشام) لما حوصرت أجنادنا ... ودعانا (إبراهيم) للهيجـــاء
قمنا على الجرد القوارح نبتلى ... أغوارها وجبـــالها الوعراء
كم كان فى (السودان) مناضيغم ... لولانا مافتحت ولا صحراء .

وهـذا الشعر شبه المنظوم على ما فيه من عيوب النظم واللغة والقافية ، إنما ينم عن عدة أمور لها دلالتها على ما كان لأولاد على (العلايا) من أمجاد ، وهم الذين جدودهم (العقاقرة) ـ نسبة إلى (العقـار) ـ كانت لهم مساهمة فعالة فى حرب الانجليز فى كفر الدوار سنة ١٨٨٢ فى صفوف عرابى ، وفى (كنجى مريوط) ، وهم لم يشتركوا فى (موقعة التل الكبير) التى انهزم فيها العرابيون ومع ذلك انساقت « صحيفة البلاغ » وراء صنائع الخديوى توفيق وعمـلاء الاستعمار للتشنيع على العرب المصريين ،واتهامهم بالخيانة ، وهم من ذلك كما تشهد وقائع التاريخ ـ أبرياء منهـا براءة الذئب من دم (ابن يعقـوب) وهم يفخرون باشتراكهم فى حروب الشام والسودان ، فـكتب لهم النصر ، وهم غير نظاميين (نظماء) ومع ذلك انتصروا بما توارثوه عن الأجداد من فنون الحرب المسماة (حرب العصابات) ،وتدل هذه المنظومة أيضا على اهتمامهم بتاريخ العرب فى الغرب وحوادث الحرب بين شارل وابن تاشفين .

وابتليت مصر بالاحتلال الانجيزى سنة ١٨٨٢ ، فكان لابد للسلطة الحاكمة

من أن تضع فى حسابها مشكلة العرب فى مصر، لهذا جاء فى تقرير (لورد دوفرين) إلى (لورد جرانفيل) فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ أن قبائل البدو فى مصر نحو أربعين ألف نفس وأنهم قادرون على حمل السلاح ،وأكد التقرير أنهم محتفظون بصفاتهم الحربية ، وأن الحكومة المصرية كانت تحسب لهم ألف حساب ، وقد رأينا أساليب محمد على وخلفائه فى التخلص منهم ، حتى لا يكونوا شوكة فى ظهره وظهورهم،وأما الكثيرون منهم فقد طحنتهم الحروب الدامية والذين تبقوا بعدهم، شغلوا بالزراعة وصاهروا الفلاحين ، واندمجوا فيهم بعد عزلة طويلة الأمد ، وخضعوا لسلطة الحكومة ، وفقدوا امتيازاتهم الأولى (١) ، ومع ذلك احتفظوا ولا يزالون يحتفظون بصفات البدو ، من الاعتزاز بالنفس ، والذود عن الكرامة ، والتمسك بأهداب الفضيلة ، والمسارعة إلى إغاثة الملهوف ، وبذل النفس والنفيس .. فى سبيل الخير والحق معا ، وكانت خاتمة المطاف من جهادهم على اختلاف الدول الحاكمة كما يقول المثل « آخر خدمة الغز علقة » .



(١) مذكراتى فى نصف قرن : ج ١ ص ٢٣٣ : أحمد باشا شفيق

٥

كفاح البحيرة

معارك وانتصارات

أرض الثورات

كان إقليم البحيرة - منذ آلاف السنين - مهد الثورات على اختلاف أنواعها: ثورات على قوى الطبيعة، ثورات على الغزاة والقراصنة، ثورات على الظلم والفقر، ومنذ عرف التاريخ هذا الإقليم، شهدت البشرية ثورة النيل فى فيضانه على الأرض بما عليها ومن عليها، وثورة البحر على الأرض بما عليها من عليها، وأهل الإقليم، بين ثورة النيل وثورة البحر، فى صراع عنيف من أجل البقاء، وإلا انقرضت سلالاتهم منذ أقدم العصور.

ومن الطبيعى إذن أن يعلن أهل البحيرة أول ثورة لهم على النيل وعلى البحر، أما على النيل، فذلك يوم صنعوا الزوارق لينتقلوا بها وسط الأحراش والأعشاب بحثا عن القوت من نبات أو سمك أو حيوان، ويوم حفروا فرع رشيد لتصفية مياه الفيضان، فى مجرى مساعد للفرع الكانوبى الأصيل، وأما على البحر فذلك يوم أقاموا سدا من الحجارة والتراب فى وجهه، حتى لا يغمر الأرض المنخفضة، ويوم أقاموا القناطر على ضفتى النهر وحصنوها بما استطاعوا من قوة ورباط، وثاروا أيضا على الصحراء الكبرى المترامية الأطراف، فتصيدوا وحوشها، وزحفوا على قفارها فوصلوا إليها الماء ليزرعوها، وإلى أحراش المستنقعات، فاجتثوها.

حقا إنه صراع عريق بين أهل البحيرة وبين النيل والبحر والبحيرة والوحش والصحراء، صراع مرير طال أمده، حتى كتب التاريخ لهم النصر والبقاء فى البحيرة.

وثار أهل البحيرة أيضا على الهواء فى البر والبحر والبحيرات جميعا ، فقد أقاموا طواحين الهواء على التلال العالية ، وركبوا عليها أجنحة لتدور فتطحن الغلال ، وانتصروا على الرياح ، فركبوا للزوارق أشرعة تمتلىء بالهواء لتدفعهم إلى حيث يريدون فى البحر والبحيرات .. كلها ثورات عاشتها البحيرة .. أرض الثورات .

أول ثورة على الملكية

لولا « لوحة نارمر » لضاعت معالم حياة إقليم البحيرة قبل عصر الأسرات ، فقد كشفت لنا هذه اللوحة ، عن أول ثورة فى العالم ، لا فى مصر وحدها ، أول ثورة شعبية على النظام الملكى ، ثورة الديمقراطية على الدكتاتورية ، ثورة أول نظام نيابى . على نظام الحكم المطلق ، ثورة الاستقلال على التبعية ، ثورة الحكم المحلى على الحكم الشامل ، ثورة اللامركزية فى المقاطعة ، على المركزية فى الدولة ثورة الحرية على الاستبداد .

ذلك أن الملك (مينا) منذ خمسة آلاف سنة ، تقدم بجيشه من (طينه) بالصعيد نحو الشمال ، لتوحيد الوجهين القبلى والبحرى ، وضمها تحت تاج واحد ، غير أن سكان إقليم البحيرة ، أعلنوا الثورة فى وجهه ، ولم يقبلوا الانضواء تحت لوائه ، فهو (صعيدى) وهم (بحاروة) ، ثم هو ملك وهم شعب ، شعب يتمثل فى (مجلس العشرة الكبار) ، لقد أعلنوها ثورة على الملكية ، أول ثورة قامت بها مقاطعة ميتليت Metelite الواقعة فى الجزء الشمالى من إقليم البحيرة ، وهو أسرع أجزاء الإقليم نحو الحضارة ، حيث كان المهد الأول للديمقراطية الأولى فى العالم .

لقد سجل الملك مينا أو (نارمر) انتصاره على (العشرة الكبار) ، ولكن كفى البحيرة فخرا أنها كانت أول إقليم فى العالم رفع لواء الثورة ، باسم الشعب ، إن مقاطعة ميتليت التى عاصمتها ميتليس بطلمية فى تسميتها ، وهذا لايمنع من أنها أقدم من العصر البطلمى بكثير .

دماء.. على « الكانوبى »

وشهد الفرع الكانوبى قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام بنحـــو ١٦٠ سنة فصلا رائعا من « الثورة المصرية » الخالصة على الحكم البطلمى ، الذى ضج منه المصريون، وضاقوا به ذرعا، وحمل لواء الزعامة شاب مصرى هو (ديونيسيوس بيتوزارابيس Dionisius Petosarapis) وبدأت الثورة من الإسكندرية ، وهى يومئذ عاصمة مصر ، والمعسكر الأول لجيوش البطالمة ، تلك الجيوش المتجمعة من عناصر شتى : يونانية ومرتزقة . ومالبث زعيم الثورة أن تقهقر إلى (إيلوزيس Eulosis) مكانها الآن (المنـــدرة) شرق اسكندرية ، وهناك انضم إلى صفوفه أربعة آلاف من الثوار، ومع ذلك لم يستطع الصمود فى وجه البطالمة، ولاذ بالفرار نحو الشرق ، فاضطر هـــو ورجاله إلى عبور الفرع الكانوبى سباحة ، وشوهد (ديونيسيوس) عارى الجسد ، وقد انفض من حوله أتباعه ، وقتل معظمهم . وسار هو بفلول جيشه نحو الصعيد، لكى يلهب نار الحماسة فى المصريين، ويحرضهم على حكم البطالمة الأجانب الذين تولوا زمام أمورهم ، وهم الذين لا يرتضون بغير « السيادة الكاملة » بديلا .

ومن حق التاريخ أن يسجل هذه المعركة التى تعتبر بحق إحـــدى حركات المقاومة المصرية فى عهد البطالمة [1] شهد إقليم البحيرة أحداثها ووقائعها .

البحيرة .. مقبرة الرومان

استهل القرن السابع الميلادى، والدولة الرومانية كالشمس آخذة فى الغروب، وبلغ الامبراطور (هرقل الأكبر) من العمر أرذله، فألقى بزمام الحكم إلى ولده الصغير ، وكان يسمى (هرقل) أيضا ، وجعل (نيكتاس) نائبا عنه .

وكانت مصر منذ سنة ٦٠٢ م فى قبضة القائد الرومانى (فوكاس) . وقد صمم (نيكتاس) على أن ينتزعها من يده ، فجرد حملة أخذت طريقها فى الهجوم عـــلى الإسكندرية ، من جهة الغرب بمحاذاة الساحل ، وقبل أن يصلها ، مر (بمريوط) الغنية بخيراتهـــا ، واستمال إليه حاكمها ، وهو يومئذ موظف تابع لحـــاكم إقليم الاسكندرية .

(١) حركات المقاومة الوطنيه فى مصر البطالمة : الدكتور محمد عواد حسين .

وفى نفس الوقت قدم جيش الامبراطور من (بيزنطة) إلى الاسكندرية ومنوف وأتريب (بنها) ، وكذلك تحرك جيش من سوريا باستدعاء الامبراطور، الذى أمر (بنوسوس) بالزحف منها على مصر .

كان جيش (نيكتاس) قاب قوسين أو أدنى من غرب الاسكندرية ، واستسلمت له المدن المجاورة لها مثال (كبسين) وسقط فى يديه حصن (كرسونيسوس) .

وما لبث أن بعث بعض رجاله ، للتحريض على الثورة ضد (فوكاس) ، فى المنطقة التى على جانبي (ترعة الثعبان) ، ووقعت الواقعة ، ودخل (نيكتاس) من (باب القمر) وهو الباب الغربي للمدينة ، وفر حاكمها ، وعمت الفوضى أرجاء الوجه البحرى فسقطت (نقيوس) وهى الآن (شبشير) (١) و (منوف) وتمردت (أتريب) و (سبنتيس) التى تعرف اليوم باسم (سمنود) .

أما (بونوسوس) فقد أرسل جيشين ، ركبا السفن من البحر ، عبر فرعى الدلتا ، حتى وصل إلى (أتريب) وركب منها إلى (منوف)، وانتصر على خصمه فى (نقيوس) ، وصار الوجه البحرى ، فى قبضة يده . غير أن الثوار سارعوا إلى الاسكندرية ، رافعين علم الثورة على الحكم البيزنطى، وكان بها يومئذ (نيكتاس) على استعداد للقاء عدوه ، فسار إليه (بونوسوس) برا حتى نزل (مومفيس) التى هى (شبرا دمهنور) ، ومنها إلى (دمكارونى) أى مدينة (الكريون) ، فلما بلغ الجانب الشرقى من الاسكندرية ،نزل بجيشه تحت أسوارها الحصينة .

وخرج (نيكتاس) للقائه من (باب أون) أى باب الشمس وهو الباب الشرقى من أبواب (المدينة الكبرى) كما كانت تسمى فى هذا الوقت ، وتقدمت الجيوش الامبراطورية نحو المدينة . فبادرتها المجانيق من فوق الاسوار ، وتمزق جيش (بونوسوس) وارتد إلى (الكريون) عبر الترعة ، حتى وصل إلى الفرع الغربى للنيل ؛ حتى بلغ (نيقيوس) حيث استرد أنفاسه ، ثم سلك ترعة أخرى تسمى(ترعة الروجاشات) إلى(مريوط) ثم(ترعة الثعبان) التى فى غرب الاسكندرية

---

(١) وتقع على الصفة اليسرى للنيل قريبا من التحام (ترعة فرعون) بالنيل وهى التى تربط فرعى الدلتا بين أتريب ومنوف .

فأمر (نيكتاس) بهدم القنطرة التى عند (دفاشير) بالقرب من مريوط ، ولكن (بونوسوس) سار فى البر إلى (دفاشير) وأمعن فى أهلها قتلا وذبحا ، ثم عاد أدراجه إلى (نقيوس) ليحتمى بها .

وسار (نيكتاس) إلى (مريوط) وسيطر عليها وعلى الإقليم كله ،كما سيطر على ضفتى فرع النيل الغربى بما على جانبيه من المدن والقرى ، ومضى إلى (نقيوس) تحت ستار من الظلام ، وهجم على (بونوسوس) فى عثر داره ، حتى مزق شمله ، ولاذ بالفرار إلى (أتريب) ثم (سايس) ، وظل هائما على وجهه حتى وصل إلى فلسطين ، وبهذا وطد (بونوسوس) لهرقل فى مصر ، بعد هذه الوقعة الحاسمة التى تعرف فى (ديوان بسكال) باسم « ثورة أفريقيا و الإسكندرية » ، تلك الثورة التى بدأت تزحف من ساحل شمال أفريقية على الإسكندرية . ودامت حوادثها بضعة أسابيع من نوفمبر سنة ٦٠٩ ميلادية ، ويرجع الفضل فى سرد تفاصيلها إلى (حنا النقيـوسى) .

ومن ذلك الوقت ، أقام (نيكتاس) بالإسكندرية نائبا عن (هرقل) فى حكم مصر ، وفى عهده لقى أقباط مصر ما كانوا ينشدونه من حرية العبادة ، وبناء الكنائس والأديرة ، لقاء ماقدموه لنيكتاس من عون ، فى حربه الطاحنة ، التى جرت وقائعها على أرض البحيرة .

البحيرة . . وشاهين الفارسى

زحفت جيوش الفرس على الشام ، وأمعنت فيها فسادا ، ومن هناك سار القائد الفارسى (شاهين) إلى مصر فى خريف سنة ٦١٦ م ، وسلك الطريق الذى اتبعه من قبله قمبيز والإسكندر ومر بالعريش والفرما وممفيس حتى وصل إلى (نقيوس) . ومن ثمت سار فى (الفرع البولبيتينى) وهو فرع رشيد حتى استولى على الاسكندرية ، ومصر كلها وليبيا إلى حدود إثيوبيا .

وتحت أسوار الاسكندرية ، توقفت جيوش (شاهين)،وعاث الفرس فسادا فى أديرة الأقباط ومكتباتها الكائنة شرقى المدينة وغربيها ، واستولى الفرس على الترعة التى تخترق المدينة وتصلها بالبحر ـ بحيلة ماكرة ـ وبهذا تمكنوا من امتلاك مفاتيح

الإسكندرية ، وبعث بها شاهين إلى كسرى فى أول عام ٦١٨ م ، وظل الفرس يحكمون البلاد ، حتى شغلتهم عنها حروبهم مع الروم فى الشرق . فاضطروا إلى الجلاء سنة ٦٢٧ م

وعمل الأقباط على استعادة سيطرة الرومان على مصر ، وصار (قيرس) بطريرك الإسكندرية سنة ٦٣١ م ، وهو الذى سماه العرب فيما بعد (المقوقس) عظيم القبط من قبل الروم .

وقد اقترن حكمه بالإقطاع والاستبداد ، ولقى المصريون منه كل أذى ، وقد أفرد (ألفرد بتلر A. Butler) عدة صفحات من كتابه (فتح العرب لمصر) للتدليل على فضائح حكمه ومظاهر ظلمه ، فإذا صح ذلك ، استطعنا أن نصدق بسهولة ما رواه ابن عبد الحكم عن امرأة المقوقس التى كانت تملك منطقة الكروم التى أمرت بكسر البحر لإغراقها على المزارعين حتى صارت (بحيرة إدكو) .

ولما كان العام التاسع عشر للهجرة (سنة ٦٤٠ م) مضى عمرو بن العاص إلى فتح مصر ، وقد سلك الطريق الذى سار فيه الرومان والفرس من قبله ، وكانت البحيرة فى جميع هذه الحوادث ميدان المعركة الفاصلة ، وعلى أرضها ارتفعت ألوية النصر منذ أربعة عشر قرنا ، إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله ، فإن (موقعة الكريون) كما سنرى فى الصفحات التالية ستسجل انتصار المبادىء الإسلامية ، واندحار المجادلات البيزنطية ، وسيكون للبحيرة دور جليل فى التاريخ الإسلامى العام ، ولا سيما فى « الفتنة الكبرى » بين الإمام على الخليفة الرابع للمسلمين ، وبين الأمويين ، المطالبين بدم سلفه الشهيد عثمان الخليفة الثالث.

البحيرة قنطرة الاسلام (١)

كان يوم ٩ إبريل سنة ٦٤١ م (عام ٢٠ ﻫ) بداية انطلاقة هائلة للمسلمين نحو الهدف الذى قادهم من أجله عمرو بن العاص إلى مصر ، ففى هذا اليوم انتهى

---

(١) اعتمادنا فى هذا الفصل على مصادر الفتح الإسلامى لمصر مجتمعة فى أقوال ومؤلفات البلاذرى والواقدى وابن عبد الحكم والكندى والمقريزى وياقوت وكاترمير وبتلر وعكوش.

الحصار الذى ضربه على (حصن باب ليون) لمدة سبعة أشهر ، وبعـــدها ركب عمرو بخيله عبر الصحراء يريد الإسكندرية ، والتحم مـــع الروم فى (ترنوط) التى تسمى الآن (الطرانة) فانتصر عليهم ، ومضى إلى مدينـــة (نقيوس) التى عرفنا أهميتها فى الأحداث السابقة ، فى وقائع (نيكتاس) و (شاهين) ، وكان بها حصن منيع ، وأقام بها عمرو بضعـة أيام حتى سلمت يوم ١٣ مايو ، وتشتت شمل السفن الرومانية ، وتقهقر القائد الرومانى (تيودور) بجيشه إلى الإسكندرية ، ثم عبر النيل إلى الضفة الغربية ، ومن هناك بعث (شريك بن سمى) ليقضى على فلول الجيش الرومانى المهزوم .

وفى هذا الوقت ، كان إقليم البحيرة كثير الترع ، متعدد القنوات والمستنقعات فركب عمرو بخيله ليتفادى كل مكان دهس .

وكان (شريك) قد سبق ، وسرعان ما أدركته إمدادات ، بعث بهـــا إليه عمرو مع (مالك بن ناعمة الصدفى) وكان يعرف بصاحب الفرس الأشقر المسمى (أشقر صدف) لأنه كان فرسا لايجارى ، وأدركه الروم عند قرية تقع فى شمال (الطيرية) بين (إمبابة) و (إيتاى البارود) ، فاعتصم بكوم هناك فأحاط به العدو فى حركة التفاف ناجحة ، ولكن سرعان ما انقض (مالك) عليهم بفرسه من أعلى الكوم ، وأسرع الروم من خلفه فلم يدركوه ، ونجا منهم بأعجوبة ، على كثرة ما لديهم من العدد والعدة ، وسمى هذا المكان (كوم شريك) باسم (شريك) الفارس المغوار ، الذى أسرع إلى معسكر القائد العام عمرو بن العاص ليخبره بما جرى فى (كوم شريك) .

وسار عمرو بمحاذاة الترعة التى تلى الصحراء فى اتجـــاه الشمال الغربى ، حتى وصل إلى (الدلنجات) ، ومضى فى طريقه حتى اعترضته حامية الروم عند (سنطيس) أو (سلطيس) وهى فى جنوب (دمنهور) بسبعة كيلو مترات ، وهناك درات المعركة ، وانتصر المسلمون ، ولاذ الروم بالفرار ، واستمر عمرو فى زحفه نحو (دمنهور) فبدد بها شمل العدو ، واتجه إلى الأسكندرية ، وكانت ترعة الأسكندرية يومئذ قد نضب ماؤها ، فعـــبرها دون مشقة ، وقطع مسافة عشرين ميلا ، حتى بلغ (حصن الكريون) ، وكان الروم قد تحصنوا به ، وآووا

إلى ظله ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وكأنهم يتساءلون : ماذا يحدث إذا سقط (حصن الكريون) فى أيدى العرب ؟

تقع (الكريون) على الضفة اليمنى من ترعة الأسكندرية واشتهرت فى العصر الرومانى بوجود محطة لنقل الغلال عندها من إقليم البحيرة إلى الإسكندرية ، عبر ترعتها وكانت أيضا تهيمن على هذه الترعة ، باعتبارها الشريان الأصلى للحياة الاقتصادية بالنسبة للاسكندرية . وفضلا عن هذا كله ، كانت آخر معقل للرومان من السلسلة الطويلة الممتدة من الحصون والقلاع مابين (باب ليون) و (الإسكندرية) .

وكان الرومان قد أسرعوا بترميمات حصون الكريون ، ومع ذلك كانت أقل مناعة من حصون (نقيوس) و (باب ليون) ، ولم يجد (تيودور) القائد الرومانى بدأ من الاعتصام بها من زحف المسلمين نحوهم ، وهناك توالت الإمدادات من (بيزنطة) ، كما بعث الأقباط بالمعونة من (خيس) و (سخا) و (بلهيب) التى هى (دبى) و (سنطيس) .

وعند (الكريون) دارت رحى القتال ، وحمى الوطيس ، بضعة عشر يوما ، وصمد جيش المسلمين ، بقيادة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد أيده أبوه بحامل اللواء (وردان) ، ويومئذ كان المسلمون اثنى عشر ألفا ، يواجهون حامية من الروم ، لايقل عددها عن خمسين ألفا .

وأصيب عبد الله بجراح خطيرة ، فطلب من (وردان) مولى أبيه أن يتقهقر قليلا إلى الوراء ، فعرف (وردان) أنه يستبقى الحياة فسأله مستنكراً ، وأجابه مشجعاً ، حيث قال : الروح تريد ؟ الروح أمامك وليس خلفك .

وعلم عمرو بالخبر : فأرسل يسأل عن ابنه ، غير أن عبد الله - إزاء الإيمان بالموت فى سبيل الله — أظهر الشجاعة فى رده على أبيه ، مستشهداً بقول (ابن الإطنابه) :

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... رويدك تحمدى أو تستريحى

فقال عمرو : إنه ابني حقا .

وأقبل (وردان) على القتال ، ومعه عبد الله متئما على جراحه ، حتى صار في الشهداء .

تأخر عمرو في فتح الإسكندرية ، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يؤنبه على هذا التأخير ، وعقد اللواء لعبادة بن الصامت ، وصلى عمرو بالمسلمين صلاة الخوف ، ثم قام بهم إلى ساحة الخلود ، بين (الطرانة) و (الكريون) ، وخطب فيهم وقال : [سيروا على بركة الله ، فمن ركز منكم رمحاً في دار ، فهي له ولبني أبيه من بعده] والتحم الفريقان ، حتى فتح الله عليه (الكريون) ، ولم تعد أمامه عقبة في الاستيلاء على (المدينة الكبرى) . . الإسكندرية .

تقهقر الروم إلى الأسكندرية . . ونزل المسلمون مابين (حلوة) و (قصر فارس) شرقا ، وإلى ماوراء ذلك ، وكان الأقباط يناصرون الروم ، ويمدونهم بالمؤنة ، فأقاموا شهرين ، حتى تحول عمرو منها إلى (المقس) ، فخرجت عليه الخيول من ناحية البحيرة ، متسترة بالحصن وجرى القتال عنده عنيفا ، حتى قتل في (كنيسة الذهب) اثنا عشر رجلا من المسلمين .

المسلمون الآن عند (الكريون) لا يبرحونها : فقد خلا لهم الطريق بعدها إلى الأسكندرية ، فمضى إليها عمرو بين بساتين الكروم وأشجار النخيل والكنائس والأديرة المنتشرة بأرباضها ، حتى وصل إلى أسوارها فحاصرها حتى سلمت مفاتيحها في نوفمبر سنة ٦٤١ م ، وأبرم عمرو عقد الصلح مع (المقوقس) كبير الأقباط ، والحاكم العام باسم الروم في الأسكندرية . وجعل (وردان) واليا عليها ، ثم سار عمرو من (الكريون) نحو الشرق ، على ضفاف النيل في (الحوف الغربي) وهو الاسم الذى أطلقه العرب على إقليم البحيرة ، حتى وصل إلى (إخنا : إدكو حاليا) وهي غير بعيدة عن الأسكندرية ، فضرب الحصار حولها حتى اضطر حاكمها (طلما) إلى التسليم بعد وقوع عدد كبير من أهلها في أسر المسلمين ، فأرسلهم عمرو إلى الخليفة ، وعرض الإسلام عليهم فأسلموا ، وأقبل (طلما) متوسلا إلى عمرو أن يخفف الجزية فأشار إلى كنيسة مجاورة وقال : [لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم] وتم الصلح ، كما تم

مع (قزماس) أو قزمان حاكم رشيد و (حنــــا) حاكم البرلس ، حتى وصل المسلمون إلى دمياط ، وبهذا تم استيلاؤهم عــلى منافذ النيل على البحر . . بحر الروم ، الذى سيصبح بعد هـذه الموقعة بحيرة إســلامية ، ومن ثم فقدت الإسكندرية مكانتها كعاصمة لمصر بعد أن وقع اختيـار عمرو على (الفسطاط) فجعلها العاصمة .

وكانت (سنطيس) و (مصيل) و (بلهيب) قد أعانت الروم على الفاتحين فصدر أمر الخليفة ـ بعد أن علم بذلك ـ بجعل هذه القرى ذمـــة للمسلمين ، وضرب الخراج على أهلها .

وفى عام ٢٥ للهجرة ، أرسل هرقل جيشا من القسطنطينية (بيزنطة) يقوده (مانويل الخصى) بغية استرداد مصر من أيدى المسلمين ، وعاث الروم فسادا فى القرى المجاورة للاسكندرية من إقليم البحيرة ، وعنـدما خف جيش عمرو لصد هـذه الحمـلة الفاشـلة عن الإسكندرية . أمر بتخريب القرية التى اختطفت (وردان) ، وأخرج أهلها منها ، وقيل إنهم قتلوا المشاة من جيش عمرو بعد وصوله إلى (الكريون) ، فبعث إليهم (وردان) فأمعن فيهم تقتيـــلا ، وفى بيوتهم تخريبا ، لهذا سميت (خربة وردان) .

وتفرق الصحابة بعد الفتح فى الإسكندرية وأمسوس ودمياط ورشيد وبلبيس وأرسل عمرو كتـابا الى الخليفـة يحمله عامر بن لؤى يخـــبره بفتح « مريوط والإسكندرية ودمياط وفوه والمحلة ودمـيرة وسمنود وجرجا ودمنهور وإبيـار والبحيرة » (١)

وعرفت الأماكن التى اختطها المسلمون بأسمائهم فكانت (لخم) بالاسكندرية (وخزاعة) بأبو قير(٢)ووادى هبيب (وادى النطرون) باسم هبيب بن مغفل(٣) وانطوى آخر عـلم للرومان فى مصر ، بل فى الشرق كلـه ، ولم يـكتب له أن

---

(١) فتوح الشام : الواقدى حـ ٢ ص ٩٠

(٢) الإلمام : النويرى السكندرى

(٣) أخبار من نواحى مصر : أبو صالح الأرمنى

غرب الدلتـــا ، وهناك التقيا به عنـد (دمنهور) ، فانهزم طرخان وفر تحت جنح الظلام .

وكان عمارة اليمني مغمورا بعطف (شاور) الذى كان يقيم بالبحيرة ولاسيما بعد كسرة طرخان ، فاستدعاه إلى البحيرة يوما ، وأكرمه ، فمدحه بقصيدة قال فيهـا :

وإلى (البحيرة) لا إلى صوب الحيا	طارت بنـــا العزمات كل مطار
لبيـــك من داع أتيت ملبيـــا	لمـا دعا والشعر فيه شعـــارى
لما وليت على (البحيرة) أصبحت	حرما رخيص الأمن والأسعـــار
أمنتهـــا حتى توهم أهلهـــا	ألا يروع ليـــلهم بنهـــار
وحميت قطريهـــا فليس بجـوها	ريح تهـب ولا خيـال ســـار

وقد عبر عمارة عن استتبـاب الأمن بعد هذه الحروب الطـاحنة على أرض البحيرة ولا سيما بعد سنة ٥٥٧ هـ حينما أصبح نجم الدين بن مصال واليا عليها بعد الإسكندرية ، فقال يمدحه :

شـكر الورى لك فى (البحيرة) سيرة	أبقت عليـــك من الثنــــاء خلودا
سعدت بعدلك بعد جور طالمـا	أشقى طريفـــا ، واستبـــاح تليدا
ونسخت من جور الولاة شريعة	يتوارثـــون رسومهـــا تقليدا
فقدت بك (الإسكندرية) أنسها	فأعدت فيهـــا أنسها المفقودا
كنـا وأنت على (البحيرة) نازل	والثغر يشـكو فـــترة وخمـودا

ولما رأى (شاور) أن مركزه فى خطر ، لجأ إلى أعداء الملة ، فكاتب ملك الإفرنج (إمرى) يغريه بغزو مصر ومساعدته ، وفطن العرب المصريون للخطر الداهم الذى يهدد العالم الإسلامى كله ، نخف أسد الدين شيركوه ـ وكان فى الصعيد ـ ونهض معه الصعايدة والعربان ، وأجلوا شاور والإفرنج عن الإسكندرية بعـــد حصار وقتال استمرا ثلاثة أشهر .

ولما عزل شاور من ولايته على قوص ، امتنع وزحف إلى (تروجة) سنة ٥٥٨ هـ وحشد جمعا كثيفا سار به عبر الصحراء نحو القاهرة وقبض على زيك وزير العاضد

فى (اطفيح) ، وآلت الوزارة إلى شاور حتى وثب عليه ضرغام واغتصبها منه .

ورد صلاح الدين الأيوبى كيد الإفرنج وعملائهم فى مصر إلى نحورهم ، فحظى بتأييد الخليفة العاضد وسماه الملك الناصر فلما قدم أبوه نجم الدين أيوب الى مصر سنة ٥٦٥ هـ خلع عليه الخليفة ولقبه « الملك الأفضل » وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة (١)

وهكذا انطوت دولة الفاطميين وكانوا يسمون أنفسهم بالمصريين بعد أن أخذت أعلامهم تخفق مائتى سنة ، ولكن شاور [هو الذى أطمع الإفرنج والغز (الأكراد = ايوبيين) فى الدولة ، حتى انتقلت عن أهلها (الفاطميين)] كما جاء فى نكتة عمارة اليمنى .

خيرات البحيرة .. ينهبها الغزاة

منذ دب النزاع بين الوزراء المصريين ، والتجأ بعضهم إلى الصليبيين، يستعديهم على البلاد، صارت مصر هدفا لعدة غزوات من السواحل الشمالية ، فيما بين دمياط ورشيد والإسكندرية

فى ذلك الوقت كانت الدولة الفاطمية تلفظ آخر أنفاسها ، وتنهض على إثرها دولة بنى أيوب فكان قيامها بمثابة (مفرج الكروب) والمحن التى تجتازها البلاد .

ففى سنة ٥٥٠ هـ هاجم مصر أسطول العدو المكون من ستين سفينة بعث بها (روجر الثانى Roger II) صاحب صقلية ، وعاث القراصنة فسادا فى تنيس ورشيد والإسكندرية .

وعقد صلاح الدين الأيوبى مجلسا استشاريا بالإسكندرية سنة ٥٦٧ هـ بقصد غزو برقة ، بعد إذ رأى كثرة رجاله وقلة أمواله ، وقد جاءه أن بلاد برقة واسعة الأرجاء، وعربانها قليلون لايقدرون على صد هجومه، واستقر الرأى على أن تتكفل (كورة البحيرة) بنفقات الجيش الذى ندب لقيادته تقى الدين عمر بن شاهنشاه . وتسامع أهل مصر بغارة الإفرنج على الشرقية سنة ٥٧٠ هـ ، فاضطربت أحوال العباد لهذه الغارة التى سماها المصريون (الهجة الكدابة) وعندئذ أمر صلاح ابن أخيه تقى الدين بالذهاب إلى (البحيرة) لكشف أحوالها وكان معه كاتبه الرضى ابن سلامة ، فاستدفع حسابات الدواوين ، وحملها بغل يسوقه تقى الدين فقضت

---

(١) كتاب الروضتين : أبو شامة .

عليه صاعقة من السماء ، واحترق البغل بما عليه من الحسابات ، وعاد تقى الدين بخفى حنين .

وقطع الملك العزيز بن صلاح الدين راتب الفقيه الكمال الكردى ، فقام بحملة ضد الملك ، وحرض عليه الناس ، واستعان بعرب البحيرة على إشعال نار الثورة ضد العزيز .

وكان عام ٥٩٠ ه عام غلاء وفناء ، على أثر فيضان النيل الذى أغرق البلاد ، وساءت الأحوال ، لا فى مصر وحدها ولكن فى بلاد برقة المجاورة ، أما البحيرة فلم تشعر بوطأة هذه الأزمة الفاتكة ، بل كانت فى رخاء غامر ، حتى حملت غلاتها إلى برقة لشدة الغلاء بها وبالاسكندرية .

وفى سنة ٥٩١ ه كان عبد الكريم البيسانى مشرفا على الشئون المالية بالإسكندرية والبحيرة ، وكان هذا (الإشراف) إلى جانب توليه حكم المدينة ، من زمن طويل ، فاغتنى واقتنى الكثير من الأموال والممتلكات ، بينما الإسكندرية فى مجاعة طاحنة ووباء فتاك ، ولا عجب إذا هبط عربان الغرب بسبب القحط فى بلادهم على البحيرة سنة ٥٩٢ ه يشترون القمح من أهلها بأغلى الأسعار ، حتى بلغ سعر الويبة دينارا كما يقول المقريزى [١]

وفى سنة ٦٠١ ه قدم أسطول الإفرنج من (رشيد) الى (فوة) ، [٢] وأقام هناك خمسة أيام ينهب المحاصيل ، بينما العساكر على الضفة الغربية لا يملكون من أمرهم شيئا ، وكأن (الأسطول العادلى) لا وجود له .

وإن أكبر دليل على ما كانت فيه البحيرة من خيرات لم تتوفر فى إقليم آخر ، ذلك الكتاب الذى بعث به الملك العادل سنة ٦٣٦ ه إلى نائب السلطنة بدمشق يستدعيه لأخذ رأيه فى أمر من الأمور ، فامتنع ، فأرسل يغريه بأنه يعطيه قلعة الشوبك وبلادها وثغر الإسكندرية وأعمال البحيرة وقليوب وعشر قرى من بلاد الجيزة نظير مثوله بين يديه فى قلعة الجبل بمصر .

هكذا كانت البحيرة فى زمن بنى أيوب ، الذين دالت دولتهم سنة ٦٥٠ ه ، وفى العام التالى نهض العرب المصريون فى الصعيد والوجه البحرى ، وعلى رأسهم

---

(١) السلوك : أخبار سنة ٥٩٢ ه

(٢) مفرج الكروب : ج ٣ ص ١٦١

الأمير الشريف العربي حصن الدين ثعلب. الذى هاله أن يرى مصر نهبا للأكراد الدخلاء، فقال لأصحابه «نحن أصحاب البلاد» وحرض على عدم دفع الخراج والثورة على الأتراك عبيد الخوارج، وانضم إليه من عرب البحيرة قبيلتا (سنبس) و (لواتة)، والتقى العرب والأكراد عند (ذروة) من أعمال المرتاحية، ولكن شاء القدر أن ينهزم العرب فى المعركة، وانتقم منهم الأكراد أشد الانتقام، حتى ذلوا وقلوا، ولو أن المقادير كانت فى صف العرب يومئذ، لتغير وجه التاريخ، ونجت البلاد من حقبة طويلة حكمها فيها ملوك كانوا مماليك اشتراهم اسيادهم من أسواق العبيد.

ولكن عرب مصر عامة، وعرب البحيرة خاصة، ستدفعهم حميتهم الموروثة لحمل لواء الكفاح بعد هذه المعركة، وسيطول هذا الكفاح ويستشرى، دفاعا عن حقوقهم كما تبين ذلك جليا من الفصل الذى عقدناها بعنوان «عرب البحيرة فى مختلف العصور»، ولا سيما منذ القرن السابع الهجرى.

البحيرة .. حمامات الدم

اهتم سلاطين الأتراك أشد الاهتمام بالثغور المصرية، فقد بنى الظاهر بيبرس سنة ٦٠٩ هـ بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر، كما أمر بردم فم بحر دمياط، وأنشأ عدة شوانى بدمياط والإسكندرية وكان السلطان يتفقد بنفسه منشآت الثغور، التى فى مقدمتها جميعا رشيد والإسكندرية، ومن الطبيعى أن تنال البحيرة حظها من العناية السلطانية، لأنها فى الطريق إلى هذين الثغرين.

فقد توجه بيبرس فى ٦ شوال سنة ٦٦١ هـ إلى الإسكندرية، ونزل فى الطريق عند (تروجة) عدة أيام، وتوغل فى صحرائها، لصيد الغزلان والنعام، واستدعى إليه حاجبه الأمير شجاع الدين الزاهدى فحضر عنده، وكلفه بحشد العمال من الإسكندرية لحفر الآبار وتطهيرها، حتى يستطيع أهل البحيرة سقى مواشيهم ورى مزروعاتهم، ثم مضى إلى الإسكندرية، وقصد زيارة شيخها الزاهد المبارك

الشيخ القباري ، كما زار قبر الشاطبي ، وجلس للنظر في المظالم ، ثم تحرك الركاب السلطاني إلى القاهرة .

وفي الطريق نزل ثانية عند (تروجه) ، وأمر العربان بالسباق بين يديه . فاجتمع ألف فارس من عرب (تروجه) وتسابقوا مع فرسان عسكر السلطان الذي حدد لهم مسافة السباق ، وجلس على تل مرتفع يرقب المتسابقين ، وأوقف الرماح والجوائز المالية والعينية ، في ثياب من الأطلس ، وبعد السباق أعطى كل فائز مايستحق ، وأخذ السلطان طريقه إلى القاهرة .

وفي سنة ٦٦٢ خرج إلى (الطرانة) ، وسار إلى (وادي هبيب) ويسمى الآن (وادي النطرون) وزار الأديرة التي هناك ، وتوجه إلى (تروجة) ثم إلى (الحمامات) غربيها ، وسلك إلى العقبة ، واستعد للصيد ، وعلم من أهل الصحراء أن بعض العرب يضايقونهم ، فأحضر (هوارة) و (عرب سليم) وألزمهم بالتزام الأمن وعند منازل (بتروجة) أمر بأن يكون سيف الله عطا الله بن عزار شيخا على عرب (تروجه) ، وألزمه بجباية زكاة المواشي وتحصيل العشور حسب الشريعة ، وأنعم عليه بسنجق (علم) ونقارات ، كما كلفه باستخراج الزكاة والعشور من عربان برقة .

وفي سنة ٦٦٨ هـ توجه بيبرس أيضا إلى الإسكندرية ، وبعد أن لعب الكرة (الصولجان) خارج المدينة ، ذهب إلى (الحمامات) ونزل بمكان يسمى (الليونة) من أعمال (مريوط) ، وابتاعه من وكيل بيت المال .. ويقال أيضا إنه نزل في هـــذه المرة (بتروجة) فصاد النعام والغزلان ، وأعطى بغلطاقا (قباء صغيرا) لكل جندي صاد غزالا ، وحصانا مسرجا ملجما لكل من صاد نعامة.

وفي سنة ٦٩٣ هـ توجه الملك الأشرف خليل إلى (البحيرة) بقصد النزهة والصيد ، وضرب خيامه (بالحمامات) ، وأقام بها ، ودب النزاع في الإسكندرية بين الصاحب (الوزير) ابن السلعوس ونائب الإسكندرية الأمير بيدرا بسبب نهب بهاره (توابله) ، وأوغر (ابن السلعوس) صدر السلطان على (بيدرا) فاستدعاه وأغلظ له في القول ، فأصرها (بيدرا) في نفسه .

وانتهز فرصة انفراد السلطان بالصيد فى الصحراء ، فعاجله بسيفه فقضى عليه ، وأقيم (بيدرا) سلطانا .

وطار الخبر إلى أمراء القاهرة ، فركبوا خيولهم ، حتى التقوا عند (الطرانة) (ببيدرا) ومن معه من المتآمرين ، فانهزم هؤلاء ، وفر عربان الجيزة الذين كانوا معهم إلى (البحيرة) ، ولقى (بيدرا) مصيره المحتوم ، أما جثة الأشرف خليل ، فقد ظلت فى الصحراء تنهشها الذئاب ثلاثة أيام ، حتى حملها والى (تروجه) أيدمر الفخرى على جمل وأرسلها إلى القاهرة ، وأصبح السلطان الناصر محمد بن قلاوون ملكا على مصر .

وفى سنة ٦٦٩ هـ دب النزاع فى عرب البحيرة بين قبيلتى (جابر) و (مرديس) وأقبل كل منهما على ضياع (البحيرة) نهبا وسلبا ، فأرسل السلطان إليهم حملة يقودها باش العساكر الأمير بيبرس المنصورى ، فالتقى بهم عند (تروجه) وهزمهم ، حتى لجأوا إلى الجبال تاركين أغنامهم وجمالهم وأولادهم ونساءهم غنيمة .

وفى ٢٣ صفر سنة ٧٦٧ هـ تعرضت (الإسكندرية) لإحدى غارات القراصنة الذين جعلوا (قبرص) مركزا لتجمعات أسطولهم ، ولكن عرب البحيرة كانوا أسرع من البرق دفاعا عن الإسكندرية فبذلوا ما فى وسعهم فى المعركة الدامية ، التى وقعت عند ظاهر البحر ، بينما فر الأمراء والأجناد ، لأن الاستحكامات على هذا الثغر الخطير لم تكن على بال السلطان ولا نائب السلطان فى الإسكندرية ، ونزل السلطان الفتى الأشرف شعبان (بالطرانة) وأعد العدة لمعاودة الهجوم ، ولكن العدو كان قد أمعن فى الإسكندرية نهبا وسلبا وحرقا ، وعاد بالغنيمة إلى (قبرص) ، ومنذ هذه الموقعة ، أصبحت الإسكندرية (نيابة) بعد أن كانت (ولاية) ، واحتلت من الحكومات المتعاقبة كل عناية واهتمام ، ولم تنقطع زيارات السلاطين والملوك والأمراء لها عبر (البحيرة) على الرغم من المخاضات والمستنقعات التى كانت تعوق سيرهم ، كما حدث سنة ٧٧١ هـ عندما توجه السلطان الأشرف شعبان إلى الجيزة ومنها إلى البحيرة حتى بلغ الإسكندرية بعد المشقة الزائدة بسبب أوحال الطريق .

وفى سنة ٧٨١ هـ حدثت (موقعة دمنهور) المشهورة ، عندما أحاط بها شيخ عرب البحيرة بدر بن سلام ومعه خمسة آلاف ، ونهبوا كل ما قدروا عليه فى المدينة ، وسرعان ما أرسل إليهم الاتابكى برقوق حملة كبيرة عليها ثمانية أمراء مقدمين وعشرة أمراء طبلخاناه ، واثنا عشر أمير عشرة ، وأربعمائة مملوك سلطانى فخرجوا على المشاغبين حتى عسكروا حول دمنهور ، وأراد العربان أن يهجموا على المعسكر ليلا ، ولكن الخبر كان قد سبق بهذه النية إلى العسكر ، فأخلوا

خيامهم ، ولما تقدم العربان نحوها وجدوها خاوية على عروشها ، فانقض عليهم العساكر من الجهات التى كمنوا لهم فيها ، وأمعنوا فيهم قتلا ، وفر الذين كتبت لهم النجاة إلى الجبال ، ودخل الأمراء مدينة القاهرة بالأسرى من الرجال والنساء فى القيود ، وخرج الناس ينظرون إلى موكب النصر ، وتغنى خلف الغبارى بهذا فى شعره البدوى الذى عرضنا بعضه فى الفصل الخاص بعرب البحيرة .

وعاد عرب البحيرة مرة ثانية سنة ٧٨٢ هـ ، فخرج إليهم خمسمائة مملوك سلطانى وعلى رأسهم ألان الشعبانى أمير سلاح ، فكفهم عن مناوشاتهم التى روعت بها البحيرة ، وعاودوا الكرة فى العام التالى ، فانبرى لهم الأتابكى برقوق فى خمسمائة مملوك ، فأصاب منهم غنائم كثيرة .

وهكذا كانت البحيرة فى دولة الأتراك تسبح فى حمامات من الدماء ، دماء القتلى والجرحى والغزلان والنعام ، من السلاطين والأمراء والعربان والأهلين والغزاة على السواء .

وانفض سامر الدولة التركية ، وقامت على أشلائها ودمائها دولة الشراكسة سنة ٧٨٤ هـ ، فهل كفت هذه الدماء عن أن تسيل على .. أرض البحيرة ؟

البحيرة أرض الميعاد

قامت دولة الجراكسة ، والبحيرة ـ كما كانت فى الماضى ـ شوكة فى حلوق سلاطينهم وملوكهم ، وما كان عرب البحيرة لينسوا ما أصابهم من المحن على أيدى الأتراك ، وما كان الجراكسة لينسوا أيضا ما عليه هؤلاء المنكوبون من قوة الشكيمة ، وشدة البأس ، وسنرى فى القرن التاسع الهجرى والربع الأول من القرن الذى يليه ، ميادين القتال المرير ، وهى تغص بالأحداث الهامة على أرض البحيرة ، وسيكون القرار الأخير للقدر المحتوم هو : انقضى الجراكسة وبقى العرب .

ففى سنة ٨٠١ هـ أنشأ السلطان قايتباى سورا حول مدينة (دمنهور) ، لحمايتها من الغارات المتتابعة ، التى ظل العرب يشنونها على أمراء السلطان وكشافه ، الذين يستأثرون بخيرات الإقليم ، ويسومون الأهلين والعرب منهم سوء العذاب.

وكان من الطبيعى أن يثور عرب البحيرة ثورات لا هوادة فيها ، وهم يعلمون أن حمـــلات السلطان قادمة عليهم ، ولكنهم يدركون أمرا لا مفر منه هو أن معاركهم هذه إنما هى من أجل الحيـاة ، فلا منـاص من خوض غمارها ظالمين أو مظلومين .

وفى رجب سنة ٨٠٢ هـ ورد كتاب من البحيرة إلى الأمير بيبرس بأن الأمير سودون المأمورى الحاجب أخذ الأمراء من دمياط وتوجه إلى الإسكندرية ، فلما وصـل (ديروط) لقيه الشيخ عبد الرحمن بن نفيس الديروطى وأضـافه ، فلما جلس سودون والأمراء للطعـام ، انقض عليهم يلبغـا المجنون ومن معه وقبضوا عليهم ، وتصادف أن مرت بشاطىء ديروط فى هـــذا الوقت حراقة قادمة من القاهرة فيها أربعة من الأمراء فى القيود ، فوثب يلبغا عليها وفك قيودهم وساقهم إلى أصحـابه ، ثم كتب إلى نائب البحيرة يستدعيه ، كما استـولى على خيـــول الطواحين ، وتوجه بالأمراء إلى دمنهور ، فقبض على متوليها ، وواتته العربان من كل فج عميق فصار فى كثرة غالبة .

وأمر منـاديا فى البحيرة يعلن رفع الخراج عن أهل البحيرة عـدة سنوات ، تقربا إليهم ، ثم استـولى على مال السلطـان المستخرج من (تروجه) ، وطلب الأموال من النواحى ، فهابه الناس ، فقد تولى الأستاذ دارية سنوات .

وكتب بيبرس بذلك كله إلى السلطان والأمراء ، فقـــد كان الموقف خطيرا ويستحق الاحتراز ، ولا سيما على مدينـة الإسكندرية ووصل خطـاب بذلك إلى نائبها للاستعداد ، ولا سيما أن فى سجن المدينة عددا من الأمراء .

وسرعان ما توالت الأوامر السلطانية إلى مشايخ عرب البحيرة باستنكار ذلك والقبض على يلبغا ومن معه ، وتلقى الأمراء المماليك السلطانية أمرا من السلطان بقتـله ، وتلقى عرب البحيرة أيضا مثـالا من السلطان بحط الخراج عنهم ثلاث سنوات .

وأحس يلبغا المجنون بأن عرب البحيرة لن يقفوا معه فى هـذا التمرد ، فولى وجهه شطر الغربية ، خوفا منهم ، وغادر البحيرة إلى المحلة ، وأمعن فى دار كاشفها

وبيوت أعيانها نهبا وسلبا ، وظل على هـذا الحال حتى عاد إلى القاهـرة وأمراؤه من حوله حاملين المنهوبات والمسلوبات

وفى سنة ٨٠٣ ﻫ نودى بالجهاد الأكبر لصد غارة تيمورلنك ، فلبى عـــرب البحيرة نداء الوطن فحضر منهم فى ٧ رجب ٦ آلاف فارس ، وتبعهم آلاف أمثالهم من شتى الأقاليم .

وفى ٩ ذى الحجة من هـذه السنة ، أرسل مشايخ (تروجه) كتابا يفيـد أن سعد بن غراب قدم عليهم ومعه مثال سلطانى بطلب الخراج ، فورد أمر السلطان بالقبض عليه وعلى من معه وإرسالهم فى القيود إلى القاهرة .

وصل سعد بن غراب إلى الإسكندرية وطلب العصاة فيها وساقهم إلى (تروجه) وقـد أعطى كل واحد منهم ٥٠٠ درهم واتفق معهم على قتـل النـائب الذى علم بذلك ، فقبض عليه وعلى رجاله وقتل عددا منهم ، وعذب الآخرين ، وأفلت هو من أيديهم ، حتى طلب له أهل تروجه الأمان من السلطان فعفا عنه ، وأعاده إلى وظائفه القديمة .

فى سنة ٨٠٤ ﻫ ثار عـرب البحيرة ، فطاردهم أعوان السلطان ، وهم مماليـكه حتى فروا إلى (برقة) .

وفى سنة ٨٢٧ ﻫ أرسل برسباى ثلاث حملات لفتح جزيرة قبرص ، نجحت الأولى والثانية مما شجع السلطان على تجريد الحملة الثالثة ، التى غادرت ميناء رشيد بعد سنتين وفى يونيه سنة ١٤٢٦ م ، وكانت تتـكون من ١٨٠ سفينة ، يقودها تغرى بردى قاصـــدة إلى (ليماسول) فسقطت فى أيدى المصريين فى ٢ يوليو ، واستولوا على ميناء (لارنافا) ، واشتبك تغرى بردى مع ملك قبرص (جانوس لوزينان) فانهزم القبـارصة فى موقعـة (شيروكيتوم Cheirocitium) ، وسيق (جانوس) أسيرا ودخل الجراكسة (نيقوسيا) ، ثم عادت قواتهم إلى القاهرة فى ١٣ أغسطس ، وكانت معالم الزينات تقام فى جميع الأحياء فرحا بهذا النصر .

وما جاء عام ٨٢٦ ﻫ حتى كانت البــلاد تعـانى الجـدب بسبب ردم ترعـة الإسكندرية ، وضعف جريان المـــاء فيها ، فوكل السلطـان إلى الأمير جرباس المعروف بقاشق عمليات إصلاحه ، فأتمها فى أربعة أشهر ، وعم الرخاء .

وفى سنة ٨٥٧ هـ لم يطق أهل البحيرة صبرا على مظالم كاشفها قشم المحمودى فقتلوه ، وتولى الكشوفية بعده الأمير حسن الدنكرى ، وفى العام التالى جرد السلطان حملة من الجند، عليها جانم الأشرفى وبرسباى البجاسى إلى عرب البحيرة، وحملة أخرى فى العام الذى يليه عليها الأمير خشقدم ، وحملة مثلها سنة ٨٦٩ هـ معززة بخمسة من الأمراء المقدمين فيهم قرقماس الجلب وجانى بك قلقسير .

وخرج عرب البحيرة على طاعة السلطان قايتباى علانية سنة ٨٧٢ هـ ، وما لبث أن نزل على إرادتهم فعزل خشقدم كاشف البحيرة ، وجعل فى مشيخة عربانها شيخ العرب صقر .

وعم الوباء إقليم البحيرة سنة ٨٧٣ هـ ، فانخفضت رواتب المماليك فأظهروا الامتعاض ، وحضر من البحيرة الأتابكى أزبك بسبب ذلك ، أما الأهلون فلم يعودوا يحتملون مظالم المماليك ، فالأزمة طاحنة ، والوباء فتاك ، وهم لا يرحمون، وثار عرب البحيرة سنة ٨٧٥ هـ وكان بها الأمير يشبك فطلب النجدة من السلطان فجرد له حملة على رأسها الأتابكى أزبك بعد أن أخذ السلطان يسترضيه ويستميله، وجعله باش عسكر .

وتطايرت الأخبار بغزو جديد ، يهدد البلاد ، فكان لا بد للسلطان أن يتخذ للأمر عدته ولا سيما عند الثغور ، وكان لا بد من إخماد كل حركة يراد بها زعزعة مركزه فى السلطنة ، ولهذا بنى قايتباى برج رشيد سنة ٨٧٦هـ لأن رشيد أقرب ميناء مصرى بالنسبة لاسطنبول، وهى مبعث الخطر المنتظر يومذاك، وعاد أزبك سنة ٨٧٧ هـ إلى القاهرة ، وبين يديه أسرى من الثوار العرب فى البحيرة ، وبدأ الإفرنج مناوشاتهم على ساحل البحر ، فيغدق السلطان على من حوله ، ويخلع على أزبك ، بينما يأمر بتوسيط كاشف البحيرة خشقدم الزينى والكاتب ابن الطواب ، لأنهما تأخرا فى أداء ما عليهما من المال ، والتوسيط هو ضرب الشخص بالسيف من وسطه فيشطره شطرين .. ياللقسوة !

وتهدأ العاصفة عدة سنوات ، فيزور قايتباى الإسكندرية وإدكو ودمنهور سنة ٨٨٢ هـ [وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان من هذه السفرة إلى الغاية ، واستمر يرحل من مكان إلى مكان على سبيل التنزه نحوا من أربعين

يوما حتى عاد إلى (القلعة)] على حد تعبير ابن إياس .

وكان كاشف البحيرة لا يقيم طويلا بها ، وكثيرا ما كان ينزل إلى القاهرة حيث يسكن أهله ، وقبل أن ينزل بداره ، يتشرف بالمثول بين يدى سلطانه ليغدق عليه ، إن كان مرضيا عنه ، أى إذا أظهر براعة فى تأديب العصاة ، وحصل الأموال ، ولم يتأخر عن أدائها لمولاه السلطان : ففى سنة ٨٨٧ هـ قدم من البحيرة تمراز التمشى ، وخلع عليه السلطان ثم نزل إلى داره ، وخلفه فى كشوفية البحيرة مملوكه قراكز ، ثم خلعه السلطان سنة ٨٩٠ هـ وأقام بدله كرتباى بن مصطفى المشهور بكرتباى الأحمر ، وفى العام التالى طلب منه السلطان أن يجمع من عرب البحيرة أكبر عدد ممكن ، ليزج بهم فى الحرب إذا غزا البلاد غاز من العثمانيين ، بعد أن تواترت الأخبار بقرب الغزو ، وفى الوقت نفسه جرد السلطان سنة ٨٩١ هـ حملة على رأسها قرقاس المعلم ، واسباى المبشر ، وأزبك قفص ، وماماس ومعهم مائتان من المماليك السلطانية ، وكان هدف هذه الحملة كسر شوكة محمد الجويلى شيخ عرب البحيرة ، وكانت مقتلة مروعة ، تلك التى دارت على أرض البحيرة بين الترك والعرب ، وكان عدد القتلى من الطرفين كثيرا جدا ، وعادت الحملة دون أن تظفر من الجويلى بشىء .

ولم تنقطع حملات السلطان على البحيرة منذ الهزيمة التى منى بها مماليكه ، فبعث كرتباى الأحمر كاشف البحيرة أميرا للحج سنة ٨٩٥ هـ ، وفيها بعث حملة على البحيرة يرأسها أقبردى الدوادار ، ومثلها سنة ٨٩٩ هـ عليها أزبك اليوسفى .

وفى سنة ٩٠٢ هـ دبت الفتنة بين الأمراء ، وتآمر بعضهم على بعض ، وذلك فى عهد السلطان الناصر ابن قايتباى ، وظفر عرب البحيرة بالمتآمرين فى طريقهم إلى الإسكندرية لقتل نائبها فقتلهم عرب (تروجه) .

واشتد ساعد العرب فى البحيرة سنة ٩٠٤ هـ على نحو لم يعرف من قبل إلا فى زمن برقوق فى ثورة بدر بن سلام : فى هذه السنة أقسم الجويلى ومرعى على شق عصا الطاعة ، وعدم دفع خراج البحيرة والغربية لأرباب الدولة ، وتميز السلطان غيظا ، ولكنه لم يفعل شيئا ، وثار عرب (عجالة) على كاشف البحيرة ، ولكنهم فروا إلى (الجبل الأخضر) واستقروا (بالمعيصرة) ، وهناك دار القتال ، وانهزم الشراكسة هزيمة منكرة بعد أن كبدوا العرب خسائر فادحة ، ثم زحف

عرب عجالة إلى الصعيد ، فعاجلهم بها الأمير طومان باى الدوادار ، فانتقم منهم أشد انتقام حتى لقد أمر بتسميرهم على الجمال ، والسير بهم على هذا النحو ، فى شوارع القاهرة ، وعلقوهم على أبوابها ، وفعلوا بهم ما هو أشد من ذلك سنة ٩٠٨ ﻫ فى أيام السلطان الغورى ، عندما أوشك العرب أن يتملكوا زمام الحكم وأن يطردوا المقطعين (أصحاب الإقطاعات) من أراضيهم ، وكانت البحيرة طبعا هى مبعث كل ثورة ، لهذا أرسل إليهم السلطان أزبك المكحل ودولات باى ، كما بعث غيرهما إلى جميع الأقاليم ، وصار الشراكسة يقطعون رءوس شبان العرب ، وينشرونهم بالمناشير من فوق رءوسهم إلى أقدامهم ، ويسلخون جلودهم ، حتى بلغت الضحايا أكثر من ألفين .

وصودرت الممتلكات بسبب وبدون سبب ، فقد حدث فى رشيد سنة ٩١٢ﻫ أن قتل رجل يسمى عمر بن عبد اللطيف زوجته وأحرقها فى برميل ، فاستدعاه السلطان إلى القاهرة ، ولما سأله أنكر ، فحبسه أربع سنوات وصادر أمواله ، وأمر بتعذيبه .

وظن الغورى أنه بذلك أخمد الثورة ، فولى وجهه شطر رشيد والإسكندرية سنة ٩١٣ ﻫ حيث أرسل علاء الدين ناظر الخاص لتجهيز المراكب ولكن عرب البحيرة فى سنة ٩١٨ ﻫ قد تضامنوا وتحالفوا على الثورة ، ومعهم فى هذا التضامن الجويلى « شيخ جهات البحيرة » ، فتمكن الثوار من طرد كاشف المنوفية وغيره من الكشاف ، وعلم السلطان فجعل البحيرة نصب عينيه أولا ، إذ أرسل إليها طومان باى ، كما أمر فرسانه بالبقاء والمرابطة بالبحيرة لحفظ أمنها ، كما أرسل أمراء آخرين إلى الفيوم والبهنسا ، وما لبث الجويلى أن مات سنة ٩١٩ ﻫ وخلفه فى مشيخة البحيرة ابن أخيه ، فتقدم إليها الوزير البدرى ، فى وقت بلغت فيه الفوضى أقصى حدها فى ديوان الدولة وذلك فى سنة ٩٢٠ ﻫ ، ومع ذلك يمضى برقوق إلى الإسكندرية فى أبهة الملك ، ويقضى الأيام والليالى بالبحيرة فى (دمنهور) و (النجيلة) ، وبها أمر الصيادين بتوسيط تمساح بين يديه ، وكأنه لم يشبع من دماء البشر ، فأتوا له بالتمساح ليقتلوه فيشفى سعاره ، وفى رحلته هذه زار (رشيد) و (الطرانة) ثم عاد إلى زيارة الإسكندرية و (رشيد) وتفقد أبراجها ، وأمر ببناء

سور على ساحل البحر أمام رشيد ، ظنا منه أنه يحتمى به من هجوم سليم الأول العثمانى ، وقد جعل خاير بك العلائى متحدثا فى شئون برج الأشرف قايتباى ، مبالغة منه فى الاهتمام بأمر الثغور .

ويظهر أن الغورى قد داخله الوسواس من قبل كشاف الاقاليم ، أو بالأحرى أراد أن يشجعهم على مطاردة العربان فبعث سنة ٩٢٢ هـ مماليكه الكهول إلى الكشاف ، فجاء إلى البحيرة والطرانة منهم الأمير قانصوه أبو سنه

وفى هذه السنة كان موقف الغورى قد بلغ أقصى درجة من الضعف والانهيار فى مصر والشام ، وصار الكشاف ومشايخ العربان فى إقطاعاتهم يأخذون أموال الناس اغتصابا ، وضعف شأن الجنود ، وضاعت هيبة الأمراء والمماليك ، ومع ذلك ، ما زالت البحيرة أكبر شوكة فى جنب السلطان ، فهى التى طالما أقضت مضجعه ومضاجع من كان قبله من ملوك وسلاطين فى مختلف الدول . وأرسل فى هذه السنة طقطباى حاجب الحجاب متحدثا فى كشوفية البحيرة ، كدليل على شديد اهتمامه بشأن الثورات ، التى ما كانت لتندلع شرارتها الأولى إلا من البحيرة ، ولكن الأمراء قالوا للسلطان : إن الخروج إلى حرب العثمانيين — وهم على الأبواب — أولى من الخروج إلى البحيرة .

وسرعان ما قدمت جموع العرب من عجالة ومحارب وهوارة إلى القاهرة ، كما أمر بذلك سلطان الزمان ، فعرضهم ، وظن أنهم سيحمون ظهره إذا غزا مصر الغزاة ، ولكن ما هى إلا عشية أو ضحاها حتى هبطت أسهم الجراكسة ، فقد سقطت بلاد الشام فى يد (سليم العثمانى) ، وأيقن المصريون أنه فى الطريق إلى مصر ، وأنه لا بد سيطالبهم بالخراج ، فامتنعوا عن أدائه لأمراء الجراكسة ، حتى لا يؤدوه مرتين .

وكانت معركة (مرج دابق) سنة ٩٢٢ هـ حدا فاصلا بين دولتين : إحداهما — وهى دولة الجراكسة — قد ذهبت مع الريح ، والأخرى هى دولة العثمانيين الجديدة .

ترى ماذا سيكون دور البحيرة مع السلالة الجديدة من الأتراك العثمانيين ، بعد أن قلمت البحيرة أظافر الدولات التى سبقتها فى كفاح مرير .. طال أمده ؟

البحيرة بين السلطان وشيخ البلد

انتهت دولة الجراكسة ، وقامت دولة السلاطين العثمانيين ، فأصبحت مصر ولاية عثمانية ، يبعث السلطان من (إسطانبول) والى مصر ، إلى (الإسكندرية) ، ومنها إلى (رشيد) ، ليستقل النيل إلى القاهرة ، فيصعد إلى (القلعة) ، ليحبس نفسه بها حتى يأتيه أمر العزل عاجلا أو آجلا .

أما السلطة الفعلية فى البلاد فكانت بأيدى « المماليك » ، هؤلاء البكوات الذين كانوا بإقطاعاتهم يمثلون مركز الثقل فى ميزان الدولة ، فانطفأت مع وجودهم شموع الولاة ، وانحلت القوى الشعبية ، فاستطاعوا أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت السلطان ، حتى أصبح الحكم العثمانى ، هو حكم هؤلاء المماليك ، وقد تركز فى يد كبيرهم « شيخ البلد » ، المقيم فى القاهرة : وألاضيشه وخشداشينه من حوله ، وتمكن على بك شيخ البلد سنة ١٧٦٩ م أن يعلن استقلال مصر عن دار السلطنة بعد أن قضى ست سنوات كاملة أنزل خلالها بأهل البحيرة كل ألوان التعذيب والتنكيل ، لثوراتهم ضده وضد مماليكه وعلى رأسهم أحمد باشا (الجزار) ، الذى لم يلقب بالجزار ، إلا لكثرة مذابحه ، ووفرة قتلاه من أهل البحيرة وعربانها ، ثم تآمر عليه تابعه محمد بك أبو الذهب باسم السلطان حتى قتله سنة ١٧٧٤ م ، فكافأه على فعلته هذه بولاية مصر ، وصارت مشيخة البلد فى يد إبراهيم بك ومراد بك حتى شن نابليون حملته على مصر سنة ١٧٩٨ م .

وكانت البحيرة ، منذ صارت مصر فى قبضة السلطان العثمانى الأول سليم سنة ١٥١٦ هـ نزهة المشتاق ، بما كانت تتمتع به من خيرات ، حتى تلهف السلطان سليم إلى زيارة الإسكندرية ، فخرج فى موكب يحف به خمسمائة من أخصاء عسكره فزار (فوة) و (رشيد) ، وغيرها من البلدان المجاورة [ورأى تلك الأرزاق ورأى الخيرات التى كانت فى أيام الجراكسة ، فتعجب من ذلك ، وقال : إن هذا الإقليم لانظير له فى كثرة الأرزاق والخيرات ، وأحاط برشيد علما ، ثم طلع فى البر إلى الإسكندرية ، وأقام بها ثلاثة أيام ثم عاد إلى القاهرة] (١) .

---

(١) تاريخ السلطان سليم : ابن زنبل

تمت هذه الجولة ، وكاشف دمنهور يونس البدوى ، وشيخ عربان البحيرة الجويلى ، وخيرات البحيرة كما رآها ابن زنبل ، لم تكن خيرات زراعية فحسب ، بل كانت أيضا خيرات معدنية ولاسيا النطرون ، فقد استدعى على بك الكبير ـ وهو شيخ البلد ـ من البندقية التاجر (كارلو روستى Carlo Rossetti) لتنظيم شئون مصر الدبلوماسية ، وولاه منصب ولاية (الطرانة) ، لتحصيل الضرائب من الأهالى ، وفى أيام مراد بك ، حصل على امتياز احتكار استخراج النطرون .

وهذا المعدن ـ كما يقول القلقشندى ـ يوجد فى عمل البحيرة ، مقابل بلدة (الطرانة) على مسافة يوم منها ، ومحصول الطرانة منه أكثر من محصول أى بلد آخر فى الدنيا ، إذ يوجد هناك نحو مائة فدان كانت تغل سنويا نحو مائة ألف دينار (١) .

وكان (ابن مدبر) نائب مصر فى زمن أحمد بن طولون أول من احتجز النطرون ـ كما يقول النويرى فى « نهاية الأرب » ـ وفى القرن التاسع الهجرى ، زاد محصول النطرون ، وغلا سعره ، لاحتجار (١) السلطان له ، وكان يشرف على استخراجه ونقله موظفون حتى يصل إلى (الطرانة) على ضفة النيل ، حيث تقام سوق لبيعه للمسافرين إلى الصعيد فقط ، ثم أصبح هذا النطرون خالصا للسلطان يجرى فى الديوان المفرد ، ويقوم أستاذ دار بالنظر فى نقله إلى الإسكندرية والقاهرة ، لتخزينه بمباشرة موظفين آخرين .

ومن الملاحظ أنه منذ تولى السلطان سليمان بعد أبيه سنة ٩٢٦ هـ صار « ملك الأمراء » فى مصر يرسل الخراج إليه ، وما كان يستخرج غير خراج الشرقية والغربية والبحيرة والصعيد ، وكان هذا السلطان راغبا فى كسب ود عرب مصر ، فكان يبعث إليهم بالقفاطين والمراسيم . كما فعل سنة ٩٢٨ هـ ونال إسماعيل ابن أخى الجويلى شيخ عرب البحيرة قفطانا مخملا من السبعة المرسلة من اسطانبول إلى مشايخ العربان ومع كل واحد منها مرسوم سلطانى .

---

(١) صبحى الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٠

(٢) يلاحظ أن القلقشندى يستعمل هنا (احتجر) و (الاحتجار) وهما اللفظان العربيان الأصيلان لمعنى (احتكر) و (الاحتكار) .

ويتولى السلطنة مراد خان سنة ٩٨٢ هـ فينشىء تكية ورباطا بالمدينة المنورة وتكون بعض قرى البحيرة وقفا عليها وهذه القرى هي: نكلا والضاهرية ، وفى سنة ٩٩٩ هـ يعني والى مصر العثمانى أحمد حافظ باشا الخادم بأمر رشيد ، فينشىء بها كثيرا من المنشآت ، وكذلك الوالى محمد باشا سنة ١٠١٦ هـ الذى أخذ الجزر المقابلة لرشيد (١) .

«ملك الأمراء» فى البحيرة

سمع السلاطين العثمانيون بما كان يفعله سلاطين الجراكسة فى البحيرة ، التى كانت ولاتزال متنزها للصيد ، الصيد الذى على المستوى السلطانى ، وعلى هذا المنوال سار « ملوك الأمراء » فى مصر ، وهم السلاطين الحقيقيون فى مصر .

فى سنة ٩٢٨ هـ نزل خاير بك بلباى ملك الأمراء إلى (النجيلة) للصيد : ولحق به إلى هناك الأمير جانم الحمزاوى ، ونقيب الجيش الجمالى يوسف ، والقاضى شرف الدين بن عوض ، ويوسف بن أبى الفرج المفتش ، وابن أبى إصبع ، ومعهم الأعيان وكبار رجال الدولة المصرية ، وبعد أن قضى ملك الأمراء مأربه من الصيد ، غادر (النجيلة) إلى القاهرة .

هذا وقد كان ملك الأمراء يجد فى المنازعات بين العربان (صيدا ثمينا) يستأثر به دون سواه ، إذ يحدثنا ابن إياس أن (عرب عجالة) قد نزلت سنة ٩٢٨ هـ بالقرب من (تروجة) فتوجه إليهم (ابن الجويلى) بمن معه ، وحاربهم ، وأرسل بالغنائم إلى ملك الأمراء بالقاهرة .

هكذا كان ملوك الأمراء ، وهم نواب السلطان فى الديار المصرية ، وهكذا كان شأنهم فى « البحيرة » ومما لاشك فيه أن (رشيد) فى الأيام العثمانية ، كانت بمثابة الثغر الأول من ثغور مصر ، وهى بالتالى مفتاح البحيرة ، وطريق القادم من اسطانبول إلى الديار المصرية ، دون المرور بالإسكندرية إلا لماما ، لهذا علا شأن البحيرة ، تبعا لانتعاش (رشيد) حتى بلغ سكانها ثلاثة عشر ألفا بينما كان سكان الإسكندرية ثمانية آلاف ، وقد أنشأ بها مراد بك البرج

---

(١) الإسحاق : أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول .

المشهور ببرج رشيد ، كما أنشأ بها (ديوان البدعة) ويختص بتصدير الغلال إلى الخارج وجعل دينارا على كل إردب ، وأعطى التزام هذا الديوان لرجل سراج من أعوانه ، استقر برشيد ، وصارت له فيها كلمة نافذة ، وكثرت أمواله وممتلكاته [وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيين ، وطمعهم فى الإقليم المصرى] كما يقول الجبرتى .

جزار البحيرة

يبدأ القرن الثانى عشر الهجرى (نهاية القرن السابع عشر الميلادى) ، والبحيرة براكين ، تفور بالثورات والمذابح ، ردا على حملات متعاقبة يشنها المماليك ، وهم يومئذ منقسمون إلى : (قاسمية) و (فقارية) ، ويسرع محمد بك الجزار إلى (رشيد) ، ولا يكاد ينزل من مركبه حتى يختفى فى أحد مخازنها ، ويعلم حسين جوربجى الخشاب ، فيستل سيفه ليطيح برأسه ، فيقبض القاتل ثمن هذا الرأس ، بتولى الصنجقية وكشوفية البحيرة ياله من جزار جديد !

وتنقضى عشر سنوات ، ويطلع عام ١١٤٨ هـ ، ويطلب الباب العالى من مصر ثلاثة آلاف جندى للمحافظة على الأمن فى بغداد ، بشرط ألا يكونوا من الثوار وخاصة أهل البحيرة ، الذين كانوا على الدوام شوكة فى جنب كل معتد أثيم ، ومن أجل هذا كانت (رشيد) فى قبضة (صنجق) من عتاة المماليك ، مثل سليمان بك دهشور سنة ١١٥٨ هـ ، ثم إذا قدم الصنجق الجديد على القديم ، فإما الفرار ، وإما القتال ، كما حدث سنة ١١٧٩ هـ عندما قدم حمزة باشا إلى رشيد بعد عزل حسن باشا من ولاية مصر ، فيسرع على بك بلاط شيخ البلد إلى إبعاد صالح بك من رشيد كيلا يلتقى بحمزة باشا فيضطر صالح بك الى الفرار بمن معه تحت جنح الظلام إلى البحيرة ، ويقيم بها مدة من الزمن ثم يغادرها إلى الفيوم والمنيا ، فيمضى حمزة باشا فى مطاردته .. لماذا ؟

انه الشقاق المرير الذى دب فى صفوف المماليك ، وفى صفوف العربان ، فنرى سنة ١١٨٢ هـ أيوب بك يتعقب سويلم بن حبيب ، فيشعر به سويلم فيسرع بالفرار من (سندنهور) إلى (البحيرة) ويلجأ إلى (الهنادى) ، وسرعان مايجرد شيخ البلد حملة إلى سويلم والهنادى سنة ١١٨٣ هـ وكان كاشف البحيرة

يومئذ عبد الله بك أحد أتباع شيخ البلد على بك الكبير ، وتقوم المعركة ، ويلقى كاشف البحيرة حتفه ، وتصبح حوائجه نهبا للناهبين وتستمر المعارك بين المماليك والعربان ، والبحيرة مصدر القلاقل ، ورشيد مفتاح البحيرة ، ومنفى المغضوب عليهم ، ويصدر شيخ البلد ، وهو يومئذ سيد الوجهين ، أمراً بشنق المنفيين فى بلاد النفى ، ومنهم على كتخدا الخربوطلى فى منفاه برشيد .

ويا له من تناقض عجيب ، حينما نشهد فى هذا الحمام من الدماء ثلاث قرى من بلاد الأرز برشيد وهى (تفينه = إدفيا) و (ديبى) و (حصة كتامة) تتحول إيراداتها إلى الجهات الخيرية ، بعد أن كانت من أوقاف الأمير عبدالرحمن كتخدا إلى حين وفاته سنة ١١٩٠ ﻫ ويتجدد الدم فى هذا الحمام باستمرار ، ففى سنة ١١٩٣ ﻫ يتوجه إلى رشيد إبراهيم بك الوالى ، ويلقى القبض على اثنين من المماليك وهما على بك الحبشى وسليمان كتخدا ، ويقتلهما ، وينشق عربان البحيرة على أنفسهم سنة ١١٩٩ ﻫ ويستعين أحد الفريقين بإبراهيم بك ضد الفريق الآخر ، فيوفد إليهم من قبله مراد بك ،فيصحبهم فى هيله وهيلمانه إلى (البحيرة)، وهناك يسيل لعابه لتلك الرشوة السخية التى يمنحه إياها أحد الفريقين ، فيهجم على الأولين ، فى الظلام ، وهم فى أمن ودعة ، فيعمل فيهم السيوف ، وينهب ما يقدر عليه منهم ويتركهم فى حيص بيص ، ويعود إلى القاهرة .

وفى العام التالى يتخذ مراد بك ذريعة للعبث فى الوجه البحرى ، فيدعى أنه قادم إلى هذه الجهات بحثا عن رسلان والنجار ، وأن كل قريه يثبت عليها أنها آوتهما ، فعليها الإرشاد عنهما وإلا نهبها من أهلها ، ثم حرقها ، حتى يصل إلى رشيد ومعه الزبانية ، فيفرض غرامة على أهلها ، وعلى تجار الارز بها ، فيفرون من وجهه ، هائمين على وجوههم ، ويمضى من رشيد إلى الإسكندرية ، ويمر بقرية (جيجمون) وقرية (كفر دسوق) ، فيهدم بيوت كل منها على أهلها .

وفى رحاب شهر رمضان المبارك ، يتفق الذئبان المسعوران ، إبراهيم بك ومراد بك فيما بينهما على قمع كل حركة ، فى رشيد ، فيرسلان إليها لاجين بك ومصطفى بك السلحدار ، وليخطبا ود (الهنادى) ، الذين ذهبوا إلى الإسكندرية لمقابلة أحمد باشا الجداوى ، فيخلع عليهم الخلع السنية هم وأهل دمنهور ، وتلك إحدى المحاولات

الفاشلة ، لإخضاع البحيرة لمظالمهم الشنيعة .

ويستقبل مصطفى جوربجى ـ سردار رشيد ـ قبطانا أوفده إليه من الإسكندرية حسن باشا ، يحمل مكاتبة تخص الأمراء والمماليك ، ومايلبث حسن باشا أن يذهب بنفسه إلى رشيد ، وبها يحرر الفرمانات باللغة العربية إلى مشايخ البلاد وأكابر العربان والأعيان ، وفيها استنكار للفظائع التى يقوم بها الطغاة من المماليك وأمرائهم ، وبهذا يستميل العثمانيون جانب المواطنين ، ليقلبوا ظهر المجن لأعدائهم ، الذين زرعوهم فى مصر ، فنمت طوائفهم على دماء المصريين .

ويخف الى رشيد ولاة الأمور من المشايخ والأعيان ، فيبثون حسن باشا شكاواهم المرة مما يعانيه الشعب ، فيحسن مقابلتهم ، ويطمئن خواطرهم ، ويهدىء مشاعرهم ، ويعودون من رشيد ـ وفيهم الشيخ العروسى ـ بعد أن رفعوا شكوى البلاد والعباد ، من أهل الظلم والفساد ، ومع ذلك لاتزال البحيرة عرضة لهجمات القراصنة ، وكاشف البحيرة يومئذ محمد بك الجرفى ، ضالع معهم وشريك لهم .

ويبدأ العام الأول من القرن الثالث عشر الهجرى ويتحرك الأسطول العثمانى فى النيل من رشيد الى (فوة) ، ويخف للقائه أسطول المماليك عند (الرحمانية) ، وهناك ينزل إلى الضفة اليمنى من النيل سليمان بك الأغا وعثمان بك الشرقاوى ومحمد بك الألفى وهم يومئذ أركان حرب إبراهيم ويدب النزاع بين المماليك ، فيتقدمون إلى (محلة العلويين) ، وكان بها فريق من عسكر العثمانيين ، فيستولون عليها ، ويمضى العرب إلى (فوة) لمطاردة المماليك حتى أسيوط ، فيستقر مراد بك بإسنا ، وإبراهيم بك بقنا ، ثم ينفرد إسماعيل بك بالإمارة ، ويجعل محمد أغا البارودى فى الوزارة ، وينزل الوالى المعزول بمحتوياته من القلعة إلى بولاق ؛ فلايكاد حسن باشا ينتهى من حسابه ، حتى يستقل النيل إلى رشيد ، وهناك يضيق عليه مرة أخرى ، مطالبا إياه بما عليه من المال ، فلايجد مايفرج به عن نفسه ، فيضطر إلى أن يبيع أمتعته ويمضى إلى أسطامبول .

ولم يكد ينقضى العام حتى رحل حسن باشا عن مصر ؛ وكان إبراهيم بك قشطة فى توديعه إلى رشيد ، وكان الراحل ظالما غشوما ، قال فيه الجبرتى متهكما .
[ولو مات حسن باشا بالإسكندرية أو رشيد لهلك عليه الإقليم أسفا ، وبنوا على

قبره مزارا وقبة وضريحا بقصد الزيارة] .

ودأب العثمانيون على تفتيت وحدة البلاد وتشتيت جهود أهلها ؛ بتحريض العناصر بعضها على بعض ، كما فعل سنة ١٢٠٢ ﻫ (١٧٨٨ م) إسماعيل بك حين استدعى عرب البحيرة والهنادى ؛ وأباح لهم علنا ـ وبلا خجل أو حياء ـ أن يسلبوا وينهبوا كيف شاءوا فيما بين رشيد والجيزة ، فعم القتل والنهب ، حتى قتلوا من (النحيلة) وحدها أكثر من ثلاثمائة شخص ، وقطعوا على الناس طريق السفر براً وبحراً ، وذهب الى المنوفية فى العام التالى أحد أقارب على بك الكبير ؛ وهو رضوان بك ـ ولم يفته أن يأخذ طريقه الى رشيد ليستكمل المهزلة الخالدة .

وفى هذا العام يمر برشيد الرجل الفاضل المرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » ويشهد آثار هؤلاء المجرمين ، وفظائعهم فى (رشيد) وهى يومئذ أحد ثغور الإسلام ، ولكنها على الدوام ، فى عبوس .. لا ابتسام .

نابليون والفردوس المفقود

عكف نابليون بونابرت ، قبل أن يقوم بمغامرته فى غزو مصر ، على قراءة ما كتبه الرحالة عن مصر ، أمثال (فولنى Volney) و (سافارى Savary) ، وما كان عليه إقليم البحيرة من خيرات ، سال لها لعاب نابليون ، ولكن سرعان ماخيبت الحقائق ظنونه ، فذهبت أحلامه أدراج الرياح.

ففى اليوم الثانى من شهر يوليـــه سنة ١٧٩٨ م نزلت جنود نابليون من المراكب عند (العجمى) غربى الإسكندرية ، وكان الوقت ليلا ، وقد مضى على بدر السماء أربع ليال ، وفى الصباح وجد أهل الإسكندرية جنود نابليون يحتلون مدينتهم ، ولم يكن ذلك الاحتلال مما يثير دهشة الأهلـــين ، فمنذ عشرة أيام ، والأخبار تتوالى وتترادف ، كما أن كاشف البحيرة ، قد تلقى رسائل من أهل الإسكندرية بطلب النجدة ، فجمع عربان البحيرة أنفسهم ، وانضم إليهم المجاهدون من الإقليم ، وتقدمهم الكاشف ، وزحفوا على ظهور خيولهم ، دفاعا عن الإسكندرية .

ولما رأى أهل الإسكندرية بسالة أهل البحيرة ، اشتد أزرهم فوقفوا يصدون

جنود فرنسا عن احتلال الاسكندرية ، ولكنهم لم يصمدوا أمام الفرنسيين ، وإن كانوا قد كبدوهم من الضحايا مائة وخمسين رجلا ، وأصيب كل من (كليبر) و (مينو) بجراح .

ومنذ وطئت أقدام الفرنسيين أرض الإسكندرية . بدأوا ينفذون خطة الاحتلال على الفور ، وكانت تقضى بأن يتجه الجنرال (دوجا Dugua) من الإسكندرية إلى رشيد ، ليحتلها ثم يجهز أسطولا يسير فى النيل ، حتى يصل إلى الرحمانية ، وهناك ينتظر الشعبة الأخرى من الجيش ، الذى يقوده نابليون بنفسه من الإسكندرية إلى القاهره بالطريق البرى ، ويكون اللقاء عند الرحمانية .

وسار (دوجا) من الإسكندرية ، وولى وجهه شرقا شطر رشيد ، ومر بأبوقير ، وعبر بوغاز بحيرة إدكو ، وواصل سيره حتى وصل إلى رشيد فاحتلها يوم ٦ يوليو ، بقواته البرية ، تعززها قوة بحرية ، بقيادة (بيريه Perrée) وفى اليوم التالى ، ترك فى رشيد حامية بقيادة (فوست Faust) ، مكونة من مائتى جندى ، حتى يحضر الجنرال (مينو Menou) ، الذى صدر أمر نابليون بتعيينه حاكما على رشيد منذ اللحظة الأولى للحملة .

ولم يجد (دوجا) مقاومة تذكر من أهل رشيد ، خصوصا وأن المماليك قد غادروها ، فراراً من الفرنسيين ، وخيم السكون على المدينة ومع ذلك طلب (مينو) قوة عسكرية لتعزيز حاميته ، استعدادا لما كان يتوقعة من هجمات العربان والأهالى عليه .

ولما رأى (مينو) أن المؤنة التى كانت معه كادت تنفد ، أسرع بفرض ضريبة على أهل رشيد ، فثارت ثائرتهم ، وبدأت مراجل السخط تغلى وتفور ، ولاشك أن المهمة التى نيطت بالجنرال (مينو) فى رشيد ، كانت شاقة للغاية ، فقد كان عليه أن يحمى بوغاز رشيد من أى غارة يشنها الإنجليز عليه وأن يحمى المواصلات بين الإسكندرية ورشيد ، وأن يتولى إدارة منطقة رشيد ، وأن يقمع كل ثورة يقوم بها الأهالى .

أما مراد بك ، فقد أخذ للأمر عدته ، وأصدر تعليمات لصنع سلسلة ضخمة من الحديد طولها مائة وثلاثون ذراعا ، تربط ضفتى النيل عند بوغاز رشيد أمام

(برج مغيزل) ، وتصطف المراكب فى عرض النهر ،وتنصب عليهـــا المدافع والمتاريس ؛ وكانت هـذه الفـكرة من وحى عـلى باشا ، وفى أغلب الظنون أن العمال الذين صدرت إليهم التعليمات بعمل هذه السلسلة قد سخروا منها ، وعلى أى حال ، كانت الأحداث أسرع من هذه المبتكرات العثمانية ، التى يراد بها منع تقدم الأسطول الفرنسى فى فرع رشيد .

أما الجيش الذى سلك طريق البر ، فقـــد غادر الإسكندرية ، وعـلى رأسه نابليون ، ومر فى محـاذاة ترعة المحمودية ، بالمواقـع الآتيـة : (البيضـــا) و(العكريشة) و (الـكريون) و (العوجا) و (بركة غطاس) ، أما الترعة فقد جف ماؤها ، لأنها لم تـكن تمتلىء بالمـاء إلا فى زمن الفيضان ، فلقى الجنود تعبـاً شـديداً فى الطريق بسبب العطش ، ولم يبق أمامهم إلا الشرب من الآبار ، ولـكن الأهالى قد أتلفوها حتى لاينتفع بها العدو ، وتلاقت الفرق فى (دمنهور) يوم ٧ يوليو ، وفى صباح اليوم التالى ، وصل نابليون ومعه أركان حربه .

وفى ليلة ١٠ يوليو ، قامت الفرق كلها من (دمنهور) ، قاصدة إلى (الرحمانية) فاحتلتها فى اليوم التالى ، وهناك التقت القوات البحرية بقيادة (دوجا) مع القوات البرية بقيادة نابليون ، ومن ثمت كتب التاريخ ،ولد موقعة حربية كان ميدانهـا ، على أرض البحيرة .

نيران على ضفاف شبراخيت

جمع نابليون قواد الحملة وهو فى (الرحمانية) يوم ١٢ يوليو ، وأخذ يصدر إليهم التعليمات تلو التعليمات ، ويذكرهم بأغراض الحملة ، ويحذرهم من العـدوان على الأهالى ، وكرر على (دوجا) أوامره هذه مشدداً عليـه أن يراعيها ، ومـع ذلك لم يرع الجنود للبيوت أو أهليها فى القرى والمدن حرماتها التى تقدسها الشرائع والأذواق .

وتحرك الأسطول الفرنسى من الرحمانية ، وكان يتكون من اثنتى عشرة سفينة ، وعدد من المراكب النقالة ، يقل كتيبه من الجنود ، بقيادة الجنرال (أندريوسى Andreossi) ، ومعها الذخيرة والمؤنة ، وبعض علماء الحملة .

وانقضت ليلة ١٣ يوليو ، والأسطول أمام (منية سـلامة) التى تقـع عـلى

الضفة اليسرى لفرع رشيد بين (الرحمانية) و (شبراخيت) وهناك على مقربة من شبراخيت التقى الأسطول الفرنسى بأسطول (مراد بك) الذى لم يكن يقل فى عدد قطعه عن أسطول (أندريوسى) ، وقد جعل قيادته للقبطان خليل الكريتلى .

وتبودلت القنابل بين الأسطولين ، بينما كان الأهالى على ضفتى النيل ،وقد تسلحوا بالبنادق والعصى (الشماريخ) ، وكان جيش مراد بك فى تقدير مراقبى المعركة ، يتكون من حوالى اثنى عشر ألفا ، منهم ثلاثة آلاف فارس من المماليك، والباقى وهم حوالى ألفين من العرب والفلاحين والأهلين .

وبدأ الأهالى يطلقون النــار على الفرنسيين من الضفتين فأغرقوا لهم خمس سفن ، واستولوا على اثنتين ، وجرح (بيريه) ، ولكن المدافع الفرنسية صوبت قذائفها على سفينة البارود ، التى كان جل اعتماد مراد بك على ذخائرها ، فنسفت فى الحال ، وأخذ الفرنسيون يوالون إطلاق النار ، على الأهالى المتجمهرين على الضفتين لإبعادهم ، بعد أن أنزل قائد الأسطول جنوده إلى البر ، وحضر نابليون بعد ثلاث ساعات ، وأعاد تنظيم قواته ، وأصبح المماليك أمام نيران المدافع الفرنسية وجها لوجه ، فاضطروا إلى الانسحاب السريع نحو (شبراخيت) ، ولقى منهم مائتان مصرعهم المحتــوم ، وظل الفرنسيون يطاردونهم حتى احتلوا (شبراخيت) ، ولم يبق أحد من الجماهير على الضفتين .

أما سفينة البارود ، فقد شبت النار فى شراعها ، وامتدت إلى البارود فانفجر ، وسمعت البلاد البعيدة دوى الانفجار ، واحترقت السفينة ، وتطــاير من كان على ظهرها فى الهواء ، واحترق خليل الجريتلى ، وأيقن مراد بك بالهزيمة الساحقة فى (معركة شبراخيت) التى شهد يومها (١٣ يوليه) أول انتصار لنابليون على المماليك .

ومضى الفرنسيون فى زحفهم إلى القاهرة ، فوصلوا إلى (شابور) يوم ١٤ يوليو ، و (كوم شريك) يوم ١٥ ، و (علقام) يوم ١٦ ، و (الطرانة) و (أبو نشابه) يوم ١٧ ؛ و (وردان) يوم ١٨ ؛ و (أم دنيار) يوم ١٩ ؛ ولم يعد بينها وبين القاهرة إلا خمس فراسخ ؛ وكان اللقاء التالى مع قوات مراد بك فى (إمبابة) يوم ٢١ حيث دارت (معركة الأهرام) فانكسر فيهـا المماليك

كسرتهم النهائية ، وفر بعــدها مراد بك إلى (الجيزة) ، وابراهيم بك إلى (بلبيس) ، وكان مراد بك قد استعد للمعركة ، فالتف حوله دفاعا عن القاهرة ؛ حشود العربان والانكشارية والمماليك والأغوات والأعيان والمشايخ وكان أكثرهم من عرب البحيرة والجيزة والصعيد وأولاد علي والهنادى .

المقاومة الشعبية على طول الخط

كانت (البحيرة) أول إقليم حمل راية المقاومة ، قبل أن تطأ أقدام جنود نابليون شواطىء الاسكندرية ؛ لأن البحــيرة كانت على الدوام الدرع الأولى للدفاع عن مصر ، كلما شن عليها العدو غارة من البر أو البحر على السواء .

لهذا كان أهل البحيرة من الفلاحين والعربان ، فى مقدمة الذين لبوا نداء كاشف الإسكندرية لمقاومة الغزوة الأجنبية ، ولكن شتان بين أسلحة وأسلحة ، وشتان أيضا بين النظام والفوضى ؛ أما حكومة مصر فكان زمامها يومئذ بأيدى الدخلاء الغرباء ؛ لا بأيدى أهلها وولاة أمرها ، وكم ضجوا من المظالم ، التى أرهقوا أهلهم بها سلاطين وأمراء وأغوات ؛ ولكن البلد فى خطر داهم ، وسرعان ما خف أهل البحيرة قبل غيرهم إلى النضال مع جلاديهم وجزاريهم جنبا إلى جنب ؛ دفعا لغوائل الفرنسيين الذين حاولوا التغرير بالمصريين ؛ زاعمين لهم أنهم مسلمون ، وأنهم إنما قدموا لتخليص رقابهم من أيدى المماليك ، وأنهم أصدقاء السلطان ، وعساكر السلطان .

وكان أهل البحيرة أول عضد لأهل الاسكندرية ؛ وهم كالعهد بهم وقود لكل حرب على الغزاة المعتدين على شرف البلاد ، لم ترهبهم مدافع نابليون ؛ بل تربصوا لجنوده على طول الخط ؛ فإنه لم يكد جيشه يبتعد بمسافة فرسخ عن (الكريون) ، حتى كان العرب والفلاحون ينقضون على كل كتيبة ، ويخطفون المتخلفين من الجنود ، فيقتلونهم ويدفنونهم فى الرمال ويتخذون من أسلحتهم عدة للمقاومة . وقد شهد (إدوار جوان) بفقد عدد كبير من الجنود والقادة الفرنسيين على أيدى الأهالى ، على الرغم من تحذيرات (الجنرال ميرور) لرجاله بعدم الابتعاد عن المعسكر .

ولما وصل الفرنسيون إلى (دمنهور) ، كان ستة آلاف رجل من الأهلين ؛

على استعداد للقتال ، وخشى الجنرال (ديموى) أن يصطدم بهم ، وإلا كان فى هذا الصدام سحق الحملة عن آخرها ، فلجأ إلى إبعادهم بقذائف مدافعه ، واضطر إلى الانسحاب عن (دمنهور) وإخلائها والتقهقر إلى (بركة غطاس) ، وتربص لهم أهل المنطقة ثانية ، حتى أفلتت الكتيبة منهم بكل صعوبة ، إلى أن وصلت إلى الإسكندرية ، وهى مثخنة بجراحها ؛ ثم عدلت خط سيرها نحو (رشيد) ، بعد أن خسر (ديموى) ثلاثين من جنوده بين قتيل وفقيد ، مما شجع المواطنين على مواصلة مناوشاتهم ، حتى دخلت الكتيبة معسكرها بالإسكندرية يوم ٢٠ يوليه ، وظلوا مرابطين خلف أسوارها ؛ وكانت روحهم المعنوية عالية .

وأخذ أهل القرى فى إقليم البحيرة ، على طول خط سير الحملة ، يتعقبون جنود نابليون ، الذين يتخلفون عن الفرق التابعين لها ، سواء بسبب التعب أو المرض ، أو بسبب التخلف لإبلاغ الرسائل اليومية والبلاغات الحربية إلى قادة الفرق ، فأمعن المواطنون فيهم قتلا وذبحا ، لأن العدو ـ بسبب الجوع والعطش ـ أخذ فى سلب القرى التى كانت فى طريقه ، ففى ١٤ يوليو نهب الجنود التابعون للجنرال (بون) و (الجنرال فيال) قرية (النجيلة) ، فكان صياح الأهالى ، وبكاء النساء يصم الآذان ، فاضطر الجنرال (دوجا) إلى أن يعسكر بها لحفظ النظام ، ومع ذلك لم يستطع الضباط مقاومة جنودهم وهم يتذمرون من الجوع والعطش ، حتى أوجب نابليون على نفسه ألا يتناول غير وجبة واحدة خفيفة ؛ كل ثمانية عشرة ساعة ، ولما وصل الجنود إلى (الطرانة) ، صادروا المواشى ، ونهبوا البيوت ، وأسرع الأهالى ، فأشعلوا النيران فى جرون الغلال ، حتى لا يحصل العدو على علف الخيول من التبن والشعير ، وكانت (وردان) أغنى القرى التى مروا بها فنهبوها فى طريقهم إلى (القطا) ، فغادرها أهلها فرارا من الغزاة الطغاة .

وفاجأ الفرنسيون عددا من المرابطين يوم ٢٣ يوليه عند (باب رشيد) ، وهو الباب الشرقى من أسوار الإسكندرية ، وضاقت أنفاس جنود (ديموى) بهذا الحصار الذى ضربه الشعب حوله ، فاضطر إلى قتل ثلاثة وأربعين من الأهلين ، وأدرك يومئذ أن هناك اتصالا وثيقا بين المكافحين فى الإسكندرية وبين

المكافحين فى دمنهور ، مما أثار دهشة الفرنسيين ، فصبوا جامات غضبهم على البطل السكندرى محمد كريم ، وقد انتهوا منه بالحكم عليه بالإعدام بعد مهزلة سموها محاكمة ، وكانوا قد نقلوه من الإسكندرية إلى رشيد ، فقام أهلها بمظاهرة شعبية يوم ٣٠ يوليو ، فاضطروا إلى نقله فورا إلى القاهرة .

واشتدت المقاومة الشعبية ، وقدم المواطنون كل ما لديهم من العون إلى جيش مراد بك ، وهاجر معظمهم من القرى تاركين بها مواشيهم ومزروعاتهم ، إلى داخل الدلتا وقلت الأقوات ، فى القرى الواقعة على امتداد الضفة اليمنى لفرع رشيد .

وعندما وصل نابليون إلى (أم دينار) يوم ١٩ يوليو ، كانت أخبار (شبراخيت) قد وصلت إلى الأهالى ، فزادت المقاومة الشعبية ، ووقف الشعب صفا واحدا مع المماليك فى « معركة الأهرام » .

وإذا رجعنا إلى الطريق النيلى ، وجدنا الكولونيل (داما Damas) يحتمل البريد من الإسكندرية إلى القاهرة ، عن طريق فرع رشيد ، فينحدر بسفينته من رشيد يوم ١٦ يوليو ، فما يكاد يقترب من (مطوبس) و (إدفينا) ، التى فى مقابلها على الضفة اليسرى ، حتى يهاجمه المواطنون ، فيضطر عائدا إلى رشيد ، ويحاول استئناف سيره ، ولكنه على مسافة اثنى عشر فرسخا يتلقى الرصاص من الضفتين وهو ينهال عليه كالمطر من برنبال والسالمية ودسوق ، وشباس عمير وسنهور فيعود إلى رشيد ، ليستثير حماسة (مينو) ، الذى أصدر أمره بإشعال النار فى (السالمية) على اليمين ، لأن أهلها قتلوا ثمانية من حملة البريد الفرنسى .

وكان (مينو) مع ذلك يخشى أن يجازف بثلة من حاميته ، التى لم تكن تزيد على ستمائة جندى ، لا يكفون مطلقا للدفاع عن المدينة ، فى حالة ما إذا نشب القتال مع الأهلين ، فاكتفى بإصدار منشورات التهديد لأهالى البلاد الواقعة على الضفتين ، فيما بين رشيد وأبوقير ، وأهالى البلاد الواقعة على الخط ما بين أبوقير والرحمانية .

وشهد (مينو) فى خطاب بعث به إلى (نابليون) فى ٤ أغسطس ، بصعوبة المواصلات بين رشيد وأبوقير ، عن طريق البر ، وصعوبة الخروج من البوغاز

إلى البحر ، كما أن (مينو) قد ضاق ذرعا بمناوشات منطقة رشيد له ، على إثر فرض الضرائب ، التى قررها عليهم حتى كتب إلى (الجنرال برتييه) يشكو من إقامته برشيد ، قائلا : [إنى أفضل مائة مرة أن أكون على رأس فرقتى ، على أن أدفن فى هذه المدينة ، فقد جئت إلى مصر لأحرز المجد أو أموت فيها ، لا لأجبى الضرائب] .

أما (كليبر) ـ وهو يومئذ محصور فى الإسكندرية ـ فقد كان موقفه أشد حرجا من (مينو) : فإن الكتيبة التى معه لم تكن كافية لقمع حركات إقليم كبير كالبحيرة ولا سيما البلدان الشمالية منه المتصلة بالإسكندرية ، ويقصد بذلك إدكو ورشيد والكريون ، فإن ثورة يقوم بها أهالى هذه البلاد ، من شأنها قطع المواصلات على جيش الحملة ، فى طريقه من الإسكندرية إلى رشيد ودمنهور ، وتهديد الإسكندريه عن طريق البر ، وقطع ماء الشرب عنها ، بالاستيلاء على ترعة المحمودية .

لهذا كتب (كليبر) إلى نابليون فى ٣١ يوليه يقترح عليه وضع حاميات قوية من المشاة والفرسان ، فى دمنهور والكريون ، بالمدافع [لتوطيد النظام ، فى المثلث الكائن بين البحر والنيل وترعة المحمودية ، وحماية المواصلات البرية فى إقليم البحيرة] .

أما (بركة غطاس) فقد تحمس أهلها ، وقطعوا ترعة المحمودية ، ولكن كليبر أرسل إليها من جنوده العتاة ستمائة ، وأمر بحرق البلدة ونهبها . ولعل الخطر الداهم من هذا العمل التخريبى ، لم يكن بسبب قطع ماء الشرب عن الإسكندرية بقدر ما هو بسبب قطع طريق الملاحة النهرية عن الاسكندرية .

ولم ينس نابليون ما فعله أهل دمنهور ، بقوات الجنرال (ديموى) ، فأرسل إليها القومندان (بيرب Birbes) ، فتوجه من القاهرة إلى (الرحمانية) ، ومنها إلى (دمنهور) فجرد أهلها من السلاح ، وأعدم خمسة من أعيانها ومشايخها ، الذين اشتركوا فى الموقعة ، وأرسل خمسة وعشرين رجلا كرهائن إلى القاهرة ، وأمره بالعودة إلى الرحمانية ، فأقام بها قلعة ، وأنشأ بها مستودعات الذخيرة ، تمهيدا لجعلها عاصمة للبحيرة بدلا من دمنهور .

ولم ير (كليبر) بدا من حشد كتيبة للطواف من الاسكندرية إلى البحيرة ، وكان عليها أن تمر على دمنهور ورشيد وأبو قير للاطمئنان على سلامة المواصلات، وجعل قيادة هذه الكتيبة للجنرال (دومى Dumuy) .

وهكذا انقضى شهر يوليو ، وأهل البحيرة يحملون شعلة الكفاح ، فى وجه نابليون وجنوده ، غير هيابين ، على الرغم من قلة أسلحتهم ، وعدم انتظام صفوفهم ، وعدم وجود قيادة شعبية لها رصيدها .

لقد رفعت البحيرة علم الثورة ،حتى دخل نابليون القاهرة ،فأسلمته إليها لتقوم هى الأخرى بدورها، ولكن هل استسلمت البحيرة، وألقت عن كاهلها عبء الثورة، وكفاها ما لقيت من الضحايا والنكبات ؟

كلا فإن ثورة أخرى لاتزال مراجل البحيرة تهيؤها وتعد لها لتكون الشرارة الأولى لعدة ثورات شملت مصر من أقصاها إلى أقصاها ، والبحيرة هى المصدر الذى اندلعت منه .

ترى أين بدأت .. ؟ .. وكيف نشأت .. ؟ وإلى أين انتشرت ؟

أسطول نابليون يتحطم فى أبو قير

احتل نابليون القاهرة ، وتلاحقت أوامره كأنها مدافع سريعة الطلقات ، فصادر ممتلكات المماليك فى رشيد والإسكندرية وغيرها ، وأصدر أمرا بتشكيل دواوين المديريات ، وجعل على كل منها مندوبا فرنسيا لتحصيل الأموال التى كان يجبيها المماليك ، وفرض مائة ألف فرنك ذهبا على أهل رشيد ، وطلب مشايخ البلاد وأعيانها إلى القاهرة ، فجاء من دمنهور الشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ يوسف الشبراخيتى ، وكانا من الأعضاء العشرة الذين تكون منهم الديوان الذى أنشأه نابليون ليكون أداة الحكم فى مصر .

وبينما كان نابليون غارقا فى أحلامه ، منهمكا فى تخطيطاته ، كان (نلسون Nelson) الإنجليزى يجوب سواحل مصر ، بحثا عن أسطول نابليون ، ولم تكن الحملة فى زحفها الخاطف نحو القاهرة ، قد عززت مواقعها التى خلفتها وراءها . فالإسكندرية لم تقع تحت سيطرة نابليون ، كما أن دمنهور ورشيد لم تعتبرا

محتلتين بالمعنى الصحيح لكلمة « احتلال » ، وكانت التحصينات الساحلية غاية فى الضعف ، وخصوصا قلعة أبوقير القديمة المسماة (طابية البرج) .

وصل أسطول (نلسون) إلى الإسكندرية ، ثم صار فى أول أغسطس سنة ١٧٩٨ م أمام أبوقير ، فوجد أسطول نابليون محتميا بالخليج ، وكان يتكون من ثلاث عشر بارجة كبيرة وأربع فرقاطات ، وعدد من المراكب : عليها ألف ومائة وثمانون مدفعا ، وثمانية آلاف وتسعمائة بحار تحت قيادة (برويس Brueys) ، وكان الأسطول الإنجليزى متكافئا مع الأسطول الفرنسى ، لأنه كان مكونا من خمس عشرة سفينة حربية ، مزودة بألف وخمسين مدفعا ، وعليها ثمانية آلاف ومائتان وأربعون بحارا .

وبدأت المدافع تفتح نيرانها منذ الساعة الثالثة من مساء أول أغسطس ، حتى الساعة الثانية عشر ظهرا من اليوم التالى ، وتحطم خلال هذه الفترة أسطول نابليون ، ومات قائد أسطوله أثناء ضرب النار ، وتولى القيادة بعده (فلنوف Villeneuve) الذى فر بأربع سفن نجت من المعركة بأعجوبة ، حتى رسا بها على (مالطة) ، وقد فقد الفرنسيون فى هذه المعركة أربعة آلاف بحار ، ولم ينج إلا ثلاثة آلاف وسيق الباقى فى ذل الأسر إلى الإسكندرية ، بينما فقد الإنجليز مائتين وثمانية عشر جنديا ، وبلغ عدد الجرحى نحو سبعمائة .

بهذه المعركة التى حدثت أمام خليج أبوقير ، فقدت فرنسا هيبتها فى البحر ، وأصبح اتصال الحملة بفرنسا متعذرا ، ولم تصل أنباء هذه الموقعة إلى أسماع نابليون ، إلا وهو فى (الصالحية) يوم ١٣ أغسطس ، فتميز غيظا على (برويس) ولكنه لم يستطع إلا التسليم بالواقع المر ، والهزيمة الشنعاء .

أما أهل هذه المنطقة فى رشيد وإدكو وأبوقير والإسكندرية ، فقد طرق أسماعهم دوى المدافع ، ورأوا بأعينهم ألسنة اللهب وهى تشتعل فى السفن ، وأعمدة الدخان وهى تتعالى فى السماء وتغطى الأفق ، ووميض النيران يخطف أبصارهم ، قبيل كل طلقة من مدفع . وتناقل المصريون فيما بينهم نبأ هزيمة الفرنسيين ، فشمت فيهم كل مصرى وبات نابليون مكسور الجناح .

لم يعد نابليون قادرا على ضمان وسائل الاتصال بينه وبين قواده ، لهذا

أمر بتعيين ثلاث فرق من اليونانيين فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، ومهمة هذه الفرق حراسة « عربات البريد » فى الطريق بينه وبين سائر الحاميات ، وكانت كل فرقة تتكون من مائة يونانى وجعل مراكزها فى القاهرة ودمياط ورشيد .

الثورة على نابليون .. فى إدكو وإدفينا

منذ انكسر الأسطول الفرنسى فى (موقعة أبوقير) ، والسخط ينصب على الفرنسيين ، والهيبة التى كانوا يأملون فرضها على الشعب تنمحى يوما بعد يوم ، وأصبحت الحملة فى حالة يرثى لها .

وإذا كانت (البحيرة) كلها قد أصبحت تغلى مراجلها ، فإن الجزء الشمالى منها كان أشد البلاد حساسية ، فكأنما كانت هذه المنطقة قائمة على براميل من البارود ، وانفجارها على وشك أن يحدث ، لمجرد لمسه . ولا عجب فى ذلك ، فإن هذه المنطقة من إقليم البحيرة ، هى هى مقاطعة (ميتيليت) التى ثارت على (الملك مينا) منذ آلاف السنين ، دفاعا عن الحرية ، وما أشبه الليلة بالبارحة ! .

فقد اصطحب (مينو) معه الجنرال (مارمون Marmont) وبعض علماء الحملة وكتيبة من مائتى جندى وبعض الضباط ، وكان يريد بذلك كشف شمال الدلتا ، فبدأ خط السير من رشيد فى ١٢ سبتمبر ، فوصلوا (برنبال) ثم (طوبس) ثم (فوة) ، ثم (دسوق) حتى بلغوا حدود مديرية رشيد ، وعادوا منها إلى دسوق ، فلما وصلوا إلى (سنهور) مضوا فى طريقهم إلى (شباس عمير) فانقض عليهم أهلها ، وقتلوا الفنان الفرنسى (جولى Joly) ، وكانت (شباس عمير) محصنة بسور مرتفع عليه أبراج تحصن بها الأهالى وأخذوا يطلقون النيران منها، ولما اقتحم الفرنسيون الحصن أخلاه الأهالى ، واعتصموا ببرج واحد من هذه الأبراج ، وعاودوا إطلاق الرصاص ، حتى أصابوا حصان (مينو) .

أمر (مينو) جنوده بحرق (شباس عمير) ، ولكن أهالى القرى المجاورة خفوا لنجدة إخوانهم ، وتبودلت النيران بين الطرفين ، حتى اضطر مينو إلى التراجع السريع إلى سنهور ومنها إلى دسوق حتى وصل إلى رشيد وهو يجرر أذيال الفشل والخيبة .

عهد نابليون إلى الجنرال (مارمون) بقمع الثورة فى شمال مديرية البحيرة ، لتأمين مواصلات الجيش فى ترعة الإسكندرية (المحمودية) وفرع رشيد ، وحماية السواحل من هجمات الإنجليز ، وتحصين البواغيز ، ومرسى العجمى غربى الإسكندرية .

وصدع (مارمون) بالأمر ، فوصل إلى (الرحمانية) يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم مضى إلى (دمنهور) ، فأصلح ضفاف ترعة المحمودية ، وأقام مخافر رئيسية بمركز الرحمانية وأخرى ثانوية بمركز العكريشة ، فضلا عن مخافر أخرى على امتداد الضفتين ، وسرعان مادب النشاط من جديد فى الترعة ، واستأنفت السفن سيرها ، تحمل الغلال والذخائر .

وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ اندلعت الثورة من جديد فى رشيد وما حولها ، ورفع الأهالى علم الثورة ، فأسرعت إليهم حملة فرنسية ، تمكنت من أسر بعض المتجمهرين ، وقدمتهم إلى المحاكمة الصورية ، واتهمت مشايخ إدكو وإدفينا بالتحريض على هذه الثورة ، فأمر (الجنرال مينو) بإعدام المتهمين فى (رشيد) رميا بالرصاص ، وتم له ما أراد .

دمنهور .. على فوهة البركان

ظن الفرنسيون أن هذا الإرهاب سيوطد مركزهم فى البلاد ، وحسبوا أن (ثورة إدكو وإدفينا) قد انطفأت بإطلاق الرصاص على مشايخها ، ولكن الثورة شاملة ، وكانت انطلاقة العملاق قد بدأت من هاتين القريتين . وكان لها موعد مع القدر ، وهو الذى سيحدد خط السير ، بما لم يكن فى حسبان (مينو) و (كليبر) ، ولا (نابليون) نفسه .

وأثبتت الأيام ما كان خافيا بظهر الغيب ، فإن جميع الثورات التى اندلعت ضد الفرنسيين وعمت الوجهين البحرى والقبلى ، إنما كانت امتداداً للثورة الأولى ، التى انفجرت فى إدكو وإدفينا يوم ٢٠ نوفمبر .

ولم يكد ينقضى الشهر حتى كانت (دمنهور) قد رفعت علم الثورة ، وتأهب لإخمادها (الجنرال مورا Murat) فخف لها من (رشيد) بأمر (مينو) ،

الذى أخـذ للأمر أهبتـه ، فعزز قوة (مورا) بقوة أخرى يقودها (لوتورك Leturc) ، وقامت القوة من رشيد إلى الرحمانيـة ومنها إلى دمنهور فاحتلتها ، وجىء بزعماء ثورتها ، وسيقوا إلى ساحة الشرف والفداء ، ساحة الإعدام رميا بالرصاص ، وفرضت على المدينة غرامة حربية ، ولاذ الثوار بالفرار إلى الصحراء، فأخذت قوات (مورا) تتعقبهم ، ثم استمر مقيما عدة أيام فى دمنهور ، لإسكات الثورات فى القرى المجاورة ، وفرض الغرامات عليها ، وعهــد (مورا) إلى (لوتورك) بهذه المهمة ، فكانت الدفعـة الأولى ستين جملا محمــلة بالغلال ، صادرها من القرى المحيطة بدمنهور ، وأرسلها إلى الإسكندرية .

وغادر (لوتورك) دمنهور فى أوائل ديسمبر ، إلى قرية (دير أمس) ، وكان الثوار يرابطون بهـــا ، وعلى رأسهم سليم كاشف ، وإبراهيم الشوربجى ، فضرب الجنرال عليها الحصـــار بقواته ، ولـكن الثوار تمـكنوا من التسلل إلى الصحراء ، وأخذ الفرنسيون بعض الراحة فى (دير أمس) .

وعاد (مورا) إلى (دمنهور) و (الرحمانيـة) ، وغادرها يوم ٥ ديسمبر إلى (شـابور) ، وتصادف أن كانت قافــلة من الثوار مرابطـة فى معسكرها بالصحراء ، قريبـا من (الصواف) ، فتعقبهـا (مورا) حتى أحرق المعسكر فى اليوم التالى ، وكان الفرسان نحو ستمائة فعطل حركتهم ، ثم مضى إلى (الطرانة) وسلك طريقه إلى القاهرة .

حرائق فى علقام .. بأمر نابليون

أوفد نابليون ياوره (جوليان Julien) من القـاهرة برسالتين إحـداها إلى أبوقير والأخرى إلى كليبر ، فخرجت به السفينة فى فرع رشيد ، حتى وصلت إلى (علقام) ، فجنحت السفينة إلى الضفة ، ونزل الجنود الفرنسيون منها ، وأدرك الفلاحون أنهم قادمون عليهم بالشر المستطير ، فهجموا عليهم هجمة رجل واحد ، وقتلوهم حتى لم يبق منهم جندى واحد .

وطار الخبر إلى نابليون ، فاشتد غيظه ، ولـكنه لم يلبث أن أفرغ كل سخطه على (علقـام) وأمر الجنرال (لانوس Lanausse) بحرق القرية ، ففعل، حتى لم يبق بها ديار ولا نافخ نار .

وفكر نابليون - منذ هذه اللحظة - فى إنشاء أسطول نهرى من السفن الحربية الصغيرة ، للقيام بدوريات على ضفاف فرع رشيد ، وجعل المسافة على ثلاثة مراحل : ١ - من رشيد إلى الرحمانية ٢ - من الرحمانية إلى الطرانة ٣ - من الطرانة إلى بولاق .

من أين لنابليون هذا الأسطول ؟

لقد استطاع نابليون بثاقب فكره أن يجمع شتات السفن الحربية الصغيرة ، التى أفلتت من «معركة أبوقير» وضم إليها المراكب التى استولى عليها من المماليك بعد هزيمتهم فى شبراخيت ، وسلحها جميعا بالمدافع ، وجعل قواعد هذا الأسطول المرقع فى بولاق ومصر القديمة ورشيد ودمياط والصعيد .

الثورة الكبرى فى البحيرة

غربت شمس سنة ١٧٩٨ ، والثورات تندلع تباعا من البحيرة ، وتنتقل إلى القليوبية والشرقية والقاهرة ، وما تزال الإسكندرية ورشيد والبحيرة مراكز الانفجارات الثورية .

وحدث فى أوائل فبراير سنة ٩ ١٧ أن أطلق الأسطول الإنجليزى قنابله على الفرنسيين فى الإسكندرية ورشيد ، ثم عاد الإنجليز إلى الظهور ، بالقرب من بوغاز رشيد ، وأطلقوا الرصاص على القرى المجاورة لها. وأحس الجنرال (مينو) قبل أن تهب العاصفة ، فبعث إلى نابليون بتاريخ ١٥ فبراير يقول : [بدأنا نشعر باختمار فكرة الثورة ، فى البلاد المجاورة لرشيد وأخذ أهالى بعض القرى الثائرة يهددون الملاحة فى النيل] .

فلما كان شهر مارس ، كانت الثورات الأهلية قد اندلعت نيرانها فى الإسكندرية ورشيد وما حولها ، ومما زاد الثورة فى رشيد اشتعالا أن (مارمون) قومندان الاسكندرية قد فرض على مديرية رشيد بأسرها غرامة - تحت اسم سلفة - فدفع أهالى رشيد وفوة ما يخصهم ، وامتنع سائر المواطنين ، فأرسل (جوليان) قوة فرنسية وزودها بالمدافع ، لإرهاب الفلاحين والفتك بهم ، فعمت الثورة جميع البلاد الواقعة على الضفة اليمنى لفرع رشيد : (برنبال)

و (مطوبس) و (كفر شباس عمير) و (القنى) و (السعدة) ، وكانت هذه البلاد تابعة لمديرية رشيد يومذاك ، مع وقوعها على الضفة اليمنى للنيل .

وفى إبريل سنة ١٧٩٩ اشتد أوار الثورة فى البحيرة ، على إثر ظهور رجل مغربى ، أخذ يحض الناس على قتال الفرنسيين ، أعداء الله والوطن ، فالتف حوله (أولاد على) و (الهنادى) والفلاحون من جميع القرى ، وزحف بجموعه حتى وصل إلى (دمنهور) يوم ٢٥ إبريل ، وكانت حاميتها بقيادة (مارتان Martin) ، فانقض الثوار على رجاله حتى أفنوهم .

كثر أتباع المغربى فى البحيرة ، عقب هذا النصر ، ومرت دورية الكولونيل (لوفيفر Lefebvre) لجباية الأموال وتحصيل الغرامات ، فوصلت إلى (دمنهور) بعد انكسار حاميتها ، ثم ولت وجهها شطر (الرحمانية) ، وأقامت عند قلعة الفرنسيين المقامة فى المكان الذى تبدأ منه ترعة الإسكندرية ، وانتظر المدد من الإسكندرية ، فوافته قوة على رأسها (ريدون Redon) فالتقت بجموع المغربى قبل (الرحمانية) ، ودام القتال بينها خمس ساعات انسحب بعدها (ريدون) ، فعهد (مارمون) إلى (جوليان) بإنجاد (الرحمانية) ، فترك فى (رشيد) قوة تكفى لقمع أية ثورة يمكن أن يحدث الأهلون أنفسهم بالقيام بها ، وسار إلى (الرحمانية) .

وفى ٣ مايو سنة ١٧٩٩ التحمت القوات الفرنسية فى قتال مع المغربى وجموعه عند (سنهور) القريبة من (دمنهور) ، وكانت معركة شديدة الهول ، لأن المغربى كان يحارب ومن حوله خمسة عشر ألفا من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان ، كلهم من العرب والفلاحين والمشايخ والأعيان ولم يكن فيهم أحد من المماليك ، لأنهم كانوا قد لاذوا بالفرار إلى الصحارى والقفار ، واستمرت المعركة سبع ساعات حتى أرخى الليل سدوله ، وكان مع المغربى مدفع غنمه من الفرنسيين فى (معركة دمنهور) ، ظل يستعمله ويطلق قذائفه على الفرنسيين فيحصدهم حصدا ، وارتبك (لوفيفر) وأوشك على الانسحاب من المعركة والارتداد من (سنهور) إلى (الرحمانية) ، فلم ير بدا من اقتحام صفوف المجاهدين ، حتى خرج من هذه المجازفة ، وقد تكبد أفدح الخسائر من جرائها ، كما استشهد من المصريين

ألفان ، كان منهم إبراهيم الشوربجى وعبد الله باش وهما من مشايخ (دمنهور) ، واستشهد مراد عبد الله شيخ عرب (الهنادى) .

وكتب الله النصر للمجاهدين وارتد الفرنسيون إلى (الرحمانية) ، فقصد إليهم المغربى برجاله ، فلما رأى أنهم فى موقع منيع ، عاد إلى (دمنهور) ، وجعل منها مقر قيادته .

وصدر الأمر إلى (لانوس) بمغادرة (ميت غمر) فى ٥ مايو سنة ١٧٩٩ ، لقمع الثورة الكبرى فى البحيرة ، وصدع بالأمر . والتقى فى طريقه بقوة أخرى يقودها (فوجيير Fugières) فتقدمت هذه القوات معـا إلى (الرحمانية) ، وواصلت تقدمها إلى (دمنهور) ، حيث قامت المعركة الفاصلة ، وأسفرت عن هزيمة المغربى ، وتمكنت الفئة الباغية من اقتحام (دمنهور) ، وإحراقها وتخريبها حتى صارت يوم ٦ مايو - كما يقول (ريبو Reyboud) - [ركاما من الحجارة السوداء مختلطة بأشلاء القتلى ودماء الشهداء] .

ومن العجب أن هذه الجرائم الشنعاء كانت مفخرة على ألسنة الفرنسيين ، كما نصت على ذلك رسالة (لوفيفر) إلى (دوجا) فى ١٠ مايو ، وكما كتب (لانوس) إلى (دوجا) من الرحمانية يقول [والآن لم يعد لدمنهور وجـود ، فقد قتل من أهلها نحو ألف ومائتين . أو ألف وخمسمائة ماتوا قتلا أو حرقا] .

أما مراد بك فقد فر إلى (الفيـوم) ثم إلى (وادى النطرون) ، قاصـدا البحيرة فأرسل إليه نابليون فرقة يقودها (دستنج Destaing) و (مــورا Murat) ليقطعا عليه الطريق إلى البحيرة ، فمضى إلى الصعيـد ، فكلف نابليون الجنرال (ديزيه Daisaix) بإرسال (فريان Friant) لمطـاردة مراد بك ، وإرسال نصف الفرسان إلى (الرحمـانية) وكلف أيضا (كايبر) بالتحـرك من دمياط إلى رشيد ، وأمر (مينو) بالقدوم من (وادى النطرون) إلى (الرحمانية).

أصدر نابليون هذه التعليمات ، وتحرك هو إلى (الرحمانية) فوصلها يوم ١٩ يوليو ، ولم ينس أن يعهد إلى (دو مارتان) بتحصين الساحل فـيما بين رشيد وأبو قير والإسكندرية ، فلقى حتفه برشيد متـأثرا بجراحه ، من الرصاص الذى أطلقه عليه أهالى (طنوب) و (الزعيرة) وهو يستقل سفينته فى النيل .

ووصلت المراكب التركية من (الإسكندرية) إلى (أبوقير) ، ونزل عثمان خجا إلى قلعتها ومعه مصطفى باشا ، فأطلقت النيران على الفرنسيين الذين كانوا بالقلعة ، واستولى عليها الأتراك وأسروا من كان بها .

كان صالح بك قد ولى عثمان خجا (إمارة رشيد) ، فلما مات صالح بك عاد عثمان خجا من تركيا بصحبة مصطفى باشا ، وفى هـــذه الفترة كان نابليون فى (الرحمانية) ومنها أصدر منشوره المعروف يحـــذر فيه المصريين من الروس القادمين من موسكو ، ويذكرهم بأنهم أعداء الإسلام ، ويهدد فيه المصريين أيضا بأشد أنواع العقوبة ، كما فعل بأهل (دمنهور) ، وغيرها من بلاد « الأشرار » .

وفى اليوم التالى انتصرت الحامية الفرنسية بأبوقير على حامية مصطفى باشا ، واستولوا على القلعـة ، وسيق مصطفى باشا أسيرا إلى الجيزة ، وعثمان خجا إلى الإسكندرية ، ثم أعيد إلى (رشيد) ، حاسر الرأس ، حافى القدمين ، وطافوا به فى شوارع المدينة ، والطبول من حوله ، حتى أوصلوه إلى داره ، وعندها حزوا رأسه ، وعلقوه على إحدى نوافذها ، وتركوه ليراه المـــارة بالسوق ، إرهابا لأهل رشيد .

وفى الساعة العاشرة من مساء يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٩ وصل (كليبر) إلى رشيد ، تلبية لدعوة (نابليون) له بالمقابلة هناك ، ولـكنه فوجىء بما لم يكن فى الحسبان ، إذ علم بمغادرة (نابليون) مصر فى طريقه سرا إلى فرنسا . وبعد بضع ساعات تلقى (مينو) خطاب (نابليون)، وفيه جعل قيادة الحملة فى مصر للجنرال (كليبر) بالنيابة عن [الطير الذى طار من وكره] ، وعاد (كليبر) إلى رشيد ، فأقام بها بعض الوقت فى حيرة وارتباك ، وما لبث أن ركب سفينته فى النيل إلى القاهرة ، وأمر بعقد اجتماع الديوان .

وأعاد (كليبر) النظر فى تقسيم مصر الإدارى ، فجعلها منذ ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، ثمانية أقسام ، ولأول مرة يجعل (الإسكندرية) و (رشيد) و (البحيرة) قسما واحدا عاصمته الإسكندرية ، وقد كان كل همه هو إحـكام السيطرة عـلى الإقليم بواسطة النظـام العسكرى والإدارى ، الذى ابتـكره : حامية بقيادة أحـد الجنرالات ، وكاتب ومترجم وأمين من الأقباط . وأبقى على نظام الديوان فى

كل مديرية ، وكان نابليون قبل رحيله قد عهد إلى (مينو) بالقيادة العامة على الإسكندرية ورشيد والبحيرة ، ولكنه ما لبث أن تخلى عن الإسكندرية للجنرال (لانوس) ، مكتفيا برشيد .

مينو .. يتزوج زبيدة الرشيدية

استطاب الجنرال (مينو) مقامه برشيد ، منذ صار حاكما عليها ، ومن ثمت أخذ يتقرب من أهلها شيئاً فشيئاً ، فأعلن إسلامه ، وسمى نفسه (عبد الله مينو) ، وبدأ يشارك المسلمين فى شعائرهم الدينية ، وأخذ يرتاد المساجد معهم ، ويصلى التراويح فى رمضان مثلهم ، وكتب بذلك إلى نابليون مفاخرا بأنه استطاع اجتذاب القلوب إليه ، وفى هذا كسب كبير لسياسة (نابليون) .

ولم يكتف (مينو) بذلك ، بل خطب زبيدة بنت الرجل الرشيدى السيد محمد البواب إلى أبيها ، فعقد عليها فى ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ (٢ مارس سنة ١٧٩٩) ، على سنة الله ورسوله ، وقد وجد هذا العقد فى سجلات محكمة رشيد الشرعية .

تزوج مينو من زبيدة ، وأنجب منها ولدا سماه (سليمان) ، قيل إنه اختار له اسم سليمان الحلبى ، قاتل سلفه الجنرال كليبر ، تملقاً لعواطف المصريين والمسلمين منهم خاصة ، غير أن هذا الزواج كان موضع تندر من الجنرالات الفرنسيين .

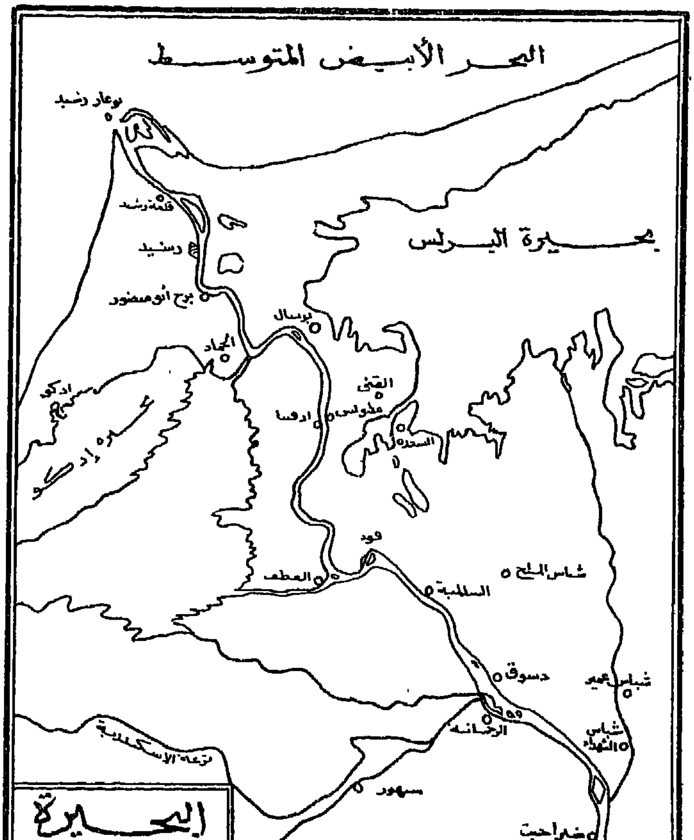
وعاشت زبيدة فى قصرها برشيد مع زوجها ، الحاكم العام على رشيد ، ومديرية رشيد ، وعندما تقدم الأتراك والإنجليز بأسطولهم المشترك ، استصحبها على الرشيدى أخوها إلى الرحمانية ، وقيل إنها وقعت فى أسر الإنجليز ، الذين ردوها إلى (مينو) فى الإسكندرية معززة مكرمة ، يخطبون بذلك ود المصريين .

وسنرى أن (مينو) ، عند الجلاء الفرنسى عن مصر سنة ١٨٠١ سيترك زبيدة ، فى (تورينو) بإيطاليا ، ويستغرق فى مجونه وخلاعته مع الراقصات ، ويهجر زبيدة ، فتموت كمدا ، وكأن إسلامه ، لم يكن غير ذر للرماد فى العيون .

الرحمانية محور ارتكاز نابليون

قصد نابليون إلى (الرحمانية) فى ١٩ يوليو سنة ١٨٠٠ ، استعدادا لصد أسطول الأتراك ، واتخذ من الرحمانية نقطة ارتكازه فى الهجوم المباغت عليهم .

ولما نزلت قوات مصطفى باشا ، على ساحل أبوقير ، أسرع نابليون إلى (بركة غطاس) ، وركز فيها هجومه ، على منطقة أبوقير ، ليقطع الطريق على



الأتراك ، من الإسكندرية ورشيد إلى داخل البلاد ، وتم نقل المعدات من (الرحمانية) إلى (بركة غطاس) فى ٣١ يوليو .

وفى ظلام الليل ، انتقل نابليون من (بركة غطاس) ، وأقام معسكره فى

(كفر سليم) و (العكريشة) ، وتحت جنح الظلام أيضا ، انتقل إلى الإسكندرية، فجعلها مقر قيادته العليا ، وأرســـل (دستنج) على رأس كتيبته ، لاستكشاف الطريق من (الإسكندرية) إلى (أبوقير) وللاطمئنان على سلامة الآبار .

ومن ثمت أصدر أوامره بالزحف من (البيضا) إلى (سد أبوقير) ، وترعة الإسكندرية ، ومن هناك إلى (أبوقير) ، وتقدمت من (رشيـد) نحوه قوات (كليبر) ، ولم يعـد بين (نابليون) و (أبوقير) غير سبعة كيلو مترات ، وفى صباح يوم ٢٥ يوليو دارت المعركة فانهزم مصطفى باشا ، وتحصن بقلعة أبوقير، ولكنه وقع فى أسر نابليون ، وبهذا النصر استرد أنفاسه ، بعد أن منى بالهزيمة النكراء ، فى موقعة أبوقير ، فإذا كان فى الأولى قد انتصر عليه الإنجليز بحرا ، فإنه فى هذه المرة قد انتصر على الأتراك برا .

البحيرة بين مخالب الذئاب

منذ دبت الأقدام الفرنسية على الأرض الطيبة ، والمصريون فى الميدان وحدهم ، يصطلون النكبات واحدة فى إثر الأخرى ، والسلطان لا يحرك ساكنا، ومراد بك أعلن ولاءه للفرنسيين الذين احتلوا مصر وحطموا قواته فى (موقعة الأهرام) ، ودمروا أسطوله فى (موقعة شبراخيت) ، ولم يجد شعبنا زعيما يلتفون حول رايته غير إبراهيم ومراد ، فقدموا كل مرتخص وغال ، دفاعا عن الأرض التى رووها بالعرق والدمع ، ولم يبخلوا عليها بالدم ، ثم تخلى المماليك عن هذا الشعب ، وتركوا ظهره عرضة للذئاب المسعورة .

وتحالفت إنجلترا وتركيا ضد نابليون ، فأرسلتا الأسطول المشترك إلى مصر ، فرسا على خليج أبوقير فى ٢ مارس سنة ١٨٠١ ، وكان (لورد كيث) قائدا للقوات البحرية الإنجليزية ، وعدتها سبعة عشر ألفا وخمسمائة مقاتل ، على رأسهم الجنرال (رالف أبركرومبى Ralph Abercromby) ، وكان حسين باشـا قبطان السفن التركية ، وعددها ٥٧ وكانت تقـــل نحو ستة آلاف من الأتراك والانكشارية ، ولكنه لم يصل بهم إلا يوم ٢٥ مارس

وفى ٨ مارس بدأ الإنجليز ينزلون إلى شـاطىء أبوقير ، على متن ثلاثمائة

وعشرين زورقا ، نزلت جميعا فى صف واحد على خمس مجموعات ، بقيادة (كوكران) ، وكان فى مقدمة كل منها مدفعية ، وتقدمت الزوارق نحو الشاطىء تحت ستار من القذائف الفرنسية ، أطلقتها مدافعهم الساحلية ، وكان الجنرال الفرنسى (فريان Friant) قد تحرك إلى هناك على رأس ألف وخمسمائة مقاتل وأعد مدافع أبوقير للقتال ، وزودها بمدافع أخرى ، على تل مرتفع ، ليكون ظهيرا لمدافع قلعة أبوقير ، وجهز قوة ضاربة من ألفى مقاتل .

وفتح (فريان) أفواه مدافعه على الإنجليز ، أثناء نزولهم إلى الشاطىء ، وكثر القتل فى الجانبين ، حتى تمكن الإنجليز من النزول ، وارتد (فريان) إلى (المندرة) ثم تقدم (لانوس) بقواته إلى ما يلى (الرحمانية) لإنجاد قوات (فريان) ولكنه لم يكن أسعد حظا منه ، فانضمت القوتان .. زحفا .. ولكن سبق السيف العذل ، فقد استولى الإنجليز على الساحل ، ثم طاردوا قوات (فريان) إلى (معسكر قيصر) حيث توجد ثكنات مصطفى باشا التى صارت تعرف اليوم بمعسكر مصطفى كامل الواقع شرق سيدى جابر بالإسكندرية .

وعلى مقربة من مسجد (سيدى جابر) ، انتصر الإنجليز على قوات (فريان) وزميله (لانوس) فى (معركة سيدى جابر) فى ١٣ مارس سنة ١٨٠١ ، ثم فى معركة (كانوب) بالقرب من محطة (النزهة) فى ٢١ مارس ، حينما حاول (مينو) أن يقذف من (أبوقير) إلى الجهة اليمنى من البحر والمعسكر الرومانى القديم بثمانمائة ألف وثمانمائة جندى من قواته ضد استحكامات الإنجليز البالغ عددهم يومئذ ستة عشر ألفا ومائتين تحميهم المدافع الثقيلة ، وشقت قوة من الفرسان قوامها ألف ومائتا فارس طريقا وسط استحكامات الإنجليز ، ولكنها باءت بالفشل وانهزم (مينو) فى محاولاته هذه ، وتقهقر الفرنسيون غربا إلى الإسكندرية ، وكانت القوات التركية قد وصلت يوم ٢٥ ، ومن ثمت وقعت البحيرة ـ وهى دائما مفتاح مصر ـ فريسة بين مخالب الفرنسيين والأتراك والإنجليز والمماليك .

أما (كليبر) فقد اغتاله الفدائى السورى سليمان الحلبى سنة ١٨٠٠ ، ولحق به مراد بك سنة ١٨٠١ وهو بالصعيد فتك به الطاعون ، وانزوى (مينو) فى الإسكندرية ، وعهد الجنرال (هتشنسون Hutchinson) بعد مقتل (أبركرومبى)

إلى قطع خط الرجعة على (مينو) ، فكسر « سد أبو قير » فى إبريل سنة ١٨٠١، وبهذا تلف ماء ترعة الإسكندرية ، وطفت مياه البحر على مساحة كبيرة من إقليم البحيرة ، فخربت القرى ، وتلفت المزارع ، وبهذا انقطعت المواصلات بين (مينو) فى الإسكندرية وبين حاميته ، التى كان يعول عليها فى (الرحمانية) ، وظل محصورا بين البحر والبحيرات .

وكان الجنرال (سبنسر Spencer) مكلفا بالاستيلاء على رشيد تمهيدا لمرور زوارق المدفعية الإنجليزية فى فرع رشيد ، أما وقد اطمأن (سبنسر) إلى أن (مينو) لن يستطيع الزحف شرقا إلى رشيد ، بعد كسر « سد أبو قير » ، وإغراق هذه المنطقة الشاسعة بمياه البحر ، فقد عمل استحكاماته القوية فى (القلعة المربعة) الواقعة فى شمالى رشيد على بعد فرسخ ، وعززها بأربعة آلاف تركى ، استعدادا للهجوم على رشيد ، فاستولى عليها ، ثم زحف إلى فوة ، ومضى إلى الرحمانية ، حتى بلغ الجيزة .

ووصل مراد بك من الصعيد ليدرك القوات التركية ، فى معسكر أبو قير ، ولكن الفرنسيين ، كانوا قد ولوا الأدبار .

عمدة إدكو يتجسس لحساب فرنسا ؟!.. كلا

بات الجنرال (مينو) فى حالة لا يحسد عليها ، وأصبح فى مأزق شديد لا فكاك منه ، وأحدق به الخطر من كل جانب : فالعثمانيون ـ أصحاب البلاد الشرعيون ـ قد استيقظوا من سباتهم العميق ، فجاءوا صحبة الأسطول الإنجليزى ليستردوا مصر من براثن الفرنسيين ، والمماليك ـ على الرغم من ولائهم للحملة ـ لا أمان لهم ، والشعب هو العدو رقم١ بالنسبة للجميع ، وأشد المناطق حساسية هى تلك التى أصبحت مسرحا للحوادث الجارية ، وهى المنطقة الواقعة بين إدكو ورشيد ، كانت ولا تزال مصدر كل ثورة ، وشيوخها وأعيانها كانوا فى طليعة الثوار ، فأعدموا رميا بالرصاص ، فهل نسى أهل المنطقة كل ذلك ؟ أم هل نسى (مينو) وهو الذى أمر بإعدامهم فى رشيد يوم كان حاكما عليها ؟

أرسل (مينو) قوة من فرسانه ، للقيام باستكشاف هذه المنطقة ، وخصوصا

فيما بين (إدكو) و (القلعـة المربعة) ، وكان على رأس هـذه القوة ضـابط من كبار الياوران ، ويظهر أن الضابط قد شعر بالخذلان ، فلم تسعفه الحماسة للقيـام بمهمته على الوجه الأكمل ، وإنما اكتفى بالتجوال أمام رشيد والتقى صدفة بأحد الأهالى، واستطلع منه معلوماته ، فاكتفى بها الضابط الـكشاف ، وعاد بها سريعا، وأعد تقريرا موجزا ، يفيد أن القوة التى احتلت (القلعة المربعة) فيما بين سبعمائة وثمانمائة جندى، وأنها تقصد باحتلال هذه القلعة إنشاء مستشفى لعزل الأتراك عن بقية الجيش..

وفى الواقع أن هـــذه المعلومات لم تـكن صحيحة ، بل الصحيح هو ما نقله شيخ (عمـدة) إدكو فى ٦ ابريل سنة ١٨٠١ إلى (سان فوست) عن عـــدد القوات الموجودة بالقلعة وكانت فى تقديره أربعة آلاف ، وعن تحركاتها استعدادا للزحف على رشيد فى اليوم التالى

وامتلأ قلب (فوست) بالذعر ، خصوصا وأنه لا يملك قوة تـكفى لصـد مثل هذا العدد الضخم من المقـاتلين ، وشرع فى نقل المدفعية والمرضى والجرحى من جنوده إلى قلعـــة رشيد الشهيرة بقلعة (جوليـان) ، وظل يرقب تحركات العثمانيين والانجليز طوال يوم ٧ إبريل ، حتى غربت الشمس فلم يظهر أثر للعدو.

وفى اليوم التالى فوجىء (فوست) بالعثمانيين أمام رشيد ، واشتبك معهم فى معركة ، قرر أثناءها إخلاء رشيد ، وقد حضر (سارتلون Sartelon) من قبل (مينو) لنقل المؤن إلى (الرحمانية) ، فوجد أن وسائل النقل فى رشيد لا تفى بهذا الغرض ، فترك المؤن بها وغادرها مسرعا الى (فوه) و (الرحمانية) تاركا بقلعة رشيد وبرج أبو منصور حاميتين خفيفتين .

وفى عصر ذلك اليوم ، شوهـد العثمانيون من برج أبو منصور وهم يزحفون إلى رشيد وقلعـــة رشيد ، وفى يوم ١٠ أخذوا مواقعهم أمام المدينة فسلمت بلا مقاومة ، وكاد قلب (مينو) ينخلع من صدره فزعا ، فأرسل قوة من القـــاهرة يقودها (بيبـان Pépin) لتعزيز القوة المرابطة يومئذ بالرحمانيـة ، باعتبار أنهـا مصدر تموين الإسكندرية ، كما عمل على إقامة التحصينات اللازمة عند (العطف) لوقف الزحف الإنجليزى ، ولـكن كسر «سد أبو قير» وإتلاف ترعة الإسكندرية ،

وإغلاق هذه المنطقة على النحو الذى اختاره (هتشنسون) ، كان خطة ناجحة فى عزل القوات الفرنسية الثلاث عن بعضها بعضا ، فلم يعـد ثمت اتصال بينها فى الإسكندرية والرحمانية والقاهرة ، سواء بالبر أو بالنيل

وتمكن الإنجليز عندئذ من نقل مقر القيادة إلى رشيد ، وزحف (هتشنسون) إلى (الرحمانية) ومعه قوات القبطان باشا .

وعلى الرغم من القوات الفرنسية الكائنة عند (العطف) بقيادة (لاجرانج Lagrange) ، فإن الإنجليز استطاعوا أن يمروا بقواتهم فيما بين ميسرة المعسكر الفرنسى بالعطف وبين بحيرة إدكو ، وسلكوا الطريق فيما بين إدكو وبحيرة أبو قير ، وتمكنوا من إرسال قوة عبر هذا الطريق إلى دمنهور ، لغزو (الرحمانية) .

وانسحب (لاجرانج) من (فوة) إلى (الرحمانية) فى ٧ مايو . على الرغم من قوة التحصينات التى قام بها عند العطف ، وكانت تمتد إلى مسافة ثلاثة أميال فى عرض السهل من النيل جنوبى بحيرة إدكو ، إلا أنها كانت تحمى المواقع الأمامية فقط ، بينما كانت الفرصة سانحة للفرنسيين بالمرور من المنطقة الخالية فيما بين ميسرتهم وبين بحيرة إدكو ، ولكنهم خافوا من حركة تطويق يقوم بها الإنجليز .

وصل هتشنسون ظهر يوم ٩ مايو إلى (الرحمانية) حيث دارت المعركة ، ولم يستطع (لاجرانج) أن يقاومه ، فانسحب منها فى مساء اليوم نفسه ، وسلمت فى صبيحة يوم ١٠ مايو .

ولا يفوتنا أن نلاحظ ما ذكره أستاذنا الدكتور محمد فؤاد شكرى [١] عن شيخ إدكو وموقفه مع الفرنسيين ، وقد عبر عنه بقوله إنه [كان صادق الولاء لهم منذ قدومهم إلى هذه البلاد ، وقد رجا هذا الشيخ قومندان رشيد (الفرنسى طبعا) أن يحرق رسائله وأن يمتنع عن مكاتبته خوفا من وقوع هذه الرسائل فى أيدى العدو (العثمانيين والإنجليز طبعا)] .

ونحن نستبعد هذه التهمة وننفيها نفيا قاطعا عن عمدة إدكو أو شيخها مهما يكن اسمه أو شخصه ، والحقائق الثابتة تؤيدنا فى هذا النفى ، فإن الدكتور

---

(١) « عبد الله جاك مينو » : ص ٤٤٩

شكرى قد اعتمد على أقوال المؤرخين الفرنسيين، وهم وحدهم الذين جاءوا بهذا الخبر دون أن نجد له أى أثر فى مراجعنا العربية وفى مقدمتها طبعا الجبرتى مؤرخ هذه الحقبة الهامة من الأحداث ، والمعروف دائما عن المؤرخين الفرنسيين عندما تصيبهم الهزيمة أن يتهموا المصريين بالخيانة لوطنهم ، أما عمدة إدكو أو أى شخص آخر منها أو غيرها من المنطقة فيستحيل عليه أن يمالىء الفرنسيين وأن يكون « صادق الولاء » لهم ، لا لشىء إلا لأنه ما يزال يذكر أن هذه المنطقة كانت أول مكان قام بشرف الثورة على فرنسا فى إدكو وإدفينا ، وكانت النتيجة أن مشايخها قد أعدموا فى رشيد ، رميا بالرصاص ، بأمر (مينو) .

وشىء آخر له اعتبـــاره هو أن المؤرخ الفرنسى (إدوار جوان) فى كتابه (مصر فى القرن التاسع عشر) قد شهد بعزة النفس التى تحلى بها أهل البحيرة فى تصيدهم قادة جيش نابليون فى زحفهم من الإسكندرية إلى الرحمانية عبر البحيرة، فلم تفلح معهم وسائل الإغراء بالمال لافتداء أحد هؤلاء القادة ، فقتلوه انتقاما للشرف الرفيع .

ولم يعرف عن مواطن واحد أنه خان مصر فى مدة الحملة الفرنسية ، وإنما الخونة هم المماليك وعلى رأسهم مراد بك الذى هزمه الفرنسيون ، ثم صالحهم ، ولما قدم العثمانيون مع الإنجليز ، أحضر (هتشنسون) ضمانا من القبطان باشا وانضم بعدئذ إلى الإنجليز ، هـذا هو مراد ، وسيكون على شاكلته كما سنرى محمد بك الألفى صنيعة الإنجليز الذى خان وطنه ودينه ، وصحبوه معهم إلى (لندن) بعد هزيمتهم المنكرة فى دمنهور سنة ١٨٠٣ ثم أعادوه إلى مصر سنة ١٨٠٤ ، ليقوم بإعداد ترتيبات احتلال مصر من جديد ، وخيبت الأقدار ظنه وظنونهم.

وعلى كل حال ، فقد صدق المصريون فى كفاحهم المرير ، وجلا عن بلادهم كل من الذئاب الثلاثة ، وبقى المصريون .

مؤامرات على البحيرة

هنا الاسكندرية ، واليوم هو ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ ، وقد أرهف التاريخ سمعه ، لهذا النبأ ، وهو أن آخر جندى فرنسى قد جلا عن مصر ، مع غروب

شمس ذلك اليوم ؛ وبذا انطوى العلم الفرنسى ، وغاب عن الأنظار إلى غير رجعة.

نعم ، تم جلاء الفرنسيين ، ولكن الإنجليز والأتراك والمماليك ، لا يزالون فى مصر ، وهم جميعا دخلاء ، ومن شأن الدخيل أن يعمل على طرد الدخيل ، بكل حيلة ليبقى هو .

أما الأسطول العثمانى ، فقد ظل راسيا على مياه أبوقير ، وبه ستة آلاف من جنود الإنكشارية . وأربعة آلاف من الارناؤط ، مهمتهم الرئيسية : مراقبة منطقة غرب الدلتا القريبة من الأسطول ، بينما كان عثمان بك الطنبورجى يحاصر الإسكندرية ، بقوة من المماليك عدد أفرادها ستمائة .

ويومئذ كان والى مصر محمد باشا خسرو ، وأمير الصعيد الأعلى زعيم المماليك محمد بك الألفى ، والمماليك غصة فى حلق العثمانية ، فلا سبيل إلى التخلص منهم ، إلا بالمؤامرات والمذابح ، وهكذا فعل حسين باشا القبطان ، حينما دعا كبار المماليك فى هذا الشهر إلى معسكره فى أبوقير ، بدعوى تخويلهم السلطة .

ركب المماليك زوارقهم عبر بحيرة أبوقير ، التى كانت تفصل المعسكر عن مرسى الأسطول ، وخرجت الزوارق من البحيرة إلى المرسى ، فاستقبلتها ثلاث سفن تحمل الرجال ، بأيديهم السيوف ؛ فأحاطوا بالضيوف من كل جانب ، وأمعنوا فيهم ضربا ، حتى قتلوا عثمان بك الطنبورجى - خليفة مراد بك - وعثمان بك الأشقر ، وإبراهيم بك كتخدا السنار ، ومراد بك الصغير .

أما الموائد التى كان قد أعدها حسين باشا لضيوفه ، فقد كانت الطعم الذى تمكن به من اصطياد خصومه الألداء ، فقد قيل إنهم لما حضروا أحسن استقبالهم ، ثم دعاهم إلى زيارة بارجته فى خليج أبوقير ، فلما توسطوا البحر ، انطلق عليهم الرصاص ، وانهالت عليهم السيوف ، فغرق من غرق ، ولم ينج إلا القليل .

هذا وقد كانت القاهرة إذ ذاك تشهد مذبحة مماثلة ، قام بتأليفها شيخ البلد إبراهيم بك .

ولما كان الاتفاق قد تم بين تركيا وفرنسا ، فقد شرع الإنجليز فى مصر - على يد الجنرال (ستيوارت Stwart) - يحرضون المماليك ضد العثمانيين . ويشدون أزرهم ، فلما جرت (مذبحة أبوقير) ، احتج الإنجليز ، ليظهروا بمظهر المدافع

عن البقية الباقية من المماليك ،وقد آلت زعامتهم إلى اثنين هما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى ، أما الأول فكان هواه مع فرنسا ، والآخر مع انجلترا .

أما فرنسا فقد بعثت جاسوسا لنابليون وهو (سباستيانى) لجمع كافة المعلومات من اتصالاته بمن كان لهم النفوذ أيام الحملة ، وأخذ (سباستيانى) يتنقل من بيت إلى بيت ومن قرية إلى قرية ، ويتفقد الاستحكامات فى أبو قير ورشيد ، وزار بالرحمانية الشيخ محمد أبو على ، وحاول زيارة عمر مكرم فاعتذر لمرضه ، وقابل نفيسة المرادية ، واتصل بمشايخ العربان ، وأهدى كل من لقيه صورة نابليون .

وما لبث أن ضمن تقريره إلى نابليون افتراءات على المصريين بولائهم لنابليون ، مدعيا أن مصر يكفى لغزوها فى وضعها الراهن ستة آلاف جندى .. أضغاث أحلام .

دمنهور تسحق الأتراك .. والإنجليز يضحكون

أراد الإنجليز أن يردوا للمماليك اعتبارهم ، بعد تلك المذابح التى دبرها ويدبرها لهم العثمانيون ، فحرضوهم على الزحف من الصعيد على الوجه البحرى ، ووعدوهم بالمساعدة ، حتى يطهروا البلاد من العثمانيين ، الذين تحالفوا بالأمس القريب مع خصومهم الفرنسيين .

فإنه منذ جلا الفرنسيون عن مصر ، استقر الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا بالقاهرة لتنظيم شئون الحكم ، بينما رسا القبطان حسين باشا بأسطوله أمام أبوقير ، وعقد الوالى محمد خسرو باشا كل عزم على الفتك بالمماليك حتى يتخلص من شرورهم ، التى طالما ضج منها الأهالى بالشكوى .

وقبل الجلاء الفرنسى ،كان القبطان باشا قد أرسل إلى « قلعة الرحمانية » قوة يقودها محمد على ، فدخلها يوم ١٠ مايو سنة ١٨٠١ ليلا ، فأسرع بإخلائها (لاجرانج Lagrange) قبل أن يلتحم معه القائد الأرناؤطى فى قتال .

زحف المماليك بتحريض الإنجليز على البحيرة ، فأعد خسرو باشا لقتالهم جيشين من أربعة عشر ألفا : مابين مشاة وفرسان . وزودهم بالمدافع والبنادق ،

وكان أحد الجيشين يقوده يوسف كتخدا وطاهر باشا ، أما الآخر فكان يقوده محمد على .

وكان على محمد على أن يزحف بقوة من الأرناؤط على دمنهور لطرد البرديسى والألفى منها ، وقد كانت قواتها نحو ألفين ومعهم نحو خمسة آلاف من العربان.

وصلت قوات المماليك إلى (حوش عيسى) فنزلوا بها فى أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٢ ، ثم تحركوا إلى مكان قريب من دمنهور حيث وقعت الواقعة فى ٢٠ نوفمبر ، وحرص الإنجليز على أن يرقبوا المعركة عن كثب ، بينما بذلوا الوعود للمماليك بالمساعدة إذا نشب القتال .

أدرك الإنجليز أن عثمان البرديسى فى الميدان وحده ، فليس ثمت مكان للقوات الأرناؤطية التى يقودها محمد على . وبذا كان المماليك قلة قليلة بالنسبة للعثمانين ، فنصحهم الإنجليز ألا يخوضوا المعركة ، فلم يسمع لهم أحد .

وارتكز يوسف بك كتخدا بجناحه الأيسر على ترعة الإسكندرية ونصب أمامها المدافع ، وانقض فى هذا السهل على المماليك ، حتى انتصر على البرديسى ، واستمر القتال ، فانقض على الجناح الأيسر ، وفتك بالمشاة ، ولكن المماليك على قلتهم ، انتصروا أخيرا وكبدوا العثمانيين خسائر فى الأرواح قدرت بخمسة آلاف جندى ، مابين قتيل وأسير ، كما استولوا على مدافع كثيرة من العثمانيين فى نظير خسارة فى الأرواح لا تزيد على ستين رجلا ، وانجلت المعركة عن ثلاثة آلاف جثة ، طرحت بالعراء فيما بين دمنهور والصحراء .

أما الإنجليز . فقد ظلوا ـ طول المعركة ـ يرقبون سيرها من فوق تل مرتفع ، لا يتحركون لنصرة فريق على آخر ، ولكنهم صفقوا لهم طويلا ، وبشوا فى وجوههم ، وأغلب الظن أنهم أصبحوا يمنون عليهم بأطيب التمنيات ، التى كان لها الأثر الفعال فى النصر المبين على قوات السلطان .

ألم يحضر الألفى بك إلى معسكر الإنجليز عند (بركة غطاس) ليطلب إليهم التوسط لدى الباب العالى لشموله المماليك بالرضى السامى ؟ ألم يكتبوا من (حوش عيسى) إلى (استيوارت) أنهم يقتربون من دمنهور .. فالغوث الغوث !.

على كل حال .. لقد انتصر المماليك على خصوم الإنجليز فى (معركة دمنهور) ،

وبعدها ، واصل الألفى مساعيه لديهم ، لتحقيق مطالب المماليك عند الباب العالى من جهة ، وممثليه فى مصر من جهة أخرى .

أما خسرو باشا فقد فاجأه هذا الموقف المتخاذل من محمد على ، الذى لم يدخل المعركة وخالف الأوامر ، وقد حاول خسرو أن يمد يد المساعدة فى المعركة بالعتاد والرجال ، ولكن كل شيء كان قد انتهى ، حتى (الشركفلك) الذى أمر بإتمامه ، فتم فى خمسة أيام ، وأرسله على ظهور الجمال ، لم يكن ثمت مجال لإرساله، فقد ركب الخليفة وانفض المولد .

وقد أسرع المماليك بإقامة معسكر لهم قريبا من الإسكندرية ، وظلوا هناك نحو ثلاثة أشهر ، فهل كان فى نيتهم الاستيلاء عليها ؟ .. على أية حال فإنهم لم يتخذوا بهذا الصدد خطة حاسمة ، إذ أنهم ما لبثوا حتى غادروها فى ١٦ مارس سنة ١٨٠٣ إلى دمنهور ثم الصعيد .

ولاذ خسرو باشا بالفرار ، وخلفه أحمد باشا خورشيد ، أما طاهر باشا ، وهو يومئذ زعيم الأرناؤط ونائب محمد على ، فقد اصطدم بعدة مشاكل أهمها (الرحمانية) .

نعم ، فإن خسرو قبل فراره ، كان قد عزز (الرحمانية) بقوة عسكرية بقصد السيطرة على الملاحة النهرية فى فرع رشيد ، فى حين أنه أهمل إهمالا تاما الاستيلاء على رشيد ، وقلعة رشيد ، التى كانت لا تزال فى قبضة الأرناؤط .

ورأى حاكم الإسكندرية الجديد ـ أحمد باشا خورشيد ـ أن من الحكمة تحطيم جسور بحيرة المعدية (أبوقير) ، وكسر « سد أبوقير » ، وحراسة المنافذ الموصلة إلى المدينة ، وأسرع بالذهاب إلى القاهرة ، ليستطلع الجو ، وليقف على اتجاه الرياح المختلفة ، ولكنه ما لبث أن عاد مسرعا .

أما الإسكندرية فقد أصبحت بمعزل عن رشيد وعن البحيرة وعن القاهرة ، وانقطعت المياه العذبة والمواد الغذائية عن الإسكندرية ، فى سبيل ماذا ؟ البقاء أو الفناء .

البرديسى .. ينتقم من البحيرة

تم جلاء الفرنسيين ، ثم الإنجليز ، ولم يبق إلا الأتراك ، وكان من الطبيعى ألا يتنسم المصريون حرياتهم طالما الأتراك والمماليك بين ظهرانيهم ، مهما تلوت حبال السياسة ، ومهما كان اللاعبون عليها .

وكان المماليك فى مصر أشبه بالكلاب التى أطلق لها أسيادها الأطواق ، وانصرف عنها هؤلاء الأسياد ، لمشاغل تهد الجبال الرواسى .

من أجل هذا ، كان المماليك بالنسبة للسلطان عصاة متمردين ، فلينهبوا وليسلبوا خيرات مصر ، ما شاء لهم أن ينهبوا وأن يسلبوا . ففى ١١ يونية سنة ١٨٠٣ اقتسم الكبار منهم أقاليم مصر فيما بينهم ، فذهب سليمان كاشف البواب بعساكره إلى رشيد ، وتوجه عثمان البرديسى إلى دمياط ، واتفق البرديسى مع محمد على على الاستيلاء على رشيد والإسكندرية على أن يتلاقى جيشاهما عند الرحمانية ، فذهب إليها البرديسى فى فرسانه ، وتبعه محمد على بعشاته ومدفعيته .

أما رشيد فكانت تحت سيطرة حاكمها إبراهيم أفندى التركى ، وكان بها جماعة من الأتراك ، فلما أحس بزحف سليمان أغا كاشف - وهو رئيس قوات البرديسى - على المدينة أخلاها وتحصن (ببرج مغيزل) حيث قلعة جوليان (قلعة رشيد) ، فمضى إليه وفرض عليه الحصار بها ، وتولى على باشا الجزايرلى أمر مصر فوصل الإسكندرية فى ٨ يوليه سنة ١٨٠٣ ، وخشى المماليك أن تسقط رشيد والإسكندرية فى يده ، ولكنه أسرع فأرسل إلى رشيد أخاه على باشا القبطان ، وعلم بأمر هذا الحصار الذى ضربه عليها سليمان أغا كاشف ، فأخبره بحضوره وحضور والى مصر الجديد على باشا الجزايرلى ، واستنكر عليه هذا الحصار ، وظل يقنعه بفك الحصار والارتداد ، نظرا لما يدور من مفاوضات للصلح بين الباشا والبرديسى ، فاقتنع ثم مضى من (رشيد) الى (الرحمانية) فى ١٢ يوليه سنة ١٨٠٣ ، واحتل رشيد السيد على القبطان بعد أن غادرها سليمان أغا ، وكان الخوف قد دب فى قلبه من أن يهجم عليه العثمانيون من برج مغيزل والإسكندرية .

وعلم البرديسى وهو فى جولته اللصوصية وكان بالرحمانية مع محمد على ، فقررا

معاودة الزحف على رشيد فبادر بالوصول إليها يوم ٢٣ يوليه ، فتخوف منه على باشا القبطان ، الذى لجأ إلى (برج مغيزل) فتحصن به منه ، وكان أهل البرج قد غادروه ، فرارا من هؤلاء ، واستولى محمد على والبرديسى على رشيد ، وقررا عليها ثمانين ألف ريال ، وحاربا الأتراك ، وانتصرا عليهم ، واستوليا على برج رشيد ، بعد قتال دام أكثر من عشرين يوما .

وكان على باشا الجزايرلى قد بعث من الإسكندرية إلى أخيه بالإمدادات والسفن ، التى وصلت إلى بوغاز رشيد لحماية كل نجدة تصل إلى قلعة رشيد ، ولإحباط كل عمل يقوم به العدو ، ولكن كل هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح ، واستسلمت القلعة فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٣ .

ووقع على باشا القبطان أسيرا هو ومن معه ، وسيق إلى القاهرة ونال الكثير منهم حتوفهم ، ونفى الآخرون إلى الشام .

وكان على باشا الجزايرلى فى موقف لايحسد عليه فى الإسكندرية ، ولما كان يتخوف من قدوم المماليك إليه ، فأسرع بتحطيم « سد أبوقير » تماما كما فعل (هتشنسون) منذ سنتين ، ليمنع المماليك من الزحف إلى رشيد . وعاد الخراب إلى الإسكندرية والبحيرة من جديد ، وجلا معظم الفارين إلى (أزمير) أو (قبرص) .

ومما زاد من خراب البحيرة ، ذلك الخندق الذى سخر أهل الإسكندرية فى حفره حول المدينة ، وأطلق ماء البحر ليجرى فيه ، كمحاولة منه لتحصين الإسكندرية ضد المماليك .

ولما استقر البرديسى فى رشيد ، ذهب (مسيت) لمقابلته ، ثم توجه (بتّروشى) لمقابلة البرديسى وسليمان أغا فعرف من هذا أن المماليك يكنون الولاء للإنجليز ، ثم ذهب البرديسى إلى دمنهور قاصدا الزحف على الإسكندرية لإنهاء الحكم العثمانى من مصر ، فحال كسر « سد أبوقير » ، دون وصوله إليها ، فقد كان الطريق وعرا ، والخراب شاملا ، والأقوات معدومة .

استقر البرديسى فى دمنهور ، وترك على عسكره برشيد مملوكه يحيى بك البرديسى بعد أن عبأ (برج مغيزل) بالذخائر ، وفرض على أهل رشيد المغارم الباهظة ،

واستباح مخازنها ومتاجرها ، بعد أن رحل عنها أهلها ، وهاموا على وجوههم ، واستولى المماليك الأوغاد على [أموالهم من الشوادر والحواصل والأخشاب والأحطاب والبن والأرز] ولما لم يجدوا علفا لدوابهم غير شعير الأرز والأرز المبيض ، أطعموها منه .. هنيئا مريئا .

وفى الحق أن الإسكندرية كانت مهددة بهجوم مفاجىء عليها من الأرناؤط والعرب ، وذلك منذ وصل إلى رشيد سليمان أغا وقبل أن تسقط هى وقلعتها الحصينة فى يد البرديسى ومصدر وحيه محمد على .

أما على باشا الجزايرلى ـ بعد أن أسر أخوه ، وكسر السد من حول الإسكندرية ـ ، فقد أسرع بتسريح جنود خسرو باشا وأحمد باشا خورشيد ، وبذلك أصبحت الإسكندرية عزلاء معزولة ، فشحت الأقوات ، وقل ماء الشرب ، وجلا عنها أهلها ، وسحب محمد على قواته إلى دمنهور ، وسحب البرديسى قواته من دمنهور إلى القاهرة ، وبذا نجحت خطة الجزايرلى فى تجنيب الإسكندرية غزو المماليك .

وعندئذ ثار الأرناؤط فى دمنهور مطالبين بمتأخراتهم ، فى حين أن المغارم التى فرضها البرديسى على رشيد كانت تصل إلى جيبه خالصة ، وتوسط محمد على فى تخفيف حدة هذه الأزمة حتى ينسحب من دمنهور وهو على وفاق مع حليفه البرديسى بك ، ثم غادر محمد على دمنهور بالأرناؤط فدخل القاهرة فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٠٣ ، وتلاه البرديسى بعد تسعة أيام ، وما يزال الإنجليز والفرنسيون يشجعون المماليك كل من جانبه ، بينما على باشا الجزايرلى بالإسكندرية كالأسد المحصور : فهناك أقام مراكز دفاعية بين بحيرة مريوط وقلعة لوتورك Leturcq كما حصن موقع السد الذى كسره .

وتفتق ذهن محمد على عن حيلة وهى العمل على اجتذاب الجزايرلى إليه للحد من نشاطه ، وتوسط بالمشايخ لدعوته إلى القاهرة لوقف الحرب ، وفى هذه الأثناء ورد من الباب العالى فرمان بإعادة إبراهيم بك شيخا للبلد كما كان ، واعترف السلطان بسلطة المماليك ، كما جاء (فرمان البحيرة) بالإنعام على نائب

البحيرة ومشايخ عربان الهنادى والأفراد والجميعات والبهجة والعونة جميعا فأقرهم على منازلهم وأراضيهم فى [فيافى البحيرة التى هم فيها من قديم الزمان] .

على أن عرب البحيرة لم ينخدعوا بمضمون هذا الفرمان السلطانى ، ولم يكونوا بحاجة إليه لتثبيت أقدامهم بإقليم البحيرة ، فهو لهم بوضع اليد ، غير أنهم آثروا الانضمام إلى الجانب المنتصر ، وهو جانب المماليك الذين اشتد بعرب البحيرة أزرهم ، فبدأوا يتربصون الدوائر بالعثمانيين برا وبحرا ، ولم يعدموا وسيلة فى القضاء عليهم فى كل مكان وبكافة الوسائل .

ففى ١٩ يناير سنة ١٨٠٣ استعان الألفى بعرب البحيرة والهنادى ومعهم مماليكه فقطعوا الطريق عند (النجيلة) ، وأكثروا الفساد فى البلاد والعباد ، وبذا كسب المماليك ظهيرا أقوى من الإنجليز .

وسمح الباب العالى لعلى باشا الجزايرلى بمغادرة الإسكندرية إلى القاهرة بشرط ألا يزيد جيشه على ألف جندى ، ووقف له المماليك بالمرصاد ، وأخذوا يرقبون خط سيره الذى رسموه له وهو ملازمة الضفة الغربية للنيل مارا بدمنهور والطرانة .

تحرك الجزايرلى يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٣ فى ألفين وخمسمائة من المشاة ، وخمسمائة من الفرسان ، ولم يتوجه إلى دمنهور حسب الاتفاق ، وإنما توجه إلى إدكو بقصد الزحف على رشيد ، فأسرع إليه يحيى بك البرديسى حاكم رشيد ومعه عمر بك الأرناؤطى رئيس الحامية بها ، فأدركاه عند إدكو ، ونبهاه إلى التزام ما اتفق عليه ، فأكد لهما أنه لن يقترب من رشيد ، فتركاه وعادا إلى رشيد .

ولكنه ما لبث أن قبض على اثنين من جنود العثمانيين مساء يوم ٢٧ ديسمبر كانا يحملان رسالة من الجزايرلى إلى عمر بك يدعوه إلى نصرته على المماليك ، ولكن خرجت حامية عمر بك لوقف مناورته ، وراقبت سيره إلى القاهرة دون اشتباك ، وأخذ طريقه مرة على الضفة اليمنى وأخرى على اليسرى حتى وصل القاهرة ، وكانت الأخبار قد وصلت فى ٣ يناير سنة ١٨٠٤ بسوء نوايا الجزايرلى ، لهذا منعه المماليك من دخول القاهره ، فضاقت الدنيا فى وجهه .

أما الإنجليز فإنهم على الرغم من توقيع صلح (أميان Amiens) فى ٢٧

مارس سنة ١٨٠٢ وتصديق فرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا عليه ، وتعهد كل من فرنسا وإنجلترا بالجلاء عن مصر ، إلا أنهما ظلتا تماطلان وترقبان الحوادث ، وتؤلبان العناصر بعضها على بعض ، لتتحين كل منهما الفرصة للانقضاض على مصر .

وأخيرا شهد يوم ١٤ مارس سنة ١٨٠٤ جلاء آخر جندى إنجليزى عن البلاد ، ومعهم صنيعة الإنجليز الأكبر محمد بك الألفى ، وفى نفس الإنجليز أمل فى العودة إلى مصر ، ولا سيما بعد أن أحرزوا النصر فى معركة جبل طارق فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ ، وعندئذ انتعش الأمل عندهم فى تحقيق نصائح (مسيت) و (ستراتون) و (ألكساندربول) و (لورد نلسون) وموافقة الباب العالى على قرار لم يجد الإنجليز محيصا عنه وهو : احتلال الإسكندرية .

الألفى بك من إنجلترا إلى البحيرة

كان عثمان بك البرديسى ، زعيم عصابة المماليك فى المخازى والفضائح التى ارتكبوها فى البلاد ، وعلى الرغم من الانتصار الذى أحرزه المماليك فى دمنهور سنة ١٨٠٢ ، فإن البرديسى لم يهدأ له بال ، طالما الأتراك يهيمنون على المنيا وأسيوط وجرجا ، فكان لا بد من أن يطاردهم فى كل مكان ، حتى يخلو وجه البلاد له وحده ، ولا سيما بعد أن استصحب الإنجليز معهم زميله فى الفساد محمد بك الألفى .

ولكن جاء يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ ، ورست على أبو قير السفينة الإنجليزية (أراجو) وهى تقل الألفى بك محملة بالهدايا والستة عشر مملوكا من حاشيته الخاصة ، عائدا من عند أسياده الإنجليز ، بعد أن اتفق معهم على تسليم مصر لهم ، ولهذا قدم لعمل الترتيبات اللازمة ، ومن أبو قير سار الألفى (بك) على قدميه إلى إدكو فى طريقه إلى رشيد ، غير أن يحي بك البرديسى وعمر بك رئيس الأرناؤوط بها ، أسرعا لمقابلته بإدكو قبل وصوله إلى رشيد ثم دخلها فى منتصف الليل فضربت له المدافع ، وتلقاه يحي بك والأهالى بالبشر والترحاب ، وأنزله معززا مكرما بمنزل مصطفى عبد الله أحد كبار تجار رشيد ، كما خف قناصل

الدول لمقابلته والتسليم عليه ، وأعد له (مسيت) نائب القنصل البريطانى سفينة ، خاصة ، وبادر حاكم رشيد بإرسال الخبر إلى عثمان البرديسى بك ، وأخذ ينتظر التعليمات ، ولكن الألفى لم يمض غير ليلة واحدة ، ثم انتقل فى آخر الليل إلى منزل قنصل الإنجليز برشيد (بتروشى Petrucci) ولا بد أن يكون قد أبلغه تعليمات حكومته ، وتقضى بتسهيل مأمورية الألفى إلى أقصى حد ، بدليل أنه أهداه مركبا ليهبط به فى النيل إلى القاهرة .

عاد الألفى من لندن ، وهو ممتلىء بالأمل الكبير فى الاستيلاء على مصر ، ولم يكن فى حسبانه أن يعود ليرى المماليك وقد انفضوا من حوله ، وانضموا بزعامة زميله البرديسى ، إلى محمد على ، ولكن هكذا تغيرت الظروف ، حتى أصدر البرديسى ـ بعد أن استشار محمد على ـ أمرا بقتل الألفى أينما وجد .

تحركت سفينة الألفى من رشيد يخفق عليها علم الإنجليز ، ولم يكن الأمر قد وصل إلى يحيى بك بقتله بعد ، وأقبل عليه المماليك من بولاق لقتله ، ولكنه نجا بأعجوبة من الموت المحقق ، إذ لجأ إلى نجع عرب الحويطات فى (قرنفيل) فأجارته امرأة منهم ، وجد كل من البرديسى ومحمد على فى التخلص منه بالقتل ، ولكنه فر من أيدى الباحثين عنه ، واختفى إلى حين .

وكان المماليك ينهبون البلاد وظهورهم إلى الإنجليز ، والآن أصبحوا ينهبونها وظهورهم إلى الأرناؤوط أو الدالاتية ، الذين منهم محمد على ، من ذلك ما لقيته (شابور) فى ٣ ديسمبر من هذه السنة ، وقد تحصن بها قادرى أغا ، فزحف نحوه صالح أغا بعساكره وعربانه ، وتعرضت (شابور) بسبب ذلك للأذى الشديد ، وأخلاها أهلها ، وجاء كاشف البحيرة ، وهو وغيره من الكشاف قد أصبحوا من الأتراك فى جميع الكشوفيات ، وشدد هو الآخر فى الحصار على (شابور) ، حتى فرغت ذخيرة قادرى أغا ، فطلب الأمان فأمنوه .

أما الألفى ، فقد بات على أحر من الجمر : الإنجليز لم يحضروا إلى مصر حسب الوعد ، وأخشى ما كان يخشاه ، أن يحضروا ، فيجدوه مهيض الجناح ، فيتشككوا فى زعامته للمماليك ، على النحو الذى رأوه عليه منذ رحل معهم ـ فى الجلاء ـ إلى بلادهم ، ولكن هكذا انشق المماليك على أنفسهم ، فليعتمد هو على

نفسه ، وليجمع حوله خشداشينه والعرب الذين صاهرهم ، وليستخدم قوة شخصيته وجبروته ، حتى لا تزعزع هذه الأحداث الجارية إيمانه بعون الإنجليز .

إذن ، فليسرع ، فالزمن ينقضى ، وآن الأوان لحضور «الأعوان» ، فليسبق هو إلى .. دمنهور .

على اسوار دمنهور تحطمت أحلام الألفى

أين الوعود يا إنجلترا ؟ ..

هكذا كان يهمس الألفى لنفسه ، كلما انقضى يوم ، ولم يأته من الإنجليز خبر ، وأغلب الظن أنه ـ لكى يطمئن نفسه ـ كان يتخيل هتاف جنودهم ، وهم يتغنون فى الطريق : عائدون .. عائدون .

فليستعد إذن ، ولكن ترى أين يكون اللقاء .. ؟ .. فى الإسكندرية ؟ كلا . فى أبوقير ، فى رشيد ، فى دمياط .. ؟ كلا كلا . لأنه لا يملك قوة بحرية على هذه الثغور ، التى صار أمرها فى هذا الوقت إلى الأتراك ، فهل يمضى إلى هناك بعسكره ، ليسلمه بنفسه إلى هلاك محقق ؟ .. أم هل يمضى إلى هناك ، ليوقظ خصومه فيتخذوا العدة لدحره ؟

إذن فهى (دمنهور) ، لأن موقعها يتوسط بين القاهرة والإسكندرية من جهة ، ويستطيع بذلك أن يستولى على الرحمانية ، وعندها ، أى عند دمنهور ، يمكنه أن يخف سريعا للقاء أصدقائه الإنجليز .

أما وقد وصل الأسطول التركى إلى الإسكندرية ، ثم رسا على أبوقير ، بقيادة قبطان باشا ، فليخف الألفى بعساكره إلى دمنهور ، فوصلها يوم ١٠ يوليو ١٨٠٥ ، وجعلها مقر قيادته ، ولكن الأرناؤط قاوموه وتحصنوا فى داخلها ، ورابطوا خلف الأبراج المقامة فوق مرتفعها المنيع ، وضرب عليها الحصار ، واستمر عدة أيام ، تبودلت خلالها القذائف ، وفى يوم ٢٦ يوليو علقت سبعة رءوس ، أمام باب زويلة بالقاهرة ، بأمر الأغا (المحافظ) لإيهام المصريين أنها لمماليك الألفى ، الذين قتلوا فى دمنهور .

وأرسل محمد على ـ صاحب الكلمة فى الأرناؤط والمماليك ـ بعض هذه

القوات لتحصين (الرحمانية) استعدادا لقتال الألفى وكذلك الأتراك ، كان ذلك بقيادة كتخدا بك طبوزأوغلى وطاهر باشا ، ابن أخت محمد على ، وتحركت قوات محمد على هذه من الرحمانية ، وسمع بذلك الألفى فاضطر إلى رفع الحصار عن دمنهور ، وأخذ سبيله إلى (الطرانة) .

ومن هناك أوفد الألفى من قبله كتخداه مع السلحدار للمفاوضة فى الصلح مع محمد على ، على أساس أن يتولى كشوفية الفيوم وبنى سويف والجيزة والبحيرة ومائتى بلد التزاما ، ويتعهد بالإقامة الدائمة فى الجيزة ، فى طاعة محمد على ، الذى ارتضاه الشعب المصرى ـ ممثلا فى المشايخ ـ واليا على مصر سنة ١٨٠٥ ، وأقر السلطان اختيارهم .

محمد على ، الأرناؤطى الذى صار واليا على مصر ، باسم المشايخ ، هو الذى فرض على أهل رشيد أربعين ألف ريال ، يقوم بدفعها ثلاثة عشر تاجرا منهم ، فيذهب وفد من رشيد إلى زعيم الشعب ونقيب الأشراف السيد عمر مكرم ، لا إلى الأرناؤطى ، الوالى ، فيشكون ، وينهض معهم السيد النقيب ، إلى محمد على ، ويتشفع الشفاعة الحسنة ، فتنخفض الغرامة إلى عشرين ألفا فيقبلونها صاغرين ، ويعودون إلى رشيد ، للنقيب شاكرين .

لا يزال كشاف الأقاليم من الأتراك ، واليوم يبعث الباب العالى بمديرى الجمارك فى الإسكندرية ورشيد ودمياط ، من قبله ، ولكن هذا لايحرك ساكنا من محمد على ، فهو أدرى بالأتراك .

وخرج الألفى من وكره فى (الطرانة) قاصدا البحيرة ، فوصل إلى دمنهور يوم ٢٩ أبريل سنة ١٨٠٦ ، وضرب عليها الحصار ، وكان السيد عمر مكرم قد بث روح التضحية والبسالة فى نفوس أهلها ، وأمدهم بكل ما أرادوه من إمدادات . فحصنوا المدينة ، وأقاموا حولها سورا منيعاً ، وشيدوا عليه الأبراج ، وركبوا المدافع العديدة ، وحفروا الخنادق حولها ، واستحوزوا على البارود والذخيرة والمؤونة بما يكفيهم للصمود سنة كاملة إذا ضرب الحصار عليهم .

وجاء منتصف يونيه سنة ١٨٠٦ ، والألفى مقيم فى (حوش عيسى) ،

وهناك وافاه نبأ سعيد أثلج صدره ، نبأ العفو السلطانى عنه ، بشفاعة الإنجليز ، فكاد يطير من الفرح ، وأقام الأفراح بهذه المناسبة ، التى تحمل فى طياتها قرب عودة الإنجليز ، وبعث بالبشرى يزفها إلى مشايخ عرب الحويطات والعائذ . ولما وصلت سفينة قبودان باشا إلى الإسكندرية فى آخر يونية ، كان محمد بك الألفى أسرع إليه من البرق ، يحمل الهدايا والتحف ، التى نسميها نحن (رشوة) .

واشتد ساعد الألفى بعفو السلطان ، وعون الإنجليز ، المنتظر عاجلا أو آجلا ، وعندما تحرك الأسطول التركى نحو الإسكندرية أذاع منشورا فى دمنهور ، جاء فيه :

[أرسل الباب العالى فرمانا بتقليدى ولاية مصر ، وسأتوجه إلى القاهرة متى تسلمته لتنفيذ ما فيه فعليكم أن تفتحوا أبواب مدينتكم ، لتبرهنوا على إخلاصكم وطاعتكم لى]

لم يعبأ أهل دمنهور بما أذاعه فيهم الألفى ، بل أرسلوا المنشور إلى محمد على فكتب إليهم منددا بخيانة الألفى ، ومعبرا عن ثقته فى ولاء أهل دمنهور له .

وخرج حاكم الرحمانية (طبوز أوغلى) الذى رقاه محمد على كتخدا بك أى نائب الوالى ، منها ، ومعه طاهر باشا وصعد فى الضفة الغربية لفرع رشيد ، ليعطل زحف الألفى نحو الطرانة وحوش عيسى ودمنهور ، فأسرع الألفى برفع الحصار عن دمنهور ، ليتفرغ لقتال الأرناؤط ، فأقام معسكره بالقرب من النجيلة ، فى واجهة معسكر الألفى .

وفى ٢٨ يوليو ، تحرك الأرناؤط الذين أرسلهم محمد على إلى (الرحمانية) و (مرقص) ، ومضوا إلى (النجيلة) ، وفى ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٦ هجم المماليك على طاهر باشا من يمين النجيلة ، فولى الأدبار بمن معه تاركين السلاح ، وغنم عربان الألفى ما تركه الأرناؤط ، واشتعل فتيل الحرب ، ونشب القتال ، فانتصر الألفى عليهم ، حتى صارت طراطير الأرناؤط تطفو على سطح النيل ، بعد أن ألقوا بأنفسهم إلى الماء يريدون النجاة ، وتخففوا من الطراطير حتى لا تغرقهم فى اليم ، ومضت ساعتان ، ثم فر كتخدا بك وطاهر باشا إلى النجيلة ثم إلى المنوفية ،

وغنم الألفى منهم خياما وخيولا وذخائر ، لا تعد ولا تحصى ، وأرسل برءوس القتلى وعددهم ستمائة ، إلى قبودان باشا بالإسكندرية .

وانخلع قلب محمد على ، ولكنه صب جام غضبه أولا على طاهر باشا ، الهارب من معركة النجيلة، وأمره بالمضى إلى رشيد فأسرع إلى فوة ، واستولى على الرحمانية من المماليك ، انتظارا لتعليمات أخرى ، ولما وصل شاهين بك الألفى إلى الرحمانية ، أمر محمد على طاهر باشا بالتوجه فورا لطرده من الرحمانية ، فاستقل المراكب ، ولكن مدافع شاهين باشا ، فتحت أفواهها عليها فغرقت واحترقت ، وظل يطارده برا ، ثم عبر النيل عند الرحمانية فى الطريق إلى القاهرة ، حتى جاء أمر محمد على ، بالعودة لاستئناف القتال.

وعاد الألفى من (النجيلة) إلى (دمنهور) ، وكان أعيانها قد ذهبوا إلى قبودان باشا بالإسكندرية ، فطمأنهم ولكن ظنونهم فيه لم تصدق ، فارتابوا كل الريب ، خصوصا وأنه قد طلب منهم أن يذعنوا بالطاعة ، ويضمن لهم عدم عدوان الألفى عليهم . فأبوا عليه ذلك ، لأن مستشارهم الصادق الأمين ، وهو عمر مكرم ، شجعهم على المقاومة حتى النهاية .

وصل الألفى إلى (دمنهور) ، وضرب عليها الحصار ثانية ، وقدم إليه من الجيزة ستة من الأمراء لشد أزره ، وطال الحصار ، والقذائف تتوالى من الجانبين، ومات كاشف دمنهور . وأهل دمنهور مع ذلك فى شجاعة نادرة ، يمانعون الألفى ولا يعبأون ، حتى بعد أن قطع ترعة الإسكندرية ، وحرمها هى والبحيرة من الماء ، وهم صامدون .

لقد فعل الألفى ورجاله بأهل دمنهور مالم يطرق ببال أحد ، من ألوان العذاب الوحشى ، فقد كانوا يعلقون أسرى دمنهور فى أغصان الأشجار ، بقطع حادة من الحديد ، يغرزونها من تحت أذقانهم ، فليس بعجيب إذن أن يأخذ أهل دمنهور على أنفسهم العهود والمواثيق بالاستشهاد فى سبيل شرف الدفاع عن مدينتهم .

وهجم الألفى بمماليكه على دمنهور خمسة أيام ، فصدتهم أسوارها مدحورين ،

وتعاقد أهل المدينة فيما بينهم على أنه إذا جاء الليل صرخوا صرخة رجل واحد ، فيقذفون الرعب فى قلوب المعتدين ، ثم يتلفون أمتعتهم ، ويطلقون عليهم النيران من فوق الأبراج ، ثم يعودون على أضواء المشاعل يتغنون بالنصر ، والأسرى مسحوبون على وجوههم كالأغنام .

وجرد محمد على حملة على رأسها بربر باشا الخازندار ، وعثمان أغا ، فوصلت مراكبهم إلى (الرحمانية) ، وكان للألفى هناك حامية فى معسكرها على ترعة الإسكندرية ، فأجلتها قوات محمد على وطردتها ، ثم اتبع رجال محمد على خطة جهنمية هى فتح الترعة فجرى الماء فيها ، وسيروا عليه مراكبهم ، وأسرع الألفى فسدها عليهم بمسافة غير بعيدة .

وجاء شاهين باشا ، وساعد الألفى على سد فم الترعة بالقطن ، وفتحه من أسفل ، فندفق ماؤها فى السبخات المجاورة ، ونضب ماء الترعة تدريجيا ، فتعطلت المراكب ، وخف رجال الألفى إلى المراكب ، فقتلوا من كان بها أو هرب منها ، عند (منية القسران) ، ومنهم من فر إلى (سنهور) وتحصن بها ، ولكن الألفية التفت بالهاربين وأمعنت فيهم قتلا ، واستمر القتال بينهما وطال .

وانتصف شهر ديسمبر ، والألفى مصمم على حصار دمنهور ، وأهلها صامدون صابرون ، لم ينجدهم محمد على بأى شيء قل أو كثر ، فإنه كان مشغولا بتكليف عمر مكرم بجمع السلفيات ، لإنقاذه من الأزمة المالية التى يعانيها ، ومن المأزق الحرج الذى انحصر فيه بين الأتراك والألفية والفلاحين .

اعتمد أهل دمنهور على أنفسهم ، وأبدوا من البطولة ما سجله لهم التاريخ ، حتى على ألسنة الأعداء ، ووقف الرجال والنساء والشيوخ والشباب ، وقفة رجل واحد ، فلم ينل منهم الألفى أى منال .

وفى خضم هذه الأحداث ، جاء فرمان السلطان باستمرار محمد على واليا على مصر كلها فيما عدا ثغور رشيد ودمياط والإسكندرية التى ظلت تابعة للباب العالى ، وجمع محمد على الديوان ، وقرأ عليهم الفرمان .

عندئذ أدرك الألفى أن أحلامه فى دمنهور قد تحطمت تحت أسوارها ، فقد كان

يأمل أن يتملكها، ليتخذ منها معقلا ، يقيم به حتى يبر الإنجليز بوعدهم له ، ولكن المقاومة الباسلة التى تذرع بها أهل دمنهور قد أفسدت عليه خطته .

لهذا لم ير بدا من الارتداد عن دمنهور مخذولا ، ورجع إلى (الأخصاص) ثم (كفر حكيم) ، ومعه أولاد على والهنادى وغيرهم من عربان الشرقية ، فقد كان له عليهم سيطرة ونفوذ ، لكثرة نسائه من قبائلهم ، ولاذ بالفرار إلى الصعيد فمات به مغموما مهموما فى ٢٨ يناير سنة ١٨٠٧ ، حتى حكى عنه من كان حوله فى البحيرة بعد الخذلان ، أنه فكر فى الانتحار ، بعد أن ضاقت الدنيا فى وجهه ، وانفض المماليك من حوله ، ولم ينجزه الإنجليز ما وعدوه به .

وسجل التاريخ فى صفحات من نور ، لأهل دمنهور أمجادا خالدة فى موقفين : أحدهما مع نابليون والآخر مع الألفى

لهذا قال (مانجان Mengin) [1] [إن دفاع دمنهور المجيد هو جدير بأن يسجل فى صفحات تاريخ مصر الحربى ، فقد تولى أهلها الشجعان هذا الدفاع وحدهم ، دون أن يتلقوا أى مدد أو مساعدة حتى من محمد على الذى كان هذا الدفاع دفاعا عنه فقاوم أولئك الشجعان بكل ثبات وبسالة قوات الألفى كلها إلى أن تكلل دفاعهم بالنجاح ، فكان له تأثير كبير فى إحباط خطة الباب العالى].

وقال (جومار) أيضا [إن أهالى دمنهور قد أظهروا مثل هذه الشجاعة والمصابرة أثناء الحملة الفرنسية فى ظروف تختلف عن الظروف التى قاوموا فيها قوات الألفى مما يدل على ما فطروا عليه من الشجاعة] .

وانتصرت دمنهور ، ومات الألفى ، ولكن الإنجليز فى طريقهم إلى مصر ، بعد أن فاتهم القطار . فلتتم دمنهور قريرة العين ، ولتحمل راية الكفاح بعدها رشيد الباسلة ، وإذا كانت دمنهور قد سحقت (الألفى) ، فإن رشيد ، ستسحق (فريزر) ، فإن لها هى الأخرى موعدا مع القدر فى العام التالى ، أيضا على أرض الكفاح ، ومقبرة الغزاة والدخلاء والقراصنة والأفاقين ، أرض البحيرة .

---

(١) Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly T : 1

إدكو تقف فى وجه محمد على

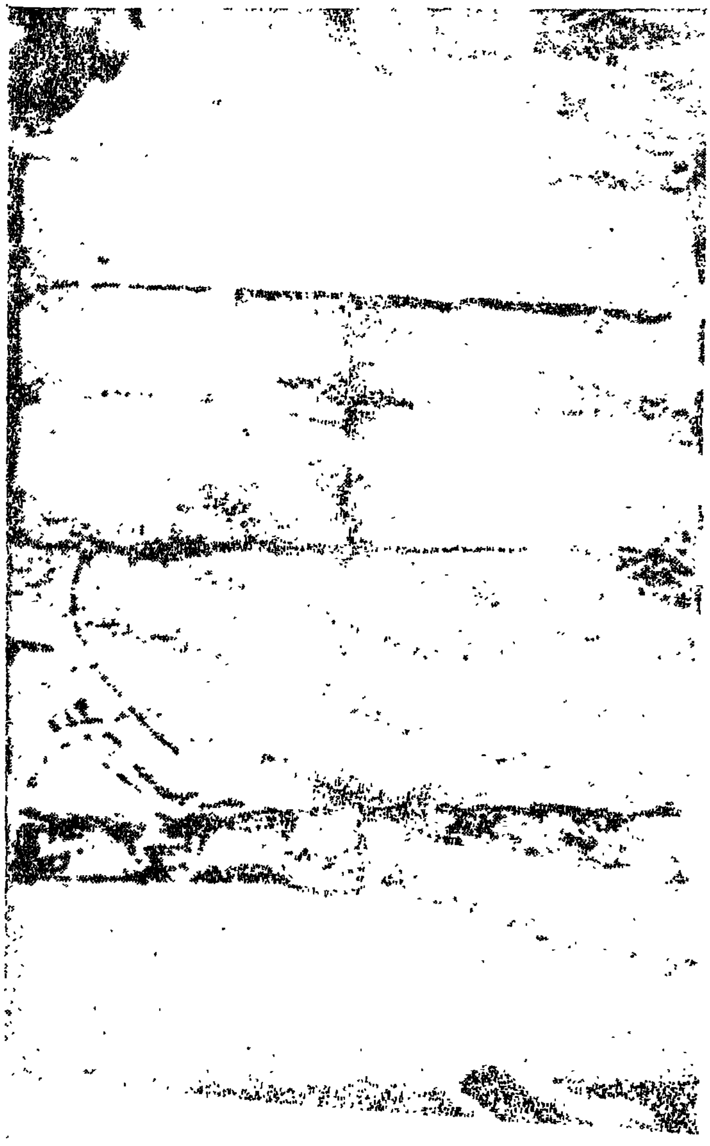
فى سنة ١٨٠٦ م تقريبا ، كان شيخ إدكو محمد أحمد صفار ، وكان ذا ثروة طائلة ، وفى أيامه قامت معركة دامية بين عائلتى قاسم وصفار ، انتهت بقتله ، وخلفه فى شياخة إدكو أخوه أحمد .

وبلغ الخبر الوالى محمـــد على ، فطلب من الشيخ الجديد أسماء القتلة ، فكتب عددا من خصومه منهم البرىء والمذنب ، فجىء بهم إلى الإسكندرية ، وهناك فى ميدان المنشية أمر محمـــد على بإعدامهم ضربا بالسيف . ودفنوا بالزاوية التى عرفت بزاوية الإدكاوية ، ولا تزال قائمـــة إلى اليوم أمام قسم شرطة المنشية . وكانوا أحد عشر منهم كما أخبرنى جدى الحاج محمود زيتون رحمه الله : سليمان جابر . وصالح شويرب ، وسليمان بلال المشهور بعنكش والشيخ على مصباح الشيخ الذى طار رأسه ولسانه يلهج بذكر الله ، وجوزى شلبى قاسم بتخليع أسنانه .

ولما فشلت حملة فريزر على رشيد والحماد سنة ١٨٠٧ م استتب الأمر لمحمد على ، ولكنه لم ينس ما فعله أهل رشيد والحماد وإدكو من البسالة فى دحر جنود الإنجليز ، فأخذ طريقه من الإسكندرية ـ بعد توقيع اتفاقيـة الجلاء مع الإنجليز بها ـ إلى رشيد لفرض الغرامات على هذه النواحى

وركب حصانه حتى وصل إلى المعدية ، فأعجبه موقعها ومناخها فأمر بحصرها ضمن أملاكه الخاصة وصارت (أبعادية) ، وبعد أن استراح قليلا على رمالها . واصل سيره إلى إدكو ، حتى بلغها فى المساء ، ورآه شيخ إدكو أحمد أحمد صفار فاستضافه بمنزله الكائن فى وسط البلد إلى الشرق بالقرب من دكاكين على السد القديمة ، وقبل محمد على ، ورأى ما فيه شيخ إدكو من الغنى والأبهة ، وبعد أن لقى الوالى حق الضيافة الكريمة ، طلب من مضيفه أن يتمنى عليه ليكافئه ، فكان طلب أحمد صفار ينحصر فى أمرين : إعفاء أهل إدكو من حراسة النيل أثناء الفيضان ، وأن يكون له (نفاذ الكلمة) فى إدكو .

وخوفه الوالى من نفاذ الكلمة ، وعرض عليه التزام الصيد ببحيرة إدكو . فلم يرض بغير الطلبين السابقين بديلا ، فأجابه الوالى ، وتحرر له الأمر بالنص التالى ، حسب الوثيقة المؤرخة سنة ١٢٢٣ هـ .



وثيقة نفاذ الكلمة فى إدكو تاريخها ٦ د سنة ١٢٢٣ هـ وفى أعلاها ختم محمد على

[صدر المحرر من المطاع ، الواجب القبول والتشريف والاتباع من ديوان مصر المحروسة ، خطابا إلى نائب الشرع الشريف ، والوجوه والأشراف ، وكامل أهالى (اتكوا) بوجه العموم يحيطون علما بأن الشيخ أحمد صفار شيخ المشايخ

بناحية اتكوا حضر لنا وقابلنا وأبقيناه ومكناه من مشيخة شيخ المشايخ بالناحية ، وأخبرناه أن كامل المصاريف (الذى) يصرفها على كامل من يحضر إلى الناحية والمبود (= العبيد) من أغوات (= مديرين) ومباشرين (= موظفين) وعساكر وخلافهم ، كامل ما يصرفه عليهم من المأكولات والكلف والركوب، جميع ذلك يفرد (= يفرض) على كامل أهالى الناحية المذكورة ، سكنتها من كبير وصغير وأشراف بوجة العموم ، وتكونوا جميعا تحت طوع شيخ المشايخ الشيخ أحمـــد صفار المذكور ، وأمرناكم لا تخرجوا من طوعه ولا خلافه ، وتكونوا معه رجـــل واحدا ، طال وقال وكل أحدا منكم فى حق المذكور ، فعليكم بذلك الامتثال والطاعة ، وكل من بدا منه أدنى قصور لا يقدر الجواب، ويحصل له الضرر والعقاب ، فبناء على ذلك أصدرنا هذا المرسوم الشريف بحالة وصوله إليكم ، يكون العمـــل بمضمونه ومقتضاه ، اعلموه واعتمدوه غاية الاعتماد ، والحذر ثم الحذر من المخالفة والخلاف .]

٦ د سنة ٢٢٣ - أى ٦ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ .



وفى الحق أنى قد ترددت عند تأليفى كتاب إدكو سنة ١٩٣٥ فى حقيقة هذا الفرمان ، فكتبت مضمونه فى الكتاب بصفحة ٥٧ ، وخشيت التعليق عليه ، ومع ذلك أرسلت إلى الأمير عمر طوسون أستفسر عنه ، وعن حقيقة الختم والكلام المكتوب حوله ، فرد على بهـــذا الخطاب المؤرخ فى ١٧ /٦/ ١٩٣٧ ، والذى أنشر صورته كما هى ، توكيدا لفرمان محمد على ، وتفسيرا لختمه :

دائرة البرنس عمر طوسون باشا

نمرة القيد
نمرة الكوبيا
عدد المرفقات

الصيوف

حضرة الأستاذ الفاضل محمد محمود زيتون أفندى

عرضنا الفرمان الذى تفضلتم بالحضور به الى الدائرة على حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون فكلفنى سموه أن أرده إليكم لعدم لزومه مشفوعا بشكر سموه على جهودكم العلمية والأدبية .

وبهذه المناسبة نذكر لكم ما وصل اليه بحثنا فى حل كتابة الختم المطبوع فى رأس هذا الفرمان وهذه صورتها :-

« ومن تكن برسول الله نصرته . إن تلقه الأسد فى آجامها تجم . المتوكل على الله وحده عبده محمد على » .

وقد أرسلنا اليكم اليوم الفرمان المذكور بخطاب مسوكر باسمكم على ادكو فنرجو بعد وصوله اليكم إفادتنا بذلك . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص
٢٧/٦/١٧
أمين عبد الغنى حسين
مدير دائرة صاحب السمو الأمير
عمر طوسون باسكندرية

أما أحمد صفار ، فقد بالغ فى عسفه وخسفه بناء على هذا الأمر من الوالى المفلس الذى وجد فرصة لإيواء جنوده المرتزقة من ولاة الألبانيين وهم يهددونه كل لحظة بالتمرد طلبا للأرزاق ، وبهذا أحالهم على مشايخ البلاد (العمد) يطعمونهم ويؤوونهم ويهيئون له الركائب هم وغيرهم من المديرين والموظفين .

وبلغ الظلم بأحمد صفار إلى حد أن نقل من حقول الأهلين ألف نخلة سمانى أمر بغرسها فى حقل له سمى بالألفى ، وضج الناس بالشكوى ، ولكن مذبحة المنشية كانت لا تزال أصداؤها ترن فى آذانهم ، ففوضوا أمرهم إلى الله حتى أرسل الله ريحا صرصرا عاتية إلى (الألفى) فأصبح هذا الحقل أعجاز نخل خاوية .

ومات أحمد صفار ، وخلفه ابن أخيه فرحان محمد أحمد صفار الذى آلت إليه الثروة ، فبنى قصرا من طابقين وكانت مساحته ثلاثين مترا فى مثلها ، وكان فى وسطه أعمدة رخامية مزخرفة وحمامات من البلور ، سخر فى بنائه ثلثمائة عامل

حتى أتموه فى شهر واحد ، وقد دخلته قبل أن يتهدم ، وشهدت المشربيات التى كانت تطل على جميع الجهات من الطابق العلوى .

وبلغ التنافس بين عائلتى قاسم وصفسار إلى حد أن بنت عائلة قاسم فى غرب إدكو دارا سموها (العباسية) ولكنها لم تبلغ من الروعة ما بلغته دار صفار ، وتهدمت قبلها .

أما قصر صفار أو كما كان يسميه الأهلون (دار الصفافرة) فكان بها رصيف شرقى متدرج تنتهى إليه ترعة من النيل ساقها فرحان صفار وأنفق عليها من ماله ، وكانت تبدأ من فرع رشيد مارة بشمال الحماد ، وكانت المراكب تسير فيها محملة بالغلال حتى ترسو على رصيف القصر ، وكان لشيخ إدكو زورق خاص يستقله ليتفقد أحواله التجارية .

وظلت آثار هذه الترعة جهة الحماد الشرقى ، وفى خريطة المساحة رقم ٥٥٥/٩٥ لسنة ١٩٣١ آثار هذه الترعة ومكتوب عليها « آثار ترعة الإتكاوية » وهى غير ترعه الإتكاوية القديمة ، ولم ينقطع جريان ترعة صفار إلا بعد أن مد طريق السكة الحديد من الإسكندرية إلى رشيد مارا بإدكو .

وكان فرحان صفار قد التزم عدة نواحى من فزارة إلى الحماد ، وزرعها أرزا ، ولما عجز عن دفع الالتزام للحكومة ، فرضت الحكومة المتأخر عليه بالقوة على أهالى إدكو ولا سيما الفلاحين وأصحاب النخيل ، وخصصت لها خانة فى قسائم الأموال الأميرية ، وظل الأهالى يدفعون صاغرين حتى سنة ١٨٨٢ م ثم ألغيت ، وعرفت هذه الضريبة (بكسرة صفار) .

وأخبرنى جدى عليه رحمة الله أن أهالى إدكو كانوا يعانون الأمرين من كسرة صفار هذه وغيرها من الضرائب وألوان السخرة ، فقد احتكر أحد الأغاوات ملاحة خالى الجنى (النى) التى على الضفة اليمنى من بوغاز رشيد ، وكانت تسمى ملاحة (طبوز أوغلى) وهو كتخدا (نائب) محمد على ، فلما عجز الملتزم عن أداء ما عليه ، فرضت حكومة الوالى المتأخرات على أهل إدكو ، وسميت (طبوز أوغلى) .

ومن أمثلة السخرة أن كل عائلة بإدكو كانت مكلفة بإرسال فرد منها لتجديد

أعمال سد أبو قير سنويا ، وكان مفروضا على إدكو أن ترسل أربعــة يختارهم العمدة قسرا لتقليم أشجار حديقة إدفينا الخديوية والعناية بنخيلها ، وكان يسخر عدد من أهل إدكو أيضا فى تطهير ترعة أبو نشابة وترعة الحماد كل سنة ، هذا مع أن إدكو محرومة من ماء النيل .

قبل العاصفة

كلما اقتربت الشهور الأخيرة لسنة ١٨٠٦ من نهايتهـــا ، زاد اهتمام إنجلترا بإعداد كل ما يلزم لاحتـــلال الإسكندرية ، وهناك فى جزيرة صقلية تجمعت قوات الحملة التى بلغت ١٧ ألفاً، عهد بقيادتها العليا إلى الجنرال (فريزر Fraser)، الذى استصحب معه إلى مصر نحو ستة آلاف فى مطلع سنة ١٨٠٧ ، كان فيهم من الفرنسيين الهاربين من الثورة الفرنسية عـدد كبير ، ووزعت القيادة عـلى (ميـــد Meade) و (ستيوارت Stewart) و (ووكوب Waucope) ، وتقدمت ٣٠ سفينة من قطع الأسطول من (مسينا) حتى وصلت الإسكندرية بقيادة أمير البحـــر (لويس Lewis) ، فظهرت بمياه الإسكندرية منـــذ يوم ٢ فبراير .

عندئذ أحس (دروفتى Drovetti) ممثل فرنســـا فى مصر بالخطر الداهم ، فأسرع إلى الوالى محمد على ليفضى إليه بمخاوفه ، ولينصحه بتعزيز الحراسة وتقوية الاستحكامات ، على طول الساحل ولا سيما عنـد المنافذ الرئيسية للنيـــل وهى الإسكندرية ورشيد ودمياط ، ونصحه أيضا بتعزيز الاستحكامات عند دمنهور ، لأن الاستيلاء عليها من شأنه قطع المواصلات بين الإسكندرية والقاهرة ، وأدرك (دروفتى) أن العلاقات بين محمد عـلى والمماليك ليست على ما يرام ، وفى حالة دخول الإنجليز مصر سيتحالفون معهم ضده ، وعندئذ يكمن الخطر على مستقبله، لهذا أشار عليه بالمبادرة إلى تصفية الحساب معهم .

استمع محمد على لهذه النصائح الغالية التى زوده بها (دروفتى) ، وعمل عـلى تنفيذها بلا إبطاء ، فانتقلت جميع قواته التى بالقاهرة إلى دمنهـــور ، وتحركت

قوة مكونة من ألف أرناؤطى عبر النيل إلى رشيد ومنهـــا إلى الإسكندرية ، استعدادا لصد أى هجوم عليها .

وكان (دروفتى) قد وصل إلى القاهرة يوم ٢٤ مارس وعقد اجتماعا حضره الكتخدا (نائب محمد على) والمشايخ ، وتقرر فى إثر ذلك ، أن تتحرك جميع القوات إلى مسرح الحوادث ، حتى لا يستولى الإنجليز على ملاحة النيل ، وسرعان ما توجه طاهر باشا وحسن باشا بقواتها إلى البحيرة ، وصدرت التعليمات إلى جميع الجهات المجاورة لرشيد ليقدم الكشاف كافة المساعدات الممكنة لمدينة رشيد، التى أصبح الخطر يحدق بها من كل جانب .

وإذ ذاك كان محافظ الإسكندرية التركى هو أمين أغا ، ولم تكن حاميته تزيد على بضع مئات ، وكان طاقـــم السفينة (لا لون La Laune) قـــد وصف استحكامات الساحل سنة ١٧٧٧ ، عند بوغازى دمياط ورشيد وقلاع أبوقير والإسكندرية بالضعف المتزايد ، ومع ذلك أقيمت فى سنة ١٧٩٨ قلعة عند بوغاز بحيرة إدكو كتعزيز لقلعة أبوقير ، وأقيمت قلعة أخرى عند (كوم البير) ، أما رشيد فما كان يحميها غير قلعة (برج مغيزل) .

إلى .. رشيد

تواطأ أمين أغا حاكم الإسكندرية مع الإنجليز ، تحت الضغط والتهـــديد ، وبالرشوة التى اشتروا بها ذمته ، فدبر لهم خطة النزول إلى البر ، بعد أن قصفت نيران المدافع أبراج الإسكندرية ودكت أسوارها ، ولم يتوقف إطلاق النار ، إلا بعد أن توسل الأهلون إلى الغزاة طالبين الأمان .

عندئذ ألقت ٢٢ سفينة حربية مراسيها ، ونزل منها القائد العام (فريزر) ، يتبعه ٧ آلاف جندى . وأسرع إلى دار القنصلية الإنجليزية ، واتخذها مقـــر قيادته العليا ، ومن ثمت أذاع منشورا فى أهل الإسكندرية ، يدعوهم إلى التزام السكينة ، ويتعهد لهم فيه باحترام حرمة المساكن والمساجد والمحاكم ، وطير الخبر إلى كل مكان .

سلمت الإسكندرية يوم ٢٢ مارس ، دون أن تنطلق قذيفة واحدة من أفواه

مدافعها ، وأخذ (فريزر) فى تدبير أمره ، فقد أرسل فى طلب المماليك ، فهاله أن علم بنبأ وفاة حليف الإنجليز محمد بك الألفى ، قبل وصول الحملة بأربعين يوما ، كما علم بالانشقاق الذى دب فى صفوف المماليك ، حتى صاروا فريقين : فريق بالصعيد ، مضى إليهم محمد على لمطاردتهم أو للصلح معهم تحت التهديد ، وفريق بالبحيرة طال بهم انتظار حملة الإنجليز على مصر ، حتى إذا مات زعيمهم ، ظلوا فى أماكنهم ، يرقبون الأحداث الجارية عن كثب .

أما الأتراك العثمانيون ، فقد لاذوا بالفرار إلى (فوة) وعلى رأسهم كاشف البحيرة ، الذى ذهب إلى رشيد ، ثم عاد مسرعا إلى (ديبى) و (محلة الأمير) ونزل إلى البر .

ورأى (فريزر) أن احتلال الإسكندرية ، ليس هدفا فى ذاته ، لأنها فى الأوقات العادية تستمد مؤنتها مما يجاورها ، فالماشية تأتيها من منطقة دمنهور والرحمانية ، والغلال ترد إليها من رشيد ، فلا بد من الزحف إلى رشيد ، حتى لا تتعرض الإسكندرية للمجاعة ، وإلا فمن أين له تموين الأهلين وقوات الحملة ؟ .

رشيد يومئذ أهم الثغور المصرية على الإطلاق ، وموضع اهتمام العثمانيين سلطانا بعد سلطان ، حاكمها رجل همام هو على بك السلانكلى ، تحت يده حامية من الجنود لا يكفون للدفاع عن المدينة من أى جانب ، وكان بها سليمان أغا كاشف ، رئيس فرقة من مماليك عثمان بك البرديسى ، وكان بها السيد حسن كريت نقيب الأشراف ، وله السلطة الروحية فى هذا الثغر الإسلامى ، وأخيرا كان برشيد ، القنصل الإنجليزى (بتروشى Petrucci) ، الذى كان يقيم مؤقتا بقرية بالقرب من رشيد .

على أية حال ، لم تكن القوات برشيد لتزيد على ٥٥٠ بأقصى تقدير لمسيت (Misset) بما فيهم قوات سليمان أغا وحامية رشيد الأصلية ، والأتراك القادمين من دمنهور .

وبعث (بتروشى) برسالة إلى (فريزر) أكد له فيها أن أهل رشيد عن بكرة أبيهم — وعلى رأسهم زعيمهم الشيخ حسن كريت — يستعدون للترحيب بالإنجليز لتخليصهم مما هم فيه من مظالم .

وفى الواقع أن هذه الرسالة كانت بناء على ما تلقاه بتروشى من (روزتى Resetti) تاجر البندقية بتاريخ ٢٧ مارس حيث قال إن الشيخ حسن قد تمكن فى الأيام الأخيرة من إقناع الجنود بإخلاء المدينة ، فاستمعوا له ـ كما يبدو ـ وفى ذلك ما يبعث على راحة الإنجليز والأهالى جميعا .

أمام هذه المغريات ، دبر (فريزر) خطة الاستيلاء على رشيد ، ولم يغب عن فطنته بعد هذا كله ، أنها بمثابة عنق الزجاجة للطريق بين الاسكندرية والقاهرة ، الطريق النيلى ، وهو أكثر أمانا من الطريق الصحراوى .

وتمت الخطة فعلا : حملة من ١٦٠٠ على رأسها القائدان (ووكوب Wauchope) و (ميد Meade) .. تتحرك القوات من الاسكندرية يوم ٢٩ مارس ، ومعها مدفعان ثقيلان ، واثنتان من قاذفات القنابل ، لا داعى لأكثر من ذلك ، فتلك القوة بل وأقل منها كفيلة بإرهاب رشيد ، حتى ترفع يديها فى الحال بالاستسلام ، ومن أجل هذا لم يكلف (فريزر) نفسه عناء اصطحاب فرقة من الفرسان ، فى حملته ، على رشيد .

سارت الحملة بطريق البر حتى وصلت (أبو قير) ، حيث أعد (هالويل Hallowell) عدة سفن مسلحة لنقل الجنود إلى بوغاز بحيرة إدكو ، وعند هذا البوغاز (المعدية) أقام الجنود قاعدة ارتكاز أو محطة للانتقال عندها عبر بوغاز البحيرة المذكورة إلى رشيد .

لقد وجد الجنود كل مشقة فى هذه الرحلة ، ولكن أنفاس الربيع كانت تبعث الدفء فى أوصالهم ، فالسماء صافية ، والشمس مشرقة ، والأنسام رقيقة ، ترف بها سواحل البحر ، وضفاف بحيرات الشمال .

ودب النشاط فى الجنود، وهم يعلمون أنهم سيقطعون سبعين كيلومترا سيرا على الأقدام ، بين كثبان الرمال ، وفى ظلال النخيل ، وبالقوارب الصغيرة عبر بوغاز إدكو ، وغربت عليهم شمس يوم ٣٠ مارس ، وهم آمنون من كل سوء ، فألقوا عصا التسيار على مرتفعات (أبو منضور) التى تطل على رشيد من الجهة الجنوبية، فألقوا أسلحتهم عن كواهلهم ، وأووا إلى الخيام التى نصبوها فى ظلال النخيل ، وأشجار التوت والجميز ، يلتمسون الراحة بعد التعب ، فناموا ، حتى الصباح .

وسهر (ميد) فى خيمته لوضع خطة الهجوم فى اليوم التالى، وتقضى بأن تتقدم قواته لاحتلال رشيد على ثلاث فرق :

فرقة تقتحم المدينة من جهة البساتين الممتدة على الضفة اليسرى للنيل ، وفرقة تقتحمها من باب المدينة الرئيسى أى تشقها من وسطها ، وفرقة تقتحمها من باب الاسكندرية .

وفى الساعة السابعة إلا ربعا من صباح يوم ٣١ مارس ، كانت العمليات العسكرية على تمامها ، بينما توجه (ميد) إلى منزل (بتروشى) ليتناول معه الطعام اللذيذ الذى أعده له من قبل ، وقد رأى بعيني رأسه ، أن المدينة خاوية على عروشها ، فصدق ما كان قد كتبه له القنصل .

تحركت الطوابير أو الفرق كلها . دون أن تكون ثمت قوات احتياطية تحمى المؤخرة ، ولم يجد الإنجليز أمامهم عدوا يلقونه ، ولكن سرعان ما سرى فى أرجاء المدينة صوت أشبه بعواء الذئب ، وعلا من فوق مئذنة جامع زغلول صوت الأذان « الله أكبر » ، وانشق هذا التهليل والتكبير ، عن الهول الأكبر ، وإذا بحماة المدينة متترسين فى المنازل خلف الطيقان ، ومنها أخذوا يطلقون بنادقهم على الإنجليز الذين ملأوا البلد ، وصارت الشبابيك الصغيرة تقذف نيرانها عليهم فى « مدينة الشمس المشرقة » ، وكانت أسطح المنازل - كما يقول (الجنرال فيجان Général Weygand) - خطوطا لدفاع محكم ، وتحت ستار من هذه النيران التى لا يمكن أن تنالها المدافع ، منى الإنجليز بخسائر فادحة ، ولا سيما فى الضباط وأكثرهم فرنسيون .

كان من الصعب على الفرقة الأولى أن تقتحم المدينة إلى داخلها : وذلك لامتداده على طول ضفة النيل . وكان على يساره تل مغطى بالاحراش ، وأهمله (ووكوب) فلم يتم باحتلاله ، لهذا انهالت الضربات منه على الإنجليز فاضطربوا وتشتت شملهم .

وكذلك الفرقة الثانية ، تعرضت للحجارة والرصاص والقذائف من كل نوع : تنصب من الشرفات والنوافذ والطيقان والأزقة والعطف والسراديب ، وتذرع

جنود هذه الفرقة بالشجاعة محاولين اقتحام هذا الوابل من القدائف ، دون أن يكون لهم هدف محدود .

وجاء دور الفرقة الأخيرة ، التى فضلت أن تتقهقر منذ اللحظة الأولى ، ولا سيما بعد أن أصابت الجراح (ميد) فاضطرب الجنود ، ثم حاول (ووكوب) أن يعيد النظام إلى صفوفهم . فأصابته جراح قاتلة ، فلفظ آخر أنفاسه ، وهو يصدر أوامره إلى رجاله بإسكات الطلقات المتلاحقة وهى تنبعث من بيت مجـــاور ، وأسرع جنوده باقتحام هذا البيت ، وقتلوا كل من كان به من المجاهدين والمجاهدات.

وسقط الجنود الإنجليز قتلى وجرحى ، وتخفف أكثرهم من السلاح الذى كان يحمله ، راضيا بالأسر ، ولاذ بالفرار على غير هدى ، إلى (إدكو) ، حيث كان أهلها يتصيدونهم فيجهزون عليهم ويوارونهم كثبان الرمال ، وأما الناجون فكانوا يصلون بكل مشقة إلى بوغاز بحيرة إدكو ، ومن هناك تقلهم المراكب إلى أبو قير ، وارتد (ميد) إلى إدكو التى جعلها مركز تقدمه .

وكان عدد القتلى من الإنجليز فى المعركة ١٨٥ والجرحى ٢٨٢ ، وقيل ٥٠٠ ما بين قتيل وجريح ، ووقع فى الأسر نحو ٤٠ وقد شهد الأوربيون بأن على بك السلانكلى أحسن معاملتهم ، أما رءوس القتلى فقد وصلت الدفعة الأولى منها إلى القاهرة يوم ٥ إبريل وعددها ٩٠ عرضت فى ميدان الأزبكية على رءوس النبابيت وسط مظاهر الأفراح التى لا تبعث على الضحك ، كما يقول (دوران فييل Durand Viel) .

قلنا إن الإنجليز دخلوا رشيد فى الساعة السابعة إلا ربعا من صباح يوم ٣١ مارس ، ومن العجب أن هذه المعركة لم تدم أكثر من ساعتين ، انهزموا فيها على غير ما كان يتوقع (فريزر) ظنا منه ـ حسب المعلومات التى بلغته ـ أن المقاومة ستكون تافهة ، ولكن خيبت الحقيقة المرة ظنونه .

وإذا رجعنا إلى الجانب المصرى ، وجدنا أن مدبر هذا النصر المبين هو الله وحده ، أجراه على يد على بك السلانكلى : فإنه لما علم بسير الإنجليز نحو رشيد ـ كما يقول إسماعيل باشا سرهنك ـ [استعد لقتالهم بما لديه من الجنود القليلين ، وأمر أهلها بالسكون والثبات والاختفاء حتى إذا أعطى إليهم الإشارة ، وشنوا

عنــــد ذلك الإغارة ، فانصاعوا لأمره ، وامتثلوا لما قام بفكره ، وبذلك صـــارت الطرق والشوارع ، كالأطلال البـــلاقع ، ودخل الإنجليز بلا ممانع ولا مدافع ، فظنوا أن الديار قد خلت من قطانها ، والمدينة قد خلت من سكانها ، ولم يعلموا أن الآساد رابضة فى آجامها ، وأطيار المنايا تغنى عـــلى أفنانها ، ولما ألقوا عصا التسيار ، وتفرقوا فى أكنافها للاستراحة من الأسفار . لم تمض برهة حتى انسكب عليهم هطال من الليوث ، لا من الغيـــوث ، ودهمتهم الأبطال . وما زال أهالى البلد يلبسونهم حللا حمراء من نسج السلاح ، ويفتكون بهم فتكا ليس بعده صلاح ، حتى فرقوهم أيادى سبا ، وجعلوهم يمعنون فـــرارا وهربا] .

كما أن السلانكلى قد جمع المجاهدين ، ورتب لهم الخطة ، وأبعد المراكب عن مرسى رشيد على النيل إلى الضفة اليمنى ، فجنى أول ثمار النصر .

ومن العجيب أن التجار الاوربيين فى رشيد قد ظنوا أن رشيد قد قطت فى أيدى الإنجليز ، فأسرعوا ـ ومنهم (روزتى) ـ إلى الإنجليز يطلبـــون منهم ما يضمن حمـــايتهم ، وأكد ابتروشى أن الإنجليز تمكنوا من احتلال معظم المدينة : وادعى أن الشيخ حسن كريت قد أبلغه أنه يطلب حرس شرف لنفسة .

على الرغم من كل هذه المحاولات فإن التاريخ قد كتب فى ألمع صفحـــاته ، النصر لرشيد على الإنجليز ، فى يوم ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ .

رشيد تدخل التاريخ

دخلت رشيد الباسلة من باب التاريخ العريض ، منذ بدأت ثمرات انتصارها تصل إلى القاهرة من ٥ إبريل وما بعده ، وأخذ السيد حسن كريت يشحن كل يوم عددا من رءوس القتلى إلى بولاق ، يطاف بها فى أحياء القاهرة كل نهـار ، وترشق على النبابيت ، وسط بركة الأزبكية ، إلى جانب سابقاتها على صفين ، يمر بينهما الداخلون من (باب الهواء) ، وقد أحصيت هذه الرءوس فبلغت ٣٤٠ عدا ٢ رأسا لكبار الضباط .

وأصبح من عادة أهل القاهرة كل صباح أن ينتظروا الدفعة الجديدة من هذه

الرءوس والأسرى بين الهتافات وهى تشق طريقها من « باب النصر » إلى « باب الفتوح » ، ومعها كتابات الاستنجاد يبعث بها حسن كريت إلى السيد عمر مكرم، طالبا الرجال والعتاد ، استعدادا للطوارىء بعد النصر الذى أحرزه أهل رشيد ، ولم يجعلهم يستنيمون له ، بل اجتهدوا فى الحرص عليه حتى لا يفر من أيديهم .

وشرع السيد عمر مكرم بدوره يحث على التطوع والتبرع ، دفاعا عن رشيد ، بل دفاعا عن مصر كلها ، كما دعا إلى تحصين القاهرة ، فتهافت المواطنون على رشيد ، تهافت الفراشات على النار ، وأسرع عرب البحيرة إلى رشيد فى طليعة المدافعين عنها ، وكذلك الفلاحون والصيادون من الجهات المجاورة ، صاروا يتدفقون عليها كل بما ملكت يداه

وأعد أهل رشيد صناديق ، وضعوا فيها آذان القتلى مملحة ، وأرسلوها هدايا إلى (الباب العالى) ، مصحوبة بالمقالات الضافية ، من قلم إسماعيل الكاشف .

وسمع محمد على وهو بالصعيد [وكان يحارب المصريين (= المماليك) ، ويشدد عليهم ، فعند ذلك انحلت عزائمه ، وأرسل يصالحهم ، على ما يريدونه ويطلبونه ، وقد ثبت فى يقينه استيلاء الإنجليز على الديار المصرية ، وعزم على العودة متلكئاً فى السير ، يظن سرعة ورودهم إلى المدينة ، فيسير شرقا عن طريق الشام ، ويكون له عذر بغيبته فى الحملة ، فلما وصلت الشرذمة الأولى من الإنجليز إلى رشيد ، ودخلوها من غير ممانع ، وحبسوا أنفسهم فيها ، فقتلوا وأسروا ، وهرب من هرب ، ووصلت الرءوس والأسرى ، وأسرعت المبشرون إلى الباشا بالخبر ، فعند ذلك تراجعت إليه نفسه ، وأسرع فى الحضور] .

هذا هو موقف محمد على من كفاح رشيد كما وصفه الجبرتى ، ومعنى ذلك أن (ولاية) محمد على قد تجمدت ، وأن عبء المقاومة الشعبية قد ألقى على كاهل عمر مكرم ، الذى خف إلى منزل محمد على بالأزبكية فور وصوله من الصعيد ، ليعرض عليه قرارات المؤتمر الشعبي الذى عقده ببيت القاضى وانعقد فيه الإجماع على مواصلة النضال ، على الرغم من تخذيل طبوزأوغلى بك الكتخدا (= نائب الباشا) ، ومحاولته شل الحركة الشعبية حتى يصل الباشا .

ووصل الباشا ، فخيب ظن المصريين فيه ، إذ قال لهم ـ وعلى رأسهم السيد

عمر مكرم - [ليس على رعية البلد خروج (= جهاد) ، وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر] .

وانفض المجلس وركبوا إلى دورهم ، وعند ما أرخى الليل سدوله طلب السيد عمر ، ليكلفه بتحصيل نفقات العساكر ، العساكر الفارين من وجه الإنجليز فى رشيد إلى الضفة اليمنى ، وفى دمنهور إلى فوه ، مع الكاشف التركى الجبان .

أما محمد على . فعلى ما يبدو ، قد أحس بأفول نجمه ، بعد توليه أمر مصر بسنتين ، وبسطوع نجم عمر مكرم ، ونفاذ كلمة الشعب ، عقب النصر الذى أحرزه هذا (الشعب) فى رشيد .

وتعطلت الدراسة فى الأزهر ، وتسلح المشايخ والطلبة ، وتطوعوا للجهاد ، وعلى الرغم من محاولات طبوزأوغلى ، للتخذيل . تدفقت الأسلحة والذخائر والمؤن ، والفلاحون والتجار من البحيرة ، وما حولها ، والقاهرة ، فاشتد أزر المكافحين بهم ، ووجد حسن كريت من صرخاته سميعا مجيبا ، من أهل مصر ، للدفاع عن رشيد .

فريزر .. ينتقم

كان (فريزر) و (مسيت) يظنان أن الحملة على رشيد - على حد تعبير (دوران فيبل) - لا تعدو أن تكون رحلة إلى (بونس أيرس) ، لهذا لم تصل من مستوى ذكائه إلى القدر اللائق بها ، ومع ذلك ، أعادته الهزيمة إلى أرض الواقع ، فاستيقظ من سباته ، وصمم على الانتقام ، كيف ؟ .

أعد فريزر حملة أخرى من ٤ آلاف جندى وقيل ٢٥٠٠ يقودهم كبار الجنرالات من أمثال : (دلانسى Delancey) و (أوكيف O'Keefe) و(رديل Riddle) و (ماك ليود Mac Leod) و (سوننجبرج Sonnengberg) تؤيدهم قوات بحرية يقودها (هالويل Hallowell) ، وجعل القيادة العليا للجنرال (وليم استيوارت W. Stewart) ويعاونه (أوزفالد Oswald) ، وزودت الحملة بالمدافع ، وألاى ألمانى يسمى (رول Roll) ، وكان دليل الحملة هو دليلها السابق (نابرنا) ويساعده أعرابى يسمى الشيخ مسعود ، وكان (مسيت) من الدين رافقوا الحملة .

أعد (فريزر) كل هذا ، واتجه هو إلى السفينة (كانوب Cancpus) التى جعلها مقر قيادته ، وقــد رسا بها على خليج أبو قير أمام إدكو ، ليتمكن من الإشراف على سير العمليات العسكرية .

وقــد كانت الخطة تقضى هذه المره بضرب الحصار حول رشيد ، ونسفها بالمدافع والقنابل ، بكل قوة وبكل شدة حتى تعلن التسليم .

وكما حدث فى المرة الأولى ، كان تنقل الجنود عبر بوغاز بحيرة إدكو تحت إشراف (هالويل) ، الذى ذهب أيضا إلى بوغاز رشيد ليشرف بنفسه على دخول الأسطول فى فرع رشيد ، بعد هدم قلعة (برج مغيزل) ، وأراد أن يتجنب الخطأ الذى وقع فيه من قبل ، وهو الذى أدى إلى مباغتة أهل رشيد له ،فاتخذ وضح 8.

وصلت النجدات التى طلبها فريزر ، واتخذ للموقف ما يستحقه من العناية فى هذه المرة ، وزود القائد العام بما لديه من التعليمات المشدده ، ولم يمض عليه بعشر قطع مدفعية لتنفيذ الخطة المرسومة .. و .. الانتقام .

الطريق إلى المعركه

كانت رشيد هى هدف الإنجليز بعــد فشلهم الذريع فى الاستيلاء عليها ، وهزيمتهم النكراء بها فى يوم ٣١ مارس ، وشاءت الأقدار ، أن تكون (الحماد) درعا أقوى من رشيد فى الدفاع عنها ، وعن مصر ، والشرق قاطبة ، وذلك ما لم يكن أيضا فى حسبان فريزر .

فلنكن مع الحملة فى خط سيرها ، يوما فيوما ، لتكون صورة الميدان واضحة المعالم فى أذهاننا ، من جميع أطرافها .

تحركت الحملة الجديدة فى يوم ٣ إبريل سنة ١٨٠٧ من التلال المرتفعة التى تقع فى شرق الإسكندرية ، حيث كان المعسكر الإنجليزى ، ووصلت القوات إلى أبو قير .

وقد تم نقل العتاد بطريق البحر إلى بوغاز إدكو ، وقد اتخذ القائد (نيكولز Nicolls) هناك لنفسه نقطة ارتكاز منذ الارتداد الأول ، وسارت فرق المشاة

وعبرت بوغاز إدكو ، ولكنها ضلت الطريق ، وسط تلال الرمال وغابات النخيل التي لا تهدى الضال إلى الطريق .

وهناك عند سد أبوقير الذى يبلغ اتساعه نحو ميل ، صعب على الجنود أن يعبروه ، وبالتالى أن ينقلوا عبره ما معهم من المهمات الثقيلة ، وتعذر عليهم سحب الخيول والجمال التى استأجروها لخوض هذا السد الغامر من المياه المالحة .

وتكررت المأساة عند ما وصلوا إلى بوغاز إدكو وهو وإن كان أضيق من سد أبوقير إلا أنه كان أعمق منه ، على كل حال ، انقضى يوم كامل فى هذه المهمة الشاقة بسبب سد أبوقير وبوغاز إدكو .

ووصلت الطلائع الأولى للجنود يقودها (ماكليود) إلى المرتفعات التى تشرف على إدكو ، حتى لا يتوقف سير الحملة فى الطريق بين المعدية وإدكو .

وفى يوم ٤ إبريل ، وصلت إلى المعدية المدافع الثقيلة ، والمهمات التى نقلت بحرا من الإسكندرية إلى بوغاز إدكو ، ولم يكن من الميسور نقلها بسرعة لقلة الجمال بالإسكندرية ، كما أن مياه بحيرة إدكو كانت تتناقص تدريجيا يوما بعد يوم ، مما تصعب معه الملاحة فيها بالقوارب ، ولو كانت حمولتها خفيفة .

وأخذت محطة بوغاز إدكو تتلقى سيلا دافقا من المهمات ، وهناك يضعها الإنجليز فى المخازن التى أعدوها لذلك ، ثم ينقلونها إلى معسكرهم الذى يبعد بمسافة ٧ كيلومترات فى الطرف الشرقى لبحيرة إدكو .

طريق طويل كهذا ، وفى مثل هذه الظروف ، يتطلب حراسة شديدة على طول الخط ، وإلا تعرضت الذخائر لهجمات المصريين ، ومن أجل هذا ، كلف عدد كبير من الجنود بهذه المهمة ، مما أدى إلى نقص القوات التى عهد إليها غزو رشيد .

وكان أمام (استيوارت) طريقان من أبوقير إلى إدكو : الطريق البحرى والطريق البرى ، أما الأول فهو كثير الأمواج الساحلية فيما بين العجمى ورشيد ، ولا سيما عند مصب النيل . وأما الآخر فهو أقل خطرا من الأول ، وعلى الرغم من امتداد كثبانه الرملية وتعرجها ، وما يعترضه من المستنقعات وبوغازى أبوقير وإدكو ، فإن به بعض الآبار التى تزود الجنود بماء الشرب .

وأشرقت شمس يوم ٥ إبريل ، و (ماكليود) يتخذ مكانه خلف إدكو . واستمر الجنود يسحبون بأيديهم المدافع الخفيفة ، فإذا أرهقهم التعب ، قام البحارة لمساعدتهم ، بين الرمال الملتوية الصاعدة الهابطة ، تتبعهم الخيول وهى تجر المدافع الثقيلة . والذخائر على ظهور الجمال ، أما المدفع الكبير (مورتار) فقد حرصوا على نقله مع القنابل بالقوارب عبر بحيرة إدكو .

وانقضى اليوم كله فى هذه العملية ، ومع ذلك لم يتمكن الإنجليز من نقل جميع المهمات ، فتركوا الضرورى منها فى الطريق ، ورابطوا من خلفه .

وبدأ الحر يشتد ، والإنجليز لا يطيقونه ، لهذا لم يكونوا يسيرون أكثر من ميل واحد فى الساعة ، وقد ساعدت حرارة الجو على تجفيف مياه بوغاز إدكو مما ساعد الإنجليز على نقل المهمات التى استطاعت القوارب أن تمضى بها إلى أقصى طرفها الشرقى ، قريبا من سهول رشيد .

وبينما كان (ماكليد) بإدكو ، أحس بقدوم بعض الفرسان فأظهر الاستعداد ، حتى أرغمهم على الارتداد ، وأدرك (ماكليد) أن المصريين يريدون أن يتخذوا من الطريق بين المعدية وإدكو ميدانا للمعركة ، ولكنه وجد أنه لا يصلح لذلك ، خصوصا وأن قوام القوة المحاربة من الفرسان ، وليس فى جيش الإنجليز من الفرسان قليل أو كثير .

ودلت المخابرات السرية (استيوارت) على أن المصريين مرابطون عند (الحماد) ، فصمم على احتلالها ، لتأمين مؤخرة جيشه ، والسيطرة على الملاحة فى فرع رشيد ، وحماية المواصلات فيما بين المعدية وميدان المعركة .

ونظر (ماكليود) فى الخريطة ، فوجد برزخا يفصل بحيرة إدكو من طرفها الشرقى عن رشيد ، ورأى أيضا انحناءات على الخريطة هى آثار ترعة قديمة عميقة ، تقع (الحماد) خلفها ، وتمتد من أقصى البحيرة نحو النيل خلف انحناءة النيل جنوب أبو منضور ويعلو شاطئاها على الضفتين ، ويمتدان من النيل إلى ثلثى المسافة تقريبا عبر هذا البرزخ ، وفكر (استيوارت) فى السيطرة على هذين الشاطئين ليتمكن من الإشراف على سهل يقع أمام الترعة وآخر خلفها ، وصدرت التعليمات فى الحال إلى (ماكليود) .

زحف (ماكايود) فى يوم ٦ إبريل نحو الحماد ، واستطاع أن يقتحم تحرشات الفرسان به قبيل الحماد ، واحتل البلد بلا أدنى مقاومة ، وأصبح أمامه طريقان من إدكو إلى رشيد : الأول طويل يمر عبر كثبان الرمال . والآخر يسير بمحاذاة الساحل الشمالى لبحيره إدكو الى حيث البرزخ المذكور فى أقصى طرفها الشمالى الشرقى ، ثم يستمر الطريق الى اليسار مع الدوران خلف بعض الكثبان حتى يصل إلى النيل .

سار (استيوارت) من إدكو الى رشيد عن طريق ساحل بحيرة إدكو ، وساعدته الأرض الصلبة على سرعة الوصول قبل غروب شمس يوم ٦ فاحتل المرتفعات الواقعة بين الحماد وأبو منضور ، وبات قرير العين .

ولما أشرقت شمس يوم ٧ حل (فوجلسانج Vogelsang) محل (ماكايود) بالحماد ، ابزحف هذا إلى مرتفعات أبو منضور ، واستطاع فعلا أن يرد المصريين إلى داخل أسوار رشيد ، وأن يحتل أبو منضور ، وكان استيوارت بدوره قد طوق بقواته التلال الرملية المحيطة برشيد ، وضرب عليها الحصار ، ولكن القوات التى كانت معه لم تكن كافية لإحكام هذا الحصار .

لهذا خرج عليه المصريون بعد الظهر ، فجمع استيوارت قواته ، ووضعها فى خط من النيل إلى باب رشيد أى أن هذه القوة شقت المدينة نصفين ثم تنحرف من طرفها الغربى نحو اليسار حيث اتخذ الفرسان المصريون مواقعهم ، وبدأت المدافع الإنجليزية تفتح أفواهها ، والمصريون يردون عليها من الطيقان ، ومن خلال الأسوار .

وجاء يوم ٨ وقصف المدافع لا يكف ، والمشاة والفرسان لا يعبأون بها ، بل يقتحمونها بكل بسالة ، حتى تم الاشتباك ، وبدأ (أسوالد) بحركة تطويق لهم من الخلف ، وفطن أهل رشيد لذلك بعد مراقبة الحركة من فوق المآذن ، فتراجع الفرسان إلى داخل المدينة ، وظلت المدافع التى ركبوها على (أبو منضور) و (كوم الأفراح) تطلق نيرانها بلا رحمة ، ليستدرجوا الإنجليز إلى الداخل ، ولم يكف الإنجليز عن المطاردة ، ولم يكف المصريون عن الضرب من بين ثنايا الأسوار ، فكبدوهم خسائر فادحة ، وأصيب القائد العام (استيوات) بجراح

خطيرة ؛ وسرعان ما أسقط فى يده ، وبعث إلى علي بك السلانكلى يدعوه إلى التسليم ، فرد عليه بأنه يتلقى أوامره من رؤسائه ، وعرض عليه هدنة لوقف إطلاق النار ولكن (استيوارت) أخذته العزة بالإثم ، ورفض الهدنة .

رأى (استيوارت) أن احتلال الحماد ضرورى جدا ، ليأمن وصول المهمات من بوغاز إدكو إليه ، وحتى لا تنفصل قواته عن الجيش الرئيسى المتأهب لسحق رشيد .

واستمر استيوارت يومى ٩ و ١٠ يضرب رشيد بالقنابل ، ويقرب المدافع منها ، وينشىء التحصينات من جذوع النخيل وسعفه ويغطيها بالرمال لوقف أى هجوم عليه ، ومع ذلك لم يكن قصف هذه المدافع إلا كالضرب فى حديد بارد ، واعتلت صحة (مسيت) فترك المعسكر ، واستمر الفرسان فى مناوشاتهم ، حتى جاء يوم ١١ فتسللوا من المدينة ، وانقضوا كالصواعق على الأعداء ، والتحم القتال ، وأصيب على السلانكلى ببعض الجراح ، ولكن الإنجليز كانوا من الجبن لدرجة أنهم لم يجرؤوا على مجرد الاقتراب من أسوار رشيد وكأنها كانت فى حسبانهم ، أسوار جهنم .

وتولى القيادة فى يوم ١٢ الجنرال (أسوالد) . أما (فوجلسانج) فقد وصلته النجدة وهو بالحماد ، ولكنه ما لبث أن وجد الثغرات المتعددة تهدده بالخطر ، فقد ظهرت طلائع المتطوعين تتدفق من رشيد والقاهرة ، ومعهم المؤن والذخائر من الضفة اليمنى للنيل ، ورأى الإنجليز أن الحصار الذى ضربوه على رشيد لم ينجح ، فأوفدوا من قبلهم رسلا إلى الجانب المصرى للمفاوضة ، ولكنهم لقوا مصارعهم فى الطريق ، كما أن العربان خدعوا الإنجليز ، ونقلوا إليهم أخبارا كاذبة ليرضوهم بها ، واستمر المصريون يقذفون معسكر الإنجليز بكل ما لديهم من القنابل .

ووصلت هذه الأنباء إلى (فريزر) فى (كانوبيس) فازداد قلقه ، وصمم على زيارة المعسكر بنفسه ، وتفقد أحواله ، فوصل يوم ١٥ ومعه (لويس) . فكتم السهم فى كبده ، وأيقن بالهزيمة ، ولكنه لم يزد على أن أصدر تعلياته إلى

(استيوارت) باتباع الخطة المتفق عليها من قبل وهى تركيز المدافع على رشيد حتى تسلم .

وحاول (استيوارت) أن يشرح له الخطر المحدق به ، ليبرر موقفه ، كما عرض عليه أن الإمدادات لا تصل من محطة بوغاز إدكو إلى المعسكر إلا بصعوبة عبر الرمال ، غير أن (فريزر) لوى عنان فرسه إلى إدكو ، ومنها إلى (السفينة) واليأس يغمر قلبه بالأحزان .

فى ذلك اليوم تقـدم (ماكدونالد Macdonald) ومعه ٥٠ جندى من (أبو منضور) نحو الضفة اليمنى للنيل ، فأوقف مدافع المصريين ، ولـكن النجدة توالت ، فاضطر إلى التقهقر بمن معه وحاول الإنجليز تعزيز قوات ماكدونالد ، فـكبدتهم هذه المحاولة خسائر فادحه ، إذ تعرض (استيوارت) لهجوم داخلى ، إذ جاءت من إدكو فرقـة من ٣٠٠ جندى يقودها (فوجلسانج Vogelsang) فانقضت عليه الهجمات من كل جانب حتى أبيدت فى قتة عن آخرها .

وقامت يوم ١٧ فرقة من الفدائيين المصريين مكونة من ٢٥ فلاح بمحاولة لقطع المواصلات بين إدكو ورشيد للحيلولة بين وصول الإمدادات إلى الإنجليز فأسرهم العدو بين إدكو وخطوطه الأمامية .

وحـل يوم ١٨ ، والنجدات تتوالى على المصريين ، وزادت حيرة الإنجليز ولا سيما إذ رأوا أن العربان لم يعودوا يترددون عليهم بالسلع ، والأخبار ، ولم ير (فريزر) بدا من الـكتابة إلى (ابراهيم بك) وهو على ظهر سفينته ، يرجوه أن يرسل بعض المماليك إلى البحيرة والمنوفية وفوة لمنع مرور المتطوعين إلى رشيد .

الحق أن المماليك كانوا قد اتخذوا الحيطة فى هـذه المعركة ، فهم كانوا يخافون من محمد على ، وقد دب الشقاق فى صفوفهم ، وفى الوقت نفسه ، لم يبادلوا فريزر غير المجاملات إذ وعدوه بأنهم سيحضرون جميعا إليه فى حالة استيلائه على رشيد .

ولم يكن فريزر ليظفر بالرد على مكاتباته إلى المماليك إلا بعد مضى . أيام ، بينما الاحداث تتلاحق وتتشابك ، بما لا تشتهى السفن .

على كل حال ، لقـد كان الطريق إلى المعركة ، طويلا شاقا محفوفا بالمـكاره ، والإنجليز لا يبالون ، فليسيروا فى الطريق حتى النهاية

تيجان النصر على جبين الحماد

« الليل أخفى للويل » .. هكذا قال العرب فى أمثالهم ، وهكذا رأى الإنجليز بأنفسهم فى حملة فريزر ، إذ كان الليل أعدى أعدائهم ، فقد كان النهار يكشف جميع العمليات العسكرية الجارية فى هذا السهل الفسيح فيما بين الحماد وأبو منضور وكوم الأفراح ورشيد ، أما الليل فكان خطرا داهما عليهم .. كان أخفى للويل .

ففى يوم ١٨ إبريل سنة ١٨٠٧ ، استجابت (أريحية) محمد على للدوافع المتأججة فى صدور أبناء الشعب وأرسل جيشين أحدهما يقوده حسن باشا والآخر يقوده طبوزأوغلى ، وعند (منوف) افترق الجيشان ، فسار الأول يسارا ، وسار الآخر يمينا إلى رشيد ، وعبر حسن باشا النيل عند إدفينا ، واتخذها موقعه ، بينما استقر طبوزأوغلى فى برنبال ، بالقرب من مرتفع الحماد .

وفى اليوم التالى ، زحف حسن باشا بجيشه من (ديبى) الواقعة فى شمال إدفينا إلى الحماد . وانقض على ميسرة (فوجلسانج) ولكن الإنجليز استطاعوا أن يصدوه ، وعاد المصريون فاحتلوا (إدفينا) وهجموا على الإنجليز بشدة فردوهم ، وخشى الإنجليز أن تنكشف مؤخرتهم ، فلم يواصلوا هجومهم ، فكرت الخيالة المصرية . وانشقت أسوار رشيد عن وابل من الرصاص ينهال على الإنجليز ، فما وجدوا وسيلة خيرا من الانسحاب على الفور إلى محطة بوغاز إدكو ، على ضوء القمر فى الليل القصير .

وطلع صباح يوم ٢٠ ، وإذا بالإنجليز يطوون خيامهم ، ويحملون متاعهم وما خف عليهم من عتاد ، فلما احتواهم السهل الفسيح انقض عليهم الفرسان ، وهم يتقهقرون إلى الحماد ، فقتلوا منهم نحو الثلثين ، وطار الخبر إلى (استيوارت) قبيل الظهر ، فأرسل إلى الحماد نجدة عسكرية مع (ماكليود) و (ديلانسى) ، وإذا بالهجوم الخاطف ينقض على بقية الجنود فى رشيد ، وعرف المصريون كم عددهم ، واطمأن (ماكليود) إلى موقعه بالحماد ، واستطاع (استيوارت) أن يفلت من الأسر حتى وصل إلى الحماد وفتش المواقع ، ونصحه بملازمة الدفاع عنها ، وأمره بالتقهقر إلى بحيرة إدكو فى حالة الخطر ، وإذا تعذر عليه ذلك

انسحب إلى مرتفعات رشيد ليلحق بالقوات الرئيسية ، وأسرع (استيوارت) بعد إسداء هــذه النصائح إلى (ماكايود) وعاد إلى معسكره أمام رشيد ، فوصلها الساعة الثانية من صباح يوم ٢١ إبريل ، واتفق مع (هالويل) على الانسحاب عند المساء مع اتخاذ الحيطة لذلك ، حتى لا ينخذل الجنود .

طلع صباح يوم ٢١ ، والأسرى ورءوس القتلى يردون على معسكر طبوزأوغلى فى برنبال ، فارتفعت الروح المعنوية عند المصريين ، واشتد أزرهم بهـذا النصر ، وانضم طبوزأوغلى إلى حسن باشا ، فى الزحف على الحماد تحت ستار كثيف من الضباب ولم يستطع معه برج المراقبة فى أبو منضور من رؤية السفينتين المسلحتين بالمدافع الثقيلة ، فبادر (ماكايود) بفك الحصار عن رشيد ، ولم يعبأ بالنجدة التى قدم بها إليه استيوارت .

زحف ماكايود إلى الحماد ، وإذا بالمصريين يشنون هجوما شاملا من جميع الجهات ، واستعملوا السلاح الأبيض فى المعركة ، وكرت الفرسان على الإنجليز فى السهل المتسع حتى أبعدوهم إلى الغرب ، إلى أن وصلوا إلى (بحيرة إدكو) ، وهنـاك أدركهم فرسان ومشاة ممن استمروا فى مطاردتهم من الحماد ، فأحدقوا بالإنجليز ، وأحاطوهم بقوات هائلة ، ولكن الإنجليز أسرعوا بنصب مدفع على شاطىء البحيرة ، وقد جففت الشمس بعض أجزائه ، فجعلت منه أرضا صلبة ، وتحت وابل من قنابل هذا المدفع تراجع الفرسان إلى مسافة بعيدة ، أما المشاة فقد فاجأوا العدو برصاص بنادقهم التى ركبوها على أطراف الرمال .

وأصاب الارتباك استيوارت فى ارتداده ، وتحير فى أمره ، أيسلك الطريق الأيمن إلى الحماد ، أم الطريق الأيسر إلى إدكو ولكنه التمس النجاة فى الطريق إلى إدكو ، وصمم على مهاجمـــة المصريين فى مواقعهم بالحماد ، تحت وابل من الرصاص ، فتقـدم نحوها ، بينما تشتت شمل المجاهدين بسرعة فائقـــة وسط كثبان الرمال .

وفى الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم ٢١ ، غير الجيش خط سيره ، فظل فى طريقه لمدة ساعة ونصف ساعة ، محاذيا للنيل ، حتى وجد الخيـالة ينسحبون ببطء ، وخيامهم على الشاطىء ، فرجع (استيوارت) بقواته إلى إدكو ، طلباً

للماء والراحة ، وفى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم وصل إلى شرق البحيرة ، وهناك أعطيت للجنود بعض الخمور والأطعمة ، لتجديد نشاطهم ، أما الجرحى فقد نقلوا مع الذخيرة بالقوارب ، ولم يبق إلا ثلاثة مدافع لم ينقلوها على سبيل الحيطة ، وتمت عملية النقل عبر بحيرة إدكو ، حتى العاشرة ، وعندها واصلوا السير إلى إدكو .

وصل الإنجليز إلى إدكو بعد منتصف الليل ، وكان الهدوء يخيم على البلدة الآمنة ، ولكن قلوب الإنجليز كانت فى خوف وهلع : فقد باتوا يتوقعون هجوما مفاجئا من المشاة والفرسان على طريقهم الممتد لمسافة ثلاثة أميال من ساحل البحيرة حتى يؤدى إلى حقول من الرمال واسعة الأرجاء .

أما أهل إدكو ، فقد هجروها ، حتى لا يتعرضوا للانتقام من المرتدين على أعقابهم ، ولم يتزود الإنجليز من بلدهم إلا بالماء يروون به ظمأهم القاتل .

وقبل أن يصل الإنجليز إلى المعدية ، فاجأهم عدد كبير من أهل إدكو وغيرها ، فأطلقوا عليهم الرصاص ، ولم ينجوا منهم إلا بكل مشقة ، حتى وصلوا إلى بوغاز إدكو بعد ظهر يوم ٢٢ ، وكان باقى العتاد قد وصل من أطراف بحيرة إدكو الشرقية بالقوارب التى أرسلها (هالويل) ، وظلت القوات الإنجليزية فى انسحابها من الحماد ورشيد ، إلى إدكو ومنها إلى البوغاز ثم إلى أبوقير فوصلتها يوم ٢٣ ثم وصلت فى اليوم التالى إلى مرتفعات الإسكندرية الشرقية حيث المعسكر الرئيسى لحملة فريزر الفاشلة .

حديث معركة الحماد

عندما أرخى المساء سدوله يوم ٢٠ إبريل ، كان على (ماكليود) أن يجرر أذيال الخيبة ، وينسحب فورا من الحماد إلى تلال رشيد ، أو إلى أى طريق يوصله إلى إدكو . ولكنه علم بحشد من القوارب المصرية يبلغ عدده نحو مائة ، تعززه سفن كبيرة مسلحة ومزودة بالمدافع ، والنيل يتماوج بها ، وبلغ العناد من هذا القائد كل مبلغ ، فلم ينسحب إزاء هذا الأسطول ، وأخذ يعزز مواقع دفاعه ، ولكن المصريين خيبوا أمله ، وأحبطوا خططه فانهزم .

وغادر فوجلسانج موقعه ، ليحتل موقعا آخـر خلف البرزخ ، وتراجع (تارلتون) إلى موقع (موهر) الذى تركه لماكايود ، وانسحب بقوته لمحاصرة الحماد ، كل هـذا بقصد أن تنضم قوات الحماد إلى قوات استيوارت برشيد ، ولكن بعد فوات الوقت .

فقد هجم الفرسان هجمة واحدة ، بكل ما أوتوا من عنف وشدة ، فعزلوا قوات (فوجلسانج) عن قوات (موهر) واستردوا الحماد دون إراقة نقطة من دم ، وأخذت نيران المصريين تحصد الإنجليز حصدا ، والقى ماكايود حتفه وهو يتراجع إلى إدكو بقوات بعثرها الذل والهوان ، تاركا المعركة لكى ينجو بنفسه ، واستمر القتال ، ومات تارلتون فى الميدان ، ولحق به عدد كبير من كبار الضباط وتولى القيادة (ماكى Mackay) وقرر الانسحاب ، فعاجله المصريون بوابل من الرصاص ، أخذ يحصدهم ، حتى نجا منهم خمسون جنديا معظمهم مصاب بجراح ، ولم يلحق منهم بقوات فوجلسانج غير خمسة ، ووقع الباقون فى الأسر ، ولم يصمد فوجلسانج للقتال ، فخرج يخترق الصفوف ، ملوحا بمنديل فى يده ، ورسول من المصريين فى يده الأخرى ، فعقدت الدهشة ألسنة جنوده ، فما كانوا يظنون أن التسليم هو نهاية المأساة ، وصمم بعضهم على استئناف القتال ، فواصلوا إطلاق النار ، غير أن المصريين اندفعوا كالصواعق ، على ميدان المعركة ، وقبضوا على كل من وجدوا سلاحه بيده ، وأسروهم ، وعطل (استيوارت) مدافعه ، ومضى إلى إدكو طلبا للنجاة ، من نيران المصريين .

وهكذا انقضت الساعات الثلاث منـذ السابعة صباحا من يوم ٢١ إبريل ، وسجل التاريخ فى صفحاته أن (الحماد) ، قـد دخلت هى الأخرى من باب التاريخ ، وعلى رأسها تيجان النصر ، على الإنجليز الطغاة البغاة .

وفيها خسر الإنجليز ٣٨ ضابطا ، أسر منهم ٢٢ وقتل تسعة ، أما الجنود الأسرى فقد بلغ عددهم ٤٦٦ ، باع المصريون بعضهم فى الأسواق بيع الرقيق ، وبلغ عدد القتلى والجرحى ٧٨٨ .

وسيق الأسرى ـ وأكثرهم جرحى ـ إلى القاهرة وبعد ٦ أيام لم يصل منهم

إلا القليل ، فقد مات بعضهم فى الطريق ، فألقيت جثثهم فى النيل طعمة لآكلة الجيف ، ومنهم من أصابته الحمى فى الطريق ، فلم يصل إلى القاهرة إلا وهو جثة هامدة .

وكان لهذا النصر - كما يقول الجنرال (فيجان Weygand) - صداه القوى فى جميع أرجاء مصر ، بل فى الامبراطورية العثمانية كلها ، وعلى أثره زال الخطر الإنجليزى الذى كان يهدد القاهرة .

وامتلأ قلب (فريزر) بالهلع والجزع ، وفقد رأسه ، وأملت عليه الوساوس أن أهل رشيد والحماد وإدكو سيزحفون نحوه فى الإسكندرية ، فما كان أسرع منه ، حينما حطم (سد أبوقير) ليحول بينهم وبينه . فتدفقت مياه البحر ، وأغرقت ١٤٠ قرية حول أبوقير ، حتى وصلت المياه إلى مشارف دمنهور ، وأهلكت الحرث والنسل ، وخربت الديار .

ثمار النصر فى رشيد والحماد

ذاع فى البلاد خبر الانتصار ، انتصار الشعب على الإنجليز ، وأسرع الجنود العثمانيون ، يطرقون الأبواب على أعيان البلاد ، يطلبون (البقشيش) بكل وقاحة ، وبلا حياء ، واستباح بعضهم بيوت (الحماد) الباسلة الظافرة ، ونهبوا أموالها ومواشيها ، وفضحوا نساءها .

وكتب حسن كريت يشكو إلى المفتى ، ولا سميع ولا مجيب ، وأحاط الأرناؤط - وهم جنود محمد على - برشيد . يبتزون كل ما وجدوه ، فوقف لهم حسن كريت ، بكل ما أوتى من شجاعة ، وفضحهم على الملأ ، حتى هاجروا إلى القاهرة ، بعد ما أبدوا فى الميدان من بسالة وتضحيات ، [وليت العامة شكروا على ذلك ، أو نسب إليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك] ، هكذا قال الجبرتى .

ومن العجب ، أن السلطان كتب يهنىء الباشا وعساكره ، ويشكرهم على النصر ، وقدم من الشام ٥٠٠ من الأرناؤط ، لتعزيز القوة الغاشمة ، وحماية

الثغور ، ولكن ، كما قال الشاعر : السيف أصدق أنباء من الكتب .

وشهد (دوران فييل) بأن طبوزأوغلى - وهو نائب محمد على - قد تردد فى الالتحام مع الإنجليز فى الميدان ، فترك حسن باشا يخوض المعركة وحده ، وعاد هو بمراكبه من حيث جاء ، فألقى مراسيه على بعد ميل من الحماد .

فعلام هذا الشكر السلطانى للوالى الذى وقف فى وجه الشعب ليحول بينه وبين شرف الدفاع عن نفسه ؟! وعلام هذا الشكر للعساكر الذين فروا من الميدان ، حتى إذا انتهت المعركة. استباحوا الحرمات ؟! أما أبطال النضال فما كان جزاؤهم إلا كما يجزى سنمار .

أما الإنجليز فقد لعقوا جراحهم بكل برود ، وأعادوا تنظيم صفوفهم ؛ واستطاع القائد (هالويل) أن يبسط نفوذه على البحر بأسطوله الذى أخذ فى تعزيزه يوما بعد يوم .

وقد سجل يوما ١٠ و ١٦ مايو محاولتين قامت بها القوات البحرية التابعة لأسطول محمد على ، وذلك بالتحرك من إدكو إلى أبوقير ، فتصدت لها مدافع السفن الإنجليزية (أپولو) و (استاندرد) و (سترن) ، حتى استطاع القبطان (هارفى Harwey) قائد السفينة (استاندرد) تدمير ثلاث سفن من أسطول محمد على .

وفقد محمد على رأسه - كما يقول (دوران فييل) - إذ لم يجد قوة تسنده فى مصر ، وأرسل إلى الباب العالى فى طلب النجدة ، وهو على يقين من أنه لن يظفر منه بأى نجدة .

وأراد محمد على جاهدا ألا يخرج من المولد بلا حمص ، وإلا فقد كل رصيده المدخر فى مصر ، فأعد جيشا من أربعة آلاف ما بين فارس وراجل ، يتقدمهم طبوزأوغلى وعمر بك وعابدين بك ، وجعل القيادة العليا له هو ، وسار نحو الإسكندرية ، فلما وصل دمنهور ، علم أن الإنجليز قد جاءتهم نجدة مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل . وعلى الرغم من ذلك دب الذعر فى صفوف الإنجليز ، وباتوا يتلهفون إلى الصلح مع محمد على ، وقد هالهم أن يكون عدد أسراهم قد بلغ الخمسمائة ، وأن جيشا جديدا لم يشترك بعد فى المعركة سيسحقهم عن آخرهم .

وبدأت المفاوضات فعلا منذ ١٦ مايو ، ففوجىء محمد على بأحد الضباط يدخل عليه معسكره بدمنهور يحمل إليه رسالة من فريزر يتعهد فيها بعقد اتفاقية الجلاء معه ، ففرح محمد على، وخف إلى الإسكندرية تحت جنح الظلام على الأطراف النائية من بحيرة المعدية ، حتى وصل الإسكندرية فى الصباح ، وذهب على التو إلى خيمة فريزر ، وأبلغه أنه كان على وشك الزحف على الإسكندرية ، وأمكن بذلك أن يتقن التمثيل على الإنجليز ، الذين رحبوا به ، ووقعوا معه اتفاقية الجلاء يوم ١٤ سبتمبر ، فى معسكر محمد على قريبا من دمنهور وتم ذلك بينه وبين (شربروك) ورد إليهم الأسرى ، وتبودلت الهدايا والتعهدات بين الطرفين، ودخلت الإسكندرية ، منذ هذه اللحظة ، فى ممتلكات محمد على .

وغادر الباشا دمنهور ليلا فى ألفى رجل ، وفى اليوم التالى أقام معسكره على سواحل بحيرة أبو قير حيث كان (هالويل) فى انتظاره بزورقه ، وقدم محمد على إلى الإسكندرية فى ١٥ سبتمبر ، ثم تركها إلى دمنهور ، غير أن مياه البحر ـ بعد كسر سد أبو قير ـ عوقت سيره فعاد ثانية إلى الإسكندرية ومنهـا إلى رشيد ، فوصلها يوم ٨ أكتوبر وبصحبته حسن باشـا ، وبعض القادة والضباط ، ولم يمكث بها غير بضع ساعات ، وأمر بإنشاء سور عليهـا ، ثم غادرها عن طريق البر إلى دمنهور ، فصادر أملاك كاشف البحيرة محو بك .

وهكذا جنى محمد على ثمار المعركة ، وبات المصريون يصطلون الشوك والقتاد، فلما عاد إلى القاهرة ، واستقر بالقلعة ، أقام وليمة كبرى ، لكبار رجال الدولة ، ودعا إليها السيد حسن كريت ، بطـل معركة رشيد والحماد ، ورحب به أشـد الترحيب ، وبعد أن تناول المدعوون ما لذ وطاب ، خرج حسن كريت ، محمولا على الأعناق ، وشيعت جنازته بصفة رسمية ، ووورى جثمانه الطاهر ، قبرا غير معروف ، إلى يومنا هذا ، وحسبه أنه صار فى وادى الخلود .

وظلت هذه المعركة مصدر وحى لكبار الأدباء والزعمـاء ، حتى كتب على الجارم قصته (غادة رشيد) ، كما بدأ الرئيس جمال عبد الناصر قصته (فى سبيل الحرية) وهو طالب .

فضائح محمد على فى البحيرة

لم يحفظ محمد على الجميل لمدينة رشيد الباسلة وقرية الحماد المكافحة . وأهلها الابطال ومن انضم إليهم من عرب البحيرة وفلاحيها ، وأنكر عليهم جميعا الفضل الكبير فى تثبيت قدمه فى ولاية مصر ، واعترف الإنجليز به ـ دون السلطان ـ فى المفاوضة معه مباشرة بشأن الجلاء عن مصر حسب الوثيقة المبرمة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ .

وقلب محمد على لأهل البحيرة ظهر المجن ، وشرع يضطهدهم أشد الاضطهاد ، ويستبيح حرماتهم هو وعساكره الأرناؤط المسعورون ، ففى يوم ٢١ أغسطس توجه بنفسه إلى البحيرة والإسكندرية ، فنزل بالرحمانية ، واستدعى شيخ دسوق ، فأدرك الشيخ ما وراء هذا الاستدعاء من خسف وعسف ، ففر الرجل ، وآثر الفرار ، على مقابلة الباشا الظالم الغاشم ، فاتخذ من ذلك ذريعة لإطلاق عساكره على دسوق ينهبونها ويذبحون طلبة المعهد الدينى بدسوق ، فى مقام سيدى إبراهيم الدسوقى .

وعاد إلى أبوقير فى ١٦ سبتمبر وباشر بنفسه عمليات إصلاح سد أبوقير ، وإذ ذاك أصبحت الإسكندرية ـ حسب فرمان السلطان المؤرخ ١٢ سبتمبر ـ فى نطاق ولايته ، ومن هنا صار له حق التفاوض مع الإنجليز ، بشأن الجلاء .

وفى ٨ ديسمبر من هذه السنة تفضل الباشا فأنعم على شاهين بك الألفى بالبحيرة كلها إلى حدود الإسكندرية ، كاشفا وملتزما مع كشوفيات والتزامات أخرى فى الجيزة والفيوم والبهنسا ، وجعل له الكلمة النافذة فى « سائر البر الغربى » ، كما زوجه الباشا من ابنته قبل أن تحضر من (قوله) . وعين أيضا فى ١٩ يناير سنة ١٨٠٨ عمر بك تابع الأشقر المصرلى محافظا على رشيد ، وأطلق الباشا أيضا على بعض قطع أسطوله أسماء بلدان البحيرة مثل : البحيرة ودمنهور ورشيد وأبوقير .

ومن هذا يبدو أن البحيرة قد حظيت باهتمام الباشا ، ولكنه اهتمام من نوع خاص ، فهو يعلم أن البحيرة أرض الثورات ، ومنبع الخيرات ، وعلى سواحلها

الشمالى ثلاثة من ثغور مصر : رشيد وأبوقير والإسكندرية ، وهى المنافذ النيلية والبرية إلى القاهرة .

لهذا كله جعل كشوفيتها والتزامها لأقرب المقربين إليه من أصهاره ، أولئك الذئاب المسعورة ، التى لا تكف عن سعارها ، فالغاية تبرر كل وسيلة ، فى سياسة محمد على .

فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٠٨ غادر الباشا القاهرة وركب النيل فى طريقه إلى الإسكندرية، بعد أن أصدر أوامره إلى زبانيته بإخلاء البيوت له فى البنادر الآتية: المنصورة ودمياط ورشيد بالمحلة والإسكندرية .

أما إقليم البحيرة ، فقد عاد إليه الخراب بعد كسر سد أبوقير ، وطالبت حكومة الباشا الملتزمين فى البحيرة بالخراج ، فاحتجوا بالخراب الذى شمل البلاد ، وتلك هى الفرصة التى سنحت للباشا ، فقد استولى على أراضى البحيرة ووزعها على أتباعه والاضيشه ، فلما آلت إلى هؤلاء ، أسرعوا إلى دعوة أهل البلاد الفارين منها إلى العودة إليها .

وصل الباشا إلى رشيد ، وأقام بها ما شاء أن يقيم ، ومن ثمت عزم على إرسال هدية تليق بالمقام السلطانى : كميات هائلة من البن والأقمشة الهندية وسبعمائة إردب من الأرز الأبيض ، جمعها قسرا وقهرا من بلاد الأرز المحيطة برشيد ، وأوفد إبراهيم أفندى المهردار إلى الباب العالى يحمل الهدية .

وباسم الباشا طبعا قبض كاشف البحيرة محو بيك فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٨ على السيد حسين نقيب الأشراف بدمنهور، وبالغ فى إهانته وصادر ممتلكاته وفرض عليه غرامة قدرها ألفا ريال ، وفى ١١ يناير سنة ١٨٠٩ نفى الباشا كاشف البحيرة إلى أبوقير وصادر أمواله ، وأنعم بداره التى كانت بحارة عابدين بما فيها من الخيرات العظيمة على محو بك الصغير الاورفلى ، وفى إبريل من هذه السنة ، عزل الباشا عمر بك الأرناؤطى من ممتلكاته التى فى البحيرة ، وفى يونية من السنة أيضا أمر الباشا بتحرير دفتر لإقليم البحيرة بمساحة أطيانها المنزرعة والبور ، وأمر بأن

تضاف أراضي الأوسية والرزق (١) إلى ممتلكات الباشا ، وأمر المباشرين (الموظفين المختصين) بإخراج كشوفاتها بأسماء الملتزمين ، فضج أهل البحيرة بالشكوى إلى المشايخ ، ليكلموا الباشا في هذا الشأن ، فألحى باللائمة على كشاف البحيرة عند كشف أراضيها بقصد تقرير ضرائبها ، فخانوا ، وجعلها المائة فدان بدلا من الخمسمائة ، وجعلوا الباقي أواسي ورزقا ، ولما أحس الباشا بوقع مظالمه هذه ، تراجع عنها صاغرا ، ولكن على مضض ، وفي منتصف ديسمبر دعم عساكره بعساكر آخرين في رشيد وأبوقير وغيرها ، وفي ١٢ مارس سنة ١٨١٠ فرض الضرائب الباهظة على الأهالي وألزم الكشاف بتحصيلها ، فهرب المصريون حتى امتلأت بهم قرى الشام ، وفي يناير سنة ١٨١٣ كثر الطاعون في البلاد ، وأنشىء (حجر صحي) في رشيد والإسكندرية وغيرها ، وصدر الأمر إلى كاشف البحيرة لمنع المسافرين بطريق البر إلى الإسكندرية .

وفي ديسمبر سنة ١٨١٥ خرجت عساكره إلى البحيرة ، وكان قد دبر بالاتفاق مع أولاده مؤامرة للفتك بالدالاتية وعلى رأسهم كبيرهم محو بك لأنه أكثرهم جندا .

وفي ٣ يناير سنة ١٨١٦ أرسل الباشا أولاده على رأس العساكر إلى الأقاليم، ليظهر لهم أنه يبعث بأفلاذ كبده إلى الأرياف لحفظ الأمن بها ، فتوجه طوسون باشا وإسماعيل باشا إلى رشيد ، ونصبوا الخيام عند (الحماد) و (أبو منضور) ، وكان عرضي (معسكر) حسين بك والي ، وحسن أغا أرزجنلي ومحو بك وصاري جله وحجو بك بالبحيرة ، وفي هذه السنة كلف كشاف الأقاليم ببناء قشلاقات يسكنها العساكر ، وكان على كل كشاف أن يستدعي شيخ القرية ليفرض عليه السخرة الرسمية لضرب الطوب والبناء ، وكل من يخالف الأوامر فالويل له ، وفي الوقت نفسه تمت عملية إصلاح سد أبوقير .

وفي هذا العام مات حاكم رشيد سليمان أغا ، ومات أيضا طوسون باشا

---

(١) الأوسية (الوسية) هي الإقطاعية الممنوحة للملتزم لمساعدته على الوفاء بالالتزام المرتبط به، أما الرزقة فهي الإقطاعية الممنوحة له أوغيره مدى الحياة وهي معفاة من الضرائب

وكان قد عرض خيامه بالحماد ، وأخذ يتنقل فيما بين رشيد وبرنبال وأبو منضور والعزب ، وجلب معه أهل الطرب إلى رشيد واستقدم الراقصين والراقصات من تركيا إلى قصر برنبال ، ولكن الطاعون فتك به فتكا ذريعا فلم يمهله ، فأرسل خليل أفندى الروملى حاكم رشيد جثة طوسون إلى القاهرة بعد تجهيزها .

وفى سنة ١٨١٧ عزل الباشا حكام الأقاليم والكشاف ونوابهم، ثم استدعاهم للحضور بين يديه ليحاسبهم على ما استولوا عليه من أموال الفلاحين وبعث المفتشين للتجسس عليهم.

وفى هذه السنة أيضا فكر الباشا فى تعديل خط سير ترعة الإسكندرية المسماة إلى الآن خليج الأشرفية . ولم تتم عملياتها إلا فى منتصف يناير سنة ١٨٢٠ وأطلق عليها (ترعة المحمودية) تيمنا باسم مولاه السلطان محمود ، وقد سخر فيها مائة ألف فلاح ، كان حكام الأقاليم - كما يقول الجبرتى - [يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المراكب] .

وقد بلغ من اهتمام الباشا بأمر هذه الترعة ، أنه فى يناير سنة ١٨٢٠ عندما طغى ماء البحر على الجسر الكبير وامتلأت به الترعة ، توجه إليها ومعه ابنه إبراهيم باشا ومحمد بك الدفتردار ، والكتخدا السابق ، والكتخدا الحالى طبوزأوغلى ، وتم إصلاحها ، وأقلعت فيها المراكب إلى رشيد وإلى الإسكندرية.

وفى ١٥ مارس سنة ١٨٢٠ قام حسن بك الشماشرجى حاكم البحيرة على رأس قوة من عرب الإقليم للاستيلاء على (سيوه) لحساب الباشا ، الذى كثرت تنقلاته إلى البحيرة، ولاسيما بعد حفر ترعة المحمودية ، وقد ظل يتعهدها برعايته وعنايته ، وتمكن عن طريقها من تحقيق مآربه الشخصية فى تجارته مع الإنجليز حسب الاتفاق المبرم بينه وبينهم ، بعد هزيمتهم فى رشيد سنة ١٨٠٧ .

ومن هذا يتبين أن البحيرة كانت جسرا لمطامع محمد على ومحاسيبه ، يسخر أهلها ، ويبتز أموالهم ، ويمتص دماءهم ، ويستحل أطيانهم ليجعلها (إقطاعات) لأولاده وأقربائه ، وظل على هذا المنوال منذ سنة ١٨٠٧ ، أى بعد أن عم الخراب بلدان البحيرة ، على أثر كسر سد أبوقير ، وتلف المزارع بسببه ، وهجرة الفلاحين من القرى إلى الأقاليم المجاورة ، أو إلى خارج البلاد ، فكان هذا الخراب فرصة سنحت لمحمد على ، فجعل البحيرة مسرحا للإقطاع والمذابح والفتن . .

حوش عيسى تتحدى الباشا

كان محمد على لا يطيق أن يجد لأحد نفوذا إلى جانب سلطانه وجبروته ، فما بالك بعربان البحيرة ، وهم الذين التموا حول الألفى عدوه الأكبر ، وهم الذين اقتحموا ميادين رشيد والحماد لسحق الإنجليز سنة ١٨٠٧ ، وهم الذين استطاع الاتراك والماليك أن يشتتوا شملهم الجميع بالفتن ، وهم الذين ذاقوا المر من الالتجاء إلى شاهين بك ، يوم أباح البحيرة لقبائل منهم دون القبائل الأخرى .

وقد ضاق ذرعا عرب الهنادى والجهنة ، بالتشرد الذى هم فيه ، بعد أن مكن شاهين بك لأولاد على من البحيرة . فرأوا أن يطلبوا الأمان من الباشا ، وفى مارس سنة ١٨٠٨ توجهوا إليه يسألونه العودة إلى منازلهم بالبحيرة ، فذهبوا إلى البحيرة ، ورحل أولاد على إلى (حوش عيسى) .

واغتنم الباشا هذا النزاع بين أولاد على والهنادى على البحيرة ، فقبل مائة ألف ريال رشوة من أولاد على ، ثمنا للعودة إلى البحيرة ، وعلم الهنادى بذلك ، فجمعوا جموعهم زحفا على (حوش عيسى) ، وهناك التقى أولاد على بالهنادى ، وأمد الباشا أولاد على بفرقة من عساكره ، فكان النصر حليفهم ، بعد مقتلة عظيمة مات فيها نحو مائة من الأرناؤط ومثلهم من العسكر وخمسة عشر من الماليك ، واستطاع شاهين بك فى ديسمبر من هذه السنة . من إجلاء أولاد على عن البحيرة ، ولكن الباشا لم يهدأ له بال ، ما دام العربان على قيد الحياة ، فدبر لهم مؤامرة من هذا النوع الذى برع فيه .

ففى ٨ إبريل سنة ١٨١١ أرسل بالأمان إلى أولاد على ، واحتال حتى تمكن من القبض عليهم ، وفرض عليهم الغرامات الباهظة ، بعد أن كساهم وخلع عليهم وألبسهم الشيلان الكشميرية ، ومنحهم مائة وخمسين كيسا أى ما يعادل سبعمائة وخمسين جنيها ، بينما حضر مشايخ الهنادى عند البقية الباقية من الماليك .

ومهما يكن من الأمر ، فإن أولاد على وقفوا كالأسود الكاسرة فى وجه الباشا الكبير ، وقتلوا له فى (حوش عيسى) عثمان كاشف وستة من الماليك ، وهم إذا كانوا قد نزلوا إلى الفيوم ، وما وراءه من أرض الصعيد ، فإنهم أشد

مراسا من المماليك ، ولن يقعوا يوما ما فى فخ من فخاخه ، التى نصبها للمماليك ، فقضى عليهم ، بالغدر والخيانة والمذابح .

مين زى العسكر فى الطوابى   الله ينصرك يا عرابى

أدت مظاهر البذخ والإسراف ، التى انغمس فيها إسماعيل الخليع ، ابن محمد على ، إلى إفلاس خزانة البـــلاد ، وتدخل الدول الأجنبية فى شئون الحكم ، فعزلت الخديوى ، وخلعته ، وطردته وأقامت ابنه (توفيق) من بعده .

تحملت الأقاليم هذه الديون ، فكان نصيب البحيرة منها اثنين وثلاثين ألفا وثمانمائة وواحد وأربعين جنيها ، كما تحملت محافظة رشيد خمسة آلاف وسبعمائة وسبعة وثمانين جنيها ، وأصبحت جميع موارد الدولة مرصودة لسداد هذه الديون بالربا الفاحش ، على حساب (روتشيلد) الإنجليزى اليهودى .

ووقفت عقبتان فى وجه الخديوى توفيق : الحرية النيابية ، وإصلاح الجيش ، وهما المطلبـان اللذان نادى بهما أحمـــد عرابى باسم الشعب والجيش ، أما مجلس النواب فقـد افتتح فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ فهدأت العاصفة ، وبمقتضى أمر الخديوى الصادر فى ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢ صار عدد النواب مائة وخمسة وعشرين منهم خمسة عن مديرية البحيرة ، وكان لعرب البحيرة فى هذا المجلس عضوان .

وتوتر الموقف سريعا ، حتى قدم أسطول انجلترا إلى مصر بقيادة (سيمور) وضرب الإسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ، بنـاء على مؤامرة الخديوى مع الإنجليز ، للقضـاء على ثورة عرابى ، واستطاع إبراهيم بك توفيق مدير البحيرة - وهو من الجراكسة - أن يبعث فى اليوم التالى خمسمائة من عرب البحيرة لحراسة الخديوى فى قصره بالإسكندرية ، وهتاف الشعب فى كل مكان [مين زى العسكر فى الطوابى ، الله ينصرك يا عرابى] ، والمظاهرات فى الإسكندرية ، شعارها « يا سيمور يا وش القملة ، مين قال لك تعمل دى العملة » .

وأدرك عرابى تماما ما يدبره الخديوى سرا وجهرا لطعن ثورة الشعب فى الصميم ، فماذا فعل زعيم الثورة ؟

إلى كفر الدوار يا عرابى

أسطول الإنجليز ، ألقى مراسيه على الإسكندرية ، ودكها بمدافعه ، ونزل العـــدو إلى المدينة ، فأشعل الحرائق فيها محافظ الإسكندرية عمر باشا لطفى ، والخديوى فى قصره ينتظر مجىء أحلافه لينصروه على عرابى الثائر باسم ، الفلاحين على العنصر الجركسى ومن والاه من الأرناؤط .

وأدرك عرابى أن العدو قـد دبر خطـة لاحتلال مصر ، وأنه فى طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة عبر البحيرة ، فأخـــذ للأمر أهبته ، وجعل للحـــرب ميدانين : الغربى أولا : ومركزه كفر الدوار ، وثانيـا : ميدان الشرقيـة ، عبر قناة السويس

أما الميدان الغربى ، فقد كان الدرع الأولى لحماية البلاد من الإنجليز الغزاة ، لهذا انتقل عرابى (ناظر الجهادية) إلى كفر الدوار ، وجعل منها مقر القيـادة العليا للجيش والشعب ، وفى الوقت نفسه جعلها مقر الحكومة المصرية القائمة فعلا باسم الشرع .

وجمع عرابى المهندسين الحربيين ، وعلى رأسهم محمود فهمى باشا ، الذى أحال البحيرة ، إلى ميدان حرب حرب بين الحرية والعبودية ، حرب بين الاستعمار وعملائه من جهة ، والشعب المصرى من جهة أخرى ، وهذه هى صورة لهـــذا الميدان .

توجه عرابى ومعه محمود فهمى من كفر الدوار إلى (كنج عثمان) ، فقابله بها حسن بك ابن كنج عثمان ، ورأى عرابى تلا مرتفعا فسأل عن اسمه فقال له حسن بك : هـــذا (تل الناصر) فالتفت عرابى إلى محمود فهمى وقال له : إن ابتداء استحكاماتنا يكون هنا .

واختار عرابى (كنج عثمان) لتكون معسكره ، فأقام بها الخيمة الكبيرة التى كانت لسعيد باشا وأهدتها أسرة الخديوى إلى عرابى رمزا على تأييدها له فى نضاله ضد توفيق الخائن .

وكان محمود فهمى واسع الأفق ، حينما وضع فى خطته خمسة مواقع رئيسية

للدفاع عن مصر : كفر الدوار ـ رشيد ـ من رشيد إلى البرلس ودمياط ـ الصالحية ـ التل الكبير .

أما كفر الدوار فكانت مركزا لعدة مواقع هامة : تبدأ من (كنج عثمان) التى بالقرب منها قطع محمد فهمى ترعة المحمودية ، فانسابت مياهها إلى الأرض السبخة بين المحمودية وسد أبوقير والرمال ، وأقام عند هذا القطع مدافعه لحمايته ، وتوجه بعد ذلك ومعه خليل بك كامل إلى المحمودية لفحص المنطقة الواقعة بين (حجر النواتية) و (كفر الدوار) وجعل معسكره فى (عزبة خورشيد) على مسافة خمسة كيلومترات من محطة (الملاحة) .

وفى الحق أن هذا الموقع الحربى كان من المناعة بحيث تمكن العرابيون من الصمود خمسة أسابيع فى وجه الإنجليز ، فقد وضع محمود فهمى فى اعتباره الأول وسائل وصول الإمدادات إليه بسهولة من جميع جهات الوجه البحرى ولا سيما من رشيد وأبوقير ومريوط .

وأرسل عرابى إلى المديرين والمحافظين فبعثوا إليه بكفر الدوار خمسة آلاف جاءوا من الغربية والمنوفية والبحيرة ، وهم الذين قاموا بعمل الاستحكامات تحت إشراف قائد منطقة كفر الدوار : طلبه عصمت .

وامتدت الاستحكامات من (رمل الإسكندرية) فى اتجاه (كفر الدوار) لمسافة أربعة كيلو مترات ، وأقام الحصون على طول الخط ، وعززها بصفة خاصة من (عزبة خورشيد) إلى (كفر الدوار) ، ومن (ترعة المحمودية) إلى أرض (الملاحة) ، لأنه جعل مقدمة خطوط الدفاع عند عزبة خورشيد ، فضلا عن مركز آخر فى (زاوية غزال) لتأمين المواصلات بين (العطف) و (دمنهور) وأقام مخيما للجنود عند (الزاوية) به ألف خيمة .

وجعل العرابيون ثلاثة خطوط رئيسية للدفاع : أولها من بعد (كفر الدوار) بمسافة كيلو متر على طول الخط الواصل بين (الرمل) و (البيضا) وجعل خلف هذا الخط الرئيسى خمسمائة موقع حصين من المرتفعات ، وثانيها من (كفر الدوار) إلى (أبو حمص) وعليه أيضا خمسمائة موقع حصين ، والأخير من

(أبو حمص) إلى (دمنهور) ، وكانت هذه الخطوط محاطة بأرض غير سالكة بسبب الأوحال والمستنقعات .

وتفرع من هذه الخطوط الثـــلاثة عدد آخر من الخطوط الأخرى ، على شكل زوايا قائمة ، ممتدة إلى سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية ، أما الخطوط الرئيسية فكان بين كل واحد منها والذى يليه نحو خمسة كيلو مترات ، وبينها أيضا خندق عمقه خمسة عشر قدما وعرضه ثلاثون مترا ، ليفصل بين الخـط والأرض الفضـــاء .

وكان على رأس الخط الأول قلعة سميت (قلعة الإســـلام) ، وكانت ـ كما وصفها بعض الإنجليز ـ أجمل القلاع شكلا ، وأقواها بناء ، وأحكمها موضعـا ، وكان أيضا بين أبو حمص ودمنهور تل يمتاز على غيره من التلال بارتفاعه واتساعه ، اتخذ منه عرابى ظهيرا فى حالة الارتداد إلى دمنهور .

وكانت دمنهور فى أقصى درجة من المنعة ، لحشد المدافع الكثيرة بها ، وتخزين المؤن والذخائر فيها ، وجعلوا عليها عددا ضخما من المرابطين .

وكان الاعتماد على ترعة المحمودية من جهة ، وعلى السكة الحديد (الإسكندرية ـ القاهرة) من جهة أخرى ، وتم تحصين التلال القائمة بين المحمودية وسد أبوقير بالمدافع الثقيلة ، كما اتخذ من بحيرتى مريوط وأبوقير جناحه الأيسر ، فأقام عـلى هذا الموقع استحكامات أخرى ، يصعب الهجوم عليه من جانبهـــا ، اللهم إلا من بحيرة أبوقير ، ولهذا أعد عرابى هذا الموقع خطا للرجعة من دمنهور إلى القاهرة وردم فى الوقت نفسه الخط الحديدى بالأتربة والحجارة .

ومن هذا يتبين أن هذه المنطقة المترامية الأطراف ، أصبحت مزدانة بالحصون تعلوها مدافع (كروب) ، ولم يعد هناك مزيد من الاستحكامات ، أما الجيش العرابى فكان كله لا يزيد ـ كما يقول (ألفريد بلنت) على ثلاثة عشر ألفا ، بينما يتمـــول المؤرخون المعاصرون لهذه الأحداث ، إن الجيش النظامى وحده كان يتكون من تسعة عشر ألفا ، يضاف إليهم بضعة آلاف من عـــربان البحيرة . والخفراء النظاميون ، الذين طلبهم عرابى من المديرين فكان نصيب البحيرة منهم ألفا ومائة واثنين وسبعين خفيرا ، وهذا الجيش الذى عبأه عرابى من المصريين عربانا وفلاحين ،

نظاميين ومتطوعين ، سيكون له شأن أى شأن عند صد جيش الإنجليز الذى كان قوامه أكثر من ثلاثين ألفا ، بقيادة (ولزلى) ، حتى كتب الله النصر للمصريين على الإنجليز فى الميدان الغربى ، عند كفر الدوار .

وأصدر عرابى بوصفه القائد العام للنضال المصرى ، أوامره إلى اللواء خورشيد باشا طاهر لنقل كتيبته من رشيد إلى أبو قير بقيادة محمد بك أمين .

مناوشات على حدود كفر الدوار

لم يعبأ عرابى ، والعرابيون بمنشورات الخديوى الخاصة بعــزل عرابى من ديوان الجهادية (وزارة الحربية) واعتبـاره عاصيا متمردا ، فقـد كان الشعب المصرى عن بكرة أبيه مع عرابى قلبا وقالبا ، وجاء المؤتمر الشعبى المنعقد فى القاهرة وم ٢٣ يوليو ، بقراره الحاسم الذى دمغ الخديوى بالمروق من الدين ، وخيانة الوطن ، بانحيازه إلى العدو المغتصب ، واستعدائه على المصريين وزعمـاء ثورتهم التحررية ، وقد تولى الشيخ محمد عبده ابن البحيرة عرض الموقف بحـكمته التى أكسبت العرابيين عواطف الشعب .

وفى ٢٦ يوليه ، زحف ثلاثة آلاف جندى إنجليزى من (الرمل) عـلى (كفر الدوار) فتصدى لهم أحمد البيار ومشاته ومصطفى عثمان بفرسانه ، وكذلك خورشيد طاهر بفرسانه من جهة أبو قير ، فأطبقوا على الأعداء ، فانـكمشوا إلى مواقعهم مهزومين .

وبعد يومين ، عاد الإنجليز إلى الهجـوم من ثلاثة مواقع : القبـارى وكوبرى المحمودية والرمل ، وكان الجنرال (وود) قد نسف الأتربة والحجارة على الخط الحديدى وأصلحه ، وتقدم الإنجليز هذه المرة بقـوات أكثر ، استطاعت أن ترد قوات العرابيين ، وأن تـكشف مواقعهم ، بعد أن تصـــدى المقدم محمد حشمت للقطار القادم بهم من الإسكندرية ، فعطل سيره بنيران مدافعه .

ولـكن هذه المناوشات الإنجليزية على مواقع العرابيين فى كنج عثمان ، وحجر النواتية ، وكفر الدوار ، كانت نذيرا باشتباك آخر .

كفر الدوار تنسف قطارات الإنجليز

عاود الإنجليز هجومهم على كفر الدوار فى يوم ٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، جاءوها من الإسكندرية فى قطارات مسلحة ، تعززها قوات أخرى من (الرمل) و (القبارى) ، واشتبك الجيش والجيش ، فارتد العدو إلى الإسكندرية ، وكان عدده أضعاف أضعاف المصريين .

لم يغتر عرابى برسوخ قدمه فى الميدان ، ولم يثنه ذلك عن التفكير فى الميدان الشرقى ، فقد أوفد اليوزباشى عبد الرحمن محمود (وهو من عائلة محمود المعروفة بالرحمانية) ومعه أربعون فارسا إلى معركة (القصاصين) بالشرقية ، وعاد الفارس المغوار منصورا على عدوه .

أما الإنجليز فقد ندموا على هجومهم السابق ، قبل أن يأتيهم المدد من انجلترا ذلك المدد الذى نشئته ملكة الإنجليز فأوفدت ابنها (دوق أوف كانوت) قائدا للحملة ، فاشتد ساعد (ولزلى) ، فضاعف من قوته الضاربة .

وانقض الإنجليز على (عزبة خورشيد) ، فتصدى لهم المقدم محروس ، وكتيبة محمد فوده ، وتحركت مدافع أحمد عفت وسليمان تعيلب ورزق حجازى ، وأسرع طلبة عصمت قائد حامية كفر الدوار ومعه فرقة من خيالة أحمد بك عبد الغفار ، واستمر القتال طيلة يوم كامل ، كبد المصريون فيه عدوهم خسائر فادحة بفقد سبعة عشر ما بين ضابط وجندى ، بينما استشهد من المجاهدين الأبطال تسعة وعشرون منهم الضابط أحمد على ، والمقدم البطل محروس متأثرا بجراحه ، وانجلت معركة يوم ٢٠ أغسطس عن صعوبة مراس العرابيين وقوة بأسهم .

وعاد الإنجليز للهجوم ثلاثة أيام متوالية ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ أغسطس وركزوا ضرباتهم على كفر الدوار ، ولكن العرابيين صدقوا فى الدفاع ، واشتبكوا مع الأعداء بالسلاح الأبيض ، حتى ردوهم على أعقابهم خاسرين ، يلعقون جراحهم تحت نخيل (لرمل) ، وأرسلوا كتيبة أخرى فى قطار آخر ، فأطلق المجاهدون عليه النيران فأفنوا من كان به من الجنود والضباط .

يئس الإنجليز كل اليأس من (الميدان الغربى) ، فولوا وجوههم شطر

(الميدان الشرقى) ، فانتقل إليه عـرابى بعد أن منيت حملتهم الفاشـلة على (كفر الدوار) بالهزيمة النكراء .

واعتزم عرابى أن يردم قناة السويس ، ولـكن (ديلسبس) خـدعه باتفاقه سرا مع الإنجليز على أن يقنع عرابى بعدم ردمها .

واستحكمت حلقات الخيانة ، وقدم الأعداء من القناة ، وحطمـــوا معسكر (التل الـكبير) دون اشتباك فى معـركة شريفة مثل (كفـر الدوار) ، ومكنهم أتباع الخديوى من غزو القاهرة ، وقدموا للجنرال (ولزلى) هدية رائعة ، رمز الولاء للاحتلال الإنجليزى .

ودخل الإنجليز القاهرة ، والخديوى فى ركابهـــم ، وذلك يوم ١٥ سبتمبر ، وسار إلى (كفر الدوار) بطرس باشـا غالى ومحمود رءوف باشـا ، وتم إصلاح قطع ترعة المحمودية ، وتوجه عبد الله النديم أيضـا إلى كفر الدوار ، فلما رأى ما حل بالعرابيين ، أسرع بالتخفى عن الأنظار حتى لا يتمع فى قبضة الأعـداء ، وعزل الخديوى كل صاحب منصب كبير من العرابيين ، وأعاد أولياءه وخلصاءه فرجع إبراهيم بك توفيق مديرا للبحيرة كما كان ، وكذلك حسن بك البغـــدادى محافظ رشيد .

وذهب إلى (كفر الدوار) الجنرال (وود) بعد الاحتـلال ، للوقوف على أسرار المعركة التى خذلهم فيها عرابى ، فاستقبله بها يعقوب بك سامى وكيل ديوان الجهادية ، وتم إحصاء كل شىء بها للعرابيين ، فعرفوا أنه كان بها ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فارس بأدواتهم ، وخمسون مدفعا وخمسة عشر ألف بندقيـة ، نقلت كل هذه الذخائر إلى القاهرة ، كما جمعت بنادق العرابيين ومدافعهم من رشيد وأبوقير ومريوط والمكس ، وقد بلغت خمسين ألفـا ، ونقلت مدافع طابية أصـــلان وحصون كفر الدوار إلى محطه الرمل ، وكأن الإنجليز لم يعودوا يطيقـون آثار هزيمتهم ، خشية العار .

وقد حاول الإنجليز والخديوى وصنائعه أن يشوهوا سمعة عربان البحيرة فى انضمامهم إلى الخديوى بعد أن رشاهم ، ولـكن (ألفريد بلنت) ، وقد كان صديق العرابيين قد اعتمد على مذكرات أحمـــد بك رفعت ، فى استنتاج أنهم كانوا

صادقين فى ولائهم للعرابيين وجهادهم فى صفوفهم ، ولكنهم خدعوا الخديوى واستولوا منه على أموال كثيرة ، ولم ينفذوا له مآربه . والحرب خدعة كما يقولون.

وأثبت التاريخ أن الخونة هم الخديوى وحاشيته ثم الشركسى عمر لطفى محافظ الإسكندرية ومدبر حريقها ومذبحتها ، ومعه إبراهيم توفيق وحسن بك البغدادى ، ولكن محكمة الإسكندرية أصدرت حكمها بالنفى إلى مصوع خمسة عشر عاما على عبد الرازق علوان وكيل مديرية البحيرة بتهمة تحريض الثوار فى دمنهور ، وأفلت المجرمون الحقيقيون من القضاء ، ولكنهم لم يفلتوا من حكم التاريخ

ولم يسلم عرابى بعد ذلك من شماتة الحاقدين عليه . وهم الذين انخدعوا بالانتصار المزيف الذى حققه الخديوى باستعداء الإنجليز على مصر ، من هؤلاء المخدوعين نذكر اثنين :

الأول مصطفى باشا صبحى الذى كتب قصيدة فى الشماتة بعرابى وأخذ يهون من انتصاره فى كفر الدوار ، يقول فيها :

وفى (كفرة الدوار) خلتم مقامكم	منيعا فأظهرتم كمين التحقد
وحالفتمو إبليس فيها وقد خلا	لكم جوها فى فدفد بعد فدفد
فصفرتمو تيها ونقر بعضكم	ولاح لكم بيض به النصر يفتدى
وأظمأتمو (الإسكندرية) حينا	منعتم وصول الماء من كل مورد

والآخر هو الشيخ حمزة فتح الله صاحب جريدتى (الاعتدال) و (البرهان) اللتين كان يصدرهما بالإسكندرية لحساب الخديوى ، وللطعن فى حركة العرابيين ، وقد استطاع عرابى فى مذكراته أن ينقد مقالاته التى كتبها ضده ، ويثبت للملا تهافته وخيانته .

وأخذ الخديوى فى التنكيل بأعيان البحيرة الموالين لأحمد عرابى ، وصدرت باسمه أحكام قاسية ضدهم ، فبعد ديسمبر سنة ١٨٨٢ حددت إقامات الشيخ أحمد محمود (من الرحمانية) مع وضعه تحت مراقبة الضبطية (الشرطة) وتغريمه ثلاثة آلاف جنيه مدة أربع سنوات ، وكذلك إبراهيم الوكيل ثلاثة آلاف جنيه لنفس المدة أيضا ، مع تجريدهما من الرتب وعلامات الشرف والامتيازات الممنوحة لهم سابقا .

وعلى الرغم من ذلك ، فتمد كفى البحيرة فخرا أنها وقفت مع عرابى فى كفر الدوار ورشيد وأبو حمص وزاوية غزال ودمنهور حتى انتصر ، وكان لهـــا من رجاله : محمد عبده وعبد الرحمن محمود ومحروس وغيرهم ، من أبطال البحيرة .

البحيرة . . وثورة سنة ١٩١٩

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ قدم الشيخ عبد البـــاقى سرور إلى دمنهور ومعه عشرات الألوف من التوكيلات المطبوعة لتوقيع أبناء البحيرة عليها لتأييد الوفد المصرى برياسة سعد زغلول فى طلب استقلال مصر ، ليتقدم بها إلى مؤتمر الصلح بلوزان.

وأخذ الشيخ عبد الباقى يدرب شبان دمنهور على المظاهرات عدة أيام ، وفى ١٧ مارس سنة ١٩١٩ قامت مظاهرة كبرى تطوف بأنحاء المدينة ، فأمر مدير البحيرة إبراهيم حليم باشا بتسليط خراطيم المياه الضخمة على المتظاهرين فكانت تجرفهم بقسوة ، كما أمر بالقبض على الشيخ عبد الباقى وإيداعه السجن ، فاشتدت ثائرة الجماهير يوم ٢١ مارس سنة ١٩١٩ ، وتوجهوا إلى السجن فحطموه وأخرجوا منه الشيخ عبد الباقى ، واندمج المدير فى المتظاهرين فاعتدوا عليه ضربا بالنعال ، وكادوا يقتلونه لولا تدخل رجال الشرطة ، وسرعان ما أعلنت الأحكام العرفية ، وتشكلت محكمة يرأسها إنجليزى من إيرلندا ، وحكم على الشيخ بالبراءة لفصاحته وجرأته بينما صدرت أحكام متفاوتة على أبناء البحيرة الأحرار ومنهم الشيخ أحمد عبد الكريم وكان من كبار تجار دمنهور بستة شهور سجن و ٢٠٠ جنيه غرامة وعلى الشيخ عبد السلام عبد الله بسنتين سجن و ٢٠٠ جنيه غرامة ، كما حكم بجلد عدد كبير من الشباب الأبرياء ، ونصبت آلة الجلد فى ميدان المحطة ، وكان أول مجلود هو محمد أحمد ربعه ، وتلاه محمود فرفور الذى استشهد فى سبيل الوطن أثناء جلده وقتل فى هذه المظاهرات اثنا عشر وطنيا منهم أمين محمد جوهر ، ومحمد سليمان محمد ، وأحمد محمد حسين ، وإبراهيم محمد عمر .

أما المحكوم عليهم بالغرامات المالية من الفقراء ، فقد جمعت لهم الأموال فى سرعة فائقة ، وبدون إرهاق لأحد ، إذ فرضت قيادة الثورة فى دمنهور على كل فرد مقتدر خمسة قروش ، فضلا عن تبرعات الأغنياء فأطلق سراحهم ، وواصلوا

الكفاح فى سبيل الحرية وهم يتلقفون ما يكتبه أصحاب الأقلام الثائرة من أبناء البحيرة ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الباقى سرور فى مجلة « الأفكار » بعنوان « وإنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا » .

وصدر أمر عسكرى بالأحكام العرفية وبمقتضاها يمنع الأهالى من الخروج فيما بين السابعة مساء والرابعة صباحاً . ومنع السفر من دمنهور وإليها إلا بجواز رسمى .

وفى مركز كوم حماده ، تظاهر العرب بها ، تأييدا للحركة الوطنية ، فأرسلت السلطات الإنجليزية قوة من جنودها لقمع المتظاهرين

وفى رشيد قامت مظاهرة سلمية يوم ١٧ مارس ، اتجهت من جنوب المدينة إلى شمالها ، وانضم إليها جميع أهل رشيد فتصدى لهم مأمور المركز محمد مصطفى حجاب ، وأمر بإطلاق الرصاص عليهم فاستشهد منهم إبراهيم زيدان من أبناء الأعيان فثارت ثائرة المتظاهرين، وانقضوا على المركز ورشقوه بالحجارة وأشعلوا فيه النار ، وأتلفوا قضبان السكة الحديد ، وأعمدة التلغراف والتليفونات ، ولجأ المأمور إلى إحدى العزب المجاورة لرشيد ، خشية أن يفتك به المواطنون الثوار.. غير أن الغيورين منهم ألفوا لجنة من بينهم لحفظ النظام حتى لا يستشرى الفساد .

وفى اليوم التالى حضر إلى رشيد ضابط إنجليزى على رأس قوة من الجنود الهنود ، والمأمور صحبتهم فألقى القبض على تسعين رجلا أرشد عنهم المأمور منهم محمد سمك ، وعبد الحميد سمك ، وعبد العزيز عجمية التاجر وعضو المجلس المحلى وأحمد الجارم الطالب بكلية الحقوق ، وعبد الحكيم الجارم ومحمود الطويل التاجر ، ونقلوا مقبوضا عليهم إلى سجن الحدراء بالإسكندرية ، وأحيل ستون من أهل رشيد إلى المحاكمة بين يدى ضابط من الإنجليز ..

وفى منتصف ليلة ١٢ إبريل هاجم الإنجليز قرية (كفر مساعد) التى تبعد عن (صفط الملوك) بنحو خمسة كيلو مترات بحثا عن شخص أطلق الرصاص على داورية بريطانية ، كانت مكلفة بحراسة السكة الحديد ليلا فى هذه المنطقة .

حاصر الجنود الإنجليز (كفر مساعد) وأخرجوا أهلها من بيوتهم وعرضوهم

على رجال الحراسة للتعرف على المتهم ، وفتشوا البيوت والجرون ، وساقوا السكان إلى محطة صفط الملوك وقتلوا منهم يوسف مبروك .

وقبل أن يبزغ الفجر انقضوا كالغيلان على (شبرا الشرقية) على مسافة ألفى متر من (كفر مساعد) وفعلوا بها مافعلوا بكفر مساعد .

وطلع الصباح عليهم وهم يهاجمون (كفر الحاجة) والعزب التى حولها وأفحشوا فى انتهاك حرمات أهلها ، وساقوا الفلاحين من حقولهم ، على دوى طلقات البنادق واعتقلوا أهالى هذه البلدان الثلاثة بمحطة (صفط الملوك) وحجزوهم على رصيف قطار نقل البضائع بين صفين من الجنود شاهرين السلاح .

حاول الأستاذ محمد توفيق عمران المحامى من أهل (كفر الحاجة) وجرجس بولس من أهل (كفر مساعد) إقناع القوة الإنجليزية ببراءة المعتقلين ، فلم يأبهوا لكلامهما ، وسيق الخمسمائة معتقل إلى المحكمة وسئلوا واحداً واحداً ، فلم يقر منهم أحد بشىء ، ودللوا على براءتهم .

ومع ذلك صدرت عليهم أحكام مشمولة بالنفاذ العاجل ، بأن سيق كل منهم إلى كشك صغير على رصيف المحطة وبه الجنود الإنجليز فمزقوا ملابسهم وسلبوهم نقودهم وجلدوهم بالسياط ، ثم كانوا يخرجون لتتناولهم قوة أخرى تركلهم بالأرجل ، وتضربهم بالأيدى ، وأغمى على بعضهم ، وتقيأ البعض الدم ، ولم يراعوا شيبة الكبير ، ولا مقامه فى أهله ، ومنهم العلماء والأعيان .

وفى أبريل تشكلت محكمة فى الإسكندرية للنظر فى حوادث رشيد . وصدرت الأحكام بالأشغال الشاقة لمدد تتراوح بين خمس سنوات وبين أقل من سنة على الآتية أسماؤهم نذكرهم هنا للتاريخ ، وليعلم الأحفاد ماقام به الآباء والأجداد من نضال فى سبيل الوطن :

الطالب عبد العزيز محمد سمك ومحمود الطويل وأحمد خليل كرات ، ومحمد ماضى ، وأبو النصر طبيخة ، وسعد محمد عبد العال الأشقر ، وأحمد البزم ، ومحمد محمد كونه ، وعبده المنفلوطى ، ومحمد الخضرجى ، ومصطفى الإبيازرى ، وأحمد زيدان المباريدى ، ومحمد زروق ، وبسيونى عطا ، وأحمد الزهار ، والطالب محمد عزمى الصياد ، وعلى على الرزى ، وحسين الكزبرى ، وعلى على أبو سلم ، وعلى

على دياب ، ومحمد محمد البحيرى ، وفرج فرج أبو دياب ، وعبد الفتاح ترك ، وعبد الحميد سمك ، وعبده القزق ـ والسيد منسى ، وحسين على الفشن ومحمد محمد سمك ، ومرسى نجيب القزق ، وعبد الحكيم الجارم ، وعبد المحسن شهاب ، وأحمد حراز ، وعبد الحكيم جبرى ، وراتب كمال فضلى ، وسيدأحمد أحمد بريش ، ومحمود إبراهيم عجلان ، وإبراهيم الدنف . وعلى الأنكه ، ومحمود على الفشن ، وعبده السيد ، وجمعه يوسف مراد ، ومحمد العيونى ، وعلى فايد ، وحسن البربرى .

ومن هذا يتبين أن هؤلاء جميعا كانوا من أهل رشيد طلبة وتجارا ، يتساوى فى ذلك أبناء الأسر العريقة وأبنـاء الأسر الأخرى . ولكن هكذا الوطنية ، تجمع الكل دفاعا عن شرف الأوطان .



٦

أعلام البحيرة

فى موكب النور

بحيرى .. وبحراوى

فى الصفحات التالية ، يشهد القارىء موكبا طويلا عريضا من أعلام البحيرة منذ أقدم العصور التى أرخت لهم ، ويرى ملامح متعددة لعمالقة كبار فى شتى ضروب المعرفة والكفاح .

نعم ، لقد حفلت مدن البحيرة وقراها وكفورها برجال الدين المسيحى ، والدين الإسلامى فى الثقافة الإسلامية قديمها وحديثها شعرا ونثرا ، كتابة وصحافة، فنشروا العلوم الدينية والدنيوية ، من فقه وحديث وتفسير وتاريخ وجغرافيا وفلك وميقات وأدب وطب وسياسة واقتصاد ، وغير ذلك .

ومن البحيرة ، خرج هؤلاء الأبطال إلى ما حول البحيرة : إلى الإسكندرية وطنطا والقاهرة ، ثم إلى عالم أوسع هو العالم العربى والإسلامى فى تونس والسودان والشام والعراق واليمن والهند والبنغال ، فنشروا فى العالم ما وهبهم الله به من دين وخلق وعلم وفن .

ومن البحيرة ، كان كبار المفكرين ، وأعوان الحرية فى الصحافة والإصلاح الاجتماعى ، والنضال القومى ، وكان منهم الوزراء والقضاة والولاة وأهل الفتوى والتدريس وشيوخ الأزهر ، وأرباب السيف والقلم ، وبذلك كله سجلوا أمجد المفاخر لأنفسهم ولإقليمهم ، وللقرى والكفور التى أنجبتهم .

وكثيرا ما كان ينسب هؤلاء الأكابر إلى الإقليم ، فيقال « البحيرى » ، وذلك أن نعرة « البحراوى والصعيدى » كانت مسيطرة على العقول ، ردحا طويلا من

الزمن ، وأحيانا ماكانت تنشب الفتن بين هؤلاء وهؤلاء ، إذا انتقلت مشيخة الأزهر من الصعايدة إلى البحاروة أو بالعكس .

على أن كلمة « البحراوى » إنما تدل غالبا على النسبة إلى الوجه البحرى ، بينما «البحيرى» نسبة إلى البحيرة ، وكثيراً مانصادف هؤلاء وهؤلاء فلانستطيع التمييز بين من ينسب منهم إلى الوجه البحرى ، ومن ينسب إلى البحيرة ، وسنشير إلى ذلك فى مكانه كلما أشكل علينا الأمر .

وعلى كل حال ، فإننا سنعطى لكل مدينة ولكل قرية ولكل كفر فى البحيرة ، مايستحقه من البحث فى المعاجم والفهارس ، حتى نكشف عن أعلام كل بلد ، والتنويه بمؤلفاتهم ومآثرهم ، قدر الاستطاعة

ولنبدأ أولا بالأعلام الذين ورد ذكرهم فى المراجع ويلقبون بالبحيرى ، ثم نخصص لكل بلد أعلامه حسب التسلسل التاريخى .

— سليمان بن شعيب البحيرى —

ذكره السخاوى فى الجزء الثالث من «الضوء اللامع» : وهو سليمان بن شعيب ابن خضر البحيرى ثم القاهرى ، كان مالكى المذهب ، ولد بعد سنة ٨٣٦ هـ وقدم القاهرة ، وانتفع بأستاذه النور السنهورى فى الفقة ولازمه ، وأخذ أصول الدين والمنطق عن التقى الحصنى ، وأخذ عن الجمال عبد الله الكورانى ، والعلاء الحصنى والتقى الشمنى ، وابن الملقن ، والشهاب الحجازى ، وأم هانىء الهورينية ، وتصدر للفقة بالأزهر وغيره ، وناب عن السراج بن حريز ثم عن بنيه فى تدريس فقه المالكية بجامع طولون ، وعن ابن شيخه السنهورى بالبرقوقية ، ونزل بتربة الأشرف قايتباى .

— نور الدين البحيرى —

ذكره التمبكتى فى « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » .

وهو نور الدين على بن موسى بن جلال البحيرى المالكى ، ولد بالبحيرة سنة ٨٥١ هـ ، وأخذ الفقه عن البرهان إبراهيم اللقانى والسنهورى ، وحج سنة ٨٩٥ هـ .

وذكره أيضا رمضان حلاوة فى تعليقاته على « دستور الإعلام » ولكنهما لم يذكرا تاريخ وفاته ، أو شيئا عن جهوده العلمية .

— عبد الله البحيرى —

ذكره السخاوى فى الجزء الخامس من « الضوء اللامع » ، ولم يزد على قوله : عبد الله بن عبد الواحد البحيرى مات سنة ٨٥٩ هـ .

— أحمد بن إبراهيم البحيرى —

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » بالجزء الأول :

وهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد البحيرى الخانكى ثم المكى ، ولازم السخاوى فى الإملاء وغيره بمكة المكرمة فى الرحلة الثانية سنة ٨٧١ هـ ومات بعد ذلك .

— شمس الدين البحيرى —

ذكره السخاوى فى الجزء العاشر ، وهو محمد شمس الدين البحيرى أحد قراء الدهيشة ، ضربه السلطان وأودعه سجن المقشرة لجريمة ارتكبها حتى مات فى ربيع الثانى سنة ٨٩٥ هـ .

ـ أحمد بن إسماعيل البحيرى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » بالجزء الأول :

وهو أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الشيخ جمعة البحيرى الأصل ، القاهرى ، كان مصرفا بباب سكة الجمالى فى وقت حسبته وقبلها ، وكان المشهور فى الحسبة ، وجده (جمعة) له ضريح بدمشق .

نشأ أحمد مع أبيه فى خدمة قانم التاجر الاتابكى ، فالأب كان المهتار ، والابن كان فى الطشتخانة ، وسافر معه إلى الروم ، وزار بلادا كثيرة ، وأخيراً اقتصر على خدمته حتى أصبح برد داره ، ومات فى جمادى الاولى سنة ٨٩٨ عن بضع وسبعين سنة ودفن بجوار أبيه ، [وكان عاميا محضاً] كما يقول السخاوى .

ـ شهاب الدين البحيرى ـ

ذكره ابن العماد فى «شذرات الذهب»[1] والغزى فى «الكواكب السائرة»[2] وكحالة فى « معجم المؤلفين »[3] .

وهو شهاب الدين أحمد البحيرى المالكى الشاعر العالم بالعربيــــة ولاسيما التصريف ، توفى سنة ٩٢٩ هـ

ـ عمر بن صالح البحيرى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء العاشر من « الضوء اللامع »

وهو عمر بن صالح بن السراج البحيرى المالكى ، اشتغل بالعلم وتكسب بالشهادة ، وناب فى القضاء ، وتنزل فى الجهات ، وقال عنه السخاوى [وليس بمحمود قضاء ومعاملة]

ـ وولده : محمد بن عمر البحيرى ـ

ذكره السخاوى أيضاً فى الجزء الثامن وقال إنه سمع منه

ـ محمد البحيرى الصوينى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء العاشر من « الضوء اللامع » .

وهو محمد بن محمد بن يس بن حسين المغربى البحيرى الأصل الصوينى (نسبة إلى صوينة من أعمال برهمتوش بالشرقية) القاهرى المالكى ، ولد بصوينة فى ١٠ محرم سنة ٨٧٣ ، واشتغل بالفقه والتصوف والعربية ، وأخذ عن البرمونى ، وكان نزيل زاوية الحنفى ، ونظم الشعر ، وسمع المسلسل من السخاوى ، وتبادلا الرسائل شعراً .

ـ على البحيرى ـ

ذكره الشعرانى فى « الطبقات الكبرى » وأشـــار إلى أنه هو الشيخ على

---

(١) جـ ٨ ص ١٦٣

(٢) جـ ١ ص ١٠٠

(٣) جـ ١

البحيرى الذى كان يقيم فى القرى يعلم الناس ويفقههم فى أمور الدين والدنيا ، وكان أخذ العلم عن النبتيتى وابن الأقطيع ، وكانت فتاواه ترد على مصر ، فيتعجب العلماء من حلاوة لفظها ، وكثرة مافيها من تخويف الخصوم ، حتى يعودوا إلى الصواب ، ويرجعوا إلى الحق ، وتوفى فى شوال سنة ٩٥٣ هـ ودفن بنواحى سيدى محمد المنير بالإسكندرية ، كما يفهم ذلك من تعليق رمضان حلاوة على « دستور الإعلام » .

ـ حيدر باشا يكن ـ

ذكره إلياس زاخوره فى « مرآة العصر » .

وهو حيدر باشا يكن ابن إبراهيم باشا يكن ابن أخت محمد على . ولد باليمن سنة ١٢٥٦ واستقدمه خاله إلى مصر سنة ١٢٥٩ مع ابنه وكان يحب البحث والاطلاع على الفلسفة والعلوم والشعر ويميل إلى مجالسة العلماء والأدباء ، وكان رئيس مجلس دمياط فمديرا للقليوبية ثم الدقهلية فرئيسا لمجلس استئناف مصر فوكيلا لبيت المال ثم مديرا للبحيرة ، وبعدها نقل أمينا لبيت المال ، وفى سنة ١٨٧٩ أصبح وكيلا لوزارة الداخلية ثم وزيرا للمالية ، وشغل هذه الوظيفة عدة مرات فى عدة وزارات وكذلك فى وزارة نوبار باشا وظل حيا إلى مابعد سنة ١٨٨٤ .

ـ السيد أباظه باشا ـ

ذكره أمين باشا سامى فى « تقويم النيل »

كان مديرا للبحيرة من ١٢٧٢ هـ إلى ١٢٧٥ هـ نقل بعدها وكيلا لوزارة الداخلية ، فمديرا للقليوبية سنة ١٢٧٩ . ثم منح رتبة باشا ، وصار وكيل تفتيش عموم الأقاليم سنة ١٢٨٦ ثم مدير عموم الوجه البحرى سنة ١٢٨٧ هـ .

ـ أحمد خيرى باشا ـ

ولد سنة ١٢٦٩ هـ فى الحفير بالسودان حيث هاجر أبوه السيد يوسف من (بوت) غربية وينتمى إلى السيد محمد المغازى الشهير بسيدى غازى ، وتوفى يوم ٢٥ صفر سنة ١٣٤٣ بمصر ودفن بالقرافة .

كان مديرا للبحيرة ونال الباشوية بفرمان عثمانى سنة ١٣١٤ وبعدها بعامين

فصل من الحكومة ثم كان أول مدير للأوقاف الخديوية سنة ١٣١٧ ، ثم ناظراً للخاصة بعد وفاة دى مرتينو باشا ، وحج مع الخديوى عباس الثانى سنة ١٣٢٧ ، وعندما بنى مسجد الرفاعى بالقاهرة أصر على زخرفته بالرخام المصرى بينما أصر المهندس هرتس مدير الآثار المصرية على زخرفته بالرخام الإيطالى .

وكان من أعز أصدقائه عبد اللطيف بك الصيرفى الشاعر الذى سنذكره فى أعلام بلقطر ، وقد حظى من شعره بالكثير وهو يتقلب فى مناصب الحكم .

وقد حدثنى ولده السيد أحمد خيرى أن الصيرفى بك كان السبب فى شراء والده الأرض التى أقيمت عليها الآن روضة خيرى باشا الحالية ، والتى كانت منذ ٦٥ عاما تسمى (كوم المجاير) ، ثم عرفت باسمه إلى الآن تخليــدا لمآثره وتضم مكتبة خيرى التى تعتز بها روضة خيرى والتى وضع نواتها بألف كتاب ، وظل نجله السيد أحمد ينميها حتى أصبحت تضم أكثر من عشرين ألف مجلد من أنفس الكتب فى شتى ضروب المعرفة من عربية وتركية وإنجليزية وفرنسية ، وقد تيحت لى فرصة زيارتها ولقيت السيد أحمد خيرى فإذا به الرجل العالم الفاضل ، أمد له فى عمره ونفع به .

وقد عرفت بلدية دمنهور لأحمد خيرى باشا فضله على البحيرة ، فأطلقت اسمه على أهم شوارع دمنهور وهو المعروف الآن بشارع خيرى .

وفى كتاب «المدائح الحسينية» لابنه السيد أحمد خيرى ترجمة مستفيضة لوالده .

أعــلام دمنهور

ـ حسام الدمنهورى ـ

ذكره المنذرى فى الجزء ٢٥ من « التكملة لوفيات النقلة » ، فقال إنه فى يوم ٤ من ذى القعدة سنة ٦١ هـ توفى أبو المهند حسام الدمنهورى ، سمع من عالم الإسكندرية الحافظ السلفى ، أشهر أهل زمانه فى علم الحديث ..

وكان المنذرى دقيقاً حين قال [إنه منسوب إلى (دمنهور الوحش) البـــلد المشهور ، على مسيرة يوم من ثغر الإسكندرية ، وهى قصبة عاصمة البحيرة وإليها تنسب الثياب الدمنهورية] .

ـ الجمال الدمنهورى ـ

ذكره المنذرى فى الجزء ٤٥ من « التكملة لوفيات النقلة » . فقال إنه الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى نصر الإسكندرانى الشافعى ، الشهير بالجمال الدمنهورى ، توفى بدمشق فى رمضان سنة ٦٢٨ ، ولم يحدث بشىء .

ـ عبد الرحمن الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى « تحفة الاحباب » صفحة ٣٨٩ فقال : الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى الحسن بن يحيى الدمنهورى الشافعى ، وكان عاقداً بمدرسة الصالحية وتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

وقال عنه ابن الزيات فى « الكواكب السيارة فى ترتيب الزياره » إن قبره ـ وهو من القبور الدارسة موجود فى سفح (المقطم) .

ـ عماد الدين الدمنهورى ـ

ذكره ابن حزم فى « دستور الإعلام » : وهو عماد الدين عبد الرحمن بن أبى الحسن بن يحيى الدمنهورى ولد سنة ٦٠٦ هـ وتوفى فى رمضان سنة ٦٩٤ هـ وكان شافعى المذهب ، ومن مؤلفاته « نكت عـــلى التنبيه » ، وقال عنه السيوطى فى « حسن المحاضرة » إنه كان من مشاهير التابعين بمصر .

ـ صالح الدمنهورى السنجارى ـ

ذكره ابن حجر فى « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، وهو صالح بن أبى بكر بن إبراهيم بن أبى بكر بن إسماعيل بن محمد السنجارى الأصل (من سنجار من أعمال البرلس) الإسكندرانى تقى الدين . ولد سنة ٦٦٦ هـ بدمنهور ، ونشأ فى الإسكندرية ، وسمع على محمد بن إبراهيم بن ترجم ، ومحمد بن عبد الخالق بن طرخان والأبرقوهى ، وأجاز له الدمياطى ، وابن دقيق العيد (عالم قوص) والفوى ،

قال عنه ابن رافع : كان رئيساً يحب الفقراء ، [ودرس بالإسكندرية ، وكان أمين الحكم بالقاهرة ، وتولى أمانة الحكم بها مدة طويلة ، كما تولى مشيخة الطيبرسية وحدث ، ولم يحدد ابن حجر أو ابن رافع تاريخ وفاته ، وذكره البدر النابلسى أيضاً فى معجمه]

ـ محمد الدمنهورى ـ

ذكره ابن حجر فى « الدرر الكامنة » فقـــال إنه : محمد بن أبى بكر بن عبد المنعم بن ظافر بن مبادر اللخمى ناصر الدين الدمنهورى ثم الفاقوسى ثم الإسكندرانى ولد سنة ٦٦١ هـ وسمع من منصور بن سليم ، ومحمد بن سليمان المعافرى ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٧١٨ هـ ، وكان « ابن البورى » آخر من حدث عنه بالإسكندرية .

ـ تاج الدين الدمنهورى ـ

ذكره السيوطى فى « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » ، فقال إنه عبد الله بن أبى بكر بن عوام بن إبراهيم بن فارس بن أبى القاسم بن محمد بن إسماعيل ابن على الشافعى النحوى تاج الدين الإسكندرى الأسوانى الأصل .

ولد بدمنهور سنة ٦٥٠ هـ ومهر فى العربية وأخذها عن (حافى رأسه) ودرسها بالإسكندرية وسمع الحديث ، وصحب أبا العباس المرسى وكان من أهل الخير تذكر عنه كرامات ، ومات بالإسكندرية فى شعبان سنة ٧٢١ هـ .

وقال عنه الإدفوى فى « الطالع السعيد » إن أمه بنت أبى الحسن الشاذلى ، وقال أيضا إنه اشتغل بالنحو والتصريف والتصوف .

أما (حافى رأسه) هذا فهو شيخ أهل الاسكندرية فى النحو ، وعليه تخرج الكثير من أهلها ، وتوفى سنة ٦٩٣ هـ ، كما جاء فى « البغية » أو سنة ٦٩١ كما قال « ابو حيان » .

ـ السراج الدمنهورى ـ

ذكره السيوطى فى « بغية الوعاة » وقال : إنه ممن أخذ عنهم الحسن المرادى اللغوى النحوى الفقيه المعروف بابن أم قاسم ، وقال إنه توفى سنة ٧٤٩ هـ .

ـ برهان الدين الدمنهورى ـ

ذكره ابن فهد فى « لحظ الألحاظ » وقال إنه : الإمام برهان الدين إبراهيم ابن على ن هبة الله بن على الدمنهورى ، سبط الشيخ أبى الحسن الشاذلى وتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

ـ سكينة الدمنهورية ـ

ذكرها العراقى فى « ذيل على ذيل كتاب العبر » وهى سكينة بنت أبى الحسن على أبى القاسم عبد الله بن الدمنهورى، ولدت بالإسكندرية بعد سنة ٦٧٠ هـ وتوفيت بها فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٧٦١ ، وهى بنت عمة شهاب الدين محمد أحمد بن أبى الحسن الشاذلى ، وقال إنها قاربت المائة من عمرها .

ـ أبو العباس الدمنهورى ـ

ذكره حسن السندوبى فى كتابه « أبو العباس المرسى » ، قال: إنه تحدث عن أبى العباس المرسى بقوله « سيدى أبو العباس المرسى ملك من ملوك الآخرة ، ما من أسوان إلى دمياط وإلى الإسكندرية رجل مثله » .

ونقول إنه لابد أن يكون معاصراً لأبى العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ فهو إذن من القرن السابع الهجرى أو أوائل القرن الذى يليه .

ـ علم الدين الدمنهورى ـ

ذكره العراقى فى « ذيل ذيل كتاب العبر » فقال : إنه علم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن نصرالله بن أبى القاسم بن عبد الله بن طلائع بن القاسم الكنانى الدمنهورى ، المحدث ، سمع على العتبى مشيخة سبط السلفى ، وعلى الجلال بن عبد السلام بعض « الموطأ » لابن مالك ، وعنى بالحديث ، وحدث ، وسمع من الهيتمى ومن والد العراقى وغيرهما .

وتوفى بدمنهور فى أواخر محرم سنة ٧٦٠ هـ .

ـ ابن مسكين قاضى دمنهور ـ

ذكره ابن بطوطه فى رحلته ، فقال إنه :

[قاضى دمنهور فى ذلك العهد فخر الدين بن مسكين وهو من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الإسكندرية بعد أن عزل عنها عماد الدين الكندى] .

ومعنى ذلك أنه من أهـــل القرن الثامن الهجرى ، لأن ابن بطوطة توفى سنة ٧٩٧ هـ .

ـ عمر الدمنهورى ـ

ذكره ابن فهد فى «لحظ الألحاظ» فقال إنه: السراج عمر بن محمد الدمنهورى وقال إنه أخذ عن العراقى ، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٦ هـ .

ـ ابن مرزوق الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى الضوء اللامع »

فقال إنه : محمد بن على بن عبد الرازق بن محمد بن أحمد بن يوسف الدمنهورى الأصل ، السكندرى المالكى ، ويعرف بابن مرزوق ، ولد سنة ٧٧٥ هـ تقريبا بثغر الإسكندرية وذكره البقاعى مجردا ، ولم يذكرا تاريخ وفاته ، ومعنى ذلك أنه توفى فى القرن التاسع الهجرى .

ـ السنهورى الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء السابع من « الضوء اللامع » :

وهو محمد بن أحمد بن على بن خليل السنهورى الدمنهورى. ولد بدمنهور فى شعبان سنة ٧٨٦ هـ ، وقدم القاهرة ، وكان يعمل فى الحمامات يحلق ويغسل روادها .

ـ ابن عماد الشمس الدمنهورى ـ

ذكره أيضاً فى الجزء السابع .

وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عماد الشمس الدمنهورى المكى العطار

ـ محمد بن أبى الخير الدمنهورى ـ

ذكره أيضا فى الجزء السابع .

وهو محمد بن أبى الخير بن محمد بن عمر الدمنهورى الأصل، المكى الحريرى ،

والمشهور بابن أبى الخير الدمنهورى ، برع فى الميقات وتميز .

ـ الجمال الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الثامن :

وهو محمد بن على بن يعقوب الجمال الدمنهورى سمع، من السخاوى

ـ أحمد بن أبى بكر الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الاول من « الضوء اللامع » :

وهو أحمد بن أبى بكر بن محمود بن محمد الدمنهورى ،القاهرى سمع مع أبيه على الصلاح الزفتاوى والحلاوى والسويداوى والأبناسى والغمارى وابن الشيخة والمراغى ، ذكره البقاعى ، ويقول السخاوى « ومالقيته » .

ـ ابن عماد الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى بالجزء الثانى فى « الضوء اللامع »

وهو أحمد بن محمد بن عماد الدمنهورى ثم المكى ، تعيش من العطر بمكة وقد قدمها بعد الثمانين بقليل ، وكان أيضا ينسخ كتب العلم ويرغب فى تحصيلها مثل سيرة ابن هشام و« الرياض النضرة » للمحب الطبرى ، وكان له أملاك بالحزوره ، وافتقر بعد الغنى ، حتى مات فى شعبان سنة ٨٦٦ ودفن بالمعلاة بعد أن جاوز السبعين ، وكان من أهل الخير والدين ، وأرخه الفاسى فى « تاريخ مكة » .

ـ ابن كمال الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الاول من « الضوء اللامع » :

وهو أحمد بن أحمد بن عثمان شهاب الدين أبو العباس الدمنهورى ، ويعرف بابن كمال ، ولد بدمنهور ، وقرأ بها القرآن وجلس مع الشهود بمصر ، وصحب قاضى دمنهور الزين الأنصارى ، وتردد معه إلى مكة المكرمة ، وجاور بها عدة سنوات ، ورحل إلى القدس ودمشق ، وكان ممن يمدح النبى عليه السلام فى آخر الليل بمنارة باب العمرة عدة سنوات ، وتزوج ثم مات عند بيت الزمزمى فى ٢٠ من المحرم سنة ٨٢٤ ، ودفن بالمعلاة ، وقد جاوز السبعين ، وخلف طفلا ، وترجم له التقى الفاسى فى « تاريخ مكة » ، وابن فهد فى معجمه ، وابن حجر فى « الأنباء » .

ـ أبو بكر الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء العاشر :

وهو أبو بكر بن محمود الزين القرشى الدمنهورى السعودى شيخ زاوية أبو السعود الواسطى داخل باب القنطرة، ومحتسب سوق أمير الجيوش وكان أحد تجاره. توفى فى ذى الحجة سنة ٨٥١ ﻫ عن سن عالية ، وكان مولده قبيل ٧٧٠ ﻫ .

ـ نور الدين الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى بالجزء الخامس من الضوء اللامع .

وهو على بن محمد بن أحمد بن محمد بن عماد نور الدين الدمنهورى الأصل المكى العطار هو ووالده من قبله صاهر عبد العزيز ابن على الدقوقى ، ومات بمكة فى شوال سنة ٨٧٢ ﻫ وأرخ له ابن فهد فى معجمه .

ـ أبو الخير الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء التاسع :

وهو محمد بن محمد بن محمد بن الخضر أبو الخير بن العلاء الدمنهورى القاهرى تكسب بالشهادة كأبيه واختص بالتاج بن المقسى وتوفى سنة ٨٨٥ ﻫ .

ـ ابن مسعود الدمنهورى ـ

ذكره السخاوى بالجزء الثالث من « الضوء اللامع » .

وهو شعبان بن عبد الله بن محمد الدمنهورى الشافعى المعروف بابن مسعود ، اشتغل بالفقه وقرأ القراءات عن الزين جعفر السنهورى ، وصحب بلديه الشيخ محمد البلقطرى، وبعد موته تزوج بابنته، وحج وتصدى للتسليك (التصوف) والتربية ، وانتفع به كثيراً أهل البحيرة ، وزاد اعتقادهم فيه ، وعنى « بالترغيب » للمنذرى ، ونقل منه ، وحصل على نسخة من (القول البديع) للسخاوى ، وتوفى فى ربيع الأول سنة ٨٨٩ ، وقد جاوز الستين . وأسف عليه أهل البحيرة.

ـ الرواوى الدمنهورى ـ

ذكره ابن عزم فى « دستور الإعلام »

فقال إنه : الزواوى المدفون بدمنهور الوحش بالبحيرة ، وهو العابد الزاهد ، الذى كان جزل الألفاظ والمعانى ، وتوفى سنة ٩٢٣ ﻫ .

ـ محمد الهلباوى الدمنهورى ـ

ذكره أمين سامى باشا فى « تقويم النيل » جزء ثالث . فقال إنه الشيخ محمد الهلباوى الدمنهورى ، وكان كاتب الإنشاء العربى لشيخ البلد على بك الكبير ، فهو إذن من أعيان القرن الثانى عشر الهجرى .

ـ ابن صيام الدمنهورى ـ

ذكره رمضان حلاوه فى « دستور الإعلام » والجبرتى ، وكحالة فى « معجم المؤلفين » ومحمد عبد الله عنان فى « تاريخ الجامع الأزهر » وورد ذكره أيضا فى « فهرست الكتبخانة الخديوية » فى الجزء الأول ، كما ذكره سليمان رصد فى « كنز الجوهر » .

وهو الإمام أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى المذاهبى الأزهرى لأنه كان يفتى على المذاهب الأربعة وأجاز له علماؤها . ولد بدمنهور سنة ١١٠١ هـ ، ثم قدم إلى الأزهر فى صغره بعد أن توفى أبوه . فلم يجد من من يكفله ، فحصل العلم ونبغ ، وأجاز له علماء المذاهب الأربعة ، وأفتى بدمنهور [ولكن ـ كما يقول الجبرتى ـ لم ينتفع بعلمه ولا بتصانيفه لبخله فى بذله لأهله ولغير أهله ، وربما يبيح فى بعض الأحيان لبعض الغرباء فوائد نافعة] .

وتولى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ الحفنى ، وكان الأمراء يهابونه ، لأنه كان يقول الحق ، ولا يخشى فى الله لومة لائم ، وكان يأمر بالمعروف ، سمحا بما عنده من أمور الدنيا ، وكان الملوك يقصدونه من كل قطر ، وأهدوه التحف والطرائف ، وكان يجله ولاة مصر من الأتراك ، وحج فى سنة ١٧٧٧ هـ فقدم عليه رئيس مكة وعلماؤها لزيارته ، وقد مدحه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة قال فيها ، يهنئه بالعودة من الحج :

لقد سررنا وطاب الوقت وانشرحت صدورنا حيث صح العود للوطن
فالعود أحمد . . قالوه وقد حمدت بدأ وعوداً مساعيكم بلا غبن
فأنت أمجدنا بل أنت أرشدنا وأنت « أحمدنا » فى السر والعلن
دعاؤنا أرخوه ثم أوحدنا قد بر حجك يا علامة الزمن

وكان عالى الثقافة ، كثير التحصيل ، حضر على الشيخ الشبراخيتى وعبدالفتاح الدمياطى ، ذكرهم فى قائمة شيوخه المسماة « اللطائف النورية فى المنح الدمنهورية » وهو مخطوط بمكتبة سوهاج تحت رقم ٣٢١١ ج .

وقد حكى الجبرتى أن حسن بك الجداوى فر إلى بولاق ، والتجأ إلى منزل الشيخ أحمد الدمنهورى ، ثقة بمكانته عند المماليك ، من أتباع محمد بك أبو الذهب، الذين كانوا يطاردونه ، فطلبوا من الشيخ أن يسلمهم إياه ، فرفض، ولم يجرؤوا على القبض عليه مادام فى بيت هذا الشيخ الوقور ، ولكنه أدرك أنهم لا يراعون لكبير حرمة أو مقاما ، ففر الجداوى من البيت ، وتسلق الأسطح ناجيا بنفسه من المماليك .

واستمر شيخا للأزهر من سنة ١١٨٢ إلى سنة ١١٩٠ هـ . وفضلا عن (اللطائف النورية) له عدة مؤلفات متنوعة الألوان هى : (حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون) ، وهو كتاب فى علم البيان تأليف عبد الرحمن الأخضرى ، ، وهناك شروح أخرى للجوهر المكنون منها شرح الشيخ مخلوف ابن محمد البدوى ، الذى نوه بفضل الشيخ أحمد الدمنهورى . ومن مؤلفاته أيضا « منتهى الإرادات فى تحقيق الاستعارات » و « نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف » و « الحذاقة بأنواع العلاقة » و « كشف اللثام عن مخدرات الأفهام » وهو على البسملة ، وكذلك « حسن التعبير لما للطيبة من التكبير » فى القراءات العشر ، وله أيضا «تنوير المقلتين بضياء الوجه بين السورتين» و « الفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى » و « طريق الاهتداء بأحكام الإمامة والاقتداء » على مذهب أبى حنيفة و « إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد » و « الرقائق الألمعية على الرسالة الوضعية » و «منع الأثيم الحائر على التمادى فى فعل الكبائر» و « عين الحيا فى استنباط المياه » و « الأنوار الساطعات على أشرف المربعات» و «حلية الأبرار فيما فى اسم على من الأسرار» و «خلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام » فى القراءات، و «القول الصريح فى علم التشريح» و «إقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة» و « فيض المنان بالضرورى من مذهب النعمان» و « شفاء الظمآن بسر قلب القرآن » و « إرشاد الماهر إلى كنز الجواهر » و«تحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك» وهو من مائة بيت » ، و « إتحاف البرية بمعرفة العلوم الضرورية » و «القول الأقرب فى علاج لسع العقرب و « حسن الإنابة فى إحياء ليلة الإجابة » و « الزهر الباسم فى علم الطلاسم » و « منهج السلوك

إلى نصيحة الملوك » و « المنح الوفية فى شرح الرياض الخليفية » فى علم الكلام ، و « الكلام السديد فى تحرير علم التوحيد » و « بلوغ الأرب فى اسم سيد سلاطين العرب » .

وهذه المؤلفات منظومة ومنثورة وأغلبها رسائل صغيرة الحجم .

اجتمع به عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ قبل وفاته بسنتين ، وتذكر صداقته لوالده الشيخ حسن الجبرتى فبكى الدمنهورى وقال : « ذهب إخواننا ورفقاؤنا » وتوفى بمنزله ببولاق فى ١٠ رجب سنة ١١٩٢ هـ ، وقيل فى ١٠ رمضان من هذه السنة ودفن بالبستان ، وقبل وفاته بأيام عين الشيخ الحريرى الحنفى شيخ الأحناف والمفتاوى ، وقد حدث عقب وفاة الدمنهورى نزاع بين الأحناف والشوافع على مشيخة الأزهر ، مما أدى إلى تعطيل المشيخة حينا من الزمن .

ـ أحمد الدمنهورى ـ

ذكره كحالة فى «معجم المؤلفين» وإسماعيل باشا البغدادى فى الجزء الأول من « هدية العارفين » وهو أحمد بن محمد بن مصطفى الدمنهورى الشافعى ، مؤلف « كواكب الإشراق فى نزهة الأحداق ، فى نوادر الطلاق » وتوفى سنة ١٢٢١ هـ .

ـ أبو عائشة الدمنهورى ـ

ورد ذكره فى « هدية العارفين » ، وفهرست الكتبخانة : وهو محمد بن محمد أبو عائشة الدمنهورى الشافعى المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ وقيل سنة ١٢٨٦ هـ ؛ ومؤلفاته : « الإرشاد الشافى على متن الكافى فى العروض والقوافى » وتحت يدى نسخة باسم « المختصر الشافعى على متن الكافى » وفى آخر الكتاب أن المتن لأبى العباس أحمد بن شعيب الشافعى القنائى ، وأنه قد انتهى من هذه الحواشى المختصرة فى آخر الحجة سنة ١٢٠٠ هـ ، وله « عمدة أهل السنة واليقين فى الرد على من خالفهم من المبتدعين » و « فتح العليم الباسط فى رسم الأرباع والبسائط » و « لقط الجواهر السنية على الرسالة السمرقندية » وله رسالة بها إعراب بعض الآيات القرآنية ، والأمثلة النحوية ؛ فى أربعة أبواب فرغ منها فى ٢ جمادى

الآخرة سنة ١٢٦٤ ﻫ كما أنه كان قد فرغ من « لقط الجواهر » سنة ١٢٣٢ ومن « الإرشاد » سنة ١٢٣٠ ﻫ .

ـ ابن عبد المنعم الدمنهوري ـ

هو أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري ؛ له كتاب مخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية عنوانه « القول المفيد لمعانى درة التوحيد » بخط حسن فهمى فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٩ ؛ والرسالة نص من متن فى مبادىء علم التوحيد صاغه شعرا وشرحه ؛ قال فيها :

يقول أحمد الدمنهورى   بعون رب فعله مرضى
الحمد لله الذى توحدا   بخلقة بفضله من وحدا

وقال فى الشرح : الدمنهورى : نسبة لبلده دمنهور الغربية وهى قرية من أعمال مصر ؛ ثم يستطرد فى تبيان رسالته فى التوحيد

وبعد : هذى (درة التوحيد)   ماقد حوت يغنى عن التقليد
لكونهـا للمبتدى فى العـلم   جعلتهـا صغـيرة فى الحجم
راجيـا الوفا على الإيمـان   ونفع ذى تقوى من الإخوان

ـ أبو الفرج الدمنهوى ـ

ذكره أحمد تيمور فى « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر » الهجرى فقال إنه : الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى المتوفى سنة ١٣١٠ ﻫ وكان شاعرا أديبا ظريفا على الرغم من دمامة خلقته ؛ ولقد ولد بدمنهور ونشأ بها فقيرا ؛ لازم الشيخ محمد الوكيل القبانى أحد أدباء دمنهور المشهورين ، وتعلم منه الشعر ، وصحب الشيخ حميده الدفراوى .

وكان الشيخ محمد الوكيل يلازمه ويجالسة ، وروى وكتب عنه شعره ونثره ونوادره ، واجتمع به فى دمنهور حوالى سنة ١٢٨٥ ، ولم يستنكف من حمل المصباح أمام الشيخ الوكيل إذا سار ليلا .

واطلع على الكتب الأدبية ، ونظم الشعر المتكلف المملوء بالأخطاء والتورية والجناس ، وقد كان معظم أشعاره فى المجون والخلاعة ، ضمنها ألفاظ العيارين .

واصطحبه الوكيل إلى القاهرة فعرف به شيخ السادات الوفائية السيد عبد الخالق بن وفا ، فأعجب بمجونه وظرفه ، وأنزله عنده كلما نزل بالقاهرة ، وهى التى كانت غاصة بالأدباء والأعيان ، فأغدقوا عليه وأحسنوا إليــه ، فصلح حاله بعد فقر مدقع .

كما أنه اشترك فى الندوة الأدبية التى كان يعقدها شاهين باشا كنج بقصره بطنطا ، وهو الذى جمع له من أغنيائها أموالا طائلة اشترى بها عقارا ، واستطاع أن يصلح بها داره بدمنهور .

ومن ندماء ندوة شاهين باشا : عبد الله نديم وغيره من أهل الفضل والأدب فى هذا العصر مثل الشيخ عبد الرحمن قراعـــة ، وقال عبد الله نديم فى مجلة « الأستاذ » إنه حضر مولد سيدى أحمد البدوى بطنطا سنة ١٢٩٤ هـ ومعه السيد على أبو النصر ، ورمضان حلاوة السكندرى ، والسيد محمـــد قاسم ، وأحمد أبو الفرج الدمنهورى.

وقد داخله الغرور بشعره الركيك ، حتى قيل إنه كان يقرظ قصيدته قبل إلقائها ، ويعلق عليها مستظرفا أثناء الإلقاء ويقول : (تف على المتنبي وسجقاله) وكان ممن مدحوا الخديوى توفيق بقدومه من الإسكندرية ، وكان يغتر أيضا بكنيته (أبو الفرج) واضعا نفسه فى مصاف العظماء مثل : أبى الفرج بن الجوزى وأبى الفرج الأصفهانى .

وكان يلبس العمامة الخضراء والجبة الواسعة الأكمام رمزا على الشرف ، وظل يسعى حتى جعله أهل دمنهور (نقيب الأشراف) بها ، وكان معاصروه يعرفون أصله وفصله ويستظرفونه ويستخفونه ، وكانت وفاته بدمنهور فى ٢ ربيع الثانى سنة ١٣١٠ هـ .

ـ عبد القـــادر حمزة ـ

كتب عنه ابنه الأستاذ محمد عبد القادر حمزه بجريدة « المساء » فى ١٠ يونيه سنة ١٩٦١ ، والدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « الصحافة المصرية فى مائة عام » .

وهو الصحفى البارع الذى يرجع أصله إلى بندر دمنهور حيث لايزال هناك منزله ثم تعلم بمدرسة رأس التين بالأسكندرية فى رعايه والدته وتخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٠٣ وتوفى فى ٦ يونيه سنة ١٩٤١ ، واشتهر بأنه مؤسس صحيفة « البلاغ » أو « صاحب البلاغ » .

وكان واسع الثقافة ، ملما بتاريخ بلاده إلماما دقيقاً عميقاً ، وكان رئيس تحرير صحيفة « الأهالى » التى تصـــدر بالإسكندرية ، ولما نشبت ثورة سنة ١٩١٩ هاجم سعد زغلول ، فحـــاربه حزب « الوفد » ، وهوجمت دار « الأهالى » وكانت تقع أمام مسجد سيدى عبد الرازق الوفائى بشارع (النبى دانيال) بالأسكندرية ، وأشعل المتظاهرون وهم الوفديون النـــيران فى الدار ، وكان عبد القادر حمزة على مكتبه ، فنجا من النار والجماهير .

ولم يمنعه ذلك من مهاجمة الاستعمار والسراى ، وانتقد بشدة مشروع (ملنر) فوجد الوفد أن آراءه تتفق مع آرائه ، فجمعت الفكرة الوطنية بينهما ، وانتقلت (الأهالى) إلى القاهرة ، وأصبحت صحيفة الوفد وتعرضت للمصادرة والغلق على يد (ثروت) ثم أصدر (البلاغ) فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ ، ولما صدر دستور سنة ١٩٢٣ وكانت المـــادة الأولى تنص عـلى أن « مصر دولة ملكية دستورية » ، انتقد صاحب البلاغ النص على أن مصر (ملكية) ، وكانت دار البلاغ ملتقى رجال السياسة ، وانشق عبد القادر حمزة على الوفد ، وخرج عـلى مصطفى النحاس خليفة سعد زغلول ، وبدأ يدرس تاريخ مصر القديم واللغة الهيروغليفية واطلع على ماكتب عن بلاده باللغة الفرنسية أو ماترجم إليهافوضع كتابه : « على هامش التاريخ المصرى » وصدر منه الجزء الأول ، وتعتبر مقدمته - بحق - دستورا خالدا للتاريخ الذى قال عنـــه إنه [أعظم مهذب الأفراد والشعوب] وهو الذى يحيى فى أبناء الوطن الشعور بالعزة القومية ، ويلقنهم الفضائل الوطنية والاجتماعية .

- محمد محمد الوكيل باشا -

وهو ابن محمد سلطان الوكيل باشا المتوفى سنه ١٣٦٩ هـ من أعيان دمنهور . وأمه كريمة الشيخ العريان أحد علماء دمنهور .

وكان من رجال القانون والسياسة وتولى عدة مناصب هامة ، إذ كان وكيلا لمجلس الشيوخ ، كما تولى وزارة المواصلات ، ثم وزارة العدل ، وله آراؤه فى القـــانون .

والمعروف أنه كان واسع الأفق ، كثير الاطلاع ، تحدثت إليه مرة فى دمنهور حول كتاب « روح القوانين » لمنتسكيو ، فتبين أنه نادرة فى المطلعين على فلسفة التشريع وأعجبت بآرائه ، وعندما نشب حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ كان أحد نزلاء فندق شبرد ، فخرج من الفندق . وقد نجـــا من الحريق المروع بأعجوبة ، فلم يجد غير سيارته فقبع بداخلها .

وكان له قصر بالإسكندرية بضاحية بولكلى (إيزيس) ، وفى صباح الاثنين ١٤ محرم سنة ١٣٧٩ (١٩٥٩) فاجأه الموت ، فقصف عمر رجل من عمالقة القانون فى مصر ، وشيعت جنازته إلى دمنهور حيث دفن بمدافن العائلة ، مأسوفا عليه من الجميع .

ـ إسماعيل الحبروك ـ

ولد بدمنهور ونشأ بها وتعلم بمدارسها حتى التحق بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية وتخرج فيها ، وظهرت عليه بوادر النبوغ الأدبى وهو طالب بالثانوى ، فكتب القصة القصيرة والأغنية ، ثم كتب القصة الطويلة التى تحولت إلى فيلم سينمائى ، وكتب أيضا بعض القصائد الوطنية ، واستهوته الصحافة فبرز فيها حتى وصل وهو لايزال فى مقتبل العمر أحد رؤساء تحرير صحيفة « الجمهورية » ، وسجل لنفسه براعة فائقة بروحه المحبوبة ، وأدبه الجم ، وقلمه الحر النزيه ، ولم يمهله القدر ، فامتد إليه المرض حتى وافته المنيه فى ١٦ مارس سنة ١٩٦١ ، ودفن بمقابر الأسرة بدمنهور مأسوفا على شبابه من جميع عارفيه ، ومن مؤلفاته « امرأة بلا مقابل » و « بقايا عذراء » و « هاربة من الليل » و « الخيـــانة الزوجيـة » و « المكافح الصغير » و « الشيخ » و « الزوجة العذراء » . وكلها قصص ناقدة للعيوب الاجتماعية المعاصرة ، صورها الحبروك وعالجها بريشة فنان .

ـ أحمد محمد الوكيل ـ

وهو نجل محمد سلمان الوكيل باشا ، ولد بدمنهور فى ٧ مارس سنة ١٨٩٤

نشأ فى الأزهر صغيرا ، وانتخب سنة ١٩٢٦ عضوا بمجلس بلدى دمنهور ، ثم عضوا بمجلس النواب سنة ١٩٤٢ عن دمنهور ، وكذلك سنة ١٩٥٠ ، واشتهر بنشاطه الاجتماعى وأخلاقه الكريمة ، وكان من أبرز شخصيات البحيرة فى جمع التبرعات لشراء سرب من الطائرات تهديه البحيرة إلى جيش مصر الباسل فى حرب فلسطين ، وكان رئيسا للمؤتمر الوطنى لأبناء البحيرة فى معركة القنال سنة ١٩٥١ ، وكان رئيسا لعدة جمعيات اجتماعية واقتصادية وخيرية بدمنهور هى : الإسعاف والبر بالفقراء ، وتعمير المساجد ، والغرفة التجارية ، والمجلس الأعلى لتنسيق الخدمات الاجتماعية ، ولجنة القطن بالبحيرة ، وكان أحد المؤسسين لشركة البحيرة للأقطان وشركة البحيرة للأرز ، ولا ينسى أحد همته فى دعم جمعية تحفيظ القرآن الكريم ، وجمعية رعاية المسجونين ، وجمعية تحسين الصحة ، واللجنة العليا لمعونة الشتاء ، وانتخب رئيسا للاتحاد القومى بأبو الريش وعضوا باللجنة العامة بالمحافظة ، وعين عضوا بمجلس المحافظة وتوفى رحمه الله فى ٣ مايو سنة ١٩٦٢ ودفن بمقابر العائلة بدمنهور .

ـ محمود على الوكيل ـ

توفى إلى رحمة الله فى ٢٣ مايو سنة ١٩٦٢ ، ودفن بدمنهور أيضا ، وقد أتم تعليمه الجامعى حتى حصل على ليسانس الحقوق ، وانتخب رئيسا للاتحاد القومى عن بندر دمنهور ، وكان له نشاطه السياسى والثقافى والاجتماعى الملحوظ فى محافظة البحيرة .



أعلام رشيد

يجب أن يلاحظ القارىء أنه ليس كل من يسمى : (الرشيدى) أصـــله من (رشيد) فإن (الرشيدى) أحيانا تكون نسبة إلى (صفط رشيد) وهى بلد بالصعيد ، وأحيانا أخرى نسبة إلى هارون الرشيد ـ كما يقول المنذرى ـ وأحيانا أخرى كذلك إلى صفة رشيد ـ كما جاء فى الرواة ـ أن محمـــد بن محمود الرشيدى النيسابورى كان أبوه ذاحظ فى الأمور فقيل إنه رشيد ، فوقع عليه هذا الاسم ، ومن هنا يتبين للقارىء إصرارنا على إثبات أقوال المترجمين فى نسبة الأعلام إلى (ثغر رشيد) .

ـ عبد الله بن الصامت ـ

الصحـابى الجليـل

وهو من أشهر الصحابة الذين نزلوا برشيد قال عنه ابن سعد [1] كاتب الواقدى [ابن أخى أبى ذر الغفارى ويكنى أبا النضر وكان ثقة وله أحاديث] وذكره أيضا ابن قتيبة الدينورى بصدد كلامه عن أبى ذر الغفارى نقـــال « عبد الله بن الصامت ابن أخى أبى ذر ويكنى أبا نضر » [2] أما أبو ذر فقد توفى بالربذة سنه ٣٢ هـ وليس له عقب .

وجاء فى الفصل الذى عقده السيوطى بعنوان « در الصحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » [3] : [السائب الغفـارى : ذكره ابن الربيع وقال : لا يوقف له على حضور الفتح ، ولأهل مصر عنه حديث واحد من طريق ابن لهيعـة عن أبى قبيل عن رجل من بنى غفار حدثه أن أمه أتت به إلى رسول الله (ص) وعليه تميمة فقطعها رسول الله وقال : ما اسم ابنك ؟ قالت : السائب ، فقال النبى بل اسمه عبد الله . فكانت أمه تسأله : أتجيب بكلتيها ؟ فقـال : لا والله ما كنت لأجيب إلا على اسم رسول الله الذى سمانى] .

---

(١) الطبقات الكبرى .

(٢) المعارف : ص ١١٠

(٣) حسن المحاضرة : حـ ١

وقبر عبد الله بن الصامت موجود بجوار جامع زغلول برشيد وعليه قبة .

ـ سيدى محمد أبو الريش ـ

ورد ذكره فى « مدونة الأمير غانم بن عياض الأشعرى » ، ومراجعها طبقات الصحابة وتاريخ ابن خلكان والأنساب للأصمعى .

أما الأمير غانم هذا فهو صحابى جليل ، أمه أسماء بنت سفانة بنت حاتم الطائى ، وخاله عدى بن حاتم ، قدم هذا الأمير الفارس مع عمرو بن العاص فى إحدى تجاريده على مصر؛ وأمره على كثير من البلاد مثل البهنسا ومصر ودهشور والجيزة ، وتوفى بالبرلس ودفن بها ، وأولاده ستة .

ومن ذريته سيدى محمد أبو الريش برشيد ، كما جاء فى المدونة ، التى نقلنا جزءاً من أصلها بصفحة ٢٨٧ من الكتاب .

ـ ابن مسافر الرشيدى ـ

ذكره عالم الإسكندرية الأشهر بل « مسند الدنيا » كلها فى زمانه ، الحافظ السلفى فى « معجم السفر » ، وذكره أيضا السيوطى فى « حسن المحاضرة » و « ابن عزم » فى « دستور الإعلام » .

وهو عبد المعطى بن مسافر بن يوسف بن الحجاج أبو محمد التاجونسى (١) المغاغى ثم القمودى الرشيدى ، حنفى المذهب كشيخه الفقيه أبى بكر محمد ابن إبراهيم الحنيفى الرازى نزيل الإسكندرية ، سمع منه السلفى وقال عنه « وأصله من رشيد » وسأله عن مولده فقال سنة ٤٦ هـ وقال عنه السيوطى : « كان من كبار التابعين فى مصر ، ولم يعرف تاريخ وفاته ، فهو من أهل القرن الخامس أو أوائل السادس .

ـ الصنهاجى الرشيدى ـ

ذكره السلفى فى « معجم السفر » فقال : أبو محمد مهدى بن تميم بن المعز

---

(١) نسبة إلى (تاجونس) وهو مصر على البحر بين برقة وطرابلس .

الصنهاجى ، وقد سمع ابن أباديس الحميرى بالمهدية ، ومات فى ١٨ من ذى القعدة سنة ٥٥٢ هـ ومات ودفن برشيد .

وكان يلقب بالنصير ، وسمع منه السلفى بالإسكندرية ، وقال عنه [وكان ستيرا و شيخا كبيرا ، مواظبا على الصلوات وأدائها فى أوائل الأوقات] .

ـ القاضى المكين ـ

ذكره ابن ميسر فى « أخبار مصر » بالجزء الثانى وهو القاضى المكين أبو طالب أحمد ابن عبد المجيد أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكنانى قاضى الإسكندرية المولود سنة ٤٦٢ والمتوفى برشيد فى جمادى الآخرة سنة ٥٢٨ فى عودته من مصر ، وقضى مدة فى القضاء ، وكان هو السبب فى اعتقال أبى الصلت أمية وقد أثنى عليه الحافظ السلفى عالم الإسكندرية ومسند الدنيا .

ـ أبو عسكر الرشيدى ـ

ذكره السلفى فى « معجم السفر » فقال إنه أبو محمد عبد الله بن عسكر بن محمد الأزدى المباحى ، وسمع منه السلفى بالإسكندرية ، وقال إنه استوطن جزيرة بالقرب من رشيد (لعلها الجزيرة الخضراء) وزرع فيها شجيرات ومقاثىء ، وعمل ملاحة ومنها كان معاشه ، وانتفع الناس به وبكرمه هناك ، وصار ملجأ يقصده البحريون ، وكان إذا قدم الإسكندرية نزل على السلفى الذى قال عنه : [كان أثر الخير والعبادة بينا عليه ظاهرا] ولم يذكر عنه السلفى أكثر من هذا ، فهو إذن من رجال القرن السادس الهجرى .

ـ أبو منصور الرشيدى ـ

ذكره السلفى فى « معجم السفر » فقال : أبو منصور ظافر بن سلمان ابن حمود الأنصارى الرشيدى ، من أهل رشيد (وهى مدينة من مضافات الإسكندرية) ، وقد تأدب وشهد بها ، وكان يسلك طريقة حميدة .

وأنشد السلفى بالإسكندرية شعره وكتب له بخطه ، وكان مالكى المذهب ، ومات قبل الشيخوخة .

نقول إنه من رجال القرن السادس الهجـــرى، لأن السلفى الذى توفى سنة ٥٧٦ هـ روى له من شعره هذين البيتين :

لا تأمن الدهـــر فى تقلبه ... وإن حويت النضار والذهبا

فوالذى يسجـــد العبـاد له ... ليستردن منــــك ما وهبـا

ـ أبو العباس الرشيدى ـ

ذكره السلفى فى « معجم السفر » فقال عنه : أبو العبـاس أحمد بن إبراهيم ابن الفتح العريشى ، من أهل الفقه والعفة ، سكن رشيد ، وانتفع به الناس وسمع الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة من السلفى ، وتتلمـــذ على الطرطوشى فى الفقه ، وقرأ على مشايخ الإسكندرية ومصر .

ونقول إن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ ، أما الطرطوشى فقد مات سنة ٥٢٠ هـ وكان قد زار رشيد مع صاحب له رافقه إليها زاهدين فى الدنيا ، يعيشان على بيع الملح والحطب ، ومكثا بها مدة طويلة حتى مات جماعة من فقهاء الإسكندرية قتلى على يد أحد الخلفاء الفاطميين ، حتى قدم إليه قاضى الإسكندرية (ابن الحديد) ليرده إليها ، ومعنى ذلك أنه توفى فيما بين سنة ٥٢٠ هـ و سنة ٥٧٦ هـ .

ومن شعره الذى رواه السلفى له :

المجبرون يجـــادلون بباطل ... بخلاف ما يتلون فى القرآن

كل مقـــالته : الإله أضـلنى ... وأراد بى ما كان عنه نهـانى

أيقول ربك للـــبرية : آمنوا ... ويصدهم عن منهج الإيمـان

إن صح ذا فتعوذوا من ربكم ... ودعوا تعوذكم من الشيطان

ـ علماء رشيد قبل القرن السابع الهجرى ـ

تناول ياقوت الحموى بالإيجاز جماعة من المحدثين خرجوا من رشيد ، ذكرهم فى الجزء الرابع من « معجم البلدان » هم :

١ ـ عبد الوارث بن إبراهيم بن فراس الرشيدى المرادى قاضى رشيد .

٢ ـ يحيى بن صابر بن مالك الرشيدى القارى (من القارة) وهو قاضى رشيد أيضا .

٣ ـ سعيد بن سابق الأزرق الرشيدى مولى عبيد الله بن الحبحاب مولى بنى سلول ويكنى أبا عثمان ، وقد سمع عبد الله بن لهيعة وروى عنه أبو إسماعيل الترمذى .

٤ ـ محمد بن زيدان بن سويد الكوفى ساكن مصر .

٥ ـ محمد بن الفرج بن يعقوب أبو بكر الرشيدى ويعرف بابن الأطروش، سمع أبا محمد بن أبى نصر بدمشق ، وأبا حفص عمر بن أحمد بن عثمان البزاز، وأبا على الحسن بن شهاب العكبرى بعكبرا ، وكتب كثيرا ، وحدث بالمعرة وكفر طاب سنة ٤١٧ هـ ، وروى عنه القاضيان أبو سعد عبد الغالب وأبو حمزة عبد القاهر ابنا عبد الله بن المحسن بن أبى حصين التنوخيان المعريان، وابنه محمد بن سعيد وإبراهيم بن سليمان بن داود الرشيدى ويعرف بالبرلسى .

ـ أبو إسحق الرشيدى ـ

ذكره المنذرى فى « التكملة » بالجزء الخامس والخمسين ، فقال عنه :

أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفضل شعيب بن أبى العباس أحمد بن إبراهيم بن الفتح العريشى الأصل ، الرشيدى المولد ، الإسكندرانى الدار ، المالكى المذهب .

ولد بثغر رشيد (البلد المشهور قرب الإسكندرية) سنة ٥٤٨ هـ ومات به سنة ٦٢٦ هـ ، حدث عن جده أبى العباس أحمد إبراهيم وأبيه أبى الفضل شعيب بأناشيد ، وكتب عنه المنذرى بسمنود وغيرها ، وسمع أبو الحسن على بن المفضل المقدسى ـ وهو شيخ المنذرى ـ من والد إسحق الرشيدى .

« ونقول إن أبا الحسن المقدسي بن المفضل كان معاصرا لابن ظافر الأزدي صاحب « بدائع البدائه » المتوفى سنة ٦٢٣ هـ ، حيث جاء بصفحة ٢٢٢ قوله « وأنشدني الفقيه أبو الحسن ... » .

ويقول المنذرى إن جد أبي إسحاق كان من أصحاب الطرطوشي ، ويقول أيضا إن أبا إسحق سكن رشيد ، وكان ضريرا ، وله شعر جيد ، وكان من أهله كثيرون لهم قدم راسخة فى الحديث الشريف .

البرهان الرشيدى

ذكره السيوطى فى (البغية) بمناسبة ترجمته لأحد الذين تلقوا القراءات عن البرهان الرشيدى ومنهم : محمد بن على بن عبد الواحد بن يحيى بن عبد الرحيم الدكالى المصرى أبو أمامة بن النقاش . وكان فقيها شاعرا مفسرا واعظا نحويا ومات سنة ٧٦٣ هـ .

ونقول : لعله هو إبراهيم بن لاجين بن عبد الله الرشيدى الأعز النحوى المقرىء ، العالم بالنحو والتفسير والفقه والطب والقراءات ، وكان فقيرا ، وأخذ القراءات عن التقى الصائغ ، والفقه عن العلم العراقى ، والنحو عن البهاء بن النحاس ، والمنطق عن السيف البغدادى ، وسمع من الدمياطى والأبرقوهى ، وتولى الخطابة بجامع أمير حسين ، وتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، هذا ويقول ابن فهد فى « لحظ الألحاظ » : إن برهان الدين إبراهيم بن لاجين الرشيدى ، أخذ عن العراقى المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٦ هـ .

ـ إسماعيل الرشيدى ـ

ذكره العراقى فى « ذيل على ذيل كتاب العبر » وقال إنه : الشيخ إسماعيل ابن ... النصير بن رضوان بن طرخان الإسكندرانى الرشيدى ، ولد بعد سنة ٦٧٠ هـ وتوفى فى ٢٥ شعبان سنة ٧٦١ ، وسمع على الغرافى ، ودرس بالإسكندرية وناب فى الحكم بها .

ـ ناصر الدين الرشيدى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الثانى من « الضوء اللامع » فقال : أحمد ناصر الدين

أبو العباس بن الجمال بن الشمس بن الرشيدى الزبيرى السكندرى المالكى سبط ابن التونسى . ولد سنة ٧٤٠ هـ وتفقه ببلده (رشيد) وولى قضاءها سنة ٧٨١ ، وعزل عن القضاء ثم أعيد إليه عدة مرات ، وقدم القاهرة . وتولى بها قضاء المالكية فى شهر ذى القعدة سنة ٧٩٤ ، واستقر بالقاهرة ، وناب عنه البدر بن الدمامينى صهرهم الذى قال فيه :

وأجال فكرك فى بحار علومه سبحاً لأنك من بنى العوام

واستقر ابن خلدون بعده فى قضاء المالكية ..

ومن هذا يتبين أن تاريخ وفاته غير معروف ، ولما كان السخاوى مؤرخ القرن التاسع قد ذكره فى كتابه ، فمعنى ذلك أنه توفى بعد سنة ٨٠٠ هـ .

ـ عبد الرحمن الرشيدى ـ

ذكره ابن فهد فى « لحظ الألحاظ » بإيجاز . وذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » بالجزء الرابع وهو : زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن البرهان إبراهيم بن محمد بن لاجين الرشيدى الأصل ، المصرى الشافعى ، وهو أخو عبد الله الرشيدى ، ومن أسرة كلها علماء أفاضل ترجمنا لهم .

ولد بالقاهرة سنة ٧٤١ هـ ومات بها فى ٢ جمادى الأولى أو الثانية سنة ٨٠٣ هـ كما يقول المقريزى . وسمع بمصر من الميدومى ومحمد بن إسماعيل الأيوبى ومن علماء دمشق الذين سمع منهم ابن أميلة وعمر بن زباطر ، واشتغل بالفرائض والحساب والمواقيت ، وآلت إليه الرياسة فى الميقات والفرائض ببعض الأماكن .

وكان محدثا وخطيبا بجامع أمير حسن ، وكان لقراءته ونغمته حلاوة ، وسمع عليه ابن حجر وترجم له فى معجمه وتاريخه وقال عنه : إنه لم يكن ماهرا ، وقال إنه توفى فى جمادى الأولى سنة ٨٠٤ هـ ، وله كتاب عن (النيل) عنوانه « الروض النضر والزهر العطر » وهو مخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية ، شرحه محمد محمد عبد السلام المنوفى المتوفى سنة ٩٣١ فى كتاب سماه « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » واعتمد على الرشيدى فى وضعه ، وقال عنه فى المقدمة :

[غير أنه ـ أى الرشيدى ـ لم يسلك فى ذلك أسلوبا وتقسيما ، ولا راعى فيه ترتيبا نظميا ، وإنما شتت الكلام وفرقه ، فأذهب بهجته ورونقه ، فرأيت أن

أجمع لنفسي جميع ماذكره في ذلك باختصار ، حاذفا منه ماليس مناسبا من نظم وغيره ، ومخالفا له في ترتيبه ..] كما أنه شرح الجعبرية والأشهبية والياسمينية.

ـ عبد الله الرشيدي ـ

ذكره السخاوي في الجزء الخامس من « الضوء اللامع » .

وهو عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن لاجين الجمال الرشيدي القاهري ولد سنة ٧٣٧ هـ وأخوه عبد الرحمن ووالداه أحمد ومحمد . حضر على الشهاب الحلبي والأيوبي والميدومي والعز بن جماعة وأبي الفتوح الدلاصي ، وسمع منه ابن حجر والسخاوي ، وكان خطيب جامع أمير حسين ، وتوفي في ٢٤ رجب سنة ٨٠٧ .

وذكره المقريزي في عقوده، أما أخوه عبدالرحمن فقدتوفي قبله بثلاث سنوات.

ـ أحمد بن عبد الله الرشيدي ـ

ذكره السخاوي في الجزء الأول من « الضوء اللامع » :

وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن لاجين الشهاب بن الجمال الرشيدي القاهري الشافعي ، ولد سنة ٧٧٠ هـ تقريبا ، سمع على ابن خاتم وأبي اليمن بن الكويك وعز الدين المليجي وابن الفصيح ، وابن الشيخة والتنوخي، وأجاز له ابن الحافظ العلاء وابن الذهبي ، وحدث ، وسمع منه الفضلاء والعلماء، وتوفي بالقاهرة في ١٨ شعبان سنة ٨٤٤ هـ .

وقد تحدثنا عن أبيه عبد الله الرشيدي .

ـ الربعي الرشيدي ـ

ذكره السخاوي في « الضوء اللامع » بالجزء الخامس :

وهو علي بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد نور الدين الربعي الرشيدي القاهري الشافعي. ذكره ابن حجر في «الأنباء» ، ولازم البلقيني والدميري ودرس الحديث بقبة بيبرس ، وكان يقظا ، ولكنه كان كثير العصبية ، وتفوق في الفقه وبرع مع كثرة النقل والمباجنة ، وقد مات في رجب سنه ٨١٣ هـ وقد جاوز الخمسين، وبعد وفاته قام السخاوي بالتدريس في القبة .

ـ علــى الرشيدى ـ

ذكره السخاوى فى (الضوء اللامع) بالجزء الخامس فقال عنه :

على بن عبد اللطيف البرلسى ثم السكندرى التاجــــر .. بنى فى رشيد بيتين وصهريجا تعلوه مدرسة لطيفة ، وبنى فى (جدة) دارا هائلة، ولكنه لم يكملها . ومات بمكة فى شوال سنة ٨٨٧ هـ وخلف أولادا وثروة .

ـ محمد بن عبد الله الرشيدى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الثامن من « الضوء اللامع » :

وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن لاجين الشمس بن الجمال بن الشمس ابن البرهان الرشيدى الأصل القاهرى الشافعى. ويعرف بالرشيدى . ولد بالقاهرة فى رجب سنة ٧٦٧ هـ ونشأ بها ، وأخذ عن البدربن أبى البقاء وابن الملقن والبلقينى والأبناسى وابن العماد والبرهان الدجوى ، وابن حاتم والعزيز المليجى وأبى اليمن ابن الكويك والمطرز وابن الخشاب وابن أبى المجد والتنوخى وابن الفصيح والهيثمى والشمس الرفا والشرف القدسى وإسماعيل الحنفى والعلاء بن السبع ، وفتح الله محمد بن الهمام بن عقيل ، والفرسيسى ، ونصر الله البغدادى، ونصر الله العسقلانى، والتاج أحمد بن عبد الرحمن البلبيسى ، وأخذ عن أبيه وعمه . وأجاز له كثيرون .

ودخل الإسكندرية وكتب الخط الحسن ، وولى تربة العلائية بالقرافة : والتلقين بجامع أمير حسين وخطــابته كأسلافه ، وكان بارعا فى أداء الخطب قادرا على إنشائها فكان ينشىء خطبة لكل جمعة تناسب الحال ، وارتفع ذكره ، وأثنى عليه ابن الهمام والعلاء القلقشندى وصار الناس يقصدونه من الأماكن النائية للاستماع إلى خطبه والصلاة خلفه ، وكتبوها فى نحو عشرة أسفار، وكان بيده وظيفة الإسماع بالأزهر ، وقراءة الحديث بالجانبكية وبالقصر الأول السلطانى من القلعة، وأكثر السخاوى من الأخذ عنه ، وخرج له مشيخة فى مجلد ، وتوفى فى ١١ ربيع الأول سنة ٨٥٤ هـ عن ٨٧ سنة ودفن بالعلائية محل مشيخة قريبا من باب القرافة .

ولقد أفاض السخاوى فى الثناء عليه ، فقــال عنه : [وكان شيخا ثقة ثبتا

ثقة ثبتا صالحا خيرا محدثا مكثرا متحريا فى روايته وأدائه ، كثير التلاوة للقرآن إماما فاضلا بارعا مشاركا ظريفا فكها حسن النادرة والعبارة محبا فى النكتة ، بهى الهيئة نير الشيبة ذا سكينة ووقار ، كريما جدا متواضعا ، طارحا للتكلف ، سليم الباطن ، ذاكرا لكثير من مشكلات الحديث ، ضابطا لمعانيها ، حسن الإصغاء للحديث ، صبورا على التحديث ، كثير البكاء من خشية الله عند إسماعه ، بل وقراءته له ، وفى الخطبة طرى النغمة ، ومحاسنه غزيرة ، وكان مجيدا للشطرنج يلعب مع الشمس بن الجندى الحنفى جاره] ولما توفى جاره انقطع عن لعب الشطرنج .

وإذا كان أهل رشيد قد اشتهروا بإطلاق النكتة البارعة الصافية ، فليس ذلك إلا كابرا عن كابر ؛ كما وجدنا ذلك عند الشمس الرشيدى وعند الربعى الرشيدى المتوفى قبله بنحو أربعين سنة .

هذا وقد سبق لنا الحديث عن أخيه أحمد بن عبد الله الرشيدى ووالدهما ، وعمهما عبد الرحمن الرشيدى .

ـ على المحلى ـ

ذكره الشعرانى فى « الطبقات الكبرى » للشافعية بالجزء الثانى منه ، وذكره رمضان حلاوة السكندرى فى « دستور الإعلام » ، وكذلك (ماكس هرز Max Herz) فى « مساجد رشيد Les mosquées de Rosette » فى comptes Rendus وذكره (بريشيا Breccia) فى (الإسكندرية المتاخمة لمصر Alex. ad AEgyptum) وذكره أيضا (فورستر Forster) الضابط الأمريكى الذى جاء مصر سنة ١٩٤١ فى كتابه (الإسكندرية Alexandria) .

غير أن الاهتمام بمسجده فى رشيد كان أشد من الاهتمام بترجمته : وهو سيدى على المحلى المتوفى سنة ٩٠١ هـ ـ أو بعدها ـ ودفن بثغر رشيد ، وكان من أرباب الأحوال والكرامات ، وكان يبيع السمك القديد (الفسيخ) مع البطيخ والتمر حناء والمرسين (البلاسان) و (الياسمين) ، وهذه خلاصة ما ذكره رمضان حلاوة عن هذا العالم الجليل والزاهد الكبير ، نقلا عن بعض ما جاء فى « طبقات الشعرانى » من كراماته ، مع أن الشعرانى لم يقل لنا أين ولد ولا أين توفى ودفن .

وتحدث على مبارك فى « الخطط التوفيقية » بالجزء الحادى عشر عن أشهر

مساجد رشيد وعددها خمسة وعشرون فقال : [منها الجامع الكبير له شبه بالجامع الأزهر فى الاتساع ، وكثرة الأعمدة ، وأرضه خشبية ، وجامع المحلاوى (يقصد جامع المحلى) وهو فى غاية الرونق والانتظام ، فيه العلوم وفيه درس دائم ، وضريحه به مشهور بها] .

ويفهم من ذلك أنه أصلا من (المحلة الكبرى) ، واستقر برشيد ، وعاش عيشة المتصوفة ، ولكن أهل رشيد يروون عن الأقدمين أنهم كانوا يستنكرون على الشيخ مكانه الذى يبيع فيه الفسيخ مع جلالة قدره ، ولكنه كان يقول لهم : هذا محلى ، فسمى (المحلى) بسبب ذلك .

ـ يحيى الرشيدى ـ

ذكره ابن إياس فى «بدائع الزهور» فقال: الشرفى يحيى الرشيدى خطيب جامع الأزبكية وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ وكان من أهل الفضل ، ماهرا فى الخطابة .

وهذا هو كل مانعلمه عنه .

ـ ابن سلامة الرشيدى ـ

ذكره رمضان حلاوة فى « دستور الإعلام » فقال إنه : حسن بن سلامة المالكى الطيبى الصالح ، ورد ثغر رشيد ، ومات سنة ١١٧٦ هـ . وقام بالتدريس بمسجد زغلول برشيد ، وانتفع به الناس ، وكان فقيها نبيلا .

ـ بدر الرشيدى ـ

ورد ذكره فى « فهرست الكتبخانة » وهو : محمد بن إسماعيل بن محمود بن محمد المعروف ببدر الرشيدى ، وله رسالة مشهورة « الألفاظ المكفرة » وهى مخطوطة بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم ٢١٥٢ ب ، وفيها جمع الألفاظ التى توجب الكفر ، ورجع فيها إلى مراجع كثيرة منها : خلاصة الفتاوى ، والفتاوى الظهيرية ، وجواهر الفقه ، ويتيمة الفتاوى ، والحاوى فى الفتوى ، والحقائق شرح المنظومة ، والطحاوى ، والفتاوى الصغرى ، وفوز النجاة ، ومجمع الفتاوى ، والملتقط ، وبحر الكلام .

ومع ذلك لاندرى شيئا عن حياته ووفاته .

ـ يونس الرشيدى ـ

ذكره البغدادى فى «هدية العارفين» قال : هو يونس بن يونس بن عبد القادر ابن أحمد الأثرى الرشيدى المصرى الأديب ، كان حيا سنة ١٠٢٠ ﻫ ولم يعرف تاريخ وفاته .

وله عدة مؤلفات منها « تحفة أهل المعرفة بفضائل يوم عرفة » ، و « تحفة أهل النظر فى شرح الدرر » ، و « الدرر فى مصطلح أهل الأثر » و « عمدة الرائض فى الفرائض » وشرح « غاية السول فى شرح العشرة فصول » لجمال الدين ابن المجدى المتوفى سنة ٨٥٠ ﻫ وهو مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم ٣٨٤١ ح وهو فى العمل بالربع المرسوم بالمقنطرات ، أى أنه فى المساحة والفلك والهندسة وخط الميل وعلم الميقات ، وله أيضا « المقاصد السنية بشرح فرائض الرحبية » .

ـ الخياط الرشيدى ـ

ذكره المحبى فى الجزء الثالث من « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » فقال : على بن إبراهيم الخياط الرشيدى الشافعى ، ولد برشيد فى القرن الحادى عشر ، ونشأ بها وحفظ القرآن وأخذ عمن كان بها من علماء العصر ، وقدم القاهرة ، فقرأ على مقرئها عبد الرحمن اليمنى ، وتلقى الفقه والعلوم الشرعية والعقلية على شيوخ كثيرين منهم : البرهان اللقانى ، والشمس الشوبرى ، والشيخ سلطان المزاحى ، والنور الشبراملسى ، والشمس البابلى ، ثم عاد إلى رشيد ، وأقبل عليه جميع أهلها ، وحمدت سيرته ، واعتقد فى صلاحه وعلمه عامة ذلك الإقليم ، وظهرت له كرامات ، وتصدر للتدريس ، وأخذ عنه كثيرون ، منهم العلامة أحمد بن عبد الرزاق الرشيدى . وتوفى برشيد فى أوائل رجب سنة ١٠٩٤ ﻫ ودفن بها .

وقد ذكره تلميذه ابن زنبور بمناسبة إتمام تأليفه كتابه « البدر المنير فى شرح سيرة البشير النذير » الذى أتمه سنة ١١٠٢ شرحا لمنظومة عبد الرحيم بن

الحسين العراقى المتوفى فى القرن التاسع ، وقال ابن زنبور : [أجازة شيخى الولى الكامل ، المحقق الرحلة ، سيدى وسندى ، وعمـــدتى وعدتى نور الدين على بن إبراهيم الرشيدى الشهير بالخياط الشافعى] ، وأخبره بها نجم الدين الغيطى .

ـ أحمد المغربى الرشيدى ـ

أحمد بن عبد الرزاق بن محمد بن أحمد بن أحمد المشهور بالمغربى الرشيدى ، توفى برشيد فى شعبان سنة ١٠٩٦ هـ ، وله حاشية مشهورة عنوانها « حاشية الرشيـــدى على شرح (المنهاج) » لشمس الدين الرملى فى فروع الفقه الشافعى ، وتقع فى مجلدين فرغ من تأليفها فى ٢٧ شعبان سنة ١٠٨٦ هـ وهى مخطوطة ، وله أيضا « تيجان عنوان الشرفا » ، وحسن الصفا » و « الابتهاج فى ذكر من ولى إمارة الحاج » .

وهو معاصر ومواطن للخياط الرشيدى السابق ذكره ، وقد تحـــدث عنه وترجم له كثيرون منهم : المحبى فى « خلاصة الأثر » وكحالة فى « معجم المؤلفين » والبغدادى فى « هدية العارفين » و « الإيضـــاح المكنون » ، وسركيس فى معجمه ، وذكره جورج زيدان فى « آداب اللغة العربية » ، وورد ذكره فى « فهرست الكتبخـانة » و « فهرست المؤلفـــين » ومخطوطات الموصل للجلبى و (بروكلمان) و (أهلوارت Ahlwardt) المستشرق الألمـانى .

ـ أحمد سلام الرشيدى ـ

ذكره (بروكلمان) وكحالة فى « معجم المؤلفين » ، وهو أحمـــد ســلام الرشيدى ، كان حيا قبل سنة ١١٦٨ هـ وكان محدثا ، وله كتاب « تحفة الأماجد فى فضل بناء المساجد » .

ـ خليل الخضرى الرشيدى ـ

ذكره المحبى فى « خلاصة الأثر » والجبرتى وعلى مبارك وكحالة فى « معجم المؤلفين » والبغدادى فى « الهدية » و « الإيضاح » وجورج زيدان وبروكلمان ، وهـو خليل بن شمس الدين بن محمد بن زهران بن عـــلى الرشيدى المصرى الشافعى الشهير بالخضرى الفقيـه المحـدث المشارك فى بعض العلوم ، ولد برشيد

سنة ١٢٤٠ وأمه صالحه بنت الحاج على زعيتر أحد أعيان التجار برشيد، سمع على الشيخ يوسف القشاشي والشيخ عبد الله بن مرعى الشافعى ، وقدم إلى الأزهر سنة ١١٤٣ هـ فجاور به ثلاث سنوات ثم عاد إلى ثغر رشيد ، ولزم شمس الدين الفيومى خطيب جامع المحلى وكان نزيل هذا الجامع ومن مؤلفاته « الدرة اليتيمة الكاملة المتعلقة بالشهور الثلاثة الفاضلة » و « شرح لقطة العجلان وبلة الظمآن » للزركشى ، وله فى علم الحديث « شرح الأربعين النووية » للشبشيرى ، و « غاية الطلب فى إثبات كفر من سب العرب بغير سبب » وله مجموعة خطبية بها سبعة وثلاثون مجلسا نقلها عنه عيسى الإخنوى ، اطلعت عليها بمكتبة السيد أحمد خيرى بروضة خيرى بالبحيرة وهى بخط عبد الله بن محمد بن صالح البناء الرشيدى ، وسمع أيضا على عبد الله بن مرعى الشافعى سنة ١١٤١ « جمع الجوامع » و « المنهج » وألقى الدروس بحضرته ، و « مختصر السعد » ، واللقانى على « جوهرة التوحيد » وشرح أنه عبد السلام ، والمناوى على « الشمائل » والنجارى وابن حجر ، وشيخ مشايخه هو البرهان الشبراخيتى ، ووفد على رشيد سنة ١١٨٣ الشيخ عطيه الأجهورى ، فقرأ عليه وعلى الشيخ محمد الإدكاوى شرح السيوطى على الخلاصة ، والشنشورى على « الرحبية » و « التحرير » لشيخ الإسلام ، وسمع من الغيطى ، وأجازه الشيخ شلبى البراسى ، والشيخ عبد الدائم بن أحمد المالكى ، وأحمد بن أحمد بن قاسم الونى ، وتوفى فى ٢٥ شعبان سنة ١١٨٦ هـ .

ويقول عبد الرحمن الجبرتى إنه رآه برشيد عند ولده أحمد .

ـ حسن القبانى الرشيدى ـ

ذكره أمين سامى باشا فى « تقويم النيل » وقال إنه الشيخ حسن المؤقت (الميقاتى) القبانى الرشيدى صاحب كتاب « بهجة الأنوار فى أعمال الليل والنهار » وضعه سنة ١١٦٢ هـ ، وذكر له نظريتين فى علم الميقات بشأن طريقة قياس عدد أذرع النيل .

ـ ابن عنتر الرشيدى ـ

ذكره الجبرتى ، والبغدادى فى « هدية العارفين » وهو : على بن عنتر الرشيدى ثم المصرى ، توفى برشيد فى ربيع الأول سنة ١١٩٥ هـ ، وله ديوان شعر

وديوان فى الموشحات والمقاطيع وغيرها ، وكان فصيحا وخطيبا مفوها .

ـ حسين الرشيدى ـ

ورد ذكره فى « فهـــرس المؤلفـــين » وفى « فهرست الكتبخانة » كما ذكره البغدادى فى « إيضاح المكنون » وكحالة فى « معجم المؤلفين » وسركيس فى « المعجم » ، والعظم فى « السر المصون » .

وهو الفقيه حسين بن سليمان الرشيدى الشافعى كان حيا سنة ١٢٠٥ ، وله « حاشية بلوغ المراد بفتح الجواد بشرح منظومة ابن العماد فى المعفوات » فرغ منها فى رمضان سنة ١٢٠٥ هـ .

ـ ابن الكاشف الرشيدى ـ

ذكره الجبرتى فقال : الشيخ حسين بن الكاشف الدمياطى ويعرف بالرشيدى تعلق بالعلم ، وانخلع من الإمرية والجندية ، ولازم الشيخ عبد الله الشرقاوى وسمع من الدمنهورى ، وتلقى على السيد مرتضى الزبيدى أسانيد الحديث المسلسلات .

حفظ القرآن برشيد وجوده على السيد صديق ، وجاء إلى القاهرة بعد أن أن حفظ المتون الكثيرة ، فتعلم بالأزهر ، ولبس العمامة والفرجية ودرس فى الفقه والأصول .

وكان محمد باشا خسرو قد عينه إماما له يصلى خلفه عندما جاء إلى قلعة أبو قير ، واقتنى حصصا وإقطاعا ، وتقلد مناصب البلاد والبنادر ، وكان يأخذ ممن يتولاها الجعالات والهدايا ، وأخذ نظر وقف أزبك حتى بعد عزل خسرو باشا ، واستمر على القراءة والإقراء حتى توفى فى آخر سنة ١٢٢٩ هـ .

ـ حسن غانم الرشيدى ـ

ذكره أحمد بك عيسى فى « معجم الأطباء » وفنديك فى « الاكتفـــاء »

وجورجى زيدان فى «تاريخ آداب اللغة العربية» وسركيس فى «المعجم» والبغدادى فى «إيضاح المكنون»، وكحالة فى «معجم المؤلفين»، ومحمــد فؤاد شكرى مع عبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل فى «بناء دولة مصر محمد على» والرافعى فى «تاريخ الحركة القومية» بالجزء الثالث، وأشاد به كلوت بك، وجعله من نوابغ البعثات المصرية .

وهو حسن غانم الرشيدى، كان حيـا قبل سنة ١٢٦٥ هـ أى سنة ١٨٤٩، درس بالأزهر فصار فقيها فى شبابه إذ تعلم اللغة والدين. ثم التحق بمدرسة الطب بأبى زعبل، وكان فى بعثة محمد على الرابعة إلى فرنسـا سنة ١٨٣٢، وظل يدرس بها الصيـدلة ثلاثة عشر عاما حتى أتقن فن الأقرباذين وهو (الفارماكولوجى) أى علم تركيب الأدوية، فعـاد مدرسا لهـذا الفن بمدرسـة الطب بقصر العينى، ومن الـكتب التى ترجمها عن الفرنسية «الدر الثمين فى الأقرباذين» طبـع ببولاق سنة ١٨٤٨ م، كما اشتغل فى تصحيح كتاب «الدر اللامع فى النبـات ومافيـه من الخواص والمنافع» تأليف أنطون فيجرى Figari مع محمد التونسى .

ـ زبيـدة الرشيدية ـ

هى السيدة زبيدة بنت محمـد البواب الرشيدى، التى تزوج منها الجــنرال (مينو) قائد الحملة الفرنسية بعد اغتيال (كليبر)، بعد أن أسلم وتسمى بعبد الله مينو، الذى أقام مـدة فى رشيد، وتقدم لخطبة إحدى بنـات أسرة الجـارم فرفضوا .

وزبيدة هى التى أبوها لأمها على الحمامى بن حسن البواب، وكان من الشهود هو وأحمد وإبراهيم ابنا سليمان النقرز، وعقد عليهـا مينو فى ٢٧ رمضان سنة ١٢١٣ هـ، وتوجد وثيقة الزواج بمحكمة رشيد الشرعية، وكان الحفل غاصا برجال الحملة الفرنسية ووجهاء رشيد وحكامها منهم :

الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى، والشيخ محمد صديق النـائب، والمفتى الحنبلى، والشيخ محمد غرا النائب والمفتى المـالكى، ونقيب الأشراف السيد أحمد

بدوى ، والأمير محمد بدوى جورجى سردار مستحفظـــان (مدير الأمن) ، وأحمد أبو جاويش مستحفظان ، والحاج أحمد جاويش العسال ، والحـاج محمود اللومى المغربى ، وإبراهيم الجمال الرزاز ، والحاج محمد ميتو ، وعبد الله بربيره ، والحـاج بدوى الشنـاوى ، وأوزن اسماعيـل السـلانكلى ، وعـــلى جاويش كتخذا البيك .

وكذلك كان فى الحاضرين من الفرنسيين : لوى جوزيف وفيكتور جوليان صـارى عسكر حاكم ولاية رشيد ، ولوى جوست دروى رئيس طائفة عسكرية ، وجان فرنسوا لوى لويكك مهندس وميقـــاتى الجيش الفرنسى ، ولويزى وانولى باش حكيم (حكيم باشا) الكورنتيلة ، وكان الوكيل الشرعى عن زبيـــدة فى توقيع العقد الحـاج حسين بن محمد الميقاتى .

وظلت زبيدة فى عصمة زوجها حتى أنجبت منه ولدا سماه أبوه سليمان مراد ، ولم تفارق رشيد إلا عندما جلا الفرنسيون عنها من وجه الإنجليز والأتراك فى أول المحرم سنة ١٢١٦ ، فركبت زبيدة النيل مع أخيها لأمها السيدعلى الرشيدى ، أحد أعضاء الديوان بثغر رشيد ، إلى الرحمانية ، ولبثت بها عدة أيام ، حتى احتل الإنجليز والأتراك قلعتها ، فاتجهت إلى القاهرة ، ونزلت ببيت الألفى بالأزبكية ، ثم أقامت بالقلعة ولما تسلم الأتراك قلعة القاهرة من الفرنسيين فى ١٧ يونيو سنة ١٨٠١ ، غادر الفرنسيون مصر ، ومنهم مينو ، الذى كتب إلى أعضاء ديوان القاهرة يوصيهم خيرا بزوجته وولده ، وقد رغبت فى اللحاق بزوجها فعـــارض الأتراك فى ذلك ، ولكن القائد (بيار) تصدى لهم ، وتكفل براحتها ، حتى خرجت مع من خرجوا إلى فرنسا .

ويقول مسيو (ريجو) فى كتابه « الجنرال عبد الله مينو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية فى مصر » : [إن مينو قد أساء معاملة زبيـدة ، وهجرها فى « تورينو » بإيطاليا ، وجعل له من الراقصات خليلات ، وتركها تعانى الغصص والهجران حتى ماتت بها] .

ـ السيد حسن كريت ـ

ذكره الجبرتى فى حوادث حملة فريزر الفاشلة على رشيد سنة ١٨٠٧ . ولكنه لم يعطنا أى فكرة عن نشأته ومولده ووفاته ، على أنه كان أول بطل فى

المعركة ، فهو نقيب الأشراف برشيد ، وقد اتفق مع قائد الحامية بها على بك السلانكلى على اقتسام المقاومة الشعبية ، فقام السلانكلى بقيادة الجنود النظاميين بينما تولى حسن كريت قيادة المتطوعين من أهل رشيد ، ومن انضم إليهم من البلاد المجاورة والقادمين من القاهرة استجابة لنداء السيد عمر مكرم نقيب الأشراف بمصر ، ولهذا كان الاتصال بين النقيبين مباشرا دون اللجوء إلى الوالى محمد على باشا .

كان حسن كريت يوالى الاستنجاد بعمر مكرم ، ويبعث باسمه كل يوم رءوس القتلى وجموع الأسرى من الغزاة المعتدين ، وكان لهذه الاتصالات المتوالية طلبا للنجدة ، وبهذا الأسلوب أثرها فى النصر المبين الذى أحرزه أهل رشيد والحماد .

وكان حسن كريت أيضا على رأس وفد رشيد بعد النصر استصراخا من مظالم الأتراك بعد انخذالهم فى المعركة وتركهم النضال لأهل رشيد وأهل الحماد يتولونه وحدهم ، واضطر محمد على أن يكف زبانيته عن أذى أهل المنطقة ، بعد أن صحبه عمر مكرم إلى الوالى لإعلان سخط أهل رشيد .

وقد ورد ذكر السيد حسن كريت على ألسنة مؤرخى الحملة من الفرنسيين أكثر مما ورد عن المؤرخين العرب ، وفطنوا إلى تدابيره لمواجهة حملة فريزر ، ولعله استطاع أن يخدع قنصل انجلترا فى رشيد (بتروشى) حتى كتب هذا إلى فريزر بأن أهل رشيد وعلى رأسهم الشيخ حسن ، سيرحبون بالإنجليز وسوف لايظهرون أى مقاومة ، قد وجد القارىء موقفه المشرف فى المعركة .

وللوقوف على عظمة هذا الرجل ، اتصلت بحفيده السيد محمد عبد المنعم جاد الله مراقب سوق الجملة بالغرفة التجارية بالاسكندرية وهو من رشيد وأسرة جاد الله لاتزال بها ، وعلمت منه أن السيد على كريت شقيق السيد حسن مدفون بأحد مساجد رشيد وكان من علمائها المشهورين ، وأن لدى الأسرة مصحفا بخط يده وهو بتاريخ سنة ١١١٧ هـ ، وأن له مؤلفات كانت بمسجد زغلول ثم نقلت منه إلى مسجد المحلى ، أما منزله فلازال برشيد ولكنه تهدم ، وكان بالقرب من جامع زغلول ، وكان يلقى العلماء وطالبي العلم والوجهاء بالدور الأرضى منه .

أما السيد حسن وهو الأكبر فقد جاء مع محمد على إلى مصر فى الحملة من جزيرة كريت كعالم فكان إمام المالكية بمصر ثم إمام مسجد زغلول برشيد، وهى إذ ذاك الثغر الأول لمصر ، وكان بها قطع الأسطول .

وفى أثناء معركة رشيد سنة ١٨٠٧ كان دائم الاتصال بنقيب الأشراف السيد عمر مكرم ، ويكثر من الاستنجاد به ، وحتى بعد النصر ، فتك الجنود بأهل رشيد وماحولها ، وفرض محمد على عليهم الغرامة الباهظة ، فكان حسن كريت أول من رفع عقيرته باسم الشعب محتجا على هذه المهازل ، فأضمر له محمد على كل سوء كما فعل بعمر مكرم ، لأنه كان لايود أن يسمع صوتا شعبيا يعلو على صوته ، وهو الوالى .

فلما قدم الشيخ حسن فى وفد من أهل رشيدوالتقى بعمرمكرم ، واصطحبه إلى الباشا ، رحب به الباشا وأظهر له التقدير ، وأجابه إلى طلباته وكانت شهرته فى مقاومة الإنجليز قد بلغت محمد على ، ثم أقام له وليمة حتى إنه لم يكد ينتهى من الطعام حتى حمل الشيخ على الأعناق فاقد النطق ، فقد فارق الحياة ، وشيعت جنازته رسميا دون إخطار أهله ؛ ودفن فى مكان غير معروف بمدافن محمد على ، ويؤكد أهله أن محمد على قد دس له السم فى الطعام فمات .

وليس أدل على خشية محمد على من شدة نفوذ الشيخ حسن ، من أنه بعد الاحتجاج الذى قدمه ضد الفضائح التى كان يرتكبها جنوده ، من أنه أمرهم بالخروج من رشيد ليعسكروا بعيدا عنها ، على ألا يدخلوها إلا بالملابس المدنية وبتصريح خاص من الشيخ حسن كريت .

وقد أنجب رحمه الله بنتين فقط إحداها تسمى زبيدة تزوجها السيد على الجريتلى أى الكريدلى والأخرى تزوجها أحد أفراد أسرة فرحات برشيد .

وتوفى رحمه الله فى أخريات سنة ٨٠٧ .

ـ على بك السلانكلى ـ

وهو قائد حامية رشيد ، أثناء حملة فريزر سنة ١٨٠٧ ، ويظهر أنه ينتسب إلى (سالونيك) وقد أظهر الجبرتى دوره الباسل الذى قام به فى تدبير شئون الدفاع عن رشيد ، وقد تولى قيادة أفراد الحامية ، كما وضع خطة إبعاد المراكب

من مرسى رشيد إلى الضفة الشرقية حتى لا يتمكن الغزاة من استخدامها فى السيطرة على مصب النيل عند رشيد .

كما أنه وضع خطة اختفاء الجنود والأهلين فى البيوت وخلف الجدران، وفوق المآذن ، فلما أعطيت إشارة الانقضاض على الإنجليز ، وتشتت شمل العدو ، بعد مقتله عظيمة لم تكن فى الحسبان ، وكتب الله النصر لرشيد بفضل إخلاصه ، وصدق إيمانه ، وإحكام خطته وتدبيره .

ولقد حاول الجنرال الإنجليزى - إذ أحس بالهزيمة - أن يفرض الاستسلام على السلانكلى ، فكان رده عليه دليلا على الحكمة والعزة، إذقال له إنه يتلقى أوامر من القاهرة . فأسقط فى يد القائد ، وانقلب مغموما .

ومن العجيب أن هذا البطل الذى يعزى إليه انتصار رشيد هو والشيخ حسن كريت - قد اختفى أثره بعد هذا الانتصار الذى تحقق على يديه فى ٣١ مارس برشيد و ٢١ إبريل بالحماد .

وأغلب الظن أن الباشا قد تخلص منه بطريقته المعهودة كما هو شأنه مع الأبطال، وعلى ذلك نستطيع القول بأنه توفى فى أخريات سنة ١٨٠٧ أيضاً .

هكذا لقى أبطال معركة رشيد مصارعهم على يد محمد على الوالى الغادر ، فماذا نحن فاعلون لتخليد ذكراهم وتمجيد بطولاتهم فى عهد البطل الحر الرئيس جمال عبد الناصر ؟

- أحمد وسلامة النجارى -

وهما أيضا من أبطال رشيد فى معركة فريزر ، كانا من تجار مكة ، ويقيمان بالقاهرة ، ولما نودى للكفاح ضد الإنجليز، أخذ هذان الأخوان نحو مائة من البدو والمغاربة والتجار ، وقاما بتكاليفهم حتى اشتركوا فى المعركة بصدق وإخلاص ، وخرجوا منها بالغنائم التى وزعوها فيما بينهم ولاسيما على الذين طاردوا الإنجليز بعد ارتدادهم ثم عادو الأخوان إلى القاهرة، والناس يستقبلونهما بالبشر والترحاب والتقدير لما بذلا من تضحيات كما أن محمد على شكر لهما هـــذه المهمة العالية .. ثم ماذا ؟.. لاندرى .

ـ البطريرك جريجوريوس يوسف ـ

ذكره إلياس زاخوره فى « مرآة العصر »

ولد فى رشيد سنة ١٨٢٣ وأصل أسرته من الشـــام ، وهاجر به أبوه إلى الإسكندرية فنشأ بهـا ، وكان موظفـا بالحـكومة ، ثم غادر مصر إلى لبنان سنة ١٨٤٠ ، ودخل (دير المخلص) راهبا ، ولقب (جزيجوريوس) ، وهو كاثوليكى المذهب ، درس بمدرسـة اليسوعيين ثم بمدرسـة أثناسيوس فى (روما) وتلقى اللاهوت والتاريخ والفلسفة والرياضة واللغات اليونانية واللاتينية والإيطالية ونال الدكتوراه فى الفلسفة وأصبح قسـا وهو بالمدرسة ، ثم انتخب أسقفاً ، وصـار أسقف عكا سنة ١٨٥٦ ، ثم بطـريرك أنطاكية والإسـكندرية وأورشليم وسائر المشرق فى سبتمبر سنة ١٨٦٤ وظل رئيسا للكاثوليك ثلاثة وثلاثين عاما، وأسس المدرسة البطريركية فى بيروت وزار الأستانة، وأنعم عليـــه السلطان بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى ، وأعاد المدرسة الإكليركية فى (عين تراز) إلى سابق عهدهـا ، وزار (روما) بدعوة من البـــابا بيوس التـاسع سنة ١٨٦٧ كما زار مرسيليا وليون وباريس، والتقى بالإمبراطور نابليون الثالث وسـافر إلى بلجيكا وبافاريا وفينا وهناك التقى بامبراطور النمسا ، وفى سنة ١٨٦٨ خطب باللاتينية فى الفاتيكان دفاعا عن حقوق الـكنيسة الـكاثوليكية الشرقية ، فنجح فى مسعاه .

ومن المدارس التى أنشأها : المدرسة البطريركية ومدرسة عين تراز ومدرسـة إكليركية فى القدس وأربع مـدارس فى دمشق واثنتان فى مصر وواحــــدة فى الإسكندرية ، وفى عهــــده بنيت كنيسة باب المصلى وكاتدرائية الإسكندرية من تبرعات جرجس الطويل والـكنيسة البرازيلية فى الإسكندرية من تبرعات الـكونت ميشيل دبانه وكنيسة شبرا بالقاهرة وكنيسة المنصورة وكنيسة بور سعيد وكنيسة طرسوس وأطنه والإسكندرية وأنشـأ دار البطريركية بالقاهرة وجمعية يوحنـا الرحوم بالإسكندرية والقاهرة ، ومات فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩٧ .

ـ إبراهيم بك حليم ـ

ذكره إلياس زاخوره فى « مرآة العصر »

وهو إبراهيم بك حليم بن إسماعيل على بن السيد على من أعيان رشيد ممن اشتهروا بالتقوى والبر والشرف .

ولد سنة ١٢٧٧ هـ فى منوف ، ودرس مبادىء القرآن والكتابة بمدرسة الشيخ صالح ثم بالمدرسة التجهيزية ثم التحق بالمدرسة الحربية ونال رتبة ملازم ثانى ثم ملازم أول ، ونقل حكمدار الأرصفة بميناء الإسكندرية بدعوى انتمائه إلى حزب الخديوى أثناء الثورة العرابية ، وفى سنة ١٨٨٤ أصبح معاونا بمديرية الغربية ثم مأمور مركز شربين سنة ١٨٨٦ ثم مأمور مركز طنطا ، ثم معاون المديرية ، وفى سنة ١٨٩٠ صار مأمور مركز بيلا ثم وكيل مديرية الفيوم ثم وكيل مديرية قنا سنة ١٨٩٥ .

ـ أحمد الرشيدى ـ

ذكره الجبرتى فى أخبار سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) فقال : إن محمد على فى هذه السنة أمر بنفى السيد أحمد الرشيدى كاتب الرزق إلى قلعة أبو قير لمقتضيات واهية فى خدمة مناصبهم .

ـ ابن صالح الرشيدى ـ

وهو محمد بن صالح البنا الحنفى الرشيدى ، مفتى الإسكندرية فى سنة ١٢٦٩ ، له « مولد النبى » ، وهو مجموعة أخبار وأشعار عن مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى مخطوطة بمكتبة بلدية الإسكندرية بخط أحمد بن حسين الشباسى بتاريخ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣ ، وذكر فيها اسم الشيخ عبد السلام اللقانى وهو مدفون بجامع المغاورى بالإسكندرية ، وكان على قبره لوحة رخامية ، بها أن وفاته كانت فى ١٦ شوال سنة ١٢٨٥ ، وكان خلوتيا أخذ الطريق عن الشيخ أحمد بن محمد الصاوى دفين البقيع عن أحمد بن محمد العدوى الشهير بالدردير عن محمد بن سالم ابن أحمد الحنفى عن مصطفى بن كمال الدين البكرى الحنفى (- ١١٦٢ هـ) .

ـ أحمد حسن الرشيدى ـ

هو أحمد حسن الرشيدى بك ، من نوابغ خريجى مدرسة الطب المصرية والبعثات ، ومن أركان النهضة الطبية العلمية بتأليفه وتراجمه ، وهو أكثر علماء

الطب فى عصره إنتاجا فى التأليف والترجمة والتعريب .

نشأ فى الأزهر ، ثم درس الطب بمدرسة أبى زعبل ، وكان عضو البعثة الطبية الرابعة إلى فرنسا سنة ١٨٣٢ م وعاد بعد ذلك لتدريس الطب والعلوم الطبيعية فى مصر ، وكان متفوقا فى اللغة ، فألف وترجم حتى بلغت مؤلفاته تسعة فى عهد محمد على ، وزادت فى عهد إسماعيل فقربه وأدناه ، وكثر حاسدوه فعزل من الخدمة ثم أعيد إليها .

ومن مؤلفاته : « عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج » و « الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية » تأليف لامروس وصححه وراجعه رفاعه الطهطاوى ، و « تطعيم الجدرى » و « بهجة الرؤساء فى أمراض النساء » و « نزهة الإقبال فى مداواة الأطفال » و « الروضة البهية فى مداواة الأمراض الجلدية » و « نخبة الأماثل فى علاج تشوهات المفاصل » وترجم عن كلوت بك « رسالة فى تطعيم الجدرى » وعن الفرنسية ترجم « ضياء النيرين فى مداواة العينين » للورنس ، وصحح ترجمة كتاب « طالع السعادة والإقبال فى علم الولادة وأمراض النساء والأطفال » التى قام بها : على هيبة الحكيم ، وتوفى سنة ١٨٦٦ م بالقاهرة .

وكان أحمد حسن الرشيدى موضع اهتمام المؤلفين والمؤرخين للحركة الفكرية فى العصر الحديث ، وكتبوا عنه وعن مؤلفاته وترجماته منهم : أحمد عيسى فى « معجم الأطباء » والبغدادى فى « هدية العارفين » و « إيضاح المكنون » وسركيس فى « معجم المطبوعات » والزركلى فى « الأعلام » والعظم فى « السر المصون » وفنديك فى « اكتفاء القنوع » وجورجى زيدان فى « تاريخ آداب اللغة العربية » والرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » وكحالة فى « معجم المؤلفين » فضلا عن فهارس المؤلفين والكتبخانة والأزهرية والتيمورية ومحمد فؤاد شكرى مع زميليه فى كتاب « بناء دولة مصر محمد على » .

ـ إبراهيم الجارم ـ

ورد ذكره فى سند أصل أسرة الجارم أطلعنى عليه صديقى الدكتور عمر عبد المحسن الجارم الأستاذ بكلية الطب ، وذكره عمر رضا كحالة فى « معجم

المؤلفين ، والبغدادى فى « هدية العارفين » و « إيضاح المكنون » والتونكى فى « معجم المصنفين » ، وفهرست الكتبخانة ، فضلا عن كتابه « حاشية إبراهيم بن محمد الجارم الرشيدى الشافعى » على شذور الذهب لابن هشام ، وهو كتاب ضخم جدا فى النحو ، ومخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية تحت رقم ٥١٥ .

وأسرة الجارم أصلا من البرلس ثم استوطنت رشيد ومنهم الشيخ إبراهيم ابن محمد بن محمد بن أحمد الجارم ، الشافعى الذى ولد برشيد سنة ١٢٠٦ ﻫ ونشأ بها ثم أتم دراسته بالأزهر وأخذ على علمائه منهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ حسن القويسنى ، وعاد إلى رشيد ، وتولى الخطابه والإمامه بجامع المحلى ، كما تولى قراءة المجالس على الكرسى به فى ليالى المواسم ، وتقلد منصب الإفتاء برشيد على المذهب الشافعى ، وجاءت إليه وفود المجاورين تغترف من مناهل علمه ، وتوفى ودفن برشيد سنة ١٢٦٥ ﻫ .

وهو عالم بالنحو واللغة ، يجمع بين الباطن والظاهر ، والمعقول والمنقول ، وكان متصوفا زاهدا ، ورئيسا للطريقة الخلوتية ، وله مؤلفات كثيرة هى :

١ ـ حاشية على شرح شذور الذهب : فى النحو لابن هشام .

٢ ـ حاشية على هدية الناصح : فى فقه الشافعى .

٣ ـ حاشية على شرح ابن عقيل : فى النحو وهما صغرى وكبرى .

(وقد أطلعنى عليها الدكتور عمر الجارم وخطها حسن جميل غير معروف كاتبها وناقصة من آخرها).

٤ ـ حاشية على شرح رسالة الدردير : فى البيان .

٥ ـ حاشية على شرح الأمير على منظومة السقاط : فى التوحيد .

٦ ـ حاشية على شرح الجلالين : فى التفسير .

٧ ـ حاشية على متن سيدى محمد السباعى : فى النحو .

٨ ـ حاشية على شرح منلا حنفى على رسالة آداب البحث .

٩ ـ حاشية على تفسير الخطيب الشربينى : فى ثلاثة مجلدات ضخمة.

١٠ ـ رسائل فى « المولد » و « فضائل الإسراء » و « ليلة النصف من شعبان » .

ومن أولاده السيدة فتة ، والسيدان محمود الجارم وعبد الفتاح الجارم ، وكانت ترد عليه الأسئلة ليرد عليها بفتاواه ، منها سؤال وجواب بخطه فى نهاية رسالة الحرام المراجع لولده عبد الفتاح .

هذا وقد اطلعنا على رسالة السنوسية فى النحو وعليها حاشية الباجورى ، وعلى الحاشية تقرير الشيخ سيد الشرشيمى ، (وهو والد جد السيدة حرمى المرحوم الشيخ عبد المعطى الشرشيمى ، عالم الأزهر ومعاصر الشيخ محمد عبده) وعلى تقرير الشرشيمى حاشية إبراهيم الشافعى الرشيدى بن السيد محمد الجارم ، وقد فرغ منها فى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٦٣ وقوبلت على نسخة حفيدة الشيخ محمد صالح الجارم الذى سنتحدث عنه ، وهذه الحواشى والتقارير مخطوطة تحت عنوان « تقرير الشرشيمى » بمكتبة جامعة الإسكندرية .

والشيخ إبراهيم الجارم ناقد مدقق ، وذواقة للشعر قديمه وحديثه ، وواسع الاطلاع والتحصيل على فنون شتى من الأدب والنحو والمعانى ، وله قصيدة فى التوسل برجال سلسلة أهل الطريق مطلعها :

إذا رمت فوزا بالمنى أيها الخلى ... فلازم دوام الذكر فى كل محفل

ونظم فيها جميع رجال التصوف ماضيهم وحاضرهم وختمها بهذه الأبيات :

توسل بهم فى كل خطب ونازل ... وكن فى حماهم كالأسير المسلسل
وآل وأصحاب ومن سار سيرهم ... مدى الدهر ماطاب المديح ولذلى
وما (الجارم ابراهيم) ينشد قائلا ... إذا رمت فوزا بالمنى أيها الخلى

وهى مطبوعة مع « مجموعة من القصائد التوسلية » بمطبعة دار السعادة بمصر واشتملت هذه المجموعة على القصيدة «الدمياطية» للشيخ نور الدين الدمياطى ، وقصائد الإمام البوصيرى ، والقصيدة « السعدية » لسيدى يوسف الحكيم الرشيدى ، وتولى ضبطها وطبعها جميعا الشيخ خليل درع الرشيدى ، وهكذا نرى ثلاثة من متصوفة رشيد فى هذه المجموعة أحدها خليل والآخران يوسف الحكيم الرشيدى وإبراهيم الجارم الرشيدى ، أما القصيدة السعدية فمطلعها :

يا سعد لك السعد إن مررت على البان

ـ محمود الجارم ـ

وهو محمود بن ابراهيم الجارم ، ولد برشيد سنة ١٢٢١ ﻫ ونشأ شافعيا كأبيه ، وأفتى وتولى نقابة الأشراف برشيد ، والإمامة والخطابة بجامع المحلى ، وتوفى ضحوة عيد الأضحى سنة ١٢٨٨ ﻫ ودفن بمدفن العائلة برشيد ، ومما يعرف عنه أنه كان شاعرا فقد رثى الشيخ محمد البنا عند وفاته فى ٦ شوال سنة ١٢٨٥ .

ـ أحمد الجارم ـ

الشيخ أحمد بن محمود بن إبراهيم الجارم الرشيدى ، ولد برشيد سنة ١٢٦٤ﻫ وتوفى بها سنة ١٩٢٨ م ، ضرب به المثل فى التقوى والإصلاح والزهد والبراعة فى الوعظ والإرشاد ، تلقى الفقه عن عمه الشيخ عبد الفتاح الجارم ، ونشأ شافعياً ، وجلس للتدريس كأبيه وجده وأعمامه ، قضى والده فى إمامة جامع المحلى برشيد ٢٧ عاما وجده مثلها ، أما هو فقد سلخ فيها ٥٤ عاما ، وكان يكره المشى فى السوق نهارا ، لهذا شق لنفسه طريقا خاصا بين منزله ومسجده ، حتى لايسمع مايكره مما يدور فى السوق .

وقد شرح قصيدة الشيخ محمد صالح الجارم فى مدح الرسول ، ودل بذلك على سعة طلاعه وغزارة علمه ، وإلمامه بالتاريخ والسيرة والأدب والنحو والفقه والبلاغة ، وله رسالة فى التوحيد وله أيضا « سبيل السعادة » فى الفقه بخط يده وعليه شرحه أيضا وهما بمكتبة المحلى برشيد .

وقد عرف عنه أنه كان يتصدر للتدريس بهذا الجامع على النحو التالى : درس فى الفقه بعدطلوع الشمس إلى صلاة الضحى ، ودرس فى النحو بعدطلوع الظهر ، ودرس فى التفسير أو التوحيد بعد صلاة العصر ، ودرس فى الحديث بعد صلاة المغرب .

وكان تجار الشام وعلماؤه يقصدونه برشيد للتبرك ، والإفادة منه .

— أبو الفتح الحنفى —

ذكره أحمد تيمور فى « تراجم أعيان القرن الثالث عشر » وهو الشيخ محمد أبو الفتح الحنفى مفتى الإسكندرية المتوفى بداره بها فى ٦ صفر سنة ١٢٩٠ وهو جد الشيخ حسن منصور لأنه درس بالأزهر على الشيخ الصاوى ، وانتقل إلى رشيد وتزوج بها من كريمة السيد عباسى من أعيانها ، ولازم الشيخ البنا الكبير الذى انتقل معه إلى الإسكندرية ، وانتخب أمينا للفتوى بها بعد وفاة مفتيها الشيخ الدويرى فخلفه البنا فى منصبه ، ونقل أبو الفتح إلى منصب آخر .

كان مشغوفا بجمع الكتب واقتنى نفائسها والساعات المتنوعة ، ومن مؤلفاته « تبويب الأشياء والنظائر » لابن نجيم ، وكان بارعا فى علم الميقات ، وشرع فى وضع كتاب عن الفقه ولكنه مات قبل أن يتمه ، وقد رثاه قاضى الإسكندرية الشيخ عبد الرحمن الإبيارى .

— عبد الفتاح الجارم —

وهو ابن إبراهيم الجارم ، ولد برشيد سنة ١٢٤٢ هـ ، تفقه حنفيا ، وبرع فى الشريعة والسياسة والأدب ، وقرأ بعد والده المجالس فى ليالى المواسم بجامع المحلى ، وتولى نقابة الأشراف برشيد بعد وفاة أخيه محمود ، وأفتى برشيد على المذهب الحنفى ، ثم انتقل إلى دمياط والمنصورة ثم عاد إلى رشيد ، وظل يتولى الإفتاء بها حتى توفى فى ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٠٠ ودفن بها .

ومن مؤلفاته : « شرح على لامية البوصيرى فى المديح » ، جمع فيه بين العقل والنقل ، وقد اطلعت عليه بخط ولده الشيخ محمد صالح الجارم ، وأفاض فى الشرح وأبدى سعة اطلاع وبراعة تعبير فى التعليق على البوصيرية التى مطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول　　　وأنت عن كل ماقدمت مسئول

وقد يستغرق شرح البيت الواحد عشر صفحات ، لهذا جاءت المخطوطة ضخمة للغاية ، ولكنها غزيرة العلم جمة الفائدة ، وله أيضا شرح على لامية ابن الوردى فى المواعظ والنصائح ، وحاشية على منظومة لسيد على الصيرفى فى التوحيد ، ورسالة فى أركان الدعوى الشرعية وشروطها على مذهب أبى حنيفة ، وبها بعض محاضر وسجلات .

ورسالة فى المطلقة بالحرام المراجعة عند الشافعى بعد الثلاث أو مادونها وهى بخط الشيخ محمد صالح الجارم سنة ١٢٨٧ أطلعنى عليها الدكتور عمر الجارم ، ورسائل أخرى تتعلق بالمواسم وغيرها ، وشرح على « مغنى اللبيب » ، وشرح على الاشباه والنظائر الفقهية ، لابن نجيم .

ـ الأمير الرشيدى ـ

ذكره البغدادى فى « الهدية » وهو محمد بن عبد الله بن عبد الواحد الأمير الرشيدى المتوفى سنة ١٢٩٥ وله : « السر المذاب للرجل الكذاب المسمى بعلى الخشاب الجاهل المرتاب » .

ـ محمد صالح الجارم ـ

الشيخ محمد صالح الجارم الرشيدى الحنفى المذهب الحسنى ابن عبد الفتاح ابن إبراهيم بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد المحسن الجارم الرشيدى، ولد برشيد سنة ١٢٦١ ه ، وحفظ بها القرآن ، وتلقى العلم عن والده عبد الفتاح الجارم وعمه محمود الجارم ، وغيرهما من كبار العلماء أمثال : عبدالقادر الرافعى والشمس الأنبابى ، والإشراقى وعزو السقا ، أخذعنهم العلوم الشرعية والحساب والهندسة والميقات والفلك ، ثم عاد إلى بلده ، ولما خلت وظيفة الإفتاء بمحافظة رشيد عقب وفاة والده ، أسندت إليه ، ثم ألغيت محافظة رشيد فانتقل لقضاء مركز دمنهور سنة ١٣١٥ ، وبعدثمانية شهور تولى قضاء مديرية الجيزة ثم الفيوم ، ثم البحيرة ثم الشرقية ، ومات بالزقازيق فى ٧ محرم سنة ١٣٢٨ ، ونقل جثمانه إلى رشيد ودفن بمدافن العائلة بها .

وكان قاضيا فاضلا مشهودا له بالأمانة والنزاهة ، وكان شاعرا ناثراً ، وله قصيدته المشهورة فى مدح الرسول عليه السلام بلغت ثلاثة وتسعين بيتا ومطلعها :

حنت قلوصى للفسيح الفدفد   فاستبشرت برحاء قلبي الأكمد

وقد شرحها الشيخ أحمد بن محمود بن إبراهيم الجارم شرحا مسهبا ، وطبع الشرح بالقصيدة سنة ١٣٤١ بمطبعة السعادة بالقاهرة على نفقة السيد محمد عثمان طبق عمدة رشيد .

وله من المؤلفات القيمة « التزام الملتزم » وهو الزيادة التى أضافها على تراجم ابن عزم التونسى فى « دستور الإعلام بمعارف الأعلام » الذى انتهى بزيادات رمضان حلاوة السكندرى ، تحت رمز (ض) ، وبقى حتى رمضان حلاوة مخطوطا بمكتبة بلدية الإسكندرية إلى الآن . ولعل آل الجارم الكرام يمكنونا من الحصول على زيادة الشيخ محمد صالح الجارم التى برمز (صح) ، حتى نستطيع أن نقوم بطبع هذا الكتاب النادر الذى يدل على تعاون المؤلفين فى التراجم كابرا عن كابر ، والأمل معقود بعد ذلك على أولى أمر الثقافة فى مصر لإظهار هذا النوع من التأليف إلى ضوء النهار للانتفاع .

وفضلا عن براعة الشيخ محمد صالح الجارم فى التراجم والتاريخ ، فإنه كان مبدعا فى سائر الفنون ، فله : « الروض المريع فى فن البديع » و « حسن الإيجاز فى إيضاح الألغاز » و « إرشاد اللاه لشرح أسماء الله » و « حسن السلوك لسير الخلفاء والملوك » و « حاشية على قصة المعراج للغيطى » وحاشية على الأجرومية » ومنظومة فى النحو سماها « الرشيدية » نظمها على لسان ولده محمد مأمون الجارم ، و(التحفة الزهرية على الفواكه البدرية) فى الفقه ، وتقع فى مجلدين ، شرح فيها رسالة أبى اليسر محمد بن محمد بدر الدين بن القرس المصرى الحنفى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ كتبها بخط يده وهو قاض بالفيوم وفرغ منها سنة ١٣١٩ = سنة ١٩٠١م ، وقد اطلعت على نسختين لها من الجزء الأول لدى أسرة الجارم ، ثم اختصره بعنوان (المختصر الجانى الزهرية على الفواكه البدرية) وهو مطبوع وله رسالة فى استبدال وقف الذمى وأخرى فى بناء بعض الأحكام على العرب ، وله ديوان شعر ، فضلا عن القصيدة الرائعة التى كتبها فى مدح الرسول عليه السلام ، وشرحها الشيخ أحمد الجارم كما سبق القول .

هذا وقد كان جده لأمه الشيخ محمد صديق البسيونى المفتى الشافعى صاحب (مفتاح الإفادة لسبيل السعادة) فى فقه العبادات على المذهب الشافعى .

وكان الشيخ يرد أحيانا بالفتوى شعراً كما كان يفعل العلامة الأمير ، بأسلوب واضح لاغموض فيه كأنه نثر رقيق :

ـ السيد أحمد الرشيدى ـ

ورد ذكره فى الوقائع المصرية فى ٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٨ بأنه سافر فى ٢٦ صفر سنه ١٢٤٨ هـ مع الشيخ السيد حسين غانم من مصلحى الترجمة بمدرسة الطب إلى أوروبا مع كلوت بك .

ـ محمد نعمان الجارم ـ

هو محمد نعمان بن محمد صالح الجارم وشقيق الشاعر على الجارم ، كان قاضيا بالمحاكم الشرعية ، وكان قاضى قضاة السودان ، وله بحوث قيمة منها ‹أديان العرب فى الجاهلية › طبع سنة ١٩٢٣ وهو والد المهندس حسان الجارم .

ولد برشيد ثم غادرها للالتحاق بالأزهر ، ولما فتحت مدرسة القضاء الشرعى أراد أن يلتحق بها ، غير أنه كان قـــد تجاوز السن القانونية ، فشكا ذلك إلى عمه إبراهيم الجارم عمدة رشيد فقهقه ضاحكا ، فتأثر صاحبنا وسأل عمه مستنكراً : أشكو إليك محنتى فتسخر منى ؟ قال : لا ، ولكنى وجدت الحل ، وهو أنه كان لى ولد اسمه أيضاً محمد نعمان الجارم ، وقد توفى إلى رحمة الله وعندى شهادة ميلاده وهو يصغرك بخمس سنوات ، فخذ شهادة ميلاده إذ الاسم واحد وتوكل على الله . وبهذا التحق بالقضاء الشرعى ، ثم تخرج فعين أولا قاضيا فى دنقلة بالسودان سنة ١٩١٧ ثم عاد إلى مصر وتنقل فى مناصب القضاء ، ثم صـــار قاضى قضاة السودان من سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٤٢ وخلفه الشيخ حسن مأمون وهو آخر مصرى تولى هذا المنصب فى السودان . وهناك فى الخرطوم توجد « حديقة الشيخ الجارم » تخليداً لذكراه فى القطر الشقيق ، واعترافا بفضله وبحوثه الشرعية التى كان يلقيها هناك .

وقد توفى إلى رحمة الله فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٣ ودفن برشيد .

ـ أحمد زكى باشا شيخ العروبة ـ

ذكره الزركلى فى « الأعلام » وقال إنه ولد بالإسكندرية سنة ١٢٨٤ هـ وتوفى سنة ١٣٥٣ هـ (٩٣٣. م) ولم يذكر أنه من رشيد ، فى حين أن أسرته وأقاربه بل وورثته لا يزالون إلى الآن برشيد ويؤكدون أنه منها .

وكان كاتم سر مجلس النظار (سكرتير عام مجلس الوزراء) فى وزارة رشدى

باشا، وكان يكتب مقالات لاذعة ضد عدلى يكن، متحمسا لسعد زغلول، ولكن مجلة «الكشكول» تصدت للرد عليه وعلى سعد زغلول.

ومما يروى عنه أنه دخل مجلس النظار وعلى رأسه الطربوش المغربى الذى يرتديه عربان البحيرة، فأنكر عليه ذلك رشدى باشا فقال له شيخ العروبة: لقد آن للعرب أن يتحرروا، والطربوش تركى، أما هذا الطربوش المغربى فهو لبس العرب. ولكن رشدى باشا غضب وخيره بين الاستقالة أو لبس الطربوش المعتاد.

وكان يسكن دارا بالجيزة على النيل بالقرب من كوبرى عباس، وخلف مكتبة قيمة تحتوى على ذخائر ثقافية نادرة بلغت ٤ ألف مجلد، أهداها إلى الحكومة حيا ثم نقلت إلى مسجد الغورى أولا ثم إلى دار الكتب المصرية والمعروف أن داره كانت على الدوام مقصد رجال العروبة القادمين على مصر من الأقطار الشقيقة، وكان أول من نادى بالوحدة العربية فى العصر الحديث.

ـ الدكتور أحمد عيسى ـ

ذكره كحاله فى «معجم المؤلفين»: وهو الدكتور أحمد عيسى، ولد برشيد سنة ١٢٩١ وتوفى بالقاهرة فى سنة ١٣٦٥ (= ١٩٤٦ م) وكان طبيبا وعالما باللغة العربية ومؤرخا كبيرا نشأ صغيرا ببلده ثم تعلم بالمدرسة الخديوية ثم درس الطب بالقاهرة، وتخصص فى أمراض النساء واشتغل بالطب الباطنى، كما تعلم اللغات السامية واليونانية، واللاتينية، وكان عضوا فى جمعية الهلال الأحمر، وعضوا فى المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية، وعضوا بمجلس الشيوخ، وعضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق، وعضوا بالأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس.

ومن مؤلفاته «معجم الأطباء»، و«معجم أسماء النبات»، وكذلك «التهذيب فى أصول التعريب»، و«صحة المرأة فى أدوار حياتها»، و«المحكم فى أصول الكلمات العامة».

وقد عملت عن الدكتور أحمد عيسى بحوث عدة يستطيع القارىء أن يطلع عليها عند الزركلى فى «الأعلام»، وسركيس فى «المعجم»، وفى مجلة «الرسالة» الزياتية ومجلة «الكاتب المصرى»، و«المقتطف»، و«لغة العرب»، و«المجلة الجديدة».

- على الجارم -

ذكره كحالة فى « معجم المؤلفين » ومحمد عبد الجواد فى «تقويم دار العلوم» ، وهو على بن محمد صالح بن عبد الفتاح الجارم ، ولد برشيد سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) ، درس بالأزهر وتخرج فى دار العلوم سنة ١٩٠٨ ، وبعثته الحكومة إلى إنجلترا فقضى سنة بمدينة نوتنجهام ، ودرس الإنجليزية بها ، ثم التحق بكلية المعلمين بإكستر ، حيث قضى ثلاث سنوات ، فدرس علوم التربية والأدب الإنجليزى وعلم النفس والمنطق ، وعاد إلى مصر فى أغسطس سنة ١٩١٢ ، فعين مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة ، ثم مدرسا لعلوم التربية بدار العلوم ، وفى ٣ مايو سنة ١٩١٧ صار مفتشا بالوزارة ، ثم كبيراً لمفتشى اللغة العربية حتى سنه ١٩٤٠ ، فوكيلا لدار العلوم ، وأحيل إلى المعاش سنه ١٩٤٢ ، وعين عضوا بمجمع اللغة العربية منذ إنشائه سنة ١٩٣٢ ، وعضوا بالمجمع العربى بدمشق .

وأنعم عليه بوسام النيل الخامس سنة ١٩١٩ ، وبالرتبة الثانية سنة ١٩٣٥ . والبكوية من الدرجة الأولى سنة ١٩٤٢ ، وأنعمت عليه حكومة العراق بوسام الرافدين سنة ١٩٣٦ ، والجمهورية اللبنانية بوسام الأرز سنه ١٩٤٧ ،

توفى يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٩ وهو يستمع إلى قصيدته فى تأبين محمود فهمى النقراشى باشا ، حينما كان ولده بدر الدين الجارم يلقيها نيابة عنه لمرضه ، فمات وقتها بالسكتة القلبية ، ودفن بالقاهرة .

ومن المشهور عنه أنه كان يلبس العمامة ، فلما سافر إلى أوروبا استبدل بها القبعة ، فأرسل صورته إلى أهله ، وكتب عليها يقول :

لئن تك فرقت منا الليالى ... وحال البعد دونكمو ودونى

فهذا رسم صاحبكم ولكن ... «متى أضع العمامة تعرفونى»

واشترك رحمه الله فى المؤتمرات العربية التى كانت تعقد فى دمشق وبغداد ، وكان شعره سفيرا للقومية العربية ، وقد كنت طالباً بالمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية وكان يحضر للتفتيش ، وأسمعه من شعرى وأنا طالب فيطرب ويشجعنى ومن مؤلفاته : (النحو الواضح) و (البلاغة الواضحة) ، و (علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم) بالاشتراك مع مصطفى أمين بك ، (وتصحيح وشرح

(البخلاء للجاحظ) بالإشتراك مع أحمد العوامرى بك، (وتصحيح وشرح المكافأة) بالاشتراك مع أحمد أمين بك ، (وتهذيب كتاب الفخرى) فى التـــاريخ مع محمد عوض إبراهيم بك ، واشترك مع غيره فى (المجمل) و (المفصل) و(المنتخب) وكلها من الكتب الأدبية المقررة على مدارس التعليم الثانوى ، وله (قصة العرب فى أسبانيا) و (غادة رشيد) و (شاعر ملك) و (سيدة القصور) و (فارس بنى حمدان) و (الشاعر الطموح) و (خاتمة المطاف) و (مرح الوليد) و (ديوان الجارم) فى أربعة أجزاء ، نشر منها مقتطفات بعنوان (سبحات الخيال) سنة ١٩٦٢، وكانت قصائده تنشر فى الأهرام والمصرى والكتاب، والرسالة ، والثقافة وغيرها من الصحف والمجلات ، وكانت له أحاديث أدبية فى الأذاعة المصرية ، ويغلب عليه أثناء إلقائه الشعر الروح العربية الأصيلة .

هذا وقد أشاد عبد العزيز فهمى باشا [1] بفضل على الجارم زميله فى مجمع اللغة العربية على اللغة فى أبيات كتب بها إلى المستشار أحمد الجارم يقول :

آخيت منكم (عليا) وهو يحرسها ... يقظان يرقبها الآحاد والجمعا
كأنها بنتـــه الحسنى تجهـــزها ... لابن الأمير فيعطى كل ماجمعا
كنـــا نراه إذا وافى بمجلسنا ... منار علم وخلق بيننا رفعا
حتى إذا انتضل الإخوان أسمعهم ... فصل الخطاب فأعصاهم له خضعا
قـــد عاش للغة العليـا يقررها ... طورا قياساً وطوراً كالذى سمعا
وبينما هـــو يمشى فى مناكبها ... جذلان ناداه داعى الحق فاستمعا
عين تزوت فقالوا إنها نضبت ... لكنها اختلطت بالنبع فاتسعا

وتمضى الأبيات فى الإشادة بولده بدر الدين ثم بأحمد الجارم المستشار ، وثغر رشيد الذى أطلع الكواكب اللامعة من آل الجارم وهم خدمة الأدب ، وسدنة الفصحى .

(١) قصيدة عبد العزيز فهمى باشا : لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ـ فتحى الجارم ـ

وهو الشاعر الزجال والوطنى الغيور والاجتماعى النشيط.. عبد الفتاح الشهير بفتحى بن الشيخ عبد المحسن بن الشيخ محمد صالح الجارم .

ولد برشيد فى ٢٠ إبريل سنة ١٩٠٩ ، وظهرت عليه أعراض مرض ورثه عن جده لأمه السيد أحمد موسى عمدة رشيد الأسبق ، فنعه من الالتحاق بالمدرسة فتعلم من أبيه الأدب ونظم الشعر ، وكان يسمى (شاعر رشيد) فقد كان خطيب كل حفل، وشاعر كل مناسبة ، وزجال كل محفل ، وكان مراسلا لجريدة (الأهرام) أكثر من عشرين سنة ، وأولع بكتابة القصة المستوحاة من أمجاد بلده ، وجمال مناظره فكتب (الفتاة المجاهدة) استمدها من هزيمة الأنجليز برشيد سنة ١٨٠٧ ونشرتها (الأهرام) واشتغل بالسياسة ، واعتقل أحيانا بسبب وطنيته حتى قامت ثورة سنة ١٩٥٢ ، وقدم رجالهـــا إلى رشيد فى ٣١ مارس سنة ١٩٥٣ يحيون بطولة أهل رشيد ، فحياهم بزجله الرقيق :

يانبـــع جارى بيحيي	الأرض بعـد العـدم
يارحمـــة نزلت علينـا	شفت جـروح الألم
يابنـــا ماهـــر بيبنى	الركن اللى انهـــدم
ياكف عيسى بيحيي	الروح ويحيي الرمـــم
انقذ قوام يا (جمال)	الشعب اللى انظـــلم
واحنـا وراك الجنود	وانت أمامنا الـــعلم

وكان فتحى الجارم مغرما بالخدمة الاجتماعية ، فكون هيئة لإغاثة المهاجرين إلى رشيد أثناء الغارات على الإسكندرية سنة ١٩٤١ وهيأ لهم كل أسباب الراحة، واشترك فى الجمعيات الخيرية والدينية والأدبية والرياضية برشيد ، ونظم الأناشيد لمدارسها ولحن بعضها بنفسه وأسس رابطة الفن والموسيقى ، وكان عضوا بالمجلس البلدى بالمدينة ، وله مقالات رائعه فى الأهرام. وتوفى عليه رحمة الله فى ٥ مارس سنة ١٩٥٥ وترك ديوان شعر وزجل سيكون فى نشره ذخـــر كبير للأدب الشعبى والشعر الوطنى ، ولا شك أن صديقنا الطبيب الشاعر الدكتور عمر الجارم شقيق الموحوم فتحى الجارم، سيعمل فى أقرب فرصة على إحياء هذا التراث الفنى الرائع.

ومن شعره (عشت فى دنيا الخيال) وهى آخر ما كتب سنة ١٩٥٥ وكان مريضا وكأن جمال رشيد ظل يداعب خياله وهو فى مرضه فقال :

فى شراع الحب والموج جميل ورشاش الماء صاف كالحبب
ضمنا فى هيكل الحب أصيل أحمر الألوان فياض اللهب
وطيـور صادحات بالهديل فنعمنـا بجمـال وطرب
بين أنسام وماء وعيــون جاريه
ونخيــل بالعراء ومروج زاهيــه
وكعاب وظبـاء حملــتهم جاريه
تسبق الأفواه إذ تبغى اقترابى وخرير المـاء فياض الحنين
أطفأ السقم مع الهم شبابى وكسا وجهى باللون الحزين

وقد التقيت به كثيرا فى المناسبات القومية بإدكو ورشيد وسمعته وهو يلقى أزجاله الشعبية والوطنية التى كانت تهز الجماهير هزا ، بما كان يضمنها من دعابات رقيقة ، وأساطير شعبية كان لها فعل السحر فى نفوس المستمعين ، حتى إنهم كانوا يرددونها فيما بينهم بمجرد انتهائه من إلقائها لخفة روحها ، وسلاسة أسلوبها .

ـ عبد الله بن محمد بن صالح البناء الرشيدى ـ

وهو ناسخ مجموعة خليل الخضرى الرشيدى المعروفة (سبعة وثلاثون مجلسا) وهو رشيدى الأصل سكندرى الإقامة حنفى المذهب ، خلوتى الطريق، انتهت إليه رياسة السادة الخلوتية بالإسكندرية، وكان يقيم الحضرة لإخوانه بمسجد أبى العباس المرسى ، وكان إماما بمسجد البوصيرى ، ويسكن قريبا منه، وعرفت عنه كرامات، وتوفى فى ٣٠ ربيع الأنور سنة ١٣٤٧ هـ بالإسكندرية عن أكثر من تسعين سنة، وكان له ولدان السيد حسن رئيس محكمة الإسكندرية الشرعية الذى توفى قبل أبيه بشهر والسيد عبد الفتاح الذى كان أمين مكتبة المعهد الدينى بالإسكندرية .

والشيخ عبد الله مدفون بمسجد المغاورى بجوار والده ، ومن فوقه مدرسة ، وقد أخذ الطريق عن أبيه ، كما أن كثيرين من متصوفة إدكو ورشيد والكنايس وكفر الدوار أخذوا عنه الطريق الخلوتى .

- عبد الحميد العبادى -

والعبادى نسبة إلى (منية عباد) بالغربية ، وقد سكنت هذه الأسرة مدينة رشيد واستوطنتها ، وبها ولد الأستاذ عبد الحميد العبادى فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٢ ، وانتقل مع الأسرة إلى الإسكندرية فتعلم بمدارسها وتخرج من المدرسة العباسية الثانوية بها ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة وتخرج منها سنة ١٩١٤ ، كما حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٢٨ .

وتولى عدة مناصب فى حياته ، إذ بدأ بالتدريس بمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، فأستاذا للتاريخ بمدرسة القضاء الشرعى ، ثم بكلية الآداب عند إنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ حيث اختير أستاذا للتاريخ الإسلامى ثم عميدا لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سنة ١١٤٢ ، وشغل كرسى التاريخ الإسلامى بجامعتى القاهرة والإسكندرية مع ندبه للعمل فى كثير من الجامعات والمعاهد العلمية فى مصر وخارجها ، فعمل بالجامعة الأزهريه وكلية دار العلوم وكلية الآداب بجامعة عين شمس ، ودار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٤٢ ، ولما بلغ سن المعاش عين أستاذا للتاريخ فى معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية .

وكان أحد الأعضاء المؤسسين للجنة التأليف والترجمة والنشر وعضوا بمجمع اللغة العربية ، وعضوا مراسلا بالمجمع العلمى العربى بدمشق ، وممثلا لمصر فى عدة مؤتمرات دولية وأخصها مؤتمرات المستشرقين ؛ والمؤتمرات التاريخية ومؤتمر الفردوسى .

وتوفى رحمه الله فى ٣ أغسطس سنه ١٩٥٦ بعد جهاد مشرف فى سبيل العلم والأدب .. فقد كان رحمه الله مثال الأستاذ المتواضع مع الناس ومع زملائه وتلاميذه ، ودیعاً هادىء الطبع وكان يمزج التاريخ بالأدب فى محاضراته القيمة ، وله عدة مؤلفات وبحوث نشرت فى (الرسالة) و (الثقافة) وغيرهما من كبريات المجلات العربية جمعت أغلبها فى كتبه ، واشترك مع زميله المرحوم أحمد أمين فى وضع كتاب (فجر الإسلام) وله (صور وبحوث من التاريخ الإسلامى) فى جزءين أولها فى الدولة العربية والآخر فى عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس ، وترجم بالاشتراك مع محمد بدران كتاب (المسألة المصرية) لروذستين ، واشترك مع الدكتور طه حسين فى تحقيق ونشر كتاب (نقد النثر) لقدامة بن جعفر ،

وترجم عن الإنجليزية كتاب « علم التاريخ » لهرنشو، وقدمه بفصل قيم عن التاريخ عند العرب ، ونشرت محاضرته بعد وفاته فى كتاب « مجمل تاريخ الأندلس » وراجع الترجمة العربية لكتاب « الحضارة الإسلامية » .

وقد حظيت بشرف التلمذة على يديه ، وحرصت على الاستماع إليه قبل أن أتخرج فى كلية الآداب ، والتقيت به مرارا فى الإسكندرية ، وأفدت من علمه الغزير ، كما أنه كان شاعرا مجيدا ، فقد نشرت له « الهلال » قصيدة رائعة عن « سقراط » .

وأنجب العبادى عددا كبيرا من كبار المؤرخين المعاصرين ، الذين فقدوا بوفاته ركنا هائلا فى صرح التاريخ الإسلامى ، أما أولاده فهم الدكتور مصطفى خريج جامعات إنجلترا فى التاريخ أيضا، وكريمته السيدة سنية تقوم بتدريس التاريخ بمدارس البنات .

هذا وقد أصدرت كلية الآداب بجامعة الإسكندرية عددا خاصا من مجلة كلية الآداب (مجلة ١٤ فبراير سنة ١٩٦٠) وأهدى الباحثون بحوثهم إلى روح الفقيد عرفانا بفضله ، وتخليدا لذكراه .

ـ أحمد عبد المحسن الجارم ـ

ولد برشيد فى ٢ يوليو سنة ١٩٠٠ ، وأتم تعليمه الابتدائى بها ، ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة ثم تخرج فى مدرسة الحقوق السلطانية ، ولما شبت ثورة سنة ١٩١٩ عاد إلى بلده ، فأشعل حماسة مواطنيه وقاد مظاهراتهم ، وخطب فى جماهيرهم ، ثم قبض عليه وسجن بالحدراء بالإسكندرية ، وكان يعتبر رقمه كسجين وساما وطنيا شريفا .

وتخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٤ وكان ترتيبه الثانى فى الناجحين فعين معاونا لنيابة طنطا ، وتدرج فى مناصب النيابة والقضاء ، حتى أصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف سنة ١٩٤٨ ، وأنعم عليه برتبة البكوية من الدرجة الأولى سنة ١٩٥٠ ، ثم صار وكيلا لمحكمة الاستئناف بالقاهرة ، وتوفى يوم ٣ يوليو سنه ١٩٥٨ ودفن برشيد .

وله عدة بحوث قانونية وأحكام منشورة فى مجلة « المحاماة » كما أنه كان أديبا شاعرا وزجالا ، وكان بينه وبين عبد العزيز فهمى باشا مساجلة شعرية ، ونشرت له « الأهرام » فى ١٢ مارس سنة ١٩٥٠ هذه الأبيات يواسى بها عبد العزيز باشا فهمى فى شيخوخته :

يامن رشفنا شعره ... فإذا هو العذب الفرات
قد راق فى عين الزمان ... ولم يعكره انبتات
قد صغته ونظمته ... فالعقل ليس به شتات
ولكم نظمت قلائدا ... فى الفقه هن المرشدات
يمشى على أضوائها ... السارى ويأتم القضاة
لاتبتئس إن لم تطق ... صوما وإن فاتت صلاة
يكفيك فضل العبقرية إنه نعم الزكاة
عش سالما واهنأ فمثلك ترتوى منه الحياة

فرد عليه عبد العزيز باشا بقصيدة رائعة أشاد فيها بمجد آل الجارم وفضلهم على اللغة العربية مبتدئا بالشاعر المجيد على الجارم زميله فى مجمع اللغة وثنى بولده الشاعر المبدع بدر الدين الجارم، ثم أحمد الجارم القاضى ، فقال :

ياسيدى (الجارم) المشكور ماصنعا ... إنى أرى الناس فى الفصحى لكم تبعا
خدمتموها على التعقيب فانكشفت ... آفاقها وسناها فى الورى سطعا
آخيت منكم (عليا) وهو يحرسها ... يقظان يرقبها الآحاد والجمعا

ومنها بعد الإشادة بذكر على الجارم :

لما نأى اختط « بدر الدين » خطته ... وواصل البر بالفصحى فما انقطعا

ثم قال :

غبطت (ثغر رشيد) إذ لحظت به ... فى إثر شمس (على) كوكبا طلعا
والآن أغبطه منى بلا حرج ... فكل آل (على) عز وارتفعا
وأماترى (الجارم القاضى) انتضى قلما ... يسيل بالدر مما اختاره ووعى

أعــلام إدكو

« الإدكاوى » نسبة إلى « إدكو » ، وأحيانا يقال « الإتكاوى » لأن « إدكو » كانت تكتب وتنطق هكذا : « إتكو » ، وقد رأينا النسبة هكذا : « الإدكوى » ، أما « الإيدكاوى » فلاتمت إلى « إدكو » بأية نسبة ، لأن « إيدكو » ملك من ملوك الأتراك مات سنة ٨١٤ هـ ، و « إيدكى » الجاركسى الأشرفى بارسباى قتل فى موقعة (سوار) سنة ٨٧٢ هـ ، و « إيدكى » أيضا هو الذى ينسب إليه الظاهر جقمق ، ومات سنة ٨٥٣ هـ ، وهناك فى الجزء الثانى من « الضوء اللامع » شخصيات مثل شاهين الإيدكاوى .

على أن السخاوى قد أورد فى صفحتى ١٨٣ و ٢٧٥ من الجزء الحادى عشر بكل وضوح أن (الإدكاوى نسبة لإدكو بالقرب من الساحل) وسرد مجموعة من أعيان القرن التاسع ينسبون إلى إدكو ، منهم من توسع فى ترجمته ، ومنهم من ذكر اسمه فقط على الثبت الآتى :

١ - إبراهيم بن عمر بن محمد الإدكاوى ٢ - أحمد بن على بن موسى أبو يوسف الإدكاوى ٣ - رمضان بن عمر بن مزروع الإدكاوى ٤ - سلامة بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم الإدكاوى ٥ - ابنه الشمس محمد بن سلامة الإدكاوى ٦ - تلميذه القاضى عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد بن محمد الإدكاوى ٧ - محمد بن أحمد ابن أبى بكر الإدكاوى الفوى ٨ - ابنه عطاء الله الإدكاوى ٩ - محمد بن سيف الدين المقرىء الإدكاوى الذى إجازته عند ابن سلامة ١٠ - أبو بكر ابن أحمد بن أبى بكر بن محمد بن وهيب الإدكاوى ١١ - محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الوهاب وهيب البرلسى التاجر .

- مكاريوس أسقف إدكو -

وضع البابا (ديوسقورس) وهو البطريرك الخامس والعشرون للأقباط الأرثوذكس كتابا عنوانه « تاريخ القديس مكاريوس أسقف إدكو » كما ورد ذكره فى « تاريخ الجامع » للنبجى ، وأرمانيوس حبشى فى « ديوسقوريس » .

وإذا كان ديوسقورس قد توفى سنةم ٤٥٠ ، فإن مكاريوس قد توفى قبله

بعدة سنوات فقط ، وكان من الطبيعى أن يكتب ديوسقورس عن مكاريوس مع أن الأول كان لايتكلم إلا اليونانية ، والآخر لايتكلم إلا القبطية الريفية .

ودعى ديوسقورس إلى حضور (مجمع أفسس) بالقسطنطينية ، فلما هم بركوب السفينة من الإسكندرية ، رأى على البر شيخا طاعنا فى السن هو أسقف إدكو القديس مكاريوس . ودعاه للركوب معهم فأجاب بأنه على استعداد للذهاب إلى هذا المجمع ماشيا ، لولا أنه لايملك أجر السفر ، فقال إنه يدعوه باسم البطريرك ، فركب معهم ، ومالبث أن انزوى فى مؤخرة السفينة مع تلميذه (بينوتن) ، حتى دعاه البابا ديوسقورس للجلوس معه ، وكان المترجم بينهما بطرس سكرتير البطريرك .

وأبدى (تاويسطاس)الشماس بعض السخرية بالأسقف مكاريوس الذى لايعرف اليونانية ، ولكن البطريرك أفهمه مالهذا الأسقف من كرامة عند ربه .

ولما وصلت السفينة إلى القسطنطينية ، اشمأز شماس البطريرك من رؤية الثياب البالية التى يرتديها أسقف إدكو مما لايليق بمن يدخل على الملك فى قصره ، فرد عليه مكاريوس قائلا : صدقنى يابنى أن قلب الملك من الإيمان أقذر من ثوبى ، أما اللباس الحقيقى فهو لباس المجد الذى يكسونا إياه السيد المسيح .

ولما دخلوا على الملك أدرك ديوسقورس أن مكاريوس ليس معهم ، فقد منعه الحاجب بسبب ملابسه الرثة ، فأسرع إلى الباب وقال له : دعه يدخل لأن كتبى معه ، وانعقد المجمع ثم انفض ، وكان لديوسقورس فيه صولات وجولات ، مماجعل القائد (نقيطه) يدعوه إن أن ينزل ضيفاً عنده ، فقبل ، وكان بصحبته الأسقف مكاريوس ، وقد نقل ابن المضيف إلى ديوسقورس مؤامرة دبرها أساقفة المجمع بقتل الأسقف القبطى ، واستمر ديوسقورس بالقسطنطينية بينما عاد مكاريوس فى سفينة مع بعض التجار إلى الإسكندرية ، وقد ودعه ديوسقورس وداعا حارا ، طالبا منه أن يدعو له بالنجاة من براثن الذئاب ، إذ نفى إلى جزيرة (جاجرا) بإيطاليا بعد مجمع خلقدونية حيث مات بها سنة ٤٥٠ م .

وبعد وصول مكاريوس إلى الإسكندرية بشهر ، اجتمع بأصحابه فى دير

الزجاج» الذى بظاهر الإسكندرية ، فقدم إليهم رسول من الملك (مرقيان) برسالة تهديد لكل الرهبان الذين لايعترفون بقرارات مجمع خلقدونية ، والقائلة بأن للسيد المسيح طبيعتين : لاهوتية وناسوتية ، فاعترف بها (پروتاريوس) مقدم القساوسة ، وأقرها بعض رهبان الدير ، ولكن مكاريوس أنكر عليهم ذلك ، ولما طلب منه التوقيع رفض ، فركله رسول الملك برجله فمات لساعته ، وحمل جثمانه إلى كنيسة القديسين إليشع النبي ويوحنا المعمدان ، وقد بنى دير أبو مقار بوادى النطرون ، وضم رفات أبو مقار الكبير وأبو مقار الإسكندرية وأبو مقار إدكو (١) ، ولما بنى البابا تاوفيلس الثالث والعشرون كنيسة النبي دانيال بالإسكندرية على اسم اليشع النبي ويوحنا المعمدان نقل معهما جثمان مكاريوس أسقف إدكو ويسمونه أيضا (أبو مقار) .

ومما يحكى عنه أن قرية قريبة من إدكو كان أهلها يعبدون الأوثان ، ويخطفون أولاد المسيحيين ليذبحوهم ويقدموهم قرابين الآلهة ، فشكا إليه كهنة هذه القرية ، فذهب إليهم ، ولما هم بدخول الهيكل ، شرعوا سيوفهم فى وجهه ولكنه أصر على اقتحام الهيكل فصرخوا قائلين : ماشأنك بنا ، إن آلهتنا تخبرنا أنك تكرهنا فارحل عنا ، فقال : لا أرحل حتى تخبرونى لماذا تخطفون أبناء المسيحيين وتقدمونهم قرابين لآلهتكم ، فقالوا له : إن ماوصلك عنا كله كذب ، فقال : إذن دعونى أدخل المذبح ، ففتحوه ، فرأى عشرين رجلا يتقدمون إليه يريدون قتله ، وإذا بالباب (ويصا) تلميذ الأنبا شنوده ومعه أربعة عشر راهبا فقبضوا على الكاهن ومن معه ، وإذا بالنار تلتهم الأصنام وعابديها ، وخرج مكاريوس وترك المعبد طعمة للنيران ، التى التهمت رئيس الكهنة بالمعبد وكان اسمه (هوميرس) ، واندلعت ألسنة اللهب فى أصنام القرية ، واضطر الكثير من أهلها إلى اعتناق المسيحية .

هذه نبذة تاريخية عن أسقف إدكو الذى عرف له المسيحيون فضله فى القرن الخامس الميلادى أى قبل الإسلام بمائتى سنة ، ومن الصعب علينا أن

(١) ادكو كتبت بالقبطية (تكو Tkôou) فى كتاب : A Guide to the Monsteries of Wadi' N - Natrun لمؤلفه Burmester : P : 38

نعرف شيئا عن هذا المعبد الوثنى الذى كان قريبا من إدكو ، ولكننا نرجح أنه هو (الهرقليوم) عند (الطابية الحمراء) الواقعة غربى إدكو بنحو ستة عشر كيلو مترا والذى سبق أن تحدثنا عنه كثيرا فى عدة مواضع .

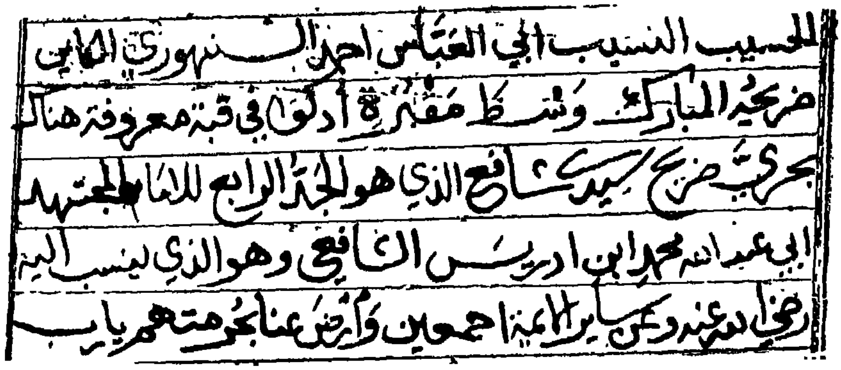
ومما يروى عن أسقف إدكو أنه كان إذا صعـــد المنبر فى إدكو للوعظ والإرشاد كان كثير البكاء على خطايا الناس . فيبكى ويستبكى .

وقد عثروا فى الفاتيكان على مخطوط قبطى ، تلقى ناسخه سيرة مكاريوس أسقف إدكو من لسان ديوسقورس أثناء نفيه إلى (جاجرا) ، ويتضمن هذا المخطوط قصة سفره إلى (مجمع أفسس) ، كما يحتوى على قصة مكاريوس أسقف إدكو ، وقد كتبتها بالإنجليزية مسز بوتشر سنة ١٨٩٧ وترجمها إلى العربية إسكندر تادرس ، ونشرتها جريدة « مصر » بعنوان : (تاريخ الأمة القبطية وكنيستها) .

ـ الصحابى الجليل شافع بن السائب ـ

الجد الرابع للإمام الشافعى

أجمع المؤرخون وأصحاب الطبقات والتراجم على أن الإمام الشافعى هو : أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن عبد يزيد بن هـــاشم بن المطلب بن عبد منـــاف القرشى . واشتهر بالإمام الشافعى نسبة إلى جده الرابع شافع بن السائب، المدفون بإدكو على رأس مقابرها من الناحية البحرية ، وله مقام متواضع ،كان منذ أكثر من خمسين سنة مسجدا واندثر .


الحسيب النسيب أبي العباس أحمد السنهوري الثابت
ضريحه المبارك وسط مقبرة أدكو في قبة معروفة هناك
بحري ضريح سيدي شافع الذي هو الجد الرابع للإمام المجتهد
أبي عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي وهو الذي ينسب إليه
رضي الله عنه وعن سائر الأئمة أجمعين وأرض عنا بحرمتهم يارب

السند الذى يذكر شافع بن السائب وهو الجد الرابع للإمام الشافعى ومدفون بإدكو

والدليل الوحيد - فى العالم كله - الذى يشير إلى أنه مدفون بإدكو، ينحصر فى وثيقة خطية تحت يدى هى سند لناقلها السيد مصطفى السمنى الإدكاوى وهو ابن محمد ابن حسن بن إبراهيم بن محمد بن أبى عبد الله محمد سيف الدين بن سلامة الملقب عريقات بن أبى العباس أحمد السنهورى، نقلها فى ١٢ رمضان سنة ١٢١٠ هـ عن السند الأصلى المؤرخ ٢٠ ربيع الأول سنة ٧٧٢ هـ المحفوظ عند أبى عبد الله محمد سيف الدين المدفون بضريحه الكائن غربى إدكو، فى قبة قريبة من مقبرة والده أبى العباس أحمد السنهورى وضريحه وسط مقبرة إدكو فى قبة تقع شمال ضريح سيدى شافع وهو الجد الرابع للإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى (كما ينص السند (انظر الجزء المنشور فى الصفحة السابقة).

والمعروف أن الإمام الشافعى ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ وهى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة، ونشأ الشافعى بمكة وانتقل إلى المدينة واليمن والعراق وصحب الإمام أحمد بن حنبل وقدم مصر سنة ١٩٩ هـ مع عبد الله بن العباس ومات سنة ٢٠٤هـ بدرب النخل ودفن بمقبرته التى تعرف بمقبرة الإمام بالقاهرة.

أما جده المشار إليه فقد ذكر المؤرخون عنه أنه لقى النبى صلى الله عليه وسلم وهو مترعرع أى أنه قدم مصر فى الفتح الإسلامى وأنه استقر بإدكو فى الموجة التى زحفت بعد الفتح من الإسكندرية إلى رشيد، وإدكو تقع فى المسافة بينهما.

وعلى ذلك يكون سيدى شافع المشهور بإدكو أول صحابى نزل بها، ودفن قبل غيره من المسلمين بها، ونرجح أن قبره الشريف كان أول نواة لجبانة المسلمين بهذا الثغر من جانبه الغربى القائم إلى الآن.

ومن ثمت دفن سائر الصالحين والصالحات، ففى السند المذكور ضريح الشيخ محمد سيف الدين وضريح والده الشيخ سلامة المشهور بعريقات وضريح الحسيبة النسيبة صالحة، وضريح أبى العباس أحمد السنهورى، ولكن للاسف الشديد ليس لدينا من المراجع مايرشدنا إلى التفاصيل.

- الشمس العمريطى -

ذكره السخاوى فى (الضوء اللامع) بالجزء السابع:

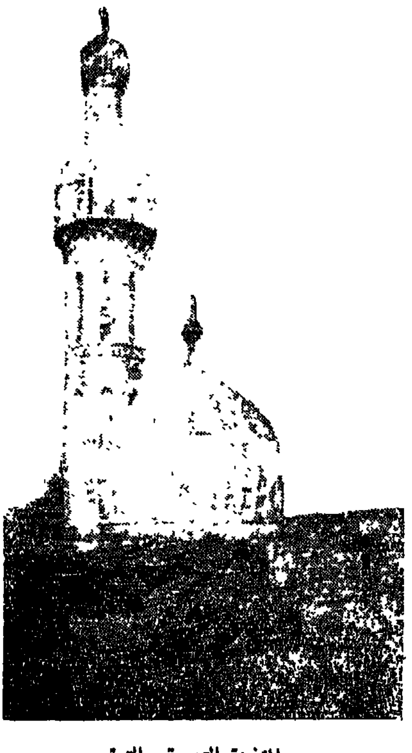
وهو محمد بن إسماعيل بن عمر بن مزروع الشمس العمريطى ثم القاهرى

الشافعى ، ابن أخى الشيخ رمضان الإدكاوى ، وقد ولد بعد سنة ٨٢٠ هـ ببلد يسمى (عمريط) بالشرقية . ثم أخذه عمه رمضان وسافر به وهو صغير إلى إدكو فأقام بها وحفظ القرآن ، وتلقن الذكر من شيخه وحفظ «المنهاج» و «الألفية» وغيرها ، وتزوج من ابنة عمه المذكور ، وأخذ القراءات عن بعض القراء ، وبرع فى الفقه والعربية ، وكان من شيوخه فى العربية الشهاب الحناوى ، وفى الفقه الشمس الونائى والشرف المناوى ولانتمائه إلى الشيخ ابن مصباح كان ابن أخته الزين عبد الرحيم الإبناسى يقرأ عليه فى القرآن وغيره وهو صغير ، وسمع على ابن حجر وغيره ، وقرأ على العلم البلقينى البخارى وغيره ، واختص بالبدر أبى السعادات البلقينى وبالولوى من تقى الدين وقرأ عليها فى الفقه والحديث وغيرها وناب عن هذا الأخير فى خزن الكتب بالباسطية وفى القضاء بجزيرة الفيل والمينة وشبرا ، وناب فى القاهرة عن العلمى وغيره ، وكتب بخطه الكثير ، وكان مداوما على التحصيل ، ومتدينا ومتحريا فى جميع أحواله ، وسافر مع الولوى حين تولى القضاء على نقابته بالشام ، فما لبث إلا قليلا بعد دخولها حتى توفى فى آخر سنة ٨٦٤ هـ فى حياة أبويه .

ـ إبراهيم بن عمر الإدكاوى ـ

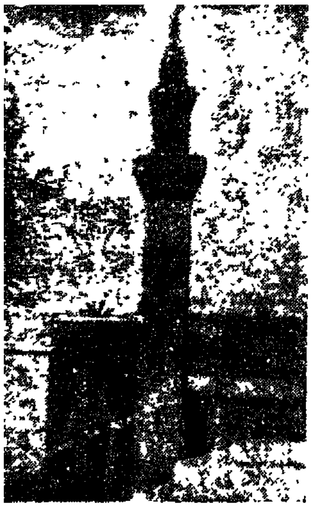
ذكره السخاوى فى الجزء الأول من (الضوء اللامع) وابن عزم فى (دستور الإعلام) ، وابن العماد الحنبلى فى (شذرات الذهب) والزبيدى فى (تاج العروس)والعيدروس فى (النور السافر) وعلى مبارك فى (الخطط التوفيقية)

وهو أبو إسحق إبراهيم بن عمر بن محمد زيادة البرهان الإدكاوى القاهرى الشافعى ، أحد السادات من العارفين توفى فى ربيع الأول سنة ٨٣٤هـ ، وهو مدفون بزاويته التى أنشأها له صهره وأحد أصحابه أبو يوسف أحمد بن على بن موسى بالطرف الغربى من إدكو .



المئذنة القديمة والقبة

وقد تهدم مسجده القديم ، وطمرته الرمال ، حتى علته بمترين وكان منبره من صنع المعلم زيتون وكان مكتوبا عليه : (لم ير مجد الإسلام من لم يزر مصر) ، ثم تبرع السيد الخير سعد الدين اللاذقى فجدد بناءه الحالى على نحو يليق بمقام هذا العالم الجليل الذى يقول فيه السخاوى[وما رأيت شيخنا (ابن حجر العسقلانى) ولا المقريزى ولا غيرهما ممن وقفت عليه ذكره مع جلالته] .



المئذنة الجديدة المسجد الجديد

حفظ القرآن ومختصر أبى شجاع (فى ابتداء الفقه الشافعى) ، وعرضه كاملا على القاضى داود السرى ، ويقال إن كتابه أيضا الحاوى وكأنه حفظ بعد، وأخذ عن التقى عبد الرحمن الشبريسى صاحب الشيخ يوسف العجمى ، وما تيسر له الحج ظاهرا .

وأخذ عنه الشمس العراقى والأبناسى والقاياتى والونائى والمناوى والجمال الأمشاطى والشهاب السكندرى والعلاء القلقشندى والشمس العاصفى ، والزين عبد الدائم الأزهرى المقرىء وإمام الكاملية والعبادى ، وغيرهم من أئمة الشافعية ومنهم من أهل إدكو : رمضان الإدكاوى ، وسلامة الإدكاوى ، ومن الحنفية : العلاء النجارى ، وابن الهمام ، وأفضل الدين ، ومن الحنابلة : العز الكنانى وآخرين منهم محمد الفوى والنور أخو حذيفة ، وأخذ طريقته ابن حميد الدين بن سعد الدين النسيواسى الناهرى المتوفى سنة ٨١٦ھ كما أشار إلى ذلك السخاوى فى الجزء الثامن صفحة ١٢٨ .

وقد روى السخاوى ما حدثه به الكثير من هؤلاء عن كراماته وأحواله من ذلك : أن العلاء النجارى كانت قد تعقبت به تابعة من الجن فعجز الأكابر عن تخليصه منها ، ولم يتم ذلك إلا على يدى إبراهيم بن عمر الإدكاوى ، لأنه كان ذا تأثير قوى على الجن .

لهذا صار العلاء النجارى ينقاد له، وزاد انقياده، وكان إذا قدم عليه وهو

يقرىء وبين يديه كبار الأعيان من كل المذاهب، قام إليه إعظاما وإجلالا، وأجلسه فى مكانه، حتى دب الحسد فى نفوس بعض الحاضرين فقال بعضهم ساخراً : ياسيدى، من يقرئنا الدرس ؟ أنت أم هو ؟ - فلم يعد العلاء يكلمه بهذا، فبادر هو وأمر القارىء بالقراءة، وأخذ فى التقرير، فبهر جميع الحاضرين حتى طأطأوا له رءوسهم .

وكان إبراهيم الإدكاوى يقول : [والله ماكنت أعلم شيئا مما قلته، حتى صور لى فى اللوح المحفوظ] .

وكان السخاوى عند الكمال إمام الكاملية، فأنشده فى حضور إبراهيم الإدكاوى لنفسه هذه الأبيات من الشعر الصوفى :

صبوت ومازال الغرام مسامرى ... إلى أن محانى الشوق عن كل زائر
بذكر الذى أفنى خيالى بحبه ... أغيب عن الأحوال غيبة حاضر
وعاش فؤادى بالحبيب وها أنا ... أقول وبالمحبوب ترجم سائرى
فخاض كمال السر آلف نوره ... لنور شموس الصحو ألفة قادر
وجامع جمع الجمع أدهش نوره ... وفالق فرق الصبح ينصر ناصرى
وعفوك يامولاى زاد به الهنا ... ومنك دنا نور حوى كل ناظرى

وقال السخاوى : إن الكمال قال له : إن إبراهيم بن عمر الإدكاوى كان يحذره من مطالعة كتب محيي الدين بن عربى، وينفره منها .

وحكى الشمس بن سلامة لصديقه السخاوى أنه رآه فى المنام وأنشده أبياتا كأنها لنفسه، فاستيقظ وهو يذكر منها بيتا واحدا، وقص ذلك على الشيخ رمضان الإدكاوى فقال له : لقد كنت معك، وحفظتها، وأنشدها إياه وهى :

يا مالك الملك كن لى ... وذكرك اجعله شغلى
وهب لى قلبا سليما ... وأحيه بالتجلى
وأن أكون دواما ... مشاهدا لك كلى
من غير أين وكيف ... وغير شبه ومثل
سألتك الله ربى ... تمنن على بسؤلى

وكان إبراهيم بن عمر الإدكاوى قد كتب بخط يده قائمة الذين أذنوا له

وأجازوه ، كما أنه حضر ختان أحمد على بن يعقوب الشهاب بن الشمس القاياتى وأخيه فى يوم واحد .

أما العبادى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ فهو - كما جاء فى الجزء السادس من الضوء اللامع - عمر بن حسين ... أبو حفص بن البدر العبادى ثم الطنطاوى ثم القاهرى وكان مولده بمنية عباد غربية ، ومنها رحل إلى طنطا وسمع من الولى العراقى والبوصيرى [وصحب إبراهيم الإدكاوى وأخذ عنه طريق القوم (التصوف)] وهو - أى العبادى - أحد الذين نقلوا للسخاوى كثيرا من كرامات الإدكاوى وأحواله .

وأما العاصفى فهو - كما جاء فى الثامن من الضوء اللامع - محمد بن عثمان بن يوسف الشمسى العاصفى ثم القاهرى ، شيخ رواق الريافة (أهل الريف من المغرب) فى الأزهر ، وقد تلقن أصول الذكر من إبراهيم الإدكاوى ، وهو الذى ألبسه الطاقية وأذن له ، وكان العاصفى أحد صوفية « سعيد السعداء » ولقيه السخاوى كثيرا وتلقن منه ، وتوفى عن سبعين عاما فى سنة ٨٧٤ هـ .

وأما الشمس السكندرى المتوفى سنة ٩٠٦ هـ فهو - كما جاء فى الثامن من « شذرات الذهب » - أبو الفتح محمد بن محمد بن على صالح العوفى ، ولد فى الإسكندرية سنة ٨١٨ هـ ووالده بدر الدين العوفى ، فهو السكندرى المولد ، الأفاقى النشأة ، العاتكى المزى ، الشافعى الصوفى المحدث الفقيه اللغوى المرشد ؛ وهو القائل : [لما تم لى سبع سنين لبست الخرقة الشريفة من يد الإمام أبى الحسن الدمنهورى الصوفى ومن يد الشيخ أبى إسحق إبراهيم الإدكاوى بلباسها من الشبريسى] .

وممن صحبوا إبراهيم الإدكاوى وانتفعوا به وتلقنوا منه : الأنباسى ، والشهاب اللامى المعروف بالصندلى المتوفى سنة ٨٨٩ هـ .

- أحمد أبو نجور الإدكاوى -

ذكره السخاوى فى الجزء الثانى من « الضوء اللامع » والعيدروس فى « النور السافر » والزبيدى فى الجزء السابع من « تاج العروس » .

وهو أحمد بن على بن موسى أبو يوسف الإدكاوى المالكى ، وأخو زوجة الشيخ إبراهيم بن عمر الإدكاوى ، كما أن الشيخ إبراهيم أخو زوجته ويقال له

الإتكاوى (الإدكاوى) و (أبو نجور) . وحج ومات فى الحج سنة ٨٤٥ هـ تقريبا ، ودفن بتربة الشيخ سليم .

وكان سيداً كبيراً ، ومشهوراً بالصلاح ، وقد سمع الشهاب أحمد الصندلى من الجمال يوسف الصفى أحد السادات الصوفية أنه سأل الشيخ أحمد : ياسيدى أحمد ، أفض على من قلبك ، أى من كراماتك وأحوالك الصالحة .

وقد جود القرآن بإدكو على يد شيخ القراء بها الشمس بن سيف الدين ، تلا عليه القراءات لأبى عمرو وتمام أربع روايات ، وأقبل على الطريق (أى انخرط فى سلك الصوفية) ، وأخذ عن صهره إبراهيم الإدكاوى .

وعن أحمد الإدكاوى أخذ بعض علماء إدكو وغير علمائها ، وقدم القاهرة عدة مرات ، فأخذ عنه العبادى والصندلى وإمام الكاملية ، وأخذ عنه التصوف أيضا زكريا الأنصارى وهو الذى حكى عن كراماته وكشفه ، وأخذ عنه كذلك ابن سلامه الإدكاوى المشهور بالمؤذن ، كما سنرى .

وقال عنه الزبيدى : [وهو عصرى المصنف] ، ولكننا لم نقف على شىء من آثاره العلمية سواء فى التصوف أو فى غيره .

أما زكريا الأنصارى الذى أخذ عن أبى نجور الإدكاوى فهو شيخ الإسلام الزين قاضى القضاة زكريا الأنصارى السنيكى ثم القاهرى ولد سنة ٨٢٦هـ ببلدة (سنيكة) شرقية وسكن القاهرة منذ سنة ٨٤١ وتوفى بها سنة ٩٢٥ هـ ودفن بمقبرة الإمام الشافعى وقبره بها مشهور .

وقد أخذ التصوف عن الشهاب أحمد الإدكاوى ومحمد الفوى ، وهما من أصحاب إبراهيم بن عمر الإدكاوى .

وكان يقوم بالتدريس بمقام الإمام الشافعى ، ولم يكن بمصر يومئذ أرفع منصبا من منصب التدريس ، ثم صار قاضى القضاة فى رجب سنة ٨٨٦ فى زمن السلطان الأشرف قايتباى .

وقال عنه العيدروس صاحب (النور السافر) : [ويقرب عندى أنه المجدد على رأس القرن التاسع لشهرة الانتفاع به ؛ وبتصانيفه فى الفقه والتفسير والحديث والنحو واللغة والتصريف والمعانى والبيان والبديع والمنطق والطب والتصوف والفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهيئة (الفلك) والهندسة] .

ونظراً لشهرة الشيخ زكريا ، اكتفى الزبيدى فى ترجمة الشهاب أحمد أبى نجور الإدكاوى بقوله عنه إنه : [أحد مشايخ شيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى طريق القوم (التصوف)] فإذا كان هذا هو شأن الأنصارى التلميذ فما بال الإدكاوى الشيخ .

وأخيرا كان أحمد أبو نجور الإدكاوى جد ابن زيتون الإدكاوى لأمه ، وهو الذى سنفرد له ترجمة خاصة فى الصفحات التالية .

ـ سلامه الإدكاوى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الثالث من « الضوء اللامع » ، وهو سلامة بن محمد ابن أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن أبى محمد بن على بن صدقة الزين بن أبى عبد الله الإدكاوى الصوفى المالكى والد الشمس محمد الشافعى ، أخذ الطريق عن باديه إبراهيم الإدكاوى ، واختص به حتى صار أرجح جماعته وتصدى لإقراء الأطفال احتسابا ، وتورع عن الشهادة وغيرها من الوظائف . وكان ينسخ الكتب بيده . وأثنى عليه السخاوى فقال : [وكان فاضلا فى مذهبه] .

أخذ الأصول والعربية عن شيوخ الإسكندرية وغيرها ، ومات فى ٢٣ رمضان ولا ندرى أى سنة كان ذلك ، وأغلب الظن أنه مات بعد أستاذه إبراهيم بن عمر السابق ذكره المتوفى سنة ٨٣٤ هـ .

ـ الوزير ابن نصر الله الإدكاوى ـ

ورد ذكره فى الجزء الثالث من « الضوء اللامع » ، كما ذكره المقريزى فى « العقود » :

وهو حسن بن نصر الله بن حسن بن حسن بن محمد بن أحمد بن عبد الكريم ابن عبد السلام ـ هكذا كتبه للسخاوى أخوه فخر الدين الناسخ ـ وهو الصاحب (أى الوزير المصاحب للسلطان) بدر الدين بن ناصر الدين بن بدر الدين بن شرف الدين بن كمال الدين بن كريم الدين بن زين الدين الإدكوى (الإدكاوى) الأصل ، الفوى القاهرى ويعرف بابن نصر الله .

أصله من إدكو ـ وكانت قرية تابعة لكورة المزاحمتين التى تقع فى حدودها

رشيد ـ وكان جده الأعلى الشرف محمد بن أحمد ابن خطيب إدكو ثم خطيب ديى

وكان ابنه البدر يتولى الوظائف ، عند سيف الدين الكنانى والى (فوة) ، وولد له بها ولده (نصر الله) هذا ، فنشأ بها وباشر (توظف) بها ثم بالإسكندرية عدة وظائف ، ثم أنجب ابنه ابن نصر الله بفوة فى ربيع الآخر سنة ٧٦٦ ﻫ ونشأ فى كنفه ، ولما نما عوده تزوج ـ فى حياة أبيه ـ من بنت ابن الصغير ناظر فوه ، وصار عديل الفخر بن غراب ، وقدم القاهرة فى حدود سنة ٧٩٠ وهو فى غاية الفقر والفاقة .

ثم كتب التوقيع بباب القاضى ناصر الدين بن التنسى ، ثم تولى نحو شهرين منصب الشهادة فى ديوان أرغون شاه أمير مجلس فى دولة فى الظاهر برقوق (من ٧٨٤ إلى ٨٠١ ﻫ) . ثم انتمى إلى مهنى دوادار بكلمش العلائى أمير سلاح ، فصلح حاله واغتنى وظل يترقى فى الوظائف حتى تولى الحسبة (وزير الشئون البلدية) فى الديار المصرية . ثم ناظر الجيش (وزير الحربية) ثم صار وزير الديار المصرية (رئيس الوزراء) ثم ناظر الخاص (ناظر الخاصة السلطانية) فى دولة المؤيد (المحمودى سنة ٨١٥ ﻫ) .

وصودرت ممتلكاته وأمواله عدة مرات ، وتولى الأستادارية (وزير القصر) فى دولة الصالح محمد ، ثم عزل وأعيد إلى نظارة الخاص بعد مرجان الخازندار (وزير الخزانة) ، وأعيد فى أيام دولة الأشرف (برسباى من ٨٢٥ ﻫ إلى ٨٤١ ﻫ) عوضا عن ولده صلاح الدين محمد ، ثم عزلوه عن نظارة الخاصة السلطانية وحل محله الكريمى عبد الكريم بن كاتب حكيم فى أوائل جمادى الأولى سنة ٨٢٨ . وعزل عن الأستادارية وصودر هو وولده المذكور ، ثم أعيد لثالث مرة إلى الأستدارية لمدة غير طويلة حتى عزل منها . فلزم بيته حتى مات ولده ، فحل محله فى وظيفة كاتب سر الدولة (سكرتير عام الوزارة) . ثم عزله الظاهر (جقمق ٨٤٢ - ٨٥٧ ﻫ) وحل محله ابن البارزى ، فلزم البدر داره . وتوالت عليه الأمراض حتى مات فى ربيع الأول سنة ٨٤٦ ﻫ (= ١٤٤٢ م) .

ودفن بتربته بالصحراء خارج الباب الجديد عند مقبرة ولده صلاح الدين .

وكان شيخا طويل القامة ، ضخم الجثة ، جميل الطلعـــة ، مستدير اللحية ، كريما شجاعا ذا مروءة ، وكان حاد الطبع ، جريئا على الملوك ، منهمكا فى الملذات متأنقا فى مأكله ومشربه .

وله فى (فوة) مدرسة حسنة على البحر ، كانت تقام بها الخطبة ، والدروس وله مآثر أخرى كثيرة .

ـ رمضان الإدكاوى ـ

ذكره السخاوى فى الضوء اللامع » ج ٢

وهو رمضان بن عمر بن مزروع الإتكاوى (الإدكاوى) الشافعى . شيخ صالح جليل أخذ عن إبراهيم بن عمر الإدكاوى بإدكو » وصحبه جماعة منهم : شيخ الإسلام زكريا الانصارى والشمس بن سلامه الإدكاوى . وكان رجلا فاضلا . توفى فى جمادى الأولى سنة ٨٧٠ هـ ، وهـــو عم محمد بن إسماعيل بن عمر العمريطى.

ـ ابن سلامه الإدكاوى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامـــع » ج ٩ وإسماعيل باشا البغدادى فى « هدية العارفين » :

وهو محمد بن سلامه بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبى محمد بن على ابن صدقة ، الشمس الإدكاوى الشافعى ويعرف بابن سلامة ولد بإدكو سنة ٨٣٨هـ تقريبا ، ونشأ بها فقرأ القرآن وبعض الرسالة لابن أبى زيد على مذهب والده . ثم صـــار شافعيا . وحفظ « المنهاج » وعرضه فى جمادى الآخرة ورجب سنة ٨٦١ هـ على العلم البلقينى ، وقريبه أبى السعادات. والجلال المحلى والجلال ابن الملقن ، والمناوى والسراج ، والعبادى والسراج الورورى والكمال إمام الكاملية ، والفخر عثمان المقسى ، وابن الديرى وابن قرقماس وآخرين :

وتفقه على يد رمضان الإدكاوى ـ أحد أصحاب الشيخ إبراهيم بن عمر الإدكاوى ـ كما أخذ عنه الفرائض والأصلين والعربية وانتفع به كثيرا وتهذب بهديه وطريقته فى السلوك (التصوف) ثم رحل إلى (فوة) فأخذ بهـا عن البـدر

ابن الخلال ودرس معه (المنهاج) « والتنبيه وتصحيحه » للنووى ، « وتهذيب التنبيه ومطلب الطالب النبيه » للبكرى ، وبحثها جميعا معه ، ولازمه أربع سنوات فى دراسة شرح الدميرى ، « والجمل » للزجاج ، كما درس معه الفقه وأصوله والنحو ، وحضر تقسيم « التنبيه » على السراج العبادى ، وقرأ فى « المنهاج » مع الزين زكريا (الأنصارى شيخ الإسلام) وسمع دروسه فى شرح « البهجة » .

أما النحو فقد درسه على يد والده . وعلى الفقيه شمس الدين ابن الترس : قرأ الأجرومية ، و « الملحة » و « ألفية ابن مالك » كما درس معه « الرجبية » وغيرها فى الفرائض ، واستمر فى دراسة الفرائض والحساب حتى استوفى « النزهة » لابن الهائم مع « الحاوى الفرعى » وشرحه عن إسماعيل اليمنى الزبيدى ، ودرس علم الكلام على آخرين ، كما درس المنطق .

وعلى أبى الفتح الفوى درس التصوف ، وقرأ عليه رسالته فى القاهرة مرتين وقرأ « الشفاء » و « الترغيب » للمنذرى ومعظم « الصحيح » على الشهاب المتيجى وقرأ بداية « الهداية » للغزالى على إمام الكاملية ، ولبس منه الخرقة (المرقعة) وقرأ على بعض الفضلاء شرح « جمع الجوامع » للمحلى ، والقول البديع وترجمة النووى ، ومواضع مختلفة من كتب متنوعة .

وجمع شرحه لأبى شجاع المسمى « النهاية فى شرح كتاب الغاية » وغير ذلك ، وحضر على السخاوى فى الإملاء ، وتردد على كل من عبد الرحمن الأبناسى وابن قاسم وغيرها . وبرع فى العلوم ومهر حتى أذن له ابن الخلال فى سنة ٨٦٤ فى تدريس الفقه والعربية . وانتفع به أهل إدكو والبلاد الأخرى ، وكتب شرحا على أبى شجاع فرض له ابن الخلال والعبادى .

وعرض عليه المناوى وظيفة القضاء بإدكو فرفض بإباء ، وحج سنة ٨٦٩هـ وركب السفينة وأخذ معه قماشا ليتجر فيه ، مع أنه كان سليم الفطرة ، ولا يدرى من أمور دنياه شيئا ، فخسر وزادت خسارته ، وسافر من (مكة) إلى (هرموز) بتجارة له ، اضطرته إلى الاستدانة فربح كثيرا ، وأكرمه حاكم هرموز ، وعاد مجبور الخاطر ، ولكنه ابتلى فى طريق عودته باللصوص فسلبوه هو ومن كان بالسفينة حتى وصل إلى (عدن) فأكرمه صاحبها ابن طاهر ، فحمل منها تجارة

عاد بها عمرا والأمل يحدوه إلى سداد ديونه ، ولكنه توفى وهو على ظهر السفينة سنة ٨٩٢ ، فدفن (فى عدن) أو قريبا منها .

وقد حزن على فقده السخاوى فقال : [وتأسفنا على فقده . فقد كان فى الصلاح والخير بمكان ، وبمن كنت أستأنس بلحظه . وأسر باغتباطى به ، رحمة الله وعوضه وإيانا الجنة] .

ومن معاصريه أيضاً بمن نستطيع تذكرهم : البكرى قاضى الإسكندرية المتوفى سنة ٨٩١ هـ الذى ولد فى دهروط (ديروط) ، والبلقينى المتوفى سنة ٨٩٠ هـ وابن المحلى المتوفى فى هذه السنة ، وابن عزم صاحب (دستور الإعلام) المتوفى سنة ٨٩١ هـ .

ـ أولاد زيتون بإدكو ـ

استطعت الحصول على تاريخ أسرتنا من مخلفات جدى لأمى المرحوم الشيخ حسن على زيتون عمدة إدكو الأسبق المتوفى سنة ١٩١٤ فعثرت على وثيقة طويلة تتضمن قصة انتقال رأس هذه الأسرة من الحجاز إلى مصر فى طريقه إلى المغرب، ثم العودة من فاس إلى تونس إلى الأسكندرية ومنها تفرع ثلاثة إخوة عرفوا بأولاد زيتون استقروا فى الأسكندرية وإدكو والبرلس.

ففى سنة ١٢٤٧ هـ بمحكمة ثغر الإسكندرية بجزيرة رأس التين بظاهر الإسكندرية، تقدم على بن إسماعيل زيتون بطلب لتجديد نسبة أولاد زيتون ، فحصل على هده النسخة ومضمونها :

دفن إسماعيل زيتون بمحروسة مصر ، ببستان العلماء بالقرافة ، وكان إخوته وأخواته : إسماعيل وأحمد وإبراهيم وعلى وفطومة وصلوحة أولاد إسماعيل ابن حسن بن على بن سليمان بن سالم بن أحمد بن عبد القادر شرف الدين زيتون وهو أول أولاد زيتون بإدكو منذ القرن السابع الهجرى .

نزل عبد القادر بادكو ، وأخوه أحمد بالبرلس ، وعثمان بالأسكندرية وجاءوا جميعا من تونس إلى الأسكندرية فنزلوا أولا بخيامهم إلى جوار سيدى القبارى . ثم التقوا بسيدى أبى العباس المرسى الذى قدم إلى الأسكندرية منذ سنة

وأرادوا جميعـــا أن يسكنوا الإسكندرية ، ولـكنه أشار عليهم بسكنى البلدان الثلاثة على النحو الذى ذكرناه .

وكان السبب فى قدوم هؤلاء الإخوة الثلاثة بأولادهم وأولاد أعمامهم من المغرب أنهم قبل إقامة طويلة لهم فى تونس ، رأى زعيمهم وهو على بن إبراهيم زيتون ـ وكان فى (فاس) بمراكش ـ فى المنام أن هاتفا يقول له : يا ابن إبراهيم ارحل بالأشراف ـ وفى الصباح قص رؤياه على صهره مولاى محمد سلطان فاس فحزن هو وجميع أهل المغرب على رحيل أولاد زيتون عن البلاد وقد كانوا ولاة الامن فيها ، فأخذوا طريقهم إلى تونس الخضراء .

وكان (على) هـذا ابن شرف الدين عبد القـادر زيتون بن عيسى [الذى كان يتولى بالحجاز شئون (بدر) و (حنين) ويحفظ الأمن فى وقت الحج ، وأبوه محمد البدرى لأنه تولى (بدر) بعد عودته من الغرب وقتل ببدر] وهو ابن على بن محمد بن موسى بن يحيى بن على بن محمد بن حسين بن موسى بن على الهادى بن إبراهيم بن محمد الجواد بن محمد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان محمد الجواد قد انتقل من الحجاز فرارا من عسف الحجاج بن يوسف الثقـــفى ، فقدم مصر ومضى إلى المغرب ونزل فى (سواكن) . واستقر بها وتزوج منها وأنجب ذريته الذين منهم إبراهيم وولده على الذى رحل بالأشراف من فاس إلى تونس إلى الاسكندرية وجاء ابنه عبد القادر فاستقر بإدكو فكان أوّل أولاد زيتون بها . وسجل نسبه هذا على عهد سيدى أحمد البدوى سنة ٦٧٥ هجرية وبشهادة الأماثل الأشراف .

وذكر ابن خلدون فى « المقدمة » أن القاضى أبا القاسم بن زيتون قدار تحل من أفريقية إلى المشرق ، لعهد أواسط المائة السابعة ، فأدرك تلميذ الإمام ابن الخطيب ، فأخذ عنهم ، ولقن تعليمهم ، وحذق العقليات والنقليات ، ورجع إلى تونس ، واتصل سند تعليمه فى تلاميذه جيلا بعد جيل ، حتى انتهى إلى القاضى محمد بن عبد السلام شارح « ابن الحاجب » وتلميذه .

ـ ابن زيتون الإدكاوى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » ج ٤

وهو عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد بن محمد الإدكاوى ويعرف بابن زيتون وجده لأمه أحمد بن موسى أبو نحور ، وزيتون لقب جده ، ولد بإدكو فى ربيع الثانى سنة ٨٥٢ هـ ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن ودرس « الملحة » وحفظها ، و« مختصر أبى شجاع » و« الرحبية » وبعض « المنهاج » ولازم بإدكو ابن سلامه الإدكاوى ، ودرس عليه الفقه والفرائض (المواريث) والنحو ، وانتفع به أكثر من غيره . كما أخذ عن البكرى وعن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى وابن قاسم فى الفقه والعربية . كما أخذ الفرائض عن النور الطنتدائى (الطنطاوى) ، وبرع ومهر فى العلوم ، حتى استنابه الشيخ زكريا الأنصارى فى قضاء إدكو فى شعبان سنة ٨٩٢ مستقلا ، ثم أشرك معه ابن العويطى ، وهو الذى سنتحدث عنه بعد قليل .

وكان ابن زيتون كما يقول عنه السخاوى [حمدت سيرته ، وكثر الثناء عليه ، وحج وتكرر قدومه القاهرة] كما أنه سمع منه وعليه كثيرا من العلوم بالقاهرة .

ومن المفهوم أنه توفى بعد سنة ٨٩٢ متى ؟ وأين ؟ لا ندرى .. ولكن نرى لزاما علينا أن نتابع ما كتبه المؤرخون منذ ابن الخطيب البغدادى فى جميع أجزاء كتابه «تاريخ بغداد» فنراه فى الجزء الثالث عشر يذكر المظفر بن محمد بن زيتون وهو أبو القاسم البريدى دون تحديد لمولده أو وفاته ، ولكن يفهم أنه من أهل القرن الخامس الذى عاش المؤلف فيه . وذكر ابن بشكوال فى الجزء الأول من « الصلة » أبا الحسن عبد الرحمن بن خلف بن مسعود الكنانى ويعرف بابن الزيتونى الواعظ بجامع قرطبة والمتوفى سنة ٥٠١ هـ . كما نرى ابن فرحون يترجم فى طبقات المالكية لأبى القاسم الشهير بابن زيتون الذى هو أبو حمد بن أبى بكر ابن مسافر بن أبى بكر بن أحمد بن عبد الرفيع اليمنى المالكى قاضى تونس المتوفى بها سنة ٦٩١ هـ والذى قدم مصر سنة ٦٤٨ وسنة ٦٥٠ وأقام بالمدرسة الفاضلية ومدرسة الصاحب ابن شكر بالقاهرة ، وسمع الحديث من المنذرى . ويذكر التمبكتى أيضا فى « نيل الابتهاج » أبا القاسم بن زيتون مفتى إفريقية ، الذى جاء

دمصر فلقى بها المنذرى وعز الدين بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد بعد سفره إلى الأنداس سنة ٦٩٦هـ ، وكان محدثا حافظا ، كتب — فى ثلاثة مجلدات — أسماء من لقيهم وتوفى سنة ٧٣٠ ، كما يذكر أن ابن القويع التونسى نزيل القاهرة والمتوفى سنة ٧٣٨ كان يقرأ النحو على يحيى بن الفرج بن زيتون ، ويذكر أيضا عبد الواحد بن منديل بن عبد الواحد الأنصارى الفاسى وهو الكاتب المعروف بالزيتونى أو بابن الفقيه المتوفى بفاس سنة ٧٧٨ ، ويذكر بعد ذلك العارف بالله ابن زيتون [رأس السبعة الأبدال] الذى أخذ عنه ابن زروق الفاسى الفقيه المحدث الصوفى المتوفى سنة ٨٩٩ هـ ثم يذكر لنا ابن إياس فى « بدائع الزهور » بدر الدين محمد بن محمد الزيتونى العوفى أحد نواب الشافعية ، والعالم بالقضاء والتوقيع والخطابة والشعر والمتوفى سنة ٩٢٤ وقد رثاه بعد وفاته ابنه القاضى بدر الدين محمد بقصيدة . وأخيرا يذكر الجبرتى فى تاريخه عالم الأسكندرية الشيخ محمد زيتون المغربى الأصل .

ومن هذا كله يتبين للقارىء كيف أن تراجم أعلام أولاد زيتون لا يمكن متابعتها إلا بعد دراسة مراحل انتقال الأصل والفروع مابين الحجاز وبغداد وفاس وسواكن وتونس والإسكندرية وإدكو ، فيما بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين .

ـ ابن وهيب الإدكاوى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » ج ١١

وهو أبو بكر بن أحمد بن أبى بكر بن محمد الإدكاوى الشافعى ويعرف بابن وهيب (تصغير وهب) الذى هو جده الأعلى المسمى عبد الوهاب . ويقال إنه من المهتدين . ولد بإدكو سنة ٨٥٨ هـ ، على وجه التقريب ، ونشأ بها ، فقرأ القرآن و « الأربعين النووية » و « مختصر أبى شجاع » و « ألفية النحو » ، و « الملحة » والرحبية ، فى الفرائض ، و « المنهاج » ، عرض الألفية على الشمس المالقى والبدر بن المخلطة ، ومحمد بن عبد الكريم التلمسانى ، وابن سلامة ، ولازم التقى الأوجاقى فى الفقه والأصلين والنحو ، وحضر على البرهان بن أبى شريف فى الفقه ـ وزار بيت المقدس ، وذهب فى تجارته إلى حلب وطرابلس وبيروت ،

وكان له فى إدكو دولاب قماش (نول نسيج) وكان نائبا فى قضاء إدكو عن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى بعد عزل نور الدين بن الغويطى . وحدثت بعض القلاقل، وناب أيضا عن المحب أخى السيوطى ، وتردد على السخاوى المؤرخ كثيرا وهو الذى قال عن ابن وهيب [وهو متشدق متكلم له فهم وخبرة بالخاصات ولهذا أعرض الزين زكريا (الأنصارى) عن استنابته (فى قضاء إدكو) وأضافها لغيره] . ولم يذكر لنا السخاوى تاريخ وفاته ، ويبدو أنه من وفيات أوائل القرن العاشر الهجرى .

ـ الشهاب المحلى ـ

ذكره السخاوى فى (الضوء اللامع ، ج ٢

وهو أحمد بن محمد بن على بن هارون بن على الشهاب المحلى ثم السكندرى الشافعى ، كان قاضى الإسكندرية ، ولد قبل القرن التاسع بقليل فى (المحلة الكبرى) ونشأ بها ، واشتغل تاجرا فى ماء الورد وغيره فى الحوانيت ، وكان يذهب إلى (سنباط) لبيع العطور وغيرها ، واستنابه الشمس الشنشى على عمل (جوجر) سنة ٨٢٤ ، وشارك بعض الأتراك وسافر إلى الحجاز ، وتزوج من امرأة ثرية ولما ماتت ورث ثروتها ، فاختلط بالأكابر وأغدق عليهم ، وناب عن ابن حجر فى بعض حوانيت القاهرة ، وسعى الجمالى ناظر الخاص حتى جعله على قضاء الإسكندرية سنة ٨٥٣ بعد الولوى السنباطى ، ولقيه بها السخاوى وهو قاضيها .

وقد سمع الشهاب المحلى من ابن ظهيرة ، وحفظ شرح المنهاج للدميرى ، وكان خبيرا بأمور الدنيا ، سليم الصدر ، واستخدم المال الجزيل فى الوصول إلى أغراضه فوفد عليه الفضلاء والأعيان ، وفى ليلة الثلاثاء ١٢ جمادى الآخرة سنة ٨٦٠ توجه من القاهرة إلى الإسكندرية، فلما نزل بقرية إدكو توفاه الله بها ، وفى الغالب أنه دفن بها ، ولهذا اعتبرناه من أعلام إدكو، وإن لم يكن فى الأصل من أهلها.

ـ الغويطى قاضى إدكو ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » ج ٥

وهو على بن محمد بن عبد الرحمن نور الدين الإدكاوى ويعرف بالغويطى أو ابن الغويطى (تصغير غيط) كما ورد ذلك فى الجزء الحادى عشر أيضا . وهو قاضى إدكو ، حفظ القرآن وشغف بالشهادة ، تولاها ببلده إدكو عن شعبان ابن جنيبات ، ثم عن نور الدين البلبيسى ثم عن المحب أخى القاضى السيوطى وساءت سيرته لأنه ضمن (بحيرة إدكو) بمائتى ألف دينار ، وأخذها التزاما بعد أن كانت مباحة للناس ، ودام التزامه لها عدة سنوات . ولكن الشهاب بن محليس زاد عليه ، ثم أحمد بن عبد الله بن كنايف البرلسى . واستمرت معه بثلاثة آلاف دينار ، فكان هذا من سيئاته .

وقد امتنع الشيخ زكريا الأنصارى شيخ الإسلام من استنابته ، حتى عجز عن دفع المستحقات عليه فترا كمت وتوالت عليه فأشركه مع عبد الرحمن بن إبراهيم ابن أحمد ، وأصدر أمره بعدم انفراد الغويطى بقضاء إدكو ، فلقى كثيرا من البلاء وأتعب شريكه معه ، ولم يزل كذلك حتى توفى بإدكو سنة ٨٩٧ هـ .

ـ علـى الجبرتى ـ

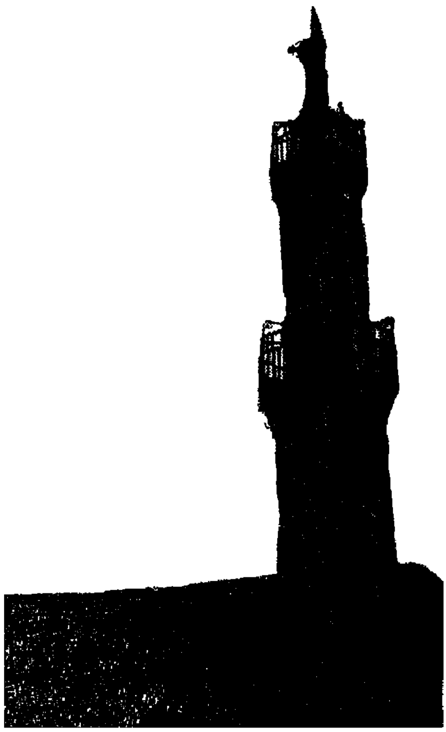
ذكره الشمس السخاوى فى « الضوء اللامع » ج ٦ والنور السخاوى فى « تحفة الأحباب » وابن إياس فى « بدائع الزهور » والجبرتى فى « عجائب الآثار » .

وهو على بن يوسف بن صدر الدين بن موسى الجبرتى الأزهرى الشافعى المقرىء ، قدم القاهرة حوالى سنة ٨٥٠ ، فقرأ بها القراءات على الشهاب السكندرى والشمس ابن العطار وابن كزلبغا ، وسمع على كثيرين ، وقد سمع « ختم الصحيح على الأربعين » فى المدرسة الظاهرية القديمة ، ودخل دمشق سنة ٨٧٦ ، وقرأ بها القراءات على ابن النجار ثم رحل منها إلى بغداد ، وصحب فضل القادرى (وهو من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلانى) ولبس منه الخرقة (مرقعة المتصوفة) وأخذ الطريقة القادرية عليه فصار يذكر بها ، وسافر إلى حلب فسكنها بعد سنة ٨٧٠ ، وعقد ناموس المشيخة ، وجلس فى خلوة بسطح الأزهر ، وتردد عليه

كثير من الخدام ، وكان يستخدمهم فى سد حاجة قاصديه من تجار حلب وزاره المناوى ، وابتنى بإدكو سنة ٨٧٨ جامعا [كانت البلد فى غنية عنه وصار يكثر التردد إليها والله أعلم بقصده] كما يقول السخاوى ، وساعد قاضى إدكو ابن الغويطى كثيرا . وأخذ عنه القراءات بعض الطلبة ، ولما مات دفن بحوش سيدى عيسى بن عبد القادر الجيلانى بقرافة مصر .

أما الجامع الذى بناه بإدكو فقد دفن به الشيخ عبد الرءوف والشيخ عبد القادر ، وكلا هما من رجال الطريقة القادرية فى قبة تقع شمال مقبرة سيدى عيسى الجيلانى بإدكو .

وكان المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ابن عمه يذهب إلى إدكو للإشراف على مسجد على الجبرتى وقال عنه :[الولى العارف الشيخ على الجبرتى الذى كان يعتقده السلطان الأشراف قايتباى وارتحل إلى بحيرة إدكو فيما بين رشيد والإسكندرية ، وبنى هناك مسجدا عظيما ، ووقف عليه أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين ونخيلا كثيرة ، وهو موجود إلى الآن عامر بذكر الله والصلاة ، وهو تحت نظر الفقير (عبد الرحمن الجبرتى) إلا أن غالب أماكنه زحفت عليها الرمال وطمستها ، وغابت تحتها ، وفيه إلى الآن بقية صالحة ...] وقد دفن على الجبرتى بالمسجد الذى بناه شرقى عمارة السلطان قايتباى بالقاهرة . ونقول إن مسجد الجبرتى بإدكو يقع فى شمال المدينة على (كوم الطواحين) وقد جدد بناءه أهل إدكو فى سنة ١٩٦١ فاتسع وعمر بالمصلين .


مئذنة جامع الجبرتى بإدكو

وقال عنه ابن إياس إنه كان صالحا ، وتوفى سنة ٨٩٩ هـ فجأة وهو بالحمام وكان رجلا مباركا .

ـ عبد الله الإدكاوى ـ

ذكره الجبرتى ، وجورج زيدان فى « تاريخ آداب اللغة العربية » ، والبغدادى فى « هدية العارفين » ورمضان حلاوة فى « دستور الإعلام » كما ورد ذكره فى « فهرست الكتبخانة » .

وهو عبد الله بن عبد الله بن سلامة الإدكاوى الشافعى ، المشهور بالمؤذن ، ولد بإدكو سنه ١١٠٤ هـ ، وحفظ بها القرآن ثم قدم القاهرة ، وحضر على الطبقة الأولى من علماء عصره ، وتعرف على نقيب الأشراف على برهان زاده ، فأكرم مثواه وحج معه سنه ١١٤٧ هـ .

وتردد على رشيد وفوه والإسكندرية وعرف أعيانها جميعا ومدحهم بأشعاره ، وكتب بخط يده على جدار مسجد ابن نصر الله بفوة بيتين من الشعر قرأهما الجبرتى سنة ١١٨٩ وتاريخها سنة ١١٤٥ هـ .

وتزوج وأنجب أولادا ولازم الشبراوى ثم الحنفى ، ومات الإدكاوى فى جمادى الأولى سنة ١١٨٤ ودفن بجوار الشيخ الحفنى فى زاويته بتربة الشيخ الزبيدى

وأولاده العلامة أحمد المشهور بكتكيت مفتى الشافعية بالإسكندرية ، وهلال الكتبى وصالح الصحاف ، أما أحمد فكان علامة أديبا ، نزل بالأسكندرية وأمه شريفة من ذرية السيد عيسى بن نجم خفير البرلس نائب أحمد الإدكاوى فى القضاء بالإسكندرية لمدة ومات بها سنة ١١٩٢ هـ ، وقال الجبرتى إن وفاته كانت سنة ١١٩٣ وإنه كان يحفظ دواوين الشعر وجمع للمتقدين والمتأخرين شعراً بلغ المائتين .

ولعبد الله الإدكاوى عدة مؤلفات مخطوطة مبعثرة بين سوهاج والقاهرة وباريس وبرلين وغوطا ، وهى :

١ ـ « بضاعة الأريب فى شعر الغريب » : وهو ديوان شعره المخطوط بمكتبة سوهاج ١١٨٥ف/٤٨٨ (٣٧٤) ، ومنه نسخة بمكتبة باريس .

٢ ـ « الدر المنتظم فى الشعر الملتزم » : باريس

٣ - « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » ، وهو مدائح الشعراء للأمير كتخدا الجلفى : باريس .
٤ - « الدر الثمين فى محاسن التضمين » : وهو مجموعة من كلام أساطين البلاغة - دار الكتب المصرية بالقاهرة .
٥ - « التضمين الشعرى » : دار الكتب المصرية بالقاهرة .
٦ - « المقامة السكندرية التصحيفية » ، ضمنها الألفاظ التى تتغير معانيها بالتصحيف - برلين .
٧ - « هداية المتوهمين فى كذب المنجمين » : غوطا .
٨ - « تخميس بانت سعاد »
٩ - « الدرة الفريدة » .
١٠ - « عقود الدرر فى أوزان الأبحر الستة عشر »
١١ - « القصيدة الزدية فى مدح خير البرية » ألفها لعلى باشا حكيم أوغلى والى مصر سنة ١١٦٩ هـ
١٢ - « الكواكب السنية فى شرح الألفية »
١٣ - المقامة القمذية » فى المجون .
١٤ - المنح الربانية فى تفسير آيات الحكم الفرقانية »
١٥ - « نزهة الألباب الجامع لفنون الآداب » .
١٦ - « النزهة الزهية بتضمين الرحبية »
١٧ - مختصر « شرح بانت سعاد » للسيوطى .
١٨ - ديوان شعر

وكان عبد الله الإدكاوى حسن الخط ، وله قاعدة خاصة تميز بها : كتب بخط يده ديوان حسان بن ثابت وشرح ألفاظه ، وكانت له مطارحات شعرية مع شعراء عصره من المصريين والوافدين على مصر من الفرس والأتراك والشوام ، فقد التقى سنة ١١٨٢ بالشيخ محمد سعيد السمان الدمشقى بالقاهرة وله تضمينات جمعها له الإدكاوى على حروف المعجم ، وقرأ الإدكاوى « ديوان منجك » .

وله فنون شعرية منها « وسع الاطلاع » وهو أن يلتزم فى الشعر أمورا غير لازمة تحمل الشعر أثقالا تخرجه من الفن الرفيع إلى الصنعة الباردة، فيقيد بها نفسه بحرف واحد فى أول كل كلمة فى البيت أو يأتى بكلمة منقوطة تليها كلمة عاطلة أو بالعكس، أو يلتزم كلمات منقوطة كلها أو يأتى ببيت يقرأ من أوله كما يقرأ من آخره أو يلتزم أبياتا منقوطة من أعلى فقط وأخرى من أسفل فقط، أو يتابع الحروف الأبجدية فى الأبيات.

وكان للخطاطين فى عصره مجالس أدبية، قال فيهم:

مامنهمو من يرى يوما براعته ... إلا وقيل له ما أحكم البارى

وطرق أبواب الاعتذار والمديح، ونقل المعانى الفارسية، وقال فى الاستعطاف وتوقع الموت، وكان يتحدى شعراء الأتراك، لأنه كان ملما بالتركية والفارسية وأحيانا كان يضمن شعره أبياتا من الشعر التركى والفارسى، وقال فى المجون ووصف المرأة والأزهار ومزج بين الغزل والمنطق والنحو والفلك، كما قال فى التهانى التى كان شعرها أكثر الأشعار شهرة: هنأ الجبرتى الكبير بزواج ابنه عبد الرحمن المؤرخ لأنه كان صديقه، ومدح الأمير رضوان كتخدا الجلفى فمنحه وعطف عليه، واشتهر الإدكاوى برثاء أشهر المعاصرين من أمراء وخطاطين وشعراء وعلماء: مدح على بن عبد الله مولى بشير أغا وكيل دار السعادة، ورثا الضيائى المصرى الخطاط العالم بالموسيقى والعروض، ورثا الملوانى.

وفى « بضاعة الأريب » ذكر أصدقاءه وجلساءه مثل السمان الدمشقى، ومحمد بن إسماعيل أغا السكندرى العالم بالعربية والفارسية والتركية، وإليه قدم الإدكاوى « المقامة السكندرية » فقرظ عليها ومدح الإدكاوى.

وكان قصر الجلفى ملتقى الشعراء مثل: على جبريل والسيد سليمان والسيد جوده السديدى المحلاوى، والشيخ معروف، والشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى ومحمد أفندى المدنى والشيخ يوسف الحفنى، والشيخ عمار القروى، والسيد قاسم التونسى وعبد الله الإدكاوى الذى جمع ماقاله الشعراء من المدائح فى رضوان بك وضمنها «الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية»، وهى مقامات وأشعار وأنثار.

وممن رثاهم الإدكاوى: الخطاط عبد الله أفندى الأنيس، والشيخ حسن

المنطاوى الشهير بالمدابغى والشيخ أحمد بن الحسن بن عبد الكريم الشهير بالجوهرى، ومدح نقيب الأشراف أحمد بن إسماعيل بن محمد أبا الأمداد، ومدح شيخ الأزهر الشيخ أحمد بن محمد الحماقى، وقرظ ديوان الشيخ شمس الدين بن عبد الله بن فتح الفرغلى فى مدح الرسول، وقرظ أيضا «شرح دلائل الخيرات» للشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الشجاعى.

وقرظ «المقامة السكندرية» التى كتبها الإدكاوى غير محمد بن إسماعيل السكندرى، عبد الله التلبانى وعبد الرحمن بن جاد الله البنانى المغربى تلميذ السكندرى فى الحديث.

وقرأت على كتاب «ألف با» للبلوى قصيدة للإدكاوى مطلعها:

هـذا كتاب (ألف با) ... به أهبت فلبي
كم همت فيها حـواه ... فحـاز منى لبـا
لكنـنى لست ممن ... يعد بين الألبـا

وقرظ على «عقود الفرائد» للشيخ الفرغلى الحمودى، ومدح الشيخ أحمد ابن ضيام الدمنهورى شيخ الأزهر عند عودته من الحج، وكان الشيخ على النجارى المعروف بالقبانى من تلاميذ عبد الله الإدكاوى.

ـ الحسن الإدكاوى ـ

ذكره البغدادى فى ج١ من «هدية العارفين» و ج١ من «إيضاح المكنون» ص ٢٩٥ و ٤٢٠ وكحالة فى «معجم المؤلفين». وهو الحسن بن حسين بن عبد الله الشريف الإدكاوى الشافعى، كان حيا سنة ١٢٢٣ هـ وقال البغدادى فى «إيضاح المكنون» إنه كان حيا سنة ١٢٨٧، ومن مؤلفاته «تعبيق مغانى الجو بتحقيق معانى لو» و «حلية ذوى الأفهام فى الكلام على ما للومن من الأقسام»، وله تراجم شيوخه بعنوان «ثبت الإدكاوى» فرغ منه بالاسكندرية سنة ١٢٣٧ وكان عالما فاضلا، وباحثا مدققا.

ـ الشيخ حمزة فتح الله ـ

ذكره أحمد عرابى فى «مذكراته» والدكتور عبداللطيف حمزة فى «الصحافة

المصرية فى مائة عام » ، ومحمد حسن محمود وأمين عمر الباجورى فى « المنتخبات العربية » وأحمد أمين وأحمد الإسكندرى وعلى الجارم وعبد العزيز البشرى فى « المفصل فى تاريخ الأدب العربى » ج ٢ وذكره أيضا صاحب « الوسيط » ، وسليم نقاش فى « مصر للمصريين » وكامل الفقى فى « الأزهر وأثره . . . » .

قال الكثيرون إنه ولد فى بالإسكندرية ولم ينسبه إلا إدكو إلى عرابى ، وقال عنه [أما الشيخ حمزة فتح الله الإدكاوى فهو من إدكو ، وأغلب أهلها حاكة (نساجون) وصيادون ، وكان هو حائكا وابن حائك ثم تعلم ، وبعد ذلك ترك العلم ، وانصرف للصحافة وأنشأ جريدة (البرهان) بالإسكندرية سنة ١٨٨ ﻫ ثم ذهب إلى الإسكندرية مع الخديوى (توفيق) الذى انحاز إلى الإنجليز سنة ١٨٨٢] وكتب فى جريدة (الاعتدال) منددا بكفاح الشعب . وقد أورد عرابى مقالاته فى (البرهان) ورد على آرائه فى معارضة فكرة الشورى التى كانت نشيد المصريين يومذاك .

ولد الشيخ حمزة سنة ١٢٦٦ ﻫ (١٨٤٩ م) وهو ينحدر من أسرة مغربية الأصل ، وبعد أن حفظ القرآن ، تعلم بجامع الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية ثم قدم القاهرة فتعلم بالأزهر ودرس الأدب واللغة ، وقال الشعر وكتب الرسائل وحفظ الغريب ، ثم عاد إلى الإسكندرية ورحل إلى تونس ومكث بها مدة طويلة وحرر فى إحدى الصحف التونسية مدة ثمانى سنوات : مارس فيها تحرير المقال السياسى وصار محرر جريدة « الرائد التونسى » ولما شبت الثورة العرابية عاد إلى مصر وانضم إلى حزب الخديوى توفيق ضد الحزب الوطنى الذى كان يتزعمه عرابى وقد أوحى إليه الخديوى بتحرير جريدة « البرهان » التى أنشأها معوض فريد . وكانت تصدر مرة كل أسبوع فى الإسكندرية . وأصدر أيضا جريدة « الاعتدال » دفاعا عن سياسة الخديوى ، وكان يخطب لتأييده .

وفى سنة ١٨٨٦ أوفدته الحكومة لتمثيلها فى المؤتمر العلمى الشرقى (للمستشرقين) فى فينا ، وعمل مدرسا بمدرسة الالسن سنة ١٨٨٨ ثم بمدرسة دار العلوم ، ومثل مصر أيضا فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى استوكهلم سنة ١٨٨٩ ، وفى سنة ١٩١٠ أصبح مفتشا أول للغة العربية بعد أن مكث ثلاثين عاما يقوم بتدريسها ، وأحيل

إلى المعاش سنة ١٩١٢ فعكف على البحث والاطلاع حتى كف بصره ، وتوفى فى فبراير أو إبريل سنة ١٩١٨ .

وكان قوى الذاكرة ، حريصا على اللغة مولعا بغريبها شعرا ونثرا ، حديثا ومراسلة ، قال عنه عبد العزيز البشرى فى الجزء الأول من «المختار» [وفى أعقاب نهضة المرصفى يقبل العالمان الأديبان حمزة فتح الله وإبراهيم اليازجى فيكشفان عن مجفو العربية . ويستظهران من أوضاعها وصيغها ما يدل على الكثير من الأسباب الدائرة ، ويتعقبان الأخطاء الشائعة ، ويدلان على الصحيح الناصح (الخالص) من كلام العرب ...]

وكان يقوم بتصحيح أخطاء مطبوعات وزارة المعارف بتكليف منها ، وكان كثير الاطلاع على اللغة والأدب والحديث ويروى الشعر والأمثال والقصص ، وكان صحيح العبارة ، لطيف المعاشرة والمحاضرة ، فنهض بتبيان روائع الجاحظ والمبرد والقالى والزبيدى ، وعمل على تنقية اللغة من أدران العامية وكان كما يقول « الوسيط » : [ورعا تقيا يميل إلى الصالحين من المعلمين، ويحارب المتهاونين منهم بالدين ، وربما سعى فى فصلهم لإحاطه النشء بالفضيلة وإبعادهم عن الزيغ ، ويحب العرب والعربية] وكان يرى أن اللغة العربية لغة الحضارة والمدنية .

وكان بدوى الشعر لفظا ومعنى ، قال فى ختام مؤتمر العلوم الشرقية باستوكهلم سنة ١٨٨٩ م ، وقد اشترك فيه :

كم جامع بالثريا راضه سفر ... فوق الثرى بين أكوار وأقتاب
إن الشواء ثواء والقصور قبـ ... ـور العاجزين ولا إيراء للخابى
ومن بغى نيل مجد وهو فى دعة ... فقد بغى من صفاة در أحلاب
والمرء فى موطن كالدر فى صدف ... والتبر فى معدن والنبع فى غاب
والسيف مثل العصا إن كان مغتمدا ... وزامر الحى لا يحظى بإطراب
وأزهد الناس فى علم وصاحبه ... أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

وكان يلتزم الحديث باللغة العربية الصحيحة حتى مع خادمه .وفى أتفه سبابه ، وله رسالة مدح فيها السيد توفيق البكرى ، ولم يكن يلتزم طريقة واحدة ، ولكن

كان فى التوقيعات يستعمل أغرب الألفاظ . ولهذا قال صاحب « الوسيط » .
[وهو أملأ من شاهدناه باللغة والأدب والصرف]

ولما ظهر كتاب « الفرائد الجوهرية » للشيخ طنطاوى جوهرى كتب إليه يقرظه : [قد تصفحت كتيبك ، واجتليت فرائده ، واختبرت فوائده ، فإذا إجادة إحكام ، وإفادة أحكام ، كلها صحاح ، وعلم صراح] .

وما عسى يقال فى وصف (صحاح الجوهرى)

ومما قاله فى وصف السفينة وقد ركبها فى أسفاره إلى المؤتمرات :

حمد السرى يا أخى العود والناب — أنساك وغثاء إعباب وإجناب
فلو شهدت عبابا خضت لجته — على سفين بجنح الليل خباب
يطفو إذا خفقت فيه بأجنحة — من تحتها كل غواص ورساب
تجر فى اليم أذيالا مصبغة — كالخود تختال فى أذيال جلباب
وإن سرى شمأل ماست بنسمته — عطف كغيد ثناها فرط إعجاب
ظمأى على الماكعيس شفها حرق — من تحت أسقية ملأى وأوطاب
تسرى ببحر طويل لا يقطعه الخليل يوما بأوتاد وأسباب
وأدها من حديد خلفه حجر الشيزى وقد علقت منه بأذناب
يسرى على عجل من غير ما وجل — فكان أسرع ذهاب وأواب
يصعد الماء بالنيران أبخرة — كالسحب تدفعه قسرا بتجذاب

ومنها :

طفقت أختلها شزرا وقد سفرت — عنها اللثام ونضت فضل أثواب
تقول ما للنوى بى مولعا دنفا — يا ليتها بعذولى فى الهوى مابى

ومنها :

وهو الذى كان أغرانى بنظرته — فاعجب له كيف أغرانى وأغرى بى
فهو الذى إن كتمت الحب باح به — وهو الذى فى مهاوى الحب ألقى بى

ومن مؤلفاته « المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية » و « باكورة الكلام فى حقوق المرأة فى الإسلام » و « رسالة فى التوحيد » ورسالة أخرى فى سمات الغنم والإبل والخيل عنوانها « هدية الفهم إلى بعض أنواع الوسم » وله أيضا

« رسالة فى المفردات الأعجمية » وبه صور للإبل الموسومة الواردة فى القرآن .

وقال يمدح الوزير خير الدين باشا :

آلاؤك الغر أو آناؤك الغرر ... زها بها فى الزمان الجيد الطرر

الله ملجؤنا إذ ليس يعجزنا ... شر الخطوب وخير الدين لى وزر

حبر له همة أعلى وأرفع من ... هام الثريا ومجد ليس ينحصر

وسيرة سرت الدنيا بشائرها ... وضمخ الكون عرفا مسكها الذفر

لازال كهفا لمن يأوى بساحته ... فى ظله تعقد الآمال والوطر

وكعبة وزراء الفضل أنجمها ... تزهو به وهو فيها بينهم قمر

ـ أمين عبد القوى ـ

وهو الشيخ أمين عبد القوى الإدكاوى الشافعى الخليلى ، كان عالما متمكنا من علمه ، متواضعا فى خلقه ، محترما فى قومه . توفاه الله بإدكو سنة ١٩٣٢ ودفن بها وله كتاب « منهل الوراد ومطلب القصاد » فى الأدعية والأذكار الواردة من كتب الفقهاء فى الحج وقدم له الشيخ على الصقيلى الواعظ الإدكاوى المعروف .

وكان الشيخ أمين عبد القوى شاعرا ، أملانى له المرحوم الحاج حسن متولى قاقا فى رثاء صانع البرادع الحاج سالم دويب بإدكو هذه الأبيات :

ما للحمير غدوا بلوعة خاطر ... يرثى لحالهمو كيوم المحشر

باتوا حيارى لابرادع فوقهم ... يشكون من ألم افقد المبر

ويقول قائلهم :

ياحاج سالم إننا يتنا على ... حر اللظى وظهورنا لم تستر

فاذكر تحيتنا إليك وشوقنا ... لبنيك طرا سيما (للبربرى)

ومن شعره الوجدانى :

سألزم نفسى باتباع الشوارد ... وبحثى عن أسبابها بالشواهد

وقد علمتنى عزة النفس أننى ... أدوس بأقدامى رؤس الحواسد

ولم أتكل يوما على جاه جاهل ... ولو قل منى العزم بين الأماجد

ألم تك مرآة التجارب بصرت ... أولى المال أن المال ليس بخالد

ـ أحمد أحمد السيد عشرة ـ

ولد ونشأ بإدكو وحفظ القرآن ثم التحق بدار العلوم بالقاهرة وتخرج فيها سنة ١٩٢٢ ، وأسرع بإنشاء أول مدرسة ابتدائية (نظام قديم) ببلده ، على حسابه الخاص ، واحتفلت إدكو بافتتاحها ، وألقيت يومئذ قصيده منشورة فى ديوانى الأول (جرس المدرسة) ، وكان ذلك فى صيف عام ١٩٣٢ .

وبعد افتتاح الدراسة ، والتشجيع الذى لقيه من مدير البحيرة عبد السلام الشاذلى باشا وأهل إدكو ، اعتلت صحته ، ولم يستطع مقاومة المرض ، فاختاره الله إلى جواره وتوفى ودفن بإدكو فى نوفمبر سنة ١٩٣٢ عن ٢٦ عاما .

وكان رحمه الله أديبا خطيبا ، طالما اعتلى منابر إدكو وخطب ارتجالا فى مساجدها ، وكان وفيا لأهله وصحبه ، مخلصا لبلده ، فحسبه أنه أول من حمل شعلة التعليم الابتدائى قبل الأوان ، فقتله إخلاصه ، ولكن فليقر بالا وهو فى ساحة الخلد أن هذه المدرسة التى أسسها بماله سنة ١٩٣٢ أصبحت مدرسة إعدادية ثم أنشئت بها فصول ثانوية ، وقريبا تكون مدرسة ثانوية .

ـ حسين حسين زيتون ـ

ولد بإدكو ونشأ فى أحضانها ، ولما حفظ القرآن ، التحق بالأزهر ثم بمدرسة دار العلوم ، وتخرج فيها سنة ١٩٣١ ، واشتغل بتدريس اللغة العربية بمدارس الإسكندرية وساحل سليم ، وتنقل بين مدرسة النيل الابتدائية (نظام قديم) وبين كلية سان مارك وكلية البنات وكلها بالإسكندرية ، وكنت ألتقى به كثيرا بإدكو والإسكندرية ، وأنعم بصحبته وأتلقى الأدب عنه ، وكان يشجعنى على مداومة الكتابة والنظم ، وعاوننى كثيرا فى هذا المضمار بروحه الطيبة وخلقه السمح.

واشتد به المرض سنة ١٩٥١ فذهب على متن طائرة إلى إنجلترا التماسا للشفاء، ولكن القدر المحتوم عاجله هناك ، فنقل جثمانه الطاهر بالطائرة أيضا ودفن بإدكو فى يناير سنة ١٩٥١ عن ٤٥ عاما .

وكان رحمه الله عذب النكتة ، طيب القلب ، جميل الخلق والخلقة ، خلف له أبوه ثروة هائلة من الذهب ، ولكن اللصوص سطوا على البيت فسرقوا

هذه الثروة ، التي لم يكن يوما ما يعبأ بها ، فقد كان زاهدا فى حطام هذه الدنيا ، وكان كريما سخيا ، بساما على الدوام ، أحبه كل من عرفه ، وفى أخريات حياته ، سكن مع أسرته ضاحية (المندرة) بالإسكندرية ، حيث بنى منزلا فى هــذه الضاحية الجميــلة الساحرة ، وأنجب بنين وبنات ، ورثوا جميعــا عن أبيهم الجمال الكمال .

وقد وضع فى حياته كتابا من تطبيقات قواعد اللغة العربية لتلاميذه ، ضمنه عددا ضخما من الأمثلة الحية الأدب ، تدل على حسن اختيار ، ورهافة حس ، وسلامة ذوق ، وسعة اطلاع .

ـ محمد محمد عبد الحميد زيتون ـ

ولد بإدكو سنة ١٩٠٨ ، وحفظ القرآن بمكتب الشيخ إسماعيل زيتون ، ثم أكمل دراسته بالإسكندرية إذ انتقل إليها والده للتجارة ، وحصل على شهادة البكالوريا ، وعمل موظفا بمصلحة خفر السواحل حتى أصبح مديرا لمكتب مديرى هــذه المصلحة منهم عبد المنصف باشا محمود ، وحصل عــلى ليسانس الآداب والفلسفة ثم ليسانس القانون من جامعة الإسكندرية وعمل محاميا ، وكثيرا ما كان يتعاون مع شقيقه الأستاذ أحمــد المحامى أيضا فى القضايا الهامة ، وكان شاعرا مجيدا ، وكاتبا قديرا ، نشرت له جريدة الأهرام مقالات باسم «تقرير إبليس» انتقد فيها الخرافات المتوطنة فى الريف المصرى ، واشترك فى الأندية الأدبيــة بالإسكندرية ، وكان واسع الاطلاع ، قوى الذاكرة . وفيا لأقاربه ، واشتهر فى وسط المحاماة بالدقة والأمانة والاستقامة ، وكان مكتبه فى وســط شارع صفية زغلول بالإسكندرية على يسار القادم من محطة الرمل ، اشتد عليه المرض فلم يمهله ، فوافاه القدر المحتوم يوم ٢ فــبراير سنة ١٩٦٢ ، ودفن بمقابر العائلة بإدكو ، والخسارة فى مثله لا تعوض ، لما يتمتع به من ذكاء مفرط ، وعلم زاخر ، وكان موضع إعجاب كل من عرفه .

أعلام إخنا
(قيل إنها إذكو)

- عيسى الإخنائى -

ذكره ابن عطاء الله السكندرى فى « لطائف المنن » ح ١ بصدد الحديث عمن أخذ عليهم فقال : [وقرأت على كل من الشيخ عيسى الإخنائى ، والشيخ شمس الدين الديروطى ، والشيخ شمس الدين الدمياطى] ، وقد توفى ابن عطاء الله السكندرى سنة ٧٠٧ هـ ، وعلى ذلك يكون الإخنائى من رجال أواخر القرن السابع الهجرى على الأقل .

- تقى الدين الإخنائى -

ذكره ابن فهد فى « لحظ الألحاظ » عند ترجمته للعراقى المتوفى سنة ٨٠٦ هـ وذكره أيضا ابن بطوطة فى الرحلة بصدد حديثه عن قضاة مصر فى عهد دخوله إليها ، أما العراقى فقد حضر على قاضى القضاة تقى الدين الإخنائى المالكى ، وقال ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٩٧ هـ إنه الإمام الصالح ، قاضى قضاة المالكية ، فهو من رجال أواخر القرن الثامن الهجرى على الأقل .

- برهان الدين السعدى الإخنائى -

ذكره ابن حجر فى « رفع الإصر عن قضاة مصر » و « الدرر الكامنة » والسيوطى فى « حسن المحاضرة » .

وهو إبراهيم بن محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة السعدى الإخنائى وقيل ابن بدران بن إبراهيم بن أحمد السعدى الإخنائى ، ويلقب برهان الدين ابن علم الدين ، ولد بالقاهرة وسافر مع أبيه إلى الشام لما ولى القضاء بدمشق ، فسمع بها من أبى العباس الحجار والماكسينى الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٩ وإبراهيم ابن الوانى المتوفى سنة ٧٣٥ . وتفقه على المذهب الشافعى ، ثم عاد إلى القاهرة واستقر بها ، واشتغل فى مذهب مالك فمهر فيه ، وتولى الحسبة ونظارة المارستان

(المستشفى) ونظارة الخزانة السلطانية وناب فى الحكم وبعد موت أخيه تاج الدين محمد ، عين فى قضاء المالكية سنة ٧٦٣ ﻫ بعـد أن كان ينوب عنه ، واستمر فى عمله حتى مات فى ٢ رجب سنة ٧٧٧ ﻫ وكان مهيبا صارما نافذ الكلمة لا يقبل شفاعة فى الحكم وكان سعيدا فيما تولاه من الوظائف ، وقد نافسه فى القضاء بعض المغاربة ، فلم يزل بهم حتى شردهم ، ولم يعودوا إلى البلد إلا بعد وفاته . وله كتاب « مختصر فى الأحكام » .

وذكره السبكى أيضا فى الجزء السادس من « الطبقات الشافعية الكبرى » فقال (بدران) بدلا من (بدر) وأضاف (السعدى) بعد الإخنائى . وحدث عن أبى بكر الأنماطى والأبرقوهى وابن دقيق العيد (عالم قوص) ، وتولى قضاء الإسكندرية ثم الشام .

ولد فى رجب سنة ٦٦٤ وتوفى بدمشق فى ١٣ القعدة سنة ٧٣٢ ﻫ ، وكان قد استكتب شرح المنهاج لوالد السبكى وكان يجله ويقول : ما للشام قاض إلا السبكى .

وقال ابن نباتة فى رثائه :

آه لمصر وقد شابت لغربته فليس ينكر إذ يعزى له الهرم
وأوحش الثغر من رؤيا محاسنه فما يكاد لوجه الدهر يبتسم

ـ علم الدين الإخنائى ـ

ذكره المقريزى فى القسم الثانى ج ٢ من «السلوك» وقال : فى محرم سنة ٧٣٠ ﻫ استقر علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدر بن رحمة الإخنـائى قاض الإسكندرية فى منصب قاضى القضاة بدمشق بدلا من علاء الدين على القونوى ، واستقر بدله فى قضاء الإسكندرية علم الدين الإسنوى .

ـ أحمد بن محمد الإخنائى ـ

ذكره البغدادى فى « هدية العارفين » فقال :

أحمد بن محمد بن عبد الله الإخنائى المالكى المصرى وهو أديب عالم بالفرائض وله ديوان شعر وتوفى سنة ٨٤٢ ﻫ .

ـ البهاء محمد الإخنائى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء التاسع من « الضوء اللامع » فقال هو : محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة البهاء بن العلم بن الكمال القاضى الشافعى بدمشق العلم الإخنائى وأخوه التقى السعدى الإخنائى قاضى المالكية بمصر ، ناب فى القضاء وكان متميزاً فى قضائه وهو من بيت جليل مشهور . مات فى شعبان سنة ٨٥٦ ودفن بتربة (جوش) وأخذ عن الأقفهسى والبساطى والشرابى والزين العراقى ، وقد حكم بالقتل على تختشباى الأشرفى حدا ، وذكر أيضاً العلم أحمد ابن التاج محمد بن العلم محمد الإخنائى ، وكذلك الشمس محمد بن محمد بن عثمان بن محمد ابن أحمد بن محمد بن أبى بكر الإخنائى الشافعى وكلهم من أهل القرن التاسع .

ـ زكى الدين الإخنائى ـ

ذكره السخاوى أيضاً فى الجزء الثامن من « الضوء اللامع » .

وهو محمد بن عبد الواحد بن العماد محمد بن العلم أحمد بن أبى بكر تقى الدين بن زكى الدين الإخنائى الناهرى المالكى ، نائب الحكم ، كان من خيار القضاة ، وتوفى بمكة عن ٦٣ سنة فى ٦ من ذى الحجة سنة ٨٣٠ ه‍ ، وهو كما يقول السخاوى [من بيت فضل وعلم ورياسة] ، وذكره أستاذه ابن حجر فى « الأنباء » باختصار .

ـ فاطمة الإخنائية ـ

ذكرها السخاوى فى الجزء الحادى عشر من « الضوء اللامع » .

وهى بنت قاضى المالكية التاج محمد بن محمد الإخنائى وزوجة الصدر المناوى ، وقد توفيت بعد موته ، وذكرها المقريزى أيضاً ، وأثنى السخاوى على علمها وخلقها .

ـ شمس الدين الإخنائى ـ

وهو شمس الدين محمد بن محمد بن عثمان الإخنائى تولى قضاء الشافعية بمصر فى ١٣ محرم سنة ٨٠٦ ، وأخذ يتعاقب عليها هو وجلال الدين البلقينى ، وكانت المرة الرابعة لتوليه إياها سنة ٨٠٨ ه‍ ، وهى السنة التى توفى فيها ابن خلدون .

أعلام الحماد

ـ حسن عبيد ـ

وهو دفين الحماد ، وأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ محمد بن صالح البناء الرشيدى المتوفى سنة ١٢٨٥ هـ ، أما ابنه السيد محمد بن حسن عبيد فهو دفين إدكو .. وحفيده السيد أحمد بن محمد بن حسن عبيد دفين (الكنايس) على الشاطىء الجنوبى لبحيرة إدكو .



أعلام الجدية

ـ حسن الجداوى ـ

ذكره الجبرتى فقال إنه : أحد المتصدرين وأحد العلماء المتبحرين الشيخ حسن بن غالب الجداوى المالكى الأزهرى ، ولد بالجدية قرب رشيد سنة ١١٢٨ هـ ونشـأ بها ، ثم قدم الأزهر فتفقه على الشيخ شمس الدين محمد الجداوى ـ من الجدية أيضاً ـ وعلى محمد بن محمد السلامونى أفقه المالكية فى عصره ، كما حضر على شيوخ العصر : على خضر العمروسى ، ومحمد البليدى ، وعلى الصعيدى ، وصار من أعيان العلماء وقام بالتدريس والإفتاء .

وكان فى كل سنة ينزل إلى بلده ، فيقيم بها أياما ، ويجتمع عليه أهل هذه المنطقة ، ويقدمون إليه الهدايا ، ويعرضون عليه مشاكلهم ومواريثهم ومنازعاتهم يؤجلونها حتى يحضر فى موسم حضوره من كل عام ، ولا يثقون إلا بحكمه وفتواه ، ثم يعود بما أهدوا إليه من الأرز والسمن والعسل والقمح ، وكل ما يكفى عياله طول العام مع الحشمة والوقار والعفة ، وتوفى سنة ١٢٠٢ هـ أين ؟ لا ندرى .

ـ محمد شنن الجداوى ـ

ذكره سليمان رصد فى « كنز الجوهر » ، وكان مالكى المذهب ، وهو رابع شيخ للأزهر الشريف ، وأصله من الجدية ، وتوفى سنة ١١٣٣ هـ ، وكان أغنى أهل زمانه ، فاقتنى المماليك والجوارى ومنهم أحمد بك شنن ، وترك ثروة طائلة بددها من بعده ولده .



أعلام لقانة

ـ الشرف اللقانى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء العاشر من « الضوء اللامع » ، وهو محمد بن موسى ابن عمر بن عوض بن عطية بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشرف بن الشرف اللقانى الأزهرى المالكى ، ولد سنة ٧٧٢ هـ ، وضبط الأسماء وكتب الطباق ، ومن شيوخه التنوخى وابن الشيخة وعزيز الدين المليجى والمطرز والسويداوى والحلاوى ، وتكسب بالشهادة ، وباشرها بعدة أوقاف ، وكتب فى الإنشاء وولى قضاء الركب ، وتوفى فى ٥ شعبان سنة ٨٤٠ هـ بمنزله بجوار الأزهر ، قال عنه ابن حجر فى «الأنباء» : نشأ مع أبيه ، وقرأ به فى الجوق وكان حسن الصوت وطلب الحديث ، وكتب أسماء السامعين ، واتصل بالشرف الدماميني حينما ولى نظر الجيش ، ثم بفتح الله حين ولى كتابه السر فلازمه ، حتى استقر شاهد ديوانه وباشر (توظف) فى عدة جهات .

ـ إبراهيم اللقانى ـ

ذكره ابن اياس فى « بدائع الزهور » . وهو برهان الدين إبراهيم بن عمر بن محمد بن موسى بن جميل اللقانى المالكى الأزهرى وقاضى قضاة المالكية ، توفى

سنة ٨٩٦ هـ بعد عزله من القضاء ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهبه ، متدينا محسناً محمود السيرة والسريرة .

وكان السلطان قايتباى سنة ٨٧٧ قد رقاه من نيابة الحكم وجعله فى قضاء المالكية بدلا من ابن حريز ، وكان يلقب برهان الدين مثل سميه اللاحق تاليه .

ـ ناصر الدين اللقانى ـ

ورد ذكره فى الجزء الرابع من « فهرست الكتبخانة » .

وهو ناصر الدين محمد اللقانى المتوفى سنة ٩٥٨ هـ وله « حاشية على شرح التفتازانى » .

ـ برهان الدين اللقانى ـ

ذكره المحبي فى « خلاصه الأثر » وجورج زيدان فى « تاريخ آداب اللغة العربية » ورمضان حلاوة فى « دستور الإعلام » وعلى مبارك فى « الخطط التوفيقية » .

وهو برهان الدين إبراهيم اللقانى ، المشار إليه فى علم الحديث والواسع الاطلاع على علم الكلام ، وكان المرجع فى الفتاوى والمشكلات فى وقته بالقاهرة وكان الحكام يقبلون شفاعته ويجلونه كل الإجلال ، وكان يصرف وقته فى التدريس بالأزهر وإفادة المتعلمين ، وكان مالكى المذهب ، حج فى سنة ١٠٤١ وفى عودته أدركته الوفاة فدفن بالقرب من عقبة أيلة (العقبة : إيلات) .

وكان قد أخذ العلم من أبى المنجا السنهورى ومحمد البهنسى ويحيي العراقى إمام المحدثين وشيخ رواق ابن معمر بالأزهر ، وكان من أساتذته فى التربية والتصوف الشيخ الشرنوبى .

ومن مؤلفاته : « جوهرة التوحيد » وهى أرجوزة فى علم الكلام و « توضيح ألفاظ الآجرومية » و « قضاء الوطر من نزهة النظر فى توضيح نخبة الأثر للحافظ ابن حجر » و « إجمال الوسائل وبهجة المحافل بالتعريف برواية الشمائل » و « منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى » و « عقد الجمان فى مسائل الضمان » و « نثر المآثر فيمن أدرك من القرن العاشر » وفيها ذكر مشايخه : محمد البكرى الصديقى ، والرملى شارح المنهاج ، وأحمد ابن قاسم

العبادى ، وغيرهم من الشافعية ، وعلى بن غانم المقدسى ، والشمس محمد النحريرى وعمر بن نجيم من الحنفية ، ومحمد السنهورى ، وطه وأحمد المنياوى ، وعبد الكريم البرمـــونى من المالكية ؛ ومن مشـــايخ الصوفية : أحمد البلقينى الوزيرى ، ومحمد بن الترجمان .

وله أيضاً « نصيحة الإخوان باجتناب الدخان » وهو مخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية وقد اطلعت عليه فوجدته يفرق بين المسكر والمفسد ، ويتحدث عن الحشيشة والدخان [الذى يسميه العامة بالطابة أو التنباك والتتن والتابغة] ويذكر تاريخ جلبه إلى مصر من المغرب على يد السفاح أحمد بن عبد الله الخارجى ، ثم يستشهد بما قاله (جالينوس) و (ابن سينا) و (ابن عسكر) و السبكى) .

وتناول اللقانى فى كتابه أثر الاستعمار والإنجليز فى إفساد عقولنا بإدخال الدخان إلى بلادنا ، ومافعله الوزير محمد باشا والى مصر ثم الوزير أحمد فى اهتمامهم بمنع الناس من تعاطيه حفظاً للصحة والدين ، وحرصاً على الثروة القومية للبلاد من أن تتبدد على أيدى المستعمرين .

وقد أنجز اللقانى كتابه هذا فى أقل من يوم ، عقب زيارته لمقبرة المجاورين بالقاهرة .

وقد كتب العلماء الشروح المتعددة على رسالته « جوهرة التوحيد » منها « هداية المريد » الموجودة فى عدة مكتبات بأوروبا .

وممن أخذ عنه والده عبد السلام اللقانى ، والشمس البابلى والعلاء الشبراملسى ويوسف الفيشى ، وياسين الحمصى ، وحسين النماوى ، وحسين الخفاجى ؛ وأحمد العجمى ، وأحمد الخراشى ، وأجاز لبعض المغاربة ، وفى « فهرست الكتبخانه » بالجزء الأول إجازه من ست أوراق لأحدهم ، وأخذ عنه البصير المكى شمس الدين محمد الأسكندرانى المالكى الشاعر البليغ المتوفى سنة ١١٤٩ هـ والذى نظم تفسير القرآن فى نحو عشر مجـلدات ، كما يقول رمضان حلاوة فى الجزء الثانى من « دستور الإعلام » .

ـ عبد السلام اللقانى ـ

ذكره المحبي فى « خلاصة الأثر » ج ٢

وهو عبد السلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللقانى شيخ المالكية فى وقته بالقاهرة . كان والده البرهان اللقانى السابق ، ولد سنة ٩٧١ هـ وتوفى فى ٢٥ شوال سنة ١٠٧٨ هـ ، وكان ذا مهابة لدى كبار مشايخ العصر ، فقد تصدر بعد أبيه للتدريس بالجامع الأزهر وكان بارعا فى الحديث والأصول ، ولم يكن يجرؤ أحد على أن يسأله فى الدرس لهيبته .

ومن مؤلفاته : « شرح المنظومة الجزائرية » فى العقائد ، وشروح ثلاثة على «جوهرة التوحيد» لوالده واشتهر أحد هذه الشروح وهو « هداية المريد فى شرح جوهرة التوحيد » المخطوط بمكتبات برلين وغوطا كما سبق أن قلنا كان فى شبابه يلهو ويعبث ثم تاب وأناب ، وقال المحبي [وقد سمعت بعض الأشياخ المصريين يقول : إنه لو دن على وتيرة والده من الإكباب على الإفادة لفاته بمراحل]

ـ غرس الدين اللقانى ـ

ذكره كحالة فى « معجم المؤلفين » بالجزء الرابع ، والبغدادى فى « هدية العارفين » و « إيضاح المكنون » والأزهرى فى « اليواقيت الثمينة » وهو : غرس الدين أبو مفلح خليل بن إبراهيم بن على اللقانى المالكى . وكان محدثا عارفا بالرجال ، ومن مؤلفاته : « إتحاف ذوى الإرشاد بتجريد ذوى الأسناد » فى أسماء شيوخه ، « وتنبيه الفهيم بذكر من تسمى باسم محمد الكريم » ، وله رد على سراهندى الذى قدم مصر سنة ١٠٩٤ هـ ومؤلف كتاب فى الطعن على الأنبياء ، فانبرى له اللقانى بكتابه « الصارم البارق فى الرد على سرهندى المارق » وقد اطلعت عليه ويقع فى ٤٦٠ صفحة مخطوطا برقم ١١٨ بمكتبة جامعة الاسكندرية وفيه الغيرة على الدين ، والقوة فى إيراد الحجة على الكفار .

أعلام تروجة

ـ ابن فرج التروجي ـ

وهو : أبو محمد عبد الكريم بن أحمد بن فرج التروجي سمع الحديث بالإسكندرية على يد عالمها ومحدث الدنيا والمسند الأشهر الحافظ السلفي وذلك في غضون القرن السادس الهجري .

وقد ذكره السلفي فيمن أخذوا عنه (راجع « معجم السفر ») .

ـ ناصر الدين التروجي ـ

ذكره السخاوي في « الضوء اللامع » بالجزء الثامن :

وهو محمد بن عبد الله ناصر الدين التروجي ثم القاهري ، كان مالكي المذهب وأحد نواب المالكية ، توفي سنة ٨٠٣ هـ ، وأثنى عليه السخاوي ، وذكره ابن حجر والمقريزي .

ـ أحمد بن سليمان التروجي ـ

ذكره السخاوي في « الضوء اللامع » حـ ١

وهو أحمد بن سليمان بن أحمد الشهاب المصري ثم السكندري ويعرف بالتروجي ، كان مالكيا . سكن الإسكندرية ثم دخل العراق والهند ، وصار له شأن كبير في البنغال (الباكستان) واغتنى ثم افتقر ، وأقام بالحرمين عدة سنوات ومات بمكة في ٤ شوال سنة ٨١٢ هـ ودفن (بالمعلاة) عن حوالي ستين عاما ، وكان شاعراً خيرا ، أوقف عدة كتب برباط الخوزي بمكة ، وكان يتخذه سكناه ، وبه توفي ذكره الفاسي في « تاريخ مكة » ، وأثنى عليه السخاوي إذ قال إنه [كانت له نباهة في العلم والحكايات والأشعار] .

ـ خلف التروجي ـ

ذكره السخاوي في « الضوء اللامع » حـ ٣ .

وهو خلف بن علي بن محمد بن أحمد بن داود بن عيسى المغربي الأصل التروجي المولد

السكندرى الإقامة الشافعى المذهب ، ولد سنة ٧٦٠ ﻫ بتروجة . ثم انتقل مع خاله البرهان إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعى بعد وفاة والده إلى الإسكندرية فسكنها وقرأ بها القرآن صغيرا وتفقه على يد محمد بن عبد الرحيم الرشيدى . ودرس النحو ثم حج سنة ٨٠٩ ﻫ وتردد على القاهرة ، وسمع البلقينى وابن خلدون ، وسمع الموطأ من ابن الملقن بالإسكندرية وأجازة ابن الملقن والبلقينى والعراقى والمناوى . وهم يومئذ فطاحل العلماء وصار شيخ الشافعية والمالكية بثغر الإسكندرية ، ولقيه بها البقاعى وتباحث معه ، وقدعرضت عليه ولايات ومناصب فأبى . وصار يتكسب من عمل يده حتى مات بالإسكندرية فى رجب سنة ٨٤٤ ﻫ

ومن مؤلفاته : « المرتب فى الحديث » و « الرد على الجهمية » و « فضائل إسكندرية » .

ـ ابن عمر التروجى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » ح ١

وهو أحمد بن عمر بن أحمد بن منصور بن موسى الشهاب التروجى ، الشافعى عرف فى تروجة وماحولها باسم ابن عمر ، وولد بها حوالى سنة ٧٨٢ ﻫ وحفظ القرآن بالإسكندرية وتلا القرآن على بعض المغاربة وصلى به ، وعرض على البدر الدمامينى وتباحث معه فيه وفى ألفية ابن مالك ، وعلى النور على بن صالح والزين خلف التروجى بالإسكندرية ، وتردد على القاهرة كثيرا ، فحضر بها على الشمس العراقى والجلال البلقينى والبساطى والقاياتى والونائى وكان يصحب الشهاب بن أسد ويطارح البقاعى ، وسمع على ابن حجر العسقلانى وغيرهم وله أشعار ، وتوفى بالإسكندرية حوالى سنة ٨٦٠ ﻫ ، وكان ابنه على قد سكن الإسكندرية واستقر بها من بعده .

ويظن السخاوى أن ابن عمر التروجى كان عاقد الأنكحة (المأذون) ببلده .

ـ فاضل بن مخلوف التروجى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » بالجزء السادس .

وهو فاضل بن مخلوف بن خلف بن سليمان الشمس التروجي السكندري ، نزيل القاهرة ، وأحد المؤذنين بالقصر السلطاني توفي في ربيع الأول سنة ٨٨٣ﻫ وكان جميل الصوت في الأذان والتسبيح ، فاشتهر بذلك في بلده وفي القاهرة والإسكندرية .

- ابن الفقيه موسى التروجي -

ذكره السخاوي في الجزء العاشر من « الضوء اللامع » .

وهو محمد بن موسى الشمس التروجي الأصل، السكندري، التاجر المعروف با ن الفقيه موسى التروجي. تزوج من بنت الجمال بن عيسى الحنبلي ثم فارقها لما عرف عنه من بخل زائد وجهه الأشرف قايتباي في نظر الذخيرة بالإسكندرية مع المتجر السلطاني ، وذلك بعد البرهان البرنتيشي (برنتيش : حصن في غرب الأندلس) وقد توفي في ربيع الاول سنة ٨٨٥ ﻫ .

- محمد بن عبد الله التروجي -

ذكره السخاوي أيضا في « الضوء اللامع » .

وهو محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الحق الفاضل أبو عبد الله التونسي الأصل ، المغربي المالكي ، أقام بالإسكندرية وتزوج من تروجة ، فصار يتردد بينهما وكان يتكسب من مهنة الخياطة ومات بالإسكندرية سنة ٨٨٨ ﻫ .

- خليل التروجي -

ذكره أيضا السخاوي في « الضوء اللامع » ج ٣ .

وهو خليل بن الشهاب أحمد بن خليل التروجي السكندري ، نزيل مكة وبها أنجب أولادا ، وتوفي بها في شعبان سنة ٨٨٨ ﻫ ، وكان أولاده لايزالون بها حتى سنة ٨٩٧ ﻫ ، وكان كثير المعاملة للناس .

- محمد بن على التروجى -

ذكره أيضا السخاوى فى « الضوء اللامع » .

وهو محمد بن على بن عواض السكندرى التروجى ، نزيل القاهرة . كان تاجراً ثم ترك التجارة وبنى دارا قرب (سوق أمير الجيوش) ثم رحل إلى مكة ، وسمع بها من السخاوى سنة ٨٨٦ هـ ، وتوفى هناك فى ٢٥ ربيع الأول سنة ٨٩٧ عن أكثر من ستين عاما ، ودفن بتربة (بنى عليبة) . وكان ينتمى إلى أبى العباس ابن العمرى .

- قاسم التروجى -

ذكره السخاوى أيضا فى الجزء السادس .

وهو قاسم بن محمد بن مسلم بن مخلوف التروجى السكندرى ، سمع « الشفا » على ابن الملقن ، وكان يروى ، وذكره ابن حجر فى معجمه

- ابن مالك التروجى -

ذكره السخاوى كذلك فى الجزء الثامن :

وهو محمد بن مالك التروجى المالكى . شهد فى إجازة جمال الريتونى على بعض القراء سنه ٨٩١ هـ ، وعرض عليه ابو الحفار بعد سنه ٨٩٦ هـ .



أعلام برج مغيزل

نسب المؤرخون أعلام هذه القرية الصغيرة فقالوا « البرجى » ، ونظراً لأن هذه القرية صغيرة وتابعة لرشيد ، فإنهم كانوا ينسبون أعلامها إلى رشيد ، ومنهم :

- عبد الواحد البرجى -

ذكره المحبى فى « خلاصه الأثر » جـ ٣ والزركلى فى « الأعلام » والبغدادى فى « هدية العارفين » والخفاجى .

وهو عبد الواحد بن عبد الله البرجي الرشيدي المصري الشافعي ، ولد برشيد وكان إمام برج مغيزل ، وتوفى بالقاهرة فى شوال سنة ١٠٢٣ ودفن بتربة الجلال السيوطى ، عن مائة سنة فأكثر .

وكان شاعراً ومؤرخاً ، له « نزهة المسامرة فى أخبار مصر والقاهرة » وذكر فيه الوزراء الذين تولوا الوزارات المصرية .

قال فى نائب غير رشيد على ثغر رشيد :

قلت للنائب الذى قد رأينا معايبه
لست عندى بنائب إنما أنت نائبه

وقال : لاتحسبن أن هجوى فيك مكرمة شعرى يهجو لئيم قط ماسمحا
لئن أجرب طبعى فيك فهو كما جربت فى الكلب سيفاً عندما نبحا

ومن شعره وقد سمع بوفاته أحد قضاة مصر :

قالوا : قضى القاضى فوا حسرتا إن لم يكن قد مات من جمعة
مصيبة . . لاغفر الله لى إن كنت أجريت لها دمعة

وقال عنه تلميذه الشيخ مدين القوصوني : إنه كان عارفا بعلوم شتى ، وكان حاضر البديهة ، وكثير الحفظ للنوادر ، ومن مشاهير الفضلاء ، قرأ عليه السيد محمد الحجازى .

وقال أيضاً :

يقولون لى قهوة البن هل تحل وتؤمن آفاتها
فقلت : نعم هى مأمونة وما الصعب إلا مضافاتها

وسئل عن هذه المضافات ؟ فقال : هى المكيفات التى تستعمل معها .

ومن إملائه بثغر رشيد سنة ١٠٠٩ .

لعمرك ما أهديت للحب خاتماً ولا قلماً يبرى ولا بست عينه
ولا آلة للقطع تقطع بيننا فما سبب التفريق بينى وبينه

وقال أيضاً :

لاتصحبن ناقصاً فتضحى قليل حظ كثير ذنب
وانظر إلى الرفع من أبو من والخفض فى القبر بعد حرب

اعلام بلقطر

ـ الشيخ شعبان البلقطرى ـ

ذكره الشعرانى عرضاً فى ترجمته للشيخ على الشونوزى : قال عنه فى الجزء الثانى من « الطبقات الكبرى » إنه أجل أصحاب الشيخ شعبان البلقطرى بدمنهور البحيرة ، وقد صحب الشعرانى الشيخ الشونوزى عشر سنوات ، ومات بالقاهرة بعد سنة ٩٣٠ هـ ، ودفن بها .

ـ يوسف البلقطرى ـ

ذكره رمضان حلاوة فى « دستور الإعلام » فقال :

هو يوسف بن بركات بن محمد بن بركات بن على البلقطرى من رجال القرن الحادى عشر ، وله تأليف فى المذهب ، اطلع عليه رمضان حلاوة ولكنه لم يذكر لنا شيئا عنه غير هذا .

ـ عبد الباقى البلقطرى ـ

ورد ذكره فى « فهرست الكتبخانة » .

وهو عبد الباقى بن بركات بن يوسف البلقطرى المالكى الخطاط ، كتب بخط يده كتاب « المنهج المبين فى شرح الأربعين » (= حديثاً للنووى) من تأليف الفاكهانى السكندرى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ، وهو من ٢٩٨ ورقة وفرغ من كتابته سنة ١٠٧٧ هـ ، فهو خطاط من القرن الحادى عشر .

ـ موسى بن محمد البلقطرى ـ

ذكره البغدادى فى « هدية العارفين » .

وهو موسى بن محمد بن بركات البلقطرى الأصل ، السكندرى المنشأ والموطن ، وهو من أهل القرن الحادى عشر أيضاً ، وله « اللمعة المغنية » و « الفتح المبين لشرح السنوسية » و « أم البراهين » فى التوحيد .

- إبراهيم بن عيسى البلقطرى -

ذكره رمضان حلاوه فى « دستور الإعلام » .

وهو الإمام المحدث إبراهيم بن عيسى بن موسى الزبيرى البلقطرى ، ولم يذكر لنا شيئا عنه غير ذلك .

- على بن إبراهيم البلقطرى -

ذكره رمضان حلاوة أيضا فقال :

[وعندنا بالإسكندرية الشيخ البلقطرى ، لم أقف على تاريخه ، وإنما المشهور أن اسمه على بن إبراهيم فالظاهر أن جده المذكور] .

- عبد اللطيف بك الصيرفى -

كتب تاريخ حياته نقله فى مقدمة ديوان شعره الذى نشره من بعده ابنه السيد عبد العزيز الصيرفى سنة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٨ م .

ولد بالإسكندرية فى ٨ ربيع الأول سنة ١٢٥٧ هـ بحارة التراززة ونشأ بها . وتعلم العربية والتركية وتقلب فى مناصب كثيرة بديوان محافظة الإسكندرية وديوان البحرية ، والمسافرخانة ، وانتخب وكيلا لمديرية البحيرة ، حيث كان مديرها إبراهيم باشا توفيق فى أيام وزارة محمود سامى البارودى ، ولكن الوشاة تمكنوا من الحيلولة بينه وبين هذا المنصب، وكان من أعز أصدقائه أحمد باشا خيرى ناظر الأوقاف الخاصة الخديوية فى عهد عباس حلمى الثانى ، والذى صار مديرا للبحيرة، وخصه الصيرفى بالكثير من مدائحه .

واشتغل الصيرفى بالمحاماة ، وصار نائب مستشار ثم مستشارا لمحكمة الاستئناف وأحيل إلى المعاش ، فاستقر بأسرته فى (بلقطر) حيث استبدل باستحقاقه لدى الحكومة أرضا واسعة ، بلغت الألف فدان ، وضاق ذرعا بالإقامة بالريف ، فعاد إلى الإسكندرية ، حيث وافاه القدر المحتوم فى رجب سنة ١٣٢٢ هـ .

وديوان شعره حافل بشتى الأحداث، ومتعدد الشخصيات ذات الصلة

بتاريخ البحيرة، فعندما زار عباس دمنهور ، كان مطلع قصيدته في هذه المناسبة [اليوم تحسدها الدنيا « دمنهور »] وعندما صار صديقه أحمد خيرى باشا مديرا للبحيرة ، خاطب بشير الأنس قائلا :

أو لم تدر بمن جاء　　　مديرا للبحيره

وطالما هنأه برمضان والأعياد سنة ١٣١٢ وما بعدها ، وهنأ مصطفى بك وكيل المديرية سنة ١٨٩٧، وكان إذا دعى إلى وليمة أو حفل راقص وصف مارأت عيناه شاكرا لخيرى باشا ، وكثيرا ما شكا إليه نثرا وشعرا من مستنقعات (بلقطر) فيتخيل أنه أمر بردمها في رؤيا رآها فقال سنة ١٣١٥ هـ :

في عالم الرؤيا رأيت رحابكم　　　قد حل قريتنا بهدى الجمعة
ورأيتمو البرك الوبيلة لم تزل　　　في حالها الشانى لشان الصحة
فطلبتمو أربابها وأمرتمو　　　حالا برميهمو بأعمق بركة
وكذا المشايخ فوقهم ويسوقهم　　　جاويشك اسماعيل ثم بزخمة

ويستمر متخيلا البنين والبنات ووكيل المديرية وحكمدار الجنود والمأمور في همة ونشاط ، وبعد أن تم ردم (بركة بلقطر) في المنام ، زار المدير منزل الشاعر ، ثم يختم بقوله :

فلعلنى خيراً رأيت ولم يكن　　　هذا المنام كما أرى في اليقظة

ويرد ذكر (دمنهور) كثيرا في شعره متغزلا تارة ، وهاجيا لحاكم ثقيل تارة أخرى ، فيقول مثلا :

كانت (دمنهور) لنا　　　مهد المحاسن والظرائف

ويقول أيضاً في إحدى زياراته :

أتيت (دمنهورا) أروح بالصفا　　　فؤادا دعاه للرفاق حنين
فساق لى المقدور ظبيا مهفهفا　　　يتيه بفرق للجبين يزين

كما أن في نثره رسائل عدة تفصح عن صلاته بأعيان البحيرة في عصره مثل محمود بك الحبشى ، ويضمن رسائله بعض الملح والطرائف .

وعلى الرغم من أن الصيرفى قد ولد ومات بالإسكندريه ، إلا أنه منذ أقام بعزبته المعروفة ببلقطر ، قد جعل يضمن شعره ونثره الكثير من معالم الحياة الأدبية والحضارية والعمرانية والاجتماعية فى عصر توفيق وعباس ، وهكذا نلتمس التاريخ أحيانا من الآثار الأدبية ، حين تعوزنا المراجع التاريخية .

والمعروف أن عبد اللطيف بك الصيرفى هو جد السيد محمد شفيع الصيرفى رئيس محكمة استئناف مصر حالياً ، كما أن هناك عائلة الصيرفى التى تقيم بناحية «قليشان» بحيرة ، ولا علاقة للمترجم بها إلا فى الاسم ، هكذا أخبرنى السيد أحمد خيرى ، زاده الله من فضله ونفعنا بعلمه .



أعلام سنهور

ـ أبو المعالى السنهورى ـ

ذكره السلفى فى « معجم السفر » ، وهو : أبو المعالى متوج بن جواهر بن موسى السنهورى المالكى ، كان يصلى فى أحد مساجد الإسكندرية ، وكان محمود السيرة ، قال السلفى : [سمعت ابن عمى القاضى أبا الفتوح نصر بن موسى بن أسلم بسنهور] ومعنى ذلك أنه معاصر للسلفى ، فهو من أهل القرن السادس الهجرى .

ـ نور الدين السنهورى ـ

ذكره التمبكتى فى « نيل الابتهاج » وابن إياس فى « بدائع الزهور » : وهو نور الدين على بن عبد الله بن على السنهورى المالكى ، وكان إماما فى المالكية وله شهرة طائلة ، ولد بسنهور سنة ٨١٤ ومات فى ١٩ رجب سنة ٨٨٩ . أخذ عن أبى القاسم النورى والناصر اللقانى ، وبرع فى الفقه والعربية والقراءات السبع وغير ذلك من العلوم . وألف عدة كتب ، وكان متدينا ومباركا ، مع التواضع والتقشف

- جعفر السنهوري -

ذكره السخاوي في « الضوء اللامع » وعلى مبارك في « الخطط التوفيقية »
وهو جعفر بن إبراهيم السنهوري ، ولد بسنهور نحو سنة ٨١٠ هـ وفارقها إلى
المحلة ودرس بالأزهر على الشهاب الإسكندراني والتاج الطوخي في علم القراءات
وتوفي سنة ٨٩٤ ودفن « بتربة سعيد السعداء »

- البرهان السنهوري -

ذكره السخاوي في « الضوء اللامع » بالجزء الأول :
وهو إبراهيم برهان الدين السنهوري المالكي ، كان عالما بالقراءات والفقه
والأصول والفرائض ، ولم يذكر مولده ووفاته .

- الشهاب السنهوري -

ذكره السخاوي أيضا في الجزء الثاني من « الضوء اللامع »
وهو أحمد بن محمد بن علي الشهاب السنهوري ، وكان ممن أخذ عن السخاوي.

- الشمس السنهوري -

ذكره السخاوي في الجزء العاشر :
وهو محمد بن علي الشمس السنهوري ويعرف بابن الأصيفر قرأ البخاري
على الرشيدي .

- محمد بن هارون السنهوري -

ذكره الشعراني في « الطبقات الكبرى » وعلى مبارك في « الخطط التوفيقية »
له ضريح في (سنهور) ، ومما يعرف عنه أنه كان يقوم لوالد سيدي إبراهيم الدسوقي
إذا مر عليه بكل إجلال واحترام .

- سالم السنهوري -

ذكره المحبي في « خلاصة الأثر » وعلى مبارك في « الخطط التوفيقية » ورمضان
حلاوة في « دستور الإعلام » وهو : سالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين

ابن عز الدين بن ناصر الدين بن عز العرب أبي النجا السنهوري ، الإمام المالكي المحدث ، خاتمة الحفاظ ، ومفتي المالكية ورئيسها ، ولد بسنهور ، وقدم القاهرة وعمره أحدى عشرة سنة . وأخذ العلم عن النجم محمد بن أحمد الغيطي السكندرى وروى عنه وعن البنوفرى ، وأدرك اللقاني ، وأخذ عنه كثير من علماء مصر والشام والحجاز أمثال : البرهان البابلي ، وسليمان البابلي . وله « حاشية على مختصر خليل » في الفقه ، ورسالة في ليلة النصف من شعبان وتوفى في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٠١٦ عن سبعين عاما ودفن بمقبرة المجاورين بالقاهرة .

ـ الأمير حسن السنهوري ـ

ذكره على مبارك في « الخطط التوفيقية »

وهو الأمير حسن بك نورالدين بن محمد نور الدين ، ولد بسنهور سنة ١٢٣٧ﻫ وتعلم أولا في مكتب (كفر مجر) بجوار سنهور ، وانتقل إلى طنطا ، واستكمل دروسه بمكتب قصر العيني ، ثم بأبي زعبل ، ثم درس الهندسة ببولاق بمدرسة « المهندس خانه » وكان في فرقة على مبارك وأتم دراسته في فرنسا .

هذا وقد أورد على مبارك في « الخطط » بالجزء الثاني عشر ، أضرحة سنهور وهي : مقام الشيخ على النصيح ـ ومقام الشيخ نصر الدين ـ ومقام الشيخ محمد السعودي ومقام الشيخ محمد الرباطي ومقام الشيخ محمد فخر الدين الحيطاوي — وضريح محمد ابن هارون السنهوري .

وتحت يدي أيضا وثيقة تشير إلى أن أبا العباس أحمد السنهوري ـ وهو لاشك من أهل القرن الثامن الهجري مدفون بإدكو حيث لاتزال بها عائلة سنهوري إلى اليوم ، (راجع ترجمة : شافع بن السائب في « أعلام إدكو » صفحة ٥١٨ من الكتاب) .

اعلام شبراخيت

ـ البرهان إبراهيم الشبراخيتى ـ

ذكره كثيرون منهم : الجبرتى فى « يومياته » والأزهرى فى «اليواقيت الثمنية» والبغدادى فى « هدية العارفين » و « إيضاح المكنون » والزركلى فى « الأعلام » وعلى مبارك فى « الخطط التوفيقية » والتونكى فى « معجم المصنفين » وكحالة فى «معجم المؤلفين » وطلس فى « الكشاف » ورمضان حلاوة فى « دستور الإعلام» وفى فهرست المؤلفين بالظاهرية بدمشق وفهرست الأزهرية وفهرست التيمورية وفهرست الكتبخانة :

وهو برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم بن مرعى بن عطيه الشبراخيتى المالكى المذهب . ينسب إلى شبراخيت . وكان محدثا فقيها ونحويا وأصوليا . توفى غريقا بالنيل بالقرب من رشيد فى طريقه إليها وذلك سنة ١١٠٦ هـ عن نحو ستين عاما .

وله « الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية » وهو مخطوط فى ٣٠٣ ورقة ، و « شرح على ألفية السيرة » للعراقى و « شرح على العشماوية » ، و« شرح مختصر خليل » فى الفروع المالكية فى عدة مجلدات

وقد تفقه على الأجهورى ويوسف الفيشى .

ـ يوسف الشبراخيتى ـ

ذكره الجبرتى إذ وقع الاختيار عليه من بين مشايخ البحيرة لعضوية الديوان الذى أنشأه نابليون بالقاهرة سنة ١٢١٣ هـ .

أعلام الهودية

(الوفائيــــة)

ـ أحمد برغوث ـ

ذكره الجبرتي .

وهو العالم الفقية الشيخ أحمد الشهير ببرغوث المالكى ، ولد بالهوديــــة ، وتفقه على أشياخ عصره ، وبرع فى الفقه والمعقول ، وقام بالتدريس ، فانتفع به كثــيرون ومات فى ٥ صفر سنــــة ١٢٢٤ هـ ودفن بــــتربة المجاورين بالقاهرة .

أعلام مرقص

ـ أحمد بن إسماعيل القرشي ـ

ذكره السخاوى فى « تحفة الأحباب » فى حديثه عن ابنه منصور .

أما الأب فهو : أحمد بن إسماعيل بن عبـــد الله بن محمد بن أبى عمران موسى القرشي المتوفى سنة ٦٩٦ بناحية مرقص . وينسب إلى أبى الفتح الواسطى الوفائى المدفون بالاسكندرية .

وأما الابن فهو : فهو منصور بن عبد الرحمن بن سليمان بن منصور بن إبراهيم ابن رضوان بن إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن نجم الدين بن عبد الله القرشي الحسيني البرلسى دفين البرلس .

أعلام أبو خراش

ـ أبو الفتح البرسيقي السمديسي الخراشي ـ

ذكره السخاوي في الجزء السادس من « الضوء اللامع »

وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن مخلوف بن غالي بن عبد الظاهر بن قانع بن عبد الحميد بن سالم بن عبد الباري بن راضي بن حامد بن عطاء الشمس أو السعد أبو الفتح البرسيقي (لنسبته لبعض أعمال الإسكندرية) ، القاهري الوزيري الحنفي ، ويعرف بالسمديسي (مع أنه ليس من سماديس ولكنه من أبو خراش فتحاشى أن ينسب إليها مع ما بينهما من بعد المسافة) .

ولد في ١٤ ربيع الأول سنة ٨٥٣ هـ ، وتلا بالقراءات السبع على جعفر السنهوري ، وحقق تجويد القرآن وتفقه واشتغل بالأصول والعربية ، وقرأ على بلديه الخطيب الوزيري الخراشي ، وصار في مشيخة الحنفية بالجانبكية ، وقد بنى شيخه نظام مسجداً بالقرب من الأيتمشية وأسكنه قاعدة به وحج معه ، وكان في لسانه رخاوة وفي طبعه كبر ، ولكنه كان فاضلا ، وقدم مكة بحرا مع أميره برد بك الخازندار نائب جدة ، وظل في رعايته ، وتوفي بعد سنة ٨٩٧ هـ .

ـ الإمام أبو عبد الله الخراشي ـ

ذكره سليمان رصد في « كنز الجوهر » ، والجبرتي ، والزياتي ومحمود ربيع وحسن قاسم في تعاليقهما على « تحفة الأحباب » .

وهو : الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخراشي المالكي أول من تولى مشيخة الأزهر ، انتهت إليه الرياسة في مصر ، ولم يبق بها في آخر عمره إلا طلبته وذاع صيته في بلاد المغرب والتكرور والشام والحجاز والروم واليمن . وكان أكثر قراءته بالأقبغاوية ، وجعل لنفسه خلوة بمنزله ، وانهالت عليه الهدايا من جميع البلاد الإسلامية ولكنه ما كان يمسك منها شيئا ، بل كان يوزعها على أقاربه ومعارفه ، وتلقى العلم على الشيخ علي الأجهوري ، والشيخ إبراهيم اللقاني وعلى والده الشيخ عبد الله الخرشي ، ومن تلاميذه : أحمد اللقاني ، وعلي اللقاني

وشمس الدين اللقانى ، ومحمد الزرقانى ، ومحمد النفراوى ، وأحمد الشبرخيتى ، وأحمد الفيومى ، وإبراهيم الفيومى ، وعبد الباقى القليني .

وتوفى فى ٢٧ من ذى الحجة سنة ١١٠١ ﻫ ودفن مع والده قـــرب مدفن سيدى محمد البنوفرى وسط قرافة المجاورين ثم نقل بالقرب منه الشيخ ابن صيام الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ ﻫ وله « الشرح الكبير على متن خليل » وكذلك « الشرح الصغير » . وجزء فى الكلام على البسملة نحو أربعين كراسا ، وغير ذلك.

ومما يؤثر عنه أنه كان متقشفا فى مأكله ومشربه وملبسه كثير القيام والصيام ويقضى مصالحه بنفسه ، متمسكا بالسنة الشريفة ظاهرا وباطنا .

اعلام محلة بشر

ـ الشيخ سليم البشرى ـ

ذكره سليمان رصد فى « كنز الجـوهر » والدكتور جمـال الدين الرمادى فى « أدب البشرى » ومجاهد فى « الأعلام الشرقية » وكحالة فى « معجم المؤلفين » ، ووردت عنه نبذة أيضاً فى « مرآة العصر » و « الـكنز الثمين » وهوامش « تحفـة الاحباب » .

وهو الشيخ سليم بن أبى فراج بن سليم بن أبى فراج البشرى الشيخ الرابع والعشرون للأزهر تولى المشيخة بعد الشيخ عبد الرحمن النواوى سنة ١٣١٧ ﻫ ولد بمحلة بشر سنة ١٢٤٨ وقيل سنة ١٢٤٥ (= ١٨٢٩ م) وقيل سنة ١٢٥٠ ﻫ وهى قرية بمركز بلاد الأرز شرقى ترعة الخطاطبة ، والآن بمركز شبراخيت وحفظ القرآن ، وقدم إلى القاهرة وتمذهب مالكياً على البيجورى وعليش ، وقام بالتدريس سنة ١٢٧٢ وتولى مشيخة المالـكية بعد الشيخ عليش سنة ١٣٠٥ ومن تلاميذه الشيخ محمد راشد إمام الخديوى عباس حلمى الثانى ، والشيخ البسيونى البيبانى ، ومحمد عرفه البيبانى ، والشيخ سالم البولاقى ، وتولى مشيخة الجامع

الزينى ، وعين له سبعة من العلماء للتدريس به ، وتخصص كل واحد فى علم من العلوم الإسلامية ، ورتب لهم مرتبات من الأوقاف ، حتى صار كالجامع الأزهر وفى سنة ١٣٠٥ جعله الخديوى توفيق شيخ المالكية ، بعد أن ألغيت منذ الشيخ عليش ، فجمع بين المشيختين ، وله « تحفة الطلاب بشرح رسالة الآداب » و « حاشية على رسالة الشيخ عليش » فى التوحيد ، و « وضح النهج » شرح فيه نهج البردة ، وله تقرير على « جمع الجوامع » .

وفى أيامه صار غالب مدرسى الرياضة من أهل الأزهر ، وعرف فى عهده الأزهر بالنظام ، وأولاده : محمد طه سليم وأحمد سليم وعبد الرحيم سليم وعبد العزيز سليم وعبد الله سليم الضابط بالجيش .

وكان تلميذاً للشيخ على العدوى المنسفيسى الصعيدى المالكى (من بنى عدى) وتلميذاً أيضاً للشيخ الحنانى الذى مرض دون إتمام قراءة كتاب من أمهات الكتب المقررة على طلبته بالأزهر الشريف ، وحينئذ أمر بجمع الطلبة فانتظروه وجىء به محمولا وهو فى أشد حالات المرض فقال لهم : [إنى ذاهب وليس فى فضلة لتدريس العلم ، وإنى مستخلف عليكم لإتمام درسى أجدر الناس به] ، وأمسك بيده الشيخ سليم البشرى .

وتألق نجم الشيخ سليم فى علوم الحديث والبلاغة ، وتوفى رحمه الله فى ٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ ﻫ (١٩١٧ م) ودفن بزاوية المالكية بصحراء قرافة السيدة زينب فقيلت فيه القصائد والمقالات ذاكرة فضله على الأزهر الذى تولى مشيخة مرتين سنة ١٣١٧ حتى سنة ١٣٢٠ ثم من سنة ١٣٢٧ حتى توفاه الله بعد حياة حافلة بمآثر الأعمال منها رفع مرتبات العلماء وتنظيم الدراسة فى الأزهر وإنشاء معاهد دينية فى البلدان المصرية ، وإنشاء مدرسة القضاء الشرعى ، وتأليف هيئة كبار العلماء ، ومجلس الأزهر الأعلى ، وأنعم عليه السلطان حسين كامل بالنيشان المجيدى الأول والوشاح الأكبر من وسام النيل ، وكان رئيساً للمجمع اللغوى سنة ١٩١٧ م الذى كان مركزه دار الكتب المصرية ووكيله الشيخ بخيت وكاتب سره أحمد لطفى السيد وانحل سنة ١٩١٩ .

- عبد العزيز البشرى -

أفرد له الدكتور جمال الدين الرمادى كتاباً بعنوان « أدب البشرى » ، كما تحدث عنه كامل الفقى فى الجزء الثالث من كتابه ، وهو ابن شيخ الإسلام الإمام سليم البشرى ، أدرك أباه وتزوج وأنجب فى حياته ، فقد ولد فى حى البغالة بمصر سنة ١٨٨٦ م ونشأ فى بيت أبيه ، فدخل الكتاب صبياً ثم المدرسة الابتدائية ، وما لبث أن التحق بالأزهر وتخرج منه سنة ١٩١١ فعين سكرتيراً بوزارة الأوقاف حتى سنة ١٩١٢ ، ثم عينه أحمد حشمت باشا محرراً فنياً بوزارة المعارف ثم سكرتيرا عاما للجنة الاصطلاحات العربية وكان من أعضائها إسماعيل حسنين ومستر روب وحفنى بك ناصف وأحمد زكى باشا ، ثم محررا عربيا بوزارة المعارف بعد الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى ، وعين قاضياً شرعياً حتى سنة ١٩٢٢ بالزقازيق ، ثم صار مفتشا بوزارة الحقانيه سنة ١٩٢٣ ثم عضوا عاملا بمجلس حسبى أسيوط ، ثم عاد إلى القضاء ، ثم عضوا بالمكتب الفنى بوزارة المعارف ، ثم سكرتيرا برلمانياً لعلى الشمسى باشا ، ثم وكيلا لإدارة المطبوعات حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٣٠ وعين سنة ١٩٣٢ مراقباً عاماً للمجمع اللغوى الجديد حتى توفاه الله فى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٣ وقيل ٢٥ ديسمبر وترك ولدين هما حسين وعبد الحميد .

وكانت ثقافة الشيخ عبد العزيز عربية خالصة مع إلمام بأطراف من الإنجليزية والفرنسية ، وقد عرف أسلوبه بالسخرية والتهكم اللاذع ورسم الشخصيات على نحو ما كان يفعله الجاحظ وموليير .

وقد تأثر بالمويلحى إبراهيم وابنه محمد وعلى يوسف ، وكان يجتمع مع كبار الأدباء فى عصره مثل حافظ إبراهيم ، وحافظ عوض ، وعبد الحميد البنان ، وعبد الرحيم أحمد ، وأمير الشعراء أحمد شوقى ، وأحمد أمين الأديب وأحمد أمين القانونى ، والمنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى ، وحسين المرصفى .

ومن مؤلفاته : (المرآة) وقد جمع به مقالاته فى السياسة الأسبوعية عن الشخصيات السياسية المعاصرة و (المختار) فى جزءين جمع فيهما كثيرا من مقالاته . و (قطوف) نشر بعد وفاته مشتملا على مقالاته فى الأمجاد الإسلامية و (التربية الوطنية) للمدارس الابتدائية ، واشترك فى تأليف « المجمل » و « المفصل » فى تاريخ الأدب العربى للمدارس الثانوية ، ومقالاته منتشرة فى

الصحف والمجلات منها الأهرام والكشكول والرسالة والثقافة ، وأذاع كثيرا في الإذاعة ، وكان شاعرا منذ الصغر ولكنه لم يكثر ، وقد هجا الشيخ على يوسف في (الظاهر) ، أما كتابة المقال فقد كان فيها مبرزا ممتازا مكثرا ، وله عشاقه ومريدوه كما أنه أكثر من البحوث الأدبية والتراجم ، وكان حاد الذكاء ، فكه الحديث ، عليا بنفوس من حوله ، واشتهر بالنكته البارعة ، حتى في أحرج المواقف ، ومع كبار الشخصيات .

اعلام كفر العيص

ـ الشيخ عبد الرحمن البحراوى ـ

ذكره على مبارك فى الجزء ١٥ من « الخطط التوفيقية » ، وهو : عبد الرحمن البحراوى الحنفى الأزهرى ، ولد بكفر العيص سنة ١٢٣٥ ﻫ ، وانتقل إلى الأزهر ، وفى سنة ١٢٥١ تلقى الفقه والتفسير والحديث عن الشيخ محمد الكتبى ، والأدب والمنطق والتوحيد من الشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ مصطفى البولاقى والشيخ إبراهيم البيجورى شيخ الأزهر .

وكان خطاطاً يكتب الكتب ، ويتكسب من ذلك ويعيش عليه ، ثم تصدر للتدريس سنة ١٢٦٤ ، وشهد له أعيان الأزهر لحسن إلقائه ، وعذوبة طرائفه ونوادره وملحه ، واحترمه الأمراء لحذقه وإتقانه علوما شتى .

رتب له الخديوى عباس حلمى الثانى كل شهر خمسة جنيهات ؛ وفى سنة ١٢٧١ قام بتصحيح الفتاوى الهندية بمطبعة بولاق ، بمرتب سبعة جنيهات كل شهر ، ثم تقلد قضاء الإسكندرية سنة ١٢٧٧ ، بمرتب خمسة وعشرين جنيها وبعد خمس سنوات عاد إلى التدريس ، وفى سنة ١٢٨٩ عين مفتياً بالمجلس الخصوصى بمرتب ثلاثين جنيها ، وفى سنة ١٢٩٢ أصبح رئيس المجلس الأول

للمحكمة الشرعية الكبرى بخمسين جنيها ، ثم تقلد منصب الإفتاء فى الحقانية (وزارة العدل) ، وله تقرير على شرح العينى ، وحاشية على شرح الطائى .

اعلام العطف (= المحمودية)

ـ الأمير على بن سليمان ـ

ذكره على مبارك فى « الخطط التوفيقية » حـ ١٤ .

وهو الأمير على بن سليمان بن جويلى بن سليمان من أعيـــان مشايخ (بنى عونة) بإقليم البحيرة ، من أولاد عم الأمير عيسى ابن إسماعيل شيخ عرب الإقليم ، وقد حج سنة ٩٥٢ هـ فى عهد إيدمر الرومى (التركى) ، وحج معه سليمان أكبر أولاده ، وكانوا أكثر من ثلاثين فارساً ، أغلبهم حسان الوجوه بيض البشرة ، وفى حجه حدث نفع كثير للحجاج ، وقد صحبه على مبارك أكثر من خمسين يوما بالعطف .

ـ عبد الرحمن إبراهيم باشا ـ

ذكره محمد عبد الجواد فى « تقويم دار العلوم »

وهو : عبد الرحمن بن إبراهيم سيد أحمد ، أصله من كفر الشيخ وولد بالمحمودية فى ٦ ينـــاير سنة ١٨٧٢ ، وتعلم بمدارس الإسكندرية ثم التحق بالأزهر ودار العلوم وتخرج فيها سنة ١٨٩٥ ، وسافر إلى باريس مع مصطفى كامل الخولى بك ، ودرس الحقوق بها حتى نال إجازتها سنة ١٩٠٠ ، ثم عمل محاميا بمكتب محمد الشوباشى بك بالإسكندرية إلى سنة ١٩٠٤ ، ثم عين مساعدا للمستشار القضائى لديوان الأوقاف ، ثم صار قاضيا سنة ١٩٠٥ ، وظـل فى مناصب القضاء حتى توفاه الله فى ٩ مايو سنة ١٩٣٥ ، حيث كان وكيلا لمحكمة النقض والإبرام ، وقد أنعم عليه الملك فؤاد ببراءة الباشوية سنة ١٩٣٠ .

أعلام البسلقون

ـ سراج الدين البسلقونى ـ

ذكره السخاوى فى «الضوء اللامع»، والداودى فى «طبقات المفسرين»، وابن عزم فى «دستور الإعلام».

وهو : سراج الدين عمر ، وقال الداودى : محمد بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن خلف بن غالى بن محمد بن تميم ، أبو على بن أبى كامل بن جمال الحفيفى القبائلى اللخمى السكندرى المعروف بالبسلقونى ، وكان مالكى المذهب .

ولد بالإسكندرية فى شعبان سنة ٧٦١ هـ وخرج به جده إلى البسلقون ـ التى فى جنوب الإسكندرية بقليل ـ وكان له بها إقطاع ، فأقام بها ، إلى أن توفى جده .

نشأ البسلقونى ، بالقرية . وقرأ بها القرآن ، وحفظ سورة البقرة فى يوم واحد ، ورحل به أبوه إلى الإسكندرية ، وهو دون العاشرة ، فرجع أبوه إلى البسلقون ، وتخلف هو بالإسكندرية ، فحفظ الشاطبية والألفية ، وتفقه على الشهاب شرف الدين أحمد بن صالح بن حسن اللخمى ، ودرس النحو على شمس الدين ابن على الفلاحى ومنصور بن عبد الله المغربى ، وأصول الفقه على شمس الدين محمد بن يعقوب الغمارى المالكى ، وأصول الدين على محي الدين يحي الهنى ، والمعانى والبيان على السراج بن نبوه الطنتدائى (الطنطاوى) ، وتلا القراءات بالسبع على الفكيرى خطيب الجامع الأعظم الغربى بالإسكندرية ، وأجاز له الكفرائى وأذن له فى الاقراء محمد بن يوسف بن عبد الخالق اللخمى ، وأجاز له أيضا السراج البلقينى ، والحافظ العراقى والحافظ الهيتى وابن الشيخة وابن الملقن والانباسى والشهاب الجوهرى والفخر عثمان بن محمد بن وجيه الشيشينى .

وله أرجوزة «الجوهرة الثمينة فى مذهب عالم المدينة» من ستمائة بيت وأرجوزة «تحفة الفرائض فى الفرائض» من مائة واثنين وسبعين بيتا ، وشرحها فى أربعة كراريس ، ونظم مائة بيت فى العربية على غرار ما فعل الشاطبى وأفرد أصول قراءة أبى عمر فى بحر الشاطبية ، وله فى التفسير «ذخر القرآن» وقد سماه أصحابه «سراج الأغراب فى التفسير ومعانى الإعراب»

وقد اشتهرت هذه الأراجيز فى الحجاز واليمن وتونس ، وتوفى سنة ٨٤٢ ه



أعلام معنية

عزبة الحرمل

ـ علـــى النجار ـ

ذكره كحالة فى « معجم المؤلفين » ﺣ ٧ ومجاهد فى « الأعلام الشرقية » ﺣ٢ وهو : على بن محمد بن عامر النجار الشافعى الفقيه الأصولى النحوى المفسر ، ولد بعزبة الحرمل التابعة لمعنية ، تخرج فى الأزهر ، وتوفى بالقاهرة سنة١٩٣٢م

وله : « شرح شواهد الأشمونى » و «حاشية على شرح الإسنوى على المنهاج» فى أصول الفقه ، و « رسالة فى علم الأخلاق وأخرى فى علم الوضع وله أيضاً شرح البيقونية .



اعلام إبيا الحمراء

ـ أحمد محرم ـ

ذكره كحالة فى « معجم المؤلفين » ﺣ ٢ ، وأحمد عبيد فى « مشاهير شعراء العصر » ، وسعد ميخائيل فى « آداب العصر » وعبد المنعم خفاجى فى «مذاهب الأدب » ومحمد صبرى فى « شعراء العصر » والوهبانى فى « مراجع تراجم الأدباء العرب » وأخيرا أفرد له الجيوشى كتاباً وافياً ، وكتب عنه الكثيرون فى المجلات مثل « الرسالة » و « الثقافة » و « الأزهر » وله قصائد فى هذه المجلات فضلا عن « أبولو » و (الأهرام) .

وهو الشاعر أحمد محرم بن حسن عبد الله ولد فى المحرم سنة ١٢٩٤ هـ ولهذا سمى (أحمد محرم) ، وكانت ولادته بقرية (إبيا الحمراء) ، وتلقى المبادىء بها وتثقف على يد أحد رجال الأزهر ، وأقام بدمنهور ، وتوفى ودفن بها سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) عن سبعين عاما .

وله : ديوان محرم وهو مطبوع ، وفيه إشادة بالدولة العثمانية ، وله ديوان مجد الإسلام ، وهو إلياذة إسلامية فى تاريخ الدول الإسلامية كتبها شعرا ، ولم يطبع إلى الآن ، على الرغم من المحاولات العديدة التى بذلت لإخراج هذا الكنز الثمين إلى عالم النور .

ومن أولاده الأستاذ سليمان محرم من رجال التربية والتعليم والأستاذ محمود محرم مسجل كلية الآداب جامعة الإسكندرية



أعلام زاوية ابو شوشة

ـ الشيخ مصطفى ناصف ـ

ذكره على بن أحمد أبو النظر السكندرى فى (منهل الأنوار المحمدية لطريقة السادة الشاذلية المدنية) ، قال :

إن الشيخ مصطفى ناصف المالكى ـ المتوفى ببلدة زاوية أبو شوشة بالدلنجات بحيرة ـ كان من أتباع شيخه محمد بن أحمد عبد الله المدنى الحسنى المتوفى بالإسكندرية سنة ١٣٣٠ هـ .

ومعنى ذلك أنه أحد الإخوان الشاذلية ، متصوف توفى بعد سنة ١٣٣٠ هـ ، ولايزال المعاصرون من أبناء البحيرة ولاسيما فى دمنهور يذكرونه بالخير ، ويثنون عليه ، كلما ورد ذكره على ألسنتهم .

اعلام الدلنجات

ـ أحمد الدلنجاوى ـ

ورد ذكره فى الجبرتى ، وفى فهرست الكتبخانة وهو الأديب الشاعر أحمد الدلنجاوى المتوفى سنة ١٢٢٣ ، وله ديوان شعر مطبوع بالمطبعة الإعلامية سنة ١٣٠٢ هـ ، ومن شعره :

قمر يخص وشـــأنه برضى ، ومغرمه بسخط
عاتبتـــه بتلطـــف وسألته حكماً بضبط
فأجابنى وهو الذى طرق الهداية ليس يخطى
لست الإمام وإنمـــا (أنا قاسم والله معطى)

والشطر الأخير كما نعلم نص حديث نبوى شريف ، وله أيضاً تخميس على قصيدة ابن منجك :

كل ساق عليك ساق الطلا كل سيف لحظيك للـــبرية ماكل

اعلام إفلاقة

وردت خطأ فى (دستور الإعلام) باسم (أقلامة)

ـ محمد الأفلاقى ـ

ذكره ابن عزم فى (دستور الإعلام) وهو محمد ابن عبد المنعم أبو عبد الله ابن أبى محمد بن أبى الفوارس الأقـــلامى (= الأفــــلاقى) اللخمى الإسكندرانى نسبة إلى (أقلامة = أفلاقة) بلدة ببحيرة الإسكندرية ، ولد بدمنهور فى حدود سنة ٦٠٠ هـ ، سمع أبا القاسم بن الصفراوى ، ذكره الداودى فى (المقفى) ، ولم يذكر وفاته .

وله ـ كما نعلم ـ مقام معروف عند أهل دمنهور ويسمونه سيدى محمـد الأفلاقى .

اعلام خربتا وشرنوب

ـ المحب الشرنوبى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الثامن من « الضوء اللامع » وهو : وهو محمد ابن على بن على بن أحمد المحب الشرنوبى القاهرة الشافعى سبط الزاهد وأحد النواب فى القضاء . وكان ثقيل السمع ، وتوفى فى ذى القعدة سنه ٨٩٠ ه .

ـ على الشرنوبى ـ

ذكره ابن عزم فى « دستور الإعلام »

وهـــو : على الشرنوبى ، من أجل تلاميذ الشيخ شعبان الشاذلى . كان يغلب عليه الاستغراق ، ويلبس أفخـــر الثياب ، يظنه من يراه أنه أحد القضاه ، توفى سنة ٩٣٣ ه ودفن بقرافة مصر قرب الشيخ محمد المغربى .

ـ أحمد الشرنوبى ـ

ذكره كحالة فى « معجم المؤلفين » ج ١ وسركيس فى « معجم المطبوعات » والبغدادى فى « إيضاح المكنون » وبروكلمان وصاحب فهرس المؤلفين وهو : أحمد ابن عثمان بن أحمد بن على الشرنوبى ، الصوفى الشاعر ولد سنة ٩٣١ وتوفى سنة ٩٩٤ وله « تائية السلوك » .

ـ داود الشرنوبى الخربتاوى ـ

ذكره الجبرتى ورمضان حلاوة فى « دستور الإعلام »

وهو : الشيخ داود بن سليمان بن أحمد بن محمد بن عمر بن عامر بن خضر الشرنوبى البرهانى المالكى الخربتاوى . ولد سنة ١٠٨٠ ه وقال رمضان حلاوة إنه ولد سنة ١٠٩٠ ه وتوفى فى جمادى الثانية سنة ١١٧٠ ه . وحضر على كبار أهل العصر مثل : الشيخ محمد الزرقانى ، والشيخ الخراشى . وكان مسندا ، وله عناية فائقة بعلوم الحديث .

ـ عبد المجيد الشرنوبى ـ

ذكره الفقى فى كتابه عن الأزهر .

ولد سنة ١٨٣٠ م فى شرنوب وتوفى والده وهو فى الثانية من عمره وأتم حفظ القرآن ولم يتجاوز العاشرة ، وتعلم على الشيخ عبد الفتاح وهيبه من علماء شرنوب وقصد إلى القاهرة وعمره ١٥ سنة ، وتلقى على الشيخ حسن العدوى وجعله قارىء دروسه لحسن خطه وقوة حفظه ، وحج معه على نفقة الحكومة بإذن من الخديوى توفيق ، وقد حماه الشيخ هدية لوالدته إذ علم لأول مرة أنه يتيم وكان يقرأ له أيضا فى دروسه بمكة ، وعرض عليه مفتى مكة أن يزوجه من ابنته الوحيدة فأبى الشرنوبى لأنه جعل العدوى بمثابة والده . فلم يخرج عن طاعته .

وأراد العدوى بناء مسجده المشهور بشارع الشنوانى بالدراسة، فخشى الشرنوبى على أستاذه من جشع المقاولين فكتب إليه يحذره .

أتيت بالنصح والتحذير من فئة　　وإنى عـــالم بالدار والجـــار

عساك تسمع نصحى غير متهم　　فتملأ السمع من وعظى وإنذارى

وبنى له أستاذه خلوة إلى جوار خلوته

وقد استنكف من الامتحان لشهادة العالمية حتى لا يمتحنه من هم أقل منه علما وفضلا .

وكان ولده الأكبر محمد عبد المجيد الشرنوبى قد أغراه باعتزال الحياة فى خلوة المسجد فأعرض عنه ١٢ عاما ، ثم اشترى لوالده منزلا بشارع الشنوانى وآخر بشارع الدوادارى وإليها انتقلت بقية أسرة الشرنوبى ، بعد أن ظل الشيخ ملازما خلوته بمسجد العدوى حتى سنة ١٩٠٧ م .

عرف بالذكاء والجد والمثابرة وذاع صيته فى الأدب والشعر وقد طلب منه صاحب « المؤيد » أن يشاركه فى تحريره وملكيته فرفض لصلته بالخديوى ، وزهد

فى النفع المادى الكبير الذى يدره المؤبد ، وتوفى فى مارس سنة ١٩٣٠ بعد أن زاد على المائة .

وأولاده ثلاثة : أصغرهم أحمد الواعظ بالأوقاف ، ثم محمود وكان كبير كتاب المحكمة الشرعية العليا وأكبرهم محمد الاستاذ بكلية الشريعة ، وعرف بغزارة العلم والحرص على الدين .

وسماه الأفغانى (السنجق) أى العلم ، إذ فاق أقرانه وتلقن العلم على أيدى إبراهيم السقا ومحمد عليش وعبد الهادى نجا الإبيارى ومحمد الأنبابى ، وعبدالرحمن الشربينى ، وأحمد ضياء الدين ، وزين المرصفى ، وأحمد شرف الدين المرصفى ، وحسن المرصفى ، ومحمد البسيونى ، وموسى المرصفى .

وكان يتلقى مع محمد عبده وعبد الكريم سلمان على الأفغانى فأمره العدوى باعتزاله ، ومع ذلك صار يحن الى هذه المجالس الحافلة بالعلم وأسراره ، فكتب إلى محمد عبده وعبد الكريم سلمان عند نفى الإمام :

يا عصبة كانوا على　　　أوج البها ما حالكم
كنتم بدورا فى الورى　　　فاسود نور جمالكم

واشتهرت مؤلفاته فى مصر وغيرها ، وطلب منه بعض علماء المغرب شرح ديوان ابن الفارض . وكتبوا العنوان هكذا (حضرة صاحب الفضل والفضيلة شيخ الإسلام والمسلمين بالأزهر) وفتح الشيخ أبو الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر الخطاب فوجده موجها إلى الشيخ عبـــد المجيد الشرنوبى ، فاستدعاه وقام وأجلسه مكانه وقال له : اجلس حيث أجلسك مشايخنا علماء المغرب .

ومن مؤلفاته : «شرح مختصر البخارى» و « شرح الأربعين النووية ومختصر الشمائل المحمدية للترمذى» و«مناهج السعادات على دلائل الخيرات» «ديوان خطب مربع السجعات» و«ديوان خطب مثلث السجعات» و«تحفة العصر الجديد» و«نخبة الأدب المفيد» و«إرشاد السالك على ألفية ابن مالك فى النحو والصرف» و«المحاسن

البهية على متن العشماوية» و«الكواكب الدرية على متن العزية» و «تقريب المعانى على رسالة أبى زيد القيروانى» و«مختصر الصحيح» و«الحسن من الجامع الصغير» و«دلالة السالك على أقرب المسالك إلى ألفية ابن مالك» و«مناهج التسهيل على متن سيدى خليل» و «مناهج التيسير على مجموع العلامة الأمير» و «شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى» و «شرح تائية السلوك».

ويقول فية الشيخ محمد البسيونى البيبانى وهو أستاذ أمير الشعراء شوقى فى [فضله الفاضل وذلك لغزارة علمه وجودة ذكائه وفهمه كما يشاهد من أدبه، وكما يطالع فى كتبه، فلو رآه (ابن عيينه) لقباه بن عيينه، ولو شامه (قدامة) لتبرك بأثر قدميه] وذلك فى شرحه لتائية السلوك التى قرظها أيضا الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى.

واشترك مع محمد عبده فى تحرير «الوقائع» وعمل فى مكتبة الأزهر، واشتهر بمطارحات الشعر، وقد فتن بأسلوبه المسجوع وتضمينه، كل من الإبيارى والبسيونى، ومن شعره :

قد تعدى بنوى الزمان وصاروا　　فى زوايا طغيانهم يعمهونا
واستحلوا ما يغضب الله جهراً　　وعلى مايرضى الورى عاكفونا

وقال :

ألا إننى جربت أهل مودتى　　فألفيت أن البعد أولى وأسلم
وأيقنت أن الصحب ألف بواحد　　فلم أبق غير اللب والله أعلم

وقال :

إذا بليت بأقوام ذوى حسد　　سود القلوب لهم ذم الورى قوت
فإن نأيت فدع أحشاءهم بلظى　　وإن أتيتهمو فى الحى قل : موتوا

وقال :

تجمعت زمـــرة الأعادى وجـــــددوا ألسن النكـايه
وحسدى بادروا بهجـوى بغـير جـرم ولا بدايه
أغـواهم فضلنـا فهامـوا بـكل واد من السعـايه
وليس حصـنى سوى مقـالى : مولاى حسبى وذا كفـايه

ذهب أحد أولاده للتدريس فى (جاوه) وكتب إليه ينصحه وفيما قال له :

وما مصر إلا جنة قد تزينت وأنهـارهـا تجرى وسكـانها تدرى
وأما سواهـا فهو لاشك دونهـا سوى طيبة والبيت والقدس والحجر
ولست إلى (هند) أميل صبابة وإن ملئت بالتبر أو غيره حجرى

وقال فى « تحفة العصر الجديد » :

[لاتقولن كذباً يوافق هواك ، ويغضب أخاك ، وإن خلته لهوا ، وقلته لغوا ، فرب لهو يوحش منك حرا ، ولغو يجلب لك شرا ، ما عز ذو كذب ولو أخذ القمر بيديه ، ولاذل ذو صدق ولو اتفق العالم عليه .]

ومن شعره أيضاً :

غننى ياندیم جهـراً فإنى للمعـالى قد سرت سيرا حثيثاً
لاتعد لى مذمة من حسود إن فضلى يرى قديماً حديثاً
وإذا كنت موقنـا أن عزمى قاصم ظهر من تراه خبيثـا
كيف أرتاع من مـذمة قوم لايكادون يفقهون حديثـا

وقال :

إذا ذل الكريم فكن حليما فإن الحلم حينئذ مزيه
وإن جاء اللئيم إليك عمدا بمـا كسبت يداه من الأسيه
ولم يخضع لعفوك باعتراف فعجـــل بالمكـافأة القويه
فإن المرء يكفيـــه ملام وإن العبد تصلحه الأذيه
فعامل كل إنسـان بحكم وفى هذا ترى فصل القضيه

وقال :

أقول للحاسد الباغى على إذا ... أتى الحمى وغدا عندى من الأسرى
عزمى شديد وجاهى واسع ولنا ... مكارم بين أعيان الورى تترى
وجل قدرى أن أجنى عليك بما ... جنت يداك فلا تشغل لنا الفكرا
بل أنت حل وهذا الفضل عادتنا ... لقد مننا عليك المرة الأخرى

وقال :

لو يعلم الباغى بسوء مقالة ... أن الجحيم نعيمه فى المنتهى
لأبان بين الناس نير صدقه ... وعن المعاصى والأكاذيب انتهى

وقال :

رأيت الناس بالدينار هاموا ... وباعوا الدين بالدنيا وساموا
فأورثهم نفاقا فى قلوب ... إلى يوم به اشتد الزحام
ترى عند اللقاء جميل بشر ... وبعد البعد تأتيك السهام
وحسبي من خطوب الدهر طه ... لكل المرسلين هو الختام

ولا شك أن هذه الأشعار إنما تنم عما كان يعانيه هذا الشيخ الممتاز من الحاقدين عليه ، وهذا شأن كل عظيم « وشاعر الحى لايحظى بإطراب » .

اعلام برنبال

كانت (بارنبال) من قبل ـ وهى قرب رشيد ـ من بلاد المزاحمتين ، وصارت الآن تابعة لمحافظة كفر الشيخ ، وتعرف بـ (برنبال) :

ـ عبد الوهاب البارنباوى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الخامس من «الضوء اللامع»

وهو : عبد الوهاب بن محمد بن عبد المنعم الشرف ابن التاج البارنبارى ثم القاهرى ، كان أبوه كاتب السر بطرابلس وناب هو فى توقيع الدرج

بالقاهرة ، عند العلاء بن فضل الله حتى مات فى ذى الحجة سنة ٨٠٤ ﻫ عن نحو ثمانين عاما .

وكان هو وأبره معه فى الإنشاء، وقال عنه المقريزى [ولى عنه فوائد] كما ذكره ابن حجر فى « الأنباء » .

ـ الجمال البارنبارى وأخوه على ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » حـ ١١

وهو الجمال محمد وأخوه على وأبوهما عمر بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد والأول منهما ابنه الولوى أحمد وابنه موفق الدين محمد . فهم من القرن التاسع ولكنه لم يذكر شيئا أكثر من ذلك .

ـ ناصر الدين البارنبارى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » حـ ٢

وهو ناصر الدين البارنبارى ، العالم فى النحو ، قرأ عليه ابن عناق المعروف بابن الغرز المتوفى سنة ٨٤٣ ﻫ .

وكلاهما من أهل القرن التاسع الهجرى .

ـ على بن الفخر البارنبارى ـ

ذكره السخاوى أيضا فى الجزء الرابع :

وهو على بن عمر بن محمد بن محمد بن محمد نور الدين بن الفخر البارنبارى، ولد ببلده سنة ٧٧٨ ﻫ وقرأ العربية وسمع الحديث ، ودخل دمياط ، وصحب الكمال المجذوب ومات بمنزله ، وحدث وتكسب بالشهادة ، ومات فى ٦ رجب سنة ٨٦٧ ﻫ .

اعلام مريوط

ـ عبد البصير المريوطى ـ

ذكره العراقى فى « ذيل ذيل كتاب العبر »

قال : إنه صاحب ابن عماد ، وأخذ عن المريوطى : محمد عبد الكريم ابن أبى عبد الله بن كامل بن المخيلى الداى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ بالإسكندرية، والذى أجاز العراقى إذ كتب له منها .

ـ عبد الله المريوطى ـ

ذكره ابن عزم فى « دستور الإعلام»

وهو أبو محمد عبد الله النصير بن على بن يحيى المريوطى الهمذانى ، أحـــد شيوخ الإقراء بالإسكندرية توفى بعد سنة ٦٨١ هـ



اعلام الكريون

ـ أبو الحسن (أبو رزين) الكريونى ـ

ذكره المنذرى فى التكملة بالجزء ٤٢

وهو : أبو الحسن ويقال أبو رزين بن ثابت بن حسن بن خليفـــة اللخمى النحوى الكريونى ، ولد فى ١٦ شعبان سنة ٥٥٣ هـ وسمع بالإسكندرية مـــن السلفى ، وحدث له ، وتوفى بها فى أوائل جمادى الأولى سنة ٦٢٥ هـ وكان أديبــا شاعـــرا .

قال المنذرى : [دخلت الإسكندرية وهو بها ولم أسمــــع منه شيئا ولنا منه إجازة] .

أعلام مطوبس

كانت تسمى (نطوبس الرمان) فصارت (نطوبس) ثم (مطوبس) وهى فى مواجهة (إدفينا) على ضفتى فرع رشيد ،

- ابن المسكين عبد الوهاب المطوبسى -

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » ج٣

وهو عبد الوهاب بن على بن حسن التاج بن الخطيب نور الدين النطوبسى (المطوبسى) ثم القاهرى ، المالكى المذهب المقرىء نزيل الظاهرية القديمة ويعرف فى مطوبس باسم ابن المسكين وفى القاهرة بالتاج السكندرى لأنه مكث بها مدة .

ولد حوالى سنة ٨١٥ هـ فى (نطوبس الرمـان = مطوبس) بالمزاحمتين ونشأ بها ، وحفظ القرآن عن خطيبها وشيخها الشمس بن عرارة المقرىء تلميذ ابن يفتح الله ، ورحل مع والده إلى الإسكندرية ، فأقام عند خطيب جامعها الغربى النور بن يفتح الله المذكور ، وحفظ الشاطبيتين وألفية النحو ، وعرض محفوظاته على الجمال الدماميني وغيره ، ثم رحل مع أبيه إلى القاهرة ، وقد قارب العشرين ، فنزل بحارة الديلم فى قاعة الخطابة من الزمامية ، وأخذ القراءات السبع عن الزين طاهر ، والشمس بن العطار ، وتفقه على يد الزين عبادة ، والزين طاهر ، وأبى القاسم النويرى والبدر بن التنسى والآمدى ، والشمنى ، والسراج عمر النجار ، وكثير من الأتراك مثل : قانم الأشقر ، وبرد بك ناظر القرافتين

وأخو طوخ الزردكاش ، وجانم الخازندارى جان بك ،والظاهر خشقدم ، حين كان أمير سلاح . وعرض عليه أن يكون إمامه فرفض . فلما استقر ملكا على مصر ألزمه بذلك ، فاشترط عليه عدم الطوق وركوب الخيل ، فقبل . وكان مشهورا بالإفتاء والتدريس ، وظل أعزب أربعين سنة ثم تزوج بعدها ، وتوفى فى ١٢ ذى القعدة سنة ٨٦٨ ﻫ عن ثلاثة وخمسين عاما . ودفن بحوش سعيد السعداء .



أعلام الرحمانية

كانت تسمى « محلة عبد الرحمن » وينسب إليها فيقال الرحمانى .

ـ الشمس الرحمانى ـ

ذكره السخاوى فى « الضوء اللامع » جـ ٨ وعلى مبارك فى (الخطط التوفيقية) جـ ١٥ .

وهو محمد بن على بن أحمد بن إسماعيل الشمس الرحمانى ثم القاهرى،الشافعى قدم القاهرة ، واشتغل بالفقه والعربية والفرائض (= المواريث) ، وسمع على الونائى والقاياتى والعلم البلقينى وأذن له ابن حجر فى الإفتاء والتدريس ،وتكسب بالشهادة فى حانوت الحنابلة عند القصر ، وناب فى القضاء بدمنهور وديروط وغيرها .

وكان فقيها مشاركا فى العربية ، وجمع بين شرحى المنهاج لابن الملقن والإسنائى مع التكملة للزركشى ، وتوفى سنة ٨٠٢ ﻫ أو سنة ٨٠٣ ﻫ وقد قارب الخمسين من عمره .

- نفيس الرحمانى -

ذكره المحبي فى « خلاصة الأثر » ج ٢ والبغدادى فى « هدية العارفين » و « إيضاح المكنون » وكحالة فى « معجم المؤلفين » وعلى مبارك فى « الخطط التوفيقية » ج ١٥ .

وهو داود بن سليمان بن علوان بن نور الدين بن عبد الله بن محمد بن ولى الدين ابن عبد الوهاب بن على بن الولى العارف السيد نفيس الرحمانى الشافعى ، وكان مقرئا مفتيا حكيما .

وقام بالتدريس بالأزهر ، وكان ورعا متدينا . أخذ عن الشمس محمد الشوبرى ، وعامر الشبراوى ، وسلطان المزاحى ، وعلى الشبراملسى ، ومحمد البابلى ، وكان بارعا فى سائر الفنون ، وأجازه شيوخه وله عدة مؤلفات .

١ - تحفة أولى الألباب

٢ - تحفة السمع والبصر بصادق الخبر

٣ - التحفة السندسية لمن يشتغل بشرح السنوسية .

٤ - الجواهر السنية فى أصول الطريقة الصوفية

٥ - حاشية على شرح الجلال المحلى

٦ - حاشية على شرح التحرير

٧ - حاشية على شرح أبى شجاع لابن قاسم الغزى

٨ - حاشية على شرح الشذور

٩ - حاشية على شرح القطر لابن هشام

١٠- مناسك .

وتوفى بمصر القاهرة سنة ١٠٧٨ ه ودفن بتربة المجاورين ، وهو كما يبدو

من أحفاد ولى الدين السيد نفيس الرحمانى المدفون بالرحمانية، وله جامعه المشهور هناك. وقد قمت بالخطبة والتدريس والصلاة به فى بعض زياراتى لآل محمود بالرحمانية.

وهو السيد نفيس بن محمد بن حيدر بن على بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن بن محمد الأشتر بن عبد الله الثالث بن على أبى الحسن الأكبر بن عبد الله الأصغر الثانى بن على الصالح بن عبد الله الأعرج بن الحسين بن زين العابدين بن الحسين .

أورد على مبارك هذه الشجرة ، ومع ذلك لم نقف على أثر لترجمة حياته فى « الطبقات الكبرى » للشعرانى المتوفى سنة ٩٥٢ هـ .

ـ عبد الرحمن محمود ـ

من أسرة محمود بالرحمانية ، اشترك فى الثورة العرابية وقاد أربعين فارسا إلى معركة التصاصين فانتصر ، ثم استشهد فى سبيل الله .

ولكننا مع ذلك لا ندرى شيئا عن حياته أو وفاته أو مصيره بعد الإحتلال الإنجليزى لمصر ، غير أن الخديوى كما نعلم قد فرض الغرامات الباهظة على أسرة محمود الذين تحملوا مظالم الحكومة مرتين : إحداهما عند الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ والأخرى عند قيام ثورة سنة ١٩١٩ .



أعلام محلة نصر

ـ الإمام محمد عبده ـ

ذكره جورجى زيدان فى « بناة النهضة العربية » ومحمد حسن محمود وأمين عمر الباجورى فى « المنتخبات العربية » ، ومحمد رفعت فى « تاريخ مصر السياسى » ومحمد عبد الرحيم مصطفى فى « تاريخ مصر الحديث » ومصطفى عبد الرازق فى « محمد عبده » ، وأحمد أمين فى « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ، وأحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى فى « الوسيط » ، وعثمان أمين فى « محمد عبده » ، « ورائد

الفكر المصرى ، والدكتور عبد اللطيف حمزة فى «أدب المقالة الصحفية فى مصر» وسليمان رصد فى «كنز الجوهر» والفقى فى كتابه عن الأزهر ومحمد صبيح فى «محمد عبده» و «تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده» لمحمد رشيد رضا و «محمد عبده» لأحمد الشايب .

وهو الشيخ محمد عبده، المصلح الكاتب الخطيب والإمام المجتهد والناقد المفكر ولد بمحلة نصر فى سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٩م وقيل سنة ١٢٦٥ [١] وأبوه عبده خير الدين فلاح فقير وأمه (جنينه) من أسرة عثمان بالغربية يرجع أصلها إلى بنى عدى .

دخل كتاب القرية فحفظ القرآن وهو فى سن العاشرة ، ثم التحق بالجامع الأحمدى بطنطا ، وتزوج وهو فى السادسة عشرة من عمره ودرس بالأزهر ، ولم يطق الجمود الذى كان يسوده فى عصره، حتى لقد عاد إلى بلده، معتزما أن يشتغل بالزراعة ، فأرغمه أبوه على العودة وكاف رجلاقويا بمصاحبته إلى (إيتاى البارود) وكان يركب حصانا ، فأخذ منه الحصان وأسرع به إلى (كنيسة أورين) وبها أخوال أبيه ومنهم الشيخ درويش خضر المتصوف الشاذلى الذى كان متأثرا بتعاليم السنوسية ، ومالبث الشيخ درويش أن أزال العقدة النفسية التى تمكنت منه ، فمضى إلى الأزهر ، وفتح الله عليه ، ونبغ حتى حصل على عالمية الأزهر سنة ١٢٩٤ فى عهد المهدى العباسى الذى قال إنه لم يمتحن أمامه طالب مثله ، ولما قدم جمال الدين الأفغانى مصر كان ملازما له ، حريصا على الاغتراف من فيض ثورته العلمية والفكرية ، وشجعه على كتابة المقالات فى الأدب والسياسة والاجتماع ، وشجعه على الخطابة أيضا ، واشتغل الشيخ بالتدريس بالأزهر وبمدرسة (دار العلوم) للتاريخ الإسلامى والأدب ومدرسة الألسن ، ثم عزل من عمله ، وحددت إقامته بمحلة نصر ، وصدر أمر الخديوى بإخراج الأفغانى من مصر سنة ١٨٧٩ فقال : [لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما] .

وتولى رياض باشا أمر الوزارة سنة ١٨٨٠ فعين الشيخ محمد عبده محررا فى الجريدة الرسمية «الوقائع المصرية» وذلك بناء على مشورة محمود سامى البارودى والشيخ حسين المرصفى، ثم صار رئيس التحرير واشترك معه الشيخ عبد الكريم

---

(١) وقيل ولد سنة ١٢٦٦هـ فى (شنيرة) غربية التى هاجر إليها أبوه من ظلم الحكام ثم عاد به بعد ٤ سنوات إلى بلده (محلة نصر) .

سلمان ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، ومحمد خليل ، والسيد وفا ، ثم عين رقيبا عاما على شئون الصحافة المصرية .

واقترح محمد عبده على رياض باشا إنشاء مجلس أعلى للمعارف فعمل باقتراحه سنة ١٨٨١ وعين عضوا فى هذا المجلس ، ولما قامت الحركة العرابية ، لم يؤيدها فى بادىء الأمر لاعتقاده أن إصلاح التعليم أحق وأولى من المطالبة بالحقوق النيابية ، ومع ذلك كان مع العرابيين ضد الخديوى الخائن ، كما أنه هو واضع صيغة القسم الذى كان يؤديه ضباط الثورة العرابية على السيف والمصحف فى (قصر النيل) واشترك مع محمود سامى البارودى فى كتابة بيان « الحزب الوطنى العسكرى » وهو « حزب العرابيين » ، ولهذا قال لورد كرومر عن محمد عبده : [إنه الروح المدبرة للحركة] .

وأشار الخديوى بنفى محمد عبده ، لأنه أفتى بقتله بعد أن أثبت خيانته ، ونفى معه : إبراهيم اللقانى ، وأمين أبو يوسف ، ومحمد الزمر .

واستمر محمد عبده فى منفاه فى بيروت ثلاث سنوات من سنة ١٨٨٣ ، فاشتغل بالتدريس ، وانتقل من بيروت إلى أوروبا فالتقى بالأفغانى بباريس حيث تعلم اللغة الفرنسية ، وأنشأ « جمعية العروة الوثقى » وأصدر معه جريدة « العروة الوثقى » وكان مقرها حجرة على سطح منزل بشارع (سيز) قرب ميدان المادلين ، حيث يلتقى كبار المفكرين فى الإصلاح الاجتماعى فى الأقطار الإسلامية ، وزار لندن ، ونزل بها ضيفا على صديقه الرحالة الإنجليزى (ألفرد بلنت) صاحب كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر » معتمدا فيه على مذكرات الشيخ محمد عبده .

وحضر الشيخ محمد عبده جلسة بمجلس النواب الإنجليزى فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٤ . واتصل ببعض النواب ، وشرح المسألة المصرية مطالباً بجلاء قوات الاحتلال ، ونشرت له الصحف الإنجليزية ولاسيا (التايمز Times)و(التروث The Truth) مادار بينه وبين وزير الحربية البريطانى ، ومع ذلك عاد من لندن يائسا من النجاح فى إنهاء الاحتلال ، ولكنه كسب زيارة الفيلسوف الإنجليزى (هربرت سبنسر H. Spencer) بإنجلترا .

وعاد منها إلى باريس وتونس ثم استأنف كفاحه فى بيروت فالتقى بالأمير شكيب أرسلان ، وفى بيروت قام بتدريس المنطق بالمسجد الكبير ومسجد الباشورة ، وأدرك بفطرته وسائل الإصلاح فى سوريا عن طريق التعليم وتزوج من بنت الحاج سعد الدين حماده أخى رئيس بلدية بيروت ، وكتب تقريرا عن الإصلاح الدينى فى دار الخلافة الإسلامية ، وأنشأ جمعية ماسونية تجمع بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكان من أعضائها : إسحق تايلور الذى جمع كل قساوسة لندن فأوحوا إلى الملكة فيكتوريا لتستخدم نفوذها عند السلطان عبد الحميد لوقف نشاط هذا المصرى فى بيروت عند حده ، فنفى محمد عبده من بيروت، وسعت الأميرة (الملكة) نازلى ولورد كرومر لدى الخديوى فشمل محمدعبده بالعفو ، فعاد إلى مصر بعد ثلاث سنوات من نفيه وكفاحه ، زار خلالها لندن وباريس وجنيف وتونس والأستانة وإيران .

وفى سنة ١٨٨٨ عين قاضيا بالمحاكم الأهلية الابتدائية خارج القاهرة ، فعرف أنها مؤامرة لإبعاده عن بث تعاليمه ، فقال : [ما خلقت لأكون قاضيا بل لأكون معلما ، وقد جربت نفسى فى التعليم فنجحت] ، وعمل قاضيا ببنها والزقازيق ثم عابدين ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف .

وتولى عباس أمر مصر سنة ١٨٩٢ بعد توفيق ، وأراد محمد عبده أن ينفذ برامجه فى إصلاح الأزهر فوقف أنصار الجمود فى وجهه ، وفى سنة ١٨٩٥ تشكل مجلس إدارة الأزهر برياسة الشيخ حسن النواوى وعضوية محمد عبده وعبد الكريم سلمان مندوبين عن الحكومة : وعين فى وظيفة الإفتاء فى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ ، فصار إليه المرجع الأعلى فى الفتاوى لسائر بلاد الإسلام ، فكانت آراؤه الاجتهادية منبثقة من روح الإسلام فى بساطته ويسره ، وعين فى هذه السنة أيضا عضوا بمجلس الشورى ، وفى سنة ١٩٠٠ صار رئيسا للجمعية الخيرية الإسلامية ، وكان نشاطه ملحوظا فى جمع التبرعات لمنكوبى حريق ميت غمر ، وأسس « جمعية إحياء الكتب العربية » فكان كتاب « المخصص » لابن سيده أول منشوراتها ، وكان محمد عبده يقف فى وجه عباس وأطماعه فى أوقاف المسلمين ، عن جرأة المؤمن ، ويقظة المستنير .

وكان الشيخ محمد عبده يسكن بداره فى ضاحية عين شمس، وكانت منتدى الأدباء والعلماء والمستشرقين ورجال السياسة ودعاة الإصلاح منهم: شاعر النيل حافظ إبراهيم والمستر (بلنت) الذى أهداه الأرض التى أقيمت عليها داره، وقد زرتها سنة ١٩٤٢ مع أستاذنا الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة والحائز على شهادة الدكتوراه فى « محمد عبده » والذى كرس حياته على البحث فى فلسفة محمد عبده فى الإصلاح، فوجدناها دارامتواضعة فى وسط الصحراء وتمكنا من الاطلاع سرا على مذكرات عرابى التى لم تنشر إلا بعد قيام الثورة سنة ١٩٥٢ .

وقال عنه أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق - رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب بالقاهرة - [كان محمد عبده أكبر نفسا وأشد احتقارا للدنيا من أن يبذل جهده فى جمع المال، فعاش عظيما فقيرا ومات فقيرا عظيما] .

ومرض الشيخ المفتى بالسرطان حتى أدركه الموت يوم ١١ يولية سنة ١٩٠٥ (٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٣ هـ) وهو بمنزل صديقه محمد بك راسم برمل الإسكندرية، فاحتفلت الدولة بتشييع جنازته رسميا إلى القاهرة حيث دفن بتربة المجاورين بالقرافة .

مات محمد عبده ابن « محلة نصر » الذى طبقت شهرته الآفاق، فحزنت عليه مصر والعالم الإسلامى، وفقدت به الصحافة، والأزهر، والمجتمع أكبر عالم مصلح لانزال فى هذا القرن العشرين نستروح تعاليمه ونستوحى مناهج الإصلاح منه .

كان رحمه الله ملما بالفارسية والإنجليزية والفرنسية، وكان فى دروسه بالأزهر متحررا تقدميا، حضر عليه المجاورون فى المنطق والاجتماع دروسه فى المراجع الأساسية والكتب المترجمة عن الفرنسية . أما فى بيته فكان يحضر عليه خلصاؤه من المصريين والشوام والمستشرقين والإنجليز منهم : الشنقيطى، وسعد زغلول، وأحمد تيمور، وحفنى ناصف، ومحمد صالح، ومصطفى لطفى المنفلوطى، وعبدالرحمن البرقوقى، وعبد الوهاب النجار، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد رشيد رضا صاحب المنار ومن أهل الشام : إسماعيل الحافظ، وأحمد الحمصانى، والشيخ الترمانيني، والمستر إدوار براون، والمستر ألفرد بلنت، وغيرهم حتى المسيحيين

كانوا يحضرون دروسه فى تفسير القرآن ، وكان يدرس معهم الكتب الفرنسية فى تاريخ الحضارة ولاسيا للمسيو (جيزو) المؤرخ الفرنسى ، وإلى جانب ذلك يدرس فلسفة (مسكوية) فى الأخلاق ، كما أنه عندما كاف بتدريس التاريخ الإسلامى بدار العلوم ، بدأ بتدريس مقدمة ابن خلدون .

وكانت مقالات محمد عبده فى « الأهرام » و « ثمرات الفنون » و « الوقائع المصرية » ذات أصداء بعيدة فى عصر انتقال من طور الجمود إلى طور التحرر والتقدم ، ومن مؤلفاته :

١ - « رسالة التوحيد » فى علم الكلام . وقد ترجمها أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى اللغة الفرنسية أثناء دراسته بجامعة السوربون بباريس وترجمت فى الهند وتقرر تدريسها بجامعة عليكره وغيرها ، وطبعت بمصر مرات .

٢ - شرح نهج البلاغة .

٣ - « الإسلام والرد على منتقديه » : للرد على (هانوتو) سنة ١٩٠٩ ، كان ينشرها بالمؤيد .

٤ - « تفسير جزئى عم وتبارك » فى مجموعة « كتاب الشعب »

٥ - « شرح البصائر النصيرية للساوى » فى المنطق وهو الذى كان يدرسه بمدارس بيروت .

٦ - شرح مقامات بديع الزمان » وهو أول من شرحها وطبع ببيروت سنة ١٨٨٩ .

٧ - علم الاجتماع والعمران أوفلسفة الاجتماع والتاريخ وضعه أثناء تدريسه مقدمة ابن خلدون بدار العلوم ، وفقده عندما عزله الخديوى ، وكان يتمنى لو يقع هذا الكتاب فى يد أى شخص حتى بعد موته فينسبه إلى نفسه لينتفع به الناس .

٨ - « الإسلام والنصرانيه » وكان فى مقالات متتابعة نشرها بالأهرام سنة ١٩٠١ ردا على فرح أنطون فى مجلة « الجامعة » وطبعت بالقاهرة سنة ١٩٠٢ و ١٩٢٢ .

٩ - « نظام التربية والتعليم فى مصر » : نشره رشيد رضا فى باب لوائح التربية

والتعليم من منشآته بالجزء الأول .

١٠ - تاريخ إسماعيل باشا : قال ذلك رشيد رضا ولكنه لم يره ، وقيل إن عبد الله النديم نشر منه فصولا فى (الطائف) بتصرف .

١١ - الرد على الدهريين : ترجمة عن الفارسية للأفغانى طبعت ببيروت سنة ١٣١٣ هـ ثم بمصر فى (دار الهلال) .

١٢ - رسالة الواردات : فى الكلام على منهج الصوفية ، نشرها صاحب المنار .

١٣ - رسالة فى وحدة الوجود : ذكر فيها مراتب الوجود وتعددها ونظامها العام ووحدتها .

١٤ - حاشية عقائد الجلال الدوانى : فى علم الكلام ، وطبعت سنة ١٨٧٦ ثم سنة ١٩٠٤

١٥ - تاريخ الثورة العرابية : جمعت من مقالاته فى الصحف .

١٦ - مذكرات الإمام محمد عبده : « كتاب الهلال »

وكان من الدعاة لإنشاء (الجامعة المصرية) إلى جانب (الأزهر) وقد أقنع أحمد باشا المنشاوى حتى أوقف قطعة أرض بالقاهرة لإقامة مبنى الجامعة .

أعلام جنبواى

ينسب إلى « جنبواى » التى وردت أيضا « جنبويه » فيقال : الجنبيهى .

- عبد الكريم سلمان -

ذكره أحمد شوقى بك أمير الشعراء فى مقدمة الجزء الأول من «الشوقيات»

وأحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى فى «الوسيط» ومحمد حسن محمود وأمين عمر الباجورى فى «المنتخبات العربية» والدكتور عثمان أمين فى «محمد عبده» وكامل الفقى فى تاريخ الأزهر وفى كل الدراسات الخاصة بتاريخ الشيخ محمد عبده .

وهو الكاتب المصلح عبد الكريم بن حسين بن سلمان ولد فى (جنبواى) فى أول شعبان سنة ١٢٦٥ وكان والده من أصل ألبانى .

فقد وفد سلمان أفندى أغا جده من ألبانيا فى عهد محمد على موظفا بالجيش واتصل ابنه حسين أفندى بأسرته من جنسه بقرية (جنبواى) وصاهرها ، ولبث بها زاهدا فى الوظيفة ، مكتفيا بأطيان اشتراها هناك ، ورزق بعدة أولاد كان عبد الكريم ثانيهم . وقد أصيب بالجدرى طفلا ، وفى ذات يوم تشاجر مع أخيه وهما فوق سطح الدار فسقط منها ، وتدفق الدم من جبينه وحاجبه ، فانكشفت غشاوة كانت على إحدى عينيه فأبصر فى الحال .

وتعلم مبادىء القراءة والكتابة فى مكتب القرية ، ثم أتم تعليمه بالأزهر سنة ١٣١٥ ، واجتمع بالشيخ محمد عبده ، وصار أعز أصدقائه وأخاص أعوانه وتلقيا معا تعاليم الثورة الفكرية على يد جمال الدين الأفغانى . وكان أديبا ، كتب فى الصحف والمجلات ، وعين محررا فى (الوقائع المصرية) مع سعد زغلول ومحمد عبده ، ثم عضوا بالمحكمة الشرعية .

وله فيها إصلاحات معروفة ، وصار فى سنة ١٣١٢ عضوا فى مجلس الأزهر الأعلى مع محمد عبده وسليمان العبد وأبى الفضل الجيزاوى وأحمد الحنبلى البسيونى ، بناء على أمر عباس حلمى الثانى وكان المجلس برياسة الشيخ النواوى ، وكان خير مساعد للشيخ الإمام فى برنامج إصلاح الأزهر .

وكان كريم الخلق لطيف المحاضرة ، حلو النادرة ، عطوفا على الفقراء وذوى الحاجات ، وخرج على القديم المألوف فى كتاباته ، وقد أنعم عليه الخديوى بالنيشان العثمانى من الدرجة الرابعة .

ويحكى عنه شوقى أنه اقدم إليه قصيدته التى مطلعها :

خدعـــوها بقولهم حسناء   والغوانى يغـرهن الثنـــاء

وكانت فى مدح الخديوى بعد مقدمة غزلية رائعة ، وكان يقصدشوقى أن تنشر فى (الوقائع المصرية) التى يحررها [أستاذى] الشيـــخ عبد الكريم سلمان ، [فدفعت القصيدة إليه ، وطلب أن يسقط الغزل وينشر المدح فـــود الشيخ لو أسقط المدح ، ونشر الغزل ، ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتهـــا لم تنشر]

هكذا قال أحمد شوقى فى مقدمة الجزء الأول من (الشوقيات)

وفى ذات يوم كتب مقالا فى نقد حكومـــة رياض باشـــا ، فاستدعاه ليخيره بين الكف عن الكتابة أو التزام قريته ، فذهب إلى جنبواى . ولمـــا صار محمد عبده رئيساً للوقائع الرسمية وقع عليه اختياره مـــع سعد زغلول وسيد وفا . ثم تولى رياسة تحريرها من سنة ١٨٨٢ ه إلى سنة ١٨٩٧ ه أى فى مدة نفى محمد عبده إلى الشام ، وفى سنة ١٨٩٨ عين عضوا بالمحكمة الشرعيـــة العليا مـــع أنه شافعى ولكنه تمكن من دراسة الفقة الحنفى فى مـــدة وجيزة .

وفى سنة ١٩٢٠ أصبح مفتشا عاما على المحاكم الشرعية ، وعمل على إصلاح نقصها بعد تجاربه . فضايقوه . فاستقال سنة ١٩٢٤ .

ولازم الشيخ محمد عبده أكثر من عشر سنوات ، وكان يضرب المثل بهما فى التلازم ، وكان مثله من خيار المصلحين للأداة الحكومية والمجتمـــع .

له كتاب (أعمال مجلس إدارة الأزهر) نشره رشيد رضا بدون وضع اسم المؤلف عليه خوفا من بطش الخديوى به ، إذ ضمنه حقائق تمس سمعة الخديوى .

وقال عنه محمد عبده عندما قدما استقالتيهما معاً : [وأكنفته كنى ، فأدنيته منى ، وجعلته فى مكان النحو من « ابن جنى »] .

وقد اشتهر الشيخ عبد الكريم سلمان بالكتابة فى الصحف وهو طالب بالأزهر ، فكان نبوغه المبكر طريقه إلى الكتابة بالوقائع والمقطم والجريدة والآداب وغيرها من صحف العصر ، ولم يعرف عنه المبالغة فى شىء قط لأنه كان يبغضها ، وكان يحنو على بنته (رابعة) حتى بعد زواجها ، وكان مثلا أعلى فى الإباء والاعتزاز بالكرامة ، رحيما بالفقراء والمعوزين : ذهب مرة إلى سعد زغلول ومحمد عبده يتوسل إليهما فى وظيفة لصديق ، فأخبره محمد عبده أنه قد ادخر هذه الوظيفة له هو ، فأبى لأنه سبق أن وعد صاحب الحاجة أن يخدمه ، ولابد له أن يبر بوعده له .

وتوفى رحمه الله على إثر نوبة قلبية حادة فى ١٧ مايو سنة ١٩١٨ ، ونقل جثمانه من الرحمانية إلى القاهرة حيث دفن بها ، وشهد جنازته سعد زغلول وعلماء الأمة وعظماؤها وأدباؤها وكبراؤها .

أعلام أبو الخاوى

ـ عبد اللطيف الصوفانى ـ

كان والده أحد كبار الثلاثة البارزين فى مجلس شورى القوانين وهم : أحمد بك الصوفانى وإسماعيل باشا أباظه ، وسعد باشا زغلول ، وكان موقف الأول معروفا بالنسبة لبطرس غالى رئيس الوزراء يومئذ الذى مد أجل امتيـاز شركة قناة السويس خمسين سنة ، ومنح الإنجليز نصف السودان ، مما أدى إلى اغتيـاله بيد إبراهيم الوردانى .

وكان الصوفانى قد أحرج بطرس غالى سنة ١٩١٠ فى المجلس بهذه المناسبة عندما سأله : هل آراؤنا استشارية أو قطعية ؟ فأجابه : استشارية ، فـكان هذا

الرد نقطة تحول فى السياسة المصرية ، إذ عرف الجميع أن رأى الجمعيـة التشريعيـة غير ملزم للحكومة . فحمل الصوفانى لواء المعارضة النزيهة باسم الوعى والوطنية .

ورث عبد اللطيف الصوفانى عن أبيه الاشتغـال بالسياسـة منذ ولادته فى أبو الخاوى ، وصار يمثل البحيرة فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وكان يرأسها (السلطان) حسين كامل ، وبذل من ماله على السياسة مايفوق الحد ، فكان يمد ثوار (ليبيا) فى كفاحهم ضد إيطاليا بالمعدات ومواد التموين ، وقد فوض إليـه الأمير عمر طوسون أمر توصيل الإمدادات إلى ليبيا عن طريق حوش عيسى .

كما أنه كان ينفق من جيبه الخاص على مجلة «الأفكار» التى ترك رياسة تحريرها للشيخ عبد الباقى سرور ، الذى كان قلمه شواظا من نار على الاحتلال .

ولما علمت سلطة الاحتلال بنشاطه السرى بالنسبة للمجاهدين الليبيين أمرت باعتقاله ، وكان مدير البحيرة يومئذ أى سنة ١٩١٥ هو محمد محمود باشا الذى لم يجد مبررا قانونيا لاعتقاله ، فحدد إقامته فى بوفيه محطة دمنهور ولم يقدمه للمحاكمة وظل فى اعتقاله هو والمهندس الألمانى (ألبن) المهندس فى السكة الحديد بدمنهور ولم يخرج عنها إلا بعد ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ حيث أعلنت الهدنة .

وتشكلت فى مصر « جمعية اليد السوداء » التى كانت مهمتها اغتيـال كبار رجال الاحتلال الإنجليزى من درجة مفتش ومدير ومستشار ، وأثنـاء محاكمة شفيق منصور سنه ١٩٢٥ اعترف بأنه كان يتلقى التعليمات من منزل عبد اللطيف الصوفانى بالحلمية بالقاهرة .

كان عبد اللطيف الصوفانى يومئذ بالإسكندرية يلتمس العلاج ، وعلم بما جاء فى مجلة « الأفكار » ، وأدرك أن الأمر قد بلغ قمة الخطر ، فأحضـر صاحب فندق « العاصمة » الذى كان ينزل به ، وأبلغه بعزمه على الانتحار ، وأمره بأن يتصل عندئذ بصهره الدكتور عبد العزيز بك عمران بالاسكندرية لتوصيله رسالة كتبها له ، ثم تناول مادة سامة وتخلص بذلك من الوقوع فى أيدى أعداء الوطن وعملائهم من الخونة ونقل جثمانه من الإسكندرية إلى مسقط رأسه بأبو الخاوى حيث دفن بمقابر الأسرة .

ـ عبد العزيز الصوفانى ـ

وهو ابن المجـــاهد الـكبير عبد اللطيف الصوفانى ، وكان عضوا بارزا فى « الحزب الوطنى » ، التقيت به لأول مرة سنة ١٩٤٧ بسينما دمنهور بمناسبة الاحتفال بمرور أربعين عاما عـــلى وفاة مصطفى كامل ، ثم التقيت به بمنزله بالقاهرة ومـكتبه بالوزارة سنة ١٩٤٩ وكان يومئذ وزيراً بلا وزارة فى الوزارة الإئتلافية برياسة إبراهيم عبد الهادى باشا التى شكلت عقب اغتيال زعيم حزب السعديين محمود فهمى النقراشى باشا .

وقد كان عضوا بمجلس النواب ووزيراً للتموين ، وتوفى رحمه الله بعد أن أصيب بالشلل سنة ١٩٥٠ عن نحو ٥٠ عاما ، وعرف بالأدب الجم وهدوء الطبع وصدق الوطنية . ودفن بأبو الخاوى أيضا .



أعلام إيتاى البارود

ينسب إلى « إيتاى البارود » فيقال : « البارودى » .

ـ محمود سامى البارودى ـ

رب السيف والقلم ، الشاعر السياسى ، والمحارب القائد ، والوزير المخلص ، محمود سامى البارودى بن حسن حسنى بك البارودى .

ورد ذكره فى « الوسيط » وفى « بناة النهضة العربيـة » لجورجى زيدان ، كما ذكره كل مؤرخى الثورة العرابية .

ولد بباب الخلق بالقاهرة سنة ١٨٤٠ م (= ١٢٥٦ هـ) ، ومات عنه والده وهو فى السابعة من عمره ، فـكفله أقاربه ، وكان من الجراكسة المولدين بمصر وأبوه حسن بك حسنى من أمراء مدفعية الجيش المصرى ، أما جده فهو عبد الله بك الجركسى أحد الـكشاف فى أوائل عهد محمد على .

وكانت (إيتاى البارود) فى التزام أحد أجداده فى زمن الالتزامات ، ولهذا نسب (محمود) إليها وعرف بها .

تخرج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٥ ، وكان ميـــالا إلى الأدب والشعر ، وكان يتقن التركية وآدابها ، ورحل إلى (الاستانة) حيث تعلم الفارسية ، وكان فى حاشية الخديوى إسماعيل إلى الأستانة سنة ١٨٦٣ . ولما عاد إلى مصر رقاه إلى رتبة البكباشى (مقدم) ، وسافر فى بعثة عسكرية إلى فرنسا وإنجلترا ، وظل يرقى فى الرتب والوظائف ، وكان حكمدارا على القاهرة يوما ما .

واشترك فى جيش مصر لإخماد (ثورة كريت) سنة ١٨٦٨ لحساب السلطان كما اشترك فى حرب البلقان ، والحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، وفى سنة ١٨٧٩ عين مديرا للشرقية ، وفى عهد الخديوى توفيق تولى وزارة الحربيـــة ووزارة الأوقاف ، فأمر بجمع الكتب المبعثرة فى المساجد ، فكانت نواة لدار الكتب المصرية التى أنشأها على باشا مبارك ، وفى ٥ فـــبراير سنة ١٨٨٢ عينه الخديوى توفيق رئيساً للوزارة وكان فيها أحمد عرابى وزيرا للحربية ، وعمت الأفراح جميع البلاد ولاسيما فى البحيرة .

وتولى أهم مكانة فى الحزب الوطنى العسكرى الذى أنشأه عرابى فى ثورته الوطنية ضد الخديوى وأسناده من المستعمرين ، فقد كان البـــارودى أذكى العرابيين جميعا ، وأكثرهم خبرة ومراسا بشئون الحكم لسبق اشتغاله مع شريف باشا ورياض باشا ، وتولى وزارة الحربية مع رياسة الوزارة .

وقد تزوج البارودى من ابنة مرضعة إسماعيل ، فعمل فى القصر مدة ، ثم تزوج من أسرة منصور يكن باشا صهر الخديوى ، وبعد الاحتلال الذى منيت به مصر سنة ١٨٨٢ ، نفى إلى سرنديب (سيلان) ، وأصيب بالعمى ، وعاد إلى مصر بعـــد سبعة عشر عاما ، واشتغل بالأدب وهو كفيف حتى توفى فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤ م (= ١٣٢٢ هـ) .

وكان ينظم الشعر وهو صغير بدون معلم ، وحفظ الكثير من الأشعار التى ضمنها « منتخبات البارودى » وله ديوان شعره المشهور ، وهو يزخر بروائع الشعر العربى والمصرى متضمنا مشاعره عن الأحداث الجارية فى عصره من الحروب والوصف ، فصان للغة ديباجتها وأصالتها .

أعلام العساكرة

ـ عبد السلام إبراهيم العسكرى ـ

توفى رحمه الله ١٢ فبراير سنة ١٩٥٢ عن ٥٨ عاما ودفن بمقابر العائلة بالعساكرة وكان شيخ معهد الإسكندرية الدينى بعد أن تقلب فى مشيخة معاهد أسيوط وقنا كما كان وكيلا قبل ذلك لمعهد الإسكندرية .

وقد أنجب ولدين هما الأستاذ محمد العسكرى وكيل البنك المصرى العربى بالأسكندرية ، والأستاذ ثابت العسكرى المحامى بها أيضا ، وقد عرف عنه أنه كان صاحب رسالة دينية رفعت قدره فى الناس ، فعرفوا عنه عزة النفس ، والغيرة على دين الله ، هذه الرسالة هى « رياضة الألباب فى تفسير سورة الاحزاب »

ـ أحمد عبد الحليم العسكرى ـ

حصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية من معهد الإسكندرية الدينى ونزح إلى القاهرة لاستكمال الدراسة بالأزهر ، ولكنه لم يمض فيها إلى النهاية ، وتعلق بالصحافة فاشتغل بها ، فعين محررا للصفحة الأدبية بجريدة (الأهرام) ، وكنت ألتقى به كثيرا بدارها فى القاهرة كلما قدمت مقالا لينشر بها ، بيدى أو بالبريد ، ثم عين مديرا لمطبوعات السكة الحديد ، فوكيلا لإدارة الحج بوزارة الداخلية ، وفى سنة ١٩٤٦ حصل على العالمية الأهلية ، ثم آثر الصحافة على الوظيفة ، وتفرغ للتأليف ، فأخرج كتاب « القاضى الشرعى » جمع فيه خبراته الشرعية ، مما كان ينشره فى الأهرام وله أيضا كتاب « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » بالاشتراك مع الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

وتوفى رحمه الله فى أول يناير سنة ١٩٦١ عن ٥٥ عاما ، وأنجب ثلاثة ذكور وأنثى ، ومن أولاده هؤلاء : المهندس الزراعى جلال العسكرى وطارق ووليد .

أعلام قبور الأمراء

ـ أحمد حافظ عوض ـ

وافانى بترجمة وافية له السيد أحمد خيرى مشكورا غير مأزور. ولد أحمد حافظ فى ديسمبر سنة ١٨٧٤ وأصله من (قبور الأمراء) ، ووالده الحاج عوض الشحات ، وتخرج فى المدرسة التوفيقية الثانوية ثم مدرسة المعلمين العليا ، واشتغل بالتحرير فى جريدة « المؤيد » وحج سنة ١٣٢٧ هـ مندوبا عن إحدى الصحف الإنجليزية لموافاتها بأنباء حجة الخديوى فى ذلك العام ، وتولى رياسة تحرير (المؤيد) بعد وفاة الشيخ على يوسف ، ثم عطلها الإنجليز عند إعلان الحرب العالمية الأولى ، وحددوا إقامته فى الإسكندرية طول مدة الحرب .

ولما وضعت الحرب أوزارها اشترك مع عبد القادر حمزة باشا فى جريدة « الأهالى » ثم استأجر « المحروسة » من إلياس زيادة : والد الأديبة المشهورة « مى زيادة » .

وفى صفر سنة ١٣٤٣ أصدر « كوكب الشرق » التى ظلت بضع عشرة سنة ، وكان من محرريها أحمد ماهر باشا والدكتور طه حسين ، والأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، وعمل كل منهم رئيساً للتحرير ، وكان يكتب فيها أيضا اللواء وحيد شوقى مدير عام مصلحة السواحل (سابقا) والسيد فؤاد شاكر رئيس تشريفات الملك عبد العزيز آل سعود ، والأستاذ عباس حافظ .

ثم ضم حزب الوفد جريدة «الأهالى» إلى جريدة « الجهاد » التى كان يصدرها محمد توفيق دياب ، وأطلق عليها معاً اسم جريدة « الوفد المصرى » التى استمرت بضع سنوات .

وكان حافظ عوض عضوا بمجلس النواب عن دائرة (باب الشعرية) ، ثم عضوا معينا بمجلس الشيوخ ، وعضوا بمجمع اللغة العربية .

وعرف بجودة الأسلوب فى اللغة العربية ، والتعمق فى اللغة الإنجليزية ، وكان ينقد كتاب حزب الأحرار الدستوريين ويسميهم بأسماء تثير الضحك ، ومن نكته التى كان يكتبها فى « المحروسة » نبذ صغيرة باسم (هيردوين) و (محمدين)

وقد منحه الخديوى عباس رتبة البكوية من الدرجة الأولى وصحبه فى رحلته إلى الوجه البحرى سنة ١٣٣٢، وكتب عن هذه الرحلة كتابا ضخما مزدانا بالصور صادرته السلطات الإنجليزية فى مصر بعد عزل الخديوى .

وكانت دار جريدة أحمد حافظ عوض كدار الندوة لكبار الأدباء والشعراء فى مصر وسوريا وفلسطين ، يحضرها يوماً أمير الشعراء أحمد شوقى ، وكان من روادها المويلحى صاحب حديث عيسى بن هشام ، ومحمد كرد على والحاج محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين ، ومحمد على الطاهر صاحب جريدة « الشورى » .

وظل فى اعتكافه بمنزله بسبب الشيخوخة ، حتى توفى بمصر الجديدة ظهر يوم الجمعه ١٩ ربيع الأنور سنة ١٣٧٠ ﻫ

وأنجب أربعة ذكور مات أكبرهم فى حياته سنة ١٣٦٠ ﻫ ومات الأصغر فجأة سنة ١٣٧٩ ، والباقيان هما الدكتور صلاح الدين عوض الطبيب فى (قطر) والدكتور جلال الدين عوض الذى كان أستاذا بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية والآن وكيل وزارة الصناعة .

ومن مؤلفات الفقيد « فتح مصر الحديث » و « من والد إلى ولده » وله روايتان صغيرتان هما « فسحة الأمل » و « الحال والمآل » ، وله كتاب عن وصف رحلة الخديوى عباس إلى أقاليم الوجه البحرى سنة ١٣٣٢ صادره الإنجليز كما قلنا ، وله أيضا مذكرات مخطوطة سماها « آثار أقدام على رمال الزمان » أهداها إلى دار الكتب المصرية بالقاهرة .

أعــــلام ببيان

ـ محمد البسيونى البيبانى ـ

ذكره محمد كامل الفقى فى الجزء الثالث من كتابه « الأزهر » .



ولد فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى تقريباً ، وحفظ القرآن فى بلدة (بيبان) التى نشأ بها ، ثم تعلم بالأزهر ، وتصدر للتدريس ، وامتاز بطريقة لم تعرف عن غيره ، واختاره الخديوى توفيق ليكون إماما له ومدرسا لأنجاله بعد أن كان مدرساً بالمدرسة الخديوية التجهيزية ، ثم أسند إليه ـ مع قيامه بإمامة الخديوى ـ تدريس اللغة العربية بمدرسة الإدارة (مدرسة الحقوق) وكان من تلاميذه : أحمد زكى باشا ، وأمير الشعراء أحمد شوقى وكان يدرس البلاغة فى كتابه (حسن الصنيع) ثم صار مفتيا للمعية السنية حتى توفى فى ٣ ربيع الآخر سنة ١٣١٠ (٣ نوفمبر سنة ١٨١٢ ،) فى عهد الخديوى عباس الثانى .

وقد مدح الخديوى فى المناسبات ولم ينظم الشعر فى غير ذلك ، قال بعد فشل العرابيين مهنئا الخديوى بالعودة من الإسكندرية:

رجوعك ياتوفيق مصر هناؤها ... وشمس بهاها دائماوضياؤها
فأنت خديويها وأنت مليكها ... وأنت لها من كل سقم شفاؤها
وأنت لها حق على رغم حسد ... وأنت لها بدر وأنت سماؤها
وماهى إلا روضة وفكاهة ... وماأنت إلاحسنهاوازدهاؤها
وأنت لها إنسان عين حياتها ... ولولا تلاقيها لخيف عناؤها
وماهى إلا جثة أنت روحها ... وما أنت إلا مجدهاوملاؤها
وما مثلها إلا لمثلك ينتمى ... فيسمو بهابين الأنام انتماؤها
لبعدك كم قاست لعمرى شدائدا ... ففاضت إلى أن تستباح دماؤها
ولولا تلافيها لأصبح تالف ... بقية أهليها وعز نماؤها
وأضحت لأرواح الرياح ملاعبا ... وماطاب فيها للمقيم هواؤها

ومنها فى ذم العرابيين :

على عصبة البهتان لاتأس إذ هوى ... بها فى مهاوى الموبقات افتراؤها
فقد خلعت ثوب النجاة مذ اكتست ... ثياب الردى جهلاوبئس اكتساؤها
وحيث أبت إلا هواها سفاهة ... وساق لها الأخذ الوبيل شقاؤها
رأيت لها رأى الملوك فأصبحت ... وقد ساءها إصباحها ومساؤها
فإن شئت فاصفح أو إذا شئت فانتقم ... فمنك بقاها لوتشا وفناؤها

وانتفع به فى مدرسة الإدارة : أحمد شوقى وأحمد زكى باشا فى البلاغة ، وكان كما يقول عنه أحمد زكى باشا فى تأبين أحمد شوقى فى حفل وزارة المعارف فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ : إن البسيونى كان لا تخطئه النكتة البارعة اللاذعة أو الساحرة الساخرة

وكان يعرض على تلميذه شوقى قصائده فى مدح الخديوى قبل إرسالها إلى الوقائع المصرية وغيرها من الصحف وكان شوقى يشير عليه بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت وهكذا حتى ينزل الشيخ على رأى تلميذه . وكان البسيونى يقول ذلك للفرق المتقدمة وفيها : عثمان مرتضى (باشا) ، وأبو بكر (باشا) يحيى ، وعلى ثابت (باشا) ، وشاكر (بك) أحمد ، دون أن تأخذه العزة بالإثم ، بل قد تحدث عن شوقى الناشىء للخديوى حتى أوفده إلى باريس سنة ١٨٨٧ فتحققت به آمال شوقى بإشارة البسيونى .



أعلام سماديس

- عبد الغفار السماديسى -

ذكره السخاوى فى الجزء الرابع من « الضوء اللامع » .

وهو عبد الغفار بن محمد بن موسى بن مسعود الزين السمديسى ثم القاهرى الأزهرى المالكى ، ولد بسمديسه وبها نشأ ثم تلا القرآن للسبع على الشهاب السكندرى والزين رضوان والزين طاهر المالكى ، وبمكة تلاه على الزين بن عياش وناب فى القضاء عن الولوى السنباطى وابن التنسى ، وصار وجيها ، وأقرأ عند فيروز وناب عنه فى نظر الأوقاف التى تحت نظره . وفى سفارته عينه الظاهر جقمق لإقراء ولده ، وناب عنه فى جهاته كالبيمارستان ، وترقى واتسعت دائرته وركب الخيل ، وكان راجح العقل متواضعا ، مات بعد أن جاوز الخمسين ـ فى جمادى الثانية سنة ٨٧١هـ وأكبر أولاده يسمى موسى .

- موسى السماديسى -

ذكره السخاوى أيضاً فى الجزء العاشر :

ويعرف بابن عبد الغفار السماديسى ، كان مالكيا كأبيه، ولد فى سنة ٨٤٦ تقريبا بالصحراء ، وأخذ عنه السنهورى واللقانى والنور الوراق والشمنى والحصنى والعلاء الحصنى ، وقد أجاد الخط عند ابن سعد الدين وبرع فى الكتابة وتجليد الكتب وتذهيبها ، وحج أول مرة سنة ٨٧٠ ، وناب فى القضاء عن الحسام بن حريز وكان بارعا فى صناعته ، وصار المعول عليه فى أيام اللقانى .

- محمد السماديسى -

وهو أكبر من أخيه موسى ، كان أزهريا مالكا .

وذكره السخاوى فى الجزء الثامن دون أن يتحدث عنه بشىء أكثر من هذا

- شمس الدين السماديسى -

ذكره ابن إياس فى « بدائع الزهور » .

وهو شمس الدين بن النقيب محمد السمديسى القاضى الحنفى فى خلافة المتوكل وفى عهد سلطنة الغورى وذلك سنة ٩١٩ بعد عزل عبد البر بن الشحنة كان إمام السلطان الغورى ، وكان حيا سنة ٩٢٠ هـ .

أما والده عمر السمديسى القاهرى فقد مات فى صفر سنه ٨٨٦ بباب الوزير كما ذكر ذلك السخاوى فى الجزء ٦ من «الضوء اللامع» .



أعلام كفر مستنان

- عبد العزيز المستنانى -

ذكره السخاوى فى الجزء الرابع من (الضوء اللامع) .

وهو عبد العزيز بن مسلم بن دال بن خضر بن غراز بن سلامة العز أبو الفضل المستنانى المغربى السكندرى المالكى ، التقى به السخاوى بالإسكندرية ، وكان متصوفا زاهدا إلى درجة الوجد ، ومن نظمه :

خطيب الحى قد غنى   على عيـدان آصالى

وكان لأهل الإسكندرية فيه اعتقاد زائد ، وتوفى بثغر الإسكندرية فى رجب سنة ٨٧٤ ﻫ ودفن فى الجانب الشرقى من الشارع (طريق الحرية حاليا).

ـ محمد المستنانى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الثامن ، وقال إنه توفى بدمياط سنة ٨٧٥ ﻫ ذهب إليها مع المنصور وكان إمامه ، وكتب كثيرا بخطه ، وهو ابن عبد العزيز المستنانى السابق ذكره .

اعلام النشو البحرى

ـ أحمد النشوى ـ

ذكره السخاوى فى الجزء الأول من (الضوء اللامع) .

وهو أحمد بن حسن بن على بن عبد الله الشهاب النشوى القاهرى الحنفى ، اشتغل بالعلم ، وبرع فى الكتابة ، وشارك فى جملة فنون ، وقرأ (الشفاء) على السخاوى بالمدينة المنورة ولازمه ، وقدم القاهرة سنة ٨٩١ ﻫ ثم عاد إليها صحبة شاهين ، ثم عاد السخاوى فلقيه بمكة سنة ٨٩٨ ورجع إلى المدينة وأثنى عليه فقال : [ونعم الرجل توددا] .

أعلام إشليم

- أصيل الدين الإشليمى -

ذكره السخاوى فى الجزء الثامن ، من « الضوء اللامع » .

وهو محمد بن عثمان بن أيوب أصيل الدين أبو عبد الله بن الفخر أبى عمرو ابن النجم العمرى الإشليمى القاهرى الشافعى ، والد الشهاب أحمد بن أصيل ، ولد بعد سنة ٧٤٠ هـ بإشليم ، وعى بالفقه والعربية والقراءات ، وقرأ على ابن الملقن والبلقينى ، وأذن له فى التدريس والإفتاء ووصفه ابن الملقن بقوله : [العالم العلامة ذو الفنون ، أقضى القضاة مفتى المسلمين جمال المدرسين] وتكسب بالشهادة ، ولازم الصدر بن رزين خليفة الحكم ، فرقاه لنيابة الحكم وقضاء دمشق ، بدلا من الإخنائى ، ثم عاد إلى القاهرة ، وغلبه الدين وحبس ، وكان يلقى دروسه فى السيرة النبوية ، وتوفى فى أواخر ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ وأرخ له ابن حجر والمقريزى ، ويلاحظ أنها تعرف الآن (إشليمة) .

- عبد الغنى الإشليمى -

ذكره السخاوى أيضا فى الجزء الرابع من « الضوء اللامع » .

وهو عبد الغنى بن محمد بن عمر بن عبد الله الزين الإشليمى ثم القاهرى الشافعى ولد بإشليم سنه ٨٢٠ تقريبا ، وقرأ بها القرآن ، وانتقل مع أخيه إلى القاهرة ، حيث اشتغل بالفقه على السبكى والقاياتى والونائى والشمنى ، وبالفرائض على ابن المجدى ، وبالعروض على الشهاب الأبشيطى ، وله أرجوزة فى الفرائض ، وسمع على الزين الزركشى وابن حجر ، ونزل فى « مدرسة سعيد السعداء » وتصوف ، ومدح ابن حجر والسخاوى .

اعلام شابور

- سيدى سيف الدين -

ذكره على مبارك فى الخطط التوفيقية بالجزء ١٢ أن بها ضريح سيف الدين وشاهين . وينسب إليها أيضاً سليمان بك الشابورى .



أعلام درشابة

- الشهاب الدرشابى -

ذكره السخاوى فى الجزء الثانى من « الضوء اللامع »

وهو أحمد بن محمد بن على بن أحمـــد بن ناصر الشهاب الدرشابى الأصل السكندرى المالكى ، ولد بدرشابة سنة ٨٤٠هـ تقريبا، ونشأ بها وحفظ القرآن والمختصر والرسالة والثلث من ابن الحاجب والأجرومية وألفية النحو ، وقرأ الفقه على أبى القاسم النويرى والزين طاهر والولوى السنباطى ، والأبدى والنور الوراق وأبى الفضل المغربى وأحمد بن يونس ، وأخذ العربية عن ابن يونس والأبدى والشمنى ، والفرائض عن أبى الجود والشمس بن جنيبات ،وسمع من ابن حجر الأقصرائى والزكى المناوى ، وقرأالموطأ على ابن يفتح الله السكندرى، وأملى على السخاوى وسمع المسلسل وأول البخـارى من السخاوى الذى أجازه ، وناب فى القضاء بالإسكندرية عن ابن البدر بن المخلطه، ثم استقل بقضائها فى شوال سنة ٨٤ بدلا من العفيف ثم صرف عنها ثم عاد سنة ٨٨٩ واستمر كذلك . وقدم القاهرة وجاور بمكة وحمد أهلها سلوكه .

٧ - على الدرشابى -

ذكره السخاوى فى الجزءالخامس : وقد اشتغل قليلا بالعلم وقرأعلى السخاوى مجالس من البخارى ، ولم يذكرشيئا عن مولده أو وفاته وهو ابن الشهابالدرشانى

- شهيد فلسطين أنور الصيحى -

نشأ والده الأستاذ محمد محمد الصيحى فى درشابة ، وتزوج من أسرة (أبو نصرة) بدسوق وحصل على ليسانس الحقوق ، وعمل موظفا بطنطا ، حيث ولد أكبر أبنائه أنور فى ٧ فبراير سنة ١٩٢١ ، وظل الوالد يتردد على مسقط رأسه ، ومقر أسرته (درشابة) من حين إلى حين حتى نقل إلى القاهرة ، وهناك تعلم أنور بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية الابتدائية بالسيدة زينب ، ثم بمدرسة الخديوى إسماعيل الثانوية ؛ وشب أنور محبا للاطلاع وفى قلبه جذوة تشتعل غيرة على وطنه ، فالتحق بالكلية الحربية وتخرج فيها ليعمل ضابطاً فى سلاح المدفعية وقد كان يحب الرماية وركوب الخيل ويجيد الرماية وسائر أنواع الرياضة .

وفى سنة ١٩٤٠ حدث أن كان فى خندق بمعسكر مرسى مطروح فدكته قنبلة من طائرة ألمانية معادية ، فسدت منافذه ، ولكنه لم ييأس ، وخرج من الخندق وأنقذ من كان معه تحت الأرض من الضباط .

كان أنور الصيحى أحد الضباط الذين أمر الملك الخليع فاروق باعتقالهم سنة ١٩٤٧ ، بتهمة التآمر على العرش وقضى خمسين يوما فى معتقله ، وكان الضابط كمال الدين حسين يمر سرا على أسر الضباط المعتقلين ويسلمها المرتبات المقطوعة من « صندوق الضباط الأحرار » .

وخشى فاروق من عواقب استمرار حبس هؤلاء الضباط ، فأفرج عنهم ، ولكنه شتت شملهم وعطل ترقياتهم ، وظل أنور على مبدئه القديم لا يحيد ولا يتزعزع .

وفى سنة ١٩٤٨ اشترك مع الفدائيين فى معركة فلسطين وكان قائده كمال الدين حسين ، الذى جرح فى المعركة فعهد بقيادة المدفعية إلى أنور ، فنجح فى السيطرة على (غزة)، وأبدى من البطولة والبسالة ما جعله ينتصر فى معركة (بيرون إسحاق)

وعلى مستعمرة (بير إيشيل) اليهودية ، صوب أنور أفواه مدافعه دون هوادة فدكها دكا ، وخلفها رمادا وأطلالا ، ولكن يهوديا غادرا تربص له من الخلف وصوب طلقة فاجرة على رأسه فخر مضرجا بدمائه الزكية ، نقل على إثرها إلى

المستشفى العسكرى ، حيث أخذ يعالجه الضابط الطبيب الفدائى محمد حسين غراب ولما اشتد الخطر على حياته ، اقترح عليه أن ينقله فورا إلى القاهرة ليلقى العناية المناسبة ، فأبى بكل شمم أن يترك الميدان . وفى فجر يوم ٢١ مايو سنة ١٩٤٨ لقى ربه ، على أرض فلسطين ، مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا ، فمنحه القائد العام أحمد عبد العزيز رتبة اليوزباشى ، وأصر الزملاء على الانتقام من القاتل الغادر ، فكان لهم ماأرادوا .

وتحقق للشهيد الطبيب الذكر ما كانت تصبو إليه نفسه فقامت الثورة سنة ١٩٥٢ حتى إذا كان يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٣ تحرك ركب الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية وبصحبته زملاء المعركة من رجال الثورة ، الضباط الأحرار ، وكان المقصد (دسوق) لزيارة أسرة الشهيد ، حيث كان اللقاء ، بعد أن أطاحت الثورة بالعرش الفاسد ، وخلصت مصر لأبنائها ، وهناك فى السرادق الكبير الذى أقيم بهذه المناسبة ، وقف جمال عبد الناصر ليقول :

[هذه الفرصة ليست للرثاء ، ولكنها للتمجيد ، فقد كان المرحوم اليوزباشى أنور الصيحى فى طليعة المجاهدين الذين استشهدوا فى سبيل رفعة هذا الوطن ، وعزته وكرامة أبنائه ، وكان من أوائل الضباط الاحرار ، كان شابا لا ككل الشباب ، وكان رجلا لا ككل الرجال ، كان خير عنوان لأبناء مصر القوية التى لا تقبل الهوان أبداً ، كان دائما يهدف إلى المثل الأعلى ، وإلى الهدف الأسمى وكان دائما ينكر ذاته ، وكنا فى أول هذه الحركة قلة ، وكان أنور أحد أقطاب هذه القلة] .

هذا وقد بذلت الثورة أقصى الجهود فى سبيل استعادة رفاته الطاهر من (بير السبع) ولكن الصهيونية — كما يقول السيد كمال الدين حسين — قد حقدت عليه حيا وميتا .

ومن يدرى . ماذا يخبىء القدر فى صحائفه ، فقد يبعث الله من آل الصيحى وأبناء درشابه والبحيرة أبطالا يحررون فلسطين من براثن الذئاب الصهيونية بقيادة البطل المظفر جمال عبد الناصر .

وقد أقيم لشهيد الوطن نصب تذكارى فى سلاح المدفعية بالقاهرة ، كما أشاد

ببطولته السيد الرئيس فى مذكراته بمجلة « المصور » وأصـــدر المجلس الأعلى لرعاية الشباب عنه كتاب « البطل أنور محمد الصيحى » بقلم الأستاذ أبو الحجاج حافظ ، وأطلق اسمه على مدرسة دسوق الإعدادية وعلى الشوارع الرئيسية بطنطا ودسوق تخليداً لذكرى الشهيد البطل زين شباب درشابه ومثال التضحية والفداء من أجل العروبة والإسلام .



أعلام ابو درة

- إبراهيم الأبو درى -

ذكره السخاوى فى الجزء الأول من «الضوء اللامع»

وهو إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر القاضى برهان الدين الأبودرى ثم القاهرى الأزهرى المالكى . ويعرف بالأبودرى ثم القاهرى ولد فى ١٢ ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ . حفظ القرآن وحفظ متون النحـــو والفقه ولازم الزين عبادة والشهاب الصنهاجى وأبو القاسم النويرى ، وأخـــذ عن الشهاب الابدى وأبي الفضل المشدالى ، واستنابه البساطى وصار من أعيان النواب . ودخل الإسكندرية وسمع ابن الطحان وابن ناظر الصاحبة وابن بردس والعز بن جمـــاعة والولى العراقى والـــبرهان البيجورى . ومات فى ٣ صفر سنة ٨٥٩ هـ .

- محمد الأبودرى -

ذكره السخاوى أيضا فى الجزء السادس من « الضوء اللامع » .

وهو نزيل الصحراء ويعرف كأبيه السابق بالأبودرى ، ولد بالقاهرة سنة ٨٤٥ هـ قرأ على ناصر الدين بن المخلطة والبلقينى والمحلى والمناوى وابن الديـــرى والسنهورى وشارك فى الفقه والنحو والعربية وغيرها .

أعلام ابوقير

- شمس الدين الأبوقيرى -

ذكره السخاوى فى الجزء السابع من « الضوء اللامع » .

وهو : محمد بن أحمد بن محمد الخواجا شمس الدين الأبوقيرى السكندرى نزيل مكة ، وله بها دار ، وسافر إلى (كلكتا) فى تجارة وسكن بها « وتوفى فى ربيع الأول سنة ٨٦٤ ﻫ ، وأرخ له ابن فهد .

اعلام فرنوى

- البدر الفرنوى -

ذكره السخاوى فى الجزء التاسع من « الضوء اللامع » .

وهو : محمد بن محمد بن سليمان بن عبد السلام البدر الفرنوى الأزهرى المالكى . ولد سنة ٨٦٣ ﻫ بفرنوه (فرنوى) ونشأ بها وحفظ القرآن والمتون وقدم القاهرة فنزل بالأزهر وتفقه على أيدى اللقانى والسنهورى ولازم هذا الأخير فى دراسة «جمع الجوامع» والأصول الفقهية والعربية ، وتتلمذ عليه العلمى سليمان البحيرى وسمع من السخاوى بحضرة أمير المؤمنين مصنفه فى مناقب العباس ، وضبط الأسماء ، وكتب الطبقة واختص بالتقى بن تقى ، وشاركه ولده فى الاشتغال بالعلم ، وأكثر من التردد على السخاوى ، وسمع الرضى الأوجاقى وأبا السعود العراقى والديمى والسنباطى ، وسمع الوفائى فى الخانقاه .

اعلام ديروط

ـ بيرم الديروطية ـ

ذكرها السخاوى فى الجزء الحادى عشر من « الضوء اللامع » .

وهى بيرم بنت أحمد بن محمد بن أحمد بن سرور الديروطية المالكيـــة ، نشأت نشأة أبيها ، فتلت القرآن بالسبع على يد ابن الصائغ وأكملت (الجمع) أى (جمع الجوامع) على ابنته فاطمة، ودخلت مع أبيها بيت المقدس، وقرأت على الشيوخ ، ووعظت النساء ، وطالعت بكثرة « رياض الصالحين » و « طهارة القـلوب » و« رسالة ابن أبى زيد » فى التصوف ، ودخلت مكة ودمياط وتزوجت شيخ البلد أحمد بن ترمس فتغير حالها بمخالطته .



اعلام قراقص

ـ الشيخ عبد الباقى سرور نعيم ـ

ولد بقراقص ونشأ فى الأزهر حتى أتم دراسته وتفوق فى التخصص ، وبدأ نشاطه الوطنى فى ثورة سنة ١٩١٩ م ، فقدم من القاهرة إلى دمنهور فى ١٣ نوفمبر سنه ١٩١٨ ، يحمل عشرات الألوف من توكيلات الشعب للوفد المصرى للمطـالبة بالاستقلال عند سفر الوفد إلى (لوزان) حيث كان ينعقد مؤتمر الصلح .

واستطاع بحماسته الدافقة ، وأسلوبه الجذاب أن يحصل على توقيعات المواطنين فلما قامت المظاهرات بالقاهرة سرت عدواها إلى الأقاليم . وكان هو حامل شعلة الثورة فى البحيرة . فأخذ لعدة أيام يدرب شبـان دمنهور على المظاهرات والهتافات ، وعلم مدير البحيرة إبراهيم حليم باشا بأنه مدبرهـا ، فقبض عليه

وأودعه السجن ، فقامت فى ٢١ مارس سنة ١٩١٩ مظاهرة دمنهور الكبرى . وهجم المتظاهرون على السجن فحطموه وأخرجوا منه الشيخ عبد الباقى قوة واقتدارا ، وأسقط فى يد المدير الذى اندس فى الجموع الغاضبة ، فاعتدوا عليه ضربا بالنعال ، فأمر بتسليط خراطيم المياه النوية عليهم ، فكانت تجرف الشبان بقوة دفعها ، ومالبثت الأحكام العرفية أن أعلنت ، وقبض على الشيخ عبد الباقى ومئات المتظاهرين وشكلت محكمة عسكرية بدمنهور ، أصدرت حكمها ببراءة الشيخ عبد الباقى الذى عندما سئل : مذنب أم غير مذنب ؟ . فقال: غير مذنب ، أما المذنب فهو مستر ويلسون الذى نادى بحرية الشعوب ، فأنا ذنبى أنى أنادى بحرية مصر واستقلالها . وفى عهد الملك فؤاد اختير رئيسا للجنة الخلافة الإسلامية .

واشترك بعد ذلك فى تحرير « الأفكار » وكانت مقالاته بها تحت عنوان « وإنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض » وقد ذاع صيتها حتى سموه « الشيخ وإنا لاندرى » وهذه المجلة كان يرأس تحريرها على الكازة ثم اشتراها عبد اللطيف الصوفانى ، وظل الشيخ عبد الباقى يحرر فيها نحو أربع سنوات .

وكان الشيخ عبد الباقى يجيد الإنجليزية ؛ وكان الوحيد من رجال الأزهر الذين ردوا على (زويمر) المستشرق فى محاضراته التى كان يلقيها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وأفحمه عند زيارته للأزهر سنة ١٩٢٥ .

وقد عرف محمد محمود باشا فضله فأمر بتعيينه مدرسا بجامع برقوق سنة ١٩٢٦ م بقسم التخصص بالجامع ، واشتهر بالكفاح المتواصل فى سبيل القضاء على الرشوة فى الانتخابات وكان زجالا وشاعرا وكاتبا وخطيبا ، فلما رشح نفسه ضد محمد سليمان الوكيل باشا عن مركز دمنهور فى المجلس النيابى ، قال :

الله يعلم أنا لانحبهمو ولا نلومهمو ألا يحبونا

كل له وجهة فى بعض حاجته بنعمة الله نخليهم ويخلونا

لايطمعوا أن يهينونا ونكرمهم وأن نكف الأذى عنهم ويؤذونا

وله مؤلفات دينية معظمها فى الرد على المستشرقين ، ومؤلفات سياسية .
وقد توفى رحمه الله بدمنهور عن سبعة وأربعين عاما ودفن فى مسقط رأسه قرافص سنة ١٩٢٧ .ومن أبنائه النجباء الأستاذ عبد الباقى سرور الكاتب المشهور

استدراك

كان بودنا أن نستكمل أعلام البحيرة بتراجم عن « الدكتور عبد الواحد الوكيل ، من سمخراط ، والمستشار حسن محمود من الرحمانية ، والشيخ محمد أمين جمال الدين المراقب العام للأزهر والمعاهد الدينية سابقا وقد توفى فى ٢٩ مايو سنة ١٩٦٢ ، من كوم حمادة ، وإبراهيم الجارم عمدة رشيد المثقف، ومحمد عيد عمدة درشابة وغيرهم ، لولا أن الجهود المضنية التى بذلناها لم تكلل بالنجاح حتى اللحظة التى أوشك فيها الكتاب على الصدور .

ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء هم أعلام كل مدينة وكل قرية من إقليم البحيرة فى خلال العصور المختلفة عثرنا عليهم على قدر ما مكنتنا أجهزتنا العلمية الراهنة ، وعلى قدر الطاقة المحدودة .

ولاشك أن هناك الكثير غير هؤلاء جميعا ، لم نتمكن من الحصول على ترجمات لهم ، إما لأن المراجع الوثيقة لم تشر إليهم ، وإما لأن أقاربهم لم يسعفونا بتراجم عنهم حتى آخر لحظة ، وإما لفقدان كل المراجع أو بعضها ، فعندنا مثلا العشرون جزءا الأولى من كتاب « تكملة وفيات النقلة » ، كلها مفقودة ، بينما الأربعون الباقية منها لاتزال مخطوطة ، وفيها استطعنا العثور على بعضهم .

وعسى أن يوفقنا الله تعالى فى الطبعات القادمة إلى المزيد من هؤلاء الأعلام الذين تتألق بهم رحاب الخلود ، ويفخر بهم أهل البحيرة جيلا بعد جيل .



٧
البحيرة .. والثورة
في عشر سنوات

لقاء

انبثق فجر يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وطلع الصباح على أهل البحيرة ، وهم على عادتهم ذاهبون آيبون ، لولا أن أذيع البيان الرسمي باستيلاء الجيش على زمام الأمور ، ولعل أبناء البحيرة كانوا أسرع من غيرهم إدراكا لما وراء حركة الجيش هذه من « ثورة » فقد كانوا كما قلنا في كفاح ثوري خـــلال العصور ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، ورأينا مراحل هذا الكفاح ، الذي جرى على أرض البحيرة .

ولا عجب إذا كان أبناء هذا الإقليم أقوى الناس استجابة للثورة منذ اللحظة الأولى لقيامها . لماذا ؟ لأن البحيرة كانت إلى ذلك الحين تغلي مراجلها بالثورة المكبوتة ، على الأوضاع التي بلغت أقصى درجات الغليان الشعبي : فالحزبية مزقت شمل أهل البحيرة شر ممزق ، والإقطاع تجاوز الحد في الاستبداد بالقوى الشعبية الكادحة ،

وأصبحت كثرة العاطلين تهدد أمن البلاد ، بينما المحظوظون ينعمون فى المصايف الداخلية والخارجية - بما انتهبوه من عرق الأجير ، وإذ ذاك كانت السيطرة الرأسمالية ، متحكمة فى الحركة الإقتصادية ، استنادا إلى حزب الحاكم ، أوالرشوة التى أدت إلى الحصول على الرتب والألقاب ، أو العصبية الريفية التى أغلقت على نفسها كل المنافذ حتى أصبح من المحال أن يقتحمها الموهوبون من الشباب المثقف أما الاحتكار الذى حظى به أعضاء البرلمان بمجلسيه : بالحصول على تراخيص الاستيراد والتصدير ، فقد كمم الأفواه ، وبذلك ضمن الأصهار والمحاسيب لأنفسهم أرباحا طائلة فى غفلة من الشعب ، أما الكتابات الصارخة ، والخطب الثائرة ، فما كانت لتحرك الخامد والهامد ، لأن تأثيرها كان ضعيفاً فى توصيل « الرسالة » إلى الشعب ، الذى فقد الأمل فى النجاة ، لولا أن تداركته عناية الله بالثورة ، ثورة الجيش ، وهو جيش الشعب ، أولا وقبل كل شىء .

ولست أنسى « مؤتمر الكفاح الوطنى » بدمنهور الذى تشكل من جميع المنتمين إلى الأحزاب السياسية أثناء معركة القنال سنة ١٩٥٢ ، وما كانت تنتهى إليه جلساته من مهازل تبعث على اليأس الفاتك ، لعدم القدرة على الارتفاع إلى مستوى الأحداث .

وكنت عضوا فى هذا المؤتمر ، وكان من أبناء البحيرة - مع ذلك - فى المؤتمر من استطاعوا أن يدقوا جرس الخطر فى وجه ضحايا « الصراع الحزبى » وأشهد مخلصا أن الأستاذ فتحى الشرقاوى - وكان إذ ذاك محاميا بدمنهور - قد استطاع بوعيه ووطنيته أن يستحوز على إعجاب الجميع فى المؤتمر ، بآرائه التقدمية البارعة وتقديراته للأمور المحيطة بنا ، لهذا كان له موقفه المشرف فى « مجلس الأمة » حتى اختير أخيرا وزيراً للعدل فى حكومة الثورة ، ولم يكن هو وحده الذى وقع عليه الاختيار من أبناء البحيرة لشغل بعض المناصب القيادية فى الثورة ، فهناك غيره كثيرون منهم الأستاذ عبد المنعم الصاوى وكيل وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، والدكتور جلال حافظ عوض وكيل وزارة الاقتصاد ، والأستاذ محمود عبد اللطيف الجيار الذى يشغل منصباً ممتازاً برياسة الجمهورية هذا فضلا عن عدد كبير من أبناء البحيرة المبرزين فى المصالح المختلفة .

أما قائد الثورة الرئيس جمال عبد الناصر ، فقد كان له فى إقليم البحيرة ذكريات عن نشأته الأولى وصباه وفى أيام تلمذته ، لا يزال أهل البحيرة فى الخطاطبة وكوم حمادة ودمنهور يذكرونها فى عزة وفخار ، وتناولتها أقلام المؤلفين والصحفيين من المصريين والأوروبيين على السواء (١) والتى جمال بكفاح رشيد سنه ١٨٠٧ فكتب قصته (فى سبيل الحرية) ، وقرأ (عودة الروح) لتوفيق الحكيم ابن البحيرة (من عزبة أبو مسعود)

وهكذا كان اللقاء طبيعياً بين البحيرة والثورة . أما التجاوب بينهما فكان أكثر من طبيعى ، ولهذا كانت البحيرة ـ بحق ـ أشد اندفاعا نحو الثورة من أى إقليم آخر .

ولقد حققت الثورة وجودها فعلا فى البحيرة ، فكان زحفها نحو عاصمتها « دمنهور » يعدل زحفها نحو كل مركز أو قرية أو كفر من حيث السرعة فى الإنجاز ، والعدالة فى التوزيع ، على أسس علمية من التخطيط ، دون استئثار من جهة بمكاسب الثورة دون غيرها من الجهات ، ودون تدخل من أحد كل همه أن يتخذ من الإصلاح مادة للدعاية الانتخابية ، كما كان الشأن فى الماضى ، وإنما هى الثورة التى أصبحت للمواطنين جميعا أما وأبا .

وفى الحق أن البحيرة فى خلال عشر سنوات من قيام الثورة ، أصبحت شيئا آخر غير ما كانت عليه من قبل : زيادة مضطردة فى كل إنتاج ، اندفاع قوى نحو استغلال كافة إمكانياتها ، ترابط وتساند بين جميع الجيران على نحو لم يكن معروفا من قبل ، ومنذ سنتين فقط أى منذ أصبحت البحيرة محافظة ـ تطبيقا لنظام الإدارة المحلية ـ شعر كل مواطن فى هذه البقعة الهامة من الجمهورية بأنه يعيش فى ثورة ، وأن الثورة تعيش فيه ، وتسهر على مصالحه ، وتحقق له سعادة يومه ، وتبنى له الأمان فى غده .

نعم كان هذان العامان من تاريخ الثورة ، نقطة تحول جديد نحو توكيد المجتمع الذى نبنيه اشتراكيا تعاونيا ديمقراطيا ، فلا يمضى يوم حتى ترى المحافظ على رأس الحقل يشرف بنفسه على مكافحة دودة القطن ، أو يفتتح مؤسسة ، أو يرأس ندوة ، أو يحقق شكوى ، أو يحمل الفأس ليردم مستنقعا ، أو يزور مدرسة : لون جديد لم يكن مألوفا من قبل ، فقد أصبح المحافظ يمثل رئيس الجمهورية ، وينوب عن جميع الوزراء ، أى أنه « الدولة » تنتقل من العاصمة إلى

(١) G . Vaucher : Gamal Abdel - Nasser et son Equipe.
وكذلك « المصور » فى ٢٠ يناير ١٩٦١

« الدوار » ، من القمة إلى القاعدة ، وتلك هى الديمقراطية ، بل هى هى الثورة ، التى جعلت محافظة البحيرة فى العيد التاسع للثورة تفتتح واحدا وثلاثين مشروعا وما ينتهى العام الماضى حتى تنتهى من تسعة وخمسين مشروعا .

وفيما يلى المجالات المتعدده التى اقتحمتها الثورة فى البحيرة ، خلال السنوات العشر الماضية ، فآتت أحسن الثمار ، حتى شعر الجميع أن الثورة حقا ثورتان - كما جاء فى « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر - وهما الثورة الاجتماعية ، والثورة السياسية .

النظام الإدارى

عرفنا فيما مضى التطورات التى طرأت على إقليم البحيرة فى مختلف العصور ، من حيث النظام الإدارى ، والمقاطعات التى كان ينقسم إليها هذا الإقليم ، وتبعية الإسكندرية له ، ثم استقلال رشيد إداريا حتى أصبحت محافظة لفترة من الزمن ، ثم انقسام البحيرة إلى نصفين ، ثم توحيدها باسم مديرية تضم عشرة مراكز، وظلت كذلك حتى قامت الثورة ، فلما كان عام ١٩٦٠ ، أصبحت « محافظة » بعد أن كانت « مديرية » ، وزادت مركزا إداريا هو مركز حوش عيسى ، وصارت وحدة إدارية يشرف على جميع شئونها المحافظ ويرأس مجلس المحافظة ، ويشرف على اثنى عشر مجلس مدينة وثلاثة وثلاثين مجلس قروى ، فضلا عن تبعية كل من « مديرية التحرير » و « وادى النطرون » لمحافظة البحيرة التى بلغت ميزانيتها فى عام ١٩٦٣/٦٢ خمسة ملايين وسبعمائة وواحد وأربعين ألفا من الجنيهات .

وتسير محافظة البحيرة بسرعة فائقة فى طريقها نحو « الإدارة المحلية » فتنشىء المزيد من المجالس القروية تحقيقا للديمقراطية الصحيحة ، ونقل شئون الشعب إلى أيدى الشعب ، ففى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٦٢ أصدر السيد كمال الدين حسين قرارا بتعيين رؤساء لمجالس قروية جديدة بالبحيرة بلغ عددها اثنين وعشرين فضلا عن العدد الأسبق وهو ثلاثة وثلاثون وفيما يلى هذه المجالس القروية الجديدة ، وأسماء رؤسائها :

فيشا	: محمد صدقى إبراهيم	كوم النصر	: حامد محمود أحمد
ديروط	: محمد المنياوى	لقـــانه	: محمد زقزوق
الغيتـــة	: أمـين علوبة	زبيدة	: محمد سليمان
قافـــلة	: عثمان غيث	بلقطر الغربية	: محمد مدحت الديوانى
الســـاحل	: عبد العزيز زايد	إدفينـــا	: محمد الأنصارى
سرنبـــاى	: محمد جمال سليمان	أبو الشقاف	: على الطباخ
الكردود	: توفيق شوشان	زاوية صقر	: مسعود حمد
دقدوقة	: محمد بطور موسى	كوم البركة	: فؤاد حسين
زهرة	: زاهر بلبع	قومبانية أبو قير	أحمد بدر
الكريون	: سعد إبراهيم	زاوية أبو شوشه	: إبراهيم صالح
دسونس أم دينار	توفيق إسماعيل أحمد	سنهـــور	: شحاته خليفة

وفيما يلى أسماء السادة الذين يتكون منهم الجهاز الإدارى للمحافظة :

١ -	السيد أحمد عزت زايد	السكرتير العام
٢ -	« أحمد الجبالى	السكرتير العام المساعد
٣ -	« محمد عبد العزيز ملوخية	المستشار القانونى
٤ -	« احمد ماهر	مدير الإنعاش الاقتصادى
٥ -	« إبراهيم الرجباوى	سكرتير لجنة تنسيق الخدمات
٦ -	« محمد العمرجى	مراقب شئون الموظفين
٧ -	« راشد عثمان راشد	رئيس الشئون الإدارية
٨ -	« وحيد الغايش	« مكتب التعاون
٩ -	« محمد أبو الدهب	« المستخدمين
١٠ -	« على أحمد البسيونى	مدير العلاقات العامة
١١ -	« عامر سعد بدر	رئيس الحسابات
١٢ -	« احمد حمزه	سكرتارية المحافظ
١٢ -	« عبد المنعم بدوى	سكرتارية المحافظ

التوسع العمراني

تبلغ مساحة محافظة البحيرة مليونا ومائتى ألف فدان منها ثمانمائة ألف فدان أراضى زراعية، فضلا عن الأراضى الصحراوية، والأراضى المستصلحة والمستزرعة التى كانت مستنقعات أو ملاحات أوبحيرات، فامتدت إليها يد الثورة، وحولتها إلى مزارع تزداد يوما بعد يوم، بما يكفى التزايد المستمر فى السكان، ويزيد من الثروة القومية، خصوصا وأن حوالى خمسة عشر ألف فدان فى البحيرة تزرع عنبا وفواكه.

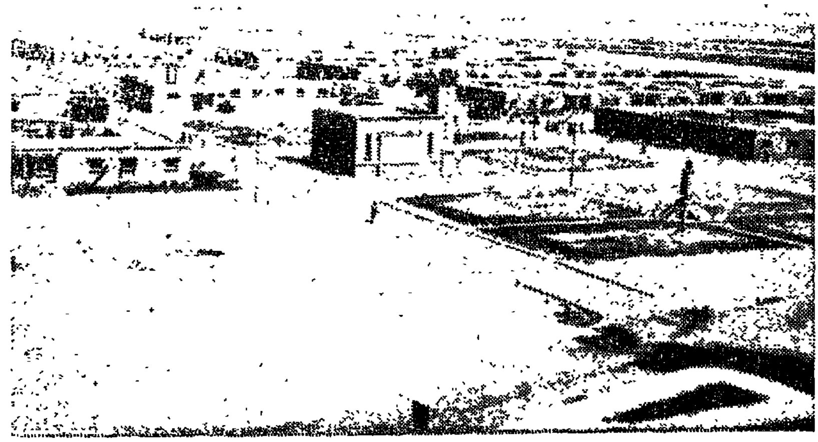
مديرية التحرير : وأهم مشروعات الثورة على مستوى الجمهورية، من حيث التوسع العمرانى، قد بدأت من هنا، حيث تم تحويل الصحراء الشاسعة الممتدة غرب البحيرة إلى ثورة عمرانية، واطلق عليها اسم «مديرية التحرير» التى ولدت سنة ١٩٥٣، وقسمت إلى قطاعات، أما فى القطاع الجنوبى فقد تم استصلاح اربعة وعشرين ألف فدان، منها ستة عشر ألف فدان تروى ريا سطحيا، وثمانية آلاف تروى بطريق الرش، وفى هذا القطاع حفرنحو أربعمائة وخمسين بئرا إرتوازية لتوفير مياه الشرب والرى والكهرباء: فغرست بها أشجار الفاكهة فى مساحة عشرة آلاف فدان. وسرعان ماأنتجت الأرض شتى أنواع المحصولات كالفول السودانى والبطاطس والسمسم والبطيخ والقمح والشعير والبرسيم.

وقد أقيمت مشاتل لاستنبات الأشجار التى نمت بسرعة ثم غرست فى أرجاء المديرية، وبذلك نجحت عملية التشجير. وإذا كان قد أمكن استصلاح خمسة وعشرين ألف فدان فى خلال عشرين شهرا فقد بلغت المساحة المستصلحة حتى الآن فى خلال العشر سنوات الماضية خمسين ألف فدان.

وبالمديرية أكبر محطة فى الشرق الأوسط لإنتاج الحيوان من المواشى والأغنام والدواجن المصرية والأجنبية، واتبع فى تربيتها أحدث الوسائل الفنية فى التهجين والتلقيح الصناعى، وبهذا أصبحت المديرية اكبر مورد لسائر المحافظات من اللحوم والجلود والألبان والبيض.

وبها أيضا مراكز صناعية موزعة على القرى والمراكز التى تحمل أسماء قومية مثل (بدر) وأسماء شهداء وأبطال مثل (عمر شاهين) و (أم صابر) و(عمر مكرم) واقيم بها إلى الآن نحو ألفى منزل، وكثرت بها مؤسسات الخدمات

العامة والمتاجر والمساجد والمدارس ، ويكفى أن بها الآن خمس عشرة مدرسة ابتدائية ، ومدرسة إعدادية مشتركة ، ومدرسة فنيـــة ثانوية وإعدادية ، وسيتم إنشاء مدرسة ثانوية عامة فى العام القادم .



مظاهر العمران فى مديرية التحرير

وعلى كل حال فإن هذه المديرية وليدة الثورة ، وتعتبر إقليما نموذجيا فى كل قطاع من القطاعات العمرانية ، وتوليها محافظة البحيرة كل عناية واهتمام ، وتعمل تباعا على تيسير وصول الخدمات إليها ، وعلى ربطها بالقاهرة عن طريق السيارات العامة السريعة ، وأخيرا صدرت الأوامر بنقل جميع الموظفين المختصين بإدارة المديرية من مكاتبهم بالقاهرة إلى مكاتب أنشئت لهم بالمديرية ، وبمناسبة العيد العاشر للثورة ستوزع على الأهلين ثلاثة آلاف وخمسمائة فدان بعد استصلاحها .

وادى النطرون : وفى أول يوليو سنة ١٩٦٢ أقيم معسكر دولى بوادى النطرون الذى يبعد عن القاهرة بنحو ١٢٠ كيلو متراً ويستمر هذا المعسكر حتى آخر أكتوبر ويشترك فيه أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة من شباب محافظات الجمهورية وخمسة آلاف شاب من إحدى وعشرين دولة أخرى بإشراف المجلس الأعلى لرعاية الشباب ويقومون بزراعة نصف مليون شجرة زيتون فى مساحة

أربعة آلاف فدان من هذا الوادى العريق ، وقد نظمت لهم ندوات ومحاضرات ثقافية وقومية ورياضية ، وفى آخر مراحل المعسكر أقيم معرض للإنتاج الفنى للشباب .. وهذه إحدى حسنات الثورة فى التوسع العمرانى على أيدى نخبة ممتازة من شباب المحافظات ومن شباب الدول الذين تمكنوا فى خلال ثلاثة أيام من غرس تسعة آلاف شجرة كافور وجازورينا وزيتون .

وقد أطلق على هذا المعسكر اسم « معسكر الحرية Freedom Camp » .



معسكر وادى النطرون

<u>تمليك الفلاحين</u> : ولما قامت الثورة من أجل رد الحقوق السليبة إلى أصحابها بدأت بالقضاء على الإقطاع ، وتوسعت فى إصلاح الأراضى ثم شرعت فى توزيع الأراضى الزراعية على المعدمين ، فنى خلال السنوات العشر الماضية تم توزيع ٩٦٥ فدانا و ٢١ قيراطا من الأراضى المجففة من بحيرة إدكو على أهل المنطقة ، فضلا عن ١٤٢٠ فدانا أخرى منها ستوزع بمناسبة العيد العاشر للثورة ، بعد أن تسلمت المؤسسة المصرية العامة لتعمير الأراضى بإدكو زمام الإصلاح فقامت بمهمتها بسرعة فائقة ، وعلى أحدث الوسائل العلمية ، أما منطقة أبيس فقد وزع منها عشرة آلاف فدان ، وسيوزع فى عيد الثورة علاوة على ذلك ٣٧٠٠ فدانا أخرى ، أما منطقة البصيلى فقد تحولت الرمال والسباخ والمستنقعات والأحراش

فيها إلى مزارع عامرة بالسكان وعلى العموم فإنه ـ بمناسبة العيد العاشر للثورة ـ قد أتمت وزارة الإصلاح الزراعى استصلاح ٨٧٥٠٠ فدانا وستوزع على صغار المزارعين ، خص منها محافظة البحيرة ١٣ ألفا فى المناطق الآتية : أبيس ورشيد وإدكو وأبو المطامير وكفر الدوار والبصيلى وكوم أوشيم .

وهكذا تعمل الثورة جاهدة على توسيع رقعة الأرض الزراعية فى البحيرة وتمليكها لصغار الملاك مسايرة منها لتزايد السكان ، وتحقيقاً للاشتراكية العادلة ففى خلال عام ١٩٥٨/٥٧ أتمت الهيئة الدائمة لاستصلاح الأراضى مساحة ٣٢٠٠ فدانا بمنطقة إدكو والبصيلى من ٧٠٠، فدانا لم تكف أيدى الإصلاح عنها لحظة واحدة .

الاستغلال الزراعى : كانت (البحيرة) أسبق المحافظات إلى تنظيم الاستغلال الزراعى بقصد تجميع الإنتاج الزراعى وتنظيم الدورة الزراعية ، واستطاعت فى ظل الإدارة المحلية ، أن تبدأ التجربة من سنة ١٩٦١ فى إحدى عشرة قرية فى أربعة مراكز وهى :

١ ـ مركز إيتاى البارود : شنديد. كفر عسكر شنديد . كفر عسكر صفط. أثريات فاضل . كفر خليفة .

٢ ـ مركز شبراخيت : قرية شبراخيت . المعيصرة . كنيسة أورين .

٣ ـ « كوم حماده : دمتيوه . منشاة راضى .

٤ ـ « المحمودية : دسيا

وفى عام ١٩٦٢ شمل هذا المشروع اثنتين وخمسين قرية عدا مجالس القرى التى قبلت تنفيذه ، وهو فى الحقيقة تحقيق لمبدأ التعاون الذى يعد إحدى الدعائم الثلاث التى قام عليها المجتمع الجديد ، وبمقتضاه تصبح الحيازات الصغيرة مجمعة فى وحدات زراعية كبيرة . تستخدم الآلات الحديثة ، وتوفر الجهود الإنسانية والحيوانية المستخدمة عشوائيا ، وتيسر تقدير الخدمات للفلاحين ، وتقضى على الآفات الفتاكة بالمحاصيل ، وكل ذلك عن طريق اشتراك أصحاب الحيازات فى الجمعية التعاونية الزراعية، العامة على مستوى المحافظة، وما دونها من المستويات .

مشروع انتاج الخضر: وفى شهر يونيو سنة ١٩٦٢ وقع اختيار السيد كمال الدين حسين - نائب رئيس الجمهورية وبوصفه رئيساً للجنة العليا للزراعة والرى - على ست محافظات فى الجمهورية لاتخاذها مزارع لإنتاج الخضروات والفاكهة وتصديرها، وكانت محافظة البحيرة التى تنتج نصف المحصول العام فى الجمهورية إحدى المحافظات التى سينفذ فيها هذا المشروع الأول من نوعه، والذى يشترك فى تنفيذه : وزارة الإصلاح الزراعى والمؤسسة الاستهلاكية العامة ، ومؤسسة التجارة الخارجية ولهذا تقرر إنشاء ثلاجة للخضر والفاكهة فى أبو حمص تتسع لألفى طن.

وقد كان اختيار البحيرة على رأس هذه المحافظات لتنفيذ هذا المشروع عملا موفقاً نظراً للاتساع المستمر فى مساحتها الزراعية ، وجودة أرضها فى الإنتاج الزراعى وسهولة مواصلاتها وقربها من ميناء الإسكندرية البحرى والجوى .

اطيان الحكومة : بالقضاء على الإقطاع ، والقيام بإصلاح الأراضى البور ، وتجفيف أجزاء من البحيرات ، وضعت الثورة يدها على مساحات هائلة من البحيرة ، لتردها إلى أهلها عن طريق التأجير والتمليك . وعلى الجملة فإن الأطيان المستولى عليها على ثلاثة أنواع :

١ - أطيان كبار الملاك المصريين والأجانب، وقد آلت إلى الدولة بموجب قانونى ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ و ١٢٧ لسنة ١٩٦١ .

٢ - أطيان الأسرة المالكة السابقة التى صودرت لصالح الشعب

٣ - أطيان وزارة الأوقاف وتسمى (تفاتيش زراعية) .

وتبلغ مساحة جميع الأراضى المستولى عليها فى البحيرة ١٩٤ ألف فدان ، وهى بنسبة ثلث المساحة المستولى عليها فى جميع المحافظات، وقد تم توزيع ٦٤ ألف فدان منها على ٢١ ألف أسرة بالتمليك . و١٣٠ ألف فدان مؤجرة .

ويدخل فى هذه المساحات الأطيان البور التى استصلحت والتى لاتزال فى الاستصلاح، والتى فى طريقها إليه حسب الخطة المرسومة ، وفيما يلى قائمة بالمناطق الزراعية المستولى على أطيانها ، ومساحة كل منها ، وعدد الذين تملكوها من الأفراد على يد الثورة ، وكذلك عدد الذين أجرت لهم هذه الأراضى :

المنطقة	المساحة بالفدان	عدد المملكين	عدد المستأجرين
دمنهور	٢١٦٦٣	١١٣٥٨	٥٠٠٠
الخزان	١٧٥١٣	١١٨٥٠	٣٦٨٣
إيتاى البارود	١٤١٤٤	٧٨٣٠	٣١٤١
أبو المطامير	١٢١٣٦	٥٨٦١	٢٦٣٤
النوبارية	٢٢٣٦٤	—	—
جبارس	٤٣١٧٣	١٠٢٩٨	٢٥١٨٠
أبو حمص	١٨٤٠٢	٦٢٨٦	٠١٥٩٠
كفر الدوار	١٦٦٠٧	٩٠٥٨	٠٥٧٠٦
إدفينا	١٨٣٧٥	٧٦٨٣	٢٣٤٨

عمال التراحيل: كانت هذه الطائفة من العمال الزراعيين أشبه بالرقيق الأبيض يمتص المقاولون ما تبقى عندهم من الدم والعرق ، ، بما يتناوم مع الحرية التى جاءت الثورة لرفع لوائها . وفى الحق أن هذه الطائفة كانت موضع اهتمام السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، فرد إليهم اعتبارهم ، وحرم بالقانون الاتجار فى كفاحهم وعرق جبينهم

وفى ٩ أبريل سنة ١٩٦٢ م التقى بالبحيرة ثلاثة من السادة المحافظين هم وجيه أباظه (البحيرة) وإسماعيل فريد (الدقهلية) وحمدى عبيد (كفر الشيخ) وتوجه ركبهم إلى مديرية التحرير ثم وادى النطرون وأخيرا مزارع جانا كليس التى وصلوها فى منتصف الليل وكان الهدف الرئيسى من هذه الجولة التى قطع فيها المحافظون الثلاثة أكثر من سبعمائة كيلو متر هو التعاون على حل مشا كل عمال التراحيل تحقيقاً لرغبة السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، وفى المؤتمر الذى عقد بدمنهور لهذا الغرض اجتمع أكثر من ثلاثة آلاف عامل زراعى ، ولم يرجع المحافظون الثلاثة إلا بعد أن انتهوا من إيجاد الحلول العملية لهذه المشكلة لمزمنة .

وهكذا انتقل المحافظون بأنفسهم وتجشموا كل الصعاب وجلسوا مع عمال التراحيل واستمعوا إليهم ، وتحدثوا معهم فى بساطة على غير ما كان معروفا من قبل عن المديرين أو الوزراء .



(المحافظون الثلاثة وعمال التراحيل)

أما محافظة البحيرة فقد قامت بدورها فى هذا المضمار على نحو عملى حاسم فأنشأت فى أبو المطامير مكتبا يرأسه السيد إبراهيم قنديل رئيس مجلس المدينة لتشغيل عمال التراحيل ورعاية شئونهم ، وتابعه فى ذلك السيد أحمد يونس رئيس مجلس قرية النجيلة .

وفى أبو المطامير اعتمد مبلغ عشرة آلاف جنيه لتخليص هذه الفئة الكادحة من جشع التجار ، وارتفع الأجر اليومى إلى خمسة وعشرين قرشاً مع تقديم وجبات مطهية لهم . وتوفير العلاج والرعاية الصحية أيضا ، بعد أن كانوا يحصلون على ستة قروش فى اليوم ، واستطاع هذا المكتب أن يزود الشركات الزراعية ومديرية التحرير ووادى النطرون ومنطقة أبيس وتفاتيش الإصلاح الزراعى بآلاف العمال منهم على أسس منظمة وقواعد عادلة ، وسرعان ما احتفل محافظا الدقهلية وكفر الشيخ بتوديع أفواج عمال هاتين المحافظتين إلى البحيرة .

الوحدات الزراعية : وتعتبر الوحدات الزراعية إحدى ثمار الثورة الاشتراكية العادلة إذ بلغ عدد الوحدات التى ستفتتح فى العيد العاشر للثورة ثلاثة : كفر الدوار وكوم حماده ورشيد .

وهكذا يزحف العمران نحو أراضى البحيرة ، وتتحقق الإشتراكية فى خلال عشر سنوات . وهذه فى الحق بداية ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر .



النشاط التعاونى

يبدو النشاط التعاونى بأجلى مظاهره فى محافظة البحيرة ، فقد تم تأسيس إحدى عشرة جمعية تعاونيه صناعية موزعة على أرجاء المحافظة على النحو الآتى :

١ ـ دمنهور : للانشـــاء والتعمير ، وصناعة الأثاث ، والنقل بالسيارات وقبانى البحيرة .

٢ ـ الوفائية : لتصنيع الصوف وتسويقه .

٣ ـ حوش عيسى : لصناعة الأحرمة الصوفية والبطاطين .

٤ ـ شبراخيت : لصناعة الاحذية .

٥ ـ أبو حمص : لكبس قش الأرز وتسويقه .

٦ ـ رشيد : لتصنيع الجريد ومنتجاته ، وتصنيع البلح وتجفيفه .

٧ ـ إدكو : للغزل والنسيج اليدوى .

وهناك أيضا جمعيات تعاونية إنتاجيه تحت التأسيس وهى:

٢ ـ بدمنهور : لصناعة الملابس الجاهزة ، وصناعة الكبريت .

١ ـ بالمحمودية : لصناعة الصنادل المعدنية.

١ ـ بأبو المطامير : لصناعة الأحرمة الصوفية والبطاطين .

وهناك ايضا وحدات إنتاجية تدريبية قامت المؤسسة العامة للتعاون الإنتاجى بإنشائها وهى .

١ ـ بالوفائية : للسجاد والكليم

٢ ـ بإدكو : للصباغة والتجهيز ، ونسج الحرير والقطن .

أما الجمعيات التعاونية الزراعية فقد كثرت كثرة ملحوظة كما يتبين ذلك فيما يلى .

١ ـ ٤٠ بمركز دمنهور ٢ ـ ٣٤ بمركز الدلنجات ٣ ـ ٣٢ بمركز
كفر الدوار ٤ ـ ١٥ بمركز أبو المطامير ٥ ـ ٦٣ بمركز
كوم حماده ٦ ـ ١٠ بمركز رشيد ٧ ـ ١١ بمركز
حوش عيسى ٨ ـ ٢٣ بمركز المحمودية ٩ ـ ٣٢ بمركز
أبو حمص ١٠ ـ ٤٩ بمركز شبراخيت ١ ـ ٥١ بمركز
إيتاى البارود : وهى أعلى نسبة فى أى مركز من مراكز محافظة البحيرة إن لم تكن فى أى مركز آخر فى أى محافظه أخرى . والبقيه تأتى .

ولم يكن نظام الجمعيات التعاونية الاستهلاكية معروفا من قبل . ولم ينشأ إلا فى ظل الإدارة المحلية . بقصد حماية المستهلكين من جشع التجار ، ولمكافحة الغلاء فى المواد التموينية . ولهذا أنشأت محافظة البحيرة هذا النوع من الجمعيات

وجعلت مقرها دمنهور حيث توجد ٣ فروع ، فضلا عن إيجاد فرع فى كل مركز من المراكز الإدارية وعددها ١١ .

وزيادة على ذلك أوجدت تسعة فروع للتعاون الاستهلاكى لخدمة العمال والموظفين على النحو التالى .

١ — بدمنهور : لعمال وموظفى الحكومة ولعمال وموظفى بلدية دمنهور .

٢ — بالمحمودية : لعمال وموظفى طلمبات العطف .

٣ — بكفر الدوار : لعمال وموظفى شركة الحرير الصناعى ،

لعمال شركة الحرير الصناعى .

لعمال شركة الغزل والنسيج الرفيع .

لموظفى شركة الغزل والنسيج الرفيع .

لعمال شركة مصر البيضا .

لموظفى شركة مصر البيضا

الصيد : أنشئت بإدكو أول جمعية تعاونية لصيادى الأسماك ، الغرض منها رفع مستوى الصيادين اجتماعيا واقتصاديا وفنيا ومنحت الدولة هذه الجمعية خمسة عشر ألفا من الجنيهات ، واستطاع الصيادون أن يحموا أنفسهم من جشع التجار وأن يجدوا من الدولة رعاية فنية تدفعهم نحو صيد أفضل ، ودخل أكثر وتم تعديل لوائح الصيد العتيقة البالية فاستكثرت من حلقات الأسماك فى المراسى المتعددة للمراكب على شاطىء البحيرة وساحل البحر ، وهكذا ينهض النظام التعاونى بهذا القطاع الاقتصادى الهام فى محافظة البحيرة حتى بدأ إنشاء أسطول للصيد فى ميناء رشيد بأربع سفن كبيرة للعمل فى البحر الأبيض المتوسط ، كما تم تجهيز سيارة ثلاجة كبيرة لنقل السمك منها إلى مراكز المحافظة ، وبذا سيتمكن المستهلك من شراء كيلو السمك بأربعة عشر قرشا ، وقد تكلف هذا المشروع الهام عشرين ألف جنيه ، ويشرف على تنفيذه السيد رئيس مجلس مدينة رشيد ،

ردم ترعة الخندق

تمتد ترعة الخندق إلى مدرسة دمنهور الثانوية للبنين حيث يضيق الطريق الزراعى دمنهور ـ الإسكندرية ، وفيما قبل الثورة ، ارتفعت الأصوات بردم هذا الجزء من الترعة لتوسيع الطريق من جهة ، ولمنع توالد البعوض فى هذه المنطقة من دمنهور من جهة أخرى ، فأنشأت وزارة الأشغال تحويلة خارج المدينة وتركت المكان القديم بدون ردم ، ويبلغ طوله أربعة كيلومترات فى عمق ثلاثة أمتار ، وفى سنة ١٩٥٩ عهدت الوزارة إلى أحد المقاولين بعملية الردم فى مقابل ٣١ ألفا من الجنيهات ، ولكنه لم يستطع المضى فى إتمام العملية فقد توقف فى أكتوبر سنة ١٩٦٠ ، ولما أصبحت البحيرة محافظة قامت بدراسة الموضوع من جميع نواحيه الفنيـــة والمالية ، وتلافت الأخطاء ، وقدرت له ٩١ ألف جنيه .

ومع ذلك قامت المحافظة بتوجيهات المحافظ وأشركت القطاع الشعـــبى ، وأسهمت مديرية التحرير ومنطقة أبيس وشركة جنا كليس ، وقدمت وفود من شباب الإسكندرية . وغيرها من المحافظات ، وتم ردم التحويـــلة على النحو المطلوب وفى أقصر وقت مستطاع ، ولم يكلفها ذلك أكثر من سبعة آلاف جنيه واستغلت المساحة التى ردمت وقدرها ٢٤ فدانا فزرعتها بالأشجار والأزهـار وجعلتها متنزهات شعبية ، أما المبلغ الفائض من الاعتماد فقد أنشأت به المحافظة ٣٤ مدرسة ، كما اشترت مصنع الكبريت بدمنهور ، واستغلت أرباحه فيما يعود المشروعات على الشعبية .

مركز الشباب
(استاد دمنهور)

يعتبر هذا المشروع أول نموذج يحتذى بعد تطبيق نظام الإدارة المحلية من السرعة فى الإنجاز ، ومن حيث سد حاجات كل محافظة فى حدود اللامركزية فإن دمنهور ـ حسب موقعها المتوسط بالنسبة لجميع مراكز المحافظه ـ كانت فى أشد الحاجة إلى إنشاء مركز للشباب يغنيهم عن السفر إلى الإسكندرية أو طنطا مثــلا .

وأدركت المحافظة أهمية المشروع من أول يوم عرفت فيه نظــام الإدارة المحلية سنة ١٩٦٠ ، وانتهت الدراسة إلى أنه ينتهى بعد أربع سنوات ، وقدرت تكاليفه ١٠٥ ألف جنيه ، واختيرت له مساحة ١٤ فدانا على الطريق الجديـــد لمدخل دمنهور الحديثة .

ولكن المحافظة بفضل همة المحافظ السيد وجيه أباظه استطاعت أن تتم المشروع فى ستة أشهر لا فى أربع سنوات ، وافتتح فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦١ بمباراه فى كرة القدم بين فريق دمنهور وفريق السويد ، واختـــير الدكتور عبد الفتاح كمال مديرا للمجلس وإدارته .

والاستاد يشتمل على المقصورة والمدرج الرئيسى ويتسع لألف متفرج ، وبه بهو للاستراحة ، وحجرات مخصصة للإذاعة والتلفزيون والصحافة والإسعاف والاجتماعات والمتحف الرياضى والمكتبة والمخازن ووحدات خلـــع الملابس ودورات المياه والمتاصف ، وبه أيضا ثلاثة مدرجات تتســـع لعشرين ألف متفرج ويشتمل على جميع المعدات والأدوات الخاصة بالألعاب المختلفة .

وبقى أن نعرف أن مصمم المشروع هو المهندس ميشيل فـــوتى مفتش المشروعات للإدارة العـــامة للمبانى ، كما أن المهندس محـــمد النبراوى مدير الأعمال بالبحيرة هو مصمم المدرجات الثلاثة العامة ، وممن حضر حفل الافتتاح السيد فتحى الشرقاوى وزير العـــدل والسادة محافظو كفـــر الشيخ وبورسعيد والبحر الأحمر وقنصل السويد بالإسكندرية ، وكان أهل البحيرة يرحبون بالضيوف ، وامتلأ الملعب بما لا يقل عن عشرين ألفا من المواطنين ثم ألقت

طائرة الهيلوكبتر بالكرة فى وسط الملعب . حيث أطلقت مائة حمامة بيضاء فى الجو ، فكان المنظر رائعا ، وقد أذيعت المباراة فى الإذاعة والتليفزيون وفاز فريق السويد ، ثم سلم السيد المحافظ صورة الرئيس جمال عبد الناصر لقنصل السويد فى إطار رائع ، فضلا عن الهدايا التى قدمها للفريق السويدى ، كما أقام مأدبة غداء المدعويين قبل الحفل ، ثم حفل شاى بعد المباراة .

النشاط الصحى

عنيت الثورة منذ قيامها بتوفير كل أسباب العلاج الصحى للمواطنين ولاسيما أهل الريف ، وقد نالت البحيرة من ذلك نصيبا أوفر ولاسيما عند تطبيق نظام الإدارة المحلية ، إذ انتهت المحافظة من إنشاء ٨٦ وحدة صحية ريفية موزعة على قرى المراكز الإدارية مابين ٤ و ١٣ على النحو التالى :

١ ـ دمنهور ١١　٢ ـ كفر الدوار ١٣　٣ ـ إيتاى البارود ١١
٤ ـ أبو حمص ٧　٥ ـ رشيد ٧　٦ ـ كوم حماده ٧　٧ ـ أبو المطامير ٧
٨ ـ المحمودية ٦　٩ ـ شبراخيت ٨　١٠ ـ حوش عيسى ٥
١١ ـ الدلنجات ٤ .

ويتبقى بعد ذلك نحو ١٢٠ وحدة أخرى ستنشئها المحافظة فى خلال أربع سنوات ، والمفروض أن الوحدة تخدم خمسة آلاف مواطن .

هذا فضلا عن إنشاء مستشفى عام بدمنهور يتسع لحوالى ٣٢٠ سريرا وألحق به مسكن لكل من الأطباء والنواب والحكيمات والممرضات ، وقد زود المستشفى بالمنشآت الطبية الحديثة فاشتمل على بنك للدم وقسم للأشعة وجناح للولادة وآخر للعمليات مكيفة بالهواء .

وأنشىء أيضا بكل من المحمودية وحوش عيسى مستشفى يتسع لأربعين سريرا ، ومن الطريف أن المواطن الكريم السيد أحمد وهبان من أهل المحمودية قد تبرع بمائة فدان من أملاكه وقف ريعها على المستشفى الذى أطلق عليه اسمه تقديرا من المحافظة لأريحيته .

وتم كذلك إنشاء ست مراكز لرعاية الأمومة والطفولة فى : المحمودية والدلنجات وأبو المطامير وشبراخيت وإيتاى البارود وأبو حمص .

أما الوحدات المجمعة فقد بلغ عددها ٢٤ ، وهى تؤدى خدماتها الاجتماعية والصحيه والزراعية والثقافية ، وبهذا يسرت لأبناء الريف الحصول على العلاج والوعى ، ولم تحرم المحافظه قطاع الطلبة من العلاج فأنشأت وحدات علاجية بلغت فى العام الماضى ١٣ وحدة قامت بفحص أكثر من ١٦٠ ألف تلميذ وتلميذة من أبناء مدارس المحافظة .

ومما هو جدير بالذكر أن معظم المشروعات العمرانية التى تقوم بها المحافظة تضع فى اعتبارها الشئون الصحية مثلا : عند تجفيف أجزاء من بحيرة إدكو وتحويلها إلى مزارع ، روعى أمر هام وهو حماية أهل المدينة من فتكات الملاريا التى يسببها البعوض ، وكذلك عند ردم تحويلة ترعة الخندق بدمنهور وهكذا فى تجفيف المستنقعات الشمالية واستصلاحها

وفى شهر إبريل سنة ١٩٦٢ م أفتتح الدكتور النبوى المهندس وزير الصحة وحدتين نموذجيتين بقريتى (سحالى) و (زبيدة) باعتبارها أول تجربة فى جميع بلاد الجمهورية للعلاج الاشتراكى ، أما وحدة سحالى فقد قامت حتى الآن بعلاج ثلاثة آلاف مريض ، وتم صرف الأدوية اللازمة لهم بالمجان ويقوم طبيب الوحدة والمولدات بزيارة المرضى فى بيوتهم التى تقع فى الجهات المجاورة لقرية سحالى .

ومما هو جدير بالذكر أن مدير جامعة كاليفورنيا ومعه خمسه من كبار أساتذتها قد زاروا هذه الوحدة الأخيرة وأبدوا إعجابهم بالتقدم الملموس فى تطبيق الروح الاشتراكية فى العلاج ونجاح أول تجربة فى « محافظة البحيرة »



النهضة التعليمية

كانت الحركة التعليمية فيما قبل الثورة تسير على غير هدف قـــومى ، وطالما ضج أبناء البحيرة بالشكوى من إهمال شأنهم ، فتغير الحال منذ قيام الثورة ، وإتبعت وزارة التربية والتعليم سياسة التخطيط الأفقى والرأسى وفق أحدث الأساليب وتحقيقا للأهداف العامة للدولة .

وإذا ألقينا نظرة عابرة على شئون التعليم فى البحيرة من قبل سنة ١٩٤٩ مثلا فاجأتنا الحقائق الآتية :

أولا : التعليم الصناعى : لم يكن بالبحيرة كلها إلا مدرسة صناعية بدمنهور تخرج فيها ٢٨٣ طالبا فقط سنة ١٩٤٤

ثانيا : التعليم الزراعى : حتى سنة ١٩٤٧ كان يوجد مدرسة زراعيه متوسطة بدمنهور تضم ٢١٥ طالبا فقط .

ثالثا : التعليم الابتدائى (القديم) : حتى سنة ١٩٢٨ كان يوجـــد خارج دمنهور ٩ مدارس إبتدائية فقط زادت إلى ١٢ سنة ١٩٤٩ .

رابعا : التعليم الأولى (الابتدائى حاليا) : حتى سنة ١٩٤٩ بلغ عدد هذا النوع من التعليم فى جميع بلدان البحيرة ٢٦٩ مدرسة .

خامسا : التعليم الثـــانوى حتى سنة ١٩٤٩ كان فى البحيرة كلها ثلاث مدارس ثانوية فقط : ٢ دمنهور ، رشيد .

أما الآن والبحيرة تحتفل بالعيد العاشر للثورة ، فإننا نرى أن التعليم الفنى العالى قد أخذ طريقه إليها استجابة للأوضاع الطبيعية الراهنة ، فإذا كانت كلية الزراعة التابعة لجامعة الأسكندرية قد نزعت من دمنهور لتأخـــذ مكانها فى الإسكندرية سنة ١٩٤٧ فإن المعهد الزراعى العالى قد استقر منذ العـــام المـاضى فى إدفينا ، أما المعهد التجارى العالى فإنه يعتبر استجابة طبيعية لحاجة دمنهور البلد التجارى المشهور الذى يشتمل على عدة فروع نشيطة لبنك مصر وغـــيره من البنوك ، فلا عجب إذا ماتوقع أبناء البحيرة إنشاء هذا المعهد قريبا جدا .

هذا ولاتألو محافظة البحيرة جهدا فى الاستكثار من المدارس على اختلاف مراحلها ، معتمدة فى منشآتها على نفسها ، تحقيقا لمبدأ اللامركزية ، فعندما وفرت ٨٥ ألف جنيه من الاعتماد المقرر لردم تحويلة ترعة الخندق ، أنشأت بهذا المبلغ ٣٤ مدرسة فى أرجاء المحافظة ، والآن بعد مضى عشر سنوات على قيام الثورة نستطيع أن نحصر ـ بناء على إحصائية مديرية التعليم بدمنهور ـ مدارس المحافظة فيما يلى : عدا ١٣ مدرسة قد تم بناؤها وتفتح فى العيد العاشر للثورة .

أولا ـ المعهد الزراعى العالى : بإدفينا وبه ١٥١ طالبا :

ثانيا ـ التعليم الثانوى العام .

١ ـ ١٧ مدرسة ثانوية منها ٣ للبنات ، ومجموع تلاميذها : ٣٤٨٤

٢ ـ ٦ فصول ثانوية نسوية ملحقة بدمنهور الثانوية للبنات بها ١٤٤ تلميذة

التعليم الثانوى الفنى :

١ ـ ٣ مدرسة ثانوية صناعية ومجموع تلاميذها ١٢٠١

٢ ـ ١ مدرسة ثانوية فنية مشتركة بمديرية التحرير وبها ٢٧٠ تلميذا

٣ ـ ١ مدرسه ثانوية زراعية بدمنهور وبها ٦٧٤ تلميذا .

٤ ـ ٣ مدرسة ثانوية تجارية بدمنهور ورشيد وكفر الدوار وبها ٨٤٨ تلميذا

٥ ـ ٤ فصول تجارية للاتحاد القومى بدمنهور وكفر الدوار وبها ١٥٧ تلميذا .

ثالثا : دور المعلمين والمعلمات العامة :

١ ـ دار المعلمين العامة بدمنهور وبها ٧٤٩ طالباً .

٢ ـ دار المعلمات العامة بدمنهور وبها ٧٠٦ طالباً .

رابعاً : دراسات مهنية :

١ ـ معهد السكرتارية بدمنهور وبه ٣٩ طالبا .

خامسا : التعليم الإعدادى العام .

١ ـ ٢٩ مدرسة للبنين منها ٩ بها فصول ملحقة وعدد تلاميذها جميعا ٧١٩٠ .

٢ ـ ٧ مدرسة للبنات منهامدرستان بهافصول ملحقةوعددتلميذاتهاجميعا ١٦٣٩ .

٣ ـ ٨ مدارس خاصة بها ٢٤٦٧ تلميذا .

سادسا : التعليم الابتدائى : وهو موزع على الأقسام الآتية :

١ ـ قسم رشيد : ١٦ مدرسة ، منها جمعية لتحفيظ القرآن الكريم وبها جميعا ١٥٤ فصلا .

٢ ـ قسم إدكو : ١٢ مدرسة ، منها جمعية لتحفيظ القرآن الكريم وبها جميعا ١٢١ فصلا .

٣ قسم كفر الدوار أول : ٢٣ مدرسة ، منها ٣ دور للحضانة ، وبها جميعا ٢٣١ فصلا .

٤ ـ قسم كفر الدوار ثان : ٢٤ مدرسة ، منها دار للحضانة ، وجمعية للمحافظة على القرآن الكريم ، ومدرسة للآباء الفرنسيسكان بكفر الدوار بها ١٢ فصلا للحضانة والابتدائى وبها جميعا ١٧٢ فصلا .

٥ ـ قسم أبو حمص : ٢٨ مدرسة وبها جميعا ١٨٤ فصلا .

٦ ـ قسم المحمودية : ٢٣ مدرسة ، منها جمعية لتحفيظ القرآن الكريم و ٢ مدارس خاصه ، وبها جميعا ١٤٩ فصلا .

٧ ـ قسم دمنهور أول ٢٧ مدرسة منها داران للحضانة و ٦ خاصة ومدرسة للراهبات الفرنسيسكانيات وبها جميعا ٢٤٧ فصلا .

٨ ـ قسم دمنهور ثان : ٢٤ مدرسة ، منها مدرسة للأقباط و ١٠ خاصة ، وبها جميعا ٢٤١ فصلا .

٩ ـ قسم دمنهور ثالث : ٢٧ مدرسة ، بها جميعا ١٧٨ فصلا .

١٠ ـ قسم حوش عيسى : ١٤ مدرسة ، بها جميعا ١٠٧ فصلا .

١١ ـ قسم شبراخيت أول : ٢٢ مدرسة ، منها ٤ خاصة و ٢ جمعية لتحفيظ القرآن الكريم وبها جميعا ١٦٢ فصلا .

١٢ ـ قسم شبراخيت ثان : ٢١ مدرسة منها ١ مدرسة خاصة وبها جميعا ١٦١ فصلا .

١٣ ـ قسم إيتاى البارود أول : ٢٦ مدرسه منها ١ جمعية لتحفيظ القرآن الكريم ، و ١ مدرسة خاصة ، وبها جميعا ١٨٧ فصلا .

١٤ ـ قسم إيتاى البارود ثان : وبه ٢٣ مدرسة منها جمعية لتحفيظ القرآن الكريم وبها جميعا ١٨٥ فصلا .

١٥ ـ قسم الدلنجات وبه ٢١ مدرسة ، منها جمعية لتحفيظ القرآن الكريم وبها ١٤٧ .

١٦ ـ قسم كوم حماده أول : وبه ٢١ مدرسة فيها جمعية لتحفيظ القرآن الكريم وبها ١٧٧ فصلا .

١٧ قسم كوم حماده ثان : وبه ٢٣ مدرسة وبها جميعا ١٧٤ فصلا .

١٨ ـ قسم التحرير بكوم حماده : وبه ٢٤ مدرسة وبها جميعا ١٧٨ فصلا .

هذه إحصائية لجميع مراحل التعليم بالبحيرة ومنها يتبين كيف أن الثورة قد أمدت جميع القرى والكفور والنجوع بينابيع التربية والتعليم ، وكيف تعمل محافظة البحيرة جاهدة على إنشاء المدارس تمشيا مع الزيادة المضطردة فى السكان الذين بلغت نسبة الأمية بينهم حسب آخر إحصاء أكثر من ٧٠٪ لأن بالبحيرة الآن حوالى ثلاثين ألفا من البدو لايزالون على تقاليدهم من سكنى الخيام والبعد عن حياة الحضر .

الثقافة : كنوزها وقصورها

تنحصر كنوز الثقافة بإقليم البحيرة فى « خزائن الكتب » العامة والخاصة ، تلك الخزائن المتناثرة فى منازل الأفراد المعنيين بالعلم والأدب ، وفى مكتبات المساجد العتيقة ، وفى المكتبات العامة التى فى المدن ، وفى مكتبات المدارس .

على أن أهم هذه الخزائن جميعاً مكتبة السيد أحمد خيرى فى روضة خيرى التابعة لأبو حمص ، وهى تحتوى على ما لايقل عن اثنين وعشرين ألف مجلد فى مختلف ألوان الثقافة وفى شتى اللغات وبها كتب نادرة ، ومخطوطات قيمة وقد أتاح لى سيادته أن أزورها وأن ألم بما فيها ، فأدركت حقا أن محافظة البحيرة تفخر بأن بها هذا المعين الذى لاينضب .

وهناك فى أبو حمص أيضاً مكتبة آل مخيون ، وتشتمل على مجموعة قيمة من الكتب القديمة والحديثة .

وفى إدكو مكتبة عامة أنشأتها الجمعية التعاونية المنزلية على يد المرحوم الشيخ عبد الجواد أبو دقة تشجيعاً لطلبة إدكو على الاطلاع فى فترة الصيف ، وأهم مابها كتاب « الخطط المقريزية » فضلا عن الكتب الحديثة .

وتشتمل مكتبات المدارس الثانوية والابتدائية القديمة على دخائر ثقافية لها قيمتها نذكر منها مدرسة دمنهور الثانوية .

على أن مكتبة دمنهور العامة وتتبع الآن مجلس مدينة دمنهور فإنها تشتمل على مؤلفات عربية وإفرنجية نادرة قديمة وحديثة لايقل مجموعها عن آلاف مجلد آخذة فى الازدياد ، ويقبل عليها الشباب للاغتراف من مناهل العلم سواء عن طريق الاستعارة الداخلية أو الاستعارة الخارجية .

أما مركز الثقافة الذى أنشىء أولا باسم « الجامعة الشعبية » بدمنهور سنة ١٩٤٧ فإنه يتبع الآن وزارة الثقافه والإرشاد القومى ، وهو مزود الآن بثلاثه آلاف وخمسمائه كتاب عربى ومائتين وأربعة وستين كتابا باللغات الحية ، وهى جميعاً موزعة بين الثقافات المختلفة ، ليجد رواد المكتبة كل مايروقهم من المعرفة ، ومما يلفت النظر حقاً أن عدد المترددين على المكتبة يزيدون باستمرار ففى سنه ١٩٥٣ كانوا ٤٦٠٠ وفى سنه ١٩٦٠ بلغوا ١٥٦٠٠ وفى سنه ١٩٦١ صاروا ١٧٧٠٠ وحتى الآن من سنة ١٩٦٢ أصبحوا ١٩١٠٠ ، والمركز يبيح الإعارة الخارجية للكتب ، حتى بلغت الاستعارات فى هذه السنه ٣٤٠٠ بعد أن كانت فى سنه ١٩٥٣ : ٨٠٠ استعارة ، وقد شرعت الوزارة فعلا فى تنفيذ مشروع المكتبة المتنقلة .

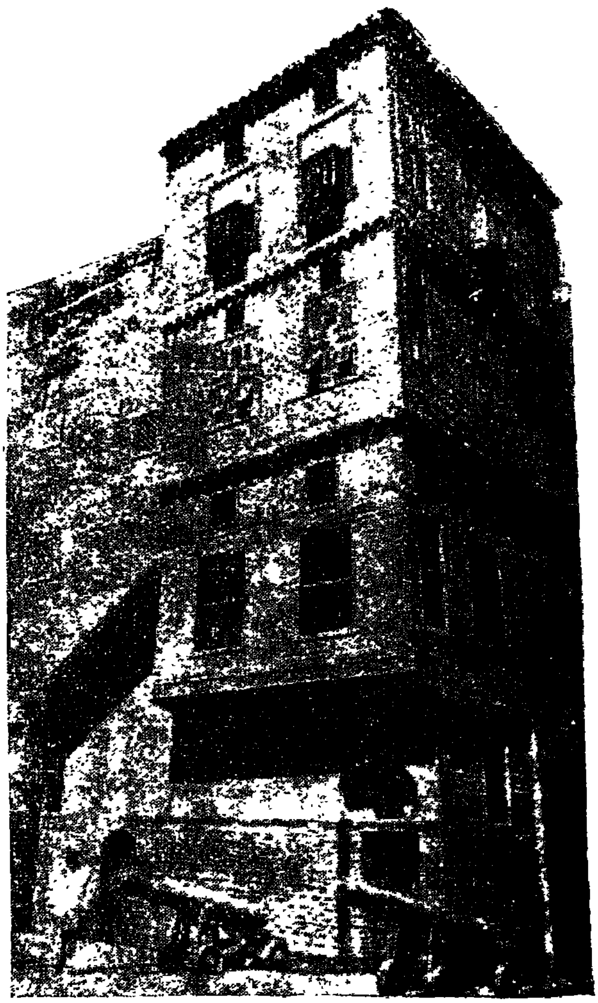
وهناك مكتبة قيمة ملحقة بجامع المحلى برشيد تحتوى على مؤلفات دينية معظمها من المخطوطات المهداة من آل الجارم على سبيل الوقف ليطلع عليها رواد البحث فى المسجد ، وقد حرص الأعلام من أسرة الجارم على أن يقدموها إلى المسجد العتيق الذى طالما كان يؤم المصلين فيه آباؤهم وأجدادهم ، ويخطبون ويدرسون وبهذا صانوا تراث رشيد فى رشيد .

ويقوم مركز الثقافة بدمنهور بنشاط ملحوظ فى نشر الوعى القومى بكل وسائل الإعلام : السينما والمسرح ، والندوات والمحاضرات والمؤتمرات الشعبية والقوميه والمعارض ، وهو لايقصر نشاطه على دمنهور بل يجعل من دمنهور مركز إشعاع ثقافى فى جميع أرجاء البحيرة وما جاورها ، فى الإسكندرية وكفر الشيخ ومديرية التحرير والصحراء الغربية .

وفى هذا العام انتقلت قافلة الثقافة إلى قرية جواد حسنى وقرية جناكليس ، وشهد التجربة بدعوة من محافظ البحيرة كل من السادة محافظى الدقهلية وكفر الشيخ ووفد الصداقة اليوغوسلافى ، وكانت القـافلة تحت إشراف الأستـاذ عبد المنعم الصاوى وكيل وزارة الثقافة .

وفى المعركة القومية التى دارت بين الفـلاحين وآفات القطن ، قام المركز الثقافى بدوره فى توعية الفلاحين بما يجب اتباعه نحو مكافحة هذه الآفات .

ولم تعرف البحيرة - فيما قبل الثورة - المتاحف المحلية ، حتى سنة ١٩٥٩ ،



متحف رشيد القومى

ففى هذه السنة زار الرئيس جمال عبد الناصر مدينـــة رشيد ، وافتتح بها أول متحف قومى أقيم بإحدى الدور الأثرية التى شيدت فى العصر العثمانى ، واشتمل هذا المتحف على آثار رشيد من شتى العصور : وفى هذه السنة قام المركز الثقافى بإنشاء متحف إقليمى بدمنهور يشتمل على تراث البحيرة ، ومعاركها وأبطالهـا وذلك بمناسبة الحفلات القومية بالعيد العاشر للثورة ، ثورة الحرية والثقافة .

هذا وتقوم مديرية التربية والتعليم فى « الثورة الثقـافية » بدور إيجـــابى خلاق إلى جانب رسالتها التعليمية ، إذ يغص نادى المعلمـــين والمساجد ودور السينما ، والساحات والحدائق والأندية بمحاضرات وندوات تنظمها اللجنة العليا للتعبئة القومية بدمنهور ، وتوزعها أحيانا على المراكز الإدارية ، وتتغلغل فى القرى والـكفور القريب منها والبعيد .

وعلى ذلك زحفت الثورة الثقافية فى هذه السنوات العشر نحو البحيرة زحفا منظما ، فأوصلت موائد المعرفة إلى المحرومين منها زمناً طويلا ، وهيأت لهم كل أسباب الثقافة ، وانتقل كبار المفـكرين من القـــاهره إلى دمنهور بدعوة من الأجهزة الثقافية ، لإفادة المواطنين بالبحيرة بخبراتهم وآرائهم فى جميع ضروب المعرفة .

ولن ينسى التاريخ ماقامت به « قهوة المسيرى » من دور خطير فى إنعاش الحركة الفـكرية ، حتى أصبح الأدباء فى البحيرة يجدون من العســـير عليهم أن يتخلفوا عن حلقات هذه القهوة التى كان محورها الأديب الشعبى عبد المعطى المسيرى ، وقد استطاع أن يمضى فى طريقه حتى تـكونت فى محـــافظة البحيرة « جمعية الأدباء » وقد نشأ فيها الـكثيرون من الأدباء المحدثين ، فوصلوا إلى القمة فى فترة وجيزة .

ولأبناء البحيرة فى ميدان التأليف ثروة ضخمة سواء فى الماضى أو الحاضر : أما فى الماضى ، فإن معظم ماتركوه ـ كما شهدنا ذلك فى « أعلام البحيرة » لايزال مخطوطا ومتناثرا بين المـكتبات المصرية والسورية والأوروبية ولعل السيد وجيه أباظه يلحظ برعايته المعهودة هذا التراث ، فيأمر بتشكيل لجنـــة لنشره والإفادة منه ، ولاسيما أنه يولى المؤلفات التى يقوم بها أبناء المحافظة كل عطف

واهتمام، وليس أدل على ذلك من شموله كتاب « إقليم البحيرة » هذا برعايته وكذلك كتاب « الإدارة المحلية فى مصر » .

وعلى أية حال فإنه قد آن الأوان لأن ننشىء فى مكتبة دمنهور العامة جناحا خاصا يضم جميع ما كتبه أبناء البحيرة القدامى منهم والمعاصرون وأن ننقل صورا شمسية لمخطوطاتهم المبعثرة تمهيدا لطبعها ونشرها من جديد .

وأن نتابع جهود المعاصرين سواء فى مؤلفاتهم العلمية والأدبية ونشاطهم الصحافى وكذلك الرسائل الجامعية المؤلفة عن الإقليم كله أو بعضه بالعربية وغير العربية .

وسيتوفر لدينا من وراء ذلك كله عمل ضخم يعتبر القيام به من صميم رسالة الإدارة المحلية ، كما يعتبر استجابة طبيعية للثورة الثقافية التى حمل لواءها مهندس ثورتنا ، ورائد نهضتنا الرئيس جمال عبد الناصر .

الإسكان الاقتصادى

وهو من أبرز محاسن الثورة على المواطنين ولاسيما محدودى الدخل ، وقد حظيت البحيرة منه بنصيب كبير ، كما يتضح ذلك مما يأتى

دمنهور : تم بها إنشاء ٨٠ مسكنا ، ويتم قريبا ١٨٢ أخرى .

كفر الدوار : » » ٣٢ مسكنا ، ويتم قريبا ٦٤ أخرى

أبو حمص : » » ٢٤ مسكنا ، ويتم تقريبا ١٦ أخرى

أبو المطامير : تم بها إنشاء ٢٤ مسكنا ، ويتم قريبا أدوار علويه بها

المحموديه ، » » ٢٤ » » » » » »

رشيد : » » ٢٤ » » » » » »

شبراخيت : » » » » » » » »

كوم حماده: (وكذلك)

الدلنجات: » » » » » » » » »

حوش عيسى: » » » » » » » » »

على أن مجموع المساكن التى ستقام فوق العمارات السكنية فى الثمـــانى مدن السابقة يبلغ ٣٢ مسكنا كأدوار علوية ، كما أن إدكو يخصهـــا من المساكن الاقتصادية فى هذا العام ١٦ مسكنا .

أما المساكن الريفية التى أنشأتها المحافظة فى مناطق الإصلاح الزراعى فقد وزعت على مديرية التحرير والنوبارية وإدكو والخزان وأبو المطامير والبصيلى والطريق الصحراوى وبلغت تكاليفها ٧٧٢ ألف جنيه.

هذا وقد وضعت المحافظة فى اعتبارها أن دمنهور تكتظ بسكانها ، وأن آلاف الطلبة يفدون على المدارس بها من الأرياف فلا يجدون المساكن التى تناسبهم صحيا واجتماعياً ، لهذا أنشأت للطلبة مسكنا يتسع لمائتى طالب وآخر يتسع لمائة طالبة ، وجعلت الاشتراك الشهرى ثلاثة جنيهات أجرا للسكن والمأكل والمشرب بعد أن هيأت لهم كافة أسباب الراحة والترفيه والهدوء وبهذا كانت البحيرة أسبق المحافظات فى هذا المضمار .

أما العزب الصغيرة فقد حظيت هى الأخرى برعاية المحافظة ، نظرا لوقوعها على جانبي الطريق السريع : الإسكندرية ـ القاهره ، فقامت المحافظة بتحسين أربع عزب ، وأصلحت مساكنها ، ووزعتها على أصحابها فى ١٤ مارس سنة ١٩٦٢ ، وذلك على النحو الآتى :

١ ـ عزبة منشأة ناصر عزبة حزيمه وصالحه

وأنشىء بها ٤٠ مسكنا ، و ١ مدرسة ، و ١ مسجد ، و ٤٠ حظيرة للمواشى . ويتراوح المسكن بين حجرتين وثلاث حجرات .

٢ – عزبة قزقر

وأنشيء بها ٤٠ مسكن من ذوات الحجرتين و ٤٠ حظيرة للمواشى .

٣ – عزبة صفط الحرية (عزبة صفط الملوك سابقا)

وأنشيء بها ٢٠ مسكنا من حجرتين و ١١ دكانا ، ومقصف واحد .

٤ – عزبة الموركى :

وأنشيء بها ٤٢ مسكنـا ، وسيتم إنشـاء حظـائر المواشى قريبـا . وقد تكامل مشروع تحسين هذه القرى بأكثر من ٤٠ ألف جنيه

وقد أصبح من المألوف الآن فى خلال السنوات العشر الماضية ، أن يكون بين المواطنين وعيد الثورة موعد فى كل عام ؛ فيشرق عليهم كل عيد بمنشآت جديدة ، ومكاسب اشتراكية ، من ذلك مثلا هذه المساكن والعمارات التى ستفتتح فى العيد العاشر للثورة فى البحيرة :

١ – دمنهور : ٣٢ عمارة ٢ – شبراخيت : ٢ ٣ – إيتاى البارود : ١ ٤ – رشيد : ٢ ٥ – كوم حماده : ٢

٦ – الدلنجات : ٢ ٧ – حوش عيسى ٢ ٨ – أبو المطامير : ٢

ولما كان قوام المعيشة فى البحيرة هو الزراعة فقد نالت المنشآت الزراعية أوفر حظ منها ، وزعت على جميع المراكز بالقسطاس المستقيم

١ – **وحدات مكافحة الآفات :**

١٨ فى قراقص وكوم الطرفاية وسنباده ودفشو وصفط ونكلا العنب وكوم حماده وخربتا وحوش عيسى وأبو المطامير وكوم زمران ودمنهور وكفر الدوار ورشيد وإيتاى البارود وشبراخيت والمحمودية والدلنجات

٢ – **حظائر المواشى :**

أقيمت حظائر لأغنام المارينو بوحدة سيدى غازى

٣ – **الوحدات البيطرية :**

وعددها ٢٣ موزعة كالآتى :

٤ بمركزى أبو حمص وكفر الدوار ، ٤ بمركزى إيتاى البارود وكوم حماده ، ٤ بمركزى حوش عيسى وأبو المطامير ، ٤ بمركزى المحمودية وشبراخيت ، ٢ بمركزى المسين والطود ، ٢ بمركز دمنهور ، ٣ بنواحى شابور وإدفينا ورشيد .

٤ - **مجمع المحاكم :** أقيم مجمع للمحاكم بكوم حمادة .

٥ - **توزيع الكهرباء :** أقيمت محطة لتوزيع الكهرباء بكوم حمادة .

٦ - **منشآت الإصلاح الزراعى :** وقد أتمت المحافظة فعـــلا إنشاء مبانى للإصلاح الزراعى بالمنطقة الرابعة بالنوبارية والطريق الصحراوى ودمنهور ومديرية التحرير وكفر الدوار وأبو حمص وإدكو والبوصيلى ، وكلهـــا افتتحت فى العيد العاشر للثورة .

٧ - **مجلس مـدينة دمنهور :** منذ تحقق نظام مجالس المدن بالمحافظة ، ومجلس مدينة دمنهور - بصفة خاصة - يوالى الجهود لإظهار دمنهور بمظهر الزهرة اليانعة وسط هذه الشبكة الواسعة الأرجاء من الحياة الريفية ، خصوصا وأن دمنهور كانت دائماً ولاتزال كعبة الواردين عليها من شتى المراكز التابعة لهـا ، وقد زاد قدوم الواردين عليها أضعاف ما كان عليه من قبل ولاسيما إلى المحافظة . لهذا قام مجلس مدينة دمنهور بعدة مشروعات وحرص على أن تفتتح جميعاً فى العيد العاشر للثورة وهى :

إنشاء محطة الأتوبيس بحى شبرا وإنشاء زاوية ومكتبة بميدان هذا الحى ، ومزرعة لتربية البط ، ومتنزه للأطفال ، وميناء للسفن النيلية ، ومعرض صناعى وزراعى على الطريق السريع وسوق تجارية فضلا عن إنشاء المدخل الجديد للمدينة والذى أصبح بحق حديث الجميع لا فى البحيرة وحدها بل فى جميع أرجاء الجمهورية ويجب ألا ننسى أن مجلس المدينة قد أصبح هو المشرف على المكتبة العامة التى كانت تابعة للبلدية وإنه لينتظر من هذا الإشراف خير كثير بالنسبة للتشجيع على الاطلاع ، وتزويد المكتبة بالذخائر العلمية ولا سيما المخطوطات والوثائق ذات الصلة بالبحيرة وأبنائها ، كما ينتظر أن تكون هذه المكتبة (الأم)

بمركز إشعاع مكتبى نحو كل وحدة من أكبر قرية إلى أصغر عزبة فى المحافظة حيث تنال من الكتب والصحف والمجلات ماهن شأنه محو الأمية ثم نشر الوعى القومى حتى تحتفل البحيرة قريباً بتعليم آخر أمى من أبنائها. والأمل معقود على السيد رئيس مجلس المدينة الأستاذ الهمشرى الذى يعمـــل فى جد عملا يستحق عليه كل تقدير .

الشئون الاجتماعية

فى أغسطس سنة ١٩٣٩ أنشئت لأول مرة فى تاريخ الحكومة المصرية وزارة جديدة أطلق عليها اسم « وزارة الشئون الاجتماعية » ، وفى سنه ١٩٥٣ بدأ تنفيذ نظام المناطق الإقليمية لهذه الوزارة فى القاهرة والإسكندرية والقليوبية والجيزة , ثم اعتباراً من سنة ١٩٥٤ عممت هذه المناطق وقامت منطقة البحيرة بواجبها فى نطاق الفروع أى المصالح التى انقسمت إليها وهى: الخدمات الاجتماعية والعمل والتعاون والفلاح والضمان الاجتماعى ، ولما اتسع نطاق هذه الوزارة إزاء التوسعات الاجتماعية التى وضعت الثورة دعائمها ـ أنشئت وزارة جديدة سنة ١٩٦٢ باسم « وزارة العمل » أصبح لها فى البحيرة أيضاً منطقة . وفيما يلى مظاهر نشاط الشئون الاجتماعية فى البحيرة فى خلال السنوات العشر الماضية :

١ ـ سنة ١٩٥٣ أنشىء المعرض الدائم للصناعات الريفية البيئية بدمنهور ولايزال قائماً إلى اليوم ، ويشتمل على منتجات المحافظة ، وقد نجح فى تسويقها وبذلك عمت المنفعة الجهات المنتجة من أفراد ومدارس وملاجىء ومؤسسات وهيئات اجتماعية .

٢ ـ سنة ١٩٥٥ أنشئت خمس دور للحضانة فى بستنواى وديروط وسرنباى وصفط العنب ودسونس أم دينار ودمنهور .

٣ ـ سنة ١٩٥٥ تكونت جمعية السيدات بدمنهور كان من أبرز نشاطها إنشاء المشاغل وتعميمها ، وبذلك سبقت البحيرة جميع المناطق فى هذا النشاط النسائى الاجتماعى النافع .

٤ ـ سنة ١٩٥٣ عمت الصناعات الريفية جميع المراكز الاجتماعية وعددها ١٨

وهى : دسونس أم دينـار ـ صفط العنب ـ كفر بولين ـ شابور ـ ششت الأنعام ـ محلة عبيد ـ أسمانيه ـ أرمانيه ـ منشاة بلبع ـ النجيلة ـ زاويه صقر ـ بسنتواى ـ البرنوجى ـ سرنباى ـ ديروط .

والمعروف أن هذه المراكز الاجتماعيه قد تحولت إلى وحدات مجمعة ، كما أن هذه الصناعات قد شملت أربع جمعيات أخرى للإصلاح الريفى فى القرى والعزب التى تقع بين كل اثنين من المراكز الاجتماعيه .

٥ ـ فى سنة ١٩٠٢ أنشئت بدمنهور ساحة شعبية واحدة فلما قامت الثورة ، عملت الشئون الاجتماعية على تطويرها فأدخلت الأشغال الفنية واليدويه بها فزاد إقبال روادها من فتيان وفتيات ، كما أنشئت ساحه أخرى سنه ١٩٥٦ وأنشىء بها حمام للسباحة .

٦ ـ سنه ١٩٥٥ نفذ مشروع تدريب المكفوفين والمكفوفات فى مختلف الأعمار على الصناعات اليدوية فى (ديروط) وتم تسويق منتجاتهم من المكانس والسلال والمنسوجات اليدويه وأدوات النظافه وغيرها .

٧ ـ سنة ١٩٥٧ أنشىء فى رشيد مركز صناعى لتجفيف السمك وصناعة شباك الصيد وصناعة السلال والأقفاص مما يستمد مواده الخام من البيئة .

وفى العيد العاشر للثورة تحتفل البحيرة بإنشاء اثنين من الأنديه الريفية أحدهما بدسونس أم دينار والآخر بصفط العنب ومركز للتأهيل المهنى للعاجزين بدمنهور ووحدة اجتماعيه بالمحموديه وأخرى بقومبانية أبو قير .

هذا وقد قامت المحافظة بإنشاء ست وحدات مجمعه فى الكوم الأخضر وكوم البصل (قريه الشهيد جواد حسنى) ومحلة بشر وزاوية غزال ودمسنا ومحلة الأمير ، فضلا عن الوحدات الخمسه عشر الموجودة بالمحافظة فعلا موزعه على أنحاء المحافظة .

وبالمحافظه الآن اثنتا عشرة ساحه شعبيه ، وستنشىء اثنتين أخريين بحوش عيسى ورشيد وأسهمت المحافظه فى تكاليفها .

وفى هذا العيد أيضا يتم إنشاء سته مراكز لرعايه الأمومه والطفوله فى

المحموديه والدلنجات وأبو المطامير وشبراخيت وإيتاى البارود وأبو حمص ويتكلف كل مركز سبعة آلاف من الجنيهات .

مشروعات اخرى : ومن مشروعات هيئة السنوات الخمس فى المحافظة

٢ - إنشاء وحدة للسجاد والكليم : بالوفائية وتتكلف ٥٥ ٧ ج

١ - « « للنسج الحرير والقطن : بإدكو « ٩٤٠٠ «

٣ - « « تدريبية للصباغة والتجهيز : بإدكو « ٩١٧٩ «

٤ - « مجموعة للصيانة : بدمنهور « ٣٠٠٤١ «

٥ - « ثلاثة مراكز لرفع المياه بأنحاء مختلفة من المحافظة لتقوية محطات المياه . وتتكلف ٣٦ ألف جنيه .

٦ - إنشاء ٦ نقط مرور على الطريق الحديث تتكون كل نقطة من حجرة ودورة مياه ومزودة بالكهرباء والماء وأحدث أجهزة الاتصال وتتكلف كل منها : ٣٥٠ جنيها .

النشاط الدينى

تعنى محافظة البحيرة بنشر الوعى الدينى ، وظهرت معالم هذه العناية فى إصلاح المساجد وتجديد دورتها والإكثار منها ، وشجعت الأهالى على البذل فى سبيل ذلك ، ولعل فى تجديد (جامع التوبة) بدمنهور على النحو الرائع الذى أنشىء عليه أكبر دليل على ذلك فى عهد الثورة المباركة ، أما القرى الحديثة التى أنشأتها المحافظة فقد تضمنت فى منشآتها مسجدا على طراز حديث يتميز بالبساطة والنظافة .

كما أن المحافظة افتتحت لأول مرة معهدا للقراءات فى ٢٢ مارس سنة ١٩٦٢ ألحق بالمعهد الدينى ، ويعتبر المعهد الثانى بعد معهد القاهرة ، وقد تبرع الأهالى له بمبلغ أربعمائة جنيه وأسهمت المحافظة بمبلغ خمسمائة جنيه . ووضعت المحافظة فى اعتبارها إنشاء مبنى خاص لهذا المعهد مستقبلا .

وفى شهر رمضان سنة ١٣٨٠ (١٩٦٢) وزعت المحافظة مبلغ ستمائة جنيه تشجيعا منها للمتفوقين فى حفظ القرآن الكريم ، وقد شمل السيد المحافظ أئمة

المساجد وخطباءها بعطفه وعمل على إنصافهم بعد أن طال عليهم الأمد وهم فى حالة يرثى لها من حيث المرتبات .

ويحرص السيد المحافظ شخصيا على اعتبار بيوت العبادة مراكز إشعاع ثقافى للمواطنين . وفى أحاديثه المتوالية فى المناسبات القومية أخذ يؤكد هذه الفكرة ، فأكثر من الاجتماعات بالمواطنين فى المساجد حيث يستمع إليهم ويستمعون إليه .

وفى ظل اشتراكيتنا الإسلامية ، جدد أهالى إدكو بمدينتهم مساجد الحصانى وتاج الدين والشبلي والجبرتى ، كما أنشأوا مساجد صغيرة أخرى كل ذلك من تبرعاتهم دون أن يكلفوا خزانة الدولة شيئا .

السياحة والاصطياف

تملك محافظة البحيرة من الإمكانيات والمظاهر الطبيعية والمعالم الأثرية والعوامل الجغرافية ما من شأنه اعتبارها منطقة هامة تجذب السياح والمصطافين إليها : لأن حدودها الشمالية امتداد طبيعى للإسكندرية الممتازة بمصايفها الشرقية التى من أهمها سيدى بشر ثم أبوقير التى اقتطعت من البحيرة وضمت إلى الإسكندرية وامتدت إليها يد الإصلاح والرعاية فى ظل الثورة فأصبحت مقصد عشاق الهدوء والجمال صيفا وشتاء

وفى الحق أنه لم يكن منتظرا من البحيرة بعد أن أصبحت محافظة أن تعنى بقطاع السياحة والاصطياف ، فى حين أنها لاتزال بسبيل تحقيق « الضرورى » قبل « الكمالى » . ومع ذلك فان الهمة المعروفة عن وجيه أباظه قد حدت به إلى موالاة هذا المشروع بعنايته قبل الأوان . ففى شهر يونيه سنه ١٩٦٢ افتتح الطريق السياحى الممتد من إدكو إلى شاطىء البحر وبلغ طوله ثلاث كيلو مترات انتهى العمل منه فى خمسة عشر يوما ، أسهم فيه الأهلون بالتنازل عن الاراضى المملوكة لهم التى شقها الطريق ، وأسهم شباب الجامعات والمعاهد والمدارس والعمال من أبناء إدكو فى إنجازه بهذه السرعة حتى تحقق الحلم المزمن الذى كان يداعب خيال كل إدكاوى منذ خمسين سنة .

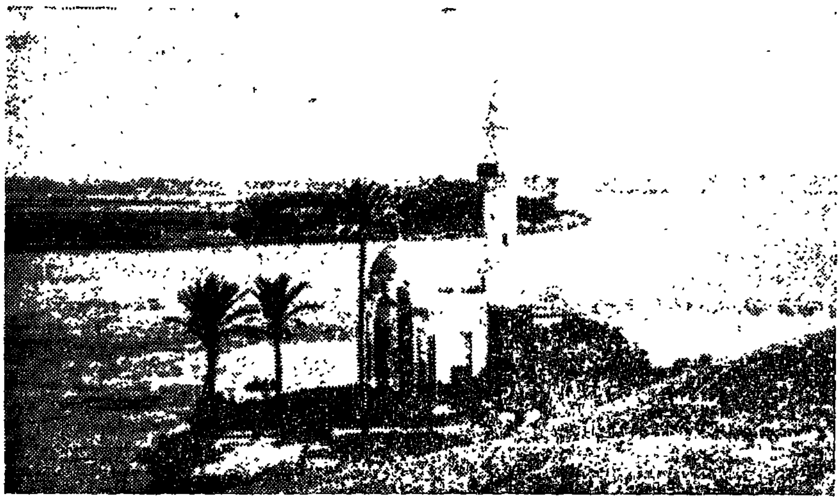
وهذا الطريق سيربط البحر والبحيرة ، ويسهل على الأهلين الانتقال وسط الرمال إلى ميناء إدكو الجديد والذى سيحقق عمليا ماتقرؤه فى المراجع التاريخية القديمة عن « ثغر إدكو المحروس » ، وسيكون من شأنه إنعاش المدينة من حيث الصيد والزراعة فضلا عن تشجيع الاصطياف فى أقرب فرصة ممكنة ، فسينشىء الأهالى ومجلس المدينة أكشاك الاصطياف . وكازينوهات على الشاطىء .

وعلى هذا ستصبح مدينة إدكو أول منطقة سياحية فى محافظة البحيرة على أثر هذا الطريق ، وسيعنى مجلس المدينة بطبيعة الحال بإنشاء متحف قومى ، والعناية بالآثار القديمة الموفورة فى إدكو وما حولها ، وخصوصا أن ادكو إحدى ثمانى عشرة مدينة وقع عليها الاختيار لإدخال الكهرباء فيها لأول مرة وذلك فى العيد العاشر للثورة . كما أنها إحدى المدن السبعين التى تقرر إعادة تخطيطها وتنسيقها على أحدث النظم التخطيطية للمدن .

ولاشك أن (معبد الهرقليوم) و(المعدية) و(أبو منضور) و(رشيد) و(الحماد) و (برج مغيزل) ، و (قلعة رشيد) و (وكفر الدوار) و (دمنهور) و (كوم جعيف) و (كوم نربن) و (نقراش) كل هذه أماكن تاريخية سياحية ، لمس القارىء أمجادها فى فصول هذا الكتاب ، وتستحق العناية من مجلس المحافظة ومجالس المدن والمجالس القروية لتضع جميعا نصب عينيها العناية بإعدادها لتكون نقط ارتكاز سياحية ومن المؤكد أن السيد الدكتور عبد القادر حاتم وزير الدولة خير من يشجع على هذه النهضة السياحية والاصطيافية التى يهتم بها السيد وجيه أباظة .

ويجب أن نشير إلى أن السياحة الداخلية لها أهميتها الكبرى فى هذا المشروع ، فإن الرحلات التى يقوم بها الطلبة والعمال والموظفون وضيوفنا صيفا وشتاء إلى الإسكندرية والقاهرة والأقصر وأسوان يجب أن تكون من بينها زيارة (أبومنضور) وموقعه الساحر على ضفة النيل الصافى وسط الرمال الناعمة ، وكذلك يجب العمل على وضع برامج تفصيلية لزيارة وادى النطرون ومديرية التحرير ومناطق البصيلى وإدكو والمعدية وأبيس وإدفينا ، مع العناية بإنشاء الكازينوهات

والمتاحف القومية وسباق الزوارق فى بحيرة إدكو ، والمباريات المتعدده فى كل مكان بالمحافظة تساعده إمكانياته على ذلك .



مسجد أبو مندور على شاطىء النيل

ولعل تحسين مدخل دمنهور ، وإنشاء الاستاد ، وتحسين القرى الواقعة عند مدخل المدينة ، يعتبر بدء انطلاقة ثورية هائلة نحو خلق مناطق سياحية داخلية وخارجية بالبحيرة وإحالة بعضها إلى مشاتى ومصايف تجـذب أنظار المواطنين والأجانب على السواء .

وليس أدل على المزايا السياحية التى تتمتع بها البحيرة من أن (والتر وانجر) منتج فيلم (كليوباترة) قد وقع اختياره على رمال إدكو ونخيلها لالتقاط المناظر الرئيسية للفيلم الذى بدأ تصويره فى (نابلى) وينتهى فى (إدكو) .

هناك على هذه الرمال وبين النخيل بإدكو اشتبكت جيوش (أنطونيوس) و (قيصر) .

وقريبا من إدكو .. وعلى شاطىء أبو قير .. يتم التقاط منظر أنطونيوس وهو يتجرع غصص الهزيمة فى وقعة (أكتيوم) سنة ٣١ ق.م .

وهكذا يعيد التاريخ نفسه .. ويكتشف المنتجون العالميون للسينما من البحيرة مايعيد ذكريات كفاحها العريق وعلى أرضها .

وقد تحدث الكاتب الفنان كال الملاخ (١) عن الاستعدادات الهائلة التى تجرى فى إدكو الآن مما جعلها أشبه بخلية نحل ، كما أن الطريق إلى البحر قد تم رصفه لهذا الغرض ، وبلغت تكاليف لقطات إدكو وأبو قير وحدهما مليونين من الدولارات .

النهضة الصناعية

قلنا إن الظروف المتعددة قد ساعدت على قيام نهضة صناعية ممتازة فى (البحيرة) : سهولة المواصلات ، ملائمة الجو . وفرة الأيدى العاملة . القرب من ميناء الإسكندرية . وهكذا .

وتمتاز محافظة البحيرة بكثرة المصانع العملاقة فيها ، تلك المصانع التى تقف فى مصاف المصانع العالمية ، وإذا كانت قد أنشئت فيما قبل الثورة ، إلا أنها قد تحولت على يد الثورة من إقطاع واحتكار وسيطرة إلى اشتراكية وتعاونية وعدالة وعلى رأس هذه المصانع :

١ ـ **مصانع الحرير الصناعى** : بكفر الدوار وهى إحدى شركات مؤسسة مصر . وقد أنشئت عام ١٩٤٦ برأسمال قدره مليون ونصف جنيه زيد حتى بلغ ثلاثة ملايين ، وهى تزود الأسواق بالألياف الصناعية وورق المصروفان (سيلوفان) والخيوط الحريرية ، ومنذ سنه ١٩٥٨ أنتجت الخيوط والألياف التركيبية (النايلون) وأخيرا أنتجت خيوط النايلون المطاطة (هيلانكا) .

وقد استطاعت الإدارة الحازمة التى تشرف على هذه المصانع من توفير العملات الأجنبية لدعم اقتصادنا القومى ، فأمكن تحقيق الاكتفاء الذاتى لصناعة غزل ونسيج الحرير مما وفر على الدولة دفع مبالغ طائلة ثمنا للواردات ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى أمكن بتصدير الفائض من الإنتاج الحصول على فائض من العملات الأجنبية .

وشيدت الشركة أيضا مصانع لإنتاج حامض الكبريتيك وثانى كبريتور

---

(١) الأهرام فى ١٩ يوليو ١٩٦٢ .

الكربون وأقامت محطتين للمياه والكهرباء لتزويد المصانع والمساكن بما يلزمها منها .

وكان عدد العمال والموظفين ٢١٦١ سنة ١٩٥١ فزاد إلى ٣٥٨٨ سنة ١٩٦١ كما ارتفع أجر العامل فى اليوم من ٣٠٠ مليما إلى ٥٣٠ مليما . وفى ظل القوانين الاشتراكية الجديدة وفرت الشركة شتى الخدمات للعمال والموظفين من النواحى الصحية بإنشاء المساكن للعمال والموظفين ، وتيسير المواصلات لهم إذا كانوا يسكنون الإسكندرية بلا مقابل ، كما شجعت على تكوين جمعيات مختلفة للهواة وعشاق الفنون وذوى النشاط الرياضى والاجتماعى .

ومن سنة ١٩٥٨ تدرج الإنتاج هكذا : الورق الشفاف المانع للرطوبة (مصروفان) ثم خيوط النايلون (مصر نايلون) وفبران النايلون (مصريلون) والخطوط المطاطة ، وقريباً يبدأ إنتاج خيوط وأقمشة إطارات السيارات والألياف الصناعية المستحدثة ومن سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٦١ كان الإنتاج يزداد باستمرار على نحو يبشر بمستقبل رائع لهذه الصناعة .

٢ — **مصانع كفر الدوار للغزل والنسيج** : أنشئت فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٨ برأس مال قدره ٢٥٠ ألف جنيه ، ثم ارتفع رأس المال تباعا حتى بلغ مليونين من الجنيهات لإنتاج الغزل الرفيع ومنسوجاته من القطن المصرى .

وأقيمت هذه المصانع على مساحة مائتى فدان من الأراضى الواقعة فى جوار كفر الدوار ، ثم اتسعت حتى شملت أربعمائة فدان ، وتخصصت هذه المصانع فى إنتاج الغزل والنسيج الخام ، كما قامت مصانع « صباغى البيضا » بإتمام المرحلة الأولى أى إنتاج الأقمشة وإعدادها للصباغة والتجهيز النهائى .

وظهر أول إنتاج لهذه المصانع سنة ١٩٤٠ أى فى خلال الحرب العالمية الثانية التى حالت دون ورود الأقمشة القطنية من الخارج ، فسدت هذه المصانع حاجيات السوق المحلية وكانت الوحدة الأولى تتكون من أربعين ألف مغزل وألف ومائتى نول وعمل فيها نحو ستة آلاف عامل وموظف .

وفى سنة ١٩٤٤ تم إنشاء الوحدة الثانية وكانت تتكون من ٦١ ألف مغزل

وألف وثلثمائة نول ، وعشرة آلاف مغزل زوى الخيوط . وحققت نجاحا منقطع النظير فراجت منتجاتها وزاد عدد العمال والموظفين على عشرة آلاف حتى سنة ١٩٥٧ وأخذت مصر تصدر إلى الخارج الغزل والأقمشة .

وزاد إقبال الأسواق الخارجية على منتجات كفر الدوار ، ففى سنة ١٩٥٤ بدىء بإنشاء الوحدتين الثالثة والرابعة ، وأمكن إنتاج غزل رفيع جداً للغاية من القطن المصرى . فصار مصنع الغزل الجديد يشتمل على سبعين ألف مغزل ، كما اشتمل مصنع النسيج على ٦٣٢ نولا آليا . زيدت إلى ١٢٠٠ نول إلى جانب مغازل الزوى والأنوال التى بلغت ٣٧٠٠ .

ومنذ سنة ١٩٥٤ اتسعت المبانى وزادت الآلات ، حتى بدأت الوحدتان الثالثة والرابعة إنتاجها سنة ١٩٥٧ ، وأقيمتا على ٢٤ فدانا ، وصارت نسبة صادراتنا ١٥٪ وأصبحت تنافس تسعة عشر بلداً من أعرق البلدان الصناعية فى العالم ، وغزاها إنتاج كفر الدوار .

وفى يوليه سنة ١٩٦١ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر القوانين الاشتراكية الجديدة ، فأشرك العمال والموظفين فى أرباح المصانع بنسبة ٢٥٪ بما فيها الخدمات وبذلك خطت هذه المصانع خطوة هائلة نحو الاشتراكية الصناعية ، وانقطع دابر الإقطاع والاحتكار والتحكم والسيطرة والاستبداد ، فزاد الإنتاج وزادت الأرباح فوزعت على الجميع .

وفى العيد العاشر للثورة وضع حجر الأساس لوحدة بسترة اللبن ، وأخرى لفرز وتدريج الموالح بكفر الدوار ، وأنشئت خمس ثلاجات فى دمنهور وأبو حمص ورشيد والتوفيقية وكوم حماده ، وأربع صوامع غلال بدمنهور وإيتاى البارود ، وكوم حماده ورشيد .

كما دعم مصنع الغزل والنسيج الرفيع بالمحمودية بإنشاء ١٥ ألف مغزل ويتبعها مثلها قريباً ، كما نهض مصنع الكبريت بدمنهور تحت إشراف المحافظة وكذلك مصانع الكروم والكحول فى جناكليس ومصانع الزيوت العطرية .

المعادن : بالبحيرة معادن ذات أهمية فى الصناعة منها : الملح و (الثوريوم) فى الرمال السوداء المنتشرة مابين سواحل رشيد وإدكو وهى من المواد الذرية المشعة وتحتوى هذه الرمال أيضاً على (المايكا) و (الفلسبار) و (الكوارتس) التى تدخل فى صناعة الزجاج . ويتوقع علماؤنا فى القريب العاجل اكتشاف البترول فى شمال الدلتا وخصوصاً شمال البحيرة .

مكتب الاستعلامات

لم يكن بالبحيرة قبل الثورة أية وسيلة للإعلام ، ولما عممت مكاتب الاستعلامات ، خص محافظة البحيرة مكتب منها مهمته نشر الوعى القومى فى جميع الأوساط ، وتنوير الرأى العام بمجريات الأمور الداخلية والخارجية ، والمساهمة فى جميع حملات الدعاية من دمنهور الى بطون القرى والكفور فى شتى الأمور التى تهم الرأى العام .

الفهرس

رشيد تدخل التاريخ . . فريزر ينتقم . . الطريق إلى المعركة .. تيجان النصر على جبين الحماد .. حديث معركة الحماد .. ثمار النصر فى رشيد والحماد .. فضائح محمد على فى البحيرة .. حوش عيسى تتحدى الباشا .. مين زى العسكر فى الطوابى الله ينصرك ياعرابى .. إلى كفر الدوار ياعرابى .. مناوشات على حدود كفر الدوار .. كفر الدوار تنسف قطارات الإنجليز .. البحيرة وثورة سنة ١٩١٩ .

٤٥٧ : ٦ — __اعلام البحيرة فى موكب النور__ : بحيرى وبحراوى .. أعلام دمنهور .. أعلام رشيد .. أعلام إدكو .. أعلام إخنا .. أعلام الحماد .. أعلام الجدية .. أعلام لقانة .. أعلام تروجة .. أعلام برج مغيزل .. أعلام بلقطر .. أعلام سنهور .. أعلام شبراخيت .. أعلام اليهودية (الوفائية) أعلام أبو خراش .. أعلام محلة بشر .. أعلام كفر العيص .. أعلام العطف (المحمودية) .. أعلام البساقون .. أعلام معينة (عزبة الحرمل) .. أعلام إيتيا البارود .. أعلام زاوية أبو شوشه .. أعلام الدلنجات .. أعلام إفلاقة .. أعلام خربتا وشرنوب .. أعلام برنبال .. أعلام مريوط .. أعلام الكريون أعلام مطوبس .. أعلام الرحمانية .. أعلام محلة نصر .. أعلام جنبواى .. أعلام أبو الخاوى .. أعلام إيتاى البارود .. أعلام العساكرة .. أعلام قبور الأمراء .. أعلام بيبان .. أعلام سماديس .. أعلام كفر مستنان .. أعلام النشو البحرى .. أعلام إشليم .. أعلام شابور .. أعلام درشابة .. أعلام أبو درة أعلام أبوقير .. أعلام فرنوى .. أعلام ديروط .. أعلام قراقص .. استدراك .

٦١٨ : ٧ — __البحيرة والثورة فى عشر سنوات__ : لقاء .. النظام الإدارى .. التوسع العمرانى .. النشاط التعاونى .. ردم ترعة الخندق مركز الشباب (استاد دمنهور) .. النشاط الصحى .. النهضة التعليمية الثقافة : كنوزها

وقصورها . الإسكان الاقتصادى .. الشئون الاجتماعية .. النشاط الدينى ..
السياحة والاصطياف .. النهضة الصناعية .

بحمد الله

تم طبع هذا الكتاب يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٢

المؤلف يرحب بملاحظات السادة القراء واقتراحاتهم وتعليقاتهم على أن تكون المراسلات بهذا

العنوان :

محمد محمود زيتون

دار المعارف بالاسكندرية

ميدان التحرير

مطبعة المصري

٩ شارع ابن زنكي خلف شيكوريل

تليفون ٣٧٤٠٦ اسكندرية

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر ـ شارع كورنيش النيل ـ القاهرة ج٠ع٠م
فرع الاسكندرية ـ ٢ ميدان التحرير